الكتاب التذكاري

للمؤتمر العالمي الرابع

للسيرة والسنة النبوية الشريفة

والمؤتمر العاشر

لمجمع البحوث الإسلامية

تحت رعاية

« الأزهر الشريف »



القاهرة

صفر ١٤٠٦ هـ — نوفمبر ١٩٨٥ م

الكتاب التذكاري

للمؤتمر العالمي الرابع

للسيرة والسنة النبوية الشريفة

والمؤتمر العاشر

لمجمع البحوث الإسلامية

الكتاب التذكاري

للمؤتمر العالمي الرابع

للسيرة والسنة النبوية الشريفة

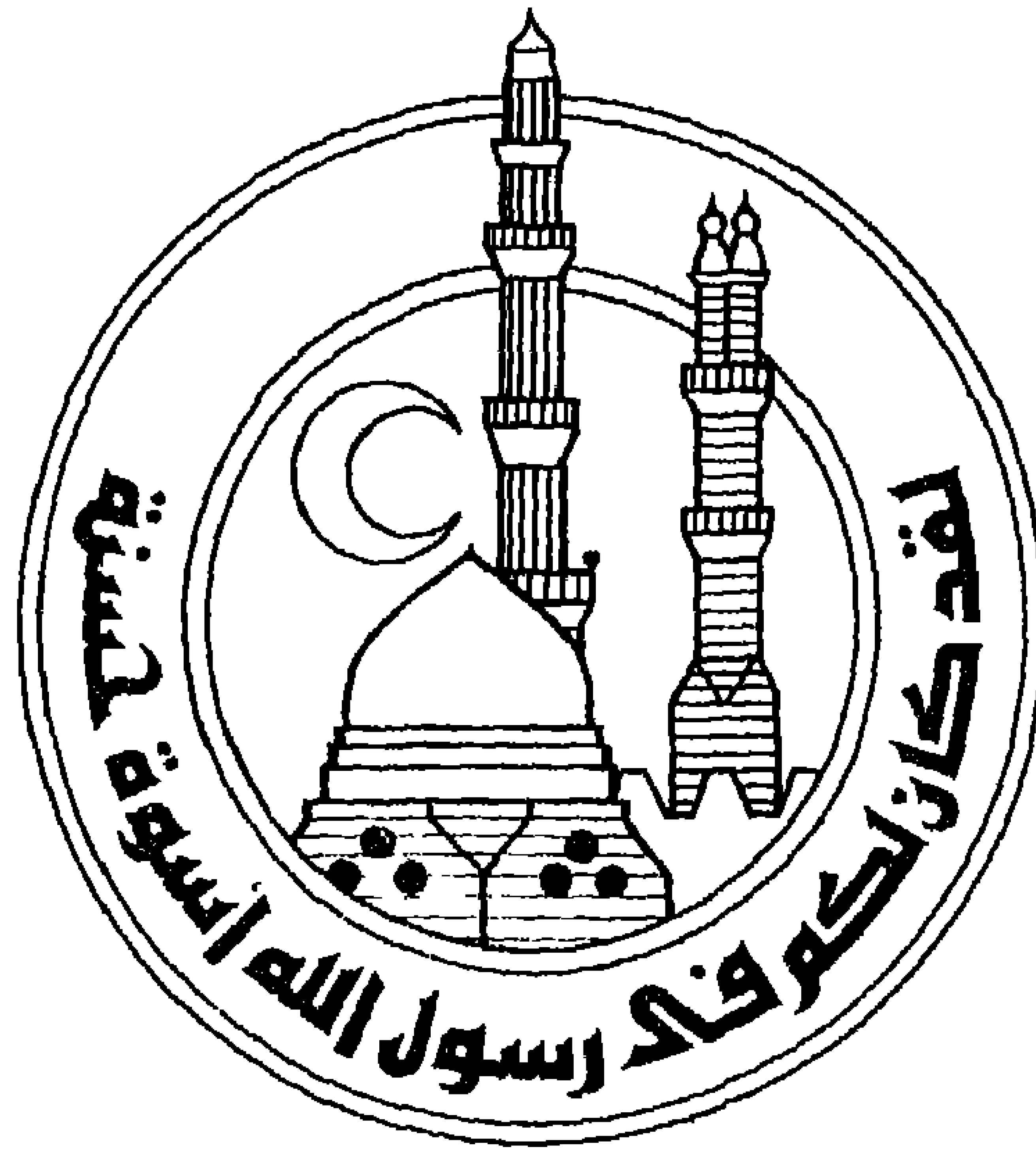
والمؤتمر العاشر

لمجمع البحوث الإسلامية

أعده وراجعه وأشرف عليه

الدكتور عبد الودود ابراهيم شلبي

الأمين العام للجنة العليا للدعوة الإسلامية



القاهرة

صفر ١٤٠٦ هـ — نوفمبر ١٩٨٥ م

شارك فى إعداد هذا الكتاب وتنفيذه

اسماعيل كشميرى

عبد الفتاح الزيات

عبد المنعم فوده

من أعضاء :

الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

- اللهم ربنا ورب كل شيء . . .
أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك
- اللهم ربنا ورب كل شيء . . .
أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك
- اللهم ربنا ورب كل شيء . . .
أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة
- اللهم ربنا ورب كل شيء . . .
اجعلني مخلصًا لك وأهلي
في كل ساعة من الدنيا والآخرة
يا ذا الجلال والإكرام
اسمع واستجب
- الله الأكبر الأكبر.. نور السموات والأرض
- الله الأكبر الأكبر.. حسبي الله ونعم الوكيل

الله الأكبر الأكبر

«من أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم»

محتويات الكتاب



مقدمة

النبوة الجامعة لكل النبوات

فى كانبرا Canberra العاصمة الاسترالية .. قال محدثى ـ وهو مستشرق بريطانى الأصل :

علمت باشتراكك فى المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية الذى تم انعقاده فى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى بمدينة الدوحة عاصمة قطر :

ألا ترى أن مثل هذه المؤتمرات تبدو غريبة على إنسان هذا العصر؟ قلت له مازحا ... :

نحن المسلمين مدينون لكم بهذا الفضل ... فكما تعلم أن لكل فعل ردا مساويا لهذا الفعل فلو كنتم منصفين فى كتاباتكم عن النبى محمد ، ولم تكتبوا بدافع من الحقد والكراهية والتعصب لوفرتم علينا وعليكم مؤنة الجهد الضائع فى دحض هذه الأباطيل والتهم ، وفى فضح هذه الأساليب التى لا تليق بصاحب عقل أو قلم .

إن معظم المستشرقين لا يكتب عن هدى وبصيرة ويتابع اللاحق منهم السابق فى نشر هذه الأكاذيب التى تزرى بصاحبها قبل أن تسىء إلى الحق والحقيقة .

فالاستشراق والتبشير توأمان ولدا فى مهد الحروب الصليبية واستبدلا السيف والخنجر بالقلم والكتاب لنفس الهدف والغاية .

وانصرف صاحبنا معتذرا لارتباطه بموعد ، ولكنه انصراف عن الحق الذى دأب معظم المستشرقين على تشويه وجهه فى صورة النبى محمد .... !

كان الأستاذ العلامة « سليمان الندوى » من القمم الإسلامية التى أضاءت أنوار معرفتها سماء الإسلام فى كل من باكستان والهند .

إنه الرجل الذى اختارته الهند لمخاطبة العالم الإسلامى فى مؤتمرات كثيرة ، فهو الذى رأس وفد الخلافة فى المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى مكة المكرمة ١٣٤٦ هـ وكان أحد أعضاء الوفد الإسلامى الذى سافر إلى لندن وأوربا لإعلان كلمة المسلمين فى القضايا الوطنية وكان واحدا من كبار المفكرين الذين اختارهم ملك أفغانستان الأسبق نادر شاه لتأسيس جامعة إسلامية .... له مصنفات علمية نافعة سارت سير الشمس ومن أبرز أعماله العلمية وأرفعها ذكرا إكماله لكتاب « سيرة النبى » الذى بدأ بتأليفه أستاذه العلامة المحقق « شبلى النعمانى » وهذا الكتاب يعتبر دائرة معارف فى السيرة النبوية وقد نشرت منه ستة مجلدات ضخمة لا يقل كل واحد منها عن سبعمائة صفحة من القطع الكبير . وهذا الكتاب يعتبر من عيون ما ألفه العلماء المسلمون منذ قرون . ومن غرر ما أهداه علماء الهند إلى المكتبة الإسلامية العامة . وقد أثبت المؤلف فى هذا الكتاب إمكان المعجزات وعدم معارضة العلوم العقلية لها . وقد اهتدى بها كثير من المنخدعين بعلوم الأفرنج وضلالاتهم .

فى القسم الأول من هذا الكتاب يتحدث المؤلف عن الصفوة المختارة من البشر .. هؤلاء الذين يحكمون القلوب بالمحبة .. من يكونون ؟ فلاسفة ؟ ملوك وفاتحون ؟ لا .. لا .. لقد خابت آمال البشرية فى كل عطاء لا يباركه الله فى كل إنسان مقفر من فيوض القلب فى كل عقل غريب عن الروح ....

إن يد الأيام قد عبثت « بالراجا أشوكا » » ملك « باتلى ياتر » ولم تبق يد البلى من أوامره وأحكامه إلا صخورا منقوشة وحجارة ميتة ... إن أوامر ملوك « أجين وهستابور » فى دهلى وقتوج أمست أثرا بعد عين .

والملك « حمورابى » من ملوك بابل كان أول من سن القوانين ولكن أين هى أوامره وأحكامه ؟

لقد نسج عليها العنكبوت من زمان طويل . أما تعاليم النبى إبراهيم فما تزال حية فى قلوب المؤمنين .

وأين فرعون ودعواه أنا ربكم الأعلى ؟ لقد أصبحت أضحوكة .. أما نبى الله موسى فانه

يسود القلوب . والقانون الرومانى الذى اعتبر عيسى عليه السلام جانيا خارجا على القانون ؟ لقد خلت عليه القرون تسفيه برياحها .

أما عيسى عليه السلام فلا تزال تعاليمه نورا فى ظلمات الخطوب . وأين أبو جهل ؟ وكسرى الفرس ؟ وقيصر الروم ؟ ... كل أولئك قد طوى الدهر صحائفهم وذهبت جميعا أدراج الرياح أما محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإن حكمه مازال ولن يزال باقيا على الدهر وأوامره نافذة وسنته متبعة فى كل زمان وفى كل مكان ...

لقد عاشت تعاليم الأنبياء لأنهم كانوا قدوة وكانت حياتهم وقفا على تجسيد تعاليمهم فى الفرد والمجتمع والأسرة . وكان رسولنا محمد صلوات الله عليه، هو المثل الأعلى لهذه الحقيقة .

لكن لماذا محمد بالذات هو النبى المختار للاتباع والأسوة ؟

لماذا كان النبى العربى صلى الله عليه وسلم هو وحده المرشح للقيادة ؟ ولماذا كانت نبوته وحدها هى النبوة الكاملة الجامعة .. ؟

ذلك ... لأنه من أجل أن تقتدى بانسان فلابد وأن تعرف كل شىء يتصل بهذا الإنسان كيف نشأ ؟ وكيف عاش ؟ طريقته فى الحياة أسلوبه فى العمل .. نظرته إلى الناس . إيمانه بالدعوة ... وسيلته فى التطبيق . حياته الخاصة . أحواله فى البيت والأسرة . سياسته فى الحكم والحرب والسلام ؟

كم نبى عرف عنه كل ذلك ؟ إنه محمد وحده . لكن ... لماذا ؟

يقول المؤلف :

إن موسى عليه السلام لا نعلم عن حياته حسب الأسفار الخمسة من التوراة إلا قتاله وقيادته فى الحرب . أما النواحى الأخرى من حياته كالحقوق فى أمور الدنيا . والفرائض والواجبات فلا نكاد نعرف عنها إلا القليل النادر ... ومن يحاول أن يقف على ما ينبغى أن ـ تكون عليه العلاقة بين الزوج وزوجه . والوالد وولده . وشروط الصداقة بين الصديقين وشروط الهدنة بين المتحاربين وكيف ينفق المرء أمواله وكيف يعامل الفقراء واليتامى ... ومن يحاول أن يعرف شيئا من كل ذلك . فلن يعرف شيئا . مع أن موسى كان زوجا وأخا وكان له أقارب . وكان نبيا من أولى العزم . وعاش مائة وعشرين سنة .....

وعيسى عليه السلام الذى يبلغ أتباعه قرابة ألف مليون فى العالم ؟ لقد بذل العلامة الفرنسى

« رينان » قصارى جهده ليقف على حياته كاملة ومع كل ذلك لا تزال هذه الحياة سرا مكنونا فى ضمير الزمن لم يبح به بعد ....

إن عيسى عليه السلام عاش فى هذه الدنيا ثلاثا وثلاثين سنة كما يقول الإنجيل وكل ما ذكر عن حياته فى هذه الأناجيل لا يكاد يتجاوز السنوات الثلاث الأخيرة من حياته فنحن لا نعرف عن حياته إلا أنه ولد . وهاجر وأمه إلى مصر وأراه الله آية أو آيتين فى صباه ثم غاب عن الناس وظهر لهم وهو فى الثلاثين من عمره . فنراه قائما يعظ الملاحين وصيادى الأسماك على الشواطئ وفى بعض الربوات . فصحبه جماعة من الحواريين وحاور اليهود وناظرهم فى بعض الأحيان حتى أثاروا عليه الرومان . ورفع أمره إلى محكمة يرأسها قاض من الروم فقضى عليه بالصلب وبعد ثلاثة أيام وجد قبره خاليا من جسده عليه السلام .

هذا ما تقوله الأناجيل عن حياته . ولكن أين قضى عيسى الثلاثين أو الخمس والعشرين سنة على الأقل من حياته ؟ وفيم قضاها ؟ وبأى الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره ؟ إن الدنيا لا تعلم عن كل ذلك شيئا ولن تعلم ، والثلاث السنوات الأخيرة من حياته ماذا نعرف عنها : آيات ومعجزات معدودات . وبعض العظات ثم المحاكمة .. ورفعه بعد ذلك إلى السماء ....

لقد ألقى « باسورث سميث » عضو كلية التثليث فى جامعة اكسفورد ١٩٤٧ محاضرات عن « محمد والإسلام » نقتطف منها هذه العبارات :

نحن لا نعلم من حياة « يسوع » إلا شذرات تتناول جانباً صغيراً من حياته المتنوعة ، ومن ذا الذى يستطيع أن يكشف لنا الستار عن شئون ثلاثين عاما هى تمهيد للثلاثة أعوام الأخيرة من حياته فقط .. وما الذى نعلمه عن أمه ؟ وعن حياته فى بيته ؟ وما الذى نعلمه عن أصحابه الأولين ؟ وعن حواريه وكيف كان يعاملهم ؟ وكيف تدرجت رسالته فى الظهور ؟ وكيف فاجأ الناس بدعوته ، وكم ؟ وكم من أسئلة تجيش فى نفوسنا ولن يستطيع أحد أن يجيب عليها إلى يوم القيامة ؟ .

ويقول سميث :

أما الإسلام فأمره واضح كله . ليس فيه سر مكتوم عن أحد وليس فى حياة نبيه غموض لم يكشف ولا تجد فيما كتب عنه أمورا مبهمة ، ولا أساطير ولا خرافات والأمر كله واضح وضوح النهار كأنه الشمس يرى الناس تحت أشعة نورها كل شىء .

وقد كتب جون ديوى بورت سنة ١٨٧٠ كتابا بالانجليزية فى سيرة النبى جعل عنوانه « اعتذار إلى محمد والقرآن »

APOLOGIZE TO MOHMMAD - AND THE QURAN

يقول فى مقدمة هذا الكتاب :

لا ريب أنه لا يوجد فى الفاتحين والمشرعين من يعرف الناس حياته . وأحواله أكثر تفصيلا وأشمل بيانا مما يعرفون من سيرة محمد « صلى الله عليه وآله وسلم » وأحواله .

يقول العلامة سليمان الندوى : كان الواعظ الذائع الصيت الأستاذ حسن على ـ رحمه الله ـ يصدر فى (PETNA) قبل خمسين عاما مجلة نور الإسلام . وقد قال فى جزء منها :

إن صديقا له من البراهمة قال له :

إنى أرى رسول الإسلام أعظم رجال العالم وأكملهم . فقال له الأستاذ حسن على : وبماذا كان رسول الله عندك أكمل رجال العالم ؟ فقال الرجل الهندوسى : لأنى أرى فيه خصالا لم تجتمع كلها فى رجل واحد وفى آن واحد ... وبهذا الكمال والرقى . والرفعة والسمو ..

لقد كان محمد ملكا دانت له أوطانه بالطاعة ومع ذلك فهو متواضع فى نفسه يرى أنه لا يملك من الأمر شيئا ، وأن الأمر كله بيد ربه . وتراه فى غنى عظيم تأتيه الأموال بالخزائن إلى عاصمة ملكه ويبقى مع ذلك محتاجا ولا توقد فى بيته نار لطهى الطعام ولعدة أيام ، وكثيرا ما يطوى على الجوع . ونراه قائدا عظيما يقود الجند القليل العدد فيقاتل بهم ألوفا من الجند المدجج بالسلاح ويهزمهم شر هزيمة . ونشاهده بطلا شجاعا يصمد وحده لآلاف من أعدائه غير مكترث بهم ، وهو مع ذلك رقيق القلب متعفف عن إراقة قطرة دم ، ونراه مشغولا بجزيرة العرب كلها ، بينما لا يفوته أمر من أمور بيته وأزواجه وأولاده ، ولا أمر من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم . لقد كان إنسانا يهمه أمر العالم كله وهو مع ذلك متبتل إلى الله منقطع عن الدنيا فهو فى الدنيا وليس فيها لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضى الله ، لم ينتقم من أحد قط لذات نفسه ، وكان يدعو لعدوه بالخير . ونراه رسولا حصيفا ونبيا معصوما فى الساعة التى تتصوره فيها فاتحا للبلاد ظافرا بالأمم وإنه ليضطجع على حصير له من خوص ، وينام على وسادة حشوها ليف ... ويعيش أهل بيته فى فاقة فى الوقت الذى تتجمع فيه الغنائم العظيمة فى فناء مسجده ـ فيفرقها على الفقراء والمحتاجين ولا ينال أحد من أهله أو أهل بيته نصف درهم .

فإذا كانت شخصية الرسول العربى هى الشخصية النموذجية الكاملة . وكان ـ بحياته وأقواله وأعماله ـ مثالا يحتذى به فى كل خطوة فأين تقف رسالته من هذا الشمول الجامع ؟ وما هى أبعادها الفكرية والعقدية فى هذا العالم المتصارع ... ؟ يقول المرحوم العلامة سليمان الندوى :

لقد توزعت الدنيا ـ قبل بعثة النبى ـ عقائد باطلة . وأوهام سخيفة . كان أهل كل دين فى أية مملكة فى الممالك يحسبون أن مملكتهم هى الدنيا فقط ... فكان براهمة الهند ومتصوفوها يرون أن بلادهم هى أرض الله المختارة وما خرج عنها فلا نصيب له من رحمة الله ، وكذلك قال « زرادشت » الذى أعلن أن بلاده هى المقدسة دون غيرها من أرض الله . وكذلك ـ قال بنو إسرائيل فهم أساتذة هذا النوع من الادعاء والافتراء والزعم ..

والمسيح عليه السلام أعلن أنه لم يرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة ..... وقد جاء فى الإصحاح السابع من إنجيل مرقس أن امرأة بابنتها روح نجس سمعت به (أى المسيح) فأتت وخرت عند قدميه وكانت المرأة أممية أى من أبناء الأمم غير الإسرائيلية .

فسألته أن ـ يخرج الشيطان من ابنتها ، وأما يسوع فقال لها : دعى البنين أولاً يشبعون لأنه ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين و يطرح للكلاب . فأجابت وقالت : يا سيد والكلاب أيضا تحت المائدة تأكل فتات البنين ، فقال لها : لأجل هذه الكلمة ، اذهبى قد خرج الشيطان من ابنتك .

كانت دعوته عليه السلام إلى بنى اسرائيل . وإلى خرافهم الضالة وفى حديثه مع المرأة الغير إسرائيلية يقرر أن (الخبز) الذى يحمله إنما هو للبنين (الإسرائيليين) أولا ... وإنه لا ينبغى أن يؤخذ خبز البنين و يطرح للكلاب .... ! ! !

ويقول العلامة سليمان الندوى :

إن من أكبر الجرائم التى اقترفتها الأمم ، ولا تزال باقية فى بلاد لم تشرق عليها أنوار الإسلام ، أنهم جعلوا ثراء المال ، ونقاء الدم ، وشرف النسب ، ولون البشرة ، أساس الكرامة ، وسنّوا لذلك من القوانين والشرائع ما يجسد هذه العنصرية البغيضة حسب أهوائهم المختلفة .

فى الهند يعتبر الهنادك كل من عداهم أنجاسا مناكيد . فإن لمسهم لامس من غيرهم أو صافحهم وجب عليهم أن يغتسلوا ويتطهروا من هذا الأجنبى الذى يعتبر فى نظرهم رجسا وقذارة .

وبنو إسرائيل يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباءه وما عداهم من الأمم فهم خدم لهم وعبيد

وأوربا التى ترفع راية الإخاء والتقدم والحضارة تنظر إلى العالم الآخر فى أفريقيا وآسيا نفس هذه النظرة .

فالأبيض هو وحده المثقف ، وهو وحده الإنسان المتقدم ، بل إن بعض البيض يترفع عن الركوب فى قطار يشاركه فيه رجل ملون .

وقد عزلوا الجنس الأسود فى أفريقيا الجنوبية وأمريكا المتحضرة ، فبنوا لهم أحياء منعزلة عن البيض ، ولم تنحصر هذه التفرقة فى الأمور الدنيوية فقط بل تجاوزت ذلك كله إلى دور العبادة فبنوا للبيض كنائس خاصة منفصلة عن كنائس الملونين والسود ...

أما الإسلام فقد محا هذه الفوارق والعصبيات كلها وسوى بين بنى آدم كلهم . وهدم أسوار التفرقة بين الناس من ثراء المال ، ولون البشرة ، وعراقة النسب ... فالناس سواسية كأسنان المشط كلهم من آدم وآدم من تراب . فلا فضل لأبيض على أسود ولا أسود على أبيض إلا بالتقوى وطاعة الله .

* * *

فى خلافة عمر يستأذن رجلان فى الدخول عليه ... بلال ... وأبو سفيان . فيأذن عمر لبلال فى الدخول أولا ... ويقف أبو سفيان على الباب مغيظا . حتى إذا أذن له عمر قال له معاتبا : تسمح لبلال العبد ... وتترك أبا سفيان السيد ؟ فيقول عمر : كان ذلك فى الجاهلية شريعة هبل واللات .. أما فى الإسلام فهيهات .. ثم هيهات ، لقد سبقك بلال إلى الإيمان ... وهذا هو الميزان الذى يقوم به الإنسان أى انسان .. وهذه هى رسالة النبى محمد إلى البشر فى كل زمان ومكان .

وكما يقول إقبال ، حكيم الإسلام والشرق :

لولاك يا رسول الله ....

ولولا جهادك ودعوتك التى وسعت الإنسانية كلها شعوبا وأرضا ...

ولولا دينك الذى آمن به آباؤنا فخرجوا به من حياة الخمول والهوان والعزلة إلى حياة الشرف والطموح ....فأسسوا دولا واسعة ، وفتحوا بلادا شاسعة ...

ولولا هذا الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام .. ومن الانطواء على النفس والحياة القبلية الضيقة إلى فتح العالم ...

لما ارتفعت لنا راية .... ولا سمع بنا أحد من البشر...

ولبقينا فى الصحارى الضيقة نتصارع ونتناحر...

يأكل القوى منا الضعيف... ويظلم الغنى منا الفقير....

طعامنا أفقر طعام... وعيشنا أخس عيش...

نعيش فى عالم من نفوسنا التائهة، وتجاربنا المحدودة... أسماك بركة... وضفادع بئر...

ولكنك يا رسول الله...

ألقيت علينا ضوءا من دينك تفتحت به عيوننا... واتسع به خيالنا...

فخرجنا إلى أرض الله الواسعة نحمل دينه الشامل. ورابطته الجامعة...

وأشعلنا مواهبنا الخامدة... الجامدة...

نحارب الوثنية والشرك... والجهالة والظلم...

فأسسنا هذه الدولة العظمى. ونعمنا ونعم آباؤنا فى ظلها...

وها نحن نقدم إليك تحياتنا...

ونقدم إليك ضريبة الإجلال والتعظيم والحب...

وهى ضريبة نقدمها طوعا واختيارا...

ونعترف بتقصيرنا فى جنب دينك، وتطبيق قانونك

قانون الله....

م الدرديرى

إجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وقضاؤه وفتواه

فضيلة الإمام الأكبر
جاد الحق على جاد الحق
شيخ الأزهر

خطوات البحث

تقديم :

١ ـ الاجتهاد

٢ ـ حجيته

(ا) رأى المعتزلة ومن وافقهم

(ب) رأى الجمهور

(جـ) أدلة الفريقين .

٣ ـ أدلة المانعين للاجتهاد

٤ ـ أدلة المجيزين

٥ ـ مناقشة أدلة المانعين

٦ ـ اجتهاد الرسول

(ا) رأى الأشاعرة والمعتزلة

(ب) رأى الجمهور

* * *

« تقديم »

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداه .

وبعد :

فإن جوانب مهمة من حياة رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ غابت عن كثير من الناس ، وقد يخشون الحديث عنها أو فيها بُعْدًا عن الخوض فى المشتبهات .

مع أن سيرته وسنته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتاب مفتوح لأمته ، بل وللعالمين إلى يوم الدين ينهلون منهما العلم والحكمة ، ويأخذون المعانى الإنسانية التى ترتقى بالإنسان إلى الكمال .

ومن هذه الجوانب ما انبث فيما روى من سيرته وأقواله وأفعاله ومن اجتهاداته فى شئون الحياة الخاصة والعامة ، وفى التشريع لأمته ، وقضائه فى الخصومات ، وفتاويه فيما سئل عنه من مبهمات الأمور .

وسيكون فى الحسبان ـ عندما نعرض لهذه الأمور ـ أن الرسول محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاطبه الله فى القرآن بقوله :

« قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا » (١) .

فهو بشر له كل الخصائص الإنسانية ، ولكن الله اجتباه لرسالته ، واختصه بكل الكمالات ، وباعد بينه وبين مآثم الإنسان ، فهو من بين بنى الإنسان المصطفى لقيادتهم إلى الدين الذى ارتضاه الله لعباده « إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ » (٢) .

وإذا كانت رسالات الرسل لإرشاد أممهم إلى أقوم الطرق لعبادة ربهم وإلى إقامة العدل فيما بينهم وإلى الرقى بإنسانيتهم ، كانت رسالة الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهى الخاتمة كافية ، شافية ، إذ أن ذلك دين القيمة .

● ولدوام واستمرار هذه الرسالة كانت حاكمة على الناس تستوعب بأحكامها كل واقعات الحياة بمعايير أنزلها الله فى كتابه القرآن ، وبينها رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نماذج من القول والفعل والحكمة .

« وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (٣)

ولا بد لاستبانة ما نحن بصدده ، من واقع سيرته وسنته الشريفة أن نقدم بين يدى ذلك : خلاصة ما أصّله العلماء فى اجتهادهم من مفاهيم وقواعد ، نتخذها علامات هادية ، وأضواء كاشفة لاجتهاد رسول الله محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقضائه وفتواه .

١ ـ الاجتهاد :

معناه فى لغة العرب : بذل غاية الجهد فى تحقيق أمر لا يكون إلا بمشقة وكلفة .

وفى اصطلاح علماء أصول الفقه : بذل الفقيه جهده فى استنباط حكم شرعى من دليله ، على وجه ليس بعده مزيد .

ومحله عند هؤلاء العلماء : مالم ينص على حكمه فى الكتاب والسنة ، كما يقع الاجتهاد فيما كان من النصوص ظنى الدلالة ، أو ظنى الثبوت ، أو هما معا ، ويكون كذلك بحثا عن مقاصد

---

(١) الآية ١١٠ خاتمة سورة الكهف .

(٢) من الآية ١٩ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية ٤٤ من سورة النحل .

الشارع فى نصوص قطعية فى ثبوتها ودلالتها مما فيه مساغ للاجتهاد .

٢ ـ حجية الاجتهاد :

لم يختلف العلماء فى حجية الاجتهاد إذا كان متعلقا بالنصوص الشرعية من جهة ثبوتها أو دلالتها ، وعمومها وخصوصها . أو الجزئيات من حيث دخولها فى النص أو عدم دخولها فيه .

أما إذا كان الاجتهاد لمعرفة حكم شرعى فى حادثة لم ينص على حكمها فقد اختلف فيه العلماء :

(أ) حيث ذهب الشيعة وفريق من معتزلة بغداد والنظام والظاهرية إلى أنه ليس بحجة . وفريق من هؤلاء زعم أن الاجتهاد ممنوع شرعا . وآخرون بالغوا فزعموا أنه ممنوع عقلا .

(ب) بينما ذهب جمهور المسلمين إلى أن الاجتهاد : جائز عقلا وشرعا . وعندما تدعو إليه الحاجة يصبح واجبا .

وهذا قول السلف من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وأكثر الفقهاء والمتكلمين .

ولكل من الفريقين أدلته على ما ارتآه .

٣ ـ وقد استدل المانعون للاجتهاد بأدلة[١] منها :

● **أولا ـ** أن نصوص الكتاب والسنة ـ بعموم معانيها ـ كافية تعرف الإنسان ما يحتاجه من أحكام شرعية من غير حاجة إلى اعتماد على الرأى بقياس أو غيره قال تعالى : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ[٢] » .

وقال سبحانه : « مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ »[٣] .

وقالوا إن ما لم يتناوله نص من النصوص يبقى على الإباحة الأصلية عملا بقول الله الكريم : « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا »[٤] .

---

(١) المستصفى للغزالى جـ ٢ ص٢٣٩ ـ ٢٤٠ وأعلام الموقعين لابن القيم جـ١ ص ٢٤٤

(٢) الآية ٨٩ من سورة النحل .

(٣) من الآية ٣٨ من سورة الأنعام ويلاحظ الخلاف فى تفسير لفظ الكتاب فى هذه الآية باللوح المحفوظ أو بالقرآن كما أشار إليه القرطبى فى تفسيره جـ٦ ص ٤٢٠ .

(٤) من الآية ٢٩ سورة البقرة .

وقوله : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ » (١) .

● **ثانيا** ـ إن من النصوص الشرعية ما يدل على عدم الاعتداد بالرأى ، من هذا قوله تعالى :

« فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ » (٢) إذ لم يقل الله ـ فردوه إلى آرائكم ..

وقوله سبحانه : إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا » (٣) لم يقل : بما رأيت أنت .

وروى مالك الأشجعى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « تفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة ، أعظمها فتنة ، قوم يقيسون الدين برأيهم ، يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله » (٤) .

● **ثالثا** ـ أنه أثر عن الكثيرين من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذم القول فى أمر الدين بالرأى ، والاعتماد عليه .

من هذا قول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : « إياكم وأصحاب الرأى فإنهم أعداء السنن أعيتهم أحاديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحفظوها ، فقالوا بالرأى فضلوا ، وأضلوا » .

وقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « من أحدث رأيا ليس فى كتاب الله ولم تمض به سنة عن رسول الله لم يدر على ما هو منه إذا لقى الله » .

وقول على بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ : « لوكان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه » .

وقول ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : « يذهب فقهاؤكم ـ أو علماؤكم ، أو خياركم ـ ويتخذ الناس : رؤساء جهالا يقيسون الأمور برأيهم ، فينهدم الإسلام ويثلم » .

---

(١) الآية ١٠١ من سورة المائدة .

(٢) من الآية ٥٩ من سورة النساء

(٣) الآية ١٠٥ من سورة النساء .

(٤) اعلام الموقعين لابن القيم جـ١ ص ٤٤ ، ٤٥ ، ١٩٨

وقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : «إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ، فمن قال بعد ذلك برأى فلا أدرى ، أفى حسناته يجد ذلك أم فى سيئاته» .

وقول عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : «العلم ثلاثة : كتاب الله الناطق ، وسنة ماضية ، ولا أدرى»[1] .

وفى المرويات مثل أخرى من هذا القبيل .

٤ ـ ولقد استدل المجيزون للاجتهاد ، بل ولوجوبه فى بعض الأحيان بأدلة :[2] منها :

● **أولا** ـ قوله تعالى[3] : **«يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ»** .

فإن المفهوم أن طاعة الله ورسوله اتباع ما علم من نصوص الكتاب والسنة ، أما الرد إلى الله ورسوله عند التنازع فالمراد منه التحذير من اتباع الهوى . ووجوب الرجوع إلى ما شرع الله ورسوله بالبحث عما قد يكون خافيا أو غائبا عن البال من النصوص ، أو بتطبيق القواعد العامة ، بإلحاق الشبيه بالشبيه ، أو التوجه إلى تحقيق المقاصد التى دلت على الاعتداد بها تصرفات الشارع العامة ، إذ كل هذا من باب الرد إلى الله وإلى رسوله[4] .

ولو كان المراد بالرد عند التنازع ، هو ذات ما أمر المسلم بتقديمه من طاعة الله ورسوله لكان الكلام تكرارا خاليا من الفائدة وهو ما يتنزه عنه القرآن الكريم .

● **ثانيا** ـ من السنة ماروى عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أراد أن يبعثه إلى اليمن .

قال له : «كيف تقضى إذا عرض لك القضاء ؟

قال : ـ أقضى بما فى كتاب الله .

قال : فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ .

---

(١) المرجع السابق ص٤٦ ـ ٤٨ ، ص٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ من كتاب مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالنسبة لجلال الدين السيوطى نقلا عن كتب السنة التى أشار إليها فى هذه المواضع .

(٢) المستصفى للغزالى جـ ٢ ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ وأعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ١٧٥ .

(٣) الآية ٥٩ من سورة النساء .

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ٥ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٣ فى تفسير الآية المرقومة .

قال : فبسنة رسول اللهُ صلى الله عليه وسلم ـ قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟ .

قال : أجتهد رأيي ولا آلو.

قال معاذ : فضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدرى ـ وقال : الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضى الله ورسوله »[1]

ومن ذلك أيضا ماروى سعيد بن المسيب عن على بن أبي طالب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال :

قلت يا رسول الله : الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ؟

قال : «اجمعوا له العالمين ـ أو قال : العابدين ـ من المؤمنين ، فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد»[2] .

وهذا الحديث ـ وإن قيل إنه غريب من حديث مالك ، وفى رواته من لا يحتج به ـ مؤداه فى غاية الصحة والصدق ، لأنه دعوة إلى الشورى فى مهام الأمور ، ويؤيده حث القرآن الكريم على ذلك ، وعمل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعمل أصحابه من بعده .

هذا : ورواية العالمين أرجح من راوية العابدين ، لأن الغرض من الاجتماع التشاور للوصول إلى رأى فيما نزل بالناس ، وهذا إنما يكون بذوى العلم والرأى ، دون المتعبدين الذين لا تعنيهم ـ فى الأغلب ـ شئون الناس ، فإن من هؤلاء من تستحب فى الصلاة إمامته ، وقد لا تقبل عند القاضى شهادته ، وقد أثر عن الإمام مالك ـ رحمه الله ـ قوله :

«كم من أخ لى بالمدينة أرجو دعوته ولا أقبل شهادته» .

هذا : وحديث معاذ السابق قال فيه الإمام الغزالى : «تلقته الأمة بالقبول ، ولم يظهر أحد فيه طعنا أو إنكارا ، فلا يقدح فيه كونه مرسلا ، بل لا يجب البحث عن إسناده»[3] .

● **ثالثا** ـ إن الله قد جعل الإسلام خاتم الأديان ، وشريعته صالحة لكل زمان ومكان ، ونصوص الشريعة من القرآن ومن السنة محدودة ، بل ومعدودة ، وحوادث الناس وواقعاتها ،

---

(١) اخرجه ابو داود جـ ٢ ص ١١٦ ـ الترمذى جـ ٦ ص ٦١٦ والدارمى فى سننه ص ٣٤ عن الحارث بن عمرو عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ عن معاذ .

(٢) أعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ٥٣ ، ٥٤ ، وروى الطبرانى مثله فى الأوسط جـ ١ ص ١٧٨ ط مصر سنة ١٣٥٢ هـ . ورجاله رجال الصحيح .

(٣) المستصفى للغزالى جـ ٢ ص ٢٥٤ وأعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ٢٤٣ .

ووسائلهم إلى ما يبتغون غير محدودة ودائما متجددة متزايدة ومتنوعة ، ولا يمكن أن تفى النصوص المحدودة بأحكام الحوادث غير المحدودة . وبالجزئيات التى لا حصر لها إلا إذا كان هناك مجال لتعرف أحكام ما يطرأ من الحوادث بالاجتهاد فى قياسها على نظائرها ، أو توجيهها إلى تحقيق المصالح التى ترمى إليها الشريعة .

هذا ما يقول به العقل السليم ، إذ لو قيل بغير ذلك لفقدت الشريعة صلاحيتها لكل زمان وكل مكان . ولم يكن لعمومها من مضمون .

ويؤيد هؤلاء أيضا ماروى من اجتهاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وأَمْره أصحابه بالاجتهاد وإقراره ماصح من اجتهادهم على ما سنبين فيما بعد .

٥ ـ لا حجة لمانعى الاجتهاد فيما استدلوا به :

(أ) ذلك : لأن الآيات التى ادعوا أنها تدل على شمول القرآن الكريم لكل الحوادث والواقعات ماكان وما سيكون . ليست كما زعموا . إذ المراد بها : أن القرآن مشتمل على الأصول العامة التى لابد منها لصلاح البشر فى معاشه ومعاده .

ومن هذه الأصول ما أرشد إليه القرآن الكريم والسنة الشريفة من إلحاق النظير بنظيره ، وتوجيه الأعمال إلى تحقيق المصالح التى جرى الشارع على الأمر بالحفاظ عليها . ولو كان المقصود بتلك الآيات ما هدفوا إليه من سوقها ما اجتهد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما اجتهد أحد من أصحابه فى حادثة لانص فيها . ولكن الواقع غير هذا فقد اجتهد الرسول ، كما اجتهد أصحابه فى زمانه ـ صلى الله عليه وسلم[١] .

ولقد اجتهد أصحابه من بعده فى عديد من الواقعات التى لا تحصى :

● **من هذا** : اجتهادهم من بعده فى استخلاف أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ ، ثم قبولهم عهده بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ . واجتهادهم فى كتابة المصحف وإجماعهم على ذلك بعد حوارهم فى شأنه ، واجتهادهم فى تقسيم العطاء بين مستحقيه من المهاجرين وغيرهم .

فقد كان رأى أبى بكر أن يسوى بينهم فى العطاء بينما يرى عمر المفاضلة فقال : «كيف نجعل من تُرك دياره وأمواله مهاجرا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كمن دخل فى الإسلام كرها ؟»

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ٥١ .

فقال أبو بكر : «إنما أسلموا لله وأجورهم على الله وإنما الدنيا بلاغ ..»

ولما آل الأمر بعده إلى عمر أنفذ ما رأى ..

● ثم اجتهادهم فى حد الشرب ، وقول على – رضى الله عنه – فيه : « من شرب هَذَى ، ومن هَذَى افترى ، فأرى عليه حد المفترى» وبهذا جعل الشرب كالقذف لأنه مظنة له .

ومثل هذه الواقعات كثير مما اجتهد فيه أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ورضى الله عنهم – ، فأجمعوا على الحكم فى بعضها ، واختلفوا عليه فى بعضها الآخر . ولو أن نصا فى القرآن أو السنة دل على الواقعة أو الواقعات ، أو شمله بوجه من الوجوه لما اجتهدوا ، بل وما اختلفوا .

(ب) : ولأن قولهم : إن مالا نص فيه يبقى على أصل الإباحة ، استدلالا بقوله تعالى : «هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا[1] » . إنما يكون مقبولا فيما لا يشارك أصلا منصوصا على حكمه فى علة هذا الحكم ، كما فى القياس والاستصحاب ، فأما ما تحققت فيه هذه المشاركة فإن العقول البشرية تقضى بفطرتها أن يشتركا فى الحكم كما اشتركا فى العلة .

ولأن السؤال المنهى عنه فى قوله سبحانه : (.. لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. [2]) هو ذلك السؤال الذى يتعرض به السائل لما لا دخل للرأى فيه استزادة للتكاليف ويؤيد هذا ما روى فى سبب نزول هذه الآية من أنهم : سألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الحج : أفى كل عام هو؟ فقال : «لو قلت نعم لوجبت ، ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» .

وقوله – عليه الصلاة والسلام – «أعظم المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم على الناس ، فحرم عليهم من أجل مسألته» [3]

(جـ) وعن النصوص الدالة على عدم الاعتداد بالرأى فقد سبق إيضاح أن قوله تعالى : « فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ » دليل للقائلين بالاجتهاد [4] وقوله تعالى [5]: «لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ » . فالمراد به : لتحكم بما علمك الله وبما بصرك به ،

---

(١) من الآية ٢٩ سورة البقرة

(٢) من الآية ١٠١ من سورة المائدة .

(٣) أعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ٥٨ .

(٤) راجع فقرة ٤ من هذا البحث .

(٥) من الآية ١٠٥ سورة النساء .

وقد يكون فيما علمه بذل الجهد لمعرفة الحكم فيما لا نص فيه كما وقع فعلا وسيأتى المزيد من الإيضاح للمستفاد من هذه الآية[1] .

(د) وأما ما نقل عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن أصحابه من ذم الرأى والتحذير من العمل به ، فيعارضه ما ثبت قطعا من اجتهاد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأمره أصحابه بالاجتهاد وإقرار اجتهاد من اجتهد منهم ، وعملهم باجتهادهم فيما بعد فى مسائل لا تحصى عدا ، ولابد من حمل كل نوع من النصوص المتعارضة على ما يجرى فيه من مسائل توفيقا بين الأدلة .

وإيضاحا لهذا قرر العلماء أن من أمور الدين مالا مجال للرأى فيه ، وذلك هو ما جاء النهى عن السؤال عنه ، ومنها : ماله فيه مجال ، وهذا نوعان :

١ ـ الرأى الذى يصدر عن هوى أو جهل ، مطرحا القواعد العامة للشريعة وقد يحل هذا الرأى حراما أو يحرم حلالا ، كالاعتداد بمصلحة ليست مقصودة للشارع ، وكإلحاق أمر بآخر لاشتراكهما فيما لا يصلح علة للحكم مما أطلق عليه بعض علماء الأصول : « قياس الشبه » كالحكم بحل الربا قياسا على البيع بجامع أن كلا منهما مبادلة قائمة على التراضى وفيها نفع للمتعاقدين ، وكالحكم بحل الميتة قياسا على المذكاة بجامع إزهاق الروح فى كل منهما ، وكالحكم بحل الخمر للشبه بالماء بجامع السيولة فى كل منهما ونحو ذلك مما يجرى فى نطاق قولهم « قياس الشبه »[2] .

٢ ـ الرأى الذى جرى بطريق العدل والحق فاستلحق الشبيه بشبيهه لاشتراكهما فى المعنى الذى يقتضى اشتراكهما فى الحكم ، ولم يناقض حكما منصوصا عليه ، ولم يكن وسيلة إلى مصلحة لا يعتد بها الشارع ، وهذا هو القسط الذى حث الإسلام عليه فى قول الله تبارك وتعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ »[3] .

ومن ثم فالرأى المحمود محمول على هذا النوع الأخير ، والرأى المذموم محمول على ما عداه مما سبقه وفى مثل هذا جاء قول الله سبحانه : « وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

---

(١) راجع فقرة (٦) بند (ب) فى بيان رأى جمهور علماء المسلمين فى جواز اجتهاد الرسول ووقوعه ..
(٢) اعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ١٧٥ ـ ١٧٧ .
(٣) من الآية ٢٥ من سورة الحديد .

وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ [1] .

وفى النصوص السابقة إشارة إلى ما توجه إليه هذه الآية[2] .

٦ ـ اجتهاد الرسول :

تلك المقدمة كانت توطئة وتعريفا بالاجتهاد وموقعه فى اصطلاح علماء أصول الفقه .

وقد ركن المجوزون له ـ كما سبق ـ إلى ما وقع فى زمن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وزمن خلفائه الراشدين مما يعد إجماعا من الكثرة الكاثرة من المسلمين على أنه لا مفر من الاجتهاد فيما لا نص فيه .

ولما كان اجتهاد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الفيصل فى هذا الموضوع الهام من الدراسات التشريعية التى حوتها السنة والسيرة الشريفة ، فإن الأمر يقتضى استظهار واقع ما كان من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إبلاغ رسالته وبيانها للناس وهل كان له ثمت اجتهاد أم لا .. ؟

وكما جرى الخلاف بين العلماء فى جواز الاجتهاد وعدم جوازه ـ على نحو ما سبق ـ وقع الخلاف بينهم كذلك فى شأن وقوع الاجتهاد من رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو عدم وقوعه .

ذلك أن الله سبحانه أنزل القرآن على رسوله الكريم ، وأمره أن يحكم بين الناس بما أنزل عليه فقال تعالى :

« وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ » [3] .

وبهذا الأمر وجب على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يتصدى للفصل فى أنزعة الناس ، وأن يبين لهم الأحكام فى نطاق أوامر الله سبحانه ، والرسول فى هذا كغيره من القضاة والمفتين يحتاج فى قضائه وفتواه إلى أمرين :

---

(١) من الآية ٧١ سورة المؤمنون .

(٢) أعلام الموقعين لابن القيم جـ ١ ص ٦٦ ـ ٧١ ـ حيث تحدث عن الرأى بصفة عامة وعن أنواع الرأى المحمود .

(٣) من الآية ٤٨ من سورة المائدة .

● **أحدهما** : فهم الواقعة التى تعرض عليه للقضاء أو الافتاء فيها ، وهذا يقتضى براعة فى استخلاص الحقيقة ، واستظهارها من أقوال الخصوم وأدلتهم ، أو من أسئلة المستفتين من العامة ، وكل هذا مرده إلى اجتهاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو فى فهمه لحقيقة الواقعة من مرافعات الخصوم وأسانيدهم وأقوال المستفتين يتأثر بما يتأثر به الناس ، مما يدور أمام القاضى من حوار فى فصاحة أو إعجام .

ولقد عبر ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذا بقوله : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من نار»[١] .

ذلك أنه قدوة لأمته ، فقد أمر الله تعالى الأمة بالاقتداء به واتباعه فى قضائه وأحكامه فكان حكمه على هذا النحو ، وإلا لم يكن للأمة سبيل للاقتداء به فى شىء من ذلك ، ثم ليقتدى به حكام وقضاة أمته ، ويستوثقوا بما يؤثر عنه ومن ثم ينضبط قانون شريعته[٢] .

والأمر الآخر : فهم الحكم الشرعى الذى يحكم موضوع النزاع المطروح ، فإذا كان الحكم منصوصا فى كتاب الله ، فليس أعلم به منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلا حاجة به إلى اجتهاد لفهم القرآن كما يحتاج غيره من أمته ، ولا إلى بذل جهد فى استنباط الحكم ، كما يبذل من سواه .

وإذا لم يكن الحكم منصوصا فى القرآن ، فهل للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يجتهد فى استنباطه ؟

هذا ما اختلف عليه علماء المسلمين فكانوا فريقين :

(أ) **الفريق الأول** : الأشاعرة ، وكثرة من المعتزلة قالوا :

إنه ليس للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجتهد فيما لا نص فيه مستدلين :

● **أولا** ـ يقول الله سبحانه : «وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ»[٣] .

---

(١) رواه الجماعة واللفظ لأبى داود ، وقد احتج به من لم ير أن يحكم الحاكم بعلمه ـ راجع نيل الأوطار للشوكانى جـ ٨ ص ٢٧٨ .

(٢) جـ ٤ ص ٢٩٤ من كتاب الشفاء للقاضى عياض وشرحه للخفاجى ط دار السعاد فى سنة ١٣١٥ هـ .

(٣) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم .

حيث نفى الله أن يصدر من الرسول كلام عن الهوى ، وإنما هو وحى يوحى ، ولو كان له أن يجتهد ما كان كل كلامه صادرًا عن وحى .

● **ثانيا** ـ لو كان له أن يجتهد ما انتظر الوحى فيما وجه إليه من أسئلة ، والثابت أنه انتظر الوحى ـ فعلا ـ للإجابة عن كثير مما سئل عنه .

ومن هذا : أنه لما أرسل بعض رجاله لاستطلاع خبر قريش ، فقاتلوا فى الشهر الحرام من غير إذنه وغنموا وأسروا ، وسئل عن القتال فى الشهر الحرام توقف فى أمر الغنيمة ، والأسرى ، وقال : « لم آمركم بقتال فى الشهر الحرام » ، ثم نزل قول الله سبحانه [1] : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ الآية ، ففرح المسلمون بذلك وقبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العير والأسيرين [2] .

وما وقع فى إرث ابنتى سعد بن الربيع : حيث اشتكت أمهما إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أن عمهما استأثر بتركة أبيهما . فقال : « يقضى الله فى ذلك » . فنزل قول الله تعالى فى شأن المواريث : « يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ » [3] .

وواقعة الظهار ، إذ جاءت خولة بنت ثعلبة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تشتكى ظهار زوجها منها ، ملتمسة لديه مخرجا من الضيق الذى نزل بها ، فقال لها : « ما أمرت فى شأنك بشىء حتى الآن ، وما أراك إلا قد حرمت عليه » ثم نزل حكم الله فى قوله تعالى : «قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ .....» [4] .

● **ثالثا** ـ إن الاجتهاد دون الوحى فى القوة ، لجواز الخطأ فى الأول واستحالته فى الأخير ولا شك أن الاعتماد على الأقوى هو الأحق ، ولا يجوز العدول عنه إلى الأضعف .

---

(١) من الآية ٢١٧ من سورة البقرة .

(٢) شرح الخفاجى على الشفاء للقاضى عياض جـ ٤ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ والآية الواردة فى القصة من سورة البقرة برقم ٢١٧ .

(٣) الآية ١١ من سورة النساء .

(٤) أول سورة المجادلة وما بعدها ..

(ب) **وقال جمهور علماء المسلمين** : للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يجتهد مستدلين :

● **أولا** ــ بقول الله سبحانه : « إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ »[1] . إذ أن معناه : لتحكم بين الناس بما جعل الله لك رأيا ، وهذا محكى عن أبي يوسف ــ رحمه الله تعالى ــ[2] . ويؤيد هذا ماروته أم سلمة ــ رضى الله تعالى عنها ــ من قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ «إنى أقضى بينكم فيما لم ينزل فيه رأى»[3]

وقد تكون ــ أرى ــ فى الآية بمعنى ــ علم ــ والمعنى على هذا . لتحكم بين الناس بما علمك الله ، وقد يكون منه الاجتهاد ، فلا تفيد هذه الآية جواز الاجتهاد ، كما لا تفيد منعه ، وينتفى الاستدلال بها على المنع .

● **ثانيا** ــ وبقول الله تعالى : «فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ..»[4] ونحوه من الآيات التى تأمر بالنظر والاعتبار ، وبقياس الأشباه بالأشباه وبرعاية المصلحة ، إذ أن ذلك يشمل الرسول وغيره ، بل إن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يكون أولى بجواز الاجتهاد ، لأنه أعلم بمقاصد الشريعة وبوجوه التشابه والتماثل .

● **ثالثا** ــ وبأنه إذا أجيز الاجتهاد لمن يخطئ مع استمرار خطئه ، يجوز الاجتهاد ــ من باب أولى ــ لمن يندر خطؤه ولا يقره الوحى على خطأ .

● **رابعا** ــ وبأن الاجتهاد يحرك العقول إلى سداد الرأى واستقامة الفكر فلا يمتنع على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، بل ولا على الأنبياء عامة ، لأن الله لم يخرجهم من دائرة التكاليف التى تهذب النفوس وتشد العزائم وتشحذ الأذهان .

● **خامسا** ــ وبأن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ اجتهد فعلا وأذن لأصحابه بالاجتهاد وأقرهم على اجتهادهم ، فالمماراة فى جواز اجتهاده مردودة بفعله وقوله .

وسنسوق ــ فيما بعد ــ مثلا متنوعة من اجتهادات الرسول وأصحابه :

---

(١) الآية ١٠٥ من سورة النساء .

(٢) مسلم الثبوت شرح فواتح الرحموت جـ٢ ص ٢٦٨ .

(٣) المستصفى للغزالى جـ ٣ ص ٢٥٥ فى الاعتراض الخامس فى القياس .

(٤) من الآية ٢ من سورة الحشر..

٧ ـ مناقشة أدلة المانعين لاجتهاد الرسول :

● (أ) أما استدلالهم بقول الله تعالى : « .. وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ »[(1)] فإنه لا دلالة لهاتين الآيتين على موضع النزاع .

ذلك : أن الكلام عن القرآن ، وأن ما يتلوه الرسول منه ليس من عنده ، بل هو وحى يوحى إليه به من الله تعالى ، يؤكد هذا الآية الثانية منها ، إذ لا يصح حملها على غير القرآن ، لأنها لو كانت عامة لكان كل كلام الرسول وحيا لا يحتمل الخطأ فى حين أن القرآن شهد بغير هذا حين عاتبه الله فى القرآن فى أكثر من آية على ما كان منه ، فلا تكون هذه الآية مانعة من اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ . وإذا كان النبى متعبدا بالاجتهاد من قبل الشارع ، وقيل له : مهما ظننت باجتهادك حكما ، فهو حكم الشارع فنطقه بذلك يكون عن وحى .

● (ب) وأما انتظار الوحى ، فقد وقع منه فيما ليس محلا للاجتهاد ، أو فيما لم يستبن وجه الحكم مما يتوقف معرفته على الوحى ، فأما ما يعرف حكمه بالاجتهاد من غير إشكال فإنه لا يتوقف فيه ويعرف هذا من تتبع أقضيته وأحكامه وفتاويه ـ صلى الله عليه وسلم ـ[(2)]

وقد يكون تريثه فى الجواب عما يسأل عنه ، لأنه كان فى مهلة النظر فى الاجتهاد فيما سئل عنه ، فإن زمان الاجتهاد فى الأحكام الشرعية غير مقدر .

أو أن ذلك كان لانتظار النص الذى لا يجوز معه الاجتهاد إلى حين اليأس منه[(3)]

● (جـ) وأما كون الاعتماد على الاجتهاد أضعف ، ويجب إهماله عند التمكن من الاعتماد على الوحى فمردود بما وقع من اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ فعلا ، ولأن الوحى ليس خاضعا لإرادته فلا يكون فى مقدوره .

واجتهاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير متقاصر عن اجتهاد أهل الإجماع فكان معصوما من الخطأ أو أن الوحى لا يقره على خطأ ، ولأن المانع من الاجتهاد دائما هو وجود النص لا إمكان وجوده ، ولقد ثبت اجتهاد الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فى زمن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فكيف لا يكون هو متعبدا بالاجتهاد ؟ ..[(4)]

---

(١) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم. (٢) راجع مأسيأتى من نماذج من كل ذلك .

(٣) الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى جـ ٤ ص ٢٣٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، وكتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ ١١ ص ٢٥٠ فى تفسير الآية ١١٤ من سورة طه قوله تعالى : «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه» .

كالقاضى عبد الجبار ، والمختار جواز ذلك مطلقا ، وانه مما وقع مع حضوره ومع غيبته ظنا لاقطعا .

أما الجواز العقلى : فلما أن جاز ـ عقلا ـ الاجتهاد فى حق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بافتراض أن الله تعبده بذلك وقال له : (حكمى عليك أن تجتهد وأن تقيس) لم يلزم عنه لذاته محال عقلا ، فيجوز كذلك لغيره [1] .

وأما بيان الوقوع فى حضرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيدل عليه قول أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فى حق أبى قتادة ـ حين قتل رجلا من المشركين فأخذ سلبه غيره ـ : لا نقصد إلى أسد من أُسْد الله يقاتل عن الله ورسوله ، فنعطيك سلبه ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (صدق : وصدق فى فتواه) ولم يكن قد قال ذلك بغير الرأى والاجتهاد .

وأيضا ما روى عن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه حَكَّمَ سعد بن معاذ فى بنى قريظة ، فحكم بقتلهم ، وسبى ذراريهم ، بالرأى .

فقال ـ عليه السلام ـ : (لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة) والحديث فى الصحيح .

وأيضا ما روى عنه ـ عليه السلام ـ ، أنه أمر عمرو بن العاص وعقبة بن عامر الجهنى أن يحكما بين خصمين وقال لهما : « إن أصبتما فلكما عشر حسنات ، وإن أخطأتما فلكما حسنة واحدة » .

وأما وقوعه فى غيبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيدل عليه قصة معاذ وعتاب بن أسيد حين بعثهما قاضيين إلى اليمن .

فإن قيل : الموجود فى عصر النبى ـ عليه السلام ـ قادر على معرفة الحكم بالنص وبالرسول ـ عليه السلام ـ والقادر على التوصل إلى الحكم على وجه يؤمن فيه الخطأ ، إذا عدل إلى الاجتهاد الذى لا يؤمن فيه الخطأ كان قبيحا ، والقبيح لا يكون جائزا .

أو قيل : بأن الحكم بالرأى فى حضرة النبى ـ عليه السلام ـ ، من باب التعاطى والافتيات على النبى ـ عليه السلام ـ ، وهو قبيح ، فلا يكون جائزا . وهذا بخلاف ما بعد النبى ـ عليه السلام ـ .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

على أنه لو اجتهد وأخطأ فإن الوحى يتعهده ـ دائما ـ بالتصويب ، ويكون اجتهاده حينئذ ملحقا بالوحى ، وهذا ما أطلق عليه فقهاء المذهب الحنفى «الوحى الباطن»[١] .

● (د) وما قيل من أن قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نص قاطع ، يضاد الظن ، والظن يتطرق إليه احتمال الخطأ ، فهما متضادان ، فالجواب : أنه إذا قيل له ظنك علامة الحكم فهو يستيقن الظن والحكم جميعا فلا يحتمل الخطأ ، كاجتهاد غيره ، ويكون كظنه صدق الشهود ، فإنه يكون مصيبا وإن كان الشهود مزورين فى الواقع ، فلو قضى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قضاء بشهادة شخصين لم يعرف فسقهما ، ثم شهدا عند حاكم آخر عرف فسقهما لم يقبلهما هذا الحاكم ، لأنه قد بان له ، ما لم يظهر وقت قضاء الرسول بشهادتهما وتكون المخالفة هنا كمخالفة الرسول فى تأبير النخل أو فى الشفاعة ومصالح الدنيا .

٨ ـ اجتهاد أصحاب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عصره :

وفى جواز اجتهاد الصحابة فى حياة الرسول ووقوع الاجتهاد منهم تحدث علماء أصول الفقه فقال الآمدى فى كتابه ـ «الإحكام فى أصول الأحكام»[٢] :

اختلفوا فى جواز الاجتهاد لمن عاصره .
فذهب الأكثرون إلى جوازه عقلا ، ومنع منه الأقليون .
ولقد اختلف القائلون بجواز اجتهاد أصحابه فى عصره إلى ثلاث طوائف :

● **الأولى** : أجازت ذلك للقضاة والولاة فى غيبته ، دون حضوره ، ومنهم من جوزه مطلقا .

● **الثانية** : قالت بجواز الاجتهاد لأصحابه مطلقا ؟ إذا لم يوجد من ذلك منع ، ومنهم من قال :

لايكتفى فى ذلك بمجرد عدم المنع ، بل لابد من الإذن فى ذلك ، ومنهم من قال : السكوت عنه مع العلم بوقوعه كاف .

● **الثالثة** : اختلفوا فى وقوع التعبد بالاجتهاد : فنهم من قال : إنه كان متعبدا به ، ومنهم من توقف فى ذلك مطلقا : كالجبائى ، ومنهم من توقف فى حق من حضر ، دون من غاب ،

---

(١) فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت جـ٢ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ ط بولاق . مع المستصفى للغزالى تحت عنوان فائدة .

(٢) جـ ٤ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨ ط دار الكتب المصرية .

أو قيل : بأن الصحابة كانوا يرجعون عند وقوع الحوادث إلى النبي ـ عليه السلام ـ ، ولو كان الاجتهاد جائزا لهم لم يرجعوا اليه .

وما ورد من أدلة الوقوع فهى أخبار آحاد لا تقوم الحجة بها فى المسائل القطعية ، وبتقدير أن تكون حجة ، فلعلها خاصة بمن وردت فى حقه وغير عامة .

قلنا فى الجواب عن الأول : ـ ما أجيب به فى جواز اجتهاد النبي ـ عليه السلام ـ .

وعن الثانى : أن ذلك ، إذا كان بأمر رسول الله وإذنه ، فيكون من باب امتثال أمره ، لا من باب التعاطى والافتيات عليه .

وعن القول : بأن الصحابة كانوا يرجعون فى أحكام الوقائع إلى النبي ـ عليه السلام ـ ، فيمكن أن يكون ذلك فيما لم يظهر لهم فيه وجه الاجتهاد ، أو فيما ظهر ، غير أن القادر على التوصل إلى مقصوده بأحد طريقين لا يمتنع عليه العدول عن أحدهما إلى الآخر ، ولا يخفى أنه إذا كان الاجتهاد طريقا يتوصل به إلى الحكم ، فالرجوع إلى النبي ـ عليه السلام ـ ، أيضا طريق آخر ، لكنه أوثق من الاجتهاد ومن غيره .

وعن القول : بأن الأخبار المذكورة فى ذلك أخبار آحاد ، فالأمر كذلك ، غير أن المدعى إنما هو حصول الظن بذلك دون القطع ، والمقصود من تلك الأخبار إنما هو الدلالة على وقوع الاجتهاد فى زمن النبي ـ عليه السلام ـ ، ممن عاصره ، لا بيان وقوع الاجتهاد من كل من عاصره .(1)

هذا : وقد عقد الشوكانى ـ المسألة الخامسة من مسائل الاجتهاد ـ لهذا الموضوع وبعد أن أوجز الأقوال قال :

والحق ما تقدم من التفصيل بين من كان بحضرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فيما نابه من الأمر ، ومن كان غائبا عنها ، فيجوز له الاجتهاد وقد وقع من ذلك واقعات متعددة ، ثم ساق الشوكانى بعض تلك الواقعات(2) .

٩ ـ مزيد من أقوال أهل الأصول فى جواز اجتهاد الرسول :

وقد أيد الشوكانى فى المسألة الرابعة جواز الاجتهاد من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) قارن المستصفى للغزالى جـ٢ ص٣٥٤ ، ٣٥٥ فى هذا الموضع مع فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت جـ٢ ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ط بولاق .

(٢) ارشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ط صبيح سنة ١٣٤٩ هـ .

ووقوعه وأنه متعبد به ، وتعقب أقوال المخالفين بالرد عليها وساق مُثلا من اجتهاده منها : مسألة سوق الهدى ، ومسالة أسارى بدر ، ومسألة زوجة زيد[1] .

ولقد عرض ابن خلدون فى مقدمته ـ فى الحديث عن طب البادية ـ لما كان يراه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر العلل وعلاجها ، وأوضح أن ما كان يراه الرسول فى هذا الشأن لا يتصل بالوحى ، بل يعد من الأحوال التى هى عادة وجبلة .

ثم قال ابن خلدون : « وللبادية من أهل العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثا عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه بعضه ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون : كالحارث بن كلدة وغيره »[2] .

ومن ثم فإن اجتهاد الرسول فى الأمور العادية إنما جاء على سبيل العادة ، وليس من قبيل الشرعيات التى كلف بإبلاغها وتعليمها للناس ، وواقعة تأبير النخل وقوله فيما بعدها : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » دليل على ذلك .

ولقد نقل أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يأمر بعض أصحابه بالرجوع إلى ـ الحارث ابن كلدة لخبرته فى الطب[3] .

ومن ثم فليس ما نقل عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الأمور غير الشرعية كالطب أمرا واجب الاتباع ، اللهم إلا إذا استعمل قصدا للتبرك مع صدق التوكل على الله ، والإيمان بأن الشفاء منه سبحانه « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ »[4] .

ولقد ذهب الكمال بن الهمام فى كتابه التحرير ـ إلى أن أكثر الفقهاء يرون أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مأمور بالاجتهاد مطلقا فى الأحكام الشرعية ، والأمور الدينية دون تقييد فى شىء منها ، كما هو مأمور بالاجتهاد فى الحروب وأمور الحياة العادية ، وأضاف أن من القائلين بهذا عامة الأصوليين وعامة أهل الحديث واستشهد بقوله تعالى : « عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ » وعلق بقوله : ولا عتب فيما فيه وحى من عند الله ، ثم هو يرد على القائلين بأن هذا

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ فى المسألة الرابعة .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .
(٣) جـ ٣ ص ٩٣ من كتاب زاد المعاد لابن القيم .
(٤) الآية ٨٠ من سورة الشعراء .

عتاب على ترك الأولى : بأن ظاهر الآية يخالفه .

وذهب الكمال بن الهمام أيضا الى أن قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حادث فداء الأسرى : « .. ولو نزل عذاب من السماء مانجا منه إلا عمر .. »[1] يدل على أن أخذ الفداء كان بالاجتهاد وأنه كان خطأ عظيما ، ويعلل هذا بقوله : لأن العذاب لا يكون لترك الأولى . ثم قال : فان قلت : كيف هذا : وقد تقرر أن المخطئ فى الاجتهاد له أجر واحد ؟ . قلت : الأجر على تقدير ألا يكون خلاف ما أدى إليه الاجتهاد ظاهرا ، فأما إذا كان ظاهرا ، فلا ، بل يستحق المجتهد العذاب ، ألا ترى أن المبتدعة قد كانوا مجتهدين ، فحيث كان خلاف رأيهم ظاهرا استحقوا العذاب .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « .. كلهم فى النار إلا واحدة » . فإن قلت : إذا كانت الحكمة فى عدم تعذيب المخطئ أنه بذل وسعه فى طلب الصواب ، فلا يفترق الحال فى كون المجتهد فيه عمليًا او اعتقاديًا ، فلم حكمتم بعدم نجاة المبتدعة وهم مجتهدون فى العقيدة ؟ . قلت : فى الاعتقاد لم يكن المحل صالحا للاجتهاد ، لوجود النص المفيد للقطع ، والشارع قد منع الخوض فى ذلك .

ثم قال الكمال بن الهمام : وقد ثبت اجتهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الشرعيات فقال : «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى» فعلم أنه لم يسق بوحى ، وإلا لم يقل ذلك . وأيضا لو كان سائقا بالوحى لكان علمه بالمصلحة كعدم علمه بها ، فقد اجتهد فى حكم شرعى إذ سوق الهدى مندوب . ثم قال : إلا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا اجتهد وأخطأ لا يقر على الخطأ ..

ثم قال : إن فى جواز الخطأ فى اجتهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ إشارة إلى أن فكر البشر وإن كان فى أعلى الدرجات يحتمل الخطأ ، بخلاف الوحى .

ثم قال : وقول من أنكر وقوع الخطأ فى اجتهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأول مثل آية :[2] « عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ » . وآية :[3] « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ » على خلاف ظاهرها على وجه يخل بكمال بلاغة القرآن من غير ضرورة ملجئة إليه ،قول

---

(١) أنظر الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ح ٤ ص ٢٢ وتعليقه على هذا الخبر بالطعن فى صحته ثم بتاويله ..

(٢) من الآية ٤٣ سورة التوبة .

(٣) من الآية ٦٧ من سورة الانفال .

لا ينبغى أن يقدم عليه أهل العلم مبالغة منهم فى علو شأن الأنبياء ، لأن خطأهم فى الاجتهاد لا يخل بعلو شأنهم ، أى بخلاف الإخلال ببلاغة القرآن فإنه شديد الخطر ، لايقدم على سببه مسلم .

ثم قال : وكان الخطأ فى مسألة الأسرى أنه صلى الله عليه وسلم ومن معه نظروا إلى أن استبقاءهم سبب لإسلامهم ، وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد ، وخفى عليهم أن قتلهم أعز للاسلام وأرهب لمن وراءهم وأفل لشوكتهم .

ولا يصح أن يكون هذا التشديد من الله لمخالفة الأولى ـ كما قال الكرمانى ـ لأن مثل هذا الوعيد لا يلائم ترك الأولى .

ثم قال : واتفقوا على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يقر على الخطأ[1] .

هذا : ثم تحدث الكمال بن الهمام عن الاجتهاد فى الأحكام الفقهية فقال :

وأما الأحكام الفقهية فمنكر الضرورى منها ـ وهو الذى يعرفه كل أحد حتى النساء والصبيان كفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج وحرمة الزنا والخمر وقتل النفس المحرمة ، والسرقة ، وحجية القرآن ـ كافر .

لأن إنكار ما هو من ضروريات ملة الإسلام يستلزم إنكارها باجتهاد باطل ، لانتفاء شرط الاجتهاد وهو كون المجتهد فيه نظريا ، بأن لا يكون خلافا بدهيا . ومنكر غير الضرورى من القواعد الأصلية ـ ككون الإجماع حجة ، وخبر الواحد حجة ، والقياس حجة ـ آثم . ومنكر غير القواعد الأصلية وهى الأحكام الفرعية الاجتهادية ، فالقطع على أنه لا إثم فيها على المخطئ بشرط حل الاجتهاد بأن لا يكون فى مقابلة دليل قاطع من نص أو إجماع ، لدلالة إجماع الصحابة على عدم تأثيم المخطئ فيها ، فقد شاع اختلافهم فى المسائل الاجتهادية ، ولا بد من خطأ واحد من المتناقضين ، ولم ينقل تأثيم واحد لغيره لمخالفته فى أمر مجتهد فيه ولو وجد لذاع ونقل لأنه

---

(١) التحرير للكمال بن الهمام فى المقالة الثالثة فى الاجتهاد وما يتبعه ـ مسألة اجتهاد الرسول ص ٥٢٥ ـ ٥٢٨ هذا ولقد ظاهر الكمال فى هذا الموضوع صاحب فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت بقوله : وقد يقال : هذا لا يدل على كون أخذ الفداء بالرأى فإنه يجوز أن يكون مخيرا بين الفداء والقتل . ويكون القتل أولى ، والعقاب لترك الأولى ولا يخفى أن هذا بعيد . فإن هذا الوعيد الشديد لا يكون على خلاف الأولى ا . هـ من ج ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ط بولاق مع المستصفى للغزالى .

أمر خطير مع أن عدد الواقعات التى اختلف فيها وزمن الصحابة الى انتهاء عصر المجتهدين لا تحصى »[1] .

ويؤيد هذا الذى قال به الكمال بن الهمام ، ما جاء فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى فى حديث عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا باحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة » حيث قال الحافظ ابن حجر : قال ابن دقيق العيد : قد يؤخذ من قوله : «المفارق لدينه التارك للجماعة» أن المراد المخالف لأهل الإجماع ، فيكون متمسكا لمن يقول : مخالف الإجماع كافر. وقد نسب ذلك لبعض الناس ، وليس ذلك بالهين ، فإن المسائل الإجماعية تارة يصحبها التواتر بالنقل عن صاحب الشرع كوجوب الصلاة مثلا ، وتارة لا يصحبها التواتر ، فالأول يكفر جاحده لمخالفته التواتر ، لا لمخالفته الإجماع ، والثانى لا يكفر به . قال شيخنا فى شرح الترمذى : الصحيح فى تكفير منكر الإجماع تقييده بإنكار ما يعلم من الدين بالضرورة ، كالصلوات الخمس . ومنهم من عبر بإنكار ما علم من الدين عن التواتر[2] .

١٠ ـ عصمة الأنبياء وهل تنافى التعبد بالاجتهاد ؟

لقد تحدث القاضى عياض فى كتابه ـ الشفاء ـ عن عصمة[3] الأنبياء فيما قبل الرسالة وفيما بعدها . ثم عن عصمة خاتم الرسل سيدنا رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أقواله : فقرر : أن إجماع المسلمين قد انعقد على أنه لا يجوز عليه خلف فى القول فى إبلاغ الشريعة والإعلام ، بما أخبر به عن ربه تعالى ، وبما أوحاه اليه من وحيه ، لا على وجه العمد ، ولا على وجه غير العمد ، ولا فى أحوال الرضا والسخط ، والصحة والمرض . ثم عقب ـ القاضى عياض بفصل رد فيه على أقوال بعض الطاعنين فى بعض المشتبهات ، وأخطائهم فى تأويل بعض آيات القرآن الكريم ، وافترائهم بعض القصص ، وتكذيب الله إياهم فى القرآن : بأنه أحكم آياته ، وبأنه قد قال : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ »[4] وهو كذلك معصوم فى

(١) التحرير للكمال بن الهمام ص ٥٢٩ ـ ٥٣١ .

(٢) ح ١٢ ص ١٦٢ فى الديات من فتح البارى شرح صحيح البخارى .

(٣) ح ٤ شرح شهاب الدين الخفاجى ص ٨٩ ، ٩١ وما بعدها وص ١٢٨ ـ ١٣٢ .

(٤) الآية ٩ من سورة الحجر.

أقواله عن نفسه وعن غيره فى كلٍ حال وعلى أى وجه »[1] وفرق ـ القاضى عياض ـ بين ما يقوله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبرًا عن الله ، فهذا قد عصمه الله فيه ، وبين ما يقوله رأيًا فى أمور الدنيا فى فصل عقده بعنوان »[2]

مصالح الأمة الدنيوية والأخروية :

« وأما أحواله فى أمور الدنيا فقد يعتقد الشىء على وجه ويظهر خلافه ، أو يكون منه على شك أو على ظن » . وقد علق شارحه الخفاجى : بقوله : أى يظهر له أنه على خلافه فى الواقع ونفس الأمر . «بخلاف أمور الشرع » . وعلق الخفاجى بقوله : فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يتردد فيها ، لأنه معصوم عن الخطأ ، وإن قلنا بجواز اجتهاده فيها لأنه مستند الى الوحى أيضا ..

ثم ساق القاضى عياض شاهدا على أنه قد يعتقد شيئا من أمور الدنيا على خلاف ماهو عليه وهو حديث مسلم الذى روى فيه قصة تأبير النخل ليثمر ثمرًا حسنًا ، فلما لم يفعلوا امتثالا لمشورته وقوله لهم «لو لم تفعلوا كان خيرًا» نقصت الثمرة فذكروا له ذلك . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر» وفى رواية لمسلم عن أنس : «أنتم أعلم بشئون دنياكم» وفى رواية لمسلم عن طلحة فى ذات القضية «إنما ظننت ظنا ، فلا تؤاخذونى بالظن» قال الخفاجى عقب هذه الرواية : «أى فلا تجدوا على فى أنفسكم كدرًا فيما ظننته خيرًا لكم ، فيتبين خلافه »[3] .

ثم نقل الخفاجى عن ابن رشد من كتاب التحصيل والبيان قوله ـ : هذا الحديث روى بألفاظ مختلفة متقاربة معنى ، كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما أنا بزارع ولا صاحب نخل . ثم قال : ولا منافاة ، إذ كل حكى ما سمع ، ولم يكن ذلك عن وحى ، كما قاله الطحاوى ، وقال أبو الوليد : إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أنه لا تأثير فى الصلاح والإفساد لغير الله تعالى ، إلا أن الله قد يجرى العادة بأسباب ، لذلك ، تعلم بالتجربة كالتأبير وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسبق له تجربة فيه[4] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٥ .

(٢) ذات المرجع ص ٢٨٣ .

(٣) ذات المرجع ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٨٥ ملخصا .

وحديث ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ الذى رواه البزار بسند حسن فى شأن قصة الخرص[1] وقد كان فيه من التوسعة على أرباب الثمار ، فيتناولون منه ما أرادوا ، وهذا كان على عهد النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وعلى عهد خلفائه ، ولذا جوزه بعضهم ، ومنعه بعضهم لأنه تخمين ، وفيه غرر ، وفى هذا الحديث قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «إنما أنا بشر فما حدثتكم عن الله فهو حق وما قلت فيه من قبل نفسى ، فإنما أنا بشر أُخطئ وأُصيب». وعلق الخفاجى بقوله : قيل هذا مما يستدل به على جواز خطئه فى اجتهاده ، وقيل لا دليل فيه لأنه لم يقله باجتهاد ، وإنما هو ظن سنح له . ثم أضاف القاضى عياض : «وهذا على ما قررناه فيما قاله من قبل نفسه فى أمور الدنيا وظنه من أحوالها لا ما قاله من قبل نفسه واجتهاده ، وفى شرع شرعه ، وسنة سنها» وعقب الخفاجى : بأن هذا كله مبنى على أنه ــ صلى الله تعالى عليه وسلم ــ كان يجتهد فى بعض الأحيان وهو الصحيح ، كما تقرر فى الأصول ، وإذا اجتهد لا يخطئ ، ولا يقر على الخطأ ، وقد وقع له ذلك ولا حجة لمن منعه فى قوله تعالى : « وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ »[2] ونحوه ، لأنه إذا أُذن له فيه كان وحيًا مع أنه إلهام ، وإلهام الأنبياء قسم من الوحى . والمراد بالسنة الطريقة المحمدية من أقواله وأفعاله ، وسنها بمعنى جعلها أمرًا متبعًا ، وطريقًا مهيئًا ، لا ما يقابل الفرض ، فهى بالمعنى اللغوى[3] .

ثم ساق القاضى عياض حادثة نزول المسلمين ببدر وإشارة الحباب بن المنذر بتغيير المكان ، وقبول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لمشورته وقال له «أشرت بالرأى» وفعل ما قاله الحباب ، وعقب الخفاجى على هذه الحادثة بقوله : واختلف فى ذلك : فقيل كان فيما لم ينزل فيه وحى ليجتهد فيه ويجتهدوا معه ، فإن الاجتهاد بحضرته جائز كما تقرر فى الأصول ، وقيل إنه مخصوص بأمور الدنيا ومصالح الحرب ، فإنهم جربوها وقاسوا شدائدها[4] .

ثم يورد القاضى عياض واقعة عزمه ــ صلى الله عليه وسلم ــ على المصالحة فى غزوة الخندق ، على ثلث تمر المدينة حيث بعث الى عيينة بن حصن والى الحارث المرى ، وهما قائدا غطفان بأن يعطيهما ثلث تمر المدينة ، ولما استشار الصحابة عارضوا رأيه ، فرجع عنه ، وقد قال سعد بن معاذ لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين سمع منه هذا الرأى : أمرك الله بهذا ؟ قال لا ،

---

(١) الخرص : الحذر والتخمين أى تقدير ما على النخل والكرم من الرطب والعنب ، قبل الجذاذ لمعرفة مقدار الزكاة .
(٢) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم .
(٣) ذات المرجع السابق ص ٢٨٦ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٨٨ .

ولكنى أردت دفعهم . فقال سعد : مالنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . ثم عقب القاضى عياض على هذا بقوله : فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التى لا مدخل فيها لعلم الديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها ، ويجوز عليه فيه ما ذكرناه «أى من أن يعتقده على وجه فيظهر له خلافه ، لأنه ليس من مهمات الدين» إذ ليس فى هذا نقيصة ولا محطة ، وإنما هى أمور اعتيادية يعرفها من جربها وجعلها همه وشغل بها نفسه ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشحون القلب بمعرفة الربوبية ، ملآن الجوانح بعلوم الشريعة، مقيد البال بمصالح الأمة الدنيوية والأخروية .

ثم يقول القاضى عياض والخفاجى فى شرحه : ولكن هذا إنما يكون فى بعض الأمور الدنيوية العادية التى تعرف بالتجربة وكثرة المزاولة ، ومع أنه أيضا إنما يجوز صدوره منه بخلاف ماهو عليه فى النادر ، وما ندر منه وقوعه كان فيما سبيله العلم به التدقيق أى تدقيق النظر فيه بتكريره وصرفه فى حراسة الدنيا واستثمارها ، لا فى الكثير من أمورها المؤذن بأنه صدر بسبب البله والغفلة وقد تواتر بالنقل عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق وسياسة فرق أهلها ماهو معجز فى البشر[1] .

ويستمر صاحب الشفاء وشارحه فى الحديث عن أمور الدنيا المتنوعة التى وصف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه فى جانبها بأنه بشر، فيقولان :

وأما ما يعتقده ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمور أحكام البشر وقضاياهم ، أى أمورهم وقضاياهم التى ترفع اليه ليقضى فيها وليظهر المحق من المبطل ، والمصلح من المفسد ، فبهذه السبيل أى بهذه الطريقة فى أمور الدنيا التى قد يظهر له منها ما الأمر بخلافه ، ولا يضره ذلك لأنه حين القضاء فى الخصومات تجرى أحكامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الظاهر وموجب غلبة الظن بشهادة الشاهدين ، أو يمين الحالف ومراعاة الأشبه بالحق كالقرائن ، ومعرفة العفاص والوكاء ، مع مقتضى حكمة الله فى ذلك ، فإنه لو شاء الله لأطلعه على أسرار عباده ومخبئات ضمائر أمته ، فتولى الحكم بينهم بمجرد يقينه وعلمه دون حاجة الى إقرار أو بينة أو يمين أو شبهة أى مشابهة فى الأمر للحق ، ولكن لما أمر الله الأمة باتباعه والاقتداء به فى أقواله وأفعاله الشرعية

---

(1) ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ من المرجع السابق ـ قال الخفاجى فى ختام هذا الفصل تعليقًا على قول صاحب الشفاء «معجز فى البشر» والبشر هم ـ بنو آدم سمو بذلك لظهور بشرتهم أى ظاهر جلدهم من غير استتار بشعر ووبر كالحيوانات هذا وكلمة مقيد البال المذكورة قبلها ، لعل المراد منها ان الرسول قد حمل أمانة تدبير مصالح الأمة الدنيوية بجانب ابلاغ الرسالة ، وكلمة حراسة الدنيا أى تدبير هذه المصالح .

وأحواله وقضاياه ، أجرى الله أحكامه الشرعية على الظواهر التى يستوى فيها هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغيره من البشر من أمته فى زمنه وفيما بعده . ولو كان قضاؤه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما يختص بعلمه الذى يؤثره الله به دون أدلة تقدم إليه لم يكن للأمة من بعد ـ سبيل للاقتداء به فى شىء من ذلك لعدم علمهم به ، لأنه مما آثره الله به ، ولم تقم حجة بعده بقضية من قضاياه فى أمر من الأمور الشرعية يأتم بها الحكام ـ والقضاة فى شريعته ، لأن أحدًا لا يعلم ما أطلعه الله عليه مما خفى فى القضية التى حكم فيها ، وذلك كان ليتم الاقتداء به فى تعيين قضاياه وتنزيل أحكامه على قواعد شرعه ، ويفعلوا ما فعل على علم ويقين من سنته ، إذ البيان بالفعل أقوى وأوقع فى النفوس ، وأثبت من القول وأدفع لاحتمال اللفظ للتأويل والتجوز وتأويل المتأول ، فكان حكمه على الظاهر أجلى وأوضح فى البيان لكل أحد يشاهده أو يعلم به فى كل الوجوه ، وليقتدى بذلك حكام أمته ويستوثق بما يؤثر عنه وينضبط قانون شريعته .

ولما تقدم جاء قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ . .» الحديث(١) وقد تقدم نصه(٢) .

ثم عقد صاحب الشفاء فصلا فى حكم(٣) أفعاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الدنيوية قال فيه مع شارحه الخفاجى ما خلاصته :

وأما أفعاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الدنيوية ، فحكمه فيها من توقى المعاصى ، أى المحرمات بمعنى أنه معصوم منها ، فإن وقع منه مكروه ، أى كراهة تنزيه ، فإنما لبيان الجواز ، كشربه قائما ، فهو لتعليم أمته ، فلا يكون مكروها فى حقه ، ومن جواز السهو والغلط فى العبادات ، وهذا غير قادح فى النبوة ، بل يقع حسنا لما فيه من التشريع ، ومع هذا فما وقع من هذا القبيل قليل ، إذ عامة أفعاله على السداد والصواب ، بل أكثرها ، أو كلها جارية مجرى العبادات والقرب ، وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخالف فى أفعاله الدنيوية بحسب اختلاف الأحوال التى تعرض له ، ويعد للأمور أشباهها ، ويتخذ لكل أمر عدته ، وكان بين الناس على أحسن

---

(١) ذات المرجع ٢٩١ ـ ٢٩٤ مختصرا . هذا وقد جاء فى ص ٢٩٣ أن من خصائص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يجوز له أن يحكم بعلمه ، وقد أطلعه الله تعالى على كثير من السرائر والمضمرات لكنه لم يؤمر بالحكم بها للحكمة المذكورة وأضاف الخفاجى : بأن للسيوطى رسالة فى أن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان له الحكم بالباطن أيضا إذا لم يخش من التهم وساق منها قضايا ، ثم قال : وحكمه على الظاهر كان تارة بالقضايا وتارة بالسياسة والسلطنة أى الإمامة العظمى وتارة بالفتوى كما فعله ابن السبكى فى قواعده مع الفرق بينهما .

(٢) انظر فقره ٦ من هذا البحث .

(٣) ذات المرجع ص ٣٢٨ ـ ٣٣٣ .

حال فى لباسه وسائر أحواله وأفعاله بحسب مصالحه ، ومصالح أمته ، ويفعل الفعل من أمور الدنيا مساعدة ومعاونة لأمته وسياسة لها وكراهية لخلافها ، فى حين أنه قد يرى غيره خيرا منه وقد يفعل هذا فى الأمور الدينية كخروجه من المدينة لأحد نزولا على رأى بعض أصحابه ممن لم يشهدوا بدرًا ، لملاقاة قريش ، مع أن رأيه كان التحصن فى المدينة ، وكتركه قتل المنافقين ، مع يقينه من أمرهم ، وما انطوت عليه قلوبهم تأليفًا لغيرهم ورعاية لقرابتهم من المؤمنين ، وكراهة أن يقول الناس إن محمدًا يقتل أصحابه ، وكتركه إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم ، مراعاة لما استقر عليه أمرها عند قريش ، فإنهم لا يرضون بغير ذلك ، تعظيما لتغييرها عما بناه آباؤهم ، وحذرًا من نفورهم ، إذ ما زالوا قريبى عهد بجاهلية ، وقد دل على هذا : الحديث الذى رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة وهو قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لولا حدثان قومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم» . وكواقعة بدر وأخذه بمشورة الحباب بن المنذر لما رآه خيرًا من المكان الذى نزل به أولا ، وكقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حجة الوداع : «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى» أى أنه عليه الصلاة والسلام استظهر أن عدم سوق الهدى فى الحج كان أولى ، وأنه بسوقه الهدى مع أنه أحرم بالحج مفردًا قد أوقع أصحابه الذين كانوا متمتعين لإحرامهم بالعمرة أولا فى حرج تمتعهم والإحلال من إحرامهم فكأنه قال لهم : لا حرج لأنى وددت أن كنت مثلكم متمتعا حتى أوافقكم ، وهذا بيان لحكم شرعى عملى وتمنيه أن لم يفعل غيره .

وفى أفعاله السلوكية ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحدث صاحب الشفاء وشارحه عن أنه كان يبسط وجهه للكافر وللعدو ، رجاء استمالته وتأليف القلوب للاسلام ، ويصبر للجاهل ، ويقول ـ كما ورد فى حديث عائشة رضى الله عنها الذى رواه الشيخان :

«إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره» ويبذل العطاء الكثير لهؤلاء ترغيبا فى الاسلام وشريعته . وقد كان يتولى فى منزله ما يتولاه الخادم من عمل المنزل ، ويجلس للناس فى أحسن هيئة ، ويتحدث مع جلسائه ، وقد وسع الناس بشره وعدله ، لا يستفزه الغضب ، ولا يبطن على جلسائه ويقول لهم : ماكان لنبى أن تكون له خائنة (الأعين) أى ليس له أن يغمز ولا أن يشير بطرف عينيه لأحد أن يفعل شيئا أخفاه ولم يتكلم به ، وذلك اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ تاليفًا للقلوب فهو سياسة دينية وليست مداهنة ، فقد بذل للكثيرين المال والكلم الطيب حتى قال : أحدهم[1] : لقد أعطانى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أبغض

(١) هو صفوان بن أمية الجمحى الصحابى أخرج له أصحاب السنن كما قال الخفاجى ص ٣٣٧ من ذات المرجع .

الخلق إلىّ فما زال يعطيني حتى صار أحب الخلق إلىّ .

كل ذلك وغيره مما أورده صاحب الشفاء وشارحه من أفعال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الدنيوية كانت بطريق الاجتهاد فى أمور تأليف قلوب الناس وحسن سياستهم[1] .

١١ ـ وهذا ابن حزم يقول فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » :

إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد . ويقع منهم أيضا قصد الشىء . يريدون به وجه الله تعالى والتقرب منه . فيوافق خلاف مراد الله تعالى . إلا أنه تعالى لا يقرهم على شىء من هذين الوجهين أصلا . بل ينبههم على ذلك . ولا يداثر[2] وقوعه منهم . ويظهر عز وجل ذلك لعباده . ويبين لهم . كما فعل مع نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سلامه من اثنتين . وقيامه من اثنتين . وربما عاتبهم على ذلك بالكلام . كما فعل مع نبيه ـ عليه السلام ـ فى أمر زينب أم المؤمنين . وطلاق زيد لها ـ رضى الله عنها ـ . وفى قصة ابن أم مكتوم ـ رضى الله عنه ـ . وربما عاتبهم ببعض المكروه فى الدنيا . كالذى أصاب آدم ويونس ـ عليهما الصلاة والسلام ـ .

والأنبياء ـ عليهم السلام ـ بخلافنا فى هذا : فإننا غير مؤاخذين بما سهونا فيه . ولا بما قصدنا به وجه الله عز وجل . فلم يصادف مراده تعالى . بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجرا واحدا .

ثم قال تبرئة لساحة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ عامة من القصد الى المعصية : ـ إن كل خلاف لأمر آمر . فصورته المعصية . فيسمى معصية لذلك وغواية . إلا أن منه ما يكون عن عمد وذكر . فهذه معصية على الحقيقة . لأن فاعلها قاصد الى المعصية . وهو يدرى أنها معصية وهذا هو الذى نزهنا عنه الأنبياء ـ عليهم السلام ـ . ومنه ما يكون عن قصد الى خلاف ما أمر به . وهو يتأول فى ذلك الخبر . ولا يدرى أنه عاص بذلك . بل يظن أنه مطيع لله تعالى . أو أن ذلك مباح له . لأنه يتأول أن الأمر الوارد عليه ليس على معنى الإيجاب . وأن النهى ليس على التحريم لكن : إما على الندب إن كان بلفظ الأمر . أو الكراهة إن كان بلفظ النهى . وهذا شىء يقع فيه العلماء والفقهاء والأفاضل كثيرا . وهذا هو الذى يقع من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ . ويؤاخذون به إذا وقع منهم .

---

(١) ص ٣٣٤ ـ ٣٤٣ من ذات المرجع .

(٢) الدثار ـ الثياب وتدثر ـ تلفف فى الدثار . دثر وتداثر ـ بمعنى دثر ـ مختار الصحاح مادة دثر ومعنى لا يداثر أى لا يترك ما وقع منهم من خطأ فى الإجتهاد دون تصويب .

وقد تابع ـ ابن حزم ـ تنزيه الأنبياء من المعاصى والآثام متأولا ـ بناء على قاعدته تلك ما جاء فى آيات القرآن الكريم من وصف لمعاصى وقعت من الأنبياء . وأضاف أن رسول الله محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يؤاخذ على سهوه فى الصلاة ، كغيره من الأنبياء عليهم السلام الذين كانوا مؤاخذين بما أتوا على سبيل السهو والقصد إلى الخير إذا لم يوافق مراد الله تعالى ، ذلك لأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذه فضيلة مما فضل به على جميع الأنبياء عليهم السلام(١) .

والمستفاد من هذه الفصول التى عقدها ابن حزم أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان له أن يجتهد ويتأول النصوص ، وأن الخطأ من الأنبياء بوجه عام منحصر فى السهو والقصد الى الخير إذا لم يوافق ما عند الله .

١٢ ـ وفى فتاوى ابن تيمية :

إن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى وفى تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ، بخلاف غير الأنبياء ، فإنهم غير معصومين ، ولو كانوا أولياء الله . وأما العصمة فى غير ما يتعلق بالتبليغ فللناس فيها نزاع :

والذى عليه جمهور الناس ـ وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف ـ إثبات العصمة من الإقرار على الخطأ والذنوب مطلقا .

وقد احتج من قالوا : إنه لا يقع من الأنبياء ذنوب بأن التأسى بهم مشروع ، وذلك لا يكون إلا إذا عصمت أفعالهم عن الذنب .

وأجيب : بأن التأسى مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه ، كما أن أمر الله ونهيه إنما تجب طاعته فيما لم ينسخ منه ، أما ما نسخ منه فلا يكون مأمورًا به فضلا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه .

ثم احتج هؤلاء أيضا : بأن الذنوب تنافى الكمال ، وأنها تستتبع التنفير ، ونحو هذا من الأدلة العقلية .

ورد : بأن هذا إنما يكون مع البقاء على ذلك ، وإلا فالتوبة النصوح التى يقبلها الله يرفع بها صاحبها الى أعظم مما كان عليه ، كما قال بعض السلف .

---

(١) ا : هـ ملخصا من كتاب الفصل فى الملل والنحل جـ ٤ ص ٢ ـ ٣١ ط أولى م التمدن ١٣٢١ هـ .

والله خلق الإنسان لا يعلم شيئا ، ثم علمه ، فنقله من حال النقص الى الكمال ، فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال ، بل الاعتبار بحال الكمال ، ويونس وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم فى حال النهاية فى أكمل الأحوال .

وقد كان حال الأنبياء دائما المبادرة الى التوبة والاستغفار عند الهفوة ، والقرآن شاهد عدل حيث لم يذكر شيئا من ذلك عن نبى من الأنبياء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار.

كقول آدم وزوجه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ »[1] .

وقول نوح : « قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ »[2] .

وقول إبراهيم « وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ »[3] .

وقول موسى : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى »[4] وقوله : « فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ »[5] .

وقول داود : « ..فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ »[6] ... إلى غير ذلك .

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا لا يؤخرون التوبة ، بل يسارعون اليها ، ولا يصبرون على الذنب ، بل هم معصومون من ذلك . ومن أخر التوبة زمنًا يسيرًا كَفَّرَ الله عنه ذلك . بما يبتليه به ، كما فعل بذى النون (يونس) على المشهور من أن التقام الحوت له كان بعد الرسالة[7] .

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأعراف .
(٢) من الآية ٤٧ من سورة هود .
(٣) من الآية ٨٢ من سورة الشعراء .
(٤) من الآية ١٦ من سورة القصص .
(٥) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .
(٦) من الآية ٢٤ من سورة ص .
(٧) راجع الآية ٨٨ من سورة الأنبياء والآيات ١٣٩ ـ ١٤٨ من سورة الصفات .

أما إذا كان قبلها ، فلا يحتاج الى ذلك . ونصوص الكتاب والسنة فى هذا الباب كثيرة ، لكن المنازعين يتأولونها كتأويلات الباطنية وغيرهم ، وتأويلاتهم ظاهرة الفساد لمن تدبرها . فهى من باب تحريف الكلم عن مواضعه .

من ذلك : تأويلهم قول الله تعالى : « لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[1] حيث قالوا : المراد ذنب أمتك . وذلك باطل من وجوه :

(أ) أن الله سبحانه قال : « .. كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ .. »[2] وقال : « .. فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ .. »[3] .

(ب) أن الله قد ميز بين ذنب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذنوب أمته فى قوله تعالى : « وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ .. »[4] . فكيف يعد ذنب المؤمنين ذنبًا له .. ؟

(جـ) أن هذه الآية لما نزلت هَمَّ بعض الصحابة بالتشديد على أنفسهم بالامتناع عن مباشرة زوجاتهم وبالصيام الدائم تقربا الى الله سبحانه بذلك . فلما علم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك غضب وقال : «إنى أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى . فقالوا : إنا لسنا مثلك يارسول الله فإن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : أنا أتقاكم وأعلمكم بالله»[5] .

فدل هذا على أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين يعلمون أن قول الله تعالى : «ليغفر لك »[6] خاص به دون أمته .

وفى الصحيح أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول : «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى هزلى وجدّى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى» .

وأخرج الصحيحان أن آية الفتح نزلت مرجعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحديبية ، فقال

---

(١) من الآية الأولى من سورة الفتح .
(٢) من الآية ٣٨ من سورة المدثر .
(٣) من الآية ٥٤ من سورة النور .
(٤) من الآية ١٨ من سورة محمد .
(٥) رواه البخارى .
(٦) من الآية ٥ من سورة الفتح .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لقد أنزلت عليّ الليلة آية أحب إليّ مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم فقالوا : هنيئًا مريئًا يانبى الله ، بين الله ما يفعل بك . فما يفعل بنا . ؟

فنزلت : « لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ.. »[1] الآية .

وروى البخارى عن المغيرة «كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوم حتى تتورم قدماه أو ساقاه ، فقيل : لم هذا وقد غفر لك؟ فقال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ » .

فهذه الروايات الصحيحة ، الصريحة وأمثالها تدل على بطلان قول من رأى أن الذنب المغفور ذنب أمته .[2]

١٣ ـ والخلاصة أن الدلائل من المنقول والمعقول ومن الواقع تؤكد :

أن من الأحكام مالا يعرف إلا بالوحى ، وفى هذا يقضى الرسول بما نزل ، أو ينتظر الوحى وأن من الأحكام ما يعرف بالاجتهاد ، فإن وجد فيه نصًا قضى به وإلا اجتهد ، فإن أصاب فيها وإلا نزل الوحى بتسديده الى الصواب .

وإن واقعات اجتهاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقضائه وفتاويه شاهدة على أحقية ذلك وصحته[3] .

وقد مضى الخلفاء الراشدون على التماس الأحكام فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإن لم يجدوا فيها اجتهدوا واستشاروا[4] .

وفيما مضى ـ أيضا من أقوال علماء أصول الفقه ما يرد على من أنكروا جواز اجتهاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأوّلوا ما ورد من اجتهاده فى بعض الواقعات ، وعدوله عن اجتهاده الى ما أشير عليه به من غيره الى أنه كان مخيرًا بالوحى[5] .

---

(١) من الآية ٥ من سورة الفتح .
(٢) اهـ ملخصا من فتاوى ابن تيمية ح ٢ ص ٢٨٢ ـ ط كردستان العلمية بمصر ١٣٢٦ هـ .
(٣) زاد المعاد لابن القيم ج ٣ ص ٤٢١ ـ ٤٧٤ فصل فى هديه فى اقضيته وأحكامه ، ح ٤ تكمله لأحكامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .
(٤) راجع اجتهاد أصحاب الرسول ح ١ ص ٢٤٤ من أعلام الموقعين لابن القيم .
(٥) انظر فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ح ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ وقد سبق ، والمستصفى للغزالى المطبوع معه ص ٣٥٦ ح ٢ .

وإذ كان ما تقدم كافيًا لتأصيل جواز اجتهاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على نحو ما سلف ـ كان تأكيد ذلك بإثبات صور من اجتهاداته وأقيسته ، وقضائه وفتاويه أمرًا حتمًا لأنه ليس الخبر كالعيان .

١٤ ـ مُثُلٌ من اجتهاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(أ) تمنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون البيت الحرام قبلته وحققَ ربه ماتمنى : روى البخارى عن البراء بن عازب أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى الى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبل البيت ـ وفى رواية كان يحب أن يوجه الى الكعبة ـ فأنزل تعالى :

« قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا .. »[(١)] ، فصرف الى الكعبة ..

وقد روى ابن ماجة من طريق أبي بكر بن عياش ، قال : صلينا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهرًا ، وصرفت القبلة الى الكعبة .

وفى رواية أحمد عن ابن عباس : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يصلى وهو بمكة الى بيت المقدس ، والكعبة بين يديه . فلما هاجر الى المدينة ولم يمكن الجمع بينهما صلى الى بيت المقدس . ويعلل رغبة الرسول فى التوجه الى الكعبة فى الصلاة بأنها قبلة أبيه ابراهيم ، وقد جاء داعيا الى إحياء ملته وتجديد دعوته . والتوجه اليها أدعى الى إيمان العرب سريعا وهم نواة الدين وأساس الدعوة .

وهنا تراخى الوحى فى إجابة الرسول الى ما أحبه ، فاجتهد ـ عليه السلام ـ أولا وبدا اجتهاده فى صورة رغبة وأمنية ، فحققها الله سبحانه وتعالى ، وبذلك أصبح مارآه بالاجتهاد مشروعا مقرًا عليه من ربه[(٢)] .

(ب) همه ـ صلى الله عليه وسلم ـ اجتهادًا ـ بفعل أمر ، ثم العدول عنه لمصلحة فى الترك ..

روى البخارى[(٣)] عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

---

(١) من الآية ١٤٤ من سورة البقرة .

(٢) فتح البارى حـ١ ص٣٩٩ المطبعة البهية بمصر.

(٣) حـ٢ باب وجوب صلاة الجماعة ص ١٠٢ المطبعة البهية بمصر.

والذى نفسى بيده . لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب . ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها . ثم آمر رجلا فيؤم الناس . ثم أخالف[1] الى رجال فأحرق[2] عليهم بيوتهم . والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أن يجد عرقا[3] سمينا أو مرماتين[4] حسنتين لشهد العشاء .

وفى رواية مسلم : أخر ـ صلى الله عليه وسلم ـ العشاء ليلة فخرج فوجد الناس قليلا فغضب فذكر الحديث .

ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يفعل ما همّ على فعله . إما باجتهاد آخر . أو بوحى من الله فى ذلك .

هذا : ولعل سبب عدم تنفيذ ماهمّ به ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الحديث هو ما جاء فى حديث أبى هريرة الذى[5] رواه البخارى قال :

بعثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعث فقال :

«إن لقيتم فلانًا وفلانًا ـ لرجلين من قريش ـ فحرقوهما بالنار . ثم أتيناه نودعه حين أردنا الخروج . فقال : إنى كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانًا وفلانًا بالنار . وإن النار لا يعذب بها إلا الله ، فإن أخذتموهما فاقتلوهما» .

وفى رواية ابن إسحاق : «ثم رأيت أنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا الله» .

وقد علق الحافظ ابن حجر فى شرحه فتح البارى على هذا الحديث بقوله : وفى الحديث جواز الحكم بالشىء اجتهادًا ثم الرجوع عنه .

ومن هذا القبيل مارواه البخارى فى كتاب المغازى :

عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى خيبر حتى أتيناها فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصة شديدة ثم إن الله تعالى فتحها عليهم . فلما أمسى الناس مساء اليوم الذى فتحت عليهم أوقدوا نيرانا كثيرة ، فقال الرسول ـ صلى الله عليه

(١) آتيهم من خلفهم .
(٢) معناه أن المراد تحريق من فى البيوت والبيوت تبع ، ويؤكد هذا المعنى رواية مسلم : «فاحرق بيوتًا على من فيها» .
(٣) العرق بفتح فسكون عظم عليه لحم .
(٤) تثنيه مرماة ـ قبيل سهم يتعلم عليه الرمى ، وتثنيته تشعر بتكرار الرمى . قال ابن حجر : وفيه اشارة إلى ذم المتخلفين عن الصلاة بوصفهم بالحرص على الشىء الحقير من مطعوم أو ملعوب به .
(٥) حـ ٦ ص ٨٧ ، ١١٢ فى باب التوديع وباب لا يعذب بعذاب الله المطبعة البهية بمصر .

وسلم ـ «ما هذه النيران ؟ على أى شىء توقدون ؟ قالوا : على لحم . قال : أى لحم ؟ قالوا لحم حمر إنسية . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أهريقوها واكسروها» أى اكسروا القدور التى فيها الماء واللحم . فقال رجل يارسول الله أو نهريقها ونغسلها ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أو ذاك»[١] .

ومعنى هذا : أن أحد الصحابة استدرك فعرض على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ غسلها بدل كسرها فأقره ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الاكتفاء بالغسل بعد إراقة ما فيها جمعًا بين تحقيق المقصود من حرمة أكل لحم الحمر الإنسية ، وبين المحافظة على المال بعدم كسر القدور التى كانت من الفخار ، ويعسر عليهم استبدالها وهم فى السفر .

وهكذا كان اجتهاد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولا : كسر القدور بعد إراقة ما فيها ثم عدل الى غسلها بعد إراقة ما فيها مراعاة للمصلحة وهم فى سفر .

(جـ) اجتهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى النهى العام :

روى البخارى[٢] عن أبي شريح رضى الله عنه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد[٣] بها شجرة ..» .

وفى رواية ابن عباس .. «فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، وهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ، وإنه لم يحلّ فيه القتال لأحد قبلى ، ولم يحلّ لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ..» فقال العباس : يارسول الله : إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم . قال : إلا الإذخر»[٤] فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ حرم باجتهاده فى صيغة العموم قطع (الإذخر) ثم عدل عن تحريمه الى إباحته عندما تكشفت الحاجة اليه .

قال الحافظ ابن حجر : إن الاستثناء فى كلام العباس ، لم يرد به أن يكون هو المستثنى وإنما أراد به أن يستدرك النبى هذا المستثنى باستثنائه .

---

(١) حـ ٧ ص ٣٧٥ غزوة خيبر المطبعة البهية بمصر.
(٢) حـ ٤ ص ٣٣ باب لا يعضد شجر الحرم ، ص ٣٨ باب لا يحل القتال بمكة ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى .
(٣) أى لا يقطع .
(٤) (الأذخر) ـ نبت معروف عند أهل مكة طيب الريح ، يسقفون به البيوت بين الخشب ويسدون به الخلل بين اللبنات فى القبور ويستعملونه بدلا من الحلفاء فى الوقود «والقين» كل صاحب صنعة يعالجها بنفسه ، وفى رواية المغازى أن الأذخر لابد منه للقين والبيوت وفى رواية . فإنه لصناعتنا وقبورنا .

(د) اجتهاده بسوقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الهدى وتمنيه أن لم يكن قد ساقه .

روى البخارى عن جابر بن عبد الله أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهلَّ وأصحابه بالحج وليس مع أحد منهم هدى غير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطلحة ـ وفى رواية مسلم وأحمد : غير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر وعمر وذوى اليسار ، وأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أذن لأصحابه أن يجعلوها عمرة ، يطوفوا ثم يقصروا ويحلوا إلا من معه الهدى . فقالوا : أننطلق الى منى وذكر أحدنا يقطر[١] .

فبلغ ذلك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت ، ولولا أن معى الهدى لأحللت .

وقد صح فى الأحاديث أن الصحابة فعلوا ما أمرهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتحلل كل من لم يكن معه هدى .

(هـ) ومن هذا القبيل : تألمه من دخوله جوف الكعبة[٢] .

روى أحمد فى مسنده وأبو داود والترمذى وابن ماجة عن عائشة رضى الله عنها قالت : خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عندى وهو قرير العين ، طيب النفس . ثم رجع الىّ وهو حزين القلب ، فقلت : يارسول الله خرجت من عندى وأنت كذا وكذا ، فقال : «إنى دخلت الكعبة ، ووددت أنى لم أكن فعلت ، إنى أخاف أن أكون أتعبت أمتى بعدى» .

فقوله هذا آية أن دخوله جوف الكعبة كان باجتهاده ، ثم ود أن لم يكن قد فعل حتى لا يشق على أمته من بعده ، باعتبارهم هذا سنة متبعة ، وكان قوله هذا : يحمل معنى العدول عما فعل وهو اجتهاد آخر .

تلك مثل تدل على اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمور مختلفة متعلقة بالدين والتشريع تضاف الى الأمثال التى سبقت فى أقوال علماء أصول الفقه وغيرهم ممن استرشدنا بالنقل عنهم فى جواز اجتهاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمور الدين والدنيا وأنه متعبد بذلك وأنه متى استقر اجتهاده فى أمر دينى كان تشريعا موجهًا لأمته ، ولقد تحدث القرآن الكريم عن بعض اجتهاده ، وأمضاه أو صوبه ، كواقعة أسرى بدر ، وواقعة ابن أم مكتوم ، وقصة زيد بن حارثة

---

(١) فتح البارى حـ٣ ص ٤٧٩ عمرة التنعيم . وكأنهم بهذا التعبير استبشعوا أن يتحللوا التحلل الذى يبيح لهم النساء وغيرهن من المنع المباحة .

(٢) نيل الأوطار للشوكانى حـ ٥ ص ٨٤ .

وزوجه . واجتهاده فى الإذن لبعض المنافقين فى التخلف عن الخروج فى غزوة تبوك . وقد كان هذا الإذن اجتهادًا منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما لا نص فيه من الوحى . وفى اجتهاده ـ كما تروى كتب السنة ـ مع أصحابه فى وسيلة الإعلام بدخول وقت الصلاة «الأذان» وفى ترغيب[1] المشركين فى الاسلام وتأليف قلوبهم . وقبول شروطهم الفاسدة . استمالة لهم . وحديث همه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنهى عن النكاح الغيلة ثم إعراضه عن ذلك[2] . وقد عده النووى ـ فى شرحه الصحيح مسلم ـ دليلا على جواز اجتهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقد عد من اجتهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها . فإنكم أن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم» باعتباره قياسا على ما نصه القرآن من حرمة الجمع بين الأختين . وكذا قوله : «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» فإن وضع هذه القاعدة مبنى ـ والله أعلم ـ على قياس ما لم ينص عليه منها على ما نص عليه . ويؤيد هذا ماروت أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «إنى أقضى بينكم بالرأى فيما لم ينزل فيه وحى»[3] .

١٥ ـ مُثُلٌ من أقيسة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهى من ضروب اجتهاده :

والقياس فى اللغة التقدير : وفى اصطلاح الأصوليين : هو مشاركة مسكوت عنه لمنصوص على حكمه الشرعى فى علة هذا الحكم وإلحاقه به .

وللرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقيسة وأمثال ضربها لأمته فى أمور الدين والدنيا منها :

(ا) ما روى عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : يارسول الله ، صنعت اليوم أمرا عظيما : قَبَّلْتُ وأنا صائم ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أرأيت لو مضمضت بالماء ؟ .

---

(١) الفتح الربانى على مسند أحمد حـ ١ ص ٩٢ ونيل الأوطار للشوكانى فى باب صحة الإسلام مع الشرط الفاسد حـ ٧ ص ١٩٩ .

(٢) قال الإمام النووى فى شرح مسلم على هامش ارشاد السارى لصحيح البخارى حـ ٦ ص ١٩٩ قال أهل اللغة إن (الغيله) هنا يكسر الغين ويقال لها الغيل بفتح الغين مع حذف الهاء والغيال بكسر العين وأختلف العلماء فى المراد بالغيلة فى هذا الحديث . وهى الغيل فقال مالك والاصمعى وغيره من أهل اللغة :
هى أن يجامع امراته وهى مرضع ، وقال ابن السكيت ، هو أن ترضع المرأة وهى حامل وقال العلماء سبب همه ـ صلى الله عليه وسلم ـ النهى عنها أنه يخاف منه ضرر الولد الرضيع .

(٣) المستصفى للغزالى حـ ٢ ص ٢٥٥ مع فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ط بولاق وكتاب اجتهاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمرحوم الشيخ عبد الجليل عيسى ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

قلت : لا بأس ، قال : «فمه» أى فما وقع منك أمر هين سهل ، لا بأس به كالمضمضة . فقد قاس ـ صلى الله عليه وسلم ـ القُبلة على المضمضة أو ألحقها بها فى الحكم ، وهو عدم فساد الصوم حيث لم يترتب على المضمضة وصول الماء للجوف ، وعلى القبلة الإنزال .

(ب) وما روى عن ابن عباس أن امرأة من جهينة جاءت الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت . أفأحج عنها ؟ فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «نعم حجى عنها ، أرأيت لوكان على أمك دين ، فقضيته أكان يقبل منك ؟ قالت : نعم . قال فالله أحق بالقبول» . وللحديث روايات أخرى ، وربما واقعات أخرى تنوع فيها السائل والسؤال عن الحج أو النذر ، وعمن مات أو على قيد الحياة ، وكلها تدل على أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاس دين الله تعالى على دين العباد لأن كلا منها ثابت واجب الأداء ، ثم ألحقه فى جواز أداء الفرع ، ما وجب على أصله وبراءة ذمة الأصل بذلك .

(جـ) وماروى من أن أعرابيا حضر الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ان امرأتى ولدت غلاما أسود ، وإنى أنكرته ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : فما ألوانها ؟ قال : حمر . قال : هل فيها من أورق ؟[1] قال : نعم . قال : «فأنّى ترى ذلك جاءها ؟ قال : عِرْق نزعه . قال : ولعل هذا عرق نزعه» . ـ ولهذا الحديث عدة روايات فى واقعات مختلفة .

(د) وما رواه البخارى بسنده عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : مثل القائم فى حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم . فقالوا : إنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نرد من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعا .

وقد أفاد هذا القياس حق الجماعة فى منع الضرر ودفع الأذى عنها .

(هـ) وما رواه الشيخان وأحمد عن عبد الله بن عمر قال :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «ألا لا تحتلبن ماشية امرئ إلا بإذنه ، أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته ، فتكسر خزانته ، فينشل ما فيها ؟ فإنما ضروع مواشيهم طعام أحدهم ، ألا فلا يحتلبن أحد ماشية امرئ إلا بإذنه ، أو قال بأمره . وهكذا اجتهد رسول الله ـ صلى الله

(١) أورق ـ بياض إلى سواد «أى الاسمر أو الرمادى» .

عليه وسلم ـ بقياسه ضروع المواشى على خزائن المال وحرم احتلابها دون إذن أصحابها كما يحرم كسر الخزانة وأخذ ما فيها دون إذن صاحبها(١) .

هذا : وإذا قاس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرعًا على أصل ، فهل يجوز إيراد القياس على ذلك الفرع ؟

والجواب :

أن القياس يجوز على فرعه ، وعلى كل فرع أجمعت الأمة على إلحاقه بأصل ، لأنه صار أصلا بالإجماع وبالنص ، واجتهاده لا يجوز مخالفته كذلك بالإجماع(٢) .

١٦ ـ مُثُلٌ من أقضية وأحكام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أبواب كثيرة ومتنوعات من القضايا والمنازعات وكان قضاؤه وحكمه فيما يعرض عليه اجتهادا فيما لم ينزل فيه الوحى ، وقد روت أم سلمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ فى ذلك قوله : «إنى لأقضى بينكم بالرأى فيما لم ينزل فيه وحى» .

ولقد حوت كتب السيرة والسنة قضاءه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحكامه ، ونعرض طرفًا منها مما يعد أصولا للقضاء :

(أ) روى الشيخان ومالك واللفظ للبخارى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصمان ، فلعل بعضا أن يكون أبلغ من بعض ، أقضى له بذلك ، وأحسب أنه صادق ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه ، فلا يأخذ منه شيئا ، فإنما أقطع له قطعة من نار» .

وبهذا يبين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمته أنه قدوة لها فى قضائه ، وأنه يجتهد فى سماع الخصومة من أطرافها ويتفحص أدلتها ثم يقضى قضاءه الذى ترشد اليه الأدلة وأقوال الخصوم ، ويحذر من أن يأخذ المحكوم له ماليس حقًا له ولو حكم له به .

---

(١) راجع فى الأقيسة فتح البارى بشرح البخارى حـ ٧ ص ٦٨ ، ٦٩ و حـ ٨ ص ٢١٥ جـ ١٢ ص ١٤٢ وأعلام الموقعين ح ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ . وكتاب أقيسة النبى المصطفى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ للامام ناصح الدين عبد الرحمن الانصارى المعروف بابن الحنبلى المتوفى فى المحرم سنة ٦٣٤ هـ بتحقيق الشيخين أحمد حسن جابر وعلى أحمد الخطيب بمجمع البحوث الإسلامية ط أولى ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .

(٢) المستصفى للغزالى حـ ٢ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ومعه فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(ب) وروى مالك فى الموطأ عن ابن شهاب عن حرام بن سعيد بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار . وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضمانه على أهلها .

(جـ) روى أبو داود عن عائشة قالت : مارأيت أصنع لطعام من صفية ، صنعت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طعاما ، فبعثت به فأخذتنى غيرة فكسرت الإناء ثم قلت : يارسول الله : ماكفارة ما صنعت ؟ قال : إناء مثل إناء ، وطعام مثل طعام .

(د) وفى مصنف ابن أبى شيبة عن جابر قال : قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى امرأة من الأنصار أعطاها ابنها حديقة من نخل ، فماتت ، فقال ابنها : إنما أعطيتها حياتها ، وله إخوة ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هى لها حياتها وموتها . قال : فإنى كنت قد تصدقت بها عليها ، قال : فذلك أبعد .

(هـ) وفى مصنف ابن أبى شيبة : وفى السير : أن سرية أصابت مالاً كان عند أبى العاص زوج زينب ابنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهرب أبو العاص ، ثم جاء فى الليل الى بيت زينب فى طلب المال واستجار بها ، فلما كَبَّر الرسولُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صلاة الصبح صرخت زينب ـ كصفة النساء ـ أيها الناس إنى أجرت أبا العاص ، فلما سلم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقبل على الناس فقال : هل سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا : نعم . قال : أما والذى نفسى بيده ما علمت بشىء حتى سمعت ما سمعتم : إنه يجير على المسلمين أدناهم ، ثم دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على زينب فقال : أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له . ثم قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ للناس : إن تحسنوا وتردوا عليه المال ، فهو الذى يحب ، وإن أبيتم فهو فئ الله أنتم أحق به . قال : فردوه اليه أجمع ، ثم احتمل الى مكة ، فأدى الى كل رجل من قريش ماله ، فقالوا : جزاك الله خيرًا فقد وجدناك وفيًا كريمًا . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، والله ما منعنى من الاسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا أنى إنما أردت أكل أموالكم ، فلما أداها الله اليكم أسلمت ، ثم خرج حتى قدم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وفى رواية فى واقعة لأم هانئ بنت أبى طالب حين أخبرته بأنها أجارت رجلا عام فتح مكة قال لها : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ[1] .

---

(١) هذه مثل من أحكام وأقضية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طالعتها فى كتاب أقضية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لابى عبد الله محمد بن فرج المالكى القرطبى المتوفى سنة ٤٩٧ هـ عن الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ دار الوعى بحلب . منسوبة إلى مصادرها من كتب السنة والسيرة .

١٧ ـ **وكانت للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتيا أو فتاوى** فى العقيدة والشريعة تناولت أبوابًا عديدة نعرض هنا أمثلة لأنواع من اجتهادات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتعلم منها المسلمون أحكام معاشهم ومعادهم ونختتم بها هذه الكلمة عن اجتهاد الرسول .

* سئل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الإحسان : فقال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

* وسئل عن معنى قول الله سبحانه « **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** » فقال : هم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون ألا يقبل منهم .

* وأفتى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شاة ذبحت بغير إذن صاحبها وقدمت إليه أن تطعم الأسارى .

* وسئل عن امرأة نذرت أن تحج ماشية ، حافية غير مختمرة ، فأمرها أن تركب وتختمر وتصوم ثلاثة أيام .

وسأله رجل فقال : إنى نذرت أن أنحر إبلا ببوانة ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أكان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالوا : لا .. قال : فهل كان فيها عيد من أعيادهم ؟ . قالوا : لا ، قال : « أوف بنذرك فإنه لا وفاء بالنذر فى معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم » ذكره أبو داود .

* وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله : أرأيت إن قُتلت فى سبيل الله ، وأنا صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ، أيكفر الله عنى خطاياى ؟ قال : « نعم » ثم قال : كيف قلت ؟ . فرد عليه كما قال ، فقال : « نعم فكيف قلت » فرد عليه القول أيضا ، فقال : أرأيت يارسول الله إن قُتلت فى سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلا غير مدبر ، يكفر الله عنى خطاياى ؟ قال : نعم ، إلا الدَّيْن ، فإن جبريل سارَّنى بذلك .

* وسأل أعرابى : قال : يارسول الله : أنتداوى ؟ قال : « نعم فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء ، علمه من علمه وجهله من جهله » .

* وسئل « يارسول الله أرأيت رقى نسترقيها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : هى من قدر الله » .

* وسئل عن ضمانة الطبيب فأفتى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بأن من تطبب ولم يعلم منه الطب

قبل ذلك فهو ضامن ـ وقد دلت هذه الفتوى على أنه إذا كان طبيبا وأخطأ فى تطبيبه فلا ضمان عليه .

* وسئل عن رجل رأى فى المنام كأن رأسه ضرب فتدحرج فاشتد فى أثره . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك فى منامك» .

* وسئل عن معنى قول الله سبحانه : «**لَهُم البُشْرى فى الحَياةِ الدُّنيا وفى الآخِرَةِ**» فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ «هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو تُرَى له»[1] .

١٨ ـ خاتمة :

نخلص من هذا كله إلى :

١ ـ أن الرسول محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان متعبدًا ومأذونًا من الله سبحانه الذى أرسله رحمة للعالمين ـ بالاجتهاد .

٢ ـ وأن اجتهاده كان فى أمور الدين والدنيا التى تعرف بالاجتهاد ولا تتوقف على الوحى ، وإذا اجتهد ، فأصاب فيها ، وإلا نزل الوحى بتسديده الى الصواب ، ولا يقره الوحى على خطأ .

٣ ـ وأنه وقع منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الاجتهاد فى العبادات كالصلاة والصوم والحج ، وما يلائمها من دعاء واستغفار .

٤ ـ وأنه استفتى فى أمور غيبية ـ كحال أولاد غير المسلمين ، ومالهم فى الآخرة ، وحال من عنف الله من الأمم السابقة ومسخهم حيوانات ، وهل يجوز أن ينسلوا ؟ وأفتى بجواز تناسلهم ، ثم عدل الى إفتاء آخر بالمنع ، وكان هذا باجتهاد آخر ، أو بوحى .

٥ ـ وأنه ثبت ـ بما نقلته كتب السنة والسيرة ـ أن ـ النبى صلى الله عليه وسلم ـ اجتهد وأنه عدل الى اجتهاد آخر فى ذات الواقعة مما يؤكد أن الوحى صَوَّب الاجتهاد الأول بل إنه فى بعض الروايات صرح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن جبريل سارّه بكذا وأن ذلك واقع فى أمور الدين والتشريع كما هو واقع فى أمور الدنيا وفى الغيبيات .

٦ ـ لكن أكان تصويب الوحى وبيان حقيقة الأمر فيما اجتهد فيه رسول الله ـ صلى الله عليه

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم ـ فتاوى أمام المتقين حـ ١ ص ١٧١ ـ ١٧٥ وزاد المعاد لابن القيم حـ ٣ ص ١٤١ ، ٢٢٦ ؛

وسلم ـ يقع على الفور ، أم على التراخي ؟ . يصعب تحديد الفترة الزمنية بين الأمرين ، بين إبداء الرأى اجتهادًا وبين الوحى بالتصويب .
إذ لم يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك والأمر له ، وبعض الاجتهاد لم يصوّبه الوحى كما فى واقعة تأبير النخل .

٧ ـ وإذا كانت رؤيا الأنبياء من باب الوحى ، كان اجتهاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تعبير رؤياه إخبارًا عن هذا الوحى ، فلا يكون إلا صوابا ، كما هو الشأن فى الوحى ، على ما يدل عليه حديث سمرة بن جندب الذى رواه الإمام أحمد[١] عن رؤيا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى فيها شيخًا وصبيانًا فى روضة خضراء وأنه عبر الشيخ بإبراهيم ـ عليه السلام ـ والولدان الذين حوله بكل مولود يولد على الفطرة وأنهم فى الجنة. ثم سئل (وأولاد المشركين) ؟ فقال : (نعم وأولاد المشركين) .

٨ ـ ولا يعتبر سكوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل الأحوال على ما يقع بحضرته حجة على صحته أو إقرارًا له ، بل قد يكون وقوفا عند الدافع أو انتظارًا للوحى ـ كما فى حديث ابن الصائد الدجال[٢] .

وقد يكون سكوته من باب التيسير والترغيب فى الإسلام مع علمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن صاحب الواقعة سيحافظ فيما بعد على سننه وآدابه ، كما فى قصة وفد ثقيف التى رواها الإمام أحمد[٣] فى مسنده عن عثمان بن أبي العاص ، حيث قبل إسلامهم بشروطهم . وكما فى قصة امرأة[٤] صفوان بن المعطل حيث اشتكت ـ زوجها ـ الى الرسول فقالت : إنه يضربها إذا صلّت ، ويفطرها إذا صامت ، وكان صفوان عند الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله عن مقالتها فقال :

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل حـ ٥ ص ٩ طباعة المكتب الإسلامى ببروت .
(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ ١٣ ٢٧٦ ـ ٢٧٩ ونص الحديث : روى البخارى عن محمد بن المنكدر قال : رأيت جابر بن عبد الله يحالف بالله أن ابن الصياد هو الدجال قلت تحلف بالله ؟ قال : انى سمعت عمر بن الخطاب يحلف على ذلك عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم ينكره النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أفاد ابن حجر فى شرح هذا الحديث ص ٢٧٦ أن هذا الأسم (ابن الصائد) ورد بصيغة المبالغة (الصياد) لأبى ذر وابن أبى بطال لكن بغير الف ولام « صياد » وفى رواية مسلم والباقين « ابن الصائد بوزن الظالم » .
(٣) حـ ٤ ص ٢١٨ .
(٤) فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ ٨ ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .

أما قولها يضربني إذا صليت ، فإنها تقرأ سورتى «يعنى آيات[٤] قصة الإفك» وقد نهيتها عنها .. وأما قولها : يفطرنى إذا صمت ، فأنا رجل شاب لا أصبر. وأما قولها : لا أصلى حتى تطلع الشمس ، فإنا أهل بيت قد عرف لنا ذلك ، فلا نستيقظ حتى تطلع الشمس .

وقصة امرأة صفوان هذا رواها أبو داود والبزار وابن سعد وابن حبان والحاكم فى صحيحيهما عن ابن سعيد .

وقال الحافظ ابن حجر فى تعليقه على تلك الرواية : إن رجال هذا الحديث رجال الصحيح .

هذا : ولم يعلم أن أحدًا نقل أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ رد على صفوان بشىء ، ولعل سكوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه ، كان من تمام تثبيته على الإسلام وتيسيره عليه ، علما منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه ـ فيما بعد ـ سيحافظ على سننه وآدبه .

هذا : وبالله التوفيق . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(٤) الآيات من ١١ ـ ٢٣ من سورة النور . ذلك لان صفوان بن المعطل هو الذى حمل السيده عائشة رضى الله عنها على جمله ، ولحق بالركب فاشاع المنافقون ما اشاعوا من قصة الافك التى نبه القرآن عليها فى هذه الآيات ، وروتها كتب السنة ..

مجالى الشمائل المحمدية

فضيلة الأستاذ الكبير
أحمد حسن الباقورى

رغبت إلى ـ أرغب الله قدرك ـ فى أن أتشرف بالمشاركة فى مؤتمر : « السيرة النبوية الشريفة » ، بكلمة أتخير عنوانها وموضوعها .

وقد استخرت الله تعالى فى أن يكون عنوان هذه الكلمة : «مجالى الشمائل المحمدية» .

وإنى لضارع إلى الله ـ تعالى ـ أن يقيمنا على حاق[1] الطريق ، وأن يجنبنا العُجب بما نحسن والتكلف لما لا نحسن .

وهو تعالى سميع مجيب الدعاء بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، وبالإجابة جدير .

ولعل من الحق علينا لمن يقرأ لنا أن نبدأ حديثنا إليه بإيضاح المعنى المقصود من هذا العنوان ، إذ كان العنوان خلاصة موجزة لموضوعه فعلى قدر ما يكون واضحا يكون الانتفاع به والإقبال عليه ، والله ولى المؤمنين .

فأما كلمة «مجالى» فإنها جمع مَجْلى ، والمجلى : الموضع الذى يتجلى فيه الأمر من الأمور على غاية الوضوح وتمام الجلاء .

وأما كلمة «شمائل» ، فإنها : جمع شمال ، والشمال : الخلق الذى أخذ الإنسان نفسه به من

(١) حاق الطريق : رأسه أو بدايته .

شرف الأدب حتى صار كالخلقة فيه ، فإن كان شرف الأدب فى المرء خليقة له وطبعا فيه ، فإنهم يضعون له كلمة تدل عليه وتختص به ، وهى كلمة : «خيم» على مثال الكلمة : «جيم» .

وقد اجتمع لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأمران جميعا من شرف الفطرة ، وشرف التخلق بأخلاق القرآن .

وغير خفى على أهل العلم أن كتب « الشمائل المحمدية » ، جمع فيها مؤلفوها بين الأوصاف الظاهرة والأوصاف الباطنة التى كانت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على نحو ما صنع الإمام أبو عيسى الترمذى الذى كتب عن شمائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجمع فى نظم الشمائل بين ما يتعلق ـ بخَلْقه الشريف ، وخلقه العظيم .

غير أن الذى تنصره لغة العرب ويؤيده عرف الكاتبين من أهل الفضل ، هو أن الشمائل ترجع إلى الأوصاف الباطنة على ما يقول أهل اللغة :

إن الشمائل هى : الطباع والأخلاق ، وشاهدهم على ذلك قول الشاعر :

ألم تـعـلما أن الملامة نـفـعـهـا ... قليل وما لومى أخى من شماليا

وكذلك قول صخر بن عمرو الشريد أخى الخنساء :

أبى الشتم لى أنى أصابوا كريمتى ... وأن ليس إهداء الخنى من شماليا

وعلى مثل ذلك قول لبيد بن ربيعة العامرى ـ رضى الله عنه ـ :

همُ قومى وقد أنكرت منهم ... شمائــل بـدلوهـا مـن شمالى

ويقول الإمام ابن منظور : فلان رجل كريم الشمائل أى : فى أخلاقه ومخالطته .

ومن ذلك قول الشاعر :

لـقـد زادنى حبا لنفسى أننى ... بغيض إلى كل امرىء غير طائل

إذا ما رآنى قطع الطرف بينه ... وبينى فعل العارف المتجاهل

ملأت عليه الأرض حتى كأنها ... من الضيق فى عينيه كفة حابل

وإنى شقىٌ بـالـلـئـام ولا ترى ... شقيا بهم إلا كريم الشمائل

فكلمة الشمائل فى هذه الأبيات من الشعر العربى الأصيل تعنى : الخلائق والأخلاق .

وربما قالت العرب : فلان مشمول الخلائق ، يعنون : أنه كريم الأخلاق ، وهم يأخذون ذلك من الماء الذى ضربته ريح الشمال فبرد وصفا وطاب لشاربيه .

ومن ذلك قولهم :

ولتعرفن خلائقا مشمولة ولتندمن ولات ساعة مندم

هذا ، وإذ قد استبان المعنى المراد من الكلمتين : « مجالى » ، « وشمائل » .

فاعلم ـ علمك الله الخير ـ أن شمائل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تتجلى لرائديها :

فى القرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثم فى السنة المطهرة ، التى تؤيدها التجربة المصدوقة .

ثم فى السيرة العطرة ، التى تدونها الأقلام الموثوقة .

ثم فى الشعر العربى الذى تلقاه الأخلاف عن الأسلاف ، أو نهجوا نهجهم فيه .

فأما القرآن الكريم : فقول الله ـ جل ثناؤه ـ : «**ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم**» .

ففى هذه الآية قسم من الله تعالى « بالقلم » تشريفا لشأنه من حيث كان أحد لسانى الإنسان الذى علمه ربه البيان .

وليس يجهل أهل العلم ، أن الخلق العظيم ، له صورتان :

إحداهما : أن يكون الخلق طبيعة فى المرء وسمة له ، وهى التى يسميها أهل اللغة : الخيم ـ بكسر الخاء ـ على ما يقول شاعرهم :

ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه يدعه ويغلبه على النفس خيمها

وهذا اللون من الخلق هو الخلق العظيم ، ولعله هو المراد فى الآية الشريفة من سورة « القلم » .

وثانية الصورتين : أن يكون الخلق نتيجة التخلق ، ومجاهدة المرء نفسه لكى يحملها على اعتناق معالى الأمور وتجنب سفسافها ، وغير مجهول أن التخلق غير الخلق من حيث كان الخلق ثابتا لا يتبدل ، وكان التخلق قابلا للتغيير والتبديل على ما يقول الشاعر :

يـا أيها المتحلى غير شيمته ومن طبيعته التبديل والملق
إرجع إلى خيمك المعروف ديدنه إن التخلق يأبى دونه الخلق

وقد وصف الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخلق العظيم الذى يرجع إلى الخيم

والطبيعة والفطرة فهو لا يتخلف عن الموصوف به فى قول ولا فى تصور ، ولا فى سلوك ، فذلك قول الله ــ جل ثناؤه ــ :

« لقد جاء كم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

يقول ــ جل ثناؤه ــ : لقد جاء كم رسول من جنسكم من البشر ثم من بنى إسماعيل ثم من العرب الذين هم أبناء إسماعيل ، فليس فى العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبى وفيها له نسب وقد مَنَّ الله عليكم أيها العرب بأن محمدا منكم ، لأنكم إذا عرفتم مولده ومنشأه وشاهدتموه صغيرا وكبيرا ، كان أقرب إلى القبول منكم وكنتم أحرى بالانقياد له مع أنه شديد عليه عنتكم ، وما يلحقكم من الضرر بترككم الإيمان به ، إذ كان حريصا عليكم وكان بالمؤمنين منكم رءوفا رحيما .

ومن ذلك أيضا قوله ــ جل ثناؤه ــ : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك .... الآية » .

ففى هذه الأية بيان من الله ــ سبحانه وتعالى ــ بأن مساهلة النبى إياهم ومجاوزته عنهم ، هى من رحمة الله تعالى بهم حيث جعل نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لين الجانب حسن الخُلق ، إذ لو كان فظا جافيا سيىء الخُلق لانفض الناس من حوله ونفروا منه ، فكان فى ذلك خسارهم فى الدنيا والآخرة .

وليس يغيب عنك أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بهذه الأخلاق الشريفة ــ كان مِنَّة من الله تعالى على عباده على ما تقرر ذلك الآية الشريفة من « سورة آل عمران » :

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

ففى هذه الآية بيان من الله تعالى بأنه أنعم على المؤمنين نعمة عظيمة من غير أن يسألوه إياها فكانت بعثته ــ صلوات الله عليه ــ كالرزق غير المحتسب ، وكالعسل الحلو الذى ينزل من السماء يستلذه الناس من غير أن يبذلوا فى الحصول عليه جهدا ولا يتجشموا مشقة .

وقد جعل الله تعالى نبيه محمدا رحمة لهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة التى : هى السنة ، وقد كانوا من قبل بعثه إليهم فى ضلال مبين . فبعثه ــ سبحانه ــ إليهم فعلمهم وليس لهم علم ، وأدبهم وليس لهم أدب ، فكانت النعمة به ــ صلى الله عليه وسلم ــ نعمة سابغة تستحق الشكر وتتأبى على الجحود .

هذا ، وأما السنة المطهرة ، فقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما روى ابن عباس :

«ما ولدنى من سفاح الجاهلية شيء ، إنما ولدنى نكاح كنكاح الإسلام» .

ولكى يتضح معنى الحديث ويستبين فيه وجه شمائله الشريفة ، لا نرى منتدحا عن وقفتين :

إحداهما : حول طهارة نسبه من أدران الجاهلية .

وثانيتهما : حول صلة نسبه الطهور بشرف شمائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فأما الوقفة الأولى ، فجملة القول فيها : أن نسب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لم يقع فيه ما يعيبه بما كان يواقعه أهل الجاهلية من نكاح « المقت » وهو : أن يخلف الابن الأكبر أباه على زوجته من بعده ما دامت ليست أما له .

فكذلك سلم نسبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

من هذا اللون القبيح من النكاح الذى اجتمعت فيه مراتب القبح الثلاث :

القبح فى العقول ، مشارا إليه بالكلمة «إنه كان فاحشة» .

والقبح فى الشرائع ، مشارا إليه بالكلمة «مقت» .

والقبح فى العرف ، مشارا إليه بالكلمة «ساء سبيلا» . ومتى اجتمعت فى النكاح هذه الوجوه فقد بلغ من القبح غاية لا غاية وراءها .

هذا ما قرره أهل العلم فى هذه القضية ، وهم يريدون بذلك نفى هذا النكاح المقيت عن النسب الطهور .

غير أن الحافظ قطب الدين خشى أن يكون قد أصاب النسب الشريف نكاح « المقت » ، وقد ركبت به هذه الخشية الأهوال ليله ونهاره .

ذلك أن نسب رسول الله ، فى الصميم من قريش ، وقريش هو : النضر بن كنانة بن خزيمة ، وقد كان النضر هذا ثمرة نكاح « مقت » إذ كان أبوه كنانة قد تزوج برة بنت أدبن طابخة التى كانت زوجة لأبيه .

يقول قطب الدين عبد الكريم : «إننى حين جالت برأسى هذه الخاطرة ، أقمت مفكرا أمدا طويلا لكون برة المذكورة كانت زوجة لخزيمة ، فخلف عليها ابنه كنانة فجاء له منها النضر بن كنانة وقد وقع هذا فى نسب النبى ، فيكون مناقضا للحديث الذى يقول فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «مازلت أخرج من نكاح كنكاح الإسلام حتى خرجت من بين أبى وأمى» .

فكيف يمكن التوفيق بين ما جاء فى الحديث الشريف ، وبين ما يعرفه علماء النسب مما يدخل بنسبه فى نكاح « المقت » ؟ .

يقول الحافظ : ومازلت فى أشد الحيرة حتى وقع فى يدى كتاب « الأصنام » الذى ألفه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فإذا هو يقول فيه :

لقد خلف كنانة بن خزيمة على زوجة أبيه بعد وفاته التى هى برة بنت أدبن طابخة ، ولكنها لم تلد لكنانة ولدا لا ذكرا ولا أنثى ، وإنما كانت ابنة أخيها برة بنت مر بن أد زوجة لكنانة بن خزيمة فولدت له النضر بن كنانة الذى هو قريش .

وإنما غلط كثير من الناس لما سمعوا أن كنانة خلف على زوجة أبيه برة فذهب وهمهم إلى أن كنانة تزوج برة بنت أد بن طابخة على حين أنه كان قد تزوج بنت أخيها لاتفاق اسمها وتقارب نسبها ، وهذا هو ما عليه أهل العلم وأهل النسب .

يقول الجاحظ بعد أن قرر هذه الحقيقة : ـ ومعاذ الله ـ أن يكون قد أصاب نسب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، نكاح « مقت » وقد قال ـ صلوات الله عليه ـ : « مازلت أخرج من نكاح كنكاح الإسلام حتى خرجت من بين أبى وأمى » .

ومن اعتقد غير هذا فقد كفر بما نسب إلى رسول الله أنه ثمرة نكاح « مقت » .

والحمد لله الذى نزهه عن كل وصم وطهره تطهيرا .

هذا ، وأما الوقفة الثانية : فإنها تقوم على أن الرجل كلما كان سليل أنساب عريقة وربيب أحساب شريفة ، كان أقرب إلى الأخذ بمعالى الأمور وتجنب سفسافها .

وليس من شك فى أن زوجة الأب تنزل من الإنسان بمنزلة الأم ، فنكاحها يعاند الفطرة الإنسانية السوية ، ويصادم الوجدان الصحيح ، ولذلك نظن أن نكاح الولد زوجة أبيه لم يكن فى ذوى الأحساب وشرفاء القوم من عرب الجاهلية ، وإذا كان ذلك صحيحا ـ وهو صحيح ـ فقد سلم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نسب شريف لم يخالطه من دنس الجاهلية ما يشوه شرف الأنساب .

وباستصحاب هذه الكلمات مسلمة الثبوت عند ذوى العقول ، يكون ذوو الأحساب الشريفة أبعد الناس عن الدنايا والمجاهرة بالرذائل الاجتماعية .

ويكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحق بقول الشاعر العربى :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
ولست بماشٍ ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشى إلى مثله مثلى

ولما كان الفضل يدعو إلى الفضل ، والشرف يهتف بالشرف ، كان شرف الحسب فى الرجل محورا تدور عليه كل الفضائل الاجتماعية من : الأمانة والعفة وإيثار مكارم الأخلاق ، يتخذها المرء أصلا يقيم عليه حياته ، ويقيس إليه اختلاطه بالناس ، فإما اتخذهم أصدقاء يألفهم ويألفونه وإما اتخذهم أعداء يتجنبهم ويتجنبونه .

وليس يستعصى عليك ـ حفظك الله ـ أن تلتمس فى أقوال الذين يوثق بهم ـ دينا ومعرفة وتجربة ـ ما يؤيد هذه القضية القائمة على أن الأحساب الشريفة تصون ذويها عن الدنايا وتنأى بهم عن صغائر الأمور ، وشاهد ذلك ما يرويه الثقات من أن أمير المؤمنين عمر كان يحاسب عماله على ما اكتسبوه من ثروات ، ظانا أنهم إنما اكتسبوها باستغلال نفوذهم وسلطان مناصبهم ، على نحو ما صنع مع والى مصر ـ عمرو بن العاص ـ ، فأجابه عمرو ـ رحمه الله ـ بكتاب يقول فيه : « إننى لم أطرق لك على هذه الولاية بابا ، ولم أفتح لك عليها قفلا ، ووالله لو كانت خيانتك حلالا ما خنتك ، فإن لنا أحسابا تمنعنا أن نخون » .

وعلى مثل ذلك جاء الخبر عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فقد سأل أهل ثقته أن يدلوه على جماعة من القراء يوليهم أمر الأمة .

فقال له عالم ثقة : إن القراء ـ يا أمير المؤمنين ـ ضربان : ضرب يعمل لله فلا يعمل لك ، وضرب يعمل للدنيا فإذا مكنته منها ، لم يكن عاملك الذى تريد . ولكن عليك بأهل الأحساب الذين يستحيون لأحسابهم ، فاسند أمور الرعية إليهم .

وليس مما يستبعده أهل العلم ، أن تكون أم المؤمنين خديجة قد استصحبت هذه المعانى الشريفة وهى تطمئن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قال لها بعد أن أوحى إليه : « لقد خشيت على نفسى يا خديجة » فأجابته قائلة له : « كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » . وهى تريد بذلك ـ رضى الله عنها ـ ، أن الذى يصنع هذه الفضائل الشريفة لابد أن يكون مكينا فى شرف الأحساب والأنساب ، ومن ثم لا يقارف دَنِيَّة ولا يواقع رذيلة لأنه لو فعل هذا لسقط اعتباره فى

المجتمع وفقد منزلته الشريفة التى رفعه إليها كرم حسبه وعظم نسبه ، وتلك قضية مسلمة فى بداهة العقول .

هذا ، وأما السيرة العطرة : فمبلغ علمى أن ها هنا أمرا يطلب موضعه فى صدد الحديث عن السيرة ، معينا لطلاب المعرفة على تحصيل ما ينتفع به فى هذا المجال الشريف . وذلك الأمر هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن القيم حيث قال فى كتابه «الروح» : وإنى مخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان ، شاهدته مشاهدة عيان .

ذلك أنك قلّ أن ترى آفة فى بدن إلا وفى روح صاحبه آفة تناسبها . ولهذا يأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها وقلما يخطئون فى ذلك .

وقد حكى عن الشافعى فى ذلك عجائب . ثم إنك قلّ أن ترى شكلا حسنا وصورة جميلة فى تركيب لطيف ، إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له ، وهذا إذا لم يعارضه ما يوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد .

كذلك قال الإمام ابن القيم ـ رضى الله عنه ـ . وكذلك يقول الثقات : إن ارتباط الشكل الظاهر بالروح الباطن ، هو الذى دعا الذين كتبوا عن الشمائل إلى أن يجمعوا فى حديثهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أوصافه الظاهرة وأوصافه الباطنة يشيرون بذلك إلى هذا المعنى الذى ذكره الإمام ابن القيم ، ولذلك يكون من الحق الذى لا محيص عنه أن يجمع «كتاب الشمائل» بين صفاته الحسية الظاهرة وبين صفاته المعنوية الباطنة ، فإذ قد كانت صفاته الحسية الظاهرة على غاية الكمال ، فكذلك تكون صفاته المعنوية الباطنة على غاية الكمال أيضا سواء فى ذلك ما يتصل بأخلاقه الفطرية ، وما يتصل بأخلاقه المكتسبة .

وبتمثل هذا المعنى ، لا ترى مندوحة عن التسليم بما ذكره الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه «الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير» وذلك حيث قال ـ رحمه الله ـ : إن الفعل «كان» إذا ذكر فى معرض الوصف لرسول الله فإنه يدل على شمائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهما كان متعلق هذا الفعل صفة ظاهرة أو معنى باطنا .

وعلى هذه السنة مضى كتاب السيرة النبوية المطهرة فذكروا صفة خلقه الشريف مقترنة بصفة خُلُقه العظيم ، ولعلهم يستصحبون فى ذلك الصنيع هذا المعنى الذى ذكره شيخ الإسلام ابن القيم .

ولهذا كان من الحق علينا لك ـ حفظك الله ـ أن نمضى على السنة نفسها التى مضى عليها

الأسلاف الصالحون وقررها الإمام الحافظ السيوطى ـ رضى الله عن الجميع ، وأرضاهم ورضى عنا بهم أجمعين ـ .

ولعلك لا تعقل غير معقول إذا قلت : إن الأخذ بهذا الذى قرره ابن القيم يشتمل على منفعة عظيمة يحرص على الظفر بها الذين يؤثرون التعرف على خيار الناس وفضلائهم من أيسر وأقصر وأوثق طريق ، فإذا أردت أن تصاهر رجلا أو تشاركه فى حرفة أو تزامله فى مجال من مجالات الحياة الكريمة ، فليس عليك إلا أن تنظر اليه فإن وجدت صورته الظاهرة سالمة من الآفات خالية من المعايب ، فلا تتردد فى أن تتخذ منه صديقا يسعدك بصحبته ، ويشرفك بمزاملته ، ويكون دليل خير للناس عليك ، على ما يقول الشاعر العربى الأصيل :

عن المرء لا تسأل ، وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

وباستصحاب هذه المعانى ـ على ما ينبغى لها من حسن التدبر ـ تستطيع أن تفقه المعنى الذى قصد إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فى إيثاره الاسم الحسن والوجه الحسن كما يشير إلى ذلك ، الحديث الذى رواه « فى التيسير » ، وأخرجه مالك عن يحيى بن سعيد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ذات يوم وقد جلس إليه أصحابه فأراد أن يشرب معهم لبنا من ناقة حلوب فقال ـ مشيرا إلى لقحة بين يديه : ـ « من يحلب هذه » ؟ . فقام رجل فسأله النبى عن اسمه فقال : « مرة » ، فأمره بالجلوس ، ثم قام آخر ، فقال : اسمى « يعيش » ، فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أحلب أنت » . فشرب رسول الله ، وسقى من معه من أصحابه ، ثم قال : « إذا أبردتم إلى بريدا ، فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم » .

وليس يخفى عليك ـ حفظك الله ـ أن الإنسان حسن الخِلقة سوى التركيب هو ـ فيما ذكر الإمام ابن القيم ـ ذو خُلق رضى سليم من العيوب والآفات .

فهذا هو المعنى الذى أراده رسول الله من وصاته أصحابه أن يختاروا فى الإبراد اليه صاحب الوجه الحسن ، والاسم الحسن ، وهو يريد بذلك ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبغّض للمؤمنين ماكان يؤثره أهل الجاهلية من الأسماء القبيحة على ما يقول أعرابى سئل لماذا تسمون أبناءكم بالأسماء القبيحة وتسمون عبيدكم بالأسماء الحسنة ؟

فقال الأعرابى : إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا ونسمى عبيدنا لنا ، نقول : اذهب يا كلب ، اذهب يا أسد ، تعال يا بلال ، تعال يارباح .

* * *

ولست تحتاج إلى من يذكرك بأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ظفر من فضل الله تعالى عليه بالحسن فى اسمه الكريم ، وبالحسن فى صورته الشريفة ، وبالحسن فى خلقه العظيم .

فأما الحسن فى اسمه الكريم ، فإليه الإشارة بقول الله تعالى : **«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل»** . والمحمد على مثال المعظم هو الذى يحمده الناس حمدا بعد حمد . وكذلك قوله تعالى على لسان المسيح ـ عليه السلام ـ :

«واذ قال عيسى ابن مريم يابنى اسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد» .

والأحمد هو : أكثر الناس حمدا لله فلما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر الناس حمدا لله جعله الله محمدا على ألسنة الناس ، يحمدونه حمدا بعد حمد ، فهذا هو وجه الحسن فى تسميته ـ صلوات الله عليه ـ بمحمد ، وبأحمد فى القرآن الكريم .

وأما الحسن فى صورته الشريفة فإليه الإشارة بما ذكر أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ حيث قال : « ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأن الشمس تجرى فى وجهه ، ولا رأيت أحدا أسرع فى مشيته منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأنما الأرض تطوى له » .

وكان ـ كما روى الإمام الترمذى ـ أزهر اللون ، إذا مشى مال إلى سنن المشى ، وهو : ما بين يديه ، مشية أهل العزم والهمة ، وليس كما يمشى الجمل الأهوج .

هذا ، وقد وصفته أم معبد وصفا ذكره العلامة عبد القادر المغربى ـ عضو مجمع اللغة العربية ـ الأسبق ، فذلك حيث قال ـ رضى الله عنه ـ : لقد ثوى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قريش ، بضع عشرة حجة يذكرهم ويدعوهم إلى الاسلام ، وهم لا يزدادون إلا عتوا واستكبارا فرأى أخيرا أن هذا العناد من قومه ، يحول بينه وبين حريته فى نشر دعوته ، وأنه إذا بقى فى مكة قريبا من المشركين ، سهل عليهم أمر مراقبته وإسكاته وخنق دعوته ، فلا تخلص إلى سائر العرب بيسر وسهولة ، فهاجر إلى يثرب ومعه رفيقه أبو بكر الصديق ، وفى طريقه إلى مهاجره كانت تقوم خيمة منصوبة على قارعة الطريقة وهى خيمة أم معبد ، وأم معبد هذه : امرأة برزة جليلة لا ترى بأسا فى أن تظهر للرجال فتجالسهم وتحادثهم ، وقد اتخذت فى الطريق بين مكة والمدينة خيمة أعدت فيها كل ما تستطيع تقديمه لراحة المسافرين .

فكان المسافرون الذين يتعبهم السير يعرجون على خيمة أم معبد فيجدون فيها ما يحتاجون إليه من طعام وشراب واستجمام ، وحديث عذب نزيه تطرفهم به صاحبة الخيمة .

فكانت خيمتها ، أشبه بمحطة من محطات سكك الحديد ، أو فندق من فنادق المسافرين التى تقام فى الطرقات الشاسعة .

وأم معبد هى مديرة ذلك الفندق المتواضع ، ولما أشرف ركب الهجرة على أم معبد وجدوها منهمكة فى تهيئة ما يلزم للمسافرين ، وإذا هى ترى فى هذا الركب سيدين جليلين ، وخادمين معهما وأحد السيدين يمتاز : بحسن سمته ، وجلالة قدره ، وجمال طلعته ، ورفاقه الثلاثة يحيطون به ، يرفهون عنه ، ويبتغون راحته ، ويسارعون فى خدمته .

أما أم معبد ، فكانت موزعة الفكر ذاهلة اللب ، كأنها مأخوذة بمهابة ذلك السيد الذى نزل بها وما كانت تعرف من هو؟ .

وإذا أبو بكر ينادى : يا أم معبد ، أما لديك ما نأكله ؟ .

قالت السيدة الجليلة : بلى يا سيدى ، ثم أسرعت فقدمت اليهم لبنا دون كفايتهم ، وأخذت تعتذر بأن السنة سنة جدب وقحط .

وحانت من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ التفاتة ، فرأى شاة رابضة فى جانب الخيمة وهى جافة الضرع مهزولة الجسم ، فقام إليها ومسح ضرعها . وأم معبد تتعجب وتقول فى نفسها ماذا عساه يفعل ؟ . وإذا هو يحلب الشاة ، وإذا هى تدر باللبن ، فشربوا حتى إذا ارتووا واستراحوا . هبوا عجلى إلى ركائبهم واستبقوا طريقهم إلى المدينة تاركين أم معبد فى دهشة من أمرهم .

وبعد هنيهة قدم عليها زوجها أبو معبد فرآها مضطربة متغيرة اللون ، ورأى فى جنبات الخيمة آثار أكل وشرب ورغد وخصب .

فقال : يا أم معبد ما الخبر؟ وما هذا الذى أرى ؟ فأخبرته بخبر المسافرين الذين نزلوا بها . وأن واحدًا منهم قام إلى نعجتها هذه العجفاء الجافة الضرع فحلبها فدرت لبنا غزيرا . ولم يكن بد للرجل أن يسأل زوجته : يا أم معبد ، صفى لى هذا الرجل العجيب . فقالت : « إنه ظاهر الوضاءة ، مليح الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة (كبر بطن) ولم تزد به صعلة (صغر رأس) فى عينيه دعج (سواد على سعتها) . وفى أشفاره وطف (طول الأهداب) ـ وفى صوته صحل (بحة) أحور (شدة بياض العين مع شدة سوادها) ، أكحل ، أزج (رقيق الحاجبين) طويلها ، أقرن (متصل الجانبين) . شديد سواد الشعر ، فى عنقه سطع (طول العنق) وفى لحيته كثاثة (كثافة الشعر) ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم ، علاه البهاء ، كأن منطقه خرزات نظمن ثم تحدرن ، حلو المنطق ، لا نذر ولا هذر ، أجهر الناس إذا تكلم ، وأجلهم من بعيد .

وأحلاهم وأحسنهم من قريب . ربعة : لا تشنؤه ـ لا تبغضه ـ العين من طول . ولا تقتحمه ـ لا تحتقره ـ من قصر . غصن بين غصنين : له رفقاء يحفون به : إذا قال يستمعون لقوله ، وإذا أمر يتبادرون لأمره . محفود : يتسارعون إلى خدمته . محشود ـ يحتشد الناس حوله لا ستماع كلامه ـ . لا هو عابس ولا مفند ـ لا يكثر لوم جلسائه » .

فلما سمع أبو معبد هذا الوصف . قال ـ وقد علاه الوجوم ـ : ويحك يا أم معبد إن هذا هو صاحب قريش الذى يطلبونه ، وقد بذلوا جعلا لمن يرده إليهم . ثم تركها وأخذ يشتد فى إثر الركب حتى أدرك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم . ورجع إلى قبيلته يبشرهم بالإسلام وجعل رجال القبيلة الذين بلغهم خبر مرور النبى بأم معبد . يفدون على خيمتها : يستوصفونها صفة رسول الله وهى تصفه لهم ، حتى قال لها قائل منهم : يا أم معبد . ما بال وصفك للرسول أوفى وأتم من وصفنا له لو رأيناه نحن معشر الرجال ؟ .

قالت أم معبد : «أما علمتم أن المرأة إذا نظرت إلى الرجل . كان نظرها أشفى : (أدق وأشمل) من نظر الرجل إلى الرجل» .

هذا . وأما الحسن فى خُلقه العظيم فإنه : يتجلى لرائديه فى صور كثيرة لا يكاد يجمعها كتاب حافظ . ولا يحصيها سجل واع . والقليل الذى يذكره الثقات من أهل العلم يدل على الكثير .

وأول مواطن الحسن فى خلقه العظيم وأولاه بالذكر فى هذا المقام : بعد همته وكبر نفسه منذ كان صبيا : فقد كان يوضع لجده عبد المطلب فراش فى ظل الكعبة يجلس عليه ويجلس من حوله أبناؤه . فيجئ محمد بن عبد الله طفلا يدرج على الأرض فيجلس إلى جانب جده على فراشه فيحاول أعمامه تنحيته ، فيقول لهم عبد المطلب : « دعوا ابنى وما أراد ، فإن له لشأنا عظيما » .

ومن مواطن الحسن فيه أيضًا ، ما يرويه الإمام السهيلى عنه وهو : فى كفالة عمه أبى طالب بعد موت جده ، فقد كان ـ صلوات الله عليه ـ يتيما ليس له أب يرحمه . ولا أم ترأمه .

وقد كان عيال أبى طالب كثرا فى شظف من العيش فكان يوضع لهم الطعام فيتطاولون إليه ويتقاصر هو عنه . وتنبسط أيديهم وتنقبض يده ، تكرما منه واستحياء ونزاهة نفس . وقناعة قلب ثم يصبحون على ذلك وهم غمص رمص مصفرة ألوانهم ، ويصبح هو صقيلا نظيفا . كأنه فى أنعم عيش وأعز كفاية .

ومن هذه المواطن ، ما ذكره الإمام السهيلى من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما روى البخارى : «ما هممت بشىء من أمر الجاهلية إلا مرتين :

إحداهما : أنى كنت مع غلام فى غنم أرعاها فقلت : « اكفنى أمر الغنم الليلة حتى آتى مكة ـ وكان بها عرس فيه لهو وزمر ـ فلما دنوت من الدار ألقى النوم على فنمت حتى ضربتنى الشمس » .

وثانيتهما : « أننى قلت لصاحبى مثل ما قلت فى المرة الأولى . وألقى النوم على كما ألقى فى المرة الأولى » .

ومن هذه المواطن العظيمة : حرصه على وفائه بوعده حتى لمن أساء إليه ، وآية ذلك ما ذكره ابن سعد « فى الطبقات » عن عثمان بن طلحة قال :

كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يومى الاثنين والخميس فأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس ، فأغلظت له ونلت منه ، فحلم عنى ثم قال :

« يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت » .

فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت .

فقال : « بل عمرت وعزت » ودخل الكعبة .

غير أن كلمته هذه وقعت منى موقعا ظننت معه أن الأمر صائر إلى ما قال ، فلما كان يوم فتح مكة نادانى ثم قال لى :

« ائتنى بالمفتاح يا عثمان » ، فأتيته به ، فأخذه منى ثم دفعه إلى وقال :

« خذوها خالدة تالدة . يا عثمان ، إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف » ، ثم وليت والمفتاح فى يدى فنادانى فرجعت إليه .

فقال : « ألم يكن الذى قلت لك ؟ » .

فأجبته بلى أشهد أنك رسول الله .

يقول سعيد بن المسيب : إن العباس بن عبد المطلب ـ فى رجال من بنى هاشم ـ تطاولوا يومئذ لأخذ المفتاح ولكن رسول الله رده إلى عثمان بن طلحة ثم أمر بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة .

وقد كان أبو سفيان بن حرب ، فى أشراف من قريش جلوسا بفناء الكعبة ـ وبلال يؤذن ـ .

فقال أحدهم : لقد أكرم الله أبى فمات قبل أن يسمع هذا فيغتاظ .

وقال آخر : أما والله لو أنه حق لا تبعته .

فقال أبو سفيان : أما أنا فلا أقول شيئا ولو أننى قلت ، لأخبر عنى هذا الحصا فى المسجد ثم خرج عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما نظروا إليه قالوا : نشهد أنك رسول الله .

ومن هذه المواطن العظيمة : قبوله عذر المعتذر إليه بصدق أو كذب ، وآية ذلك ، رحمته حاطب بن أبي بلتعة بقبوله عذره الذى اعتذر به على ما روى ذلك الإمام ابن القيم فى حديث فتح مكة ، فقال : أمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس بالجهاز للفتح . وأمر أهله أن يجهزوه فتجهز الناس غير أن حاطب بن أبي بلتعة ، كتب إلى قريش بمكة كتابا يخبرهم فيه بمسير رسول الله إليهم ثم دفع بالكتاب إلى امرأة جعل لها جعلا ، على أن تبلغه قريشا ، فجعلته فى قرون رأسها . ثم خرجت به وقد علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما صنع حاطب . فبعث عليا والمقداد قائلا لهما : « انطلقا فى إثر ظعينة معها كتاب إلى قريش » . فانطلقا حتى وجدا المرأة فاستنزلاها وقالا لها : هات الكتاب الذى معك .

فقالت : مامعى كتاب ، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئا .

فقال لها على : أحلف بالله . ماكذب رسول الله ولاكذبنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك حتى نعثر عليه . فلما رأت المرأة الجد .

قالت : أعرضا عنى ، ثم حلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليهما فأتيا به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا فيه : «من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش وإذا هو يخبرهم بمسير رسول الله إليهم فى جيش كثيف» .

فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاطبا ثم سأله « لم صنع هذا » ؟

فقال : لا تعجل على يا رسول الله ، والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ولا والله ما ارتددت ولا بدلت . ولكنى كنت امرأً ملصقا فى قريش لست من أنفسهم ولى فيهم أهل وعشيرة وولد . وليس لى فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معك ـ يا رسول الله ـ لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى .

فقال عمر بن الخطاب : دعنى يا رسول الله أضرب عنقه فإنه قد نافق وخان الله ورسوله .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إنه قد شهد بدرا وما يدريك ياعمر؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فذرفت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

ومن مواطن العظمة فى أخلاقه الشريفة : بره بأمه ـ رضى الله عنها ـ وهى ميتة ، مقبورة فى قرية تعرف بالأبواء بين مكة والمدينة .

فقد ذكر الإمام السهيلى فى « روضه » عن أم المؤمنين عائشة : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى طريقه إلى مكة حاجا حجة الوداع عرف قبر أمه فوقف واستوقف ألف مقنع من حوله ، ثم أخبرهم أن أمه مقبورة فى هذا المكان ، ثم مشى فى البادية فلبث قليلا ثم عاد وعلى وجهه خشوع ، وفى عينيه دموع فسأله أصحابه عن سر ذلك فأنبأهم قائلا لهم : « هنا ماتت أمى ، وهنا دفنت ، وقد ذكرت ضعفها فبكيت » .

والعبرة من ذلك الحديث أن سنه فى حجة الوداع قد نيفت على الستين . ومع ذلك يذكر أمه فيبكى ، وقد كان يعرف قبر أبيه على ما يذكر ذلك أهل السير فيقولون : إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يجلس بين أصحابه فيشير إلى دار النابغة فى المدينة المنورة ثم يقول لهم : « هنا فى هذه الدار نزلت بى أمى . وهنا مات أبى » ثم لا يزيد على ذلك شيئا . ولكنه حين يمر على قبر أمه وقد جاوزت سنه الستين لا يسعه إلا أن يخشع وتدمع عيناه ويذكر لأصحابه سر بكائه . وأن أمه ماتت فى هذا الموضع وقبرت وأنه ذكر ضعفها فبكى ، ومبلغ علمى أنك لا تجافى الحقيقة ولا تتجهم الفطرة ، إذا رأيت هذا المعنى الكريم من الوفاء للأم يتمثل على غاية الوضوح فى عنايته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمر الأم ووصاته أصحابه ، وأهل الإسلام كافة بأن يختصوا أمهاتهم بمزيد من برهم بهن ، ناظرا فى ذلك إلى القرآن العظيم حيث أمر المسلم ببر أبويه ثم اختص الأم حيث قال سبحانه : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ . الآية من سورة الأحقاف .

كذلك قوله سبحانه : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ الآية من سورة لقمان .

ففى هاتين الآيتين الشريفتين ، يأمر الله تعالى ببر الوالدين جميعا ، ثم يذكر السبب الداعى إلى البر بالأم ، ليكون ذلك أقوى فى حث الهمم والجد فى كل مامن شأنه أن يقر عين الأمومة ويبلغ غاية رضاها فعن هذا المعنى ـ فى مبلغ ما نعلم ـ وقف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قبر أمه واستوقف ألف مقنع من أصحابه ، ثم بكى وأبكاهم معه ، وذلك فى باب البر والوفاء جد عظيم .

ومن مواطن العظمة فى خلقه العظيم أيضا : أنه : كان يؤانس أصحابه ويلاطفهم بشىء من

المزاح الذى يليق بالكبار من أهل المروءات . وخير مثل نضربه لهذا المعنى قصة خوات بن جبير الأنصارى مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال فيما روى ابن الأثير : خرجت من خبائى ذات يوم فإذا أنا بنسوة يتحدثن . وفى أيديهن ليف يفتلنه حبالا فأعجبنى . فرجعت فاستخرجت حلة فلبستها . وجئت فجلست معهن . وخرج رسول الله من قبة . فلما رأيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ . هبته واختلطت . فقلت يا رسول الله : لى جمل شرود فأنا ابتغى له قيدا من أولئك النسوة يفتلنه لى من ليف . فمضى رسول الله واتبعته فألقى إلى رداءه ودخل وادى الأراك قرب مكة وتوضأ ثم أقبل والماء يسيل على صدره من لحيته .

فقال : « أبا عبد الله . ماذا فعل ذلك الجمل » ؟ . ثم ارتحلنا فجعل لا يلحقنى فى المسيرة إلا قال لى : « السلام عليك أبا عبد الله . ما فعل جملك الشارد ؟ » فلما رأيت ذلك من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . تغيبت إلى المدينة واجتنبت المسجد والجلوس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حياء منه . فلما طال ذلك على . أتيت المسجد . فقمت أصلى فخرج رسول الله ذات يوم من بعض بيوته فجاء فصلى ركعتين . فطولت أنا صلاتى رجاء أن ينصرف رسول الله ويتركنى .

فقال لى يا أبا عبد الله : «طول ما شئت أن تطول . فلست بمنصرف حتى تنصرف» فقلت فى نفسى والله لأعتذرن إلى رسول الله ولأبرئن صدره . فلما انصرفت .

قال : « السلام عليك أبا عبد الله ما فعل بعيرك الشارد ؟

فقلت : والذى بعثك بالحق . لقد عقله الإسلام يا رسول الله .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يرحمك الله يا أبا عبد الله » وكرر ذلك ثلاث مرات .

ومن مواطن الحسن فى أخلاقه ـ صلوات الله عليه ـ : حرصه الشديد على توضيح بيانه للناس . وهذا الحرص ، يتراءى لرائيه فى صورتين ، كلتاهما معوان على وضوح المعنى فى أذهان المخاطبين :

أولاهما : التؤدة فى حديثه لأصحابه .

وثانيتهما : ضربه الأمثال من قصص السالفين .

فأما التؤدة فى إلقاء الأحاديث فشاهده ما أخرجته كتب السنة من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كان يتحدث الحديث لَوْعدَّه العادُّ لأحصاه ، فلم يكن ليسرد الحديث ويوالى بين كلماته كما يفعل سائر الناس ، بل كان يعيد الكلمة ثلاث مرات لتعقل عنه ، وذلك هو شأن المربين

الذين يبتغون للآخذين عنهم ، الانتفاع بما يسمعون ، فى مجال العلم ومجال العمل .

وأما ضربه الأمثال ، فقد كان ـ صلوات الله عليه ـ ينتزع المثل للمخاطبين من قصص السالفين ، وهو أكثر من أن يحصر فى هذا المقام .

ولا يعزبن عن علمك ـ حفظك الله ـ أن القصص فى التراث الإسلامى يمتاز بخصائص ثلاث هى : صدق التاريخ ، وكرم الأسلوب ، وشرف الغاية .

ومن أوضح ما تتضح فيه هذه الخصائص الثلاث : القصة التى أخرجتها صحاح كتب السنة وفيها : أن ثلاثة مسافرين من أهل الإيمان جمعت بينهم فى سفرهم وحدة الطريق ، وأنس بعضهم ببعض أدب الدين .

ومازالت الرفقه فى السفر ، أنسا من وحشة ، وأمنا من مخافة .

وقد مضى أولئك الثلاثة المؤمنون فى طريقهم إلى الغاية التى يبتغون الوصول إليها آخذين بأطراف الأحاديث بينهم يستعينونه على مشقة السفر ووحشة الطريق ، ومازال القوم على ذلك حتى أفضى بهم المسير إلى بادية استعجمت فيها المعالم . فجعلوا يسيرون تائهين تضمرهم الأودية . وتظهرهم التلال .

وفيما هم على ذلك . والحديث مطيتهم الذلول ـ إذ العواصف تزأر والسحب تتراكم والرعود تكاد تصم الأذان ، والبروق تكاد تخطف الأبصار ، ثم إذا هم على ذلك ـ نهبى برد قارس ، وحيارى ظلام دامس ، وفرائس هم مقعد مقيم .

وعلى غير توقع منهم لاح لهم من خلال البرق جبل فولوا وجوههم شطره ، فلما بلغوه رأوا فى أحضانه غارا ظنوا أن فيه أمنا لهم مما هم فيه ، فألقوا بأنفسهم فى جوفه إلقاء من لا يبالى ضوارى السباع . ولا فواتك الهوام والحشرات حتى إذا اطمأن بهم مجلسهم وذهب عنهم روعهم ، رجفت الأرض رجفة زلت بها عن الجبل صخرة سدت عليهم فم الغار فلم يجدوا وسيلة إلى النجاة مما هم فيه من بلاء . إلا بأن يفزعوا إلى الله يرجونه بكل ما فى صدورهم من إيمان ، ويتوسلون إليه بكل ما قدموا فى حياتهم من صوالح الأعمال . حتى يكشف الله عنهم البلاء ثقة بوعد الله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ » الآية : من سورة المائدة .

وما أن طافت هذه الخاطرة بأذهانهم حتى أجمعوا أمرهم على أن يتوسلوا إلى الله بما قدموا من

عمل صالح لعل الله أن يستجيب لهم فيكشف عنهم مالا نجاة منه إلا برحمة من الله ورضوان .

فقال أحدهم : إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت أرعى عليهما ولا أقدم لبنا لأحد قبلهما فى مساء أو صباح . وذات يوم نأى بى طلب المرعى فلم أتمكن من تقديم وجبة المساء إليهما فلما جئتهما وجدتهما مستغرقين فى نوم عميق فكرهت أن أوقظهما من نومهما . وكنت قد حلبت لهما شرابهما ولكننى استعظمت أن أسقى أحدا قبلهما مع أن أطفالى كانوا يتصايحون عند قدمى من شدة الجوع . وأنا قائم بجانب فراشهما والقدح على يدى . فى انتظار نهوضهما من الفراش حتى برق الفجر فاستيقظا فسقيتهما .

اللهم : إنك تعلم أننى لم أقصد بذلك إلا وجهك الكريم فأضرع إليك متوسلا بهذا العمل أن تفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة شيئا يسيرا لا يأذن لهم بالخروج .

وقال ثانيهما : أما أنا فقد كنت أوثر الزواج من فتاة ذات فتنة وجمال . وقد كنت خطبتها إلى وليها فأبى أن يزوجنيها ، ثم مضى بنا الزمن . يزيدنى كر الغداة ومر العشى حبا لها وتعلقا بها وأسفا على حرمانى منها . وقد جاءتنى ذات يوم تطلب عونى على شدائد الدهر وتشكو إلى ضيق ذات اليد . ولم أرها فى يوم من الأيام أشد فتنة وأكثر إغراء منها فى ذلك اليوم فراودتها عن نفسها فامتنعت حتى ألم بها الجدب ذات سنة فجاءتنى كما جاءت من قبل فأعطيتها مائة دينار ، على أن تخلى بينى وبين نفسها فقبلت تحت وطأة حاجة ملحاح ، غير أنها أخذت تخوفنى عذاب الله وتذكرنى بأنه لا يحل لى ذلك منها إلا بحق العقد . فوجدت لكلماتها من الأثر فى نفسى ما خيل إلى أننى أكاد أرى ــ عيانا ــ نعيم الجنة للطائعين ، وعذاب النار للعاصين . فتركتها لذلك وتركت لها مع ذلك ما بذلته من مال . وقد أضعفته لها إشفاقا عليها من ذل الحاجة وصيانة لها من سوء المصير .

اللهم : إنك تعلم أننى لم أصنع ذلك إلا ابتغاء وجهك الكريم فإن كنت فى ذلك صادقا أبتغى مثوبتك وأخشى عقابك ، ففرج عنا بفضلك ما نحن فيه . فاستجاب الله دعاءه فانفرجت الصخرة شيئا لا يتمكنون معه الخروج .

وغير خفى على ذى بصيرة أن انفراج الصخرة مهما يكن يسيرا لا يأذن لهم بالخروج من الغار فإنه قد ضاعف الأمل فى انفراج الصخرة ونجاتهم مما كانوا فيه من بلاء عظيم .

وقال ثالثهم : لقد كنت استاجرت أجراء يعملون لى عملا فى بستان ثم أعطيتهم أجورهم غير

رجل واحد منهم . ترك أجره وذهب فثمرت أجره ونميته له حتى كثرت منه الأموال . فجاءنى بعد حين يقول لى :

يا عبد الله أعطنى أجرى الذى لى عندك فأخذت بيده قائلا له :

أفترى البقر والغنم والإبل الذى فى سمت بصرك إنه كله أجرك ثمرته لك . ونميته حتى صار إلى ما ترى فاذهب فخذه بارك الله لك فيه فأجابنى آسفا وهو يقول : يا عبد الله لا تستهزئ بى أو تسخر منى بعزة الغنى وذلة الفقير .

فقلت : إنى الله ـ لا أستهزئ بك ولا أسخر منك بدليل أننى أطلب إليك أن تأخذه كله . سائلا الله تعالى أن يبارك لك فيه . فاطمأن الرجل وهدأت نفسه واستاق كل ما رأى من إبل وغنم وبقر .

اللهم : إنك تعلم أننى إنما فعلت ذلك ابتغاء وجهك الكريم . فإن كنت فى ذلك صادقا . ففرج عنا ما نحن فيه يا ذا الجلال والإكرام .

فاستجاب الله الدعاء فانفرجت الصخرة فخرج الثلاثة سعداء بما أنعم الله عليهم . وبما جمع بين قلوبهم من كمال الإيمان بالله وجمال الأخوة فى ذات الله . وهكذا تتجلى نعمة الله بالدين فيزداد طلاب الحق إيمانا بأن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين . وبأن العمل الصالح أقرب الوسائل إلى الظفر بمرضاة الله ينتفع به العامل فى الدنيا ويومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاَّ مَنْ أتَى اللهَ بِقلْبٍ سَليمٍ .

ومن هذا اللون من القصص الشريف . قصة أخرجتها الصحاح أيضا وفيها : أن الله أراد أن يبتلى ثلاثة نفر من بنى إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى . فبعث ـ سبحانه ـ إليهم ملكا فجاء إلى الأبرص فسأله : أى شىء أحب إليك ؟ قال : جلد حسن . ولون حسن . يذهبان بالبرص الذى قذرنى الناس من أجله . فمسحه الملك فذهب عنه قذره . وأعطاه الله لونا حسنا وجلدا حسنا . ثم سأله الملك أيضا : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أحب شىء إلى فأعطاه الملك ناقة عشراء . أتى على حملها عشرة أشهر . قائلا له : خذها بارك الله لك فيها .

ثم جاء الملك إلى الأقرع فسأله : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن . يذهب بهذا القرع الذى قذرنى الناس من أجله فمسحه الملك . فذهب عنه قرعه وأعطاه الله شعرا حسنا . ثم سأله الملك أى المال أحب إليك ؟ قال : البقر أحب شىء إلى فأعطاه بقرة حاملا . قائلا له : خذها بارك الله لك فيها .

ثم جاء الملك إلى الأعمى فسأله : أى شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله على بصرى فمسحه الملك فرد الله عليه بصره ، ثم سأله الملك : أى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم أحب شيء إلى . فأعطاه شاة ولودا عرف منها كثرة النتاج .

ثم انصرف ثلاثتهم ينمون ما أعطاهم الله فأنتج صاحب الناقة ناقته ، وصاحب البقرة بقرته ، وولد صاحب الشاة شاته ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم .

ثم إن الملك جاء إلى الأبرص فى صورة رجل أبرص يقذره الناس فقال له : رجل مسكين تقطعت بى الأسباب فى سفرى فليس لى ما أبلغ به غايتى من السفر إلا بمعونة من الله ثم منك ، فأنا أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال الكثير ، بعيرا أتبلغ به فى سفرى ، فأجابه ـ فى كبرياء : الحقوق كثيرة .

فقال له : كأنى أعرفك يا هذا ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيرا يعينك الناس فأعطاك الله وأغناك ؟ .

فقال : إنما ورثت هذا المال عن آبائى وأجدادى .

فقال الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت فيه من قبل .

ثم جاء الملك إلى الأقرع فى صورة رجل أقرع فقال له : رجل مسكين وعابر سبيل وقد تقطعت بى الأسباب فى سفرى فليس لى ما أبلغ به غايتى من السفر إلا بمعونة من الله ثم منك ، فأنا أسألك بالذى أعطاك الشعر الحسن ، والمال الكثير بقرة أتبلغ بها فى سفرى فأجابه ـ فى كبرياء : ـ الحقوق كثيرة .

فقال له : كأنى أعرفك يا هذا ألم تكن أقرع يقذرك الناس ، فقيرا يعينك الناس فأعطاك الله الشعر الحسن والمال الكثير؟

فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر .

فقال الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت فيه من قبل .

ثم جاء الملك إلى الأعمى فى صورة رجل أعمى فقال له : رجل مسكين وعابر سبيل ، وقد تقطعت بى الأسباب فى سفرى فليس لى ما أبلغ به غايتى من السفر إلا بمعونة من الله ثم منك ، فأنا أسألك بالذى رد عليك البصر وأعطاك المال ، شاة أتبلغ بها فى سفرى .

فقال : لقد كنت أعمى فرد الله علىّ بصرى ، وفقيرا فأعطانى الله هذا المال فخذ ما شئت . ودع ما شئت . فوالله لن أمنعك شيئا ولا أمتن عليك بشىء .

فقال له الملك : أمسك عليك مالك . فإنما ابتليتم ثلاثتكم فرضى الله عنك ، وسخط على صاحبيك .

وهكذا يتجلى على غاية الوضوح المعنى الذى قصد إليه رسول الله من ضرب المثل بهذه القصة مشيرا بها إلى أن الإنسان إذا ركب هواه ورفع نفسه فوق قدره اِسْتطالةً على الناس ، فإن ذلك يفضى به إلى سخط الله وربما أفقده ذلك شرف دنياه وسعادة أخراه .

ومن مواطن العظمة فى خلقه العظيم : عنايته البالغة بتربية الرأى الاجتماعى العام . تربية تستند ـ فى بقائها ونمائها ـ إلى الحديث النبوى الشريف : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » فإن هم عملوا بمقتضى هذا الحديث وتأدبوا بأدبه الشريف ، فقد تكافلوا تكافلا يقيمهم على حاق الطريق ، ويدنى إليهم السيادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة غير ظالمين ولا مظلومين .

ومن أشرف صور هذا التكافل وأنفعها لدنيا الإسلام والمسلمين ، ماكان يحدّث به أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ فيقول :

جاء رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إن لى جارا يؤذينى . فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اصبر » .. ثم جاءه شاكيا مرة ثانية فقال : إن جارى يؤذينى يا رسول الله ، فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اصبر » ثم جاءه الثالثة ضائق الصدر بادى الحزن ، فقال : لا يزال جارى يؤذينى يارسول الله ، فقال رسول الله : « انطلق وأخرج متاعك إلى الطريق » ، فامتثل الرجل الأمر فأخرج متاعه وجلس به على الطريق ، فجعل الناس يمرون به فيسألونه ما شأنه ؟ فيقول لهم : إن لى جارا يؤذينى فشكوته إلى رسول الله ثلاث مرات فأمرنى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أصبر إلى ما ترون ، وأجلس بمتاعى هكذا فرارا من أذى جارى إياى ، فجعلوا يقولون : اللهم العنه ، اللهم اخزه ، ما أسوأه من جار .

فلما بلغ الرجل لعن الناس إياه ، فزع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : إن الناس يلعنوننى يا رسول الله . فقال له ـ صلوات الله عليه ـ : « وما يدريك أن الله لم يلعنك قبل أن يلعنك الناس ؟ » « ثم أمره أن يذهب إلى صاحبه فيعتذر إليه ويستغفر الله له » ، ولم يسع الرجل إلا أن يمتثل الأمر ، فذهب إلى جاره وقال له ارجع إلى منزلك فوالله لا أوذيك بعد ذلك

أبدا ، فرجع الرجل إلى منزله قرير العين بما تهيأ له من عيشة راضية بين أهله وولده .

ووجه العبرة من هذا الحديث : أن الله تعالى أمرنا بالإحسان إلى الجار مقترنا بعبادة الله وحده لا شريك له وبالإحسان إلى الوالدين وذوى القربى ، على ما يقول سبحانه فى الآية من سورة النساء : « وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا » ..

وكذلك أوصى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالجار مسلما كان أو غير مسلم ، وذلك بمواساته وحسن عشرته وكف الأذى عنه .

فقد روى البخارى عن أم المؤمنين عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

فهذا الذى كان يؤذى جاره لم يكن يخفى عليه ما جاء فى كتاب الله ، وفى حديث رسول الله ولم يكن ليخفى عليه قبل ذلك ، ماكان العرب يعتزون به فى الجاهلية من رعاية حقوق الجار ورعاية حرماته .

فهذا الذى كان يؤذى جاره كان عربيا لا يخفى عليه أدب العرب فى الجاهلية وحرصهم على رعاية حرمة الجار ، ثم اعتنق الإسلام على ذلك ، فلم يكن ليخفى عليه ما قال الله تعالى . وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى رعاية حقوق الجار ، ومع ذلك لم يتخلق بأخلاق العرب ولا تأدب بأدب الإسلام حتى إذا لامه الناس على سوء سلوكه مع جاره فزع إلى رسول الله يستغيث به ويطلب حمايته .

وليس لهذا التصرف العجيب سبب فى مبلغ ما نعلمه إلا أن قوة الرأى العام أهيب عند بعض الناس من قوة الدين .

ومن مواطن العظمة فى خلقه العظيم : حلمه عن الجاهل بالغا ما بلغ سوء أدبه فى بعث الحفائظ وإثارة الأحقاد . وآية الصدق فى هذه الدعوى ، ما يرويه الإمام السهيلى فى « روضه » حيث قال : إن زيد بن سعنة أحد أحبار اليهود ، كان قد داين رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم جاء إليه فى مجلسه يقتضيه دينه قبل حلول أجله فقال : ألا تقضينى يا محمد ، فإنكم يا بنى عبد المطلب قوم مطل .

وقد كان فى مجلس رسول الله . عمر . فجعل يرتعد من شدة الغيظ . وكاد يبطش بالحبر وهو يقول له : أتقول هذا لرسول الله يا عدو الله ؟ .

ولكن رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ قال : « مهلا يا عمر فإن لصاحب الحق مقالا . وإنا لمحتاجون منك إلى غير هذا : أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن الاقتضاء . ولا والله ما حلّ أجل دينه . فقم يا عمر فاقضه عنى دينه وزده فيه . بما روّعته » .

وما أن سمع الحبر الجليل هذا القول . ورأى هذا الحلم فى خلقه . وهذه السماحة فى بذله حتى اعتنق الإسلام . لأنه رأى عيانا ما تضمنته التوراة من وصفه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمكارم الأخلاق . وقد سار الرجل فى جيش رسول الله إلى غزوة تبوك وهى الغزوة التى رجع الجيش فيها بغير قتال .

ومن مواطن العظمة فى شمائله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : رغبته الكريمة فى رفع خسيسة المرأة رفعا يدافع على مدى الدهر ماكانت المجتمعات الجاهلية تحيطها به من مذلة وصغار .

وآية ذلك : أنه كان يحمل أمامة بنت العاص بن الربيع على عاتقه وهو فى الصلاة بين يدى رب العالمين . وكأنه يقول بلسان الحال الذى هو أفصح وأقوى من لسان المقال : إن البنت التى تحزنون لمولدها . وتئدونها حية فى التراب . هى التى أتقرب أنا بها إلى الله وأنا بين يديه فى الصلاة .

ولئن كان هذا المعنى الجليل . لونا من إنصاف المرأة وليدة أو جارية .

لقد كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ يأمر بالتسوية بينها وبين إخوتها من الذكور فى العطية على ما جاء فى الحديث الذى رواه ... البخارى عن النعمان بن بشير الأنصارى الخزرجى قال : أعطانى أبى بشير بن سعد عطية . فقالت له أمى عمرة : لا أرضى حتى تشهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ . أنك أعطيت ابنى النعمان هذه العطية على سبيل الهبة . فجاء أبى إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : إنى أعطيت ابنى من عمرة عطية فأمرتنى أمه عمرة أن أشهدك على ذلك يا رسول الله . فسأله ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ : « هل أعطيت سائر ولدك مثل الذى أعطيته ولدك من عمرة » ؟ قال : لا .

فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أَشْهِدْ على هذا غيرى فإنى لا أشهد على جور » ثم قال : « اتقوا الله أيها الناس واعْدِلوا بين أولادكم » .

ففى هذا الحديث . يقول شيخ الإسلام الشرقاوى : إن الإمام أحمد بن حنبل تمسك بهذا الحديث فى وجوب العدل فى عطية الأولاد . وفى أن تفضيل أحدهم ظلم وحرام إلا لضرورة تقتضى التفضيل كما لوكان الولد أرشد إخوته . أوكان الولد به داء يحتاج معه إلى فضل غنى .

وغير خفى على أهل العلم أن الولد يشمل الذكر والأنثى فإذ قد أمر رسول الله بالعدل بين الأولاد فقد وجب أن يسوّى فى العطية والهبة بين الذكور والإناث .

وقد أدركنا نحن من سوّى بين أولاده فى العطية بغير فرق بين الذكور والإناث . وهو من أهل العلم وأهل الفضل وأهل الدين . ويكفى فى تسويغ هذا العمل . هذا الحديث النبوى الشريف .

ويجرى مع هذه الصورة فى سبيل تكريم المرأة ورفع خسيستها . صورة ذات أثر عظيم فى دفع سوء الأحدوثة عن الإسلام من أعدائه الذين لا يكفون عن زعمهم لأوليائهم . بأن الإسلام لم ينصف المرأة ولم يكرمها كما كرمتها حضارات أخرى غير الحضارة الإسلامية .

وهذه الصورة التى يتراءى فيها تكريم الإسلام للمرأة . أخذ النبى برأى أم سلمة على ما جاء فى الحديث الذى أخرجه البخارى وأبو داود عن عروة بن الزبير والمسور بن مخرمة فى حديث صلح الحديبية .

وفيه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج مع أصحابه يريد العمرة فأبى المشركون عليه ذلك وهم يقولون : والله لا تتحدث العرب أنك أكرهتنا فدخلت مكة على الرغم منا . ولكن تدخلون وتطوفون بالبيت من العام المقبل .

فقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا العرض وكتب بينه وبين المشركين كتاب صلح يقوم على : أن يرجع المسلمون عن دخول مكة والطواف بالكعبة هذا العام على أن يكون لهم ذلك الحق فى العام المقبل .

فلما فرغ القوم من قضية الكتاب أمر النبى أصحابه أن يقوموا فيحلقوا وينحروا لأن الهدى قد بلغ محلّه . ولكن القوم لم يقوموا فكرَّر رسول الله أمره هذا ثلاث مرات فلم يقم منهم أحد .

وقد آذى ذلك رسول الله إيذاء شديدا . فدخل على أم سلمة يذكر لها ما لقى من الناس فذكرت له ـ رضى الله عنها ـ ، أن يخرج إلى القوم ولا يكلم منهم أحدا فينحر هديه ويدعو بحالقه فيحلقه ، فخرج ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيت أم سلمه فلم يكلم أحدا من أصحابه حتى فعل الذى قالته له أم سلمه من نحر الهدى وحلق الشعر . فلما رأى ذلك أصحابه . قاموا

فنحروا . وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد يقتل بعضهم بعضا غماً . وبهذا انتهت المحنة التى أوشكت أن تنزل بالمسلمين من البلاء ما لا قبل لهم به ، ولا خير لهم فيه .

وبملاحظة هذا المعنى على ما ينبغى له ، لا تكون هناك مندوحة عن تسفيه الكلمة التى جرت على ألسنة الناس مجرى الأمثال السائرة والحكم المسلمة . وهى قول العامة وأشباههم : « شاوروا النساء وخالفوهن » . فإنه لا معنى للأمر بالمشاورة إذا كان مقرونا إلى الأمر بالمخالفة ، ثم إن هذه الكلمة تناقض ـ لأول ما تقع فى السمع ـ ما صنعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أخذه برأى زوجته أم سلمه فى صلح الحديبية .

ولا يستعصى على طالب الحق أن يستخلص من أخذ رسول الله برأى أم سلمة ، قاعدة تقوم على أنه إذا اقتنع المسلم برأى المرأة فى قضية من القضايا . فإن له أن يأخذ به وأن يدعو الناس إليه ، فيكون رأى المرأة فى هذه الحال قائما على المتاركة بينها وبين الرجل فى تحرى الصواب . ورُبَّ معنى انفتح بابه للمرأة واستغلق على الرجل . ورب معنى انفتح بابه للرجل واستغلق على المرأة .

ومن مواطن العظمة فى خلقه العظيم : ملاطفته الصغار على صورة تجعلهم يأنسون إليه فيقبلون على مجلسه وينتفعون بأدبه .

وآية ذلك : أنه كان يسلم عليهم كما يسلم على كبار أصحابه ، وربما مسح على رأس الصبى منهم فيعرف زملاؤه فى « الكُتاب » ، أن رسول الله مسح على رأسه بما يجدون من طيب رائحته . فإن أنتَ حاولت أن تلتمس صورة لتعامله فى بيته مع أولاد بناته . فإنك واجد تلك الصورة على غاية الوضوح فيما أخرجه النسائى عن عبد الله بن شداد عن أبيه ـ رضى الله عنهما ـ قال خرج علينا رسول الله من بيته فى إحدى الصلاتين : المغرب أو العشاء . وكان يحمل على عاتقه الشريف ، حسنا أو حسينا . فتقدم إلى الصلاة فوضع الصبى على الأرض ، ثم دخل فى الصلاة فسجد بين ظهرانى صلاته سجدة أطالها فرفع «شداد» رأسه ، فإذا الصبى على سول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ساجد ، فرجع « شداد » إلى سجوده فلما قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلاة قالوا : يا رسول الله إنك سجدت بين ظهرانى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا . أنه قد حدث أمر ، أو أنه يوحى إليك .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل ذلك لم يكن ، ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته » .

فقد انتظم هذا الحديث الشريف صورة من عنايةرسول الله بالأطفال . عناية لا تكاد تدانيها عناية فى دنيا الناس .

ذلك أنه ـ صلوات الله عليه ـ لم يشأ أن يحرم الطفل من متعته فيما تخيله من أنه أصبح من الكبار الذين يمتطون الرواحل فى الأسفار . وما فتئ الطفل يجد أبلغ السعادة فى التشبه بالكبار على أية صورة وفى كل حال .

هذا : وإذ قد أفضى بنا القول إلى هذه الغاية الشريفة من تزكية نسبه وتشريف خَلْقه وتعظيم خُلُقه ، فإن من الحق أن نذكر هنا ما يؤكد ذلك مما قررته أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ ، فى مدحها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . واصفة إياه بأنه منزّه من كل غبر حيضة وفساد مرضعة .

وقد يسأل السائل من أين لأم المؤمنين عائشة أن تعرف ظروف حمل أمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ به ، حتى تصفه هذا الوصف الذى لا يعرفه إلا من عاصر أمه آمنة . وذلك أمر لم يتهيأ لأم المؤمنين ؟ .

وجواب هذا السؤال : فى مبلغ ما نعلم ـ أنها قد استأنست فى ذلك الوصف بعرف عربى مضى فى الأمة العربية مُضِىّ القضايا الثابتة والحقائق المسلمة . فذلك حيث يقول أبو كبير الهذلى مادحا فتى عربيا عرف بقوة الجسم . وشدة الأسر . وشرف النفس . وسمو الخلق :

ومبرّئ من كل غبرّ حيضة   وفساد مرضعة وداء مغيل

وليس يعيب عنك أن أم المؤمنين عائشة ـ فى وصفها النبى بشعر أبى كبير الهذلى ـ إنما كانت تستصحب العرف الذى أشرنا اليه آنفا وقد رضيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقر عليه أم المؤمنين ، والإقرار أحد أقسام السنة المطهرة إذ كانت السنة إما : قولا يقوله رسول الله . أو فعلا يفعله أو إقرارا لأصحابه على قول سمعه ، أو فعل رآه .

وليس يغيب عن المتأمل ، أن فى هذا الشعر فضائل لا يضيق بها رسول الله فى خَلْقه الشريف ولا فى خُلُقه العظيم . ذلك أنه مبرَّأٌ من حمل أمه به فى بقايا الحيض ، ثم هو جلد شديد قوى وكذلك هو لم يرث عن أمه داء صحبه فى بطنها . وكذلك لم ترضعه أمه وهى تغشى إذ كان أبوه قد مات ورسول الله حمل فى بطن أمه فذلك هو ما قصدته أم المؤمنين عائشة حين وصفته بما وصف به الهذلى الشاعر ، فتاه العربى الكريم .

ولا ريب فى أن أم المؤمنين ـ على سلامة فطرتها وشدة ذكائها وحسن تقديرها لرسول الله ـ

إنما أصابت الحقيقة أو أكثر الحقيقة فى هذا المعرض الشريف .

ولعلك واجد فى السيرة النبوية المطهرة ما يقوى وصف أم المؤمنين لرسول الله . وفى مقدمة هذه الأوصاف . صفة حمل أمه ـ عليها السلام ـ به ـ صلى الله عليه وسلم ـ . من أنها حملته به وهى غير مستعدة للفراش . وقد مضى العرف العربى الموثوق على أن المرأة إذا غشيها الرجل فى هذه الحال . فإنها إذا أذْكَرَتْ جاء الولد مرضيا محمودا لا يرمى بالهبل ، ولا يدعى عليه بالثكل . وهكذا كان حمل أمه به فى مبلغ ما نظن . ولكى يتضح هذا الذى أردناه لا نرى ندحة عن الإلمام بالقصة التى تروى زواج أبيه بأمه ـ رضى الله عنهما ـ . فذلك حيث ذكر ابن اسحق أن عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله من أبيه كان قد نذر أن ينحر أحد أبنائه عند الكعبة إذا بلغوا عشرة . فلما توافى بنوه عشرة عرف أنهم سيمنعونه من أعدائه وشانئيه . ثم أخبر بنيه بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله به فأطاعوه . ثم سألوه كيف يصنعون ؟ فقال لهم : ليأخذ كل واحد منكم « قدحا » يكتب فيه اسمه ثم ائتونى . ففعلوا ما أمرهم أبوهم . ثم أتوه فدخل بهم على هبل فى جوف الكعبة وكان عند هبل قداح سبعة : كتب على قدح منها كلمة « نعم » وكتب على قدح آخر كلمة « لا » فإن خرج القدح الذى عليه « نعم » عملوا به . وإن خرج القدح الذى عليه « لا » لم يصنعوا ما كانوا قد أرادوه .

فلما جاء عبد المطلب . قال لصاحب القداح : اِضْرِب على بَنِىّ بقداحهم هذه ، وأخبره بنذره فأعطى كل واحد منهم قدحه الذى فيه اسمه ، وكان عبد الله والد سيدنا محمد رسول الله أصغر بنى أبيه .

فلما أخذ صاحب القداح ليضرب بها . قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله ثم ضرب فخرج القدح على عبد الله ليأمرهم بذبحه وفاء بالنذر . فأخذه عبد المطلب بيده ثم أخذ الشفرة وهم بذبحه .

فقامت إليه قريش من أنديتها قائلين له : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه وفاء لنذرى . فقالت له قريش وبنوه معه : لا والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ولئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا . ثم قال له أحد بنى مخزوم : لا تذبحه حتى تعذر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

ثم قالت قريش له ومعها بنوه : اِنَطلِقْ إلى الحجاز فإن به عرافة فَسَلْها فإن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته . فانطلقوا حتى جاءوها فسألوها وقص عليها

عبد المطلب خبره . وخبر ابنه وما أراد به ونذره الذى نذره . فقالت العرافة : ارجعوا عنى اليوم فرجعوا من عندها فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها .

فقالت لهم : قد جاءنى الخبر ثم سألتهم كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل . ثم اضربوا عليها وعليه القداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم . فإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم . ونجا صاحبكم فخرجوا حتى قدموا مكة .

فلما أجمعوا على ذلك الأمر قام عبد المطلب يدعو الله ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل . ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الإبل فبلغت ثلاثين ثم ضربوا . فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا فبلغت الإبل أربعين . ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا فبلغت الإبل خمسين ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الإبل . فبلغت الإبل ستين وما زالوا يزيدون عشرا حتى بلغت الإبل مائة بعير . وقام عبد المطلب يدعو ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل .

فقالت قريش قد انتهى الأمر . ورضى ربك يا عبد المطلب بالفداء .

فقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات . فضرب على عبد الله وعلى الإبل فخرج القدح على الإبل . ثم أعاد الثانية فخرج القدح على الإبل . ثم أعاد الثالثة فخرج القدح على الإبل . فنحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان . ولا يمنع منها سبع . ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد ابنه عبد الله فمر به على رقية بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل . وقد كانت من أجمل النساء وأعفهن . وكانت قرأت الكتب فرأت فى وجهه ما رغبها فيه فدعته إلى نفسها فأبى .

فقالت : تعالَ إلى ولك مثل الإبل التى نحرت عنك .

فقال عبد الله : « أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا مفارقته . فلما ألحت عليه جعل يقول :

أما الحرام فالْحِمَام دونه   والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه   يحمى الكريم عرضه ودينه

يقول الثقات من أهل العلم وكتاب السيرة الشريفة : وليس يبعد أن تكون هذه الحادثة قد بلغت عبد المطلب فحرضته على أن يصون ولده بالتزويج .

وقد روى السهيلى عن البرقى فى سبب تزويج عبد الله بآمنة بنت وهب : أن عبد المطلب كان يأتى اليمن ، وكان ينزل فيها على عظيم من عظمائها . فنزل عليه ذات يوم فإذا عنده رجل ممن يقرأ الكتب .

فقال له : ائذن لى أن أقيس منخرك فقال له : دونك فانظر ، فقال قارئ الكتب : أرى نبوة ومُلكا وأراهما فى المنافين : عبد مناف بن قصى ، وعبد مناف بن زهرة . فلما انصرف عبد المطلب انطلق بابنه عبد الله فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف زواجا كزواج الإسلام كما فى الحديث الذى أخرجه البخارى ، وأبو داود عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ .

وغير خفى أن هذا الزواج لم تتقدمه خطبة يطول أمدها أو يقصر . فهو ـ إلى المفاجأة ـ أدنى منه إلى التأهب والاستعداد .

وليس يغيب عنك معنى كريم لا يخفى على مثلك من أهل المروءة وأهل الدين وهو معنى مركوز فى فطرة الإنسان ، وتتعلق به مصلحة للفرد وللجماعه التى يعيش فيها . وهو أن الإنسان الكريم على نفسه إذا رأى امرأة فأعجبته وليس له فيها حق فإن أقرب شىء خطورا بباله أن يأتى أهله ففى ذلك راحة له من شغل القلب . وخلاص من حبائل الشيطان . ولست تشك فى أن عرض رقية بنت نوفل نفسها على عبد الله كان له فى نفسه أثر قوى ، إذ كان شابا من أبناء النعمة وأصحاب السيادة وكانت حنيفيته تأبى عليه أن يستجيب نداء خسيسا تنكره المروءة ويأباه ـ الدين . وآية ذلك إعراضه عن نداء رقيه بنت نوفل مستندا فى هذا الإعراض إلى أن المروءة تأبى عليه الحرام مهما تكن التى دعته إلى نفسها ذات منزلة رفيعه فى قومها . وذات جمال بارع يتهافت عليه أكثر الناس .

وبتمثلك هذه المعانى الشريفة ، لا تكاد ترى لعبد الله مندوحة عن اللياذ ـ بزوجته آمنه بنت وهب مهما تكن آمنة فارغة الذهن من مقتضيات الزواج . وعلى قدر ما كانت آمنة منصرفة الفكر عن تزوجها بعبد الله ، كان هو شديد الرغبة فيها لما كانت تستمتع به من حسب شريف ونعمة سابغة ، فإذا هو على ذلك ـ مجبر أو كالمجبر على أن يذهب إليها ويقضى حاجته منها مهما تكن مشغولة بحاجات بيتها وغير مستعدة للفراش .

ولعلها ـ رضى الله عنها ـ قد حملت فى هذه الأثناء بسيدنا رسول الله فجاء ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما وصفته أم المؤمنين عائشة ، مبرأ من كل غبر حيضة ، وفساد مرضعة ، وداء مغيل ، ثم إن أمه حملت به فى أغلب الظن عاقدة حبيكة ثوبها مشغولة بشئون بيتها .

وننتهز هذه السانحة لنذكر قومنا ، بأن مولده الشريف كان فى شهر (ربيع الأول) الموافق شهر (نيسان) (إبريل) لعشرين مضت منه على ما يذكر الإمام السهيلى فى « روضه » فيقول : إن مولده من الشهور الشمسية كان فى شهر (نيسان) لعشرين مضت منه ، وفصل الرو أفضل الفصول وأحسنها وأكثرها ضياء وأبهجها إشراقا وأجلبها لانشراح الصدور ، فالأرض فيه تأخذ زخرفها وتتجلى زينتها فى رفيف نباتها ونضارة أزهارها ، وكذلك كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصداقا لما رواه الثقات فى وصفه الشريف .

فقد جاء فى حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : (ما رأيت أحسن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأن الشمس تجرى فى وجهه) ،

كذلك جاء الحديث الذى أخرجه الجامع الصغير عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : (كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر) .

وكذلك جاء الحديث الذى خرجه الحافظ العراقى ، أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول فى دعائه « اللهم حسن خَلْقِى وخُلُقِى » .

وقد استجاب الله لنبيه دعاءه فكان كما قالت أم المؤمنين عائشة : «كان خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن » .

وقد وضح هذا المعنى حجة الإسلام فقال : إنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى :

« خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ » وقوله : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ » وقوله : « وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » .

ومن هذا القبيل أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبل على جلسائه بوجهه وحديثه حتى يظن كل واحدٍ منهم أنه المقصود وحده دون غيره على ما يقرر ذلك الحديث الذى أخرجه فى الشمائل الإمام الترمذى عن عمرو بن العاص ـ غفر الله له ـ قال : (كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم ، يتألفهم بذلك ، فكان يقبل بوجهه وحديثه عَلَىَّ حتى ظننت أنى خير القوم ، فقلت يا رسول الله : أنا خير أم أبو بكر؟

قال : أبو بكر ، فقلت : أنا خير أم عمر؟

قال : عمر ، فقلت يا رسول الله : أنا خير أم عثمان ؟

قال : عثمان فلما سألت رسول الله فصدقني ، وددت أني لم أكن سألته) .

وكذلك جاء الحديث الذى رواه صاحب الشمائل عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : (خدمت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشر سنين فما قال لى : « أف قط . وما قال لشيء صنعته لما صنعته ، ولا قال لشيء تركته لما تركته . ولقد كان أحسن الناس خلقا . ولا مسست خزا ولا حريرا ولا شيئا ألين من كف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب منه) .

ولقد كان ـ صلوات الله عليه ـ أحلم الناس . وأشجع الناس . وأعدل الناس . وكان أسخى الناس : لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، إن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل ، لم يأو إلى فراشه حتى يتبرأ منه ويدفعه إلى من يحتاج إليه ثم لا يأخذ مما آتاه الله إلا ما يكفيه من التمر أو الشعير ، ويترك ما بقى فى سبيل الله وكان يساعد أهله فى البيت . أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره فى وجه أحد ، ويجيب دعوة العبد والحر ويقبل الهدية ولو جرعة لبن أو فخذ أرنب . ويكافئ عليها ويأكلها . ولا يأكل الصدقة ، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين . يغضب لربه ولا يغضب لنفسه . وقد عرض عليه الانتصار على المشركين بالمشركين وقد كان فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيد فى عدد من معه ولكنه أبى قائلا : « أنا لا أنتصر بمشرك » .

وقد وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحمله الغضب لصاحبه على أن يحيف أو يظلم فودى صاحبه ـ رضى الله عنه ـ بمائة ناقة .

وقد كان يعصب الحجر على بطنه : مرة من الجوع . ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ، ولا يتورع عن مطعم حلال . وكان لا يأكل متكئا ولا على خوان ، وما شبع من خبز بر ثلاث ليال متواليات حتى لقى الله تعالى . إيثارًا على نفسه ، وكان يجيب الوليمة ويعود المرضى ويمشى وحده بلا حارس ، أشد الناس تواضعا . وأسكنهم فى غير كبر ، وأبلغهم فى غير تطويل ، وأحسنهم بشرا لا يهوله شيء من أمور الدنيا ويلبس ما وجد مرة شملة ومرة بردة حبرة يمانية ومرة جبة صوف . ويركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشى راجلا ، يعود المرضى فى اقصى المدينة يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة ، ويجالس الفقراء . ويؤاكل المساكين ، وربما ارتفعت الأصوات عليه فيصبر ولا يرتفع على عبيده وإمائه فى مأكل ولا فى ملبس ، ولا يمضى له وقت فى غير عمل ، وما شتم ـ صلوات الله عليه ـ أحدا من

المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة . وما لعن امرأة قط ولا خادما ، وقد قيل له فى القتال لو لعنت أعداءك يا رسول الله فقال : (إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا وربما استبدل بلعن أعدائه الدعاء لهم . وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها فى سبيل الله تعالى وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك ، وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته وكان إذا لقى أحدًا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها . وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته فأقبل عليه فسأله عن حاجته فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته ، ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم فيقول : يا أبا حفص يا أبا هريرة يا أخا العرب . وكان أبعد الناس غضبا وأقربهم رضا وكان إذا قام من مجلسه قال : « سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك » ،

وذلك يعنى أن الله تعالى قد عصمه مما هو أدخل من ذلك فى باب الرذائل الاجتماعية التى تنكرها الفطرة السوية وتأباها الحنيفية التى هى ملة أبيه إبراهيم .

أما بعد فقد تحدثنا إليك – حفظك الله – عن مجالى شمائله – صلى الله عليه وسلم – فى القرآن الكريم . ثم فى السنة المطهرة ، ثم فى السيرة العطرة .

وأما الحديث عنه – صلوات الله عليه – فى لغة الأدباء والشعراء فقد وصفه حسان بن ثابت شاعر رسول الله ، وكذلك وصفه الشاعر كعب بن زهير فى قصيدته (بانت سعاد) وكذلك وصفه النابغة الجعدى ، حتى إذا أفضى أمر الأدب والشعر إلى الأدباء فى العصور المتأخرة وصفه الإمام البوصيرى بقصيدته (نهج البردة) وقصيدته (الهمزية) ثم وليه شوقى برائعته التى فاق بها جميع من سبقوه تحريا للحق وسموًا فى الخيال ، ودقة فى النظم وشرفا فى الأسلوب .

وإليك – حفظك الله – نماذج من شعر أولئك السادة الذين شُرِّفُوا بمديحه – صلى الله عليه وسلم – شرفا رفع منزلتهم فى الدنيا ، وأظفرهم برضوان الله فى الآخرة إن شاء الله .

فذلك حيث قال حسان بن ثابت :

نبى عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم الرسول إلى اسمه ... إذا قال فى الخمس المؤذنُ أشهد
وشق له من اسمه ما يجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد
نبى أتى من بعد يأس وفترة ... من الرسل والأوثانُ فى الأرض تعبد
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا ... يلوح كما لاح الصقيل المهند

تعاليت ربَّ الناس عن قول من دعا سواك إلها أنت أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله فإياك نستهدى وإياك نعبد

ومما قال كعب بن زهير :

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لَمَّا أسلموا زولوا
زالوا فمازال أنكاس ولاكشف عند اللقاء ولا ميل[1] معازيل[2]
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ومالهم عن حياض الموت تهليل[3]

وقد كان كعب بن زهير ينشد هذا الشعر بين يدى رسول الله فى مسجده الشريف فكان ـ صلوات الله عليه ـ ينظر إلى أصحابه ، معجبا لهم من حسن القول وجودة الشعر فلما فرغ كعب من الإنشاد كساه رسول الله بردته ، وقد اشتراها أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان من أولاد كعب بمال كثير ، وكان الخلفاء يلبسونها فى المواسم والأعياد ، وقد احتفظ بها الخلفاء العباسيون ثم صارت إلى خلفاء الدولة العلية فى تركيا وهى لا تزال بالقسطنطينية ، ومن هنا أطلقوا اسم البردة ـ على القصيدة الميمية التى وصف البوصيرى فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثنيا عليه بما هو أهله فى شرف منصبه وكرم شمائله مقتديا فى وصفه هذا بكعب بن زهير ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ .

ذلك أن البوصيرى كان قد مرض فرأى النبى فى المنام يمسح وجهه ويلقى عليه بردته ، فنهض من نومه بارئا كانما نشط من عقال ، ثم نظم قصيدته الميمية مستصحبا فى نظمه إياها أمرين :
أَحدُهُما : أن قصيدة كعب ، « لامية » وقصيدة البوصيرى « ميمية » والميم تجئ بعد اللام كما جاء البوصيرى بعد كعب .

وثانى الأمرين : أن قصيدة كعب كانت بعد نجاته من مقتل مهين ، وكانت قصيدة البوصيرى عقب إبلاله من مرض أليم .

ومما قاله النابغة الجعدى بين يدى رسول الله فقبله منه ودعا له :

خليلى عُوجا ساعة وتهجرا ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا

---

(١) الكسالى : الذين لايحسنون الركوب ولا الفروسية .
(٢) الذين لا سلاح لهم. (٣) الجبن والنكوص .

تذكرت والذكرى تهيج لذى الهوى ... ومن عادة المحزون أن يتذكرا
حسبنا زمانا كل بيضاء شحمة ... ليالى لاقينا جزام وحميرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ... سوى أننا كنا على الموت أصبرا
ملكنا فلم نكشف قناعا لِحُرَّةٍ ... ولم نستلب إلا الحديد المسمرا
وجئنا رسول الله إذْ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرة نيرا
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا
ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فلما فرغ النابغة من إنشاده قال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يفضض الله فاك » فعمر النابغة أكثر من مائة عام لم تنفض له سن .

وأما البوصيرى فقد كانت له فى مديح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصيدتان : « نهج البردة » ، و« الهمزية » :

قال فى الهمزية :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد حا ... ل سنى منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجومَ الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصـ ... ـدر إلا عن ضوئك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيـ ... ـب ومنها لآدم الأسماء
لم تزل فى ضمائر الكون تُختَا ... رلك الأمهات والآباء
ما مضت فترة من الرسل إلا ... بشرت قومها بك الأنبياء
تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء بعدها علياء
وبدا للوجود منك كريم ... من كريم آباؤه كرماء
حبذا عقد سؤدد وفخار ... أنت فيه اليتيمة العصماء
ومحيا كالشمس منك مضئ ... أسفرت عنه ليلة غراء
ليلة المولد الذى كان للديـ ... ـن سرور بيومه وازدهاء

وتوالت بشرى الهواتف أن قد ولد المصطفى وحق الهناء
وتداعى إيوان كسرى ولولا آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا ن لنيرانهم بها إطفاء

وليس يغيب عنك ـ أعزك الله ـ أن هذه الكلمات من الإمام البوصيرى تحتاج إلى وقفتين :

أولاهما : حول المبالغة الشديدة فى زعمه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ له ذات العلوم فى عالم الغيب ، وهذه الصفة أشبه بأن تكون لله وحده لا شريك له .

وثانية الوقفتين : حول سقوط شرفات إيوان كسرى وخمود نار المجوس ومغيض بحيرة (ساوه) إذ كان مساق هذه العجائب الثلاث يوحى إلى السامع أن الشاعر إنما أراد المعانى الحقيقية لهذه الكلمات الثلاث فى حين أن الحمل على الحقيقة اللغوية قد يفتح باب يسوغ لقائل أن يقول : إن سقوط شرفات الإيوان كان نتيجة لهزة أرضية ، وفى هذه الحالة لا يظهر وجه الثناء على رسول الله ولا يستبين الربط بين هذا الشعر وبين ذكر المولد النبوى الشريف ، وإلا فأية علاقة بين مولده وسقوط شرفة فى قصر أو مغيض ماء فى بحيرة ، أو خمود نار فى معبد من معابد المجوسية ؟ . والأقرب إلى الحق ـ فيما يرى أهل العلم . أن تكون ـ هذه الظواهر الثلاث مرادا منها المجاز دون الحقيقة ، أن يكون هذا المجاز ماثلا فى انحسار طوفان المجوسية وتراجع سلطان الأكاسرة ـ بالمولد النبوى الكريم وما نشأ عنه ـ إلى المرتبة التى يلتقى فيها الراعى مع الرعية ، والسيد مع المسود فى ظلال وارفة من التفاضل بين الناس عن طريق الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والأعمال التى ينتفع بها مجتمع الإنسان ـ وهى فى الوقت نفسه ـ مقدور عليها لكل من يرتاد السبيل إليها على ما جاءت به الشريعة المحمدية بعد ذلك فى قول الله تعالى»

ما جاءت به الشريعة المحمدية بعد ذلك فى قول الله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ » يعنى ـ جل ثناؤه ـ أن مقياس التفاضل بين الناس إنما هو تقوى الله وليس شرف الحسب ولا فضل النسب ، ولانقاء العروق وصفاء الألوان ، ولا الانتماء إلى ذوى السلطان من الأكاسرة والمرازبة ولا البراهمة ولا الفراعين .

ولكى يتراءى لك هذا المعنى على غاية الوضوح ، ينبغى أن تتمثل أمرين يستعين بهما البصير على إدراك مقدار النعمة التى أنعمها الله تعالى على عباده بمولد رسول الله وانبعاثه برسالة الإسلام

إلى العالمين مهما اختلف بهم الزمان والمكان :

وأحد الأمرين : ما يرويه ابن منظور المصرى عن العلامة ابن الأنبارى من أن الأكاسرة حكام فارس ، كانوا يضربون الدراهم ، وعليها صورة كسرى فمن أبصرها سجد لها ، وكذلك كان الملوك من الأكاسرة والقياصرة والفراعنة يضعون أنفسهم فى منازل الآلهة فالرعايا تسجد لهم ، كما حكى القرآن الكريم عن اخوة يوسف وأبويه وهو يومئذ حاكم مصر فى عهد الفراعنة حيث قال تعالى : « فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا » .. يعنى طأطئوا رءوسهم وانحنوا إجلالا له وتعظيما .

وثانى الأمرين : أن كل أمة تعتمد فى استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال .

فالعرب ـ فى جاهليتها ـ تحتال فى تخليدها لمآثرها أن تعتمد على الشعر الموزون والكلام

أما بعد فقد تحدثنا إليك ـ حفظك الله ـ عن مجالى شمائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القرآن

فالعرب ـ فى جاهليتها ـ تحتال فى تخليدها لمآثرها أن تعتمد على الشعر الموزون والكلام المقفى ، غير ان العجم ذهبوا ـ إلى أن يعتمدوا فى تخليد مآثرهم على البنيان فبنوا الأبلق الفرد ، وبيضاء المدائن ، وبنوا القناطر والجسور والنواويس ، ولذلك لم تكن الفرس لتبيح شريف البنيان ولا شريف الأسماء إلا لأهل البيوتات ، كصنيعهم فى الحمامات والقباب الخضر والشرفات على حيطان الدور ، والعقود على الدهاليز وما أشبه ذلك .

وفى هذا دليل ـ لمن يؤثر المجاز ـ على أن سقوط شرفات إيوان كسرى كان إرهاصا لشروق الرسالة المحمدية التى تدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم إلى المساواة بين الناس فى اقتضاء مالهم من حقوق وقضاء ما عليهم من تبعات ، فلكل مالك بيت أن يجعل لبيته قبة وأن يلحق به شرفة ، ولكل والد أن يضع لولده الاسم الذى يختاره سواء فى ذلك أرباب البيوتات وسواد الناس ، وهذا هو مستند المصير إلى التَّجوُّز فى هذه الظواهر الثلاث : مغيض المياه ، وسقوط الشرفات ، وخمود النيران .

ويبقى بعد ذلك أن تنظر إلى أبيات البوصيرى فى ذكرى ـ المولد النبوى الشريف ـ فلا ترى

الثناء فيها على رسول الله ميسورا إداركه إلا لفقيه بأسرار الخلق ، عليم بحقيقة الرسالة ، بصير بحر الكلام .

هذا ، وأما ما يتعلق بشوقى فى وصفه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإليك ما قاله أمير الشعراء ، غير منكور قوله ، ولا مجحود فضله ، ولا مطموع فى اللحاق به ، سواء فى ذلك روائعه الثلاث : « الميمية » و« الهمزية » و« البائية » .

قال ـ رحمه الله ـ فى الميمية التى أسماها « نهج البردة » :

ريم على القاع بين البان والعلمِ ... أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم
لما رنا حدثتنى النفس قائلةً ... يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمى
جحدتها وكتمت السهم فى كبدى ... جرح الأحبة عندى غير ذى ألم
يا لائمى فى هواه والهوى قدَرٌ ... لو شفَّك الوجد لم تَعذِل ولم تَلُمِ
لقد أنلتك أذنا غير واعية ... ورُبَّ مُنْتَصِتٍ والقلب فى صَمَمِ
لزمت باب أمير الأنبياء ومن ... يمسك بمفتاح باب الله يغتنم
محمد صفوة البارى ورحمته ... وبغية الله من خلق ومن نَسَمِ
يارب هبَّت شعوب من منِيَّتِها ... واستيقظت أمم من رَقْدَة العدم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته ... أَكْرِمْ بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا ... ولا تزد قومه خسفا ولا تسم
يارب أحسنت بدء المسلمين به ... فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

وقال ـ رحمه الله ـ فى همزيته :

ولد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء
بك بشَّر الله السماء فزُيِّنَتْ ... وتضوعت مسكا بك الغَبْراء
وبدا مُحَيَّاك الذى قسماته ... حق وغرته هدى وحياء
يامن له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يَتَعَشَّقُ الكبراء
لو لم تقم دينا لقامت وحدها ... دينا تضئ بنوره الأنْحَاءُ
زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يُغْرَى بهن ويُولَع الكرماء
فإذا سَخَوْت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادر ومُقدَّرٌ ... لا يستهين بعفوك الجهلاء

وإذا رحمت فأنت أم أو أب — هذان فى الدنيا هما الرحماء
واذا خطبت فللمنابر هزة — تعرو الندى وللقلوب بكاء
بك يا بن عبد الله قامت سمحةٌ — بالحق من مَللِ الهدى غراء
اللهُ فوق الخلق فيها وحده — والناسُ تحت لوائها أكفاء
والدين يسرٌ والخلافة بيعةٌ — والأمر شورى والحقوق قضاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى — فالكل فى حق الحياة سواء
لى فى مديحك يا رسول عرائس — تُيِّمْنَ فيك وشاقَهُنَّ جلاء
هن الحسان فإن قبلت تكرما — فمهورهن شفاعة حسناء

وقال ـ رضى الله عنه ـ فى بائيته :

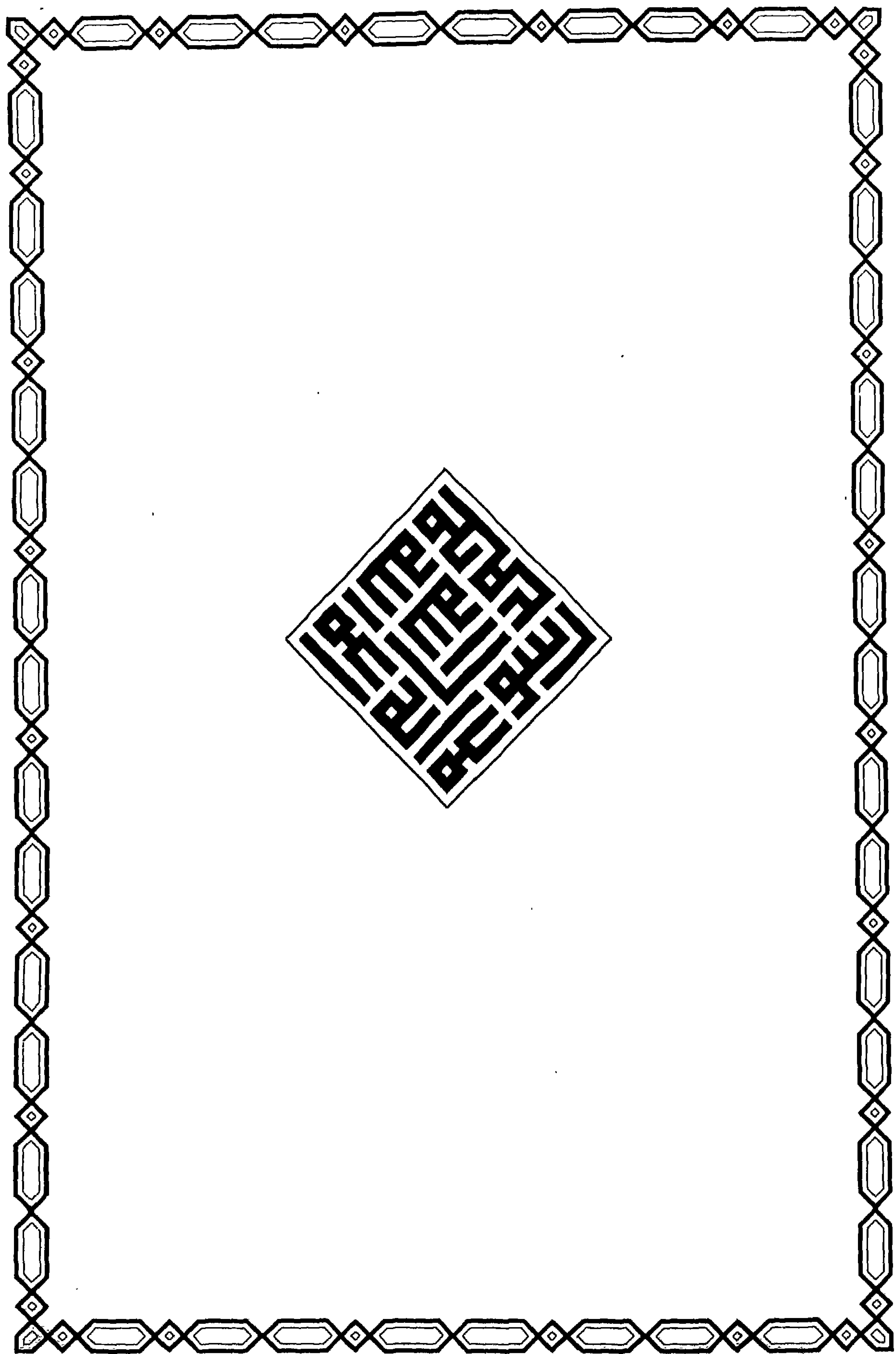
تجلى مولد الهادى وعمت — بشائره البوادى والقصابا
وأسدت لِلْبَرِيَّةِ بنتُ وهب — يدا بيضاء طوَّقت الرقابا
لقد وضعته وهاجا منيرا — كما تلد السموات الشهابا
أبا الزهراء قد جاوزت قدرى — بمدحك بَيْدَ أَنَّ لى انتسابا
فما عرف البلاغة ذو بيان — إذا لم يتخذك له كتابا
مدحت المالكين فزدت قدرا — فحين مدحتك اجْتَزْتُ السحابا
سألت الله فى أبناء دينى — فإنْ تكن الوسيلةَ لى أجابا
وما للمسلمين سواك حِصْنٌ — إذا ما الضر مسهم ونابا

أما بعد : فتلك هى شمائل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتلك هى أخلاقه الشريفة كما تضمنها القرآن العظيم ، والسنة النبوية المطهرة ، والسيرة الشريفة العطرة ، وكما صاغها الشعراء القدامى والمحدثون ، لم يركبوا فيها متن الغلو ولا استسلموا لنزوات الخيال وما كتبناه فى هذا الموطن الشريف ، إنما هو قل من كثر ، وقطرة من بحر .

وإنا لنرجو أن نكون قد ظفرنا بالغاية التى تحريناها من كتابة هذا البحث لا نبتغى من وراء ذلك جزاءً ولا شكورا ، فإن كنا قد أصبنا مارمينا إليه ، فالحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وان كان غير ذلك فأما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد .

صلاة وسلاما ينتظم سلكها الشريف آله الأبرار وأصحابه الأخيار ، ومن اهتدى بهديهم ، وتأدب بأدبهم إلى يوم الدين .



مشكلات السيرة النبوية

بين الجهل وسفه الرأى من الأصدقاء
والكذب والافتراء من الأعداء

الأستاذ الدكتور
محمد الطيب النجار

حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صفحة خالدة من الخير والبر والرحمة ، فأما العقلاء من المؤمنين الذين أنار الله بصائرهم فيدركون ما تنطوى عليه تلك الصفحة من المعانى الجليلة والأهداف النبيلة ، وأما الذين فى قلوبهم مرض من الجهل أو سفه الرأى ، أو الحقد والضغينة أو الكفر والجحود فتختلف آراؤهم وتتعدد وجهاتهم فيما يمرُّ بهم من الأحداث التى تتعلق بالرسول والأنباء التى قيلت عنه ، ولا شك أن هذه الأدواء جميعاً تغطى الحقيقة وأحيانا تطغى عليها ويقع البعض من المسلمين ضحية لهذه الأخطاء ، وقد يكون بعضها صادراً بِنيَّةٍ طيبة أو عن اجتهاد خاطئ ..

وقد قضى الله بحكمته ورحمته أن يكون الأنبياء جميعا منذ أبيهم آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم هم الظل الظليل الذى هيأه الله ليفئ الناس إليه وينعموا به جيلا بعد جيل . بل هم المنارات الساطعة التى تظهر معالم الحق وتكشف المكنون من الأسرار ، وتضع أبصار الناس وبصائرهم على طريق الهدى والنور ... وعلى هذا الأساس كانت الأديان السماوية واحدة فى جوهرها وأصولها حتى ليسوغ لنا أن نعتبر الكتب السماوية جميعا من حيث ما تتضمنه من المبادئ الدينية الأساسية والمثل الأخلاقية كتابا واحداً تتعدد أبوابه ولكن تتوحد أهدافه ومراميه . وتختلف الأساليب فى فصوله ولكن تتفق دلالاته ومعانيه .. ولعل هذا هو ما يفهم من القرآن الكريم حينما يتحدث عن الدين بوجه عام فيقول : « إن الدين عند الله الإسلام » ويقول

« ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . ويذكر وصية إبراهيم لبنيه حينما قال لهم : « يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ـ فالإسلام هو الدين الخالص إلى عبادة الله والانقياد لأمره وتقواه مهما تعدد الأنبياء وكثر الدعاة ..

ولأن مشيئة الله سبحانه قد سبقت بأن يجعل دين محمد دين العالمين فقد أخذ الله العهد والميثاق على الأنبياء فى عصورهم المختلفة بأن يؤمنوا بمحمد إن جاءهم مصدقا لما أنزل عليهم . وكان معنى ذلك تنبيه الأمم والشعوب التى ستدرك زمن محمد إلى الإيمان به والتصديق بدعوته لأنها دعوة الحق الذى لا يأتيه الباطل ، ولأنها الدعوة العالمية التى كتب الله لها الخلود ، مادامت السماوات والأرض وما بقى هذا الوجود .. ، وفى ذلك يقول الله عز وجل « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

ولا ريب أن سيرة هذا النبى العظيم إنما هى الأساس الكامل لدعوته الكريمة التى أضاءت المشارق والمغارب ، وملأت العالم بالهدى والنور . ومن أجل ذلك كانت أهمية هذه السيرة الوضاءة العطرة للمسلمين بل للإنسانية جمعاء حيث تناقلتها الأمم والشعوب جيلا بعد جيل ، ثم سجلت بعد ذلك على مختلف العصور فى كتب يضيق بها الحصر والتعداد ، وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات . وواجب المؤرخ الذى يتصدى للكتابة عن سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يستضئ ـ أول ما يستضئ ـ بكتاب الله عز وجل . ثم يلى ذلك فى الأهمية كتب السنة الصحيحة ، ولكن القرآن الكريم والسنة النبوية لا يتعرضان إلا لبعض النواحى الخاصة من حياة الرسول « صلى الله عليه وسلم » . ويتعرضان لها فى إجمال يحتاج إلى كثير من التوضيح والتفصيل . ومن هنا كان لابد من المراجع الأساسية فى التاريخ وأهمها : سيرة ابن هشام ، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى ، والطبقات الكبرى لابن سعد فى جزئيه الأول والثانى إلى غير ذلك من المراجع الأصيلة .

ويبقى بعد ذلك ماكتبه المؤرخون المحدثون ولابد من الرجوع إلى كتبهم حتى يستنير بها إن كانت صحيحة ، أو يضيف إليها ـ بقدر المستطاع ـ ما يمكن أن يهتدى إليه من آراء جديدة ، أو يفنّد ما جاء فى بعضها من الآراء التى لا تستند إلى أساس سليم ... ولا شك أن مثل هذه الآراء الفاسدة التى جاءت فى بعض الكتب الحديثة يرجع بعضها إلى آراء قديمة دُسَّت إلى كتب المسلمين فى عصور التدوين الأولى ، وكان أساسها يرجع إلى أناس أسلموا ظاهرا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم . أو دخلوا فى الإسلام ولم تكتمل معرفتهم بكل مبادئه وآدابه ، ويرجع البعض

الآخر إلى أناس من المستشرقين تناولوا فى بحوثهم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت روح التعصب والتحامل تطغى على معظم كتاباتهم ، ومنهم المستشرق وليم موير ، والمستشرق كايتانى وقد نقل عنهما بعض المؤرخين المحدثين متجاهلين سوء نيتهما ونية غيرهما ، أو مخدوعين ببريق الأسلوب ، وغافلين عما يخفيه هذا الأسلوب من سُمٌّ زعاف وشرٌّ كبير...

* * *

وسوف نبدأ الآن هذا البحث حول بعض المشكلات التى تعرض لها العلماء والباحثون فى سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واختلفت حولها الآراء يمنة ويسرة وقد يكون بعض هؤلاء العلماء من أولياء الرسول ومحبيه ولكنهم انزلقوا إلى أخطاء غير مقصودة فضلوا عن الحق وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً .. ومثل هؤلاء الأولياء أشدُّ خطراً على سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأعداء ، لأن العدو كثيرا ما يتسلح بالباطل ، ويفترى الكذب ولذا تكون آراؤه قلقة فى نفوس الناس ، والثقة بها مفقودة ، أما الولىُّ والصديق فلا يتوقع منه شر أو خطر ، ومن هنا يكون الشرُّ منه أبعد أثرا وأشدَّ خطرا.

مناقشة حول البشرية فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

وأول موضوع يجب أن نسلط الأضواء عليه ، ونبين وجه الحق فيه هو ما روى من أخبار تتعلق بالزمن الذى وجد فيه الرسول ، والعنصر الذى خلق منه ، وهى أخبار لا وجود لها مع الحق ، ولا وجود للحق معها ، لأنها تحمل فى طياتها ما يهدمها من أساسها ، ولأنها ـ فوق ذلك ـ تتنافى مع ما جاء فى القرآن الكريم وما ثبت فى السنة النبوية الصحيحة.

ومن ذلك : ما ذكره ابن كثير عن أبى نعيم فى دلائل النبوة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « كنتُ أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث » وما روى عن كعب الأحبار(١) قال : « لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التى هى قلب الأرض وبهاؤها ونورها فهبط جبريل فى ملائكة الفردوس وملائكة الرفيق الأعلى فقبض قبضة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من موضع قبره الشريف وهى بيضاء نيرة فعجنت بماء التسنيم فى معين أنهار الجنة حتى صارت كالدرة البيضاء لها شعاع عظيم ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسى والسماوات والأرض فعرفت الملائكة محمدا ـ صلى الله عليه

---

(١) جاء ذلك فى كتاب « شرف المصطفى لأبى سعد النيسابورى ».

وسلم ـ قبل أن تعرف آدم أبا البشر ، ثم كان نور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى فى غرة جبهة آدم ، وقيل له : يا آدم هذا سيد ولدك من المرسلين ، فلما حملت حواء بشيث انتقل النور عن آدم إلى حوَّاء ، ثم لم يزل النور ينتقل فى أبناء آدم من طاهر إلى طاهر إلى أن وُلِد صلى الله عليه وسلم[1] .

بل لقد وردت بعض روايات تقول : إن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول خلق الله ، وأنه خلق من نور ، وأن هذا النور خلقت منه السماوات والأرضون والعرش والكرسى واللوح والقلم الخ الخ ..

وإذا كان من واجبنا ـ نحن المسلمين ـ أن نقدر نبينا العظيم حق قدره فإنه لحقٌّ علينا ـ كذلك ـ ألا نتجاوز الحدَّ أو نسىء الفهم فنبعد نبيَّنا عن منزلته وقدره ، ونخرج به عن نطاق البشرية ، ونجرى وراء مزاعم واهية تضر ولا تنفع حيث تجعل محمدا مخلوقا من النور لا من التراب ، أو من طينة أخرى غير الطينة التى خلق منها آدم ، وحيث جعله موجودا قبل أن يوجد آدم أبو البشر ... بينما نقرأ فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تلكم الآيات التى يتبين منها الحق الذى لا ريب فيه حيث يقول الله عز وجل لرسوله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » فهو يأمره بأن يعلن للناس أنه بشر كسائر الناس وإنما يتميز عليهم باختيار الله له رسولا يوحى إليه ، ثم يؤكد الله ذلك المعنى فى آية أخرى تشير إلى أن محمدا خلق من نفس الطينة التى خلق منها سائر البشر ، وذلك حيث يقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .. كما يروى فى ذلك الإمام مسلم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « **إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم** » .

وقد ذكر بعض المفسرين فى تفسيرهم لقول الله عز وجل : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .. ذكر بعض المفسرين أن المقصود بالنور فى الآية الكريمة هو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ومن هنا ساغ لبعض ضعفاء العقول أن يقول : إن محمدا خلق من نور جهلاً منهم بما يفهم من الآية إذْ لا شك أن النور الذى جاء فى الآية الكريمة هو النور المعنوى الذى

---

(١) سبل الهدى والرشاد للإمام الصالحى .

يضئ للناس طريق الحق ، وليس النور الحِسِّىّ الذى تراه العين ، والذى يضئ كما تضئ المصابيح ، وكما تضئ الكواكب ..

فالواقع الذى تطمئن له النفوس وتنهض به الحُجَّةُ أن محمدا نورٌ لأنه أضاء للناس طريق الخير بما آتاه الله من العلم والحكمة ، ولكنه مخلوق من التراب الذى خلق منه الناس جميعا ، وليس يضيره فى قليل أو كثير أن يكون مخلوقا من التراب مادام الله قد اصطفاه واختاره لرسالته الكبرى ، التى أضاءت المشارق والمغارب ، وملأت العالم كله بالهدى والرشاد .

والواقع الذى نؤمن به ونطمئن إليه أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول خلق الله منزلة وأعلاهم قدرا ، وليس أول خلق الله وجودا وأقدمهم مولدا .. ، ذلك بأنه فى التسلسل الزمنى كان خاتم الأنبياء والمرسلين .. ولا يستقيم مع المنطق السليم أن يكون محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من أبناء آدم ثم يوجد قبل أبيه .. ولا يستقيم مع المنطق السليم ـ كذلك ـ أن تكون الأفضلية بين الناس بقدم الميلاد وإلا لكان الآباء والأجداد أبداً أفضل من الأبناء والأحفاد وما أبدع قول البوصيرى عن بشرية الرسول وفضله على سائر البشر :

فمبلغ العلم فيه أنه بَشَرٌ   وأنه خير خلق الله كلهم

* * *

أنباء عن أحداث وقعت عند ميلاد الرسول :

وقد ذكرت بعض كتب السيرة أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخمدت النار التى يعبدها المجوس ، وغاضت بحيرة ساوة ، وانهدمت الكنائس التى حولها ، وتغنَّى بهذا المعنى كثير من الشعراء فى قصائدهم ، ويدفعهم إلى ذلك حبُّهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون أن يدققوا فى هذه الأنباء ، ويعرفوا مدى صحتها ، فيقول صاحب البردة عن يوم الميلاد :

يومٌ تفرَّس فيه الفرس أنهمُ   قد أنذروا بحلول البؤس والنِّقَمِ
وبات إيوانُ كسرى وهو منصدعٌ   كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنارُ خامدة الأنفاس من أسفٍ   عليه والنهرُ ساهى العين من سدم
وساء ساوةَ أن غاضت بحيرتُها   ورُدَّ واردُها بالغيظ حين ظمى

ومثل هذه الأنباء لا تعتمد على التحقيق العلمى ، ولا تستند إلى المصادر الأصيلة فى التاريخ الإسلامى ، وقد أعجبنى ما ذكره الشيخ محمد الغزالى فى كتابه « فقه السيرة » فى هذا الصدد حيث قال : « إن هذا الكلام تعبير غلط عن فكرة صحيحة ، فإن ميلاد محمد كان حقا إيذانا

بزوال الظلم واندثار عهده ، وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلى والمادى ، وكان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ ، وأحصى فعالهم فى تدويخ المستبدين وكسر شوكتهم طاغية إثر طاغية ، فلما أحب الناس بعد انطلاقهم من قيود العسف تصوير هذه الحقيقة تخيلوا هذه الإرهاصات ، وأحدثوا لها الروايات الواهية . ومحمد غنىٌّ عن هذا كله ، فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرِّف يزهدنا فى هذه الروايات وأشباهها » .

ونحن نزيد على ما قاله الشيخ الغزالى فنقول : « إن معظم الكتب والمصادر الأصيلة فى التاريخ والسيرة وكتب السنة الصحيحة لم تذكر هذه الإرهاصات ولم تتعرض لها من بعيد أو قريب ، ومثل هذه الحوادث الخطيرة لا يمكن إغفالها لو أنها وقعت بالفعل ، بل كان المؤرخون يسارعون إلى ذكرها تسجيلا للحقيقة التى كانوا يجرون وراءها خطوة بعد خطوة ، فى كل ما يتعلق بحياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

حادثة شق صدر الرسول :

وهى حادثة جديرة بالبحث والتوثيق والتحقيق العلمى الدقيق ، فقد ذكر مؤرخو السيرة النبوية عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو فى الثالثة من عمره أنه كان مع أخيه من الرضاع فى بادية بنى سعد خلف بيوتهم ، فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأبيه وأمه : ذلك أخى القرشى محمد قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه ، فهما يسوطانه أى (يقلِّبانه) . تقول السيدة حليمة : فخرجت أنا وأبوه فوجدناه قائما ممتقعا وجهه ، فالتزمته والتزمه أبوه (زوج حليمة) فقلنا له : مالك يا بنى ؟ قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقاً بطنّى فالتمسا فيه شيئاً لم أدر ما هو ؟ ..

وقد خشيت السيدة حليمة على محمد أن يكون قد أصابه شىء فأرجعته إلى أمه آمنة ، وقصت عليها النبأ العجيب فطمأنتها آمنة قائلة : لا تفزعى يا حليمة فإن لابنى هذا لشأنا ، فلم أكن أحس أثناء حمله بشىء مما تجده الحوامل ، وقد رأيت فى المنام وأنا أحمله كأن نوراً خرج منى فأضاء لى قصور الشام ، ثم طلبت إليها أن تعود به إلى البادية مرة ثانية فعادت به حليمة ، وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره . وتروى كتب السنة والسيرة وقوع هذه الحادثة مرة ثانية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الإسراء والمعراج .

ويختلف رأى العلماء فى معنى شق الصدر ، فيذهب الجمهور منهم إلى أنه شق حقيقى ، وأنه معجزة وقعت مرتين : مرة قبل البعثة ومرة بعدها ، فأما قبل البعثة فلكى تكون إرهاصاً للنبوة وبشيرا بما ينتظر لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مركز سامٍ ومقام كريم ، وأما بعد البعثة فلكى

تكون معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى التى كرَّم الله بها نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والتى تؤيد صدقه فى دعواه ،

ويذهب البعض من العلماء إلى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة وإنما يقصد به ما يفهم من قوله تعالى : «ألم نشرح لك صدرك» فهو بذلك يكون إشارة إلى تطهير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الشوائب التى توجد فى نفوس الناس والسُّمُوِّ به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية .

وممن يرون هذا الرأى من علماء هذا العصر الشيخ محمد الغزالى فى كتابه : « فقه السيرة » فلقد جاء فيه : « إن بشرا ممتازا كمحمد لا تدعه العناية غرضا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس ، فإذا كانت للشرِّ موجات تملأ الآفاق ، وكانت هناك قلوبٌ تسرع إلى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبيين ـ بتولِّى الله لها ـ لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها ، وبذلك يكون جهد المرسلين فى متابعة الترقى لا فى مقاومة التدلى ، وفى تطهير العامة من المنكر لا فى التطهُّر منه ، فقد عافاهم الله من لوثاته .. « .. ثم يقول .. » ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد فجعلته منذ طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الإنسانى ومفاتن الحياة الأرضية .

وقد أورد الخازن فى تفسيره لقول الله تعالى «ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك » أورد قصة شق صدر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى طفولته .. ، وشرح الصدر الذى عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها ملك أو طبيب » .. ثم يؤكد الشيخ الغزالى أن شق صدر الرسول إنما يجب أن يحمل على المجاز لا على الحقيقة ، وأن المقصود به انتزاع الوساوس الشيطانية دون حاجة إلى تلك العملية الجراحية فيقول : « ويحسن أن نعرف شيئاً عن أساليب الحقيقة والمجاز التى تقع فى السنة . فعن عائشة : « أن بعض أزواج النبى قلن : يا رسول الله أيُّنا أسرع بك لحوقا ؟ قال : أطولكن يداً ، فأخذن قصبة يذرعنها فكانت سودةُ أطولهن يداً فعلمن بعد ذلك أنما كان طول يدها « الصدقة » حيث كانت تحب الصدقة . وكانت أسرعنا لحوقا به » .

ومن عجب أن ينزلق الشيخ الغزالى إلى هذا الرأى حيث يرى أن شق صدر الرسول مشكلة لا تُحَلُّ إلا بطريقة واحدة هى أن يكون شق الصدر مجازا لا حقيقة ، وأن يراد به شرح صدر الرسول بما أودعه الله فيه من الهدى والنور .. ونرى من واجبنا فى هذا الصدد أن نقول : إن

محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تدعه العناية الإلهية غرضا للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس وإنه لو لم يقم الملكان بشق صدره لما كان أبداً غرضاً للوساوس ، بل لكان مثله كمثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهَّر قلوبهم من الوساوس دون أن تشق صدورهم . وإنما أراد الله بهذه الحادثة الفريدة فى نوعها أن تتوجَّه الأنظار والقلوب إلى محمد فى طفولته وبعد بعثته ، ويعرف الناس عنه أن عناية خاصة تحيط به وتميِّزه عن غيْره ، وأن العناية التى أحيت الموتى وأبرأت الأكمه والأبرص على يدى المسيح عليه السلام هى العناية التى شقت صدر محمد ثم أرجعته فى لحظات إلى حالته الطبيعية . وهذا شأن المعجزات التى لا تخضع ولا ترتبط بالأسباب العادية .

ولا ينبغى بأى حال أن تحمل القصة على أنها من الأساليب المجازية لأن سياق القصة والتعبير بلفظ « جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض » وكلمة « فأضجعانى وشقا بطنى » . وفرار أخيه من الرضاعة فزعاً مما رأى ، ومجئ السيدة حليمة هى وزوجها بعد أن أخبرهما ولدهما بما أصاب أخاه محمدا ، ومقابلتهما لمحمد وهو ممتقع لونه ، وحكايته القصة مرة ثانية بنفس هذه الألفاظ ... كل ذلك يجعل الحقيقة فى هذه القصة واضحة لذى عينين ، ويبعد بها عن الأسلوب المجازى بعد المشرقين ...

وإذا كان بعض المستشرقين من أمثال سير وليم موير ، ودرمنجم ومن يتجه إلى رأيهما من المؤرخين المحدثين كما جاء فى كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل . إذا كان أمثال هؤلاء ينكرون حادثة شق الصدر لأنها تعتمد على رواية طفلين لا يصح الأخذ بقولهما ، فإننا نرى أن رواية الأطفال كثيرا ما تكون بعيدة عن الكذب والاختلاق أكثر من رواية الرجال .. ومع ذلك فقد تحدث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذه الحادثة بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة ويقصها على أصحابه ، كما تحدث الرسول عن المرة الثانية التى وقعت له فى ليلة الإسراء والمعراج .. ، وإذن فالرأى الذى نرتضيه والذى ترشد إليه السنة الصحيحة هو أن حادث شق الصدر قد وقع بطريقة حسية لا ريب فيها ، وأنه من الإرهاصات التى تبشر بنبوَّة محمد وتسلط الأضواء عليه قبل النبوة ، إذ ليس هناك ما يمنع من ذلك مادمنا نؤمن بالعناية الإلهية التى تصاحب الأنبياء منذ فجر حياتهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ...

قصة الغرانيق :

قصة الغرانيق قصة مشهورة ، وقد كثر فيها كلام الكتاب والباحثين المعاصرين ، ومن العجيب أن بعض المراجع الكبرى كالطبرى فى تاريخه ، وابن سعد فى طبقاته ، وابن الأثير فى كتابه الكامل قد أثبتت هذه القصة دون أن تعلق عليها بما يدل على بطلانها وفسادها مع أنها تحمل فى طياتها ما يوهنها بل ما يهدمها من أساسها ..

ومجمل هذه القصة أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رأى تجنب قريش إياه ، وإيذاءهم له ولأصحابه ، تمنى ألا ينزل عليه شىء من القرآن ينفرهم ، فجلس يوما فى أحد أنديتهم حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى[1] » فقرأ بعد ذلك : « تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى » . ثم مضى إلى نهاية السورة كلها وسجد فى آخرها عند قوله : « فاسجدوا لله واعبدوا » . وهناك سجد القوم جميعا ولم يتخلف منهم أحد وأعلنت قريش رضاها عن ما تلاه النبى وقالوا له : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق . ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، أمَّا إذا جعلت لها نصيبا من الشفاعة فنحن معك ، وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم ، وفشا أمر ذلك فى الناس حتى بلغ أرض الحبشة ، فقال المسلمون بها : عشائرنا أحبُّ إلينا . ورجعوا إلى مكة ..

وتضيف الرواية أن محمدا قد كبر عليه قول قريش : « أمَّا إذا جعلت لنا نصيبا فنحن معك » وأنه جلس فى بيته حتى إذا أمسى أتاه جبريل فعرض النبى عليه سورة النجم فقال جبريل : أوجئتك بها تين الكلمتين ؟ مشيرا إلى .. « تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى » فقال محمد حينئذ : لقد قلتُ على الله ما لم يقل . ثم أوحى الله اليه : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذًا لا تخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً . إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا[2] » . وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشرِّ ويسبهم ، وعادت قريش لمناوأته وإيذاء أصحابه ..

تلكم هى قصة الغرانيق فى جملتها ، وهى قصة واضحة الكذب ولغة الوضع فيها ظاهرة . ولذلك لم تنطل على كثير من العلماء والثقات أمثال محمد بن اسحق والقسطلانى فقالوا عنها : إنها من وضع الزنادقة . ولعل بعض المؤرخين الذين أثبتوها كانوا يؤمنون بفسادها ، ولكنهم

---

(١) سورة النجم آية ١٩ . ٢٠ .

(٢) سورة الإسراء ٧٣ إلى ٧٥ .

وضعوها فى كتبهم لاستيفاء جميع الروايات التى وردت فى الموضوع الذى يتعرضون له مطمئنين إلى فطنة القارئ ويقظته ، ولعلها دُسَّت إلى بعض هذه الكتب بعد موت أصحابها .

وحسبنا فى إبطال هذه القصة أن نقرأ الآيات القرآنية فى سورة النجم ، لنرى أنها أبلغ ردٍّ على ما تدل عليه الجملتان الموضوعتان ، وذلك حيث يقول سبحانه وتعالى : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى[1] » .

فكيف يعقل أن تحشر فى هذه الآيات التى وضحت دلالتها على حقارة الأصنام ، وسفه من يقدسونها ـ جملتان ترفعان من شأن هذه الأصنام ، وتجعلان لها شفاعة مرجوّة ؟ ... وكيف يمكن أن يسجد المشركون بعد أن يسمعوا هذه الآيات وفيها طعن صريح على آلهتهم ، حيث يقول الله عنها : « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .. ، وأما أن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد كبر عليه قول المشركين : إنهم معه مادام قد جعل لآلهتهم نصيباً من الشفاعة فهذا كلام لا يتفق مع جوهر الدعوة الإسلامية ومبادئها العامة التى تحارب الشرك بكل مظاهره ، والتى تقوم على التوحيد الخالص البعيد عن كل الوسطاء والشفعاء . ،

وأما أن الرسول قد أوحى إليه بعد ذلك بتلك الآيات الكريمة وهى قوله تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره » إلى آخر الآيات ، فلا شك أن هذه الآيات لا تؤيد مثل هذا الادعاء ، ولا تفيد وقوع مثل هذا الافتراء ، لأن الله يقول : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » .

ومادام الله قد ثبته على الحق فقد حال بينه وبين الافتراء على الله والركون إلى أعداء الحق ..
وأما ما ساقه هؤلاء الكاذبون الذين وضعوا هذه القصة من الاستشهاد على وقوعها بقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىٍّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم[2] » وتفسيرهم « التمنى » بالقراءة وتعزيزهم لهذا التفسير ببيت من الشعر يحكى قصة عثمان بن عفان رضى الله عنه ليلة مقتله فيقول :

تمنَّى كتاب الله أول ليلة ... وآخرها لاقى حمام المقادر

(١) سورة النجم من ١٩ إلى ٢٢ .

(٢) سورة الحج آية ٥٢ .

فهذه الآية الكريمة لا ينبغى أن يفسر التمنى فيها بالقراءة لأن هذا التفسير بعيد كل البعد عن المقصود وليس له فى الأساليب العربية وجود إلا فى هذا البيت وحده . وفى ذلك دليل واضح على أن هذا البيت قد وضع لهذا الغرض خاصة ... هذا ولو أننا فسرنا التمنى بمعنى القراءة فإن معنى ذلك أن يلقى الشيطان فى قراءة كل نبىٍّ كلاماً ليفتن به الناس ثم ينسخه الله بعد ذلك ، وهذا ما لم يقع للأنبياء من قبل كما عرفنا من تاريخهم ، وذلك فضلا عن أن كثيرا من الأنبياء لم تنزل عليهم كتب حتى يغير الشيطان فيها ثم ينسخ الله بعد ذلك ما يفعله الشيطان .. على أن سنة الله فى رسله وأنبيائه أن يؤلف حولهم القلوب فى مبدأ دعوتهم بإجراء المعجزات والخوارق على أيديهم ، بدل أن يمكن الشيطان من إلقاء الفتنة وإشعالها بين أتباعهم بنسخ ما ينزل عليهم فينفر الناس منهم ويضعف الثقة بهم ..

والآية ـ حينئذ ـ تفسر على النحو الواضح المألوف فى لغة العرب ، ويكون المعنى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى هداية قومه ألقى الشيطان فى أمنيته ، أى وضع الشيطان فى طريق تحقيق أمنيته العقبات والعراقيل ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، أى فيذهب الله ما وضعه الشيطان من تلك العقبات ، ثم يحكم الله آياته ، أى يظهر الحق ويرسى أسسه ودعائمه ، والله عليم حكيم ، وصدق الله العظيم حيث يقول فى كتابه الكريم : « وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون » .

وبهذا يتبين لنا أن قصة الغرانيق قصة مختلقة دُسَّت إلى بعض الكتب القديمة ، وإن هى إلا محض افتراء واختلاق .

وبعد ، فهذه بعض المشكلات التى عَرَضت لسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وغيرها كثير ، ولكننا فى هذا المقام لسنا بصدد الاستقصاء ، وهى مشكلات أملاها الجهل وسفه الرأى والكذب والافتراء .. ولكن سلاح الباطل مفلول وحجته داحضة والله متم نوره ولو كره الكافرون .

هذا ومن الله العون وبه التوفيق



محمد رسول الله
في مرآة الشعر القديم

الأستاذ الدكتور
محمد السعدي فرهود

هتف الشعر بمحمد نبي الإسلام منذ أشرق صباحه على الكون ، وليس بعجيب أن تدوى القصائد البليغة بأمداح محمد البليغ ، لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ارتفع بالشعر فى عصره حين أوحى للملهمين من المعانى الكريمة والأغراض النبيلة ما ارتفع بمشاعرهم ، وارتقى بأفكارهم ، فأشرأبوا بأفكارهم إلى أفق وضئ يأتلق بمحاسن المثل ، وروائع القيم .

ورسول الله أفصح الناس بيانا ، وأمضاهم لسانا ، فهو بحديثه المبدع وخطابته المؤثرة وحواره الرائع ـ مهوى المستمعين من ذوى اللسن ، بل إن الشعراء من هؤلاء ليعجبون كيف يخفض الشعر فى مجلسه رأسه ، حيث يسمو النثر الذى يبدعه إلى ما فوق الشعر ، والعهد بالشعر أن يكون المجلى فى الحلبة ، السابق فى الميدان ، فما باله يغضى من مهابته ، وينحنى فى خشوع ! لقد عبر عن هذه الحقيقة النيرة شاعر الإسلام المعاصر «أحمد محرم» حين قال فى صدق وإيمان مخاطبا رسول الله :

من هيبة يغضى البيان ويطرق ... ويميل فيك إلى السكوت المنطق
إيذن يفض هذا البيان بأنه ... مما يفيض بيانك المتدفق
ما فى النوابغ من لبيب حاذق ... إلا وأنت ألب منه وأحذق
إن يلبس الشعر الجمال منوّرا ... عبقا فأنت جماله والرونق
والقول مستلب المحاسن عاطل ... حتى يقول العبقرى المفلق
أنت المجال الرحب ، تعتصر القوى ... فيه ، وتمتحن الجياد السبق

«حسان» منتهر «وكعب» صارخ «والنابغ الجعدى» عان موثق
أطمعتهم فتنازعوا فيك المدى وأبيت فانصرفوا ، وكل محقق
لى عذرهم ، ما أنت من عدة المنى إلا وراء مخيلة ما تصدق

وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، والنابغة الجعدى ، ممن مدحوا رسول الله ، طمعوا فى امتداح رسول الإسلام ، وتنازعوا السبق ، وجاوز بعضهم بعضا ، ولكنهم مع سبقهم الواثب ، وقفوا دون حد لم يجاوزوه ، لأن جلال صاحب الدعوة قد غمرهم بإشعاع ربانى لم يقووا على اختراق أمواجه ، وما ذاك إلا أنهم ورثوا من العهد الجاهلى فنونا من التعبير تعجز أن تلم بما أشرق به نبى الإسلام من مثل ، فكانوا يتطلعون إلى الإيحاءات الجديدة من نور النبوة ، محاولين أن يسيروا فى ضوئها ، إذ أعجزهم واقعهم الراهن أن يحللوا إيماضاتها ، وأن يصوروا ألوانها الممتزجة بالسحر الحلال .

ومع ما وقفوا عنده من الحد المتواضع : قالوا ما استطاعوا أن يقولوه ، وحسبهم أنّهم بذلوا غاية الجهد ، وطالعوا ذويهم بما يستطاع .

على أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، كان بسلوكه الخلق أقوى هذه الموانع ، التى حالت دون انطلاق معاصريه من شعراء الدعوة الإسلامية ، فقد كان بتواضعه النبيل يأبى أن يكون كغيره من رؤساء القبائل ، وسروات العرب ، مجال الثناء الشخصى والمديح الذاتى ، ويؤثر أن توجه الأمداح إلى الإسلام نفسه ، حيث يفيض المادح فى إطراء ما أحيا الإسلام من مثل وما أحدث من توجيه . فمبادئ الإسلام هى فى لبابها الخالص لدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ موضع الاحتفاء . ولقد تأتى الوفود من القبائل إلى المدينة فيتحدث الخطباء بمآثر الوافدين ، ويتلوهم الشعراء فينظمون هذه المآثر شعرا بعد أن هتف بها الخطباء نثرا ، ثم يجئ الدور على خطباء الدعوة الإسلامية وشعرائها ، فيتجه الحديث بتوجيه من رسول الله إلى مزايا الدعوة الإسلامية ، وترديد تعاليم الإسلام ، فقد جاء وفد بنى تميم إلى المدينة ، ومعهم رؤساء العرب ليروا رسول الله ويسمعوا منه ويسمعوه ، فقام خطباؤهم وشعراؤهم يتحدثون بما لديهم من المفاخر حتى بلغوا غاية ما يقصدون ، ثم قام من المسلمين ثابت بن قيس خطيبا ، وقام حسان ابن ثابت شاعرا ، فذكرا من محاسن الإسلام ما عفى على كل قول .

حتى قال الأقرع بن حابس بعد أن سمع ما سمع ـ وكان من رؤساء الوافدين ـ : يا قوم إن الرجل ـ يريد رسول الله ـ لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا . قال ابن اسحاق : فلما فرغ القول أسلموا ، وجوّزهم رسول الله

ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأحسن جوائزهم[1] وقد قال حسان حينذاك قصدة طويلة لم يبق منها غير قليل ، ومنه قوله :

إن الذوائب من فهر واخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله ، وكل الخير يصطنع
سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق ـ فاعلم ـ شرها البدع
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطيعون[2] ولا يرديهم طمع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خُور ولا جُزُع
أكرِمْ بقوم ، رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع

فالفخر هنا بالمسلمين بعامة ، وبالمبادئ والأخلاق بخاصة . ولهذه القصيدة نظائر أخر تنحو وجهتها .

ولهذا المنحى الأثير من التوجيه النبوى ، لانجد الشعر الإسلامى فى عهد رسول الله قد أوفاه حقه من الوصف ، وعجيب أن نرى أوصاف رسول الله الحسية قد جلاها النثر لعهده أكثر مما جلاها الشعر ، فقد روت صحائف السيرة النبوية وصف أم معبد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين شهدته فى طريقه إلى المدينة مهاجرًا ، مع صاحبه أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فكان هذا الوصف هو المرجع الأول لما خطه المؤرخون من أوصاف رسول الله ، فإذا أضيف إليه مثله من أقوال بعض الصحابة كابن عمر ، وابن عباس . وأنس بن مالك . فما أضيف نثر وليس شعرا . قالت أم معبد فيما قالت : «رأيت رجلا ظاهر الوضاءة . أبلج الوجه ، حسن الخلق ، وسيما ، قسيما ، فى عينه دعج ، وفى أهدابه وطف . وفى عنقه سطع ، أحور ، أكحل ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم علاه البهاء ، فهو أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم حلاوة من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، ربعة ، لا تشنؤه من طول ، ولا تقتحمه العين من قصر ، غصن بين غصنين . فهو أنضر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدا ، له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ، محفود . مشهود ، لا عابس ولا مفند» .

فهذا وصف رائع ظفر به النثر حين عز نظيره فى شعر معاصريه . ولم يكن ذلك إلا لأن

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ١٥٧ .
(٢) لا يطيعون : لا يدنسون .

التوجيه النبوى كان معنيا بمحاسن الإسلام أولا ، فهى بيت القصيد .

ومن أوائل مادحى الرسول : عمه أبو طالب بن عبد المطلب . وأبو طالب شيخ قريش ، عرف فى ابن أخيه شمائل الرجولة ، وسمات البطولة ، ومعانى الأريحية ، مما جعله يباهى به ، ويقوم دونه ذائدا حاميا ، حين تألبت عليه الجموع . ولو أنس أبو طالب فى ابن أخيه بعض معانى الانحدار ما وهب نفسه دفاعا عنه فى وقت تكالبت الجموع على مناوأته ، بل تعدت المناوأة رسول الله إلى عمه الكبير فقاطعته قريش وأقامت الحوائل دون رزقه ، وهو رجل فقير من المال ، لكنه غنى من الحسب والمروءة وقد واجه من طالبوه بالتخلى عن ابن أخيه مواجهة باسلة حيث أنذرهم بالقتال الشرس دون هوادة ، وجاهر ببذل دمه ودم أشياعه فى سبيل نصرته . وعبر عن ذلك بقصيدة رنانة ذات حمية غاضبة وحفاظ مر ، يقول فيها :

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ... وقد قطعوا كل العرا والوسائل
صبرت لهم نفسى بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول
كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن ، إلا أمركم فى بلابل
كذبتم وبيت الله يبزى[1] محمد ... ولما نطاعن حوله ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى[2] عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده فى رحمة وفواضل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ، ولا يعنى بقول الأباطل
حدبت بنفسى دونه[3] وحميته ... ودافعت عنه بالذرا والكلاكل[4]

وظلت هذه الأبيات تردد وتتناقلها صحف التراث ، حتى جاء من يحاول أن ينسبها لقائل غير أبى طالب ، بحجة أنها طويلة مديدة . ونظير ذلك ما توجه به صاحب كتاب «الشعر الجاهلى» إلى مدحة الأعشى الشهيرة لرسول الله ، إذ روى الرواة أن أعشى قيس بن ثعلبه قد سمع برسول الله ، وجاءته الأنباء عن فضله وكرمه ، وقيامه بالدعوة الجديدة لدين الله ، فآثر أن يتجه إليه مادحا ، معبرا عن صدى ما سمع ، وليس من غرابة فى أن يلجأ شاعر محترف إلى رئيس عظيم يمدحه بما اشتهر عنه لينال عطاءه. ولكن الغرابة أن نجعل ما قيل عن الأعشى زيفا مختلفا، مع

---

(١) يبزى : يقهر (٢) ثمال اليتامى : غياثهم .
(٣) حدبت بنفسى دونه : عطفت عليه .
(٤) الذرا والكلاكل : أى الرءوس والصدور .

أن الشاعر قد ترك جزيرة العرب إلى الشام والعراق مادحا الرؤساء والأمراء أفيعز عليه أن يأتى من نجد إلى تهامة ليمدح عربيا عظيما دوت الأنباء بمآثره ؟ ! لقد وفد الأعشى على رسول الله مادحا ، وصادفه فى الطريق بعض أعداء الدعوة الإسلامية ، وأفزعه أن يسمع المدحة النبوية رائعة رنانة تسير بها الركبان ، فعرض على الشاعر أن يرجع وأن يأخذ منه ما كان يطمع فيه من المال . ويرجع الأعشى دون أن يشرف بلقاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولكنه أذاع ما قال ، وتناقلته الرواة ، وكان منه قوله :

ألا أيهذا السائلى أين يممت … فإن لها فى أهل يثرب موعدا
فإن تسألى عنى فيارب سائل … حفى عن الأعشى به حيث أصعدا
فآليت لا أرثى لها من كلالة … ولا من حفى حتى تلاقى محمدا
متى ما تناخى عند باب ابن هاشم … تراحى ، وتلقى من فواضله ندى
نبيا يرى مالا ترون ، وذكره … أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ، ونائل … وليس عطاء اليوم مانعه غدا
أجدك لم تسمع وصاة محمد … نبى الإله حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى … ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله … فترصد للموت الذى كان أرصدا

والمعانى الإسلامية واضحة فى هذه الأبيات مما يدل على أن تعاليم الإسلام قد ترددت فى أكناف الجزيرة وجاءت نجدا ، فوقف عليها الأعشى ، وحركت آماله فى عطاء جديد يرجع به غانما ولم تطل الأيام بالأعشى حتى يعيد الكرة ، فاخترمه الموت قبل أن يبادر برحلة ثانية ، ولكنه سجل مدحة رائعة ، وجدت مكانها المطمئن فى ديوانه الحفيل .

وقد كانت السيرة النبوية لابن إسحق أوفى مصدر جمع ما قيل من الشعر الإسلامى فى عصر النبى عليه السلام ، وإذا كان بين هذا الشعر ماغدا موضع النظر الناقد من الدارسين ، فإن ابن هشام حين هذب هذه السيرة أشار إلى مواطن النقد ، وأخذ يعقب على ما لم يثبت لديه بأنه موضع اعتراض أهل النظر من علماء الشعر .

وبتعقيبات ابن هشام الذكية يستقر الشعر الصحيح النسبة فى نصابه ، وتصبح السيرة بعد ملاحظات ابن هشام مرجعًا من مراجع الشعر فى عصر النبوة .

ودارس هذا الشعر يجد أن مدح الرسول فى أكثر القصائد لم يكن غرضًا أصليا توجه إليه

القائل بادئ بدء ، ولكنه يجد هذا المدح الكريم قد تسلّل بين أغراض أصلية دعت إليه . فشاعر «كأبي قيس بن أنس الأنصارى» أراد بقصيدته اليائية أن يتمجد بفضل الأنصار من قومه حين آووا ونصروا ، وأن يوازن بين موقف قريش فى مكة إذ مكث الرسول ثلاث عشرة سنة يدعو دون أثر فعال ، وبين موقف الأنصار بالمدينة حين أوسعوا للدعوة الجديدة منافذ الاستقرار ، فاطمأن المسلمون آمنين على أرواحهم ، ووجدوا من البشاشة والبذل ما آنسهم بعد وحشة . وعلى أمثال تلك المعانى دار أبو قيس بن أنس الأنصارى فى هذه القصيدة فهو يقول عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة   يذكر لو يلقى صديقا مواتيا
فلما أتانا أظهر الله دينه   فأصبح مسرورا بطيبة راضيا
بذلنا له الأموال من جل مالنا   وأنفسنا عند الوغى ، والتآسيا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم   جميعًا . وإن كان الحبيب المصافيا
أقول إذا أدعوك فى كل بيعة   تباركت قد أكثرت باسمك داعيا
فو الله لا يدرى الفتى كيف يتقى   إذا هو لم يجعل له الله واقيا

وللشاعر مقطوعات أخرى ، تسبح الله ، وتوصى بمبادئ الإسلام ، فتدل على أثر الدعوة فى نفسه ، ويخيل إلى أنه كان ذا حساسة أسرعت به إلى تشرب معانى الخلق الرفيع ، فجرت على لسانه فى سهولة ونصوع .

«وحسان بن ثابت» أقوى شعراء الدعوة صليلا ، وأطولهم نفسا ، حفل ديوانه بنفائسه الكريمة فى مضمار الشعر الإسلامى ، وكان ذا غيرة مفرطة ، تدفعه إلى تعقب خصوم الدعوة بمكة ، والرد على ما يقولون فى قوة وإفحام . ومن أشهر قصائده الذائعة مساجلاته مع أبى سفيان ابن الحارث بن هشام . وبعضها مذكور فى ديوان الحماسة . وأقواها ما تهدد به المشركين حين أعلنهم أن خيل المسلمين ستطلع من «كداء» ، وهم لا حيلة لهم إلا أن يستسلموا فيتم الفتح ، أو يصبروا لجلاد يوم يعز الله فيه من يشاء ، ثم انتقل إلى الحديث عن رسول الله فقال :

وقال الله قد أرسلت عبدا   يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه   فقلتم ما نقوم وما نشاء
وقال الله قد سيرت جندا   هم الأنصار عرضتها اللقاء
ألا أبلغ أبا سفيان عنى   مغلغلة فقد برح الخفاء
هجوتَ محمدا فأجبتُ عنه   وعند الله فى ذاك الجزاء

أتهجوه ولستَ له بكفء فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركا برا حنيفا أمين الله ، شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

ونذكر معه فى مضمار المساجلة «كعب بن مالك الأنصارى» ، فقد تعددت قصائده الهاجمة على شعراء الشرك ، وامتلأت بحججها الدامغة ، وأسلحتها الباترة . ومما قاله فى نبى الإسلام :

قضينا من تهامة كل ريب وخيبر ، ثم أجممنا السيوفا
فويلهم أليس لهم نصيح من الأقوام كان بنا عريفا
يخبرهم بأنا قد جمعنا عتاق الخيل والنجب الطروفا
وأنّا قد أتيناهم بزحف يحيط بسور حصنهم صفوفا
رئيسهم النبى وكان صلبا نقى القلب مصطبرا عزوفا
رشيد الأمر ذو حكم وعلم وحلم لم يكن نزقا خفيفا
نطيع نبينا ونطيع ربا هو الرحمن كان بنا رءوفا

والشاعر «عبد الله بن رواحة» ، يذكر فى طليعة شعراء الأنصار ولكن الأيام عصفت بشعره فلم ترو له غير مقطوعات يسيرة لا تحدد موضعه الأدبى على نحو مريح ، ومع ذلك فإن شهرة ابن رواحة بالشاعرية لم تأت من فراغ ، ولكن حظه من التدوين والرواية قد قعد بشعره عن السير والانتشار ، ونستشهد هنا بقوله مخاطبا رسول الله :

فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ، ونصرا كالذى نصروا
أنت الرسول فمن يحرم نوافله والوجه منه فقد أزرى به القدر
إنى تفرست فيك الخير نافلة فراسة خالفت فيك الذى نظروا

وحين فتحت مكة ، وتم للإسلام نصر حاسم على المشركين ، أفاقت القبائل من رقادها الواهم ، وعلمت أن زعامة قريش لم تكن غير سراب يحسبه الظمآن ماء ، وأن الحق المنتصر يحمل مبادئ الرحمة والعدالة والكرامة والحرية ، مما يجدر بكل راشد أن يسرع إلى لوائه مستظلا لائذا ، وعلى هذا قدمت الوفود إلى المدينة ، ومع كل وفد شاعره الناطق ، ولسانه المعبر ، ولكل قادم اعتزازه بقبيلته ، وفخره بأمجادها السوالف ، لأن الإسلام لم يكن مفهوما لديه فهما صحيحا ينأى به عن العصبية القبلية فى موطنه النازح ، فجاء إلى المدينة ليزهو بتراث الأجداد شامخا ،

ووجد من رسول الله رحابة الصدر ، وسعة الأفق ، حتى شمل ضيوفه بالعطف السابغ ، وخلطهم بصحابته ليعرفوا من سلوكهم الذاتى كيف تغيرت الأوضاع ، وانقلبت الموازين ، بحيث صار الناس سواسية ، لا فرق بين عربي وأعجمى إلا بتقوى الله ، وهنا يظهر الإسلام الصحيح فى أسطع ملامحه ، فيشرق على قلوب العرب بالمحبة ، ويرجع الوافدون إلى أهليهم ، وقد عرفوا مالم يكونوا يعرفون ، فكانوا مبشرين ومنذرين .

فإذا تركنا شعراء الوفود إلى من أسلموا رهبة وخشية ممن توعدهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبعض السوالف الهابطة من أعمالهم ، فإننا نجد شاعرا مثل «كعب بن زهير» تضيق به الأرض حين يعلم أن رسول الله قد أوعده وتهدده ، ويستمع إلى نداء أخيه «بجير» فيقدم إلى نبى الله تائبا لائذا ، يقدم بشخص الخائف الوجل الذى لا يعلم شيئا عن تواضع رسول الله وسماحته ، تدلك على هذا قصيدته التى قدمها معتذرا تائبا ، فهو فيها واقع فى رعب شديد ، وهلع بالغ ، صور فيها نفسه وهو يقدم على رسول الله قادما على عرين الأسد ، وأنه سيقوم بين يديه مقاما لو يقومه الفيل على شدته لظلت فرائصه ترتعد ، فإن رسول الله لأخوف فى عين كعب من أسد فاتك يحتل مكانا صعبا من الأرض وقد نشر الرعب فيما حوله من الآفاق ، فظلت سباع الجو نافرة من مكانها وانقطعت الأرجل التى تسير فى مسرحه ، وما هكذا رسول الله حتى يشتط الشاعر تحت سيطرة الرعب فيقول عنه :

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
لا تأخذنِّى بأقوال الوشاة ، ولم ... أذنب ولو كثرت فىّ الأقاويل
فقد أقوم مقاما لو يقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل
فهو أخوف عندى إذا أكلمه ... وقيل إنك منسوب ومسئول
من ضيغم بضراء الأرض مخدره ... فى بطن عثّر ، غيل دونه غيل
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما ... لحم من الناس مقطوع خراديل
منه تظل سباع الجو نافرة ... ولا تمشى بواديه الأراجيل

ثم أسلس ورق حين قال :

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة ـ لما أسلموا ـ زولوا
زالوا ، فما زال أنكاس ولا كشف ... عند اللقاء ، ولا ميل معازيل

واستمع الرسول إلى كعب باسما ، وعفا عنه ، وخلع عليه بردته الشريفة ، فزال عنه ماركبه من رعب مقيم مقعد . وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع عزته المنيعة ، وقدرته القادرة عفوا رحيما به وبغيره من اللائذين .

أترانا فى هذا المجال الضيق نستطيع أن نلم بما قيل فى نبى الإسلام مدة حياته . إننا قد اكتفينا ببعض عن بعض ، فلننتقل إلى ما قيل فيه بعد أن ارتقى إلى الرفيق الأعلى ، ولقد كانت وفاة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حدثا بالغ الخطورة تأثيرا ودهشا وهلعا ، حتى إن «عمر بن الخطاب» وهو الحازم البصير لم يصدق النبأ لهوم ما نزل به ، وجعل يصيح فى الناس : (من قال إن محمدا مات علوت رأسه بسيفى هذا) ، حتى رده «أبو بكر» إلى الصواب مذكرا بآيات الله ، وإذا كان ذلك مبلغ عمر من الدهشة ، فما مبلغ سواه ممن هزهم رحيل نبيهم المفاجئ إلى ملكوت ربه ؟ !

لقد تدفق الشعر دمعا ساخنا يبكى رسول الله ، والباكى معذور غير ملوم ، فقد ارتفع الوحى بغيبة رسول الله ، وانقطع ما بين الأرض والسماء ، وأصبح أمر المسلمين محصورًا بينهم ، فلا يتنزل ذكر بهداية ، ولا تجلجل آية جديدة بإرشاد .

وإذا كان الرسول لم يشجع أحدا من صحابته على مديحه ، فإن رثاءه يقع تنفيسا للأنفس المشتعلة وترويحا للقلوب الصالية ، لذلك نرى شاعرا كبيرا مثل «حسان بن ثابت» لا يكتفى بقصيدة طويلة فى رثاء الرسول ، بل يعيد القول ويكرره مثنى وثلاث ورباع ، وكأنه يستشعر برد الراحة حين يبث شعره عواطفه الحزينة ويجدها على ألسنة الناس ، فهو يبدئ ويعيد غير مقصر. وفى أول قصيدة رواها ابن إسحاق كان طويل النفس ممتد الكلمة ، لأن جيشان عاطفته كان من التدفق والهدير بحيث أمده بذخر لا ينفد . اسمعه يتحدث عن «طيبة» وقد خلت من نور محمد ، وعن المنبر وقد عطل من خطيبه ، وعن الحجرات النبوية وقد انقطع عنها الوحى ، وعن القبر وقد سد رتاجه على الدفين العزيز ، وكلها معان تورث الأسى وتوقد الشجن ، ولم يأت بها ذهن يفتعل ، ولكن جاء بها إنسان يجول فى مرابع الوحى ، يرى ما يرى :

معارف لم تطمس على العهد آيها　　أتاها البلى ، فالآى لا تتجدد
مفجعة ، قد شفها فقد أحمد　　فظلت لآلاء الرسول تعدد
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة　　عشية علّوه الثرى لا يوسد
وولوا بحزن ليس فيهم نبيهم　　وقد وهنت منهم ظهور وأعضد

وهل عدلت يوما رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد
تقطع فيه منزل الوحى عنهم وقد كان ذا نور ، يغور وينجد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
عطوف عليهم ـ لا يثنى جناحه إلى كنف يحنو عليهم ويمهد
فما فقد الماضون مثل محمد وما مثله حتى القيامة يفقد
أعف وأوفى ذمة بعد ذمة وأقرب منه نائلا لا ينكد
وأكرم صيتا فى البيوت إذا انتمى وأكرم مجدا أبطحيا يسود
وأثبت فرعا فى الفروع ومنزلا وعودا ، غذاه المزن فالغصن أغيد
تناهت وصاة المسلمين بكفه فلا العلم محبوس ، ولا الرأى يفند

وهذا «أبو سفيان بن الحارث» ، كان قد ناوأ الرسول زمنا غير طويل ، حتى أسلم بآخرة إسلاما صدقت حميته وبانت دلائله الساطعة يوم حنين ، إذ فر عن رسول الله ضعاف القلوب ممن أسلموا يوم الفتح ، وفيهم من أظهر الشماتة بما بدا من انكسار المسلمين حتى قال بعضهم : لقد بطل السحر . ولكن أبا سفيان بن الحارث كان من الصدق بحيث اندفع نحو رسول الله يأخذ بلجام مطيته ، ويستهدف الخطر دونه ، وينحى باللائمة على من لم يصدقوا الله فى إسلامهم حين أظهروا الشماتة ، وأكثرهم من المؤلفة قلوبهم الذين شملهم عطف رسول الله . لقد ذهل أبو سفيان لرحيل رسول الله ، وأنشد فى مرثاته قصيدة يقول فيها :

أرقت فبات ليلى لا يزول وليل أخى المصيبة فيه طول
وأسعدنى البكاء ، وذاك فيما أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا ، وجلت عشية قيل : قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها تكاد بها جوانبها تسيل
فقدنا الوحى والتنزيل فينا يروح به ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليه نفوس الناس ، أو كربت تسيل
نبى كان يجلو الشك عنا بما يوحى إليه ، وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ضلالا علينا ، والرسول لنا دليل
كأن الناس إذ فقدوه عمى أضرّ بلب حازمهم غليل

والمعانى بعضها مشترك مع معانى حسان ، وليس فى ذلك اعتداء أو سرقة ، لأن شخصية الرسول ذات سمات يعرفها أصحابه ، فإذا تحدثوا عنها فإلى خواطرهم يرجعون دون سطو ، على أن فى قول حسان قوة وأسرا وفى قول أبي سفيان رقة وسلاسة ، وروح الجزع واضحة فى القصيدتين لا يحجبها غشاء .

وقد كتب الأستاذ الكبير « محمد عبد الغنى حسن » بحثا جيدا عن مراثى الرسول نشره بمجلة الثقافة منذ ثلث القرن ، وفيه نصوص جيدة نقلها عن كتاب (الذخائر والأعلاق للباهلى) ومنها قصيدة لكعب بن مالك قال فيها :

وباكية حراء . تحزن بالبكا ... وتلطم منها خدها والمقلدا
على هالك بعد النبى محمد ... ولو علمت لم تبك إلا محمدا
فجعنا بخير الناس حيا وميتا ... وأدناه من رب البرية مقعدا
وأقطعهم فقدا على كل مسلم ... وأعظمهم فى الناس كلهم يدا
لقد ورثت أخلاقه المجد والتقى ... فلم تلقه الا رشيدا ومرشدا

ومنها قصائد لعبد الله بن أنيس الهذلى ولعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب فى رثاء رسول الله ، وفى بعض ما رواه ضعف يشى بالوضع ، ولقد نعلم أن عليا رضى الله عنه كان يقول الشعر على قلة ، وأن عمر رضى الله عنه ناقد أدبي يعرف له دارسو الأدب مكانه من التوجيه النقدى . ومثله فى حرصه على قوة المعنى وجودة الصياغة يهش لقبول ما نسب إليه من رثاء .

أما مراثى النساء لرسول الله فمشتهرة . وقد رويت فى « زهر الآداب » ، « وشاعرات العرب » ، « وأعلام النساء » . وروى الباهلى منها نماذج عدة منها قول السيدة فاطمة رضى الله عنها :

اغبر آفاق السماء وكورت ... شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبى كئيبة ... أسفا عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها ... وليبكه مضر وكل يمان
يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه ... صلى عليك منزل القرآن

ومنها قصيدتان منسوبتان للسيدة صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ، تقول فى إحداهما :

مالعينىّ لا تجودان ريّا ... إذ فقدنا خير البرية حيّا

يوم نادى إلى الصلاة بلال فبكينا عند النداء مليا
جل يوم أصبحت فيه عليلا لا يرد الجواب منك إليا
إن يوما أتى عليك ليوم كورت شمسه وكان جليا
خلقا عاليا ودينا كريما وصراطا يهدى إليه سويا
وسراجا يجلو الظلام منيرا ونبيا مسددا عربيا

ورقة العاطفة واضحة ، وقائلتها لا تتكلف ، بل تصدر عن معين رائق شفاف .

وقد اشتغل المسلمون بعد رحيل رسول الله بدراسة حديثه وكتابة تاريخه ، فتعددت كتب الحديث النبوى ، وبذل المحدثون جهدا كبيرا فى تنقيتها وتخريجها ، وفى منزلة كل حديث من القوة والضعف ، كما تعددت كتب السيرة النبوية التى تصور حياة الرسول وتصف أدوار وجوده الكونى ، وكل ذلك جهد مشكور لا مرية فيه ، ولكنه صرف كثيرا عن الإبداع الشعرى فى استلهام مواقف الرسول جهادا ودعوة وحثا على الفضيلة ودفعا إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم نر بعد عصر الدعوة من أرسل القصائد الرنانة ممجدا نبيه الكريم فيما قبل العصر المملوكى . ولا ننكر أن صرخات الاستغاثة برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد أرسلت نائحة باكية فى بعض ما قيل من شعر دامع فى نكبة الأندلس وفى بعض ما قيل من شعر الحروب الصليبية ، ولكن صرخات الاستغاثة شيء ، وتمجيد صاحب الدعوة الكبرى شيء آخر .

وإذا كان الشعر الدينى ضئيلا فى مجموعه إذا قيس بالفنون الأخرى ، فلقد كان المجال فسيحا أمام المتحدثين من الشعراء ــ عن القيم الإسلامية زهدا وتصوفا ودعوة إلى مكارم الأخلاق وحثا على الجهاد فى سبيل الله كى يتخذوا من سيرة رسول الله تطبيقا عمليا لما يرون ، فهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ المثل الأعلى للبشرية : سمو خلق ، ونبالة كفاح ، ونزاهة نفس ، وبعدا عن الشوائب .

فكيف غابت هذه الشمائل المثالية عن عيون من أرسلوا الشعر فى المديح الكاذب والهجاء الفاحش ؟ ، أيكون الشعر نكدا لا ينبغ إلا فى الشر كما قال الأصمعى ؟ لا نظن ذلك . لأن المسألة استجابة واتجاه ، فاذا أشرب شاعر حقيقى حب الفضيلة فداها بروحه ، وقال فيها وفى رجالها ما يرتفع بشعره إلى مستوى فنى لائق .

ومهما يكن من شيء فقد عبرت العصور منذ عهد الدعوة الأولى إلى عصر المماليك ، ونحن

لانجد عن رسول الله الا خطرات تجئ عرضا فى الطريق ، يستطرد إليها الشاعر بحيث لم تكن من صلب موضوعه ، نرى ذلك لدى « الكميت الأسدى » فى هاشمياته . إذ كان يفضل العلويين على الأمويين ، ويرسل قصائده الحارة فى تمجيد أهل البيت والتفجع لمصارع الشهداء من آل رسول الله وفى مقدمتهم « الحسين بن على » رضى الله عنه ، وإذا كان المجال مجال موازنة بين الأسرتين الهاشمية والأموية فإن الحديث لا شك سيتطرق إلى أسطع بدر فى سماء الأسرة الهاشمية وهو محمد ابن عبد الله .. وقد جاشت خواطر الكميت نحوه بقوله فيه من إحدى هاشمياته :

أسرة الصادق الحديث أبى القا ... سم فرع القدامس القدّام[1]
خير حى وميت من بنى آد ... م طـرا مـأمومـهم والإمام
كـان ميتا جنازة خير ميت ... غـيـبـتـه مـقـابـر الأقوام
وجنينا ومرضعا ساكن المهد ... وبـعـد الرضـاع عند الفطام
خير مسترضـع وخير فـطيم ... وجـنين أقـر فى الأرحـام
وغلامـا ونـاشـئـا ثم كـهلا ... خير كـهـل ونـاشىء وغلام
انقذ الله شلونا من شفا النا ... ر بـه نـعمة من المنعام
لو فدى الحى ميتا قلت نفسى ... وبنى الـفـدا لتـلك العـظام

وهذا وصف يقف على الشاطئ فحسب ، ولا يلج الأمواج الهادرة فى جوف المحيط ، فرسول الله خير الأموات والأحياء ، وخيرهم جنينا ومرضعا وناشئا فى المهد وفطيما وغلاما وكهلا ، وقد أنقذ الله به الأنام جميعا . كل هذا القول لا يقاس بما سيقوله البوصيرى من بعد ، بل يتضاءل جدا حين يقاس بما سيقوله عظماء الشعر المعاصر فى عهدنا الحديث ، ولكن الكميت استطرد فقال ما اتفق له دون أن يصغى إلى هواتف نفسه فى اتئاد . ونظير ذلك ما قاله فى منظومة أخرى مخاطبا رسول الله :

فدى لك موروثا أبى وأبو أبى ... ونفسى ، ونفسى بعد بالناس أطيب
بك اجتمعت أنسابنا بعد فرقة ... فنحن بنو الإسلام ندعى وننسب
حياتك كانت مجدنا وسناءنا ... وموتك جدع للعرانين مرعب
وأنت أمين الله فى الناس كلهم ... عليها ، وفيها احتار شرق ومغرب

---

(١) القدامس : الشريف ، والقدام : المقدم .

فبوركت مولودا وبوركت ناشئا ... وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب
وبورك قبر، أنت فيه، وبوركت ... به وله أهل بذلك يثرب
لقد غيبوا برا، وصدقا، ونائلا ... عشية واراك الصفيح المنصب

وهى منظومة لا تختلف عن سابقتها فى اتجاهها الهامشى، إذ ليست من وصف رسول الله فى صميم الصميم، ولا فى الصميم، وإنما هى استطرادات تعبر عن عواطف العامة ممن أخلصوا الحب «للنبى» دون أن تتعدى السطح الهادئ إلى الغور البعيد.

فإذا تركنا العصور المتعاقبة سراعا إلى عصر المماليك فإننا نجد علمًا من أعلام المديح النبوى رفع الراية فى قوة، واستطاع أن يكون رئيسا حقيقيا لفن رائع من فنون الشعر العربى هو فن المديح النبوى. فالبوصيرى فى شعره يشعر باتصال روحى بينه وبين السماء، ويرى رسول الله مناط الرجاء ومبعث الأمل، دهاه مرض جسدى أقعده عن العمل ونشر غيوم اليأس بين عينيه، فدفعته روحانيته، إلى الالتجاء للسماء بعد أن عجز أطباء الأرض عن مداواته، وتعلق برسول الله تعلقا فاض على لسانه شعرا قويا ذا عاطفة تتوهج، وشعور يموج. ودارس الأدب العربى يرى عجيبة العجائب فى شعر البوصيرى، لأن هذا الشاعر متوسط الطبقة فى مكانته الفنية، وأكثر ما قاله من الشعر الوسط الذى لا يرتفع إلى مستوى الإبداع، لكنه فى مديح الرسول بالذات جاوز الوسط إلى القمة، حتى عد فى هذا الباب من كبار شعراء العربية، ولك أن توازن بين ما قاله من ألوان الشعر السياسى والشعر الاجتماعى وما قاله فى المديح النبوى، لتجد الفرق الهائل بين معدن ومعدن بل بين روح وروح، فإن قوة الروح الشعرى عنده جعلته يفترع المعانى افتراعا، ويجبر الأساليب البيانية على الانقياد إليه انقيادا، وما قاله البوصيرى فى بردته يرتفع إلى مستوى الشعر العباسى فى أزهى عصوره، بحيث تقف البردة نمطا رائع البيان، لتسطع بالنور الأخاذ فى عصره، بدأها بالغزل التقليدى وسرعان ما جازه إلى نوع من الحكم لا نبالغ إذا قرناه بما قاله الكبار من أمثال أبى تمام وأبى الطيب وأبى العلاء، ونمثل لذلك بقول البوصيرى:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدرأن السم فى الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصة شر من التخم

ودار المديح النبوى حول شخصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ناحية ، وحول جهاد أصحابه من ناحية ثانية ، وحول مزايا الشريعة الإسلامية من ناحية ثالثة ، وهى عناصر قوية الوشائج متواصلة ، وتفوح معانيها المتتالية متآزرة متضامنة ، كما تظهر سبيكة الذهب وحدة خالصة ، يغمرها الوهج ، وتفيض بالبريق .

ومما يقول البوصيرى فى رسول الله :

لو ناسبت قدره آياته شرفا ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى ... للقرب والبعد منه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد ... صغيرة ، وتكل الطرف من أمم
أكرم بخلق نبى زانه خلق ، ... بالحسن مشتمل ، بالبر متسم
كالزهر فى ترف ، والبدر فى شرف ، ... والبحر فى كرم ، والدهر فى همم
كأنه وهو فرد فى جلالته ... فى عسكر حين تلقاه وفى حشم
كأنما اللؤلؤ المكنون فى صدف ... من معدنى منطق منه ومبتسم

أما صحابة رسول الله فقد عناهم البوصيرى بقوله :

من كل منتدب ، لله محتسب ... يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
هم الجبال ، فسل عنهم مصادمهم ... ماذا رأى منهمو فى كل مصطدم ؟
المصدرى البيض حمرا بعدما وردت ... من العدا كل مسود من اللمم
شاكى السلاح لهم سيما تميزهم ... والورد يمتاز بالسيما من السلم
كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا ... من شدة الحزم لا من شدة الحزم
طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا ... فما تفرق بين البهم والبهم

أما مصدر الشريعة ـ كتاب الله ـ عز وجل ، فقد قال البوصيرى عن آياته الكريمة :

دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيين إذ جاءت ولم تدم
ما حوربت قط إلا عاد من حرب ... أعدى الأعادى إليها ملقى السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها ... رد الغيور الجانى عن الحرم
قرت بها عين تاليها فقلت له ... لقد ظفرت بحبل الله فاستلم
إن تتلها خيفة من حر نار لظى ... أطفأت نار لظى من بردها الشمم

لم تقترن بزمان وهى تخبرنا عن المعاد ، وعن عاد ، وعن إرم
لا تعجبن لحسود راح ينكرها تجاهلا ، وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

والبوصيرى بهذه البردة[1] « هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين ، ولقصيدته أثر فى تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق ، فعن البردة تلقى الناس طوائف من الألفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب ، وعن البردة عرفوا أبوابا من السيرة النبوية ، وعن البردة تلقوا أبلغ درس فى تكريم الشمائل والخلال ، وكذلك استطاع البوصيرى بتصرفه أن يؤثر فى الأدب والأخلاق تأثيرا لا يدرك كنهه إلا من رأى كيف تدور البردة على ألسنة العوام ، وكيف تهذب ما انطبعوا عليه من عنجهية الخصال ، وليس من القليل أن تنفذ هذه القصيدة بسحرها الأخاذ إلى مختلف الأقطار الإسلامية » .

وقد نشأ فن أدبى يعرف بالبديعيات عن طريق البردة ، إذ حاول نفر من شعراء العصر المملوكى ومن تلاهم أن ينظموا البردة لتكون سجلا لأنواع البديع ، بحيث يشمل كل بيت من الأبيات لونا بديعيا كحسن التخلص وبراعة الاستهلال والجناس والطباق والتورية وما إلى ذلك من ألوان البديع ، وهو تكلف عدا بالشعر عن طوره ، وإذا كان له من أثر فهو كأثر المتون العلمية التى نظمت قواعد النحو والبيان والتوحيد والفقه والمنطق وسائر العلوم ، مما أصبح اليوم حلقة فى السلسلة التاريخية لتدوين النشأة العلمية دون أن يبقى له صدى يدعو إلى الاحتذاء . وللبوصيرى مدائح أخرى ، منها الهمزية الشهيرة ومطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يباروك فى علاك وقد حا ل سنًا منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا س كما مثل النجوم الماء

وأوائل الهمزية من الشعر المختار ، إلا أن رغبة البوصيرى فى التطويل خرجت به عن المديح النبوى إلى متاهات شاسعة ، يتحدث فيها عن أصول الأديان مقارنا بين النصرانية والإسلام ، وهو نوع من الجدل لا يصلح للشعر . وقد أسرفت الهمزية فى الطول إلى حد جعلها مثلا للإسهاب غير الجيد ، حين تركت صاحب الرسالة إلى مناقشات تصور البيئة العلمية فى عهد

---

(١) المدائح النبوية للدكتور زكى مبارك ص ١٩٧ مطبعة دار الكاتب العربى .

البوصيرى ، وما كان يدور بها من حجاج . وحسب البوصيرى شرفا أن كان ببردته قائدا سبّاقا ومتبوعا غير تابع ، إذ نهض العلية من شعراء عصره إلى مجاراته ، فأصبح المديح النبوى غرضا هاما من أغراض العصر المملوكى ، وقد أحصى الأستاذ محمود رزق سليم[1] نفرا ممن نظموا المدائح النبوية فى ذلك العصر ، ذكر منهم « الشاب الظريف » ، « ومحيي الدين بن عبد الظاهر » « وابن دقيق العيد » ، « وزين الورد » « والشهاب الحلبى » « وابن أبي حجلة المغربى » . « وتقى الدين بن بنت الأعز » ، « وابن سيد الناس » ، « وابن حجر » والشهاب المنصورى » . « والبهاء السبكى » « وصفى الدين الحلى » و « جمال الدين بن نباتة » ، و « تقى الدين شبيب بن حمدان الطبيب الكحال » ، واستشهد له بقوله :

هـذا مـقـام محمـد والمنبر ... فاستجل أنوار الهداية وانظر
والثم ثرى ذاك الجناب معفرا ... فى مسك تربته خدودك ، وافخر
واحلل على حرم النبوة واستجر ... بجماه من جور الزمان المنكر
فهناك من نور الإله سريرة ... كشفت غطاء الحق للمستبصر
نـور تجسم فـارتقى متجاوزا ... شرفا على الفلك الأثير الأكبر

ومهما كثر شعراء المديح النبوى فى العصر المملوكى فإن « جمال الدين بن نباتة » كان التالى للبوصيرى ، وقد أجاد كثيرا فيما نظم ، حيث استأنى وتمهل ، ونظم عدة قصائد من قواف عدة ، ولعل أهم مدائحه (رائيته) التى يقول فيها :

نبي أتم الله صورة فـخـره ... وآدم فى فـخـاره يـتـصـور
تحزم جبريـل لخدمـة وحيـه ... وأقبـل عيسى بـالبشارة يجهر
فمن ذا يضاهيه وجبريل خادم ... لمقـدمـه العـالى وعيسى مبشر
تنقل نورا بين أصلاب سادة ... فلله منه فى سماء الفضل نير
به أيد الطهر الخليلى فانتحت ... يداه على الأصنام تغزو وتكسر
ومن أجله جئ الذبيحان بالفدى ... وصين دم بين الدماء مطهر
وردت جيوش الفيل عن دار قومه ... فلله نصل قبل ماسل ينصر

---

(١) عصر سلاطين المماليك جـ ٨ ص ٤٨٤

«وابن نباته» يرسف فى أغلال الصنعة فى كثير مما قال . والفرق بين البوصيرى فى البردة وبينه فرق ما بين المطلق والمقيد ، ولكل وجهة هو موليها .. على أن صدى البردة مازال منتقلا فى السنين حتى دوى فى هذا العصر على أيدى «البارودى» ، وشوقى «وعبد المطلب» «وأحمد محفوظ» وغيرهم من رجال الشعر الحديث .

النبى العابد

فضيلة الأستاذ الشيخ
عبد الحكيم نعناع

لم يخلق الله سبحانه وتعالى بشرًا أكمل من المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولقد خصه الله بمزايا وصفات لم تتوفر فى إنسان غيره ، مهما بلغت منزلته وسما قدره ، حتى لقد فاق الملائكة المكرمين والأنبياء المقربين .

ولقد عرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق ربه عليه ، فألزم نفسه عبادته ، واشتد قربه منه ، فاشتدت خشيته له ، وأدرك قدره عند ربه الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فأجهد نفسه فى عبادته ، شكرًا له وعرفانًا بفضله ، وعرف أن الله أرسله ليقيم دعائم دين جعله الله خاتم الديانات وتمام الرسالات ، وجعل سيرته وسلوكه تشريعًا لأمته ، وأخلاقه منهاجًا يتبع وسنة يقتدى بها ، فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ المثل الكامل فى العبادة الخالصة المخلصة لله تعالى .

مفهوم العبادة والهدف منها :

ولقد أشار الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم إلى الهدف من خلق الإنسان ، فقال فى سورة الذاريات : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» ٥٦ ـ ٥٨ .

ومفهوم العبادة كما تفسره كتب اللغة هو الخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى .

ويطلق على الإنسان مطلقًا ـ حرًا كان أو رقيقًا ـ لفظ العبد ـ وعلى ذلك فقد نهى الإسلام عن أن يستعبد الإنسان أخاه الإنسان ، وفى حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ الذى أورده لسان العرب دليل على ذلك : « لا يقل أحدكم لمملوكه : عبدى وأمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى » يدل هذا على نفى الأستكبار عليهم وأن ينسب عبوديتهم إليه ، فإن المستحق لذلك هو الله تعالى ، وهو رب العباد جميعا .

وجاء فى لسان العرب أيضًا : التعبد : التنسك ، والعبادة ، والطاعة .

وقال الزجاج فى قوله تعالى « إياك نعبد » : أى نطيع الطاعة التى نخضع معها ، وقيل : إياك نوحد . ومن العبادة بمعنى الخضوع قولهم : طريق معبد ، إذا كان مذللا بكثرة الوطء ، وكأنه يشير بذلك إلى معنى من معانى التواضع والانكسار .

وتشير الآية السابقة «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» إلى الهدف من خلق الخلق .

وقد قال الزجاج ـ كما يقول القرطبى فى تفسيره ـ فى تفسير هذه الآية معتمدًا على قول للإمام على بن أبى طالب : المعنى ما خلقتهم إلا لأدعوهم إلى عبادتى ، وقد علم الله قبل أن يخلقهم من يعبده ممن يكفر به ، ولو كان خلقهم ليجبرهم على العبادة لكانوا كلهم عبادًا مؤمنين .

قال الأزهرى : وهذا قول أهل السنة والجماعة .

ولتحقيق هذا الهدف أرسل الله الرسل لهداية الخلق وأمرهم بطاعة الله وعبادته ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، فمن آمن دخل الجنة ، ومن أبى فقد استوجب لنفسه العقاب .

والهدف من العبادة ترقية الإنسان نفسه وتنويرها ، وتخليصها بالطاعة مما يعلق بها من آثام ورفعها إلى درجة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

لقد جاء الرسل بشرائعهم المتعاقبة ، ليوضحوا للناس طريق العبادة الصحيح ، وليستنقذوهم من الشطط أو الانحراف فى العبادة ، ومازالت الشرائع تتلاحق وتتكامل حتى ظهرت فى أكمل صورة لها بالرسالة الخاتمة ، التى جاء بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » المائدة ٣ .

وكان الرسل عامة قدوة لأممهم فى معرفة الخالق وعبادته ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة ـ لما حباه الله من فضله ، ولما أفاض عليه من المزيد من مكنون علمه وعظيم معرفته ـ أشد

الناس خشية لله ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « أنا أقربكم إلى الله وأشدكم خشية له » .

مقتضيات العبادة :

والانقياد لله وحسن طاعته وشدة التذلل له ، أمور يقتضيها قدر الله حق قدره ، وعرفان قدرته وقهره ، وتفرده بالعظمة والسلطان . وقد نعى الله على قوم لم يعرفوا حق ربهم عليهم فقال فيهم : «وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون» الزمر ٦٧ .

ومعنى ذلك أنهم لم يعظموه حق تعظيمه ، ولم يفردوه بالطاعة والتوحيد ، بل أشركوا معه غيره ، واعتقدوا أن هناك من ينفع ويضر معه .

ويقتضيها حق الشكر لله على ما أسبغ من نعم ظاهرة وباطنة ، وقد قال الله فى حق آل داود ـ عليه السلام ـ : «اعملوا آل داود شكرًا وقليل من عبادى الشكور» سبأ ١٣ .

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه . وقد قال له أصحابه يوما : يانبي الله تكلف هذا وقد غفر الله لك ؟ فقال : أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ . رواه زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة ، كما روى عن غير هذا الطريق .

والعاقل هو الذى يستديم النعمة بالشكر ، وقد قال الله تعالى : «لئن شكرتم لأ زيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد» إبراهيم ٧ .

وقد ورد فى حكم العارفين بالله قول ابن عطاء الله «من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها ، ومن لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها » .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول : « قيدوا النعم بشكر الله » .

وقد حثت آيات كثيرة فى القرآن الكريم على وجوب تفريد الله بالعبادة ، شكرًا على نعمائه عليهم ، ويكفى فى الإشارة إلى ذلك قوله تعالى فى سورة النحل : «أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم» ١٧ ، ١٨ .

ويقتضيها حسن العقل والمروءة ، وحسن التدبر فى مآل الأمر وعاقبته ، فما من إنسان رزقه الله التوفيق والفطنة إلا حاول أن يجنب نفسه المتاعب فى العاجل والآجل ، وقد طبعت النفس على حب التحرز من المكاره والابتعاد عن مظانها أينما كانت ، إلا أن الغالبية العظمى من الناس لم يفطنوا إلى تجنب ذلك إلا فيما يعتورهم فى الدنيا ، وتركوا ما وراء ذلك من عذاب الآخرة

وشقائها الأليم . والعصمة من ذلك تكون فى عبادة الله والخضوع له واتباع أوامره والابتعاد عن نواهيه . وعلى قدر ما يتكبده الإنسان من مشقة فى ذلك يكون نعيمه فى الآخرة . فقد ورد فى الأثر الشريف : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » .

إن العابد لله نظر بعين الفكر إلى عز لا ينقطع فى الآخرة فعمل له . بتعب ساعات فى الدنيا . وهذا أعقل الناس . أما العاصى فلا يهمه إلا متعة ساعات أو أيام فى دنيا سرعان ما تفنى وتزول ، ونسى ما أعده الله للطائعين والعابدين من جنة عرضها السموات والأرض ، فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ولكنه التوفيق الذى أدرك المتذوقون ندرته من وروده فى القرآن الكريم مرة واحدة هى قوله تعالى : « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب » سورة هود ٨٨ .

وفى لفت نظر الناس الى وجوب التدبر فى المآل يقول الله تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى » الأعلى ١٦ ، ١٧ .

ويقتضيها حسن الانقياد لأمر الله الذى تفرد بالعبودية ، وقد أمر الله سبحانه بعبادته فى مواضع متفرقة من القرآن الكريم منها قوله تعالى : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم » البقرة ٢١ .

ومنها قوله : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » النساء ٣٦ .

ومنها قوله : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله » النحل ٣٦ .

ومنها قوله : « يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير » الحج ٧٧ .

ومنها قوله : « فاسجدوا لله واعبدوا » النجم ٦٧ .

ومنها قوله : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » الأنبياء ٢٥ .

ومنها قوله : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » الأنبياء ٩٢ .

إلى غير ذلك من آيات بينات ..

وفى حسن الانقياد لأمر الله وطاعته وعبادته ، سعادة للإنسان ما بعدها سعادة ، وشعور بالأمن الروحى والاطمئنان القلبى .

فضعف الإنسان وعجزه وافتقاره يضطره الى الخضوع إلى قوة تعينه على اجتياز المصاعب والتخلص من المتاعب ، ومتى استنارت بصيرته عرف الطريق الصحيح الى هذه القوة القادرة القاهرة ، فيفردها بالعبادة ، ويختصها بالخضوع والطاعة ، وأدرك أنها قوة الله الذى فطر الناس جميعا على غير مثال ، وخلق السموات والأرض وما فيهما من كوائن منظورة وغير منظورة . أما إذا ضل تخبط فى اللجوء الى قوى أخرى لا تضر ولا تنفع وأصبحت أعماله كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا .

ويقتضيها غير ذلك مما أشارت اليه الشرائع السماوية والكتب المنزلة . وما جاء على ألسنة الرسل والأنبياء ، وما أفاض فى شرحه العلماء والصالحون والأولياء .

النبي قدوة المتعبدين :

وقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدوة المتعبدين فى أمته ، ولقد كان قبل البعثة يدرك أن هناك من يستحق التفرد بالعبادة غير هذه الأصنام التى كان يصنعها قومه بأيديهم ، ويسجدون لها من دون الله ، فنأى بجانبه عنهم ، وأخذ يتحرى دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعبد الله فى ظله ، وكان يعتزل الناس أحيانًا يتأمل ويتفكر .

جاء فى سيرة ابن هشام : «كان عليه السلام يجاور فى حراء من كل سنة شهرًا ... وقال : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين ، فاذا قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعًا أو بما شاء من ذلك ثم يرجع الى بيته » .

وبعد أن من الله عليه بالنبوة والرسالة ، ازدادت عبادته لله وطاعته له ، ورسم المنهج الكامل فى العبادة لأمته ، حتى يعبدوا الله على بصيرة من أمرهم ، مصداقا لقول الحق : «قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين» يوسف ١٠٨ .

المنهج الأسمى فى العبادة :

لقد طبق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مفهوم العبادة الحقة التى تأبى الغلو فى الدين والتزمت فيه ..

كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدرك أنه يشرع لأمته ، فكان يختار لهم الطريق الوسط

الذى لا يرهقهم ولا يكلفهم من أمرهم عسرًا . استجابة لقوله تعالى : «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» البقرة ١٨٥ .

وهذه أمثلة من سيرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ توضح لنا كيف كانت عبادته :

جاء فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج عام الفتح إلى مكة فى رمضان ، فصام حتى بلغ كراع الغميم ، فصام الناس ، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس اليه ، ثم شرب ، فقيل له بعد ذلك : إن بعض الناس قد صام فقال : أولئك العصاة أولئك العصاة .

لقد أراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يضرب المثل للناس فى عدم العنف بأنفسهم والقسوة عليها ، لأن الله رحيم بعباده ، وهو يقبل منهم اليسير ويجزيهم عليه الكثير ، وأن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه .

ويروى مسلم أيضًا عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سفر ، فرأى رجلا قد اجتمع الناس عليه وقد ظلل عليه فقال : ماله ؟ قالوا : رجل صائم ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «ليس البر أن تصوموا فى السفر» .

فانظروا كيف اعتبر الصيام فى السفر عصيانًا فى الحديث الأول ، ثم اعتبره عدم بر فى الحديث الثانى . وكان عصيانًا فى الحديث الأول لأن فيه مخالفة لفعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومخالفته عصيان .. فقد شرب أمامهم لما رأى من تعبهم ونصبهم ، فما بالهم يخالفون ؟ ...

على أن ذلك لا يمنع أن يصوم الإنسان المسافر متى شعر بالقوة والاحتمال ، فالأجر على قدر المشقة والقرآن الكريم يقول : «وأن تصوموا خير لكم» البقرة ١٨٤ .

ولقد صام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعض أسفاره ، بينما أفطر بعض أصحابه ممن كانوا معه .

حدث أبو الدرداء قائلا : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شهر رمضان فى حر شديد حتى إن أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر ، وما فينا صائم إلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعبد الله بن رواحة .

لقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ رفيقًا بأمته ، رحيمًا بها ، وما خير بين شيئين إلا اختار

أيسرهما مالم يكن إثمًا ، إرشادًا لأمته وتشريعا . ذلك أنه كان يعلم طبيعة الناس ويعرف ماذا ستكون الأمة بعده ، ولئن كان فى أيامه قوم من أصحابه عرفوا بقوة العزيمة وشدة الاحتمال ، فاستسهلوا الصعاب واستلذوا المكاره ، وقد شيد الله بهم هذا الدين ، وقام بهم صرح هذه الأمة القوية الأركان ، إلا أنه عرف أنه سوف يأتى من بعدهم أقوام لا يستطيعون ما استطاعه هؤلاء ، ولا يطيقون ما أطاقوه ، حتى قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى ذلك : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » .

فمن اجل ذلك كان تشريعه مراعيًا فيه مقتضيات أحوال أمته فى تطورها وتتابعها ، مبنيا على النهج الوسط الذى لا تفريط فيه ولا إفراط . يجد فيه القوى عزيمته ، ويجد فيه الضعيف رخصته .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحذر أصحابه من أن يلتزموا بما يقوم هو به من عبادة يطيقها هو ـ بما أعطاه الله من قوة وعزم ـ ولا يطيقونها هم .

فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يواصل أحيانًا فى صومه ، ولكنه ينهى أصحابه عن ذلك .

فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واصل فى رمضان فواصل الناس فنهاهم . قيل له أنت تواصل ، قال : إنى لست مثلكم إنى أطعم وأسقى ، وفى رواية أبى هريرة : وأيكم مثلى ؟ إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى . فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يومًا ثم يومًا ثم رأوا الهلال فقال : لو تأخر الهلال لزدتكم . كالمنكل لهم حين أبوا أن ينتهوا .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صلاته بالناس رفيقًا كذلك ، وهو القائل : « من أمّ بالناس فليخفف » .

روى أنس رضى الله عنه : « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى فى رمضان فجئت فقمت إلى جنبه ، وجاء رجل آخر فقام أيضًا حتى كنا رهطًا ، فلما أحس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنا خلفه جعل يتجوّز فى الصلاة ، ثم دخل رحله فصلى صلاة لا يصليها عندنا » .

لقد خشى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتعب أصحابه من طول قيامه وركوعه وسجوده فخفف من صلاته ، ثم خلا إلى نفسه فى رحله فصلى ما شاء أن يصلى .

وروى الشيخان واللفظ للبخارى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى ذات ليلة فى المسجد ، فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى من القابلة فكثر الناس ، ثم

اجتمعوا فى الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج اليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما أصبح قال : «إنى رأيت الذى صنعتم ولم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم » .

وعن ابن مسعود : قال رجل يارسول الله إنى لأتأخر عن الصلاة فى الفجر مما يطيل بنا فلان فيها . فغضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما رأيته غضب فى موعظة كان أشد غضبًا منه يومئذ . ثم قال : «أيها الناس إن منكم منفرين . فمن أمّ الناس فليتجوّز . فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة » .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل عليها وعندها امرأة . قال : «من هذه ؟ قالت : فلانه تذكر من صلاتها . قال : مَهْ عليكم بما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا . كان أحب الدين اليه ما داوم عليه صاحبه » ..

كان ينعى على المتشددين تشددهم ويقول فى ذلك فيما رواه البزار : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فان المنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى » .

وفيما أخرجه البخارى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن الدين يسر ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة » .

وأخرج ابو داود عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم ، فان قومًا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار ورهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم » .

وقد بلغه أن قومًا سألوا عن عبادته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما بلغهم أنه يقوم وينام ويصوم ويفطر ، قال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر . وقال الثانى : وأنا أقوم ولا أنام ، وقال الثالث : وأنا لا أتزوج أبدا . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بلغه ذلك : « من رغب عن سنتى فليس منى » .

ويروى أنس فى حديث الوصال فى الصوم حين واصل ناس من المسلمين فبلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « لو مدّ لنا الشهر لواصلنا وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم » .

وفى صحيح مسلم أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أنى أصوم أسردُ ، وأصلى الليل فقال : ألم أخبر أنك تصوم ولا تفطر ، وتصلى الليل ؟ فلا تفعل فإن لعينك حظا ، ولنفسك حظا ، ولأ هلك حظا ، فصم وافطر ، وصلّ ونم ، وصم من كل عشرة أيام يوما ولك أجر تسعة . قال : فإنى أجدنى أقوى من ذلك يانبى الله . قال : فصم صيام داود عليه السلام . قال : وكيف كان داود يصوم ؟ قال : كان يصوم يوما ويفطر يوما ، ولا يفر إذا لاقى . قال : من لى بهذه يانبى الله ؟ »

لقد وضع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهج الصوم الأمثل فى قوله : صم من كل عشرة أيام يوما ، وفى رواية أخرى : « صوم ثلاثة أيام من الشهر صوم الشهر » . وهما بمعنى . وفى تعليل النهى عن صوم الدهر وقيام الليل كله يقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اذا فعلت ذلك هجيت له العين ونهكت ـ وفى رواية : هجيت عيناك ونفهت نفسك .

ومعنى هجيت العين : غارت ، ومعنى نهكت ونفهت : تعبت وأعيت .

فالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يشرع لأمته منهجها فى العبادة كان يختار لها الطريق الوسط الذى لا يكلف المسلمين من أمرهم شططا ولا يرهقهم عسرا .. حقًا لقد بعثه الله رحمة للعالمين .

روح العبادة :

لقد أدرك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ القيمة الحقيقية للعبادة ، فدعا الناس الى عبادة ربهم على هدى من الله ونور ، وأساس العبادة الحقيقية الإخلاص . وقد ورد عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» .

أساس العبادة النية الخالصة لله ، ولا خير فى عبادة لا يتحرى صاحبها الصدق وخلوص النية ، وفيما يروى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : « أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها ... » فى مقدمتها الإخلاص لله فى السر والعلن .

وقد تنبه المحققون والعارفون لأهمية الاخلاص فى العبادة فقال حكيمهم ابن عطاء الله السكندرى فى ذلك : «الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص منها» وعلق شراح الحكم على هذه الحكمة بما نلخصه :

- إخلاص كل عبد فى أعماله على حسب رتبته ومقامه .. وإخلاص المقربين يتجلى فى شهود انفراد الحق تعالى بتحريكه وتسكينه من غير أن يرى لنفسه حولا ولا قوة . ومثل هذا يتحقق بمعنى

قوله تعالى : «إياك نعبد وإياك نستعين» أى لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك .

إن هذا هو مقام الإحسان الذى يفسره الحديث الشريف بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وغنى عن القول أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير من يقتدى به فى هذا الشهود العالى والذوق الرفيع ، وهو لم يغب عنه شهود مولاه طرفة عين .

لقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ المثل الأعلى الذى شرح الله صدره ، وأقر عينه ، وملأ قلبه بنور الوحى وجلال المعرفة ، فأصبح لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

وإخلاص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عبادته هو الذى يجب أن يقتدى به المسلمون فى توجههم الى الله سبحانه وتعالى ، ووقوفهم بين يديه خاشعين خاضعين ، ومتى استشعر الواحد منهم ذلك أفاض الله عليه من نور نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يرتفع به من حضيض المادة ويحلق به فى فضاء الروح ، ويذيقه من جمال الأنس بالطاعة والتلذذ بالعبادة ألوانًا شهية الجنى طيبة الأكل .

والإخلاص أمر الله به النبى خاصة والمسلمين عامة ، فالأمر الخاص فى قوله تعالى : «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣ .

وفى قوله تعالى : «فاعبد الله مخلصًا له الدين» الزمر ٢ وغير ذلك

والأمر العام فى قوله تعالى : «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة» البينة ٥ .

من آثار العبادة :

إن قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى ، مستمد من جمال الإخلاص فى العبادة والتلذذ بها ، لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينسى فى الصلاة متاعبه وآلامه ، ويمسح بها جراحات الأيام والليالى ، وكان يقول لبلال : «أرحنا بها يا بلال» يقصد الصلاة .

وليس كالصلاة بلسم يشفى الجراح ، ولا دواء يذهب عناء الضيق وغم الحياة ، إذا أقيمت بشروطها وأركانها ، وروعى جانب الإخلاص فيها ، ومن أجل ذلك جعلها الله خمس مرات فى

اليوم موزعة توزيعا دقيقا ، يتناول ساعات النهار والليل ، وهى بذلك تحقق مفهوم الأثر الكريم : «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى على جسمه من الدرن؟ قالوا : لا . قال: كذلك الصلاة ... » .

وللشعائر الأخرى آثار طيبة كذلك يدركها المتذوقون لها المخلصون فى أدائها . ويكفى أنها باب القرب من الله كما يرويه الحديث القدسى «ما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه » .

الدعاء مخ العبادة :

وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – يدرك أثر الدعاء ويعرف أنه مخ العبادة ، فرغب فيه وأكثر منه ، وكان يقول : « لا يرد القدر إلا الدعاء .. » .

والدعاء لون خالص من العبادة ، لأنه خضوع تام لله ، واستسلام لقدرته ، ولجوء إلى ساحته ، واستنصار بقوته ، ومناجاة لحضرته ، واستحضار لهيبته ..

وهذه هى العبادة الحقة ، وقد أثرت عن النبى – صلى الله عليه وسلم – ألوان من الأدعية فى مختلف الظروف والأحوال والمناسبات ، تدل على شدة تعلقه – صلى الله عليه وسلم – بربه واعتصامه بحبله .

وكان يعلم أصحابه الدعاء اعتدادًا بأهميته . فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : « جاء أعرابى إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : علمنى كلاما أقوله قال : قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله اكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، سبحان الله رب العالمين ، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . قال : فهؤلاء لربى فمالى؟ قال : قل : اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وارزقنى .. » .

ولم يكن يضن على أهل بيته وذريته بالتوجيه الى خيرى الدنيا والآخرة ، وإرشادهم الى أقوم أمرهم ، وتعليمهم أن الدنيا لا تغنى عن الآخرة شيئا ، وأن تعلق القلب بالله هو لب العبادة وأفضل ما يحرص عليه العبد فى دنياه .

ففى مسند أحمد عن على كرم الله وجهه أن فاطمة شكت ما تلقى من أثر الرحى مما تطحن ،

فأتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبي ، فانطلقت فلم تجده ، فأخبرت عائشة . فلما جاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرته عائشة بمجئ فاطمة وما جاءت من أجله ، فذهب ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليها وقد أخذت هي وزوجها مضاجعهما ، فذهبت فاطمة لتقوم فقال لها : على مكانكما ، وقال : ألا أعلمكما خيرًا مما سألتماني ؟ قلنا : بلى ، قال : كلمات علمنيهن جبريل ، إذا أخذتما مضاجعكما من الليل فكبرا ثلاثا وثلاثين ، وسبحا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم .

والتعليم لا يثمر مالم يكن المعلم قدوة فيه ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو القدوة الكاملة لأمته بنص القرآن الكريم : «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا» الأحزاب ٢١ .

والذكر الكثير من أخص صفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عبادته ، امتثالا لقول الحق له : «بل الله فاعبد وكن من الشاكرين» .

عبادته الخاصة :

وهذه أمثلة من عبادته الخاصة التي كان يلزم بها نفسه ولا يشق بها على أمته ، ولكن فيها نهجًا قويما لتزكية النفس وتطهيرها ، وطريقًا لمن يريد أن يسير الى حضرة الحق والتعرف على واجب الوجود ..

أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ .

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحرص على توجيه أصحابه إلى اغتنام الفرص الممكنة للاجتهاد في العبادة ، ويلتمس لذلك كافة الفرص . وقد سأله معاذ بن جبل مرة عن عمل يدخله الجنة ويباعده من النار فأجابه . ثم قال له : ألا أدلك على أبواب الخير؟ قال معاذ : بلى . قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ : «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا وما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» السجدة ١٥ ، ١٦ .

لقد كان يلزم نفسه بالعبادة التي تشق على غيره . وهو من أجل هذا لم يلزم بها أحدًا ، بل ترك الباب مفتوحًا لمن يريد أن يلجه ، ولا غضاضة على من وقف على الأعتاب ...

وقال : ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ فيما رواه الشيخان : صليت مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة ، فلم يزل قائما حتى هممت بأمر سوء . قيل : ما هممت ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه .

كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثير التهجد استجابة لأمر الله تعالى فى سورة المزمل : «يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هى أشد وطئًا وأقوم قيلا . إن لك فى النهار سبحًا طويلا» .

واستجابة لأمره فى سورة الشرح : «فاذا فرغت فانصب» .

أما كيفية هذا التهجد ، فيتضح لنا مما رواه الشيخان من حديث ابن مسعود السابق ، ومما أخرجه مسلم عن حذيفة قال : صليت مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات ليلة ، فافتتح البقرة فقلت : يركع عند المائة ، ثم مضى فقلت : يصلى بها فى ركعة (أى البقرة) فمضى ، ثم افتتح آل عمران فقرأها ، ثم افتتح النساء فقرأها . يقرأ مترسلا ، إذا مر بآية فيها تسبيح ، سبح وإذا مر بتعوذ تعوذ ، ثم ركع فجعل يقول : سبحان ربى العظيم ، فكان ركوعه نحوًا من قيامه ، ثم قال : سمع الله لمن حمده ـ ربنا لك الحمد ، ثم قام طويلا قريبًا مما ركع ، ثم سجد ، فقال : سبحان ربى الأعلى . فكان سجوده قريبا من قيامه .

هذا دأبه وتلك عادته ، لا يكاد يتخلف عنها إلا لضرورة .

روى مسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا فاتته الصلاة من وجع أو غيره ـ تقصد صلاة الليل التى يتطوع بها ـ صلى من النهار اثنتى عشرة ركعة .

هذا وقد مر بنا شأنه فى الصوم ، واكتفاؤه بالضرورى من الطعام والشراب فى حال الافطار ، وكان أحيانا يواصل الصيام فيطوى اليومين والثلاثة ، إلا أنه كان ينهى أصحابه عن الوصال لما فيه من المشقة عليهم .

كان يكثر من صوم التطوع ، وفيما أخرجه البخارى عن أنس : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفطر من الشهر حتى نظن أنه لا يصوم منه ، ويصوم حتى نظن أنه لا يفطر منه شيئًا ، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته ، ولا نائما إلا رأيته . وهذا معنى أنه كان يصوم ويفطر ، ويقوم وينام ، تشريعا لأمته ورفقًا بها .

ولكنه كان يلتزم غالبًا صوم أيام بعينها . فقد روى الترمذى عن عائشة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتحرى صوم الاثنين والخميس . وكان يصوم عاشوراء . وكان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، وكان فيما يحدث الرواة إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل كله ، وأيقظ أهله وجدّ وشدّ المئزر .

وكان ذكر الله دأبه ، وإذا ذكره ذكره بهمة وحضور قلب . وذكر الله أمر إلهى : «يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا . وسبحوه بكرة وأصيلا» الأحزاب ٤١ ، ٤٢ .

وبذكر الله تطمئن القلوب وتحيا الأرواح ، وتذهب الهموم ، وتنجلى الأحزان ، لأن الذاكر أصبح فى حضرة الله ، ومن كان فى حضرة الله لا شىء يحزنه .

روت عائشة قالت : «كان رسول الله يذكر الله على كل أحيانه» . وكيف لا يذكر الله من جعله الله مصطفاه ، واختاره على العالمين ؟ .

ولا يفهم من ذلك أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يفرغ لأهله ، ولكن الجانب البشرى كان له حسابه فى حياته ، فكان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزء لله ، وجزء لأهله ، وجزء لنفسه . ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس ، فردّ ذلك على العامة بالخاصة . هكذا روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

القدوة الطيبة :

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدوة مثلى لأمته فى حياته الخاصة والعامة ، وفى علاقته بربه وعلاقته بالناس ، كان يكثر من مناجاة ربه وله فى ذلك الآثار الخالدة التى تشهد بصدق كيف كان فهمه عن الله وأدبه معه .

فمن ذلك ما رواه ابن عباس قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة حين فرغ من صلاته يقول : «اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها أمرى ، وتلم بها شعثى ، وترد بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وترد بها ألفتى ، وتعصمنى بها من كل سوء : اللهم أعطنى إيمانًا ويقينًا ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة» .

والمأثور من دعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا حصر له ، فيه تذكرة للناس ونفع لهم ، وفيه تعليم وتوجيه لأمته الخاتمة ، وفيه أسوة صالحة لمن أراد أن ينسج على منواله من الطامحين إلى رحمة الله ، المتطلعين الى عفوه ورضاه .

لقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إمام العابدين ، وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بذلك فى قوله : «قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» الزخرف ٨١ .

وقد تكلم المفسرون كثيرا فى مدلول هذه الآية ، والذى نطمئن اليه ما تأوله بعضهم من أن «إن» هنا نافية بمعنى ما ، وعلى ذلك فمعنى الآية : ماكان للرحمن ولد ، وأنا أول العابدين الذين يشهدون بذلك .

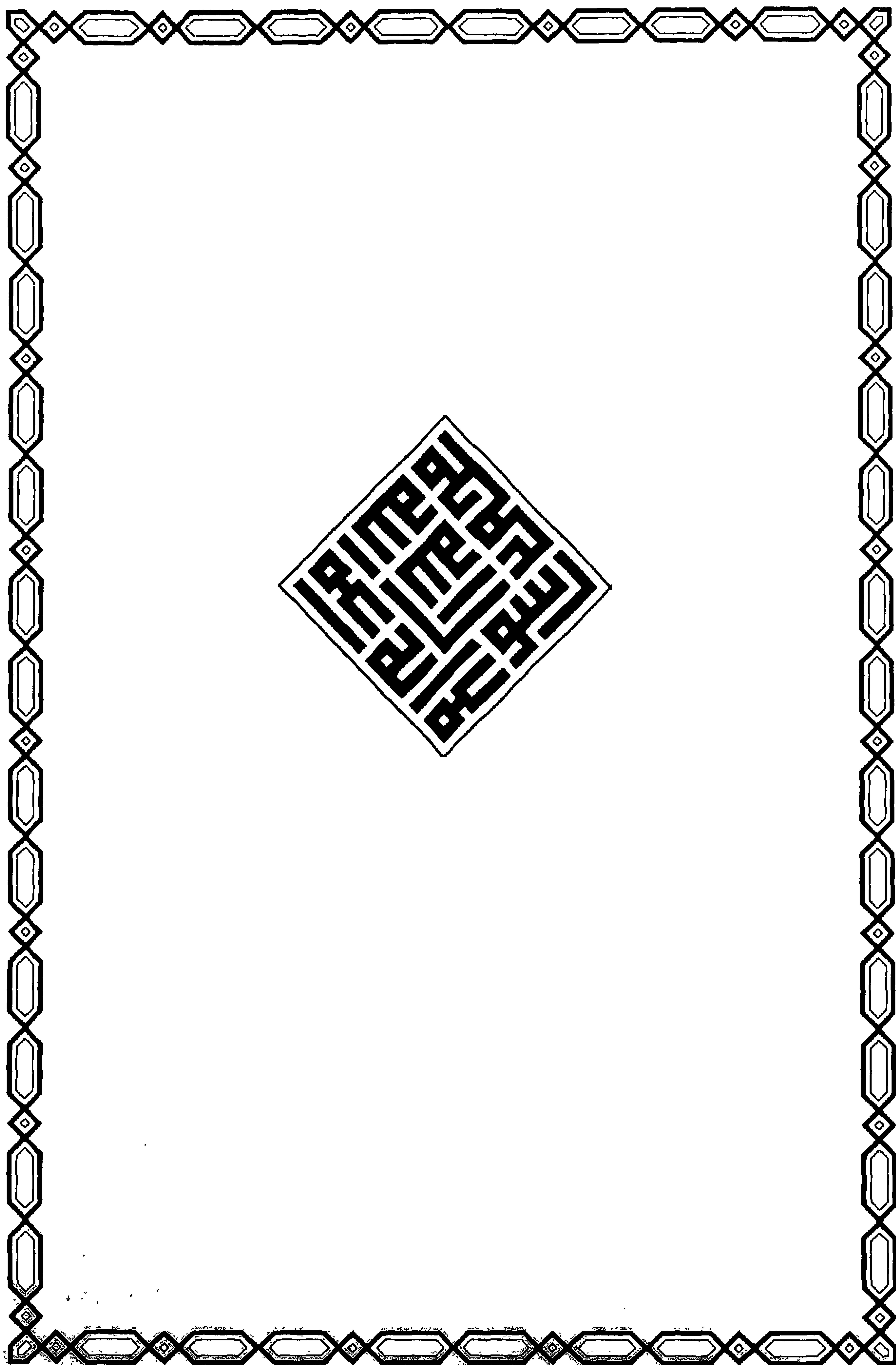
ووصف الله له بذلك وصف له قيمته وأهميته ، وهو شهادة من الله بعلو درجته وعموم بركته ورفيع منزلته ، وهو بمثابة بيان من الله للناس جميعا بأن النبى الخاتم قد قدر الله حق قدره ، وعرف الله حق معرفته ، فدان له بالطاعة والخضوع ، وعبده حق العبادة ، فيجب ان يقتدى به من أراد أن يسير على النهج القويم والصراط المستقيم .

وكيف لا يكون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إمام العابدين ، وقدوة المتعبدين ، والإيمان به ـ صلى الله عليه وسلم ـ أساس فى العبادة ، وتوقيره وتعظيمه عبادة ، وحبه عبادة ، والصلاة والسلام عليه عبادة ؟ .

لقد رفعه الله الى أعلى مقام ، فكان حقًا عليه أن يفنى ذاته فى عبادة مولاه الذى اختصه من بين الأنام بهذا الفضل العظيم ، وحباه بشرف مازال يزداد على الأيام رفعة وتألقًا .

لقد وضع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنهج الصحيح للأمة فى سلوك طريق العبادة الخالصة المخلصة بشرائطها الصحيحة الخالية من الغلو والانحراف والتزمت ، وسار المحققون والعباد والزهاد والتائبون والمتفكرون وأصحاب الأذواق العالية فى العبادة على هذا المنهج ، كل منهم يأخذ منه زاده وآدابه وتعاليمه ، وما زال هذا المنهج حتى الآن فياضًا بالخيرات زاخرًا بالبركات ، بالغًا بمن يسير عليه غاية الأمن والنجاة والفلاح ، والفوز بجنة عرضها الأرض والسموات .

وصلى الله على إمام المتقين ، وقدوة المتعبدين ، وسيد المرسلين وسلم تسليما كثيرا .



تدوين السنة ودائرة معارف السنة الشريفة

الأستاذ الدكتور

الحسيني هاشم

اصطفى الله سبحانه وتعالى سيدنا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وأعده إعدادا كاملا ليتحمل أسمى رسالة يعطر بأريجها الدنيا : تزكية للنفوس وتطهيرا للقلوب وتثبيتا للعقيدة الصحيحة وسيرا نحو النور فى الطريق المستقيم فى ميدان العقيدة والشريعة .

فأنزل على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين[1] » وأشرق ذلك الكتاب المبين يحمل فى نفسه دليل صدقه ذاتيا وهو الدليل الخالد على صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل ما جاء به ، وكان المعجزة الكبرى الذى تحدى الإنس والجن قال تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا[2] » وعرف أرباب الفصاحة والبلاغة حلاوته وطلاوته وبلاغته وفصاحته وأيقنوا أنه ليس من كلام البشر وأن الذى جاء به إنما هو رسول رب العالمين . وحمل القرآن الأسس الكاملة للرسالة العامة الخالدة . « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا[3] » وأمره الله بتبليغه قال تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين[4] » .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢

(٢) سورة الاسراء الآية ٨٨

(٣) سورة الأعراف الآية ١٥٨

(٤) سورة المائدة الآية ٦٧

وقال تعالى : «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون[1] » فالرسول صلى الله عليه وسلم ـ يبين للناس ما نزل إليهم من آيات الله البينات ، يبلغ القرآن ويبينه ويشرحه ، ويوحى الله إليه بالسنة فيبلغها ، ويأمر أصحابه بالتبليغ عنه قال : صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرأ سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع » رواه الترمذى وأحمد .

وعن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى خطبته « أما بعد ... فإن أصدق الحديث كتاب الله وأن أفضل الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار» رواه الامام مسلم . والقرآن الكريم وهو المصدر الأول للشريعة الإسلامية يدعو إلى العلم . قال تعالى : «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون[2] » وقال تعالى : «وقل رب زدنى علما[3] » والسنة النبوية تدعو إلى العلم روى البخارى بالسند المتصل قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «من يرد الله به خيرا يفهمه» وإنما العلم بالتعلم . وفى رواية : «من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين» ويأمرهم النبى بالتبليغ ويقول لهم بعد المقالة بعض الأحيان . «هذا فليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه» رواه البخارى . ودعا لمن أدى مقالته كما حفظها فقال : « نضر الله امرأ سمع مقالتى فحفظها ووعاها حتى يبلغها» . وقد التزموا أوامر رسولهم وتفانوا فى الحرص على تبليغ العلم . روى البخارى. قال أبو ذر رضى الله عنه «لو وضعتم الصمصامة «السيف» على هذه وأشار إلى قفاه ثم ظننت أنى أنفذ كلمة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن تجيزوا على «تقطعوا رأسى» لأ نفذتها» وقال ابن عباس : «كونوا ربانيين حكماء فقهاء» ، ويقال الربانى الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره . وكان من عناية الصحابة بحديث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم كان الواحد منهم اذا شغله عمل أرسل صاحبه الثقة ليخبره بما يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فكانوا يتناوبون فى السماع ويبلغ الشاهد الغائب ويسأل الشاهد ، وسطروا السنة على صفحات قلوبهم ووعوا كل ما سمعوا وما شهدوا وحرصوا على نشره وتبليغه . وتعاون ثقات المجتمع الإسلامى من الصحابة فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعد وفاته على حراسة سنة نبيهم . وهل يشق على الآلاف الثقات من الصحابة المخلصين حراسة تراث رجل واحد رأوا فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ؟

---

(١) سورة النحل الآية ٤٤ (٣) سورة طه

(٢) سورة الزمر الآية ٩

وعدتهم فى ذلك إيمان عميق بنبيهم ، وبسمو سنته ، وذاكرتهم الواعية التى فاقوا فيها جميع الأمم ، وشعورهم الفياض بأن السنة هى سنة رسول رب العالمين ، فلو تخصص عشرة من الصحابة وحفظ كل واحد منهم فى صدره ما يساوى كمية نصف القرآن الكريم الذى حفظوه لكانوا جديرين بحراستها ، فما بالك وقد جند لها آلاف الثقات الحفاظ أنفسهم ؟ هذا فضلا عن أن منهم من بدأ يكتب الحديث فى عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن لم يكن التدوين عاما فقد كانت هناك صحائف خاصة . كان عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنه ـ كاتبا محسنا اشتهرت صحيفته التى دون فيها الحديث « بالصحيفة الصادقة » لأنه كتبها عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مباشرة فهى أصدق ما يروى عنه ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص لمجاهد : هذه الصادقة فيها ما سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليس بينى وبينه أحد . وكانت عزيزة عليه للغاية حتى كان يقول ابن عمرو « ما يرغبنى فى الحياة إلا الصادقة والوهط » وكان لجابر بن عبد الله الأنصارى صحيفة ، وكان لأنس بن مالك صحيفة ، كان يبرزها إذا اجتمع الناس . واشتهر ابن عباس بطلب العلم ودأبه عليه وكان بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأل الصحابة ويكتب عنهم وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد دعا له ، كما فى صحيح البخارى فى باب العلم بالسند المتصل عن ابن عباس قال : ضمنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : (اللهم علمه الكتاب) وفى الكفاية : (اللهم علمه الحكمة وعلمه التأويل) . ولهمام بن منبه صحيفة وتسمى الصحيفة الصحيحة وهو أحد أعلام التابعين رواها عن أبى هريرة . ويقول الأستاذ الندوى : إن تأليف هذه الصحيفة يرجع إلى أواسط القرن الأول ، لأن أبا هريرة توفى عام ٥٨ هـ وهى من إملاء أبى هريرة . ويقرر الأستاذ أبو الحسن الندوى متفقا مع صاحب تدوين الحديث : العلامة مناظر أحسن الكيلانى رئيس القسم الدينى العلمى بالجامعة العثمانية بحيدر آباد بأنه إذا جمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث كونت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمسانيد والسنن فى القرن الثالث ، وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله من غير نظام وترتيب فى عصر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، وقد شاع فى الناس ـ حتى المثقفين والمؤلفين ـ أن الحديث لم يكتب ولم يسجل إلا فى القرن الثالث الهجرى ، وأحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون فى القرن الثانى وما نشأ هذا الغلط إلا عن طريقتين .

● **الطريقة الأولى** : أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر تدوين الحديث فى القرن الثانى ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت فى القرن الأول لأن عامتها فقدت وضاعت

مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة .

● **الطريقة الثانية** : أنهم لا يتصورون سعة هذه الصحف لكثرة الأحاديث الموجودة ويقول الكيلانى : قد يتعجب الإنسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال إن أحمد بن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعمائة ألف حديث وكذلك يقال عن أبي زرعة . ويروى عن الإمام البخارى أنه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة . ويروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابي من ثلاثمائة ألف حديث . ولا يعرف كثير من المتعلمين فضلا عن العامة أن الذى يُكَوِّنُ هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد . فحديث « إنما الأعمال بالنيات » . يروى من سبع مائة طريق فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل من الأحاديث : وقد صرح الحاكم أبو عبد الله الذى يعتبر من المتسامحين المتوسعين أن الأحاديث التى فى الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف . ومعظم هذه الثروة الحديثية قد كتبت ودونت بأقلام رواة العصر الأول ، وقد يزيد ما حفظ فى الكتب والدفاتر كتابة وتحريرا فى العصر النبوى وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم على عشرة آلاف حديث إذا جمعت صحف ومجاميع أبي هريرة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلى بن أبي طالب وابن عباس رضى الله عنهم . فيمكن أن يقال إن ما ثبت من الأحاديث الصحاح واحتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب ودون فى عصر النبوة وفى عصر الصحابة قبل أن يدون الموطأ والصحاح بكثير .

وهكذا تعاون الحفظ والتدوين على حفظ سنة النبى صلى الله عليه وسلم فى عصر الصحابة ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وعرفوا قدرها . ولا نغفل ما حصل من أمر الوضع فى الحديث منذ أربعين من الهجرة بعد وقوع الفتنة وحرب الإمام على ومعاوية والخلافات سياسية ومذهبية وإلحادية .

ولكن من الطبيعى أن ذلك لا يصدر إلا عمن لا معرفة ولا عناية لهم بالسنة ولا ثقة للناس بهم ولا صحبة لهم حقيقية مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن يحاول تقليد شىء لا علم له به يكون أمره مفضوحا واهيا ، وماذا يفعلون أمام التيار الجارف من الحرص على السنة ؟ وقد أحس الثقات بهم فحصروهم فى قوائم سوداء وحصروا معهم الضعفاء : هى قوائم الكذابين والوضاعين والضعفاء وحصروا أحاديثهم فى قوائم الموضوعات . وقوبلت حركة الوضع الهزيلة من الذين لا عناية لهم بالسنة ، ولا معرفة لهم بها بحركة قوية جبارة من علماء السنة ، ووضعوا المقاييس الفريدة والمنهج القويم يساند ذلك الحق والإلهام والذوق والملكة ومعرفة أبطال السنة

وحرصهم عليها فالتزموا الإسناد . يقول محمد بن سيرين عن ذلك : لم يكونوا يسألون عن الاسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيُؤْخَذُ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم . ويقول أبو العالية : «كنا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فما رضينا حتى رحلنا إليهم ، فسمعنا عن أفواههم . ويقول عبد الله ابن المبارك . الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء وعنه أنه قال بيننا وبين القوم القوائم يعنى الإسناد . ويقول سفيان الثورى : لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ . ورحلوا من أجل الحديث . يقول سعيد بن المسيب : ان كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد . ووضعوا قواعد الإسناد والمتن وقضوا على حركة الوضاعين .

ولا يعارض كتابة الحديث فى عصر النبوة والصحابة ما روى مسلم فى صحيحه عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ «لا تكتبوا عنى غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه وحدثوا ولا حرج ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» . فإن ذلك كان فى بدء الدعوة حتى لا يختلط القرآن بالسنة ولم يستقر الأسلوب القرآنى بعد فى النفوس ، أو كان ذلك النهى بالنسبة لكتاب الوحى خاصة حتى يتفرغوا لمهمة القرآن ، أو النهى كان خاصا لكتابة الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة ، فإنه يدل على الكتابة ما رواه البخارى ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : لما فتح الله على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مكة قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين فقام أبو شاه رجل من اليمن ــ فقال : اكتبوا لى يارسول الله . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اكتبوا لأبى شاه ...) وما روى البخارى فى كتاب العلم عن ابن عباس قال : «لما اشتد بالنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجعه قال : ائتونى بكتاب أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده . الحديث» ــ وهكذا كان عصر الصحابة الذين شهدوا الوحى والتنزيل واختارهم الله لصحبة نبيه وجعلهم أعلاما وقدوة ونفى عنهم الشك والكذب والريبة وسماهم عدول الأمة فقال عز ذكره فى محكم كتابه : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس [1] » وفسر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسطا عدلا فكانوا أئمة الهدى ، وحجج الدين ، ونقلة الكتاب والسنة والحراس عليها ، ومعهم التابعون اختارهم الله لإقامة دينه وفقهوا فيه فأخذوا السنة عن الصحابة . والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه . يقول ابن أبى

---

(١) البقرة

حاتم : ندبهم الله عز وجل لإثبات دينه وإقامة سنته وسبيله المستقيم . فلم يكن لا شتغالنا بالتمييز بينهم معنى إذ كنا لا نجد منهم إلا إماما مبرزا ـ مقدما فى الفضل والعلم وفى السنن وإثباتها ولزوم الطريقة واحتذائها . رحمة الله ومغفرته عليهم أجمعين . إلا ماكان ممن ألحق نفسه بهم ودسها بينهم ممن ليس يلحقهم ولا هو فى مثل حالهم لا فى فقه ولا حفظ ولا إتقان ولا تثبت .

على أنه قبل أن ينقضى عصر الصحابة أمر الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بتدوين الحديث فكان التدوين الرسمى بأمر الخليفة على رأس المائة حينما رأى اتساع الفتوحات الإسلامية ، وانتشار الصحابة فى الأقطار وموت أكثرهم . روى البخارى فى كتاب العلم من صحيحه وكتب عمر بن عبد العزيز الى أبى بكر بن حزم : انظر ماكان من حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فاكتبه . فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم . فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا . وأبو بكر بن حزم عامله وقاضيه على المدينة : وأوصاه أن يكتب ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارى والقاسم بن محمد بن أبى بكر المتوفى ١٢٠ هـ . وكذلك كتب إلى عماله فى أمهات المدن الإسلامية بجمع الحديث . فقد أخرج أبو نعيم فى تاريخ أصبهان أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أهل الآفاق : انظروا حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاجمعوه . وأَمْر خليفة للمسلمين ـ كعمر بن عبد العزيز كفيل ـ بأن يشعل الهمم ويصادف القبول فى النفوس المستعدة فتسرع للاستجابة لتنفيذ أمره على خير وجه ، وقد لبى الأمر الإمام الكبير محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى المتوفى ١٢٤ هـ وللزهرى مكانته وإمامته .

ثم شاع التدوين فى الجيل الذى يلى جيل الزهرى . وكان أول من جمعه بمكة ابن جريج ١٥٠ هـ وابن إسحاق ١٥١ هـ ومالك ١٧٩ هـ بالمدينة وسعيد بن أبى عروبة ١٥٦ هـ والربيع بن صبيح ١٦٠ هـ وحماد بن سلمة ١٧٦ هـ بالبصرة وبالكوفة سفيان الثورى ١٦١ هـ وبالشام أبو عمرو الأوزاعى ١٥٦ هـ وبواسط هشيم بن بشير ١٨٨ هـ وشعبة بن الحجاج ١٦٠ هـ وبخراسان ابن المبارك ١٨١ هـ وباليمن معمر ١٥٣ هـ وبالرى جرير ١٧٥ هـ وبمصر عبد الله بن وهب ١٩٧ هـ .

وهؤلاء كانوا فى عصر واحد لا يدرى أيهم أسبق فى التدوين . ومنهجهم فى التدوين جمع حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مختلطا بأقوال الصحابة والتابعين مع ضم الأبواب بعضها إلى بعض ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم نسجًا على منوالهم إلى أن رأى بعض الأئمة أن يفرد حديث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة على رأس المائتين فى أوائل القرن الثالث فألفت

المسانيد : ومنهج المسانيد أن يجمع أحاديث كل صحابى على حدة وإن تعدد الموضوع .

ومن هذه المسانيد مسند عبيد الله بن موسى العبسى الكوفى ، ومسند مسدد بن مسرهد البصرى وأسد بن موسى الأموى ونعيم بن حماد الخزاعى ثم اقتفى الأئمة أثرهم كالإمام أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وهما من أساتذة الإمام البخارى وكان منهج هؤلاء مزج الصحيح وهو ما ثبت صحته بغيره . ثم جاء أبو عبد الله البخارى ...

ولقد تسلم الإمام البخارى لواء الحديث فى مطلع القرن الثالث الهجرى وسلك به منهجا قويما أوصله درجة بالغة فى الصحة والكمال فقد كان كتابه الخالد « الجامع الصحيح » له فضل السبق فى هذا القرن الذى ازدهر بأئمة السنة ، فالإمام مسلم والإمام أبو عيسى الترمذى والإمام النسائى والامام أبو داود السجستانى وابن ماجه وكتب هؤلاء الأئمة التى أصبحت المرجع فى الأحاديث إنما ظهرت بعد « الجامع الصحيح » وقد كان له أثر عظيم فى توجيه مؤلفى هذه الكتب وإجادة مصنفيها . وكان البخارى موضع تقديرهم ، وإمام قافلتهم ، وأستاذهم جميعا الذى تأثروا به وشهدوا له .

ويذكر الإمام النووى أن من رواة البخارى الأعلام الامام مسلم بن الحجاج ، وأبا عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ، وأبا عبد الرحمن النسائى ، وأبا حاتم ، وأبا زرعة الرازيين وكل هؤلاء أئمة أعلام يقول الحاكم أبو أحمد النيسابورى : ـ « رحم الله محمد بن إسماعيل فانه ألف الأصول يعنى ـ أصول الأحكام من الأحاديث » وبين للناس وكل من عمل بعده فانما أخذه من كتابه كمسلم بن الحجاج وغيره ، وكان القرن الثالث الهجرى العصر الذهبى لتدوين السنة فيه صنفت الكتب الستة التى يطلق عليها كتب أصول السنة ، واستمرت العناية حول الشرح للكتب الستة ... وفى القرن السابع الهجرى ألف أبو السعادات مبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الشافعى المتوفى عام ٦٠٦ هـ كتابه « جامع الأصول لأحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم » جمع فيه الأصول للكتب الستة عنده وهى صحيح البخارى ، وصحيح مسلم وجامع الترمذى ، وسنن النسائى وسنن أبى داود ، وموطأ الإمام مالك .. وقد ألف الحافظ الهيثمى على بن أبى بكر بن سليمان المتوفى عام ٨٠٧ هـ صهر الحافظ العراقى . والذى كان يعد فى عصره إمام المحدثين فى الديار المصرية ألف كتابه « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » وهو كتاب جامع للزوائد عن الكتب الستة . لمسند أحمد والبزار والموصلى ومعجم الطبرانى الكبير والصغير والأوسط .

وقد جمع الشيخ العلامة محمد بن محمد بن سليمان الفاسى بن طاهر السوسى المغربى المالكى نزيل الحرمين الشريفين كتابه « مجمع الفوائد » من جامع الأصول ، ومجمع الزوائد جمع فيه

بعض الأحاديث التى اختارها من جامع الأصول ومجمع الزوائد فى جزء ين وشجعنى ذلك على تأليف :

« دائرة معارف السنة الشريفة » مستوعبا هذه الكتب وفى مشرق مطلع القرن الخامس عشر من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة وفى مؤتمر السنة الرابع فى رحاب الأزهر الشريف يسرنى أن أقدم للعالم الإسلامى :

﴿ دائرة معارف السنة الشريفة ﴾

راجيا من الله تبارك وتعالى أن تكون فتحا مبينًا فى عالم التأليف للسنة الشريفة ، ونورًا هاديًا منضِّرًا للوجوه ، مذكيا للنفوس مطمئنًا للقلوب ، ومرشدًا للعقول إلى الحق والصراط المستقيم ودائرة معارف السنة الشريفة تشتمل بحمد الله على ثلاثة عشر كتابًا تجمع كتب أصول السنة المعتمدة :

صحيح الامام البخارى . وصحيح الامام مسلم . وجامع الترمذى . وسنن النسائى . وسنن أبي داود . وموطأ الإمام مالك كما جمعها ابن الأثير مخرجة أحاديثها ، وزدت عليها سنن ابن ماجة . وتشمل زيادات أمهات كتب المسانيد والمعاجم للسنة . مسند الإمام أحمد بن حنبل ومسند البزار ، ومسند أبي يعلى الموصلى ، ومعجم الطبرانى الكبير والأوسط والصغير مخرجةً أحاديثها ومبينًا درجتها من الصحة والحسن والضعف كما ذكرها الهيثمى فى مجمع الزوائد .

وقد نهجت فى التبويب قدر الإمكان منهج الإمام البخارى فى التبويب على أبواب العلم والترتيب الفقهى . على خلاف منهج ابن الأثير فى التبويب على منهج الحروف الهجائية .

فقد ألف أبو السعادات مبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الشافعى المتوفى عام ٦٠٦ هـ كتابه «جامع الأصول لأحاديث الرسول» جمع فيه الأصول الستة عنده وهى : صحيح البخارى وصحيح مسلم ، وجامع الترمذى ، وسنن النسائى ، وسنن أبي داود . وموطأ مالك بدلا من سنن ابن ماجة إلا أن الاستفادة منه تحتاج إلى عناء لأنه رتب كتبه على : الحروف الهجائية كما أنه يشرح ألفاظ الحديث فى صفحات وأبواب منفردة قد تجئ بعد الحديث بمائة صفحة ، بل قد تجئ فى جزء آخر مما يجعل القارئ لا يستطيع متابعة المعنى فلا يستفيد منه إلاّ خاصَّة المتخصصين فى الحديث لأنه غير مرتب الترتيب الفقهى . لذا قال فيه صاحب جمع

الفوائد[1] من جامع الأصول ومجمع الزوائد وهو الشيخ العلامة محمد بن محمد بن سليمان الفاسى ابن طاهر السوسى المغربى المالكى نزيل الحرمين الشريفين : قال فى جامع الأصول «ورتبه على ترتيب بديع لكن لغموض دقة وضعه واتساع حجمه فى جمعه قل أن ينتفع به إلا ذو فكرة ذاكية وحافظة واعية» اهـ لذا راعيت فى تبويب دائرة معارف السنة الشريفة ترتيب الكتب الستة المجموعة فى جامع الأصول على الأبواب الفقهية لاعلى الحروف الهجائية ووضعت شرح المفردات عقب كل حديث مباشرة ، وزدت على الأبواب التى ذكرها ابن الأثير سنن ابن ماجه وأضفت إليها زيادات أمهات المعاجم والمسانيد . منها مسند الإمام أحمد ، ومسند البزار ، ومسند أبي يَعْلى ، ومعجم الطبرانى الكبير والأوسط والصغير التى جمعها مجمع الزوائد للهيثمى بتخريج الهيثمى وبيانه لدرجة الحديث ، وبويت الجميع على منهج الإمام البخارى فى صحيحه ، فكانت بحمد الله دائرة لمعارف السنة الشريفة وافية : -

يجد المحدث فى مرآة أبوابها ما يستعين به على تخريج الأحاديث وما يساعده على الوصول إلى المعرفة لما ورد فى الباب من أحاديث مجتمعة يفسر بعضها بعضًا كوحدة موضوعية متكاملة .

- ويجد المفسر الأحاديث التى تنير له الطريق لبيان تفسير كتاب الله بالمأثور عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

- كما تساعد المحقق على تخريج الأحاديث ونسبتها إلى كتبها الأصلية .

- ويجد فيها الفقيه أدلة الأحكام مجتمعة ليصل إلى الحكم الذى أراده رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

- ويجد كتاب السيرة - سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصحيحة الموثقة .

- ويجد أصحاب العقيدة فى أبواب الإيمان والإسلام وغيرهما ما يرشدهم إلى العقيدة الصحيحة .

- ويجد فيها الباحثون عامة ما يرشدهم إلى هدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

ونرجو من الله أن يجعل هذا العمل معالم هدى ونور ، وأن تكون دائرة معارف السنة الشريفة فتحًا مبينًا يشرق نوره على الأمة الإسلامية فى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى جعله الله عام خير وبركة على الأمة الإسلامية وبصّرها بالعمل بكتاب الله وسنة رسول الله - صلى الله

(١) وهو كتاب مختصر مما فى جامع الأصول ومجمع الزوائد فى جزأين فى مجلد واحد طبع المطبعة الخيرية ببلدة ميره الهند

عليه وسلم ـ وقد اخترت لطبع دائرة المعارف دارًا إسلامية وهى دار الشروق لما لها من أصالة وعناية بطبع الكتب الإسلامية ونشرها .

ونرجو من الله تبارك وتعالى أن ينفع بها المسلمين وأن يوفقنا جميعا إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام في القرن العشرين

الأستاذ
فتحى رضوان

لقد أضاع المسلمون على أنفسهم سلاحا بتارا يدفعون به عن عقيدتهم ويردون أباطيل خصوم دينهم الحاقدين عليه والكارهين لهم كما أطفأوا أو كادوا سراجا وهاجا يضىء سبيل الدعوة إلى الإسلام فى مشارق الدنيا ومغاربها ، وأعنى بذلك قصة حياة رسول الله محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ففى القرن العشرين فشا أدب التراجم والسير لعظماء الرجال سواء كانوا من القدامى أم المحدثين حتى أصبح فن الترجمة فنا قائما بذاته يتبارى فيه أكبر الكتاب وأعظمهم حظا من ذيوع الاسم وانتشار الأثر ونباهة الذكر.

ومرد ذلك فى أيامنا هذه أنه بنشوء الدولة القومية أصبح ارتباط الرجال بالاسم وتمثيلهم للأفكار والمذاهب أظهر وأبرز فمنذ برز نابليون بونابرت فى فرنسا وبزغ نجم منافسيه فى انجلترا « وليلم بت » السياسى الشاب فى المسرح السياسى و« هوارثو نلسون » فى الميدان العسكرى ثم تلاهما فى نفس الحقبة « ولنجتون » القائد البريطانى ، و« بلوخر » القائد الألمانى حتى تعلقت أبصار أهل أوروبا بالأشخاص فذهبوا فى الإعجاب بهم والاشادة بذكرهم ودراسة مداخل حياتهم ومخارجها وخفاياها وخباياها الى حد الهوس ، ولعل الثورة الفرنسية التى وقعت فى سنة ١٧٨٩ ـ أخرجت للناس نماذج من البشر يخالفون ما ألفه الأفراد من الشعب فقد مضت قرون على شعوب الانسانية ومقاليد أمورها فى أيدى أباطرة وأكاسرة وقياصرة يليهم فى علو الشأن

وعظم المكانة قواد وساسة وأدباء وشعراء كانوا فى الأغلب الأعم من الأسر الرفيعة ، والأصول العتيقة والعريقة ، فلما قامت هذه الثورة واجتاحت كل الأفكار الموروثة وأزالت كل الحدود المقدسة استأثر بالعظمة رجال أمثال « دانتون » و « مارات » و « روبسبير » صانعو ثورة الفرنسيس ، وكل هؤلاء ومن والاهم أو عاداهم فى تلك الأيام المتفجرة بالأحداث الرهيبة من عامة الشعب ودهمائها فازداد اهتمام أفراد الشعوب بالرجال وتتبع أخبارهم وجاءت المذكرات التى تركها فريق من قادة الدول وكبار الساسة والمشهورين من الأدباء وأهل الفن فكانت وقودا يلقى فى النار فيزيدها لهيبا .

ولقد أدرك أعداء الاسلام هذا الضعف عند شعوبهم فلما شرعوا أقلامهم ليطعنوا فى الاسلام بمفترياتهم وأكاذيبهم لم يجدوا سبيلا أيسر عندهم وأحب إلى قلوبهم من الطعن فى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وكان من هؤلاء « رودلف ردلوهم » و « نيكولا ديكنز » و « نيفس » و « مراتشى » و « هوتنجر » و « مبيلسان » . و « بريدو » .

فقد جاءت الحروب الصليبية فى القرن الحادى عشر وما بعده لتجعل سبيل الطعن فى الإسلام هو النيل من نبي هذا الدين القويم فخلق كتاب الكنيسة الكاثوليكية ـ التى كانت أعلم ما تكون بعظمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورفعة خلقه وتشبثه بالمثل الأعلى فى القول والفعل وبعده عن الدنايا وحرصه على الصدق والاستقامة والصراحة ـ أوحى إلى صنائعها بعالم من الأكاذيب والمفتريات حتى شاع فى أوروبا أن الاسلام حارب الخمر وحرم لحم الخنزير لأن نبى هذا الدين قتله الخمر لكثرة ما شرب منه فلما مات ألقيت جثته على كومة من القاذورات فجاءت الخنازير تنهش جسمانه وعلى الرغم من أن المسلمين المعاصرين رأوا بأنفسهم أن الكتب التى وضعها بعض المنصفين من كتاب الغرب أمثال « كارليل » و « أديسون » و « ودور منجايم » كانت أبلغ أثرا من كل ما كتبه المعترفون بفضل الدين الاسلامى والمعجبون بثقافته من النصارى واليهود والمشيدين بما تركه من علم وما قدمه لمختلف الأمم والشعوب من مناهج البحث وطرائق الاستدلال إلى حقائق الكون مع روائع آثارهم الباقية على الزمن فى البناء والعمارة وتخطيط المدن وتجميل الحياة ـ لم يحل كل ذلك دون الاستمرار فى عرض هذه الافتراءات .

ولا تزال المكتبة الاسلامية باللغات الأوربية خالية مما تحتاج اليه من مصنفات بأقلام مؤرخين وأدباء وقصاصين مسلمين يروون لأهل أوروبا هذه السيرة العجيبة التى لا مثيل لها ولا شبيه بها فى الشرق والغرب أو فى القديم والحديث .

ولقد ظهرت هذه الحقيقة حينما ألف « مايكل هارت » كتابه عن « المائة » من عظماء العالم فى كل فن ودرب فجعل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هؤلاء المائة ، ولو اقتصر على ذلك لكانت هذه الشهادة عند أهل أوروبا وأمريكا من الأديان الأخرى ـ سواء أكانت سماوية أم وضعية ـ بالغة الأثر ، يشكو من عظم وقعها أمراء الكنيسة الذين يعلمون أن ما بقى فى نفوس أهل أوروبا وأمريكا من التنكر للإسلام وطول التأهب والتحفز لانتقاص جلاله وحجب نوره هو جهل أهل أوروبا بهذا الدين وحقائق أحكامه وروائع تاريخه وفضائل نبيه . وقد يكون من الصعب على المسيحى العادى أن يقرأ كتابا يشرح له مبادئ الاسلام من توحيد الله ودعوته الى العلم وتقريره مبدأ وحدة الناس ووحدة الحياة ، والتنفير من التعصب ، وعدم اللجوء إلى العنف أو الفحش ، مهما كان الكتاب موجزا ، ولكن ما أيسر أن تتفتح قلوب هؤلاء ، وتتحرر مشاعرهم ووجدانهم حينما يعرفون كيف أن محمدا النبى الأمى الفقير اليتيم الأعزل قد عاش فى قطعة أرض نائية عن مواطن الحضارة بعيدة عن مسالك التجارة خالية من مصدر واحد من مصادر الرزق فلاماء ولا حديد ولا ذهب ولا فضة ولا عزا موروثا ولا علماً تخلف عن الآباء والأجداد ، ومع ذلك فأهل هذه المنطقة قلة مضيعة بين أطراف الجزيرة وأعطافها لا يجمعهم جامع من دين ولا رابط من قومية ولا حافز من تاريخ فقد كانت صناعتهم القوية هى السلب والنهب مما ألهب من مقاتلهم الإحن والأحقاد وجعل القتال بينهم سنة الحياة وشرعة الآباء والأجداد .

وقد بهر الغربيين أن يعرفوا ـ وهم بين الدهشة والاستغراب وربما عدم التصديق وتصور التهويل والمبالغة ـ أن محمدا وحده بلا سند ولا معين استطاع فى نحو عشرين عاما أن يوحد العرب لأول مرة فى التاريخ حتى تبلغ وحدتهم مبلغا لم تبلغه الوحدة عند قوم آخرين فأصبحوا يؤمنون بإله واحد ويعيشون بوحى عقيدة واحدة ، وفرض عليهم عبادة تأمرهم أن يجتمعوا خمس مرات فى اليوم الواحد يصلون صلاة واحدة يقومون فيها ويركعون بحركات واحدة ، ثم انتقل بهم إلى أن يكونوا دعاة لدينهم خارج حدود وطنهم الجدب القفر فنازلوا فى السنين الأولى من تاريخ دعوتهم أكبر قوتين كافرتين فى ذلك الوقت : الفرس والروم وكلاهما صاحب ملك باذخ وسلطان شاهق يقوم على حضارتين من أكبر وأرقى حضارات الانسانية كلها فكان نصيب جيوش دين محمد الحفاة العراة الذين لم يحاربوا قبل الاسلام من التفوق كبيرا فى الحرب وأصول السياسة مع ضآلة ما يعرفه البدوي من أساليب القتال الساذجة الفطرية ، ومع ذلك غُلب الروم وَغُلب الفرس أمام شبان صغار أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وأبى عبيدة بن الجراح والمثنى بن حارثة الذين لم تزد خبرتهم فى فنون القتال على هذه الأساليب البدائية التى كان يعمد

اليها شباب القبائل حينما تنشأ بينهم المعارك ومع ذلك استطاع هؤلاء الشبان مع عدد قليل من الجنود المقاتلين أن ينزلوا بهما أعظم الخسائر فى معارك كبيرة كمعركتى القادسية واليرموك اللتين هزموا فيهما الفرس والروم وانتزعوا منهم ملكهم الواسع وقوضوا امبراطوريتين مترامييى الآفاق .

ولكن الأمر الذى يذهل الباحثين والمؤرخين أن انتصارات العرب هذه بعد أن آمنوا بالاسلام لم يبقوا جحافل تجتاح الأمم المتحفزة وتدق حصونها بقوة جموع متدفقة شرسة فى القتال . بل انقلب هؤلاء الفاتحون إلى دعاة دين يفيضون رقة ولطفا وحرصا على حرمات الانسان وحقوقه ثم إلى بناة حضارة ، بلغت أقصى مراتب الرفعة والسمو .

ولقد درج دارسو تاريخ الأمم ، وتصنيف عظماء الرجال على أن يقولوا : إن عظماء الرجال هم إما بناة ممالك أى رجال حركة وسياسة ، وإما أهل فكر يتأملون فى حياة الإنسان ويستخرجون من تأملاتهم قواعد للفكر واتجاهات فى الحكمة ، وإما أن يكونوا أهل بيان يتركون للانسانية آثارا بليغة تحفظ وتروى وتلهم الأجيال التالية ولم يجتمع فى إنسان واحد خصائص هذه الطوائف الثلاثة من العظمة الإنسانية .

ولما كان هؤلاء ممن لا يسلمون بأن محمدا « صلى الله عليه وسلم » نبي يوحى اليه فهم يعجبون كيف اجتمع له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يكون رجل عمل وحركة ، وضع أسس دولة استقرت قواعدها واستقامت حكومتها ودان لها الأتباع بالطاعة والانقياد كما لم يدن شعب لحكومة من قبل .

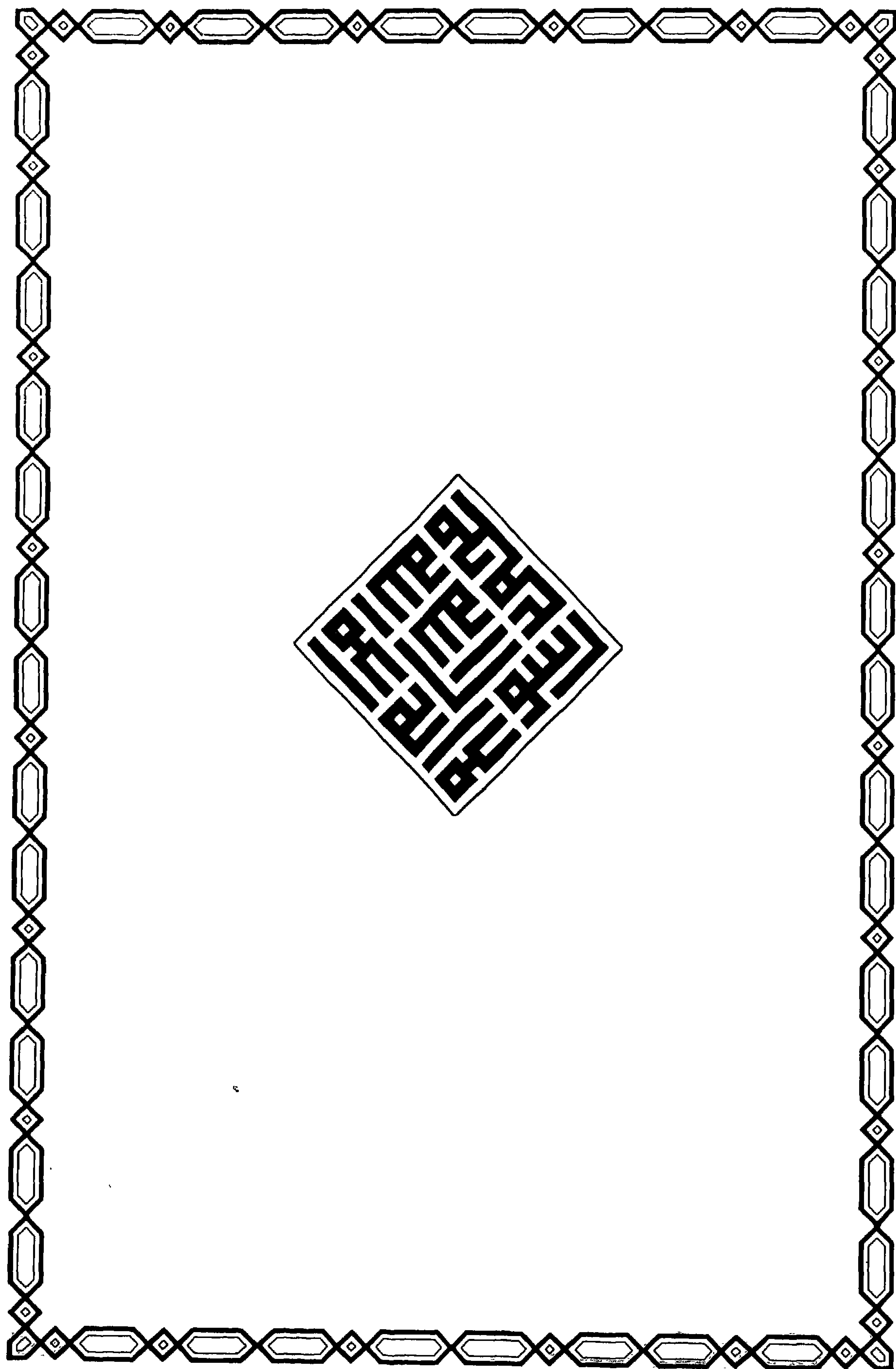
ومع ذلك كان محمد رجل فكر شرع لأمته فى كل درب من دروب الحياة وبسط قواعد عقيدته وطبقها ، وقضى بها ، وأفتى فيها ، فبلغ فى الفكر والفقه ، وتربية الأفراد والجماعات كما لم يفعل فقيه ولا كليم ولا صاحب مذهب قبله مع تباين الخصائص والصفات اللازمة لكل صنف من أصناف العظمة ... عظمة العمل والحركة الدائبة واقامة الدولة وشق طرق الحياة والاستقرار ، وعظمة التشريع والفقه والتربية والدعوة .

وأخيرا فقد كانت الآثار المحفوظة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأحاديث الشريفة ثروة لا تدانيها ثروة تأتى بعد القرآن الكريم مباشرة .

وهذا الجانب الفذ فى حياة محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأخذ بألباب أهل الغرب ولاسيما كتابه ومفكروه ، لأنهم لاينظرون إلى نبينا كنبي ، ولكن كشخص ويقيسون عظمته بمقاييسهم البشرية فيروعهم هذا التكامل فى عظمته وهذا التسامى فى فضائله وصفاته .

وبعد ، فإن الغرب يعانى الآن من الأزمات الحضارية ما يصل إلى حد الاختناق وهم لا يجدون لهذه الاختناقات حلولا ولا يرون فى رجالاتهم إلا نماذج ناقصة ، يترامى إلى سمعهم الكثير من سقطاتها وآفاتها ، ونبيهم إله لا يحتذى ، فشعورهم بالحاجة إلى النموذج الأعلى الذى تقدمه شخصية محمد بن عبد الله النبي الإنسان هم فى أشد الحاجة إليها اذا ما بسطت له وسائل الرسول ووسائل الدين إلى خلق الإنسانية المتكاملة التى يمهد طريقها الإسلام ونبي الاسلام .

ومن ثم فهذا هو دور سيرة محمد بن عبد الله فى القرن العشرين .



خطب الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع

دراســـــة تاريخيـــة

الأستاذ الدكتور

حســــين مـــؤنس

حجة الوداع علم[1] أساسى من معالم السيرة النبوية الشريفة ، فهى الحجة الوحيدة التى قام بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد شاءت إرادة الله أن تتم على النحو الذى أتمها به رسول الله وفى الوقت الذى قامت فيه قبل وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشهور ، حتى تكون اكمالا واتماما لسنته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العبادات ، ومن هنا ذهب الكثيرون من علماء القرآن إلى أنَّ قوله تعالى : (اليومَ أَكْمَلْتُ لكم دينَكُم وأتممتُ عليكُم نِعْمتِى ورضيتُ لكم الإسلام دِينا) ـ المائدة ٥/٣ ـ نزل أثناء هذه الحجة المباركة .

وأصحاب السير والتواريخ يجعلون حجة الوداع واحدة من مغازى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنها عندهم فتح من فتوح الله عليه ، وأما أصحاب الفقه فيجعلونها فى أبواب العبادات . لأنَّ الحج خامس أركان الإسلام بعد الشهادتين والصلاة ، والصيام والزكاة .

وحديث حجة الوداع طويل جدا فى كتب الفقه ، وهذا طبيعى ، فهى تَرِدُ هناك فى باب الحج من أبواب العبادات بتفصيل وافر سواء فى تفاسير القرآن الكريم أم فى متون كتب الحديث والأثر من صحاح ومسانيد وسنن ومستدركات وزوائد أو فى شروحها ، ومن أوفى مالدينا فى هذا

---

(١) جاء فى لسان العرب لابن منظور : أعلام . واحده علم . والمعلم ما جعل علامة وعلمًا للطرق والحدود مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه ... والعلم المنار . قال ابن سيده : والعلامة والعلم الفصل بين الأرضين . والعلامة والعلم شىء ينصب فى الفلوات تهتدى به الضالة (مادة علم ٨٧١/٣) .

الباب ما أورده الإمام محى الدين يحيى بن شرف النووى فى شرحه لصحيح مسلم فى باب الحج[1] .

ولن أدخل هنا فيما تضمنته حجة الوداع من أحكام العبادات أو فيما أورده الفقهاء فى تفاسيرهم وشروحهم من أبواب الفقه فى أمر هذه الحجة ، فما هذا بموضعى ولا أنا من أهله ، وإنما سأدير حديثى على المعانى التاريخية التى تضمنتها خطب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء هذه الحجة وهذه الخطب تجمع فى العادة فى الكثير من كتب السيرة المعتمدة ، ومختصراتها تحت عنوان واحد هو خطبة الوداع «ولا حرج فى ذلك مادامت هذه الخطبة الواحدة التى يوردونها تتضمن كل المعانى التى تضمنتها الخطب التى ألقاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء هذه الحجة . ومن المؤكد أنها أكثر من خطبة واحدة ، والمقَلِّلُ يجعلها خطبتين ، والمكثر يجعلها ثلاثا . غير أحاديث مفردة قالها ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء الحجة ، وكلها تتضمن أحكاما فقهيه أحصاها الفقهاء .

وأقدم مالدينا من أخبار حجة الوداع وما ألقى فيها من الخطب هو ما ورد فى مغازى الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م لأن كلام محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى المتوفى سنة ١٥٠ أو ١٥٣ هـ ـ ٧٦٧ ـ ٧٧٠ م عن هذه الحجة وصل إلينا برواية البكائى ثم إلى محمد عبد الملك بن هشام المتوفى فيما بين سنتى ٢١٣ و ٢٦٨ هـ ـ ٨٢٨ و ٨٣٣ م . وابن هشام لم يقف بعمله فى السيرة عند النقل ، بل تدخل فى نص ابن اسحاق فزاد وأنقص واختصر. وأما رواية محمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى كاتب الواقدى (ت سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٥ م) لتفاصيل حجة الوداع فتجئ فى الجزء الثانى من طبقاته[2] فهى بالضرورة متأخرة على رواية الواقدى ، بل هى معتمدة عليها اعتمادا أساسيا كما نرى فى بيان اسناده الجماعى لما روى من أخبار المغازى فى الصفحة الأولى من الجزء الثانى من طبعة الطبقات التى نعتمد عليها هنا ....

وأما روايات أهل الحديث فأقدمهم وأعظمهم عندنا هو محمد بن إسماعيل البخارى (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ/٨١٠ ـ ٨٧٠ م) وتفاصيل حجة الوداع واردة عنده فى باب الحج وأبواب أخرى ، ولكن صحيح مسلم يقدم لنا هنا تفاصيل أوفى وأغزر ، خاصة إذا أضفنا إليه شرح النووى الحافل بالروايات والأصول والأسانيد ، ثم تأتى بعد ذلك روايات أحمد بن حنبل وأبى

(١) مرجعنا هنا إلى طبعة دار الشعب فى القاهرة جـ٣ ص٢٤٦ وما يليها . وحديث حجة الوداع فيه يأتى ابتداء من ص ٣٣٣ .

(٢) طبقات ابن سعد طبعة دار الشعب فى القاهرة ص٢ ص ١٢٤ وما يليها

داود فى سننه (١/١٨٩ وما يليها) . وكلها ضمنها النووى فى شروحه وتعليقاته على صحيح مسلم وأورد ابن كثير أطرافا منها فيما كتبه عن الحجة وعن الخطب التى ألقاها الرسول خلالها . وهى عنده خطبة واحدة[1] وتلى روايتى الواقدى وابن سعد من أهل التاريخ رواية البلاذرى فى الجزء الأول المنشور من أنساب الاشراف وهى مقتضبة جدا (ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩) وأوفى منها هنا رواية محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه[2] ، وهو يقدم لنا نص خطبة واحدة لرسول الله فى حجة الوداع (ص ١٥٠ ـ١٥٢) وهو نص واف . ولكنه غير دقيق جمع فيه الطبرى كل ما أثر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خطب وأحاديث أثناء حجة الوداع ، وساقها على طريقته فى الإسناد الجماعى ـ مساقا واحدا ، وصاغها فى سياق متصل مقسم إلى فقرات يبدأ كل منها بعبارة «أيها الناس !» والنص فى جملته صحيح . ولكن نص الواقدى هنا أدق وأضبط . ولهذا فإننا سنعتمد نصه مع الرجوع إلى كل ما أشرنا إليه من الأصول متصلا بالمعانى التاريخية التى تتضمنها خطب الرسول صلوات الله عليه فى هذه الحجة المباركة التى يفضل عبد الله بن عباس أنْ يسميها حجة الإسلام أو حجة البلاغ أو حجة التمام .

ولكننا لابد أن ننتظر حتى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى وما يليه لكى نحصل على تفاصيل أوفى وأشمل لحجة الوداع وللسيرة كلها عموما ، لأن طبقات كبار الحفاظ المؤرخين المفسرين المحدثين تبدأ فى الظهور فى ذلك الحين وتكتب فى السيرة ـ وتاريخ الإسلام عمومًا ـ مؤلفات عظيمة مستفيضة تجمع بين روايات المؤرخين والمحدثين والمفسرين جميعا . لأن كتابة السيرة النبوية مرت فى أطوار متوالية من تاريخ التأليف عند المسلمين . وإذا كان أهل القرن الهجرى الأول قد دون من استطاع التدوين منهم أطرافا من السيرة الشريفة فى رسائل صغيرة أوخطابات كتبوها للخلفاء فإنَّ أهل القرن الثانى تطور مفهومهم للتاريخ فجمعوا ما وصل إليهم من الروايات وأضافوا اليها ما وصل إلى علمهم فصارت لدينا روايات مطولة لبعض فترات السيرة . ثم جاء القرن الثالث الهجرى ، وهو عصر كبار المؤرخين الذين أشرنا إليهم : الواقدى وابن سعد واليعقوبى والطبرى والبلاذرى ومن إليهم . وأولئك هم أصحاب المدونات الكبرى التى وضعت أساس علم التاريخ عند العرب . ثم جاء القرن الرابع وقد تكاملت أولى كتب الحديث ودرست ونقدت فأصبح صاحب الفقه أو التاريخ يجد نفسه فى سعة من الأصول المدونة

---

(١) افرد الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧١ هـ.) فى البداية والنهاية طبعة دار الشعب بالقاهرة)ح ٥ ص ١٩٤ ـ ١٩٩ فصلا قائما بذاته للخطبة ، وهو يقول : إنها خطبة واحدة عظيمة تواترت بها الأحاديث ولكن سياق كلامه المفصل بعد ذلك يدل على أنها كانت أكثر من خطبة .

(٢) تاريخ الطبرى . بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، دار المعارف فى القاهرة ح ٣ ص ١٤٩ وما يليا .

فيها ، فاتسع نطاق روايات السيرة وازدادت غنى بما أتت به الصحاح والمسانيد وكتب السنن . وفى القرن الخامس تبدأ عصور الفقهاء الحفاظ الدعاة الذين استبحروا فى العلم وجمعوا ـ ما بين محفوظ ومدون ـ مادة غزيرة جدا موثوقًا فيها عن السيرة النبوية ، وأشهر هؤلاء عندنا ـ فيما يتصل بالسيرة النبوية ابن عبد البر النمرى (٣٦٨ ـ ٤٦٣ هـ/٩٧٨ ـ ١٠٧٠ م) الذى أتانا فى سيرته المختصرة للرسول الأكرم المسماة «الدرر فى اختصار المغازى والسير»[1] .. بخبر حجة الوداع فى صورة حديث جابر بن عبد الله السلمى الأنصارى . وهذا الحديث هو معتمد أهل الفقه فيما كتبوا عن فقه السيرة وما جاء فى خطب حجة الوداع من الفقه . وابن عبد البر يسوق حديث جابر بروايتين أولاهما رواية مسلم بن الحجاج القشيرى فى صحيحه (بشرح الإمام النووى وقد أشرنا إليها) والثانية هى رواية أبى داود فى السنن (١٨٩/١) وابن عبد البر هنا يورد نص الحديث دون تعليق كثير.

ولكن الفقيه الحافظ الذى اختص حجة الوداع بكتاب قائم بذاته هو أبو محمد على بن حزم الأندلسى (٣٨٣ ـ ٤٥٤ هـ/٩٩٤ ـ ١٠٦٣ م) فقد عنى هذا العلامة الحافظ الداعية بكتابة رسائل صغيرة عن جزئيات من السيرة والتاريخ الإسلامى عامة إلى جانب ما خلف لنا من مؤلفات ضخام عظيمة القيمة فى الفقه والتاريخ والأنساب والأدب . وواحد من هذه المؤلفات الصغيرة خاص بحجة الوداع . وقد عنى بنشره مع تحقيق قليل (ممدوح حقى) فى دمشق (بدون تاريخ) ، وقد قسَّم ابن حزم كتابه هذا إلى مقدمة شرح فيها السبب الذى حفزه إلى وضع هذا التأليف . وفصل أول أورد فيه أخبار حجة الوداع مفصلة منسقة بروايته هو ، ثم فصل ثالث فصَّل فيه ما أجمل من الروايات فى الفصل الأول وأتانا بأصوله عن كل ما أورده من تفاصيل ، فجاء كتابه الصغير هذا عملا علميا فريدا فى بابه ، ومنهجه يتميز بالابتكار فى الطريقة والأسلوب الذى تميّز به ابن حزم فى كل مؤلفاته إلى جانب ما عرف عنه فى الضبط وتحرى الصدق فى كل ما يروى وإنْ خالف هذا المنهج فى تعليقاته وشروحه وآرائه ومجادلاته[2] .

ثم جاء فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس الأندلسى الأصل ونزيل القاهرة (٦٧١ ـ ٧٣٤ هـ/١٢٧٢ ـ ١٣٣٤ م) فألف كتاب عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير «وهو

---

(١) ابن عبد البر النمرى ، الدرر فى اختصار المغازى والسير ، بتحقيق الدكتور شوقى ضيف . الطبعة الثانية . دار المعارف سنة ١٩٧٧ .

(٢) ابن حزم ، الأندلس ، حجة الوداع بتحقيق ممدوح حقى . دمشق . بدون تاريخ .

سيرة شريفة موجزة»[1] وعندما وصل إلى حجة الوداع اكتفى بنقل الفصل الثانى من كتاب ابن حزم الذى ذكرناه منسوبا إلى ابن حزم .

وقد ذكر ابن حزم فى مقدمة كتابه الأسباب التى جعلته يتبع هذا المنهج فى وصف حجة الوداع بقوله : «أما بعد ، فإنَّ الأحاديث كثرت فى وصف عمل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى حجة الوداع ، وأتت من طرق شتى وبألفاظ مختلفة ، وَوُضِعَتْ فصولُ ذلك العمل المقدس فى أخبار كثيرة ، غير ما اتصل ذكر بعض ذلك ببعض ، حتى صار ذلك سببا إلى تعذر فهم تأليفها على أكثر الناس ، وظن قوم كثير (أنها) متعارضة ، وترك أكثر الناس النظر فيها من أجل ما ذكرنا ، فلما تأملناها وتدبرناها ــ بعون الله عز وجل وتوفيقه إيانا ، لا بحولنا وقوتنا ــ رأيناها كلها متفقة ومؤتلفة ، مُنْسَرِدَّة متصلة ، بينة الوجوه ، واضحة السبل ، لا إشكال فى شىء منها ، حاشا فصلا واحدا لم يلح لنا فصل الحقيقة فيه ، أىُّ الثِّقْلَينْ هو منها ، فنبهنا عليه ، وهو : أين صلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الظهر يوم النحر ، أبمنى أم بمكة ؟ فلعل غيرنا يلوح له بيان ذلك ، فان استبان له ما أشكل علينا منه ــ يوما ما ــ فليضفه إلى ما جمعناه ، فلما وجدنا الآثار الواردة كما ذكرت تكلفت ذكرها وترتيبها وضمها ، واختصار التكرار إلا مالم نجد مندوحة من تكراره ، لضرورة إيراد لفظه (عليه السلام) ولفظ الراوى على نصه ، لئلا تختل الرواية ، عمن أخذناه ، فنقع ــ وأعوذ بالله ــ تحت صفة الكذب ، التى لا شىء أقبح منها فى الدنيا والآخرة ، وبالله التوفيق»[2] .

وابن حزم على حق فى مقالته تلك ، فإنَّ الروايات كثيرة جدا عن عمل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى حجة الوداع ، وإذاكان بعض الفقهاء قد اطمأنوا إلى حديث جابر بن عبدا الله عنها ، إلا أنهم فى شروحهم أتوا بعشرات الأقوال عن كل تفصيل أو كل كلمة مما فعل الرسول وقال أثناء هذه الحجة . ومن بين المؤرخين مثلا نجد أن ابن سعد يورد نحو عشرة أقوال على الأقل عن تفاصيل هذه الحجة . والخلاف هنا لا يتعلق بصلب عمل الرسول فى حجة الوداع أو ما قاله متعلقا بأحكام الحج أو أقواله التى تتعلق بالعبادات والأحكام فهذه كلها ثابتة ، وإنما هى تفاصيل تتعلق بالجزئيات دون الصلب ، ولهذا فسواء كانت خطب رسول الله أثناء حجة الوداع اثنتين أو ثلاثا أو واحدة جامعة كما هو الحال عند الطبرى ــ فإن صلب ما قاله رسول الله واحد

---

(١) ابن سيد الناس ، عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير .... نشر فى مجلدين فى القاهرة ثم سطا عليه الناشرون فى بيروت (بدون تاريخ أيضا) ح ٢ ص٢٨٢ ــ ٢٨٠ .

(٢) ابن حزم ، حجة الوداع ، ص ١٣ ــ ١٤ .

وثابت ، ولهذا فإننا إذا اجتهدنا فى تحقيق عدد الخطب ، فإن ذلك لا يمس معانى الخطب فى ذاتها وهذا هو الذى يهمنا .

وحجة الوداع كانت فى آخر سنة ١٠ للهجرة ، وهى آخر ما فتح الله على رسوله الكريم . وقد كانت بعد عودة على بن أبي طالب من سرية اليمن حاملا إلى رسول الله نبأ دخول اليمن كله فى الإسلام ، وبعد إسلام ثقيف ودخول الطائف أمة الإسلام وإرسال الرسول للمصدقين إلى شتى نواحى الجزيرة وقبائلها إشعارا باكتمال وحدة الجزيرة تحت راية الإسلام .

* * *

وحيث أن بحثنا هذا يدور حول خطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء حجة الوداع ، فإننا ستتابع هنا حديث الخطب كما جاء عند الواقدى فى مغازيه ، فهو أوفى المؤرخين حديثا فى هذا الباب ، وسنعرض كلام الواقدى على ما جاء عند غيره من المؤرخين والمحدثين من معانى الخطب وتوفيتها .

قال الواقدى بإسناده الجماعى ـ وهذه هى طريقته وذلك منهاجه ـ قال : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم مكة وقضى فيها أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ـ وخطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل التروية بيوم بعد الظهر بمكة[1] .

وفى فجر ذلك اليوم وبعد الصلاة اتجه إلى عرفه فوصلها قبل الظهر يوم الجمعة ٩ ذى الحجة فأراح فى قبته حتى الظهر ، ثم خرج فوقف بعرفة حتى الزوال (الظهر) فخطب خطبته الأولى ثم صلى الظهر والعصر مجموعين فى وقت الظهر بأذان واحد وإقامتين ، ثم ركب راحلته إلى موقف عرفة مستقبلا القبلة . وظل واقفا يدعو حتى غربت الشمس ، ثم دفع مع أصحابه إلى المزدلفة . وهناك صلى المغرب والعشاء مجموعتين فى وقت العشاء بأذان واحد وإقامتين ثم اضطجع إلى الفجر . وصلى الفجر بمزدلفة وقال إن من أدرك الفجر بمزدلفة فقد حج وإلا فلا . ثم أتى المشعر الحرام بمنى وذلك صباح السبت ١٠ ذى الحجة ، وهو يوم العيد ويوم الحج الأكبر ويوم النحر . وظل واقفا حتى أسفر الصبح جدا ، ثم دفع من مزدلفة حتى أتى منى ورمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس . وهنا خطب خطبته الثانية ، ثم أتى المنحر ، فنحر ثلاثا وستين بدنه ، ، وأمر عليا بنحر ما بقى إلى المائة . ثم حلق رأسه ، وبعد ذلك تطيب ، ثم مضى إلى مكة فطاف طواف الإفاضة . وهو طواف الصدر قبل الظهر ، وصلى الظهر إما بمكة أو بمنى ، ثم صدرت عنه

---

(١) لم يورد الواقدى أو غيره نص خطبة إلقاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم التروية وقبل الخروج إلى عرفة .

أحاديث فى منى حسبها بعضهم خطبة . وقضى بقية أيام التشريق حتى يوم ١٣ ذى الحجة . وبعد صلاة الظهر نفر إلى المحصب . ثم دخل مكة وطاف طواف الوداع . ثم خرج من مكة إلى المدينة ليلة الأربعاء ١٤ ذى الحجة .

ونعود إلى رواية الواقدى فنجده يقول : « فحدثنى هشام بن عمارة . عن عبد الرحمن بن أبى سعيد . عن عمارة بن حارثة الظفرى . وقال : رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب قبل التروية بيوم بعد الظهر . ويوم النحر بمنى بعد الظهر . قال الواقدى : هذا الأمر المأخوذ به المعروف . ويقال إن يوم التروية يوافق يوم الجمعة . فقام ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين الركن والمقام . فوعظ الناس وقال : من استطاع منكم أن يصلى بمنى فليفعل . وركب حتى زاغت الشمس بعد أن طاف بالبيت سبعا فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح بمنى . ونزل بموضع دار الإمارة اليوم ، فقالت عائشة رضى الله عنها : ألا نبنى لك كنيفا [1] ؟ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : منى منزل من سبق » [2] .

ومن كلام الواقدى . ومن العرض الذى سقناه قبل ذلك يتبين أن رسول الله ما كان يستطيع الخطبة بمزدلفة . لأنه صلى الفجر بها . ثم أتى المشعر الحرام وظل واقفا حتى أسفر الصبح جدا . ثم دفع إلى منى . وهناك نحر ومضى أيام التشريق . وهنا من المؤكد أنه خطب إما خطبة واحدة أو خطبتين . والواقدى يجعلها خطبتين . والباقى ذكره فى مراجع أخرى والآن نورد نصوص الخطب كما هى عند الواقدى . وستقسم كل خطبة إلى فقرات لكى يسهل تحليلها واستخراج ما تتضمنه من المعانى .

خطبة رسول الله بعرفة قبل الصلاتين :

وكان من خطبته يومئذ

١ـ إنى والله ما أدرى لعلى لا ألقاكم بمكانى هذا بعد يومكم هذا رحم الله امرءا سمع مقالتى فوعاها . فرب حامل فقه لافقه له . ورب حامل فقه إلى من أفقه منه » .

هذه العبارة مجمع عليها . باختلافات يسيرة فى اللفظ عند كافة المحدثين والمؤرخين . وهى تدل على أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يشعر أن هذه آخر حجاته (وأولاها أيضا) .

---

(١) الكنيف : الموضع المستور . وهى حظيرة من خشب أو شجرتتخذ للإبل (لسان العرب) .
(٢) الواقدى : مغازى ١١٠١/٣ .

أو هذا هو الذى جعل الناس يسمونها خطبة الوداع . والحجة كلها سميت حجة الوداع لهذا السبب . ولم يتبين الناس معنى هذه العبارة إلا بعد مرض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك بثلاثة أشهر وأيام .

وفى العبارة التالية يطلب الرسول إلى سامعيه أن ينتبهوا أشد الانتباه إلى ما سيقال لهم ويعوه ليرووه لغيرهم . والفقه المذكور هنا معناه الفهم . والمراد هنا أنَّ مَنْ يسمع هذا الكلام ويعيه سيرويه أو يحمله إلى غيره . وغيره هذا ربما كان أوسع وادق فهما منه فيزيده بمعانى كلام رسول الله فهما .

٢ ـ واعلموا أنَّ أموالكم ودماءكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

هنا يؤكد رسول الله حرمة الأموال والدماء . وهى حرمة مؤكدة فى القرآن والحديث . ولكن رسول الله ينص عليها هنا زيادة فى التنبيه وتأكيدا لحرمة مكة . والشهر الحرام ـ كأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يخشى على امته أنْ ينسى أفرادها حرمة الدماء وحرمة البلد الحرام والشهر الحرام . وكان على الحق فى خشيته . فإنَّ المسلمين من بعده سيغفلون عن هذه الحرمات وسيكون هذا من أكبر أسباب ما نزل بهم من الرزايا . وهنا تتجلى لنا أهمية إشارة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ضرورة الفهم والوعى لكل ما سيقول وتبليغه إلى الآخرين ، فلعل من بين الآخرين من يكون أوعى وأحسن فهما من الحاضرين .

٣ ـ وأعلموا أنَّ الصدور لاتُغِلُّ[1] : اخلاص العمل لله . ومناصحة أهل الأمر ولزوم جماعة المسلمين ، فإنَّ دعوتهم تحيط بمن وراءهم » .

هنا معان جامعة عظيمة جدا . فإخلاص العمل لله أساس كل فضيلة ، فيه صلاح عمل الإنسان كله . والمراد هنا أن تكون أعمال المسلم كلها خالصة لوجه الله . فالعبادات والأعمال جميعا ينبغى أنْ تكون خالصة لوجه الله .

ولا ينبغى أنْ ينسى المسلم أنَّه يعامل الله سبحانه قبل أن يعامل الناس فى كل شىء فإذا ذكر ذلك علم أنَّه لا يستطيع أنْ يكذب أو يخدع لأن الله يعلم من أمره ما خفى وما ظهر. وما أكثر ما ينسى المسلمون ذلك : ثم إنَّ صدور المسلمين لا ينبغى أنْ تحمل الغل والغدر والخيانة بعضهم

(١) من الإغلال وهى الخيانة فى كل شىء . والمراد هنا أنَّ صدور المؤمنين الصادقين لا تعرف الغل تجاه أى أخ مسلم مؤمن .

لبعض فالغل ليس من الإسلام ... والمسلم الصحيح هو الذى يأتى الله بقلب سليم ورسول الله يأمر بإخلاص النصيحة لأهل الأمر فيهم . وليس من الضرورى أنْ يكون أهل الأمر هم الحكام فحسب ، فان الآباء ورؤساء الناس وعقلاءهم وأهل العلم فيهم أولو أمر . والأمر هنا ينص على ضرورة تناصح المسلمين وإخلاصهم النصح بعضهم لبعض ، وهذا يتضمن الشورى والفقرة الأخيرة بالغة الأهمية ، فهى تنص على ضرورة بقاء المسلمين وحدة مجتمعة ، فلا يتمزق أمرهم ويصل الخلاف بينهم مبلغا يجعل أحدا منهم يخرج على الجماعة . واختلاف الرأى معقول ، وتبادل الرأى بالحسنى والمودة ضرورى ولكن الأذى الكبير فى الخروج على جماعة المسلمين ، وتعريض وحدتهم للخطر . ومادام الرسول ــ صلوات الله عليه ــ قد قال إنَّ أمته لا تجمع على ضلالة فانَّ منازل الفرد أو الجماعة القليلة من المسلمين عن رأيهم واتباعهم ما أجمع عليه أمر جماعة المسلمين فيه الصلاح . وهذا أيضا معنى سياسى واجتماعى عظيم وليت المسلمين أدركوا هذه الحقائق . خاصة وأنَّ رسول الله يقول فى نهاية الفقرة : «فإن دعوتهم تحيط بمن وراءهم» لأن أمة الإسلام ينبغى أنْ تكون رائدة ومثالا لمن وراءهم وأحاط بهم من الناس ، فإذا رأوا من المسلمين هذه الخصال والخصائص الحميدة دخلوا أمة الإسلام واتسع نظامها .

٤ ــ ألا إنَّ كلَّ شىء من أمر الجاهلية تحت قَدَمَىَّ موضوعُ . وأولُ دماءِ الجاهلية أضع دم إياس بن ربيعة بن الحارث » .

كان إياس مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل ، وإياس هذا كان غلاما من بنى عبد المطلب ، ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولى دمائهم فهو هنا يعلن تنازل قومه عن ثأرهم عند هذيل وكان رجل من هذيل قد قتل هذا الغلام خطأ وهو رضيع يحبو عند بنى سعد بن بكر ، إعلانا منه لنهاية كل ثارات الجاهلية التى كانت للناس قبل الإعلان فى حجة الوداع بصورة محددة .

وقول رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : إنَّ كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع لا يراد به الدماء فقط ، بل كل نظم الجاهلية التى تخالف الإسلام أى أن كل ما كان قائما قبل الإسلام من نظم سياسية واجتماعية تتنافى مع مبادئ الإسلام انتهى أمرها ، لأن الإسلام يبدأ عصرا جديدا فى تاريخ الإنسانية كلها .

٥ ـ وربا الجاهلية موضوع كله . وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب » .

هنا معنيان عظيمان ، فإنَّ المراد بالربا كل معاملة مالية فيها استغلال لحاجة الناس إلى المال [١] أو استحلال أى شىء من أموالهم بغير حق وهذا يحرمه الإسلام لأنه يتنافى مع روحه الإنسانية .

والمعنى الثانى يدحض كل ما يقال من أنَّ العباس بن عبد المطلب كان قد أسلم بمكة واتبع قواعد الإسلام وكتم ذلك بعلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أعلن إسلامه قبل فتح مكة بأيام . فهنا نرى أنَّ العباس كان يرابى إلى ذلك الوقت . أو أنه كان يطالب الناس بأموال ربا كانت له عندهم قبل إسلامه قبل حجة الوداع بعامين . ولو كان العباس قد ترك الربا أو تنازل عن أموال الربا التى كانت له عند الناس لما أعلن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلغاءها ووضعها تحت قدميه ... وقد زعمت كتب التاريخ التى كتبت فى العصر العباسى وما بعده أنَّ العباس كان قد أسلم وترك كل شأن الجاهلية من زمن طويل .

٦ ـ اتقوا الله فى النساء ، فإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وإنْ لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم [٢] أحد ممن تكرهونه ، فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

وقد أفاض الفقهاء فيما فى هذه العبارة من فقه يتصل بمعاملة النساء وحرمة الزواج وحقوق الزوجات ، وفصلوا معانى ما أراد رسول الله قوله فى شأن معاملة النساء ، وهذا كله فقه ، ولكن الذى يهمنا هنا هو أنَّ رسول الله حرص على دعوة أمته فى ذلك اليوم العظيم إلى الرفق فى معاملة النساء فى هذه الخطبة ودورها العظيم وحرمة عقد الزواج ومسئولية الرجال عن حسن معاملة النساء : « اتقوا الله فى النساء ، فإنما أخذ تموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

٧ ـ قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به ـ كتاب الله تبارك وتعالى ! وأنتم مسئولون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهدُ أنْ قد بلغت وأديت ونصحت ! ثم قال ، بأصبعه السبابة إلى السماء ، يرفعها ويكبها ثلاثًا : اللهم فاشهد ! »

وعند غير الواقدى أنَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال بعد : كتاب الله عبارة « وسنة نبيه » وهذا أمر مفهوم فإذا كان الواقدى لم يذكر هذه العبارة فلأنها بدهية . وابن اسحاق ـ

---

(١) انظر فى ذلك مثلا كلام الإمام النووى عن حجة الوداع فى شرحه لصحيح مسلم ٢٣٥/٣ وما يليها .
(٢) ليس المراد هنا الزنا ، وسيرد الكلام على ذلك فيما بعد .

برواية ابن هشام يضيف هنا : أيها الناس ! ! اسمعوا قولى واعقلوه : إنَّ كل مسلم أخ لكل مسلم . وإنَّ المسلمين إخوة . فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه . فلا تظلمن أنفسكم «وهذه إضافة حسنة فيها موعظة عظيمة نابعة من روح الإسلام وشرعه الهادى .

ولكن الذى يهمنا هنا هو قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : وأنتم مسئولون عنى . فما أنتم قائلون ؟ ثم ختام كلامه بقوله : اللهم فاشهد .

وهذه الكلمات تؤكد ما قلناه من حرص النبى على أنْ يفهم المسلمون أنهم يعاملون الله وهو ــ فوق الناس ــ الشهيد . وأنَّ نص الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ على ذلك فى خطبته ليدلنا على أنه كان يرى أنَّ النص على ذلك المعنى ضرورى . فهو يخاطب ناسا الكثيرون منهم لم يكونوا قد قرأوا القرآن كله وفهموا روحه وتنبهوا إلى أنَّ الإيمان عقد وموثق بين الإنسان والله ــ لا بين الناس فحسب وأن المسلم فى معاملاته إنما يعامل الله . ورسول الله يُشهد الله هنا على أنه بلغ الناس . وأنهم أقروا أنَّه أبلغهم وقام بواجبه نحوهم . وهذه معنى دينى ومدنى وحضارى عظيم لو ذكره المسلمون لصلح الكثير مما فسد من أمورهم بغفلتهم عن أن الدخول فى الإسلام ليس عقدا يشهد عليه الناس فحسب بل هو عقد بين المؤمن وربه . وكل تصرف للمؤمن إنما هو تصرف فى حدود ذلك العهد وما ينص عليه .

٨ ــ ويضيف الواقدى بعد ذلك أن رسول الله وقف بالهضاب من عرفة فقال : كل عرفه موقف إلا بطن عُرَنَة . وكل المزدلفة موقف إلا بطن مُحَسَّر . وكل منى منحر الا خلف العقبة» .

وهذا تنبيه من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى حقيقة جغرافية . وهى أنَّ بطن عُرَنَة مثله فى ذلك مثل بطن محسر ــ طريقان يجتاز بهما المسافرون من شمال مواضع المشاعر إلى جنوبها . واستمرار بطن عرنة هو الوادى الذى يمر بين جبلى الخندق وأبى قبيس . فهذا طريق . والطريق لا يكون موقفا أو مشعرا دينيا لأن الناس تمر به بدوابها وتنزل به وتأكل وتشرب وتنام مما لا يتفق مع حرمة المشاعر. ثم إن وادى عرنة كان منزلا لقبيل صغير من قيس عيلان بن مضر وهم المضريون الذين عدوا على سرح المدينة مرة . وأرسل الرسول سرية تتعقبهم وتعاقبهم . أما ما وراء العقبة إلى ما يليها غربا وهو المحصب فكان مناخا للناس ومنزلا يسمى وادى كنانة أو الأبطح . وهو يفصل بين منى ومدينة مكة . ومن ثم فهو لا يمكن أنْ يكون موقفا أو منحرا .

٩ ـ ويضيف الواقدى بعد ذلك إضافة حسنة بعد ذلك فيقول إنَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال بعد ذلك : « إنَّ أفضل دعائى . ودعاء من كان قبلى من الأنبياء : لا إله إلا الله وحده . لا شريك له . له الملك . وله الحمد . بيده الخير ، يحيي ويميت . وهو على كل شيء قدير ـ » فهذا نص محمود جدا فى هذا الموقف على ركن الإسلام الأول وهو الشهادة بوحدانية الله سبحانه وجل جلاله . وتدخل فيه الشهادة بصدق رسالة محمد ـ صلوات الله عليه ـ ونبوته .

* * *

ثم تأتى بعد ذلك ـ بحسب رواية الواقدى التى نتابعها ـ خطبة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم النحر وهى خطبته فى منى غداة يوم النحر . وهو يجعلها تحت عنوانه : خطبة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم النحر . وهو يأتينا بنصها بسندين أحدهما ينتهى إلى عمرو بن عمارة اليثربى [١] والثانى ينتهى إلى ابن عباس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويلاحظ أنَّ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكرر هنا بعض معانى خطبته فى عرفة ، فلعل من لم يسمعه هناك يسمعه هنا . وسأقسم هذه الخطبة إلى فقرات وأوصل الترقيم حتى تسهل الإشارة إلى المعانى ومراجعتها على النصوص التى تجعل الخطب كلها خطبة واحدة : قال الواقدى بعد اسناديه الذين ذكرناهما :

١٠ ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أيها الناس ! اسمعوا من [٢] قولى فاعقلوه أى شهر هذا ؟ قال : فسكتوا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا شهر حرام ! فأى بلد هذا ؟ فسكتوا . فقال : بلد حرام ! ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أى يوم هذا ؟ فسكتوا فقال : يوم حرام !

ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

١١ ـ إن الله قد حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى يومكم هذا ، إلى أنْ تلقوا ربكم . ألاهل بلغت ؟ قالوا : نعم ! قال : اللهم اشهد ! ثم قال : إنكم سوف تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ! قال : اللهم اشهد . ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها » .

وهذه الفقرة تبدو وكأنها مطابقة لما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خطبة عرفة ، ولكن فيها

(١) انظر عنه الاستيعاب لابن عبد البر : ص ١٢٠٦ طبعة حيدر أباد .

(٢) كذا فى الأصل المطبوع (ح ١١١١/٣) والادق هنا : منى

زيادات وإكمالات واضحة المعانى والمرامى ، ثم السؤال والإشهاد هنا أكثر مما هو فى الخطبة الأولى مما يؤكد معنى شهادة الله على وفاء المؤمنين بما أخذه الله عليهم من موثق يتصل بحرمة الدماء والأموال والأعراض فى هذا البلد وما سواه ثم هنا تنبيه على حرمة الأمانة وضرورة الوفاء بها . وهذه كلها أخلاقيات كبرى إلى جانب ما فيها من الفقة وأحكام الشرع .

١٢ ـ « ألا وأنَّ كل ربا فى الجاهلية موضوع ، وأن كل دم فى الجاهلية موضوع ، وأول دمائكم أضع دم إياس بن ربيعة بن الحارث ، كان مسترضعا فى بنى سعد بن ليث قتلته هذيل . ألا هل بلغت ؟ قالوا : اللهم نعم ! قال : اللهم اشهد ! فليبلغ الشاهد الغائب ! ألا إن كل مسلم محرم على كل مسلم . ولا يحل مال مسلم إلا ما أعطى عن طيب نفس » .

والإضافة الكبيرة هنا هى تحريم دم المسلم على المسلم ، وهذا وارد فى القرآن الكريم وفى الصحيفة التى كتبها رسول الله بين المهاجرين والأنصار ومن تبعهم من أهل المدينة ويؤكد الرسول حرمة الأموال فى الفقرة التالية .

١٣ ـ فقال عمرو بن يثربىٍّ : فقلت : يا رسول الله ، أرأيتَ إن لقيت غنم ابن عمى ، أجزر منها شاة ؟ قال ـ وعرفنى ـ أن لقيتها نعجة تحمل شفرة وزنادا بخَبْتِ الجميش ـ الجميش : واد قد عرفه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالساحل كثير الحطب ، وهو واد لبنى صخرة ، وهو منزل عمرو بن يثربى ، ويقال الجميش موضع صحراء ـ ثال خبت كداء ـ فلا تهجها .

والنعجة أنثى الشاة ، والشفرة السكين العريضة ، فرسول الله يؤكد هنا حرمة المال أشد تأكيد ، ويضرب لهذا الضمرى اليثربى ـ وضمرة من بنى بكر بن عبد مناة أنه لا يجوز له العدوان على نعجة من مال ابن عمه مهما كانت الظروف ومن المعروف أنَّ بنى بكر بن عبد مناة لم يدخلوا الإسلام وحلف المسلمين إلا بعد فتح مكة . ويستثنى منهم بنو صخرة ، ومنازلهم كانت على الساحل شمال غرب المدينة المنورة ، وقد دخلوا حلف المسلمين وأسلموا خلال العام الأول من هجرة الرسول إلى المدينة . وخبت الجميش : واد لبنى صخرة أى فى منازلهم .

١٤ ـ ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يأيها الناس ! إنما النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما[1] ألا وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض وأن عدة الشهور اثنا عشرا شهرا فى كتاب الله ، منها أربعة حرم .

---

(١) سورة التوبة ٩/٣٧

متوالية : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذى يدعى شهر مضر ، الذى بين جمادى الآخرة وشعبان . والشهر تسعة وعشرون يوما وثلاثون . ألا هل بلغت ؟ فقال الناس : نعم ! فقال : اللهم اشهد ! » .

وهنا معانى عظيمة نحب أن ننبه إليها ، فرسول الله يخطب القوم فى منى قرب مكة ، موطن قريش ، وهم تجار كانت لهم أساليب غير محمودة فى المتاجرة ، والمعاملة ، فيريد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنْ ينهاهم عنها ويفصل ما حرم الله فى القرآن من النسيئ .

والنسيئ طريقة فى حساب الأيام والشهور كان القرشيون يلجأون ـ إليها فى خداع الناس ، وهى مغالطة الناس ومعظمهم لا يكتب ولا يحسب ـ فى حساب مدد استحقاق الديون ، فقد يوهمون المدين بأن مدة الدين قد انتهت وأنَّ الدين قد غَلِقَ . وقد ينتهى الشهر ويريدون مغالطة المدين فيوهمونه أنه لم ينته فيفوت عليه موعد السداد ويغلق الدين ، ويكون فى السنة على هذا شهران محرم ـ مثلا ـ أو شهران صفر ، أولا يكون فيها صفر وهكذا . والقرآن ينبه إلى أن النسيئ زيادة فى الكفر يستعمله الكفار لتضليل الناس .

وقد اشتهر بأمر النسيئ من قريش القلمس بن مرة وهو أخو كلاب بن مرة الوارد فى عمود النسب ، والقلمس خارجون عن عمود النسب وهم من قريش الظواهر ، وكان أبناء عم القلمس بنو سرير بن مرة هم الذين أدخلوا النسئ فى معاملات قريش ، ثم اشتهر بعمله القلمس . جاء فى سيرة ابن هشام[1] أن بنى مخدع بن عامر بن ثعلبه من بنى مالك بن كنانة (أم قريش) نَشأ منهم نَسأَةُ الشهور فى الجاهلية .

« وقال ابن حزم فى « الجمهرة » وأول منَ نسأ الشهور سرير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك ابن كنانة ثم ابن أخيه عدى بن عامر بن ثعلبة ، ثم فى ولده[2] .

وواضح أن اسم القلمس غير عربى ، بل هو ليس اسما علما أصلا وإنما هو صفة أو مرتبة كما يقول ابن حزم تطلق على كل من كان يشتغل بالنسيىء أى كل من كان يعرف بالكتابة والحساب ويستخدمها فى تضليل الناس . واللفظ هنا لا تينى الأصل ، فهو LA LOMUS أى القلم (ومنه جاء لفظ القلم العربى) ، وبهذا لا يكون رسمه القلمس أو ما يشبه ذلك مما تجد فى بعض تفاسيرنا وإنما هو قلمس أو صاحب القلم الكاتب الحاسب ، وبنو كنانة وهم من أبناء إلياس

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٩/١

(٢) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ١٨٩

بن مضر أتوا القلم والحساب والنسيء من مهاجرهم الأولى فى الشام . واشتهر بالكتابة والحساب منهم نفر . وبعد استقرار قريش فى مكة على يد قصيٍّ بن كلاب واشتغالها بالتجارة . وضبط هذه التجارة على يد هاشم بن عبد مناف وإخوته على ما هو معروف تخصص قوم من بنى مرة هم الذين ذكرناهم فى هذا النوع من مغالطة الناس الذين كانوا لا يقرأون أو يكتبون ، ومن ثم فقد كان من السهل على النسأة أصحاب الأقلام هؤلاء خداع الناس وأكل أموالهم بالمرابأة أولا ثم بالمغالطة فى الحساب والأرقام ثانيا ثم بالمغالطة فى المدة والتواريخ .

أما قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض « فينطوى على معنى من أهم ما ورد فى هذه الخطبة . وهو أن الزمان ـ أو التاريخ ـ قد دار دورة كاملة انتهى بها عصر من تاريخ الإنسانية . ودخل عصر جديد وهذا العصر هو عصر الإسلام . الذى يبدأ فيه الله فى تاريخ الإنسانية عصرا جديدا يختلف عن كل ما قبله .

فالإسلام دين الله الذى كان أول من بشر به إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو « أول المسلمين » ثم ضل الناس من بعده وتوالى الرسل والناس سادرون فى ضلالهم حتى وصلنا إلى رسول الله الذى أراد الله أن يبدأ به عصرا جديدا من عصور تاريخ الإنسانية لاضلال فيه ولا نسيىء ولا خداع ولا ربا ولا عدوان على مال أو نفس أو عرض ولا خيانة فى أمانة . وهذه هى جماع أسس المعاملات الإسلامية الفاضلة التى يجئ بها الإسلام .

وقد ذكرها الله كلها فى القرآن الكريم ، ورسول الله يؤكد هذه المعانى لأولئك القهوشيين وكل من حضر الموسم وكل أمة الإسلام . ويشهد الله عليهم مرة بعد مرة . حتى لا تكون لهم مندوحة فى الارتداد إلى ما قبل الإسلام وهذا بعض معنى القول وأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله » ونحن نقصر ذلك على بعض المعاملات . والأمر أجل من ذلك وأعظم . فإنَّ الإسلام يضع حدا فاصلا بين ماكان قبله من تاريخ البشر ومعاملاتهم ويبدأ عصرا جديدا هذه قواعده . فتأمل أنت والله هذه المعانى العظيمة ليتجلى لك لماذا حل بنا ما حل من المصائب المتوالية . والسبب أننا ارتددنا إلى معاملات ما قبل الإسلام . فان الزمان لم يستدر ولم يعد جديدا كما كان يوم خلق الله السماوات والأرض . وقد سبق أن نبهنا إلى هذه المعانى فيما سلف من كتاباتنا وبالله التوفيق .

ثم يلى ذلك تحديد الرسول لعدة الشهور حتى لا يغالط فى عدتها أحد بعد ذلك . وينص على الأشهر الحرم . وثلاث منها متوالية . وهى التى كانت ترعاها قريش فى الجاهلية لسلامة متاجرها وسلامة ركبان الحج إليها . أما رجب الذى يسمى أيضا رجب مضر فقد كانت تحرص على حرمته قبائل قيس بن عمران بن مضر . وهم عامة الإسماعيلية عدا بنو إلياس بن مضر ومنهم كنانة

وقريش ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل إن رسول الله هنا يؤكد للناس أنَّ الشهر لا يكون إلا ٢٩ أو ٣٠ يوما وما عدا ذلك فمخالفة .

١٥ ـ ثم قال : « إن للنساء عليكم حقا ، وإن لكم عليهن حقا . عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا . ولايدخلن بيوتكم أحدا تكرهونه إلا بإذنكم ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وأن تضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لانفسهن شيئا وإنما اخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا . ألا هل بلغت ؟

قال الناس : نعم ! قال : اللهم اشهد ! » .

هنا يعود رسول الله فيؤكد المعانى التى سبق أنْ مضى عليها فى خطبته فى عرفة مع زيادات وتدقيقات ، والمراد بوطء الفرش هنا دخول البيوت . والفرش هنا ليست جمع فراش بل جمع فرش . وهوكل ما يبسط على الأرض فى البيوت ، والمراد إذن أنَّ المرأة لا يباح لها أنْ تأذن فى دخول بيتها لأحد يكرهه زوجها الا باذنه إذا خالفن ذلك فإنَّ رسول الله يتدرج فى العقوبة من الهجر فى الفراش إلى الضرب الخفيف الذى لا يؤذى ولا يجرح ولا يسبب الألم الشديد ، ويؤكد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا المعنى بقوله : إن النساء ضعيفات كالأسيرات فى عصمة الرجال فلا داعى لاستعمال العنف معهن . والرسول هنا يضع حدًا لاستبداد الجاهليين ببناتهم وعدوانهم عليهن لأدنى شهية أو ريبة أو حتى خطأ . ثم يؤكد حرمة الزواج فى الإسلام ، فإنَّ المرأة تعيد به عند الرجل بأمانة الله وبكلمة الله . فلا يجوز لسملم أنْ ينعدى مع نسائه حدود الله . ويختم الرسول هذا التوجيه الكريم بقوله : واستوصوا بهن خيرا ، وهو نص فى غاية البلاغة فى الرفق بالنساء ومراقبة الله تعالى فى معاملتهن . ثم يختم الرسول هذه الفقرة باشهاد الله سبحانه على أنه بلغ أمته ذلك كله .

١٦ ـ أيها الناس ! « إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه . ولكنه قد رضى أنْ يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه . فقد رضى به » .

والمراد هنا أنَّ الإسلام حصن الإنسان من عبث الشيطان به ، والشيطان قد يئس من أنْ يعبد أو يطاع فى أرض الإسلام ، وهو لهذا يحتال على ابن آدم فيدخل إلى نفسه ويضله من ناحية يستهين بها الإنسان ، ويحتقرها ظنا منه أنَه لا يأتيه من جهتها ضرر ، وهنا يكون الضرر لأن الشيطان يتدرج من الشيء الحقير يضلل الإنسان فيه ، فاذا أطاعه الإنسان تسلل إلى ما هو أكبر

وأخطر حتى يفسد الدين جملة . وقد أنظر الله إبليس إلى يوم يبعثون وإبليس قال : إنه سيجتهد فى إضلال من يتيسر له إضلاله إلا من اعتصم بالله . وتحصن بفهم حقيقى لطبيعة إبليس وأساليبه وطرائق الشيطان فى إفساد حياة الناس . فليس المقصود هنا مجرد عبادة الشيطان بل اتباع الشيطان والاصغاء إلى صوت الغواية وهى راقدة فى قلوب الناس .

١٧ ـ إن كل مسلم أخو المسلم ، وإنما المسلمون إخوة ، ولا يحل لا مرئ مسلم دم أخيه ولا ماله ، إلا بطيب نفس منه».

وهنا أيضا قواعد أساسية فى تركيب أمة الإسلام . فهى أمة من الإخوة . ورابطة الإسلام رابطة أخوة . ودم المسلم حرام على أخيه المسلم وكذلك أموال المسلمين حرام بعضهم على بعض . ولا يجوز لمسلم أن يمس مال أخيه الا عن رضى وطيب نفس . وطيب النفس مرتبة بعد الرضى . فقد تطلب الشيء من الرجل فيعطيك إياه خجلا . أو خوفا أو إيثارا للسلامة أو ضيقا . ولكن العطاء لا يكون فى هذه الحالة عن طيب نفس . ولهذا ينص رسول الله هنا عن ضرورة طيب النفس فى العطاء أو السماح بالمال .

١٨ ـ « وإنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله الا الله . فإذا قالوها عصموا دماءهم . وأموالهم . وحسابهم على الله . ولا تظلموا أنفسكم . ولا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وهنا ينص رسول الله على مبدأ أساسى من مبادئ الاعتقاد وصحته . فقول لا اله إلا الله . أى شهادة الإسلام تعصم نفس المسلم ودمه . وما عدا ذلك فحسابه عند الله . ولسنا رقباء على قلوب الناس وضمائرهم . ولا يعلم دواخل النفوس إلا خالقها . فلا يجوز للمسلم أنْ ينصب نفسه رقيبا على سلامة اعتقاد أخيه فليس لنا الحكم إلا بحسب ما يقول الناس عن أنفسهم ، وربهم أعلم بحالهم .

ولدينا مثل واضح جدا من تطبيق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذا المبدأ تأخذه من سيرة المصطفى صلوات الله عليه . فقد كان أسامة بن زيد بن حارثة واحدا من النفر الذين خرجوا فى السرية التى بعثها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقيادة غالب بن عبد الله الليثى لعقاب بنى مرة بنواحى فدك على ما صنعوا ببشير بن سعد عندما أرسله الرسول فى بعث إلى فدك . فقد تعقبهم بنو مرة وهم عائدون من السرية وداهموهم بالليل وقتلوا منهم . وأصابوا بشير بن سعد إصابة بالغة . ولكن الله نجاه . وكان ذلك فى شعبان أو رمضان سنة سبع للهجرة فبعث

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غالب بن عبد الله الليثى فى مائتى رجل كان فمن بينهم أسامة بن زيد ، فأوقع بهم غالب بن عبد الله أمير السرية وترك صاحبه الذى آخى غالب بينه وبينه وأبعد فى طلب رجل من بنى مرة «فجاء بعد ساعة ، فلامه أميرنا لائمة شديدة وقال : ألم تر إلى ما عهدت اليك ؟» فقال «زيد» : إنى خرجت فى أثر رجل جعل يتهكم بى ، حتى إذا دنوت ولحمته بالسيف قال : لا إله الا الله ! فقال أميرنا : أغمدت سيفك ؟ قال : لا والله ! ما فعلت حتى أورته شعوب (قتلته) . قال (راوى الخبر) قلنا : والله بئس ما فعلت وما جئت به تقتل امرءا يقول : لا إله إلا الله ؟ ! فندم ، وسقط فى يديه . قال : واستقنا النعم والشاء والذرية . كانت سهامهم عشرة أبعرة كل رجل أو حولها من الغنم . وكان يحسب الجزور بعشرة من الغنم ..

وبعد أنْ عادت السرية علم رسول الله بخبر ما فعله أسامة فلما أقبل يسلم على رسول الله سأله عن خبره ، فقص عليه الخبر. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قتلته يا أسامة وقد قال : لا إله إلا الله . ؟ قال : فأخذت أقول : يا رسول الله ، إنما قالها تعوذا من القتل . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ألا شققت قلبه ، فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟ قال أسامة : لا أقتل أحدًا يقول : لا إله إلا الله ! قال أسامة : وتمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ» .

ويستمر الواقدى فيأتينا بما هو أبلغ من ذلك من عمل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقوله فى هذا المعنى ، فيقول بعد هذا الخبر ، وفى أخبار نفس السرية : حدثنى معمر بن راشد ، عن الزهرى ، عن عطاء بن يزيد الليثى ، عن عبيد الله بن الجبار ، عن المقداد بن عمرو قال : قلت : يا رسول الله ! أرأيت رجلا من الكفار يقاتلنى ، وضرب إحدى يدى بالسيف فقطعها ، ثم لاذ منى بشجرة ، فقال : اسلمت لله ! أقتله بعد أن قالها ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لا تقتله : قال : فإنى قتلته ، فماذا ؟ قال : فإنه بمنزلتك التى كنت بها قبل أن تقتله ، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال[1] » .

وليس لدينا أبلغ من قول رسول الله وعمله فى هذه المسألة والقرآن الكريم لا يحل دم مسلم نطق بالشهادة . ورسول الله هنا يحذر المسلمين من الاختلاف فى مسألة الإيمان فقال بعضهم لبعض جهلا وجاهلية ، كأنه كان يعرف ما سيصيب المسلمين من الشرور يسبب الاختلاف حول الاعتقاد وصحته ومهما تكن آراء الناس حول هذا الموضوع فإن الحقيقة التى تخرج بها من قراءة تاريخنا ــ وتواريخ غيرنا ــ أنَّ السيف لم يحل مسألة إيمانية قط ، فكم من الحروب وقعت بين

(١) الواقدى : مغازى ٢/٧٢٣ ـ ٧٢٦ .

أصحاب المذاهب والنتيجة لا زال الشيعة بشتى مذاهبهم قائمين . وما زال الخوارج قائمين ؟ ! :
والإيمان عقد بالقلب ونطق باللسان فأما القلب فلا يعلمه إلا الله ، وأما اللسان فهو ما نسمعه ونعيه وهو الفيصل فيما يتعلق بسلطاننا على إيمان الآخرين . ورسول الله أعلم بما قال . ومن قال لا إله إلا الله فقد عصم دمه وماله وحسابه على الله . أما العنف . فلا يجدى . والسلطان لا مدخل له فى هذا الباب . حتى الجدل واللجاجة فيه هنا لا تنفع ، وها نحن أولاء قد قطعنا أربعة عشر قرنا بعد موت صاحب الرسالة ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا زال كلامه وفعله هو الحق . فإنه ـ صلوات الله عليه ـ لا يقول ولا يعمل الا صدقا وعدلا وحكمة وبعد نظر ومعرفة أوتيها من ربه سبحانه أما نحن جميعا فلم نؤت من العلم إلا قليلا .

١٩ ـ ويختم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبة يوم النحر بما ختم به خطبة عرفة : « إنى قد تركت فيكم مالا تتضلون به : كتاب الله . ألا هل بلغت ؟ قال الناس : نعم ! قال : اللهم اشهد » ثم انصرف إلى منزله .

وهذا القول من رسول الله يتضمن سنته أيضا ، وهذا بدهى
وليس لدينا فى أصول السيرة الأخرى غير ذلك فيما عدا اختلافات فى الألفاظ لا تضيف معنى جديدا كما نجد فى رواية ابن هشام عن ابن اسحاق[1] والطبرى ، وغالب روايته هنا عن ابن اسحاق ولكن بروايات أخرى غير رواية زياد البكائى[2] أما رواية ابن كثير فى البداية والنهاية[3] فهى أجمع ما لدينا لكل ما قاله أصحاب كتب الحديث ، فهو يذكر هنا كل ما جاء فى الصحاح والمسانيد ويرويه عن طرق شتى ، ومعظم الإضافات أو الاختلافات هنا تدخل فى أبواب الفقه من أحكام الحج وغيره من أبواب الشريعة ، ومثال ذلك ما يرويه عن مسند أحمد بسنده من أنَّ رسول الله قال فى حجة الوداع .

٢٠ ـ إنَّ الله أعطى كل ذى حق حقه ، فلا وصية لوارث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر . وحسابهم على الله ، ومن ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه ، فعليه لعنة الله إلى يوم القيامة ، لا تنفق امرأة من بيتها إلا باذن زوجها ، فقيل : يا رسول الله : ولا الطعام ؟ قال : ذلك أفضل أموالنا ، ثم قال رسول الله : العارية مؤداة والمنحة مردودة ، والدين مقضى والزعيم غارم .

---

(١) سيرة ابن هشام ، جـ٤/ص ٢٥١ و٢٥٢ .
(٢) الطبرى جـ٣/١٤٨ وما يليها
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٩٤/٥ وما بعدها .

ومثل ذلك نقل ابن كثير عن مسند أحمد وسنن أبي داود بإسنادهما . وسآتى بالنص هنا برواية ابن كثير عن سنن أبي داود بسنده :

٢١ ـ قال : « خطبنا رسول الله بمنى ، ففتحنا اسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن فى منازلنا ، فطفق يعلمهم مناسكهم ..... ثم أمر المهاجرين فنزلوا فى مقدم المسجد ، ثم أمر الأنصار فنزلوا وراء المسجد ثم نزل الناس بعد ذلك » (ابن كثير ١٩٩/٥) .

وكل ما فى هذين الرقمين أحكام فقهية أو ترتيبات نشك فيها ، فما نظن أن رسول الله فرق فى الحج بين مهاجرين وأنصار وكذلك ما يرويه ابن حزم فى كتاب حجة الوداع من أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال بعد خطاب النحر هذا :

٢٢ ـ « إن الله تعالى أنزل لكل داءٍ دواءً إلا الهرم . وعظم إثم من اخترص عرض مسلم ظلما » .

وهذه أيضا معان وردت فيما سبق من كلام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اثناء الحجة أو إضافات ذات معان تدخل فى أحكام الحج أو فى حكمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصفة عامة .

٢٣ ـ ويدخل فى هذا قول ابن حزم فى كتاب حجة الوداع : **«وخطب الناس أيضا يوم الأحد ، ثانى يوم النحر ، وهو يوم الرؤوس وقد روى أيضا أنه ، عليه السلام خطب بهم يوم الإثنين . وهو يوم الكارع (أو الأكارع) وأوصى بذوى الأرحام خيرا ، وأخبر عليه السلام أنه لا تجزى نفس عن أخرى** .

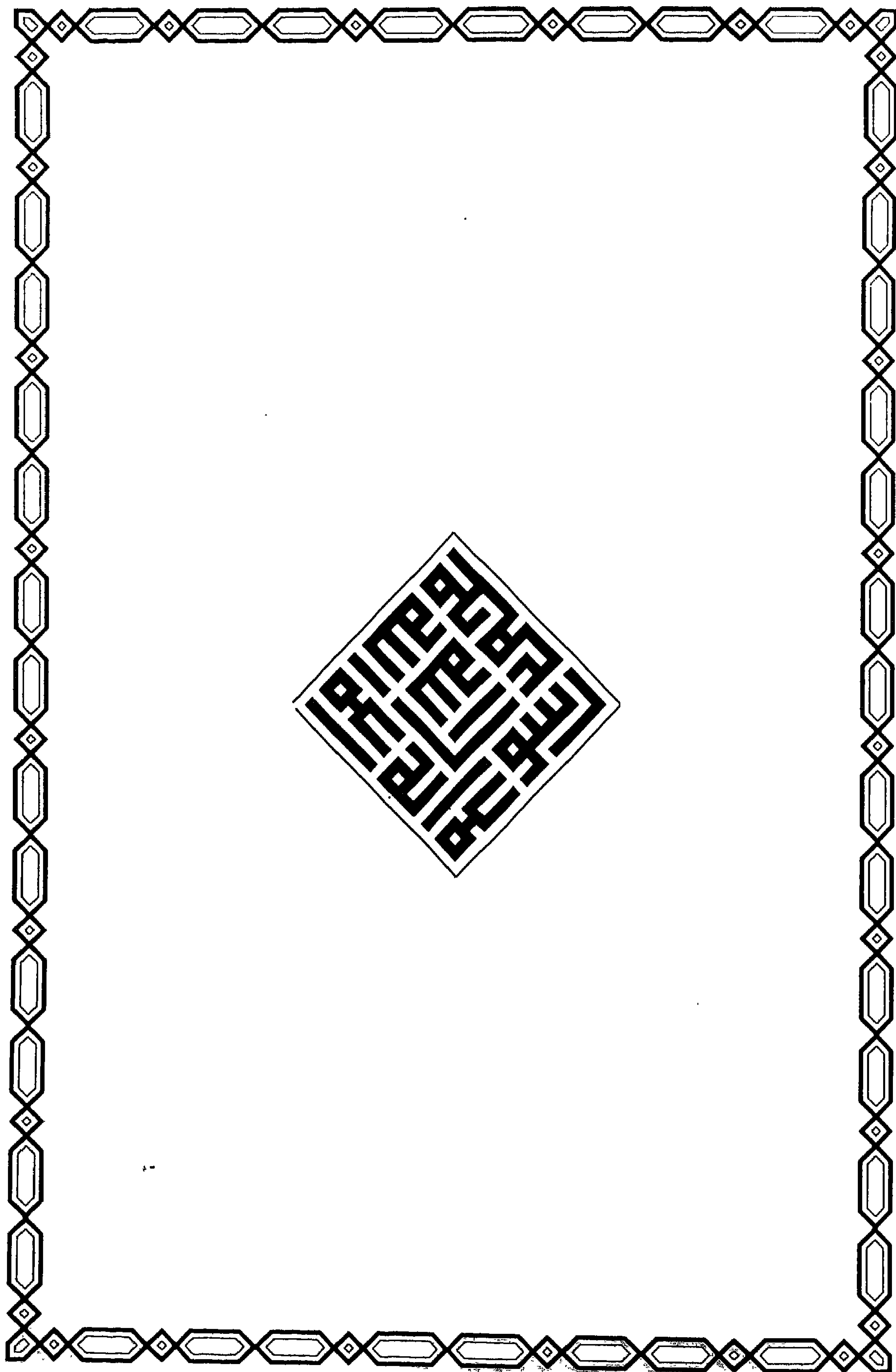
وتلك كلها معان وأحكام وردت فى كتب الحديث بروايات أدق من هذه ومن المستبعد أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب أول أيام النحر وثانيها وثالثها ، فهذه ليست خطبا ولكنها أحاديث قد تكون قد قيلت فى هذه المواقف أو فى غيرها .

* * *

وإلى هنا نقف بهذه الدراسة فقد أهمنا فى المكان الأول تحقيق عدد خطبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أثناء حجة الوداع ، وإحصاء كل المعانى الجليلة التى حرص ـ صلوات الله عليه ـ على أن يلقنها للمسلمين فى تلك المناسبة العظيمة الفريدة .

وبعد ، فقد آن أن أختم هذا البحث الذى أدرته على تحقيق أمر الخطب التى ألقاها نبينا ـ صلوات الله عليه ـ أثناء حجة الوداع أو حجة البلاغ أو حجة الإسلام ، وما تضمنته من

المعانى التاريخية والسياسية والاجتماعية المتعلقة بروح الجماعة الإسلامية وطبيعتها . وتركت ما تضمنته الخطب من أبواب الفقه لأربابه ، وقد ضمنت تضاعيف البحث مراجعى وذكرت بعضها فى الحواشى . والله سبحانه مستعان على كل خير ، وهو من وراء القصد والنية ، وبه ومنه التوفيق .



الوحى المحمدى

أنواع الوحى وآراء المستشرقين

الأستاذ الدكتور

عبد الجليل شلبى

الوحى فى اللغة : هو الإعلام فى خفاء ، ومنه الإشارة والإيماء والكتابة ، لأنها كلها بها شىء من الخفاء ، والإعلام بها ليس معلنا لكل الناس .

والوحى الإلهى من الله لأنبيائه .. سمى بذلك لأن الملك يسره عن الخلق ، أو هو بطبيعته خفى عنهم لأنهم لا قدرة لهم على الفهم من الملك .

وما جاء من وحى الله إلى غير الأنبياء فمعناه الإلهام أو الأمر ، من ذلك قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل » بمعنى ألهمها . ومنه : « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى » أما قوله تعالى : « يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها » .. فهو بمعنى الأمر ، وهو أمر تكوين كقوله سبحانه ، : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها » و : « قلنا يا نار كونى بردا وسلاما » .. ومنه : « وأوحى فى كل سماء أمرها » بمعنى بثه وكونه .

وجمعت الآية الكريمة : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » ، أنواع خطاب الله الثلاثة وحصرته فيها ، فمعنى « إلا وحيا » إلا إلهاما ، والكلام من وراء حجاب هو سماعه ووعيه من غير رؤية ، كما كلم الله موسى عليه السلام ، وكما قال للملائكة : « إنى جاعل فى الأرض خليفة ـ » . أما إرسال الرسول فهو جبريل عليه السلام . فقد كان يرسله الله بالوحى إلى الأنبياء ، وسمى الكلام الموحى به وحيا ،

فهو مصدر بمعنى المفعول ، والقرآن وحى لذلك ، والوحى المحمدى : هو كل ما أنزل الله تعالى على نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ . قرآنا أو غير قرآن .

وكان الوحى يأتى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على صور عديدة تبلغ ستة وأربعين نوعا[1] ، وقد جاءه جبريل كثيرا فى صورة رجل يحدثه ، أو يسمعه جلاّسه وأكثر ماكان فى صورة دحية الكلبى ، أو صورة رجل بدوى من الأعراب ، وأحيانا يأتيه مثل صلصلة الجرس . وأحيانا ينفث فى روحه ما يريد الله أن يوحى به اليه ، وليس كل وحى من الله إلى نبيه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ قرآنا فقد يكون حديثا قدسيا ليس له إعجاز القرآن ، وقد يكون إخبارا بحادث ، أو أمرا يصل من غير أن يذكر فى القرآن ، وإنما هو مجرد توجيه أو تعريف بشىء . وهذا كثير فى حياته ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

ويمتاز الوحى القرآنى بأنه معجز ، وأنه وقع به التحدى

وليس فى الإسلام وحى بمعنى الانكشاف (Revelation) ولا من المقبول فيه أن الله تعالى تراءى لنبى ما فى صورة ضباب أو نار أو نحو ذلك .

إمكان الوحى وصوره

هل الوحى بهذا المعنى مما يستسيغه العقل ويقبل جوازه ؟

الذين يتشبثون بالماديات لا يرون هذا الرأى ، وحتى بعض الذين يؤمنون بوجود الله ، يذهبون فى تفسير الديانات التى جاءبها كبار الأنبياء تفسيرات أخرى ، فهم يبحثون عن المصادر التى استقى منها كل نبى معلوماته ، ويتلمسون مصادرها فى تاريخ الأمم والجماعات التى اتصل بها .

فقالوا عن أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام إنه استقى معلوماته من بلاد الكلدانيين أولا ، ومن الأمم والقبائل التى لاقاها فى شمال الجزيرة العربية ومن المصريين ثانيا ،

وبعض يرى أنه هو الذى علّم المصريين حساب الفلك ورصد الكواكب ، وعلم المستقبل منها .

والكثيرون يرون أنه هو وإسماعيل وإسحق ليسوا إلا أسطورة لفقت لغرض سياسى وعلى هذا لا نبوة .. ولا وحى .. ولا وجود لهم[2] ..

---

(١) فتح البارى ١/١٨

(٢) Nieel Turner Lecture No 22. وعليه جرى صاحب « فى الشعر الجاهلى » .

أما موسى عليه السلام فقد أُنكر وجوده من كثيرين . ووصفه آخرون بأنه أمكر وأدهى قادة بنى إسرائيل ، وأنه تغيب عن أصحابه فى سيناء أياما ثم عاد ومعه ألواح مكتوبة زعم أنها وحى . وكان غرضه أن يجمع الفروع الشتيتة من بنى إسرائيل إلى أصل يربط فروعهم ويجمع شتاتهم ليشعروا بأنهم أمة واحدة ، وقد نجح فيما كان يرمى إليه ، وهذا الرأى يقبل وجود موسى وينكر الوحى .

ويأتى الوحى عند الإسرائيليين من بعد موسى بمعنى الإلهام أو انبثاق الفكرة فى ذهن النبى . فقد كان أنبياؤهم يدربون وينقطعون فوق المرتفعات حتى يصلحوا للنبوة وقد قابل شاءول زمرة الأنبياء نازلين من المرتفعة أمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون بما سيكون (١) .. فالنبوة لديهم شيء مكتسب . ولكنهم كانوا يختارون من يصلح لهذا التدريب ، ومن يكون من الأنبياء .. وكان الاختيار يرجع إلى المال والجاه ولذا استكثروا أن يكون شاءول (طالوت) من الأنبياء ، لأنه كان ابن رجل من بنيامين اسمه قيس فلما تنبأ مع الأنبياء قال الشعب الواحد لصاحبه ، ماذا صار لابن قيس ؟ أشاءول أيضا بين الأنبياء ؟ وكانت هذه الجملة مثلا لديهم ، لأن بنيامين أصغر العشائر .

وأنبياء بنى اسرائيل بعد موسى كانوا يعلمون التوراة ، ويشرحون نصوصها ، وليس لهم زيادات إلا ما ينقدح فى أذهانهم من معان فرعية ، وما يتنبأون به من أحداث نتيجة لمخالفة قومهم شريعة التوراة أو استقامتهم عليها . وكان انقطاعهم فى الفلوات للرياضة الروحية ، ويبدو أنهم كانوا يدرسون الفلك والرياضات ، وأنهم كانوا يستعينون بهذه الدراسة على التنبؤ بأحداث المستقبل . والنصوص الأثرية التى كتبت بها نبؤاتهم تدل على ذلك (٢) حتى كبار الأنبياء منذ إبراهيم ويعقوب كانوا يعنون بهذه الدراسة (٣) . وكان لقب النبى من هذا التنبؤ ، أى الإخبار بالغيبيات وشئون المستقبل ، وكان النبى يسمى أيضا الرائى لذلك .

ومن هذا نجد أن النبوة بعد موسى ـ عليه السلام ـ لم تكن وحيا من الله ، ولم يكن ثم ملاك يهبط على الأنبياء وهم أشبه لعلماء المسلمين المجتهدين كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل ..

وفى المسيحية يبرز الوحى بمعنى الانكشاف والرؤية أو التجلى Revelation ومع ما جاء فى الأناجيل من أن المسيح كان له إنجليه الذى أمر التلاميذ أن يبشروا به (٤) .. لا يقول

(١) صموئيل الأول ص ١٠
(٢) أبو الأنبياء ١٥٣
(٣) نفسه
(٤) مرقس ص ١٥/١٦

أتباعه إنه تلقى وحيا لأنه إله . ولكن الانكشاف لديهم هو ظهور المسيح لبعض أتباعه وإلقاؤه تعاليمه لهم . وقد بدأ هذا بظهور المسيح بعد صلبه وقيامه من قبره إذ تراءى أولا لمريم المجدلية ومريم الأخرى ، ثم ظهر لتلاميذه فى صور مختلفة فى الأناجيل فأوصاهم ثم ودعهم وارتفع الى السماء[1] وبعد ذلك ظل يظهر ويوصى ، فقد ظهر لبولس وهو فى طريقه إلى دمشق ليستاق بعضا من أتباع المسيح الى دمشق ، وبغتة أبرق حوله نور من السماء وسمع المسيح يناديه : لماذا تضطهدنى ، وكان هذا الصوت مسموعا أيضا للذين كانوا معه . وقد ظل ثلاثة أيام لا يبصر . وقصته هذه مشهورة معروفة ، ولم يقف ظهور المسيح عند حوارييه وبولس شاول بل ظل يتراءى للكثيرين ، منهم المسيحيون ومنهم الذين اهتدوا به إلى المسيحية . ولعل آخر ما حدث من ذلك ظهوره للقديس يوسف سمث مؤسس جماعة المورمون[2] بأمريكا .

وهناك نوع من الوحى شائع فى الكتاب المقدس بقسميه ، وهو الرؤيا المنامية ، وقد حدثت لإبراهيم عليه السلام غير مرة ، وهى أيضا شائعة فى العهد الجديد . كالتى رآها يوسف النجار خطيب مريم العذراء . وبها ثبتت لديه براءتها[3] وكالتى حدثت لحنانيا ، إذ أمره المسيح فى نومه أن يذهب إلى شاؤل (بولس) ويشفيه من عماه بعد أن أعشاه النور حين ظهر له المسيح[4] .

وأعجب أنواع الوحى رؤيا يوحنا اللاهوتى ، فقد سمع صوت المسيح وهو فى يقظته ورأى ملاءة مدلاة فيها حيوانات الأرض ، ونظر إلى السماء فرأى الله جالسا ومن حوله أربعون ملاكا . والمسيح فى صورة كبش مذبوح[5] وسمع محاورة الله والأربعين من حوله وثناءه على الكبش المذبوح وتقريره أنه هو المستحق وحده لأخذ المفتاح وفتح الصندوق المغلق ، وهذا انكشاف أو رؤيا .

هذه صور من أنواع الوحى فى الديانات الثلاث السماوية . فما رأى العلماء فيها ؟

تفسيرات للوحى :

يبدو أن الوحى من الله بواسطة الملك أقرب هذه الصور إلى العقل وأيسرها قبولا وقد أفاض المرحوم الشيخ محمد عبده فى شرح إمكانه من عدة أوجه ، ففرق أولا بينه وبين الإلهام الذى ينبثق فى النفس فتستيقنه على غير شعور منها بمصادره ولا بحث فى أدلته ، وهو أشبه بأنواع

---

(١) أنظر أعمال الرسل ص ٩/٤ ـ ٩
(٢) See Book of the White Prophet
(٣) متى ٢٠/١
(٤) أعمال الرسل ٩/١٠ ـ ١٨
(٥) انظر هذا السفر العجيب فى آخر العهد الجديد .

الوجدانات من الجوع والعطش والفرح والاكتئاب . وهذه الوجدانات التى أشار إليها يجد لها العلم الحديث الآن أسبابا باطنية . وقد تكون انعكاسا لمشاعر وأحداث مرت بالشخص من زمن بعيد ، واستقرت فى عقله الباطن ، ثم انبعثت لأسباب دعت إليها وأثارتها من غير أن يطفو الحادث ذاته فى العقل الظاهر الشعورى . فهذه ليست من الوحى فى شيء ويمكن أن تدخل فى الإيحاء Inspiration .

وساق الإمام من باب التمثيل والتقريب اختلاف الناس فى الذكاء والفطنة فيدرك الواحد منهم فى لمحة ما لا يدركه الآخر إلا بعد كد الذهن وطول التفكير ، وربما لا يدرك . ومرد ذلك إلى الفطرة التى فطره الله عليها ، وهو لا كسب له فيها وليس فى طاقته أو طاقة من يعنون به أن يزيدوا ذكاءه شيئا ، وكبار الهمم وذوو النفوس العالية يدركون الأشياء البعيدة المنال فيسعون إليها وهى خفية على من دونهم ، فينكرون بداية أعمالهم أو يسخرون منها ثم تفجؤهم خاتمتها فيضطرون إلى الإذعان لهم ، ثم لا ينكرون عليهم ما يكون من محاولات أخرى إلى شيء بعيد عنهم .

وإذا سلم هذا فى الحسيات فإن مما ينبغى أن يسلم به أن من الفطر البشرية ما يكون له من النقاء والصفاء ما يجعلها مستعدة للفيض الإلهى وأن تشهد من عالم الأرواح وتتلقى عن العليم الحكيم ما لا تطيقه الفطر الأخرى .

وهذا بطبيعة الحال يقتضى الإيمان بالملائكة ، وقد ذهب الشيخ يستدل على وجودهم بما أرشد إليه العلم من اشتمال الوجود على مواد لطيفة لا تدركها حواسنا وليس ثمت ما يمنع أن تكون هذه الكائنات الروحانية اللطيفة ناقلة لشيء من العلم الإلهى إلى من أعده الله تعالى وأمده بصفاء الفطرة لتلقى هذه المعلومات[1] ..

والواقع أن الأمر أيسر من ذلك . لولا أن الشيخ افترض نفسه يتحدث إلى من لا يؤمنون بالغيب . وقد أصبح من المسلم به الآن أن هنالك عوالم فوق هذه الكائنات المادية ويوجد الآن علم اشتهر هو علم الأرواح ، وتوجد بحوث كثيرة حول العالم الأثيرى ، وأصبح الإيمان بهذه الكائنات الخفية وآثارها فى الكون المحسوس أمرا مسلما به إلا عند القلة التى رانت المادة على مشاعرها وقلوبها . والإيمان بهذه العوالم يجعل الإيمان بالملائكة أمرا مقبولا ، بل إن الايمان بالملائكة أقرب ، ونحن آمنا بالله الخالق الواحد الأحد ، وهو لا تدركه الأبصار ، ولكن مخلوقاته تفصح عن وجوده .

---

(١) رسالة التوحيد ص ١١١ - ١٣ - طبع دار المعارف .

والإيمان بالله يقتضي الإيمان بكتابه وبكل ما جاء فيه . ويعود الأمر أخيرًا إلى ما اختص الله به هذا الكتاب الخالد من إعجاز ، وما تحدى به الناس ولا يزال يتحداهم فهو كتاب حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وما جاء من أدلة العلم الحديث بعد ذلك فهو أدلة زائدة ومؤيدة .

ونعود الى الرؤى التى تمثلت لبولس وأمثاله ومشاهدة المسيح عيانا ، وقد بنيت المسيحية على رؤيا بولس ، وبينما كان بعض الأحبار يمشى فى أحد أحياء لندن ـ (فى اولد جيت Old Gate) حى اليهود ـ ظهر له المسيح نهارا وخاطبه ، وعلى هذا الخطاب أنشأ فرقة مسيحية معروفة . وعندما كان قسطنطين يزحف على روما لمحاربة خصومه ـ رأى بعد غروب الشمس هالة من النور على شكل صليب ، ومكتوب عليها أو تحتها جملة (بهذا سننتصر) ثم رأى فى نومه المسيح ومعه الصليب نفسه ، وأمره باتخاذ الصليب شعارا وأن يزحف على عدوه به وقد انتصر فعلا واعترف بالمسيحية وأباحها فى دولته وأصدر بها مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م[١] .

وهذا الحادث لم يأت من قسطنطين وإنما جاء من أسقف قيصرية يوسيبوس Eusibus وكان معاصرا لقسطنطين . ومع أن قسطنطين أقر المسيحية وجعلها دين دولة لا يرى أكثر المؤرخين أنه دان بها ، بل يؤكد الكثيرون أنه مات على وثنيته ، وأنه أقرها لأسباب سياسية ، وإذن فرؤية هذا الصليب النورانى ورؤية المسيح لا هى موضع ثقة ولا هى مما يعد من الوحى .

وعن رؤيا بولس فسرها مؤرخو المسيحية بأنها من الخيالات والأوهام التى تتراءى لبعض الناس ، وهى انعكاس لخواطر وأوهام فى نفسه . وهى تتمثل بكثرة لسكان الصحارى والجائلين فيها . وقد تمثلت لماركو بولو فى رحلته ، وكان ذلك شائعا ومألوفا فى صحراء جوبى Gogi ـ التى جابها ماركوبولو[٢] . ومن الذين دونوا هذا الرأى وتمسكوا به دكتوانج Ing من ذوى المناصب المسيحية الكبيرة . وهو يعزو ذلك إلى حالة نفسية طرأت عليه بعد أن شاهد مصرع الشهيد ستيفن رميا بالحجارة[٣] والواقع أن هذه الظاهرة من السماع والرؤيا كانت معروفة بين أنبياء بنى إسرائيل . وكانوا يتوسلون إليها بوسائل مختلفة ، أحيانا بآلات الطرب كما رأينا مع الزمرة التى قابلها شاول ، وأحيانا يطلبونها بطول النسك والعبادة . وجاء فى كلام دانيال : (لم آكل طعاما شهيا ولم يدخل فى فمى لحم ولا خمر ، ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع ، وفى اليوم الرابع

---

(١) انظر أوربا العصر الوسيط ٤٠/١ للدكتور سعيد عاشور ط . م الانجلو

(٢) See "Outline of Modern Belief" p. 320

(٣) IBID

والعشرين من الشهر الأول ... رفعت عيني ونظرت فإذا برجل لابس كتانا وحقواه منتطقان بذهب أو فاز . وجسمه كالزبرجد ووجهه كمنظر البرق ، وعيناه كمصباحي نار ، وذراعاه ورجلاه كعين النحاس المصقول وصوت كلامه كصوت جمهور ، فرأيت ـ أنا دانيال ـ الرؤيا وحدى والرجال الذين كانوا معى لم يروا الرؤيا لكن وقع عليهم ارتعاد عظيم فهربوا) .[1] وفى هذه الرؤيا وصف للملاك ، وقد صور فى صورة إنسان وإن كانت أعضاءوة تختلف فى مظهرها ولا تصعب تفسير هذه الرؤيا على نحو ما فسرت به الرؤى السابقة . ولا تزال أمثال هذه التهاويل تتراءى للرهبان والعباد الذين ينقطعون فى الفلوات أو يتعبدون منفردين فى الظلمات . وكثيرا ما تكون نتيجة إجهاد عصبى أو اضطراب نفسى[2] .

لا رؤيا ولا تجسيم :

حصر القرآن صور الوحى فى أنواع ثلاثة جاءت فى قوله تعالى : (وماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء) . والمراد بالوحى ما يلقى فى القلب من الأفكار يقظة أو مناما ، وهو أعلى من الإلهام وأعم ، فان إيحاء الله إلى أم موسى كان إلهاما ، وهو لا يستدعى صورة كلام لفظى ، ووحى الله لإ براهيم أن يذبح ابنه كان فى المنام ولكنه كان أقوى إذ كان أمرا إلهيًا ولم يكن مجرد فكرة ، وهذا معروف فى اللغة العربية ومنه قول عبيد بن الأبرص :

وأوحى إلىَّ الله أن قد تآمروا بِإبْلِ أبى أوفى فقمت على رجلى[3]

فهذا النوع إذن يشمل عديدًا من الصور .

والنوع الثانى هو الكلام من وراء حجاب ، كما كلم الله موسى عليه السلام ولم يره . فلما طلب رؤيته قال : (لن ترانى) وكذلك قال سبحانه للملائكة : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) . وكلم رسوله محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى معراجه[4] ـ واختلف المتكلمون فى رؤيته .

ونحن أميل إلى رأى السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ إذ أنكرت حدوث الرؤية وحين قيل لها

---

(١) دانيال ص ١٠/ ٢ ـ ١٤

(٢) فى سنة ١٩٧١ . أمسك رجال البوليس البريطانى برجل من نيجيريا يمشى فى الشارع عاريا . وقال إنه أثناء عبادته وسهره ليلا سمع صوتا يأمره بالتجرد من ثيابه أثناء عبادته . ثم تراءى له طيفه الجميل وأمره أن يمشى فى الشارع عاريا . وهو لا يريد مخالفته .

(٣) يقول : ألقى فى روعى أنهم تآمروا على هذه الإبل .

(٤) غنى عن الشرح انه كان كلاما بلا صوت . والله أعلم كيف كان .

إنه رآه .. قالت : لقد قَفَّ شعرى مما ذكرت ، من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .

والنوع الثالث : ماكان بإرسال الملاك جبريل عليه السلام إلى أنبياء الله ، وله صور عديدة أيسرها أنه كان يأتى فى صورة بشرية فيسمعه رسول الله ويسمعه ويراه من معه أما السماع منه فى صورته الملكية فكان شاقا جدا ، لما فيه من فهم بشر عن ملك روحانى وقد كان يأتيه فى الليلة الباردة فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا .

وفى النوعين الثانى والثالث يختلف الوحى المحمدى عن الوحى فى العهدين القديم والجديد ، وقد ذكرنا صورا منه . ومن الصور الشائعة هناك تكليم الله الأنبياء ولم تذكر الكيفية التى كلمهم بها ، كما كان يظهر لهم أيضا ، ففى سفر التكوين : وقال الرب لإبرام : اذهب من أرضك الى الأرض التى أريك [١] ، وظهر الرب لإ برام وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض [٢] وقال الرب لإ برام ـ بعد اعتزال لوط عنه : ارفع عينيك وانظر من الموضع التى أنت فيه .. [٣] ، وحدث هذا لموسى أيضا كثيرا ، فقد ناداه الله من وسط العليقة ، وقال : موسى . موسى . فقال هأنذا ، فقال : لا تقترب ... اخلع حذاءك [٤] .

وهو حوار طويل . ومتكرر [٥] ..

ومن الصور المألوفة هناك أيضا أن يتراءى الله فى صورة ظلة من الغمام تغشى المكان ، وهى بقية من الوثنية التى تجنح الى تجسيم الإله ، ففى سفر التكوين إن الله وعد إبراهيم أن يعطيه النسل والأرض . وطلب إبراهيم علامة ذلك من الله ، فقال : خذ لى عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية ، وكبشا ثلاثيا ، ويمامة وحمامة ، فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه . وأما الطير فلم يشقه ، .. ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على إبرام سبات وإذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه .. ثم غابت الشمس فصارت العتمة ، وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع ، فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا .. [٦] الخ .

وتفسير ذلك أن العادة الجارية فى ذلك الوقت أن الشخصين كانا إذا أبرما عهدا وأرادا توثيقه . أتيا بذبيحة فشقت نصفين وجعل كل نصف فى جانب ، ثم يمر المتعاهدان أو الذى يريد

---

(١) تكوين ص ١٢/ ١
(٢) نفسه ٧
(٣) نفسه ص ١٣/ ١٤
(٤) خروج ٣/ ٥
(٥) انظر : ص ٤ خروج كله وما بعده
(٦) تكوين ١٥/٨ ـ ١٨

توثيق العهد على نفسه بين شق الذبيحة . وقد جيء هنا بثلاث ذبائح شقت كل واحدة نصفين . أما الحمام واليمام فليس قابلا للشق لصغره فجعلت كل واحدة فى جانب ، وقد تراءى الله فى صورة تنور دخان ومصباح نار وجاز بين قطع الذبائح وبذا تم قطع الميثاق مع إبراهيم .

وحدث مثل هذا مع موسى أو ما هو أكثر منه فى الرؤية والعهد . ففى سيناء صعد موسى إلى الجبل . وكلمه الله ووعده ، وقال الله له : اصعد إلى الرب أنت وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل واسجدوا من بعيد ، ويقترب موسى وحده إلى الرب وهم لا يقتربون (١) ..

وإذ قبل الشعب وصايا الرب وآمن بوعده ذبح موسى ذبائح من الثيران . ورش من الدم على المذبح . ورش على الشعب توثيقا للعهد . ثم صعد هذا الجمع ، ورأوا إله إسرائيل ، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف .. ولكنه لم يمد يده الى أشراف بنى إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا .. (٢) .

صعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل . وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام . وفى اليوم السابع دُعى موسى من وسط السحاب . وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل (٣) .

وإذن فقد رؤى الله سبحانه وتعالى ـ جهرة وله رجلان كبنى آدم وكل ما تميز به أن تحت قدميه صنعة ثمينة لا يوجد مثلها عند البشر . وهذا يقتضى أن ميزته فقط فى الثراء وغلاء الأدوات التى يستغلها . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وحديث موسى مذكور فى القرآن الكريم بصورة تناسب جلال الله تعالى وألوهيته وتنزهه عن صفات البشر . ولم يره موسى وإن كان قد طلب ذلك . ولكن جاء أن الله كلمه تكليما .

وتراءى الله تعالى لموسى ولبنى إسرائيل جميعا فى صورة عمود من السحاب أو النار فجاء فى سفر الخروج عن خروج موسى بقومه من مصر هاربين من فرعون . وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق . وليلا فى عمود نار يضىء لهم ، لم يبرح عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا (٤) ..

---

(١) خروج ٣٤/ ١ ـ ٢

(٢) نفسه ١١

(٣) نفسه ١٥ ـ ١٨

(٤) ص ٢١/١٣

وعندما اتجه الإسرائيليون إلى البحر وفرعون وجنوده يقتفونهم انتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم[1] ..

وهكذا نجد صور التجسيد رمزية وغير رمزية تشيع فى الديانتين ..

والقصة التى جاءت عن إبراهيم جاءت بصورة أخرى فى القرآن قوامها أنه عليه السلام طلب أن يريه الله كيف يحى الموتى . فأمر الله أن يذبح أربعة من الطير يوزعهن على الجبال ثم يدعوهن فيأتين أحياء : (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى ، قال أولم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئنّ قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ[2] إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا . ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم)[3] .

وبهذا يتضح أن الوحى المحمدى بكل صوره بعيد كل البعد عن صور التجسيم وهو شاهد على ما هناك من تحريف ، وجنوح إلى الوثنية . وذلك مصداق قول الله تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه) . ومن هيمنته أنه يبين ما فى هذه الكتب من انحراف ، وما دس فيها من خيال الرواة .

الوحى المحمدى فى نظر المستشرقين :

لا ستطلاع رأى المستشرقين فى الوحى المحمدى يجب أن نرجع إلى بداية الصلة الثقافية بين الشرق والغرب ، أو ما يمكن أن نسميه بداية الاستشراق ، وهى بداية دراسة الغربيين لغات الشرقيين وظروفهم العامة ، وهذه الدراسة بدأت فى أسبانيا العربية لغرض التبشير وغزو الإسلام ، ولكنها لم تستمر بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين سنة ١٤٩٢ م ولكن فى القرن السادس عشر جاءت حركة توحيد الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية ، واهتمت روما بالدراسات السامية عامة لهذا الغرض ، وكانت الحركة الإنسانية معاصرة لهذا النشاط وهى معنية بالثقافة العامة لبنى الإنسان فكانت الدراسات الإسلامية أهم هذه الدراسات ، وبرز رجال ذوو تأثير فى إثراء الفكر الأوربى بثقافة شرقية ، وهم رواد الاستشراق نضع على رأسهم العالم الفرنسى وليام بوستيل وتلميذه جوزيف إسكاليجر وهو عالم مبشر أغراه درس الثقافة الشرقية بالتحول إلى الاستشراق ثم تبعها آخرون .

هذه الدراسات بوجه عام كانت مشبعة بخلفية ليس من السهل أن نغضى عنها فخلال

---

(١) ١٤/١٩

(٢) ضمهن إليك وتأملهن

(٣) سورة البقرة ٢٦٠

الحروب الصليبية كان طعن الإسلام واختلاق العيوب لنبيه أحد الأسلحة التى يحارب بها المسلمين ، وكان يرضى عامة الشعوب الأوربية أن تسمع شتائم النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن يروا صورا مزرية للإسلام والشعوب الإسلامية ، واهتم الكتاب بإرضاء هذه الرغبة فوصموا نبى الإسلام بأنه ساحر وخداع وأنه شهوانى وأنه عدو المسيحية ـ هدم كنائسها فى الشرق ، ومن العجيب أنهم انقادوا لهذا الخيال دون اطلاع أو دراسة حتى أقر الكاتب الفرنسى جيلبرت دى نوجننت Guilbert de Nogent أنه يكتب عن الإسلام ونبيه دون الرجوع إلى مصادر مكتوبة ، وأنه يكتفى بما يشيع بين العوام من غير اتخاذ ميزان نقدى يميز الصحيح من الباطل ، ولكن يسوغ ذلك لديه أنه لا بأس على الكاتب ، أن يصف بالسوء من يفوق خبثه كل سوء [١] .. وأُخرجت على هذا الأساس ملاحم وروايات تصف المسلمين أنهم عباد أوثان وأن محمدًا هو الوثن الأكبر لديهم ، وحتى اسم محمد ـ لم يكن معروفا لديهم بدقة فكتبوه بعدة رسوم [٢] .. وتخيلوه فى صور غريبة لا أصل لها .

وبعد الحروب الصليبية جاءت حروب الأتراك العثمانيين التى أزعجت أوربا كلها وقد قضت على الكنيسة الشرقية ـ فى القسطنطينية نهائيا ولم تنج الكنيسة الغربية إلا بمعونة القدر ، وكان الخليفة العثمانى قد أقسم ليطعمن جواده علفه على مذبحها وكان قادرا على البر بقسمه ولكن منيته عاجلته .

هذه بوجه عام عوامل بث فى روع الأوربيين كراهة وحقدًا ورسمت فى أذهانهم عن الإسلام صورة كريهة مشوهة .

وبدأت صورة الإسلام والمسلمين تتضح قليلا قليلا منذ القرن السابع عشر وعند ظهور النزعة العقلية بدأ كتاب الغرب فى موقف الحائر بين عقله ودينه . فقد كان الاتجاه العقلى يكشف لهم الكثير من مزايا الإسلام ، ويظهر أخطاءهم السابقة . لكنهم ألفوا أن يخضعوا لنصوص الكتاب المقدس وأن يجعلوه حكما فى دراستهم ، وقد كان ريتشارد سيموند .. المستشرق الفرنسى من السابقين إلى الدفاع عن الإسلام وإنصافه من تحامل كتاب العصور الوسطى فأخرج سنة ١٦٨٤ م كتاب التاريخ النقدى لعقائد وعادات الشرقيين فتحدث أولا عن المسيحيين ، ثم عرض عادات

---

(١) انظر تراث الإسلام ١/ ٣٤ عالم المعرفة .

(٢) انظر تاريخ الحضارة الإسلامية لخودا بخش ص ٢٥ وما بعدها .

وطقوس المسلمين ، فأبدى تقديرا وإعجابا لبعض ما عرض . لكنه تعرض للوم من بعض أقرانه على هذه الموضوعية [1] .

وفى القرن الثامن عشر بدأت دراسة أصرح ، وموازنات بين أعمال المسلمين وأعمال المسيحيين خصوصا فى أسبانيا ، فبدت نصاعة الإسلام وسمو تعاليمه ، ثم تتابعت دراسة الإسلام ومحاولات فهم القرآن الكريم بطريقة أدنى إلى الموضوعية وأقرب إلى الدقة ولكن لم يستطع الكتاب إلا قليلا جدًا أن يتخلصوا من رواسب الماضى .

وكان المحامى الإنجليزى ـ جورج سيل George Sale من السابقين إلى ترجمة القرآن الى لغته ونشر ترجمته سنة ١٧٣٤ مع مقدمة ضافية لم يفته فيها أن يذكر أن النبى محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان تلميذًا للكتاب المقدس استقى منه ما جاء فى القرآن من قصص وتدل كتابته على سعة اطلاع دينى واستشراق ، وقد اتخذت ترجمته وتعليقاته نبراسًا للذين جاءوا بعده ، والترجمات القرآنية تشغل بحثا خاصا .

وبمراجعة حركة الاستشراق والحديث عن فكرة المستشرقين عن الإسلام ، نجد أن الفكرة التى رسختها الدراسات السابقة عن الشرقيين تمثل صخرة عاتية ليس من السهل أن تكسر ، وأن الذين أبرزوا محاسن الإسلام كانوا يبرزونها على حذر ، وبدأ الجرآء منهم مترددين إزاء اعتبارات غير فكرية ، فالفيلسوف الفرنسى فولتير ـ الذى لم يكن يدين بأى دين ـ أبدى إعجابه بالحضارة الإسلامية وبسياسة النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى تتسم بالإنسانية والحكمة ، وبجانب ذلك رأى أن الكنيسة والأديرة لم تمد الفكر الإنسانى بشىء ، وظل يسخر من رجال الدين المسيحى حتى من القسيس الذى حضر موته . ولكنه كان يرى من الحتم استغلال العاطفة الدينية التى يدين بها الشعب الفرنسى لصالح وطنه وكان التيار الفكرى عن محمد أنه من المدعين السحرة الذين اتخذوا من الأساطير الدينية وسيلة ناجحة لخديعة الشعوب ، وكان من المنتظر من هذا الفيلسوف الذى لم يعبأ بطقوس المسيحية أن ينصف محمدًا فى كونه ذا عقل وحكمة وإن لم يؤمن به نبيًا ، ولكنه كشف عن شىء من عظمته .

ومما يوضح هذه النزعة المترددة الحائرة أنه ظهر فى هذا الوقت ـ ١٧٢٠ م ـ كتيب لم يجرؤ مؤلفه أن يذكر اسمه وجعل عنوانه « محمد ليس محتالا »(Mohamed is no Imposter) [2] ولا ريب أن ما جعله يخفى اسمه هو خوفه من معارضى رأيه .

---

(١) تراث الإسلام ١/ ٦٤ وما بعدها

(٢) نفسه : ٦٦

وقد تعرض المستشرق الألمانى رايسكه J.J. Reiske لهذه المعارضة ، فقد كشفت له دراسته الاستشراقية العميقة عن جوانب من عظمة النبى محمد وبهاء الإسلام ، وأنه يحوى جوانب إلهية . فلما أعلن آراءه ثار عليه بعض معاصريه وجاهروه بالعداء والنقد مستغلين عواطف الجماهير التى تكره كل شىء شرقى .

وكان إدورد جيبون (١٧٩٤) من أكثر الكتاب تأثيرا فى تكوين صورة صحيحة للشرق حين أخرج كتابه اضمحلال وسقوط روما « "The Decline and Fall of Rome" » وفيه قرر أن الحضارة تأخرت ثمانية قرون بخروج العرب من إسبانيا وجيبون كان مدرس التاريخ الوسيط فى جامعة أوكسفورد ، وأراد أن يرى رومة فى عصر النهضة وأن يوازن بينها وبين روما الأباطرة ، وفى معبد قديم لجيوبتر تحول إلى كنيسة أصغى إلى تراتيل الرهبان ورأى منظرهم فى رثاثة الملابس ، وعرى الأقدام ، فرأى أن المسيحية لم تقدم شيئا للحضارة ، وتمنى لو ظلت أوربا وثنية ولم تدخل المسيحية ، إذن لكان من السهل أن تدين بالإسلام وأن تبقى على حضارته . ولو أنها كانت كذلك لتقدم وجود الجامعات فى انجلترا وفرنسا مائتى عام ولم يكن جيبون مسلما ولا اعترف بمحمد نبيا ولكنه جرؤ على إنصاف المسلمين ، وحضارة المسلمين منبعها القرآن . ويعتبر جيبون بكتابه هذا نقطة تحول فى تطور الفكر الأوربى إزاء الإسلام .

وتوالت الكتب بعد ذلك بعنوان « حياة محمد » ثم كتب أخرى عن تاريخ الإسلام وحضارته . ومراجعة هذه الكتب تبدى تطورًا واسعًا فى آراء الغربيين وحكمهم على نبى الإسلام . ففى عام ١٧٣٠ أخرج المستشرق الفرنسى هنرى دى بولينيفيه أول كتاب بعنوان حياة محمد « "Vie de Mohamed" » وفيه نفى عنه فرية السحر والدجل ووصفه بالعقلانية ومهما يكن من شأن هذا الدفاع أو قلته فإنه يعتبر خطوة واسعة بجانب ماكان يشاع عن نبى الإسلام من خرافات ، فقد جاء عنه أنه كان سكيرا ، وأنه وعد قومه أنه يرجع إليهم بعد ثلاثة أيام من وفاته . ولذا تركوه بدون دفن حتى تعفن جسمه وأكلته الخنازير ، وهذا سبب تحريم المسلمين لحوم الخنازير[١] .

وأخرج المستشرق الألمانى وليم موير حياة محمد ومع تحامله الكثير على الإسلام ونبيه ـ نفى عنه فرية الصرع ، فقد كان الذين قبله يقولون إن محمدًا ينتابه الصرع عندما يأتيه الوحى . وهو لذلك ليس وحيًا ، وإنما هو أوهام ، وقد كان دحض هذه الفرية هينًا جدًا وواضحًا ، لأن المصروع

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ـ خودا بخش

عندما يفيق من صرعه لا يذكر شيئًا أصلا مما حدث له ، وقد جاء بعد موير مستشرقون آخرون منهم مونتوجومرى وات ـ زادوا هذه المسألة وضوحًا بأن المصروع لا يأتى بمثل هذا التشريع الدقيق ، والأحكام والحكم التى جاءت فى القرآن الكريم ، وقد كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يفصم عنه الوحى يتلو على أصحابه آى القرآن فى ثبات واطمئنان وفيها تفصيل لأحكام الميراث والزواج والديون واللفت الى بديع ما أنشأ الله فى السموات والأرض .. كل ذلك فى أسلوبه الرائع البليغ ، ومثل هذا لا يصدر عن مصروع .

وراجت مرة عن المستشرقين فكرة مؤداها أن الإسلام دين صحراوى يتسم بعادات البدو وتقاليدهم من الحفاظ البالغ على المرأة والحرص على الأخذ بالثأر ، وجعلوا تشريع القصاص من هذه العادات ، وهم فى هذا مغالطون ، والقصاص والحدود مذكورة فى التوراة ويعارض الآن مونتوجومرى وات ـ المستشرق الاسكتلاندى ـ هذه الفكرة فيذكر أن مكة كانت بلدًا حضاريا وأنها لم تكن تخضع لعادات الصحراء .

مصادر القرآن فى رأيهم :

قلما أغفل مستشرق ذكر الديانتين ـ اليهودية والنصرانية ـ وأنهما الينبوع الذى استقى منه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصول الديانة الإسلامية وفروعها ، وقد جرى على هذا الدكتور ـ جب ـ المستشرق الإنجليزى فى كتابه « المحمدية[1] » « Muhamadism » .

الذى اعتبر فى نظر الكثيرين من المستشرقين تمجيدا للإسلام . وهو لم ينصف الوحى الإسلامى أى إنصاف . وقد أكد هذه الفكرة المستشرق الكبير الفريد جيوم بلند فى غير موضع من كتاباته ، وكنا نسمع من عارفيه « فى المدرسة الشرقية » بلندن أنه أخرج كتابه « الإسلام » معارضة وردًا لكتاب جب . وفى هذا الكتاب يفترض مبدئيا أن محمدًا كان على صلة بهم ثم ينتهى إلى تأكيد هذا الافتراض . يقول إنه من الطبيعى أن نفترض ذلك لأنه أثناء حيرته فى بحثه عن الله ، وعدم وجود معين من الوثنيين فى مكة كان لابد أن يتجه إلى اليهود والنصارى ، ولما أعلن نبوته اتجه إليهم أيضا ليعاونوه لأنهم ذوو دين توحيدى وهو فى قبيلة وثنية ، يدل على ذلك أن دعوته العربية الخالصة أخذت تمتزج تدريجيا بذكر الأنبياء المذكورين فى العهد القديم ثم أخيرًا ذكر عيسى ورسله ، وهذا ينتهى بنا إلى نقطة هامة . فماذا عسى أن يثير انتباه المكيين إلى

---

(١) اعتذر عن هذه التسمية . وقال إن المسلمين لا يقبلونها لأن محمدا ليس إلها . وهو لا يعنى ذلك أيضا . ولكن التسمية أصبحت دارجة ومألوفة . وهى تعنى الديانة المحمدية فقط .

صحف إبراهيم وموسى ، وماذا كانت معلوماتهم عن نوح وسفينته أو عن فرعون وموسى ؟ ، أو عن الملائكة التى تبشر إبراهيم بالولد بعد أن بلغه الكبر وامرأته عاقر ؟ كل هذا مع الإشارات الكثيرة إلى قصص العهد القديم تجعلنا نؤمن بوجود مستمعين يهود ومجتمعًا يعرف هذه القصص .

وقبل أن نستمر مع جيوم فى سرد أدلته نذكر أن إبراهيم عليه السلام ـ كان معروفا لدى العرب ، وأن بعض قصص العهد القديم جاءت فى شعر أمية بن أبي الصلت وأن الحنفاء كانوا يتعبدون على ملة إبراهيم .

ويذكر جيوم بعد ذلك أن دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظلت تنمو بما تقتبس من العهد القديم حتى نزلت سورة يوسف فدلت على أنه لا يقف عند سفر التكوين .

وأثناء إقامته فى المدينة واجه معارضة من اليهود هددت مكانته ، وقد استهانوا به وأبوا أن يجيبوا أسئلته . ولكنه خلال هذه المدة تعلم أن إبراهيم كان أسبق من موسى وعيسى ، وأنه كان أبًا لإسماعيل وأنه لذلك جد العرب ، وأنه هو وإسماعيل بنيا الكعبة ، وأن إبراهيم كان مسلما . وبهذا الإعلان بدت الصفات البدائية للإسلام . ولكن لا توجد أدلة تاريخية تدل على أن إبراهيم وإسماعيل كانا بمكة أصلا ، فإذا افترضنا أن هناك رواية من هذا النوع فإن البحث اللغوى يعارضها لأن اسم إسماعيل فى صورته العربية الحقيقية كان مبدوءًا بالياء وليس بالمهمزة فنحن إذن بحاجة إلى شرح يبين كيف فقدت الذاكرة السامية هذا الأصل من كل الذين عرفوا الاسم الأصلى ، وإذن فالصورة التى فى القرآن قد تكون مأخوذة من مصدر يونانى أو سريانى . وأسماء إسرائيل وإسحق ويونس وإلياس (اللذين أصلهما جوناه وأليجاه) أمثلة أخرى لهذا النقل ، وإذا كانت هذه الأسماء مألوفة لسامعيها من محمد ، فليس ذلك راجعا إلى أنهم سمعوها فى لغة إغريقية أو آرامية ، وإذن فاتهامهم إياه إذ يتلو عليهم القرآن بأنه أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وعشيًا تهمة لها ما يبررها من الناحية اللغوية ، هذا عدا الأساطير التلمودية كقصة الشيطان وإبائه أن يسجد لآدم .

هذا هو المصدر الأجنبى الذى سمى قرآنًا عربيًا ، والقارئ العادى لا يتنبه لهذه الفوارق اللغوية . ونجد فى القرآن كلمات كثيرة لا تفسر فى اللغة العربية إلا بالرجوع إلى أصولها فى اللغات الأخرى ، وهذه نقطة ذات أهمية لأن القرآن أعلن أنه بلسان عربى مبين والكلمات الكثيرة غير المفهومة للمفسر الآن كانت مفهومة لمستمعيه ، لأن الكثيرين منهم كانوا على صلة باليهود والنصارى أثناء رحلاتهم فى الجهات العديدة واستفادوا منهم ما وسعوا به لغتهم .

هذه الإطالة المسرفة للاستدلال على أن محمدًا تعلم من الكتابيين لا تأتى بشىء وجيوم باحث استشراقى ـ يعلم ولا ريب أن العرب كانوا يعرفون إبراهيم وإسماعيل ، وعندما فتح المسلمون مكة كان على جدار الكعبة صورة لإبراهيم وبيده الأزلام . وحيث قرر هو أن اللغة العربية تغذت بكلمات أجنبية وأن القرآن استعملها أو استعمل شيئًا منها ففهم ما استعمله ولم ينكر منه شىء ، فهو قرآن عربى بدون أية شبهة ، ودخول كلمات أجنبية فى اللغة العربية لا ينافى أنها عربية ، واللغة الإنجليزية مليئة بالكلمات الإغريقية واللاتينية ولا تزال تأخذ من اللغات الأخرى ، واللغة العربية ذات مرونة وقابلية للنمو . وقد هضمت كلمات أجنبية كثيرة وصبغتها بصبغتها العربية فأصبحت كلمات عربية وزنًا ومعنى ، فهذا لا يعارض أن القرآن عربى مبين معجز . وأسماء الأعلام عادة تختلف فى اللغات فتكسوها كل لغة صبغتها والشىء العجيب فيما مر أن قصص هؤلاء الأنبياء التى يزعم أن محمدًا استقاها من يهود المدينة ـ جاءت فى السور المكية ، وسورة مريم التى ذكرت حمل المسيح وميلاده مكية . وقد ذكرها مهاجرو المسلمين إلى الحبشة أمام النجاشى ، وأعيدت فى سورة آل عمران . وإذن .. فافتراضه كله واهٍ لا يجد أساسًا يقوم عليه .

وقد ترك جيوم أثرًا فى المستشرقين الآخرين فحاكوه فى كثير مما اتهم به محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو قد استبعد أن يكون محمد ظل أميًا بل لابد أن يكون قد تعلم القراءة والكتابة لأنه تاجر لابد أن يدون حساباته ، وبهذه القراءة استطاع أن يقرأ الكتب اليهودية والمسيحية ..

وهذا استنتاج آخر يعارضه الواقع ، وقد قرأ جيوم ـ ولا ريب ـ معاهدة الحديبية التى أصر فيها سهيل بن عمرو على محو كلمة رسول الله ، وقال على بن أبى طالب كاتب المعاهدة : إنى يعز علىَّ يا رسول الله أن أمحو اسمك ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضع أصبعى عليها وأنا أمحوها ، فهو حتى قبل موته بأربعة أعوام لا يعرف أين اسمه أو صفته ، فمتى إذن تعلم القراءة حتى قرأ كتب الآخرين ؟ وقد جرى المستشرق الاسكوتلاندى ـ مونتوجومرى وات ـ فى الميدان الذى جرى فيه جيوم ، فهو يقول : [1] إن إمكانية قراءة محمد الكتاب المقدس قد تلقى معارضة ، لأن المسلمين يصرون على أنه كان أميًا . ولكن الباحثين المحدثين من رجال الغرب يشكون فى ذلك ، ويرون أن هذا الادعاء إنما يراد به إبراز معجزة النبى ، لأن هذا القرآن لا يمكن صدوره عن أمين غيره ، فهو معجزة له . ولكن على العكس من ذلك كان يوجد بمكة كثيرون ممن يقرءون ويكتبون ، وهذا يسوغ افتراض أن تاجرًا ذا تأثير ومكانة ـ مثل محمد لا يمكن أن يفوته هذا

(1) Mohamed is a Prophet and Statesman

الفن ، وحيث ان الصورة القرآنية تنبئ أن محمدًا لم يكن قرأ الكتاب المقدس وأيضًا لم يقرأ الكتب الأخرى ، فهذه المعلومات إذن جاءته سماعا . وهنا يبرز عدد من الإمكانات. فقد يكون قابل بعض الكتابيين وتكلم معهم عن المسائل الدينية ، وكان المسيحيون على تخوم الجزيرة كما كان الأحباش باليمن ولعل بعضًا من هؤلاء أن يكون قد جاء مكة للتجارة ، وربما كان بعض القبائل أو العشائر الرحل الذين وصلوا مكة كانوا مسيحيين أو يهودًا . وكان يوجد يهود فى المدينة ، وفى جهات أخرى . وبهذا تبدو الفرص متوفرة لمقابلة محمد للكتابيين وأخذه منهم مسائل الدين . وفضلا عن ذلك هو كان يعرف ورقة بن نوفل ابن عم خديجة .

ومن الممكن أيضا أن يكون بعد إعلانه نبوته ، وأنه يدعو بدعوة الأنبياء السابقين دعوة موسى وعيسى ، أراد أن يغتنم الفرصة من مقابلة هؤلاء ليزيد معلوماته عن الديانتين اللتين جاء مصدقا لهما . وانتهى « وات » أخيرًا إلى أن الإسلام نبع من الكتاب المقدس بطريقة ما غير قراءته .

هكذا نجد مستشرقا كبيرًا يبنى فكرته على عدد من الاحتمالات لا يجد دليلا على وجود أى منها ، وهو فى كتابه .. محمد فى مكة .. يقول : إن مكة كانت تعج بالمحاضرات وكانت أسواقها لا تقتصر على الأعمال التجارية ، إذ كانت بلدًا متحضرًا ـ ولعله لذلك نفى أن يكون الإسلام صورة صحراوية .

وفى هذا الكتاب الأخير يقول إن محمدًا كان يقرأ التوراة فتزداد معلوماته تدريجيًا ولهذا عندما ذكر لوطا وقومه ظن أن المرأة التى خالفته كانت أجنبية عنه فقال عنها : « إلا عجوزًا فى الغابرين » ـ ثم عرف أنها امرأته فقال « إلا امرأته كانت من الغابرين » .

ولو رجع إلى ترتيب نزول السور فى أصح ما جاء فى نزولها لوجد أن السور التى ذكرت أنها امرأته ، وهى سور الأعراف والحجر والنمل والعنكبوت نزلت قبل سورتى الشعراء والصافات . فاستنتاجه أيضا غير صحيح . والاستنتاج العلمى على أى حال لا يبنى على مجرد الافتراض والاحتمال .

هذان مستشرقان كبيران ، وفى المقدمة التى كتبها . ج . مارجوليوس ـ للترجمة القرآنية التى أخرجها رودول J.M. Rodwell ذكر لهذه الفكرة ، وكذلك فعل مكسيم رودنسون فى كتابه « محمد » .

وليس القرآن مجرد أقاصيص توراوية أو إنجيلية أو تلمودية .. ففيه قصص عاد وثمود

وأصحاب الرس وأصحاب الأيكة وقوم تبع .. ولا شىء منها فى المصادر اليهودية أو المسيحية وجاء ذكر شعيب « يثرون » حمى موسى عرضًا ، أو تكملة لقصة موسى . ولم يذكر شىء عن رسالته سوى أنه كاهن تعلم منه موسى . وفى القرآن عظات وأمثال وتشريع ووصف لملكوت السموات والأرض ، ومظاهر الطبيعة الدالة على عظمة الله ووجوده .. لا نجد شيئًا منها فى هذه المصادر ، وفضلا عن ذلك هو كتاب معجز يحتم إعجازه أنه تنزيل من حكيم حميد .

أثر الوحى المحمدى :

أخرج الوحى المحمدى قرآنا وغير قرآن ـ أتباعه من الظلمات إلى النور حقًا ، فقد مر على الأمة العربية حين من الدهر لم تكن شيئًا مذكورًا ، ولو تأخر نزول القرآن قرنًا أو قروناً لظلت الأمة العربية منسية أيضًا ، ولقد كان بين العرب يهود ومسيحيون فما أحدثوا بالجزيرة حضارة ولا غيروا من موروثها شيئًا .

كان فى اليمن مسيحيون استقر لهم سلطان بها بعد أن قضى أبرهة على ذى نواس الحميرى . ومنذ سنة ٥٠٠ م كانت مدينة نجران مركزًا مسيحيًا ، وبذلت جهدًا حربيًا كبيرًا لبث المسيحية فى الجزيرة العربية فلم تفلح ، وكان على حواف الجزيرة مسيحيون هم المناذرة والغساسنة ، ولم تدخل المسيحية على يد أى من أولئك جوف الجزيرة . ولم تستطع أى من هذه الجماعات أن تؤسس لدولتها حضارة . كان دعاة المسيحية فى اليمن يغشون الأسواق ويدعون الناس إلى الإيمان بالمسيح ابنًا لله ، ويدعونهم إلى تمجيد البكورة والرهبنة . فلا نالت دعوتهم نجاحًا ولا كان وراءها مدنية ، وأى مدنية فى العزوبة اقتداء بالمسيح أو فى اعتزال الناس فى الأديرة ؟ !

وكان اليهود فى جنوب الجزيرة أيضًا ، ودخل ديانتهم بعض الحميريين . وبعد أن تهدم سد مأرب تفرق اليمنيون فى أنحاء الجزيرة وسبق اليهود إلى الواحات الخصبة بجانب المدينة وخيبر وفدك ، ونزل الأوس والخزرج إلى جوار من بالمدينة . وكان قصارى ما فعل اليهود أن امتصوا خيرات البلاد . وأوقعوا بين القبيلتين الأختين ليقرضوا كلا منهما بالربا ويمتصوا ثمرات ما يكسبون ، وكانوا يشعلون جذوة الحرب بينهم كلما خبا سعيرها ، .. ولولا أن جاء الإسلام لفنيت القبيلتان .

ليس للوحى اليهودى أثر حضارى ، ولكن له آثار تخريبية فى كل مكان ، وقد اشتهر اليهود بالتفوق التجارى والعلمى . وكان ذلك كله بدافع العصبية العرقية التى يدينون بها ، وبإيمانهم بأنهم شعب مختار مميز على جميع الشعوب ، فهم يعملون على تحقيق هذا التفوق ولا يمدون

جيرانهم بحضارة ، بل يعملون على إضعافهم واستذلالهم .

وامتاز الوحى المحمدى بأنه دين ودنيا ، وعلم وعمل وبأن الناس أمامه سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالعمل الصالح . إن أكرم الناس عند الله أتقاهم ، وخير الناس أنفعهم للناس .. فلم تكن دعوة اعتزالية عديمة الأثر كالمسيحية ، ولا مستغلة خاصة بطائفة كاليهودية ، ويقول نبى الإسلام لقومه القرشيين لا يأتينى الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتونى بأحسابكم ، ويقول لابنته : « اعملى يا فاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا » ..

إنها دعوة تقوم على المنطق ، تعلن أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . وهذا كله لا يناسب اليهودية التى تقوم على التمييز الذى لا عدل فيه ، والمنكر الذى تنفر منه النفوس والبغى على الآخرين . فأى حضارة ترجى من هذه الديانة .

ومن الجانب العملى أقام المسلمون فى كل البلاد التى نزلوها حضارة ، ورفعوا قيمة العقل وبناء الإنسانية . وإلى هذه العوامل يعزى انتشار الإسلام بكل هذه السرعة ، وإليها يعزى عسر انتزاعه من قلوب أتباعه .

بعد مائة عام من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهى بداية انطلاق الإسلام ـ كانت الدولة الإسلامية تشمل مساحة تزيد على ما وسعته الامبراطورية الرومانية فى أقصى اتساعها ، والدولة الرومانية لم تصل إلى هذا الاتساع إلا بعد قرون متطاولة وحروب متلاحقة . وترك المسلمون فى أسبانيا معالم حضارة لن تمحوها الأيام . أنشأوا جامعات وبنوا مدارس وشقوا أنهارًا ومدوا طرقا وأقاموا جسورًا ، ومجارى مياه معلقة ، وادخلوا مزروعات لم تكن موجودة وبجانب ذلك غصت عواصمهم بالمكتبات والكتب ، وكان قصارى ما فعلته المسيحية عقب طرد المسلمين أن قدمت كل هذا التراث الفكرى طعمة للنار ، فقضت على الحضارة التى أقامها المسلمون ، وهذا ما جعل إدورد جيبون ـ المؤرخ الانجليزى يقول :

إن الحضارة تأخرت فى أوربا ثمانية قرون بخروج المسلمين من أسبانيا .

نعم إنها ثمانية قرون أقامها المسلمون فى تلك البلاد ، أنشأوا خلالها هذه الحضارة ـ تجارة وصناعة وزراعة وتربية وعلوم وطب وفلك وفلسفة .. الخ .. الخ . وكل ذلك بدافع تعاليم الإسلام ـ وكل ذلك قضى عليه القسس المسيحيون فى أيام .

هذا عدا الجرائم التى ارتكبت والدماء التى سفكت والأرواح التى أزهقت وكانت خطيئة أولئك جميعا أنهم مسلمون .

هذه إذن آثار الوحى المحمدى وهذه آثار الآخرين ، فقد كان القرآن حقًا كتابًا ربانيًا أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور والأساس فى كل آثاره أنه هدى إلى العقيدة السليمة ، التى لا جبروت فيها ولا استعباد ، وفى ضوء هذه الحرية والإخلاص للخالق وحده أتيح لعقول المسلمين أن تعمل وللعدل أن يسود ، وللأمم الإسلامية أن تتقدم .

فهل آن للمسلمين أن يتفقهوا عمق هذا الوحى الكريم ، وأن يعودوا إليه ؟

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة .. إنك أنت الوهاب .

وصلى الله على سيدنا محمد المرسل للناس كافة ..

بشيراً ونذيراً ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ..

إمام الدعاة

فضيلة الأستاذ الشيخ
محمد الغزالي

كثير ما تكون للخير طبيعة الزهرة الفواحة عندما تنفح العطر وتثير المحبة .

إن الإنسان الصالح المستقيم له إشعاع ينم عنه ويعلق الآخرين به ! بيد أن أحوال الدنيا وخلائق الناس لا تنتظمها هذه الأحكام السريعة ، ولا تتمشى مع سنن الفطرة على هذا النحو اليسير .

من السهل أن تمتد يد لقطف الزهرة ورميها تحت الأقدام ! !

من السهل أن يصنع البعض حولها دخانا يزكم الأنوف أو يحجب الرؤية .. إن ذنب ابن آدم القتيل أنه كان رجلا صالحا ، والفاسدون يرون الصلاح تحديًا لهم ، ويرون التقوى مشعلة لغضبهم .

وفى صدر التاريخ البشرى قتل أنبياء دون جريرة ، وعجزت رسالات سماوية عن المضى فى طريقها لأن الخاطئين اعترضوها ، وسرقت شعوب متنامية الأعداد ، فاختفت وراء الشمس لأن الأقوياء شاءوا ذلك ، ألم تبق مصر والشام وغيرهما فى حوزة الرومان قرونًا عددا ، لأن السلاح الأقوى فرض نفسه وأملى إرادته .

إن الحق كى يستديم وجوده ويحمى ذاته لابد له من قوتين :

إحداهما عقلية : تبسط حجته وتنفى عنه تهمة الشراسة والعدوان .

والأخرى مادية : ترد الهجوم وتؤدب الذين يعيشون على القضم والهضم !!! لا يكفى أن يكون الحق وسيما يستحق الإعجاب ، ينبغى أن يكون كذلك دارعا يتحمل العراك وينجو من غوائل الخاطفين والقاطعين .

ويشاء الله أن تكون القوة العقلية للحق أسبق وأبرز لتثبت جدارته بالحياة .

ولا بأس فى هذه المرحلة أن يتحمل ضربات الجهال ، وأن يقع تحت وطأتهم ، وقد تختنق أنفاسه فترات يتعرض فيها للموت، لكن عليه أن يصابر ويقاوم حتى يتأذن الله بالفرج .

كنت أشعر بهذه المعانى وأنا أتلو الآيات المقارنة لنزول الوحى واستقبال متاعب الدعوة .

كان النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحس أنه أمام عبء فادح ، وعمل مرهق ، وكان الوحى النازل يؤكد هذه الحقيقة ، إن تغيرًا كونيًا يوشك أن يقع ، إن تحولا فى تاريخ الإنسانية يوشك أن يبدأ ، فليستعد الإنسان المختار لاستقبال قدره ، لا راحة ولا دعة بعد اليوم .. : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

أهو ثقيل لما يتضمنه من حقائق يقاومها الملحدون والمجرمون ، وعبيد الهوى والغى ؟

إن الآيات الأخرى النازلة مع أول الوحى تشير إلى ذلك ، تدبر قوله تعالى : «انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا فاصبر لحكم ربك » .. تجلد وقاوم ، وشُقَّ للحق طريقه الوعر: «ولا تطع منهم آثما أو كفورا» ..

إن عدم الطاعة هنا ليس له إلا معنى واحد . أن لا اعتراف بالباطل بوجه من الوجوه . لابد من تعريته وكشف زيفه ، ولما كان الكلام فى بدء الدعوة ، وبدء تنزل الحق . فالمراد دمغ الباطل عقليًا ، ودحض كل الشبهات التى راج بها يوما .

ونكمل بقية السياق التى يتم بها المنهج المرسوم لصاحب الرسالة : «واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا . إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراء هم يوما ثقيلا .. » .

إن محمدًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ داعية التوحيد الأول فى تاريخ العالم ، وهو أطول الأنبياء أنفاسًا فى الحديث عن الله وإسقاط الشركاء المزعومين ، وتجريد العقيدة من أوهام الأميين والكتابيين على سواء ، وغرس الإحساس بالوحدانية فى أعصاب البشر حتى لا تكون نظرية مجردة أو خيالا عابرًا .

من أين له هذه القدرة ؟ من ديمومة الذكرى فى حياته ! اذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ليلا ونهارًا ، إنه ذكر لا ينتهى ، إن ضياءه له لا يخبو ، إن الطاقة التى تمده بالصحو النفسى والفكرى دوارة بلا توقف .

وربما ظن الناس أن إقبال الليل يمنحها فرصة استجمام ! لا ، : « ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا » .. هنا مكمن العظمة المحمدية وسر إشراقها الدائم ، إنها موصولة بالله نور السموات والأرض ، على نحو لا تقطّع فيه ولا فتور .

وفى تدبّرى للآيات التى صاحبت نزول الوحى فى مراحله الأولى استيقنت من هذه الحقيقة .

اقرأ ما جاء فى سورة المزمل موضحًا هذا المعنى : «واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا» .. ماذا ترى هنا ؟ ..

الإنسان المكلف بهداية العالم بدءًا من عصره إلى آخر الدهر يحتاج إلى قدرة غير عادية كى ينهض بهذا العبء ، فممّن يستمد هذه القدرة ؟ لقد قيل له : انقطع إلى ربك انقطاعا ، ثم تحدث باسمه ، وخذ عنه ! وعندماتضىء المشارق والمغارب بدينه فاهتف له وحده ، وتوكل عليه وحده ، فما عداه وهم .

إننى من أفق الإيمان بمحمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ أنظر إلى أعدائه فأعجب لغبائهم أو لافترائهم ، وأُسائل هؤلاء السكارى : أتدرون ما يقول ؟ ألا تسمعون نغمة العبودية فى حديثه ؟ ألا تحسون تشبثه الشديد بربه وخشيته البالغة منه ؟ مَنْ مِنَ الفلاسفة والمصلحين البشريين يجرى على لسانه هذا الكلام ؟ ..

«قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصا له دينى . فاعبدوا ما شئتم من دونه ..» .

أهذا جؤار دَعِىٍّ يمثل دور النبوة ؟ فمن بعده يحمل أمانات البلاغ ؟ ومن غيره يخرج الناس من الظلمات إلى النور ؟ وماذا يقوله الرسل الحقيقيون إذا كان هذا الكلام النقى الطهور تكلفًا وافتعالا ؟

لقد طالعنا حياة محمد ، وتابعنا سيرته منذ دعا إلى أن قضى ، فوجدنا إنسانًا وثيق اليقين بربه ، قوى الاعتماد عليه ، صادق الوصف له ، بلغ فى تنزيهه المدى ، وكان سخطه هائلا على

المفترين والمشركين ، يمحو ضلالهم بقوة ، ثم يسوق الصواب فى حشد من الأدلة المورثة لليقين ، والباعثة على حب الله والإنابة إليه .

ونريد أن نتأمل ـ لحظات ـ فى الحياة الباطنة للنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، أعنى فى سريرته ، وخليقته ، وتيار الشعور الدافق فى فكره وعمله ! .

لقد ذكرنا فى مكان آخر أن القرآن الكريم كان لباب هذا الشعور المنطلق ، وأنه أساس الحياة الداخلية التى تصحبه : نائمًا ويقظان ! .

وقضايا القرآن منوّعة ، فقد تكون وصفًا للكون ، أو مشهدًا من مشاهد الحساب الأخير ، أو فصلا من تاريخ الماضين ، أو حديثًا عن العظمة الإلهية ، أو بيانًا لأحكام شرعية ، أيًا ما كان الأمر فإن فؤاد النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان معمورًا بهذه القضايا ، أو كانت شغله الشاغل ، فما يظفر غيرها إلا بالقليل من انتباهه .

قد يراه الناس بينهم يوِّجه ويعلّم ، وينصح ويقود ، وهذا وذاك مظهر تدبره للقرآن وعيشه فى جوه ، وسبحه فى آفاقه ، ولنضرب مثلا لما نعنيه بهذا الكلام .

سورة هود من القرآن الذى نزل بمكة ، بدأت ببيان سريع لطبيعة البلاغ الذى يقوم به النبى الكريم : «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير» ..

ولا نستطيع إجمال المقدمات التى سبقت السرد التاريخى لقصص الأولين ، ولا المعاناة التى كان يلقاها صاحب الرسالة من جمهور المنكرين ، ونشير فقط إلى ما جاء فى هذه السورة من أخبار الأوائل ، والغاية منه ، سواء لمتلقى الوحى أو لسامعه .

فى هذه السورة قصة نوح مع قومه ، وهود مع عاد ، وصالح مع ثمود ، ولوط مع قومه ، وشعيب مع مدين ، وموسى مع الفراعنة .. إن هذه المرويات القديمة كانت تحل مشكلات جديدة ، وتفرج أزمات حادثة .. ذلك أن سنن الله الكونية واحدة وصارمة فى المجتمع البشرى ، كما هى واحدة وصارمة فى العلوم المادية والهندسية .

نعم إذا كانت هناك قوانين مقررة فى علوم الرياضة والفيزياء فهناك قوانين تساويها كل المساواة فى الحياة الإنسانية مثل « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » « وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض» .. «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادًا» .. «من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» الخ ..

ونشرح الآن بإيجاز شديد كيف كان السرد القديم يحل مشكلات جديدة ، ويبصر الخلوف الزائغين بمصير أسلافهم لعلهم يتعظون ويرعوون ! .

بعد قصة نوح يقول الله لنبيه : «تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ، ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين» ..

وفى أثناء القصة يفجؤك هذا التساؤل الرائع : «أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلىّ إجرامى وأنا برئ مما تجرمون» ..

يكاد الماضى والحاضر جميعا يكونان قصة واحدة ، فلا غرابة إذا كانت النتيجة واحدة .

وفى هلاك ثمود يقول الله لنبيه محمد : «فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز» ..

الخطاب لمحمد كما ترى وفى طياته تهديد لعرب مكة فالقضية واحدة ..

ووحدة القضية هى التى جعلت نبينا يستدرك على لوط لما قال لقومه : «لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد» .

إن النبى العميق الحس بربه الشديد التوكل عليه يقول فى أدب جم : (رحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد) .

وبعد تمام هذا السرد يقول الله لنبيه : «ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم» .. ثم يتجه الخطاب مرة أخرى إلى الرسول بهذا الإنذار المقلق : «فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص» ! .

إن توفية هذا النصيب تعنى هلاك العرب كما طاح آباؤهم من قبل ! هذا نذير مزعج ! ألا تلمح وراء ذلك تفسيرًا لما جاء فى الصحاح «شيبتنى هود وأخواتها» .

إن الخوف على مستقبل قومه جعل الشيب يتسلل إلى رأسه ! ما يرضى لهم هذه المصاير المشئومة .

ومن ثَمّ فهو يستنفد الجهود لنصحهم وإنقاذهم ، بل إن الأمر فى معرض الجلال الإلهى ، وافتقار العباد طرًّا إلى عفو الله يجعله يصيخ فى خشوع إلى هذا التأديب «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار» .

قلت آنفًا : إن القرآن الكريم هو سريرة النبي وسيرته ، فهل ألقيت شعاعا على هذا القول ؟ ..

إن الناس قد يرون النبي الإنسان يمشى على الأرض ، ويمر بالأسواق ، لكن الوحى الذى نزل عليه ، لكن القرآن الذى خُصّ به جعل فكره يتنقل فى ومضات خاطفة بين الأزل والأبد ، بين المعاش والمعاد ، بين الدنيا والآخرة ، بين العالمين ورب العالمين .. «وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان» .

إنه مع الناس بجانب واحد من نفسه ، ومع الله بجوانب كثيرة ، أى أن مقام الإحسان أدنى منازله .

من هذا المنطلق بنى صاحب الرسالة الخاتمةِ خيرَ أمة أُخرجت للناس ، أُمة شارتها الأولى الربانية ، فهى تصحو من منامها لتصلى ، ولا تأوى لفراشها إلا بعد صلاة ، ومن انفلاق الصبح إلى جنح الليل تكدح لربها ، وتتحرك وتتوقف بأمره ونهيه .

وهى تعرف الغاية من وجودها ، فإذاكانت الحضارة الحديثة تستحث الذكاء الإنسانى لمزيد من الرفاهية ، أو لمزيد من الدمار ، وإذاكانت هذه الحضارة تجعل الإنسان عابد نفسه ، وخادم هواه ، فإن الحضارة التى أنشأها الإسلام شديدة التعلق بالله ، حثيثة السعى لمرضاته ، ولأمر ماكان شعارها العالى «الله أكبر» وما عداه هباء .

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يربى الجيل الذى يستمع اليه تربية خاصة ! كيف ؟ إنه مرسل للناس كافة ، ومرسل لبنى آدم ما بقى على ظهر الأرض منهم واحد ، لا نبوة بعد بعثته ! .

وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدرك أنه لن يُعَمَّر حتى يطوف القارات ويهدى العصور المتطاولة ، فسبيله إلى إبلاغ رسالته أن يربى قادة يرثون الكتاب ويضيئون به المكان والزمان ، ويؤدون عنه متطلبات العموم والخلود فى رسالته .

والمعلم الذى يهدى جماعة من الحيارى محدود الجهد دون غمط لفضله ، ولكنه دون المعلم الذى يصنع أساتذة ، وينشئ نجوما حيّة .

والمنصفون يقولون : حسب محمد شرفًا أن ينشئ من الأميين شعبًا راقيًا واعيًا ! فكيف وقد أنشأ منهم أمة حركت الرواسى وأتت بالعجائب ! .

من كان يخرج الرومان من مستعمراتهم التى احتلوها قرونا عديدة ؟ .

من كان يحاكم مواريثهم الفكرية والروحية التى فرضوها بالحديد والنار؟

من كان يقدر على تقليص ظلالهم وكسر كبريائهم بعدما هزموا الفرس ، واحتكروا السيادة فى الأرض ذات الطول والعرض؟ .

لقد قدر على ذلك الرجال الذين صلوا وراء محمد فى مسجده المتواضع بالمدينة ، وسمعوا منه القرآن فحفظوه لم يسقطوا منه حرفا ، ونقلوه إلى من حولهم وإلى من بعدهم فى دقة لم تعرفها الكتب السابقة على أيدى حفظتها من قبل .

من روح محمد القائد العابد الداعى إلى الله على بصيرة ، انطلق قادة عباد صوب المشارق والمغارب ، ما أثر عنهم اعتداد بجنس ، ولا اشتهاء لعرض ، ولا إخلاد لأرض ، ولا تكاسل عن آخرة ! فإذا حضارة جديدة تقوم ، هتافها الدائم أذان يتكرر من الفجر إلى العشاء يدعو العباد لأداء واجبهم نحو رب العباد .

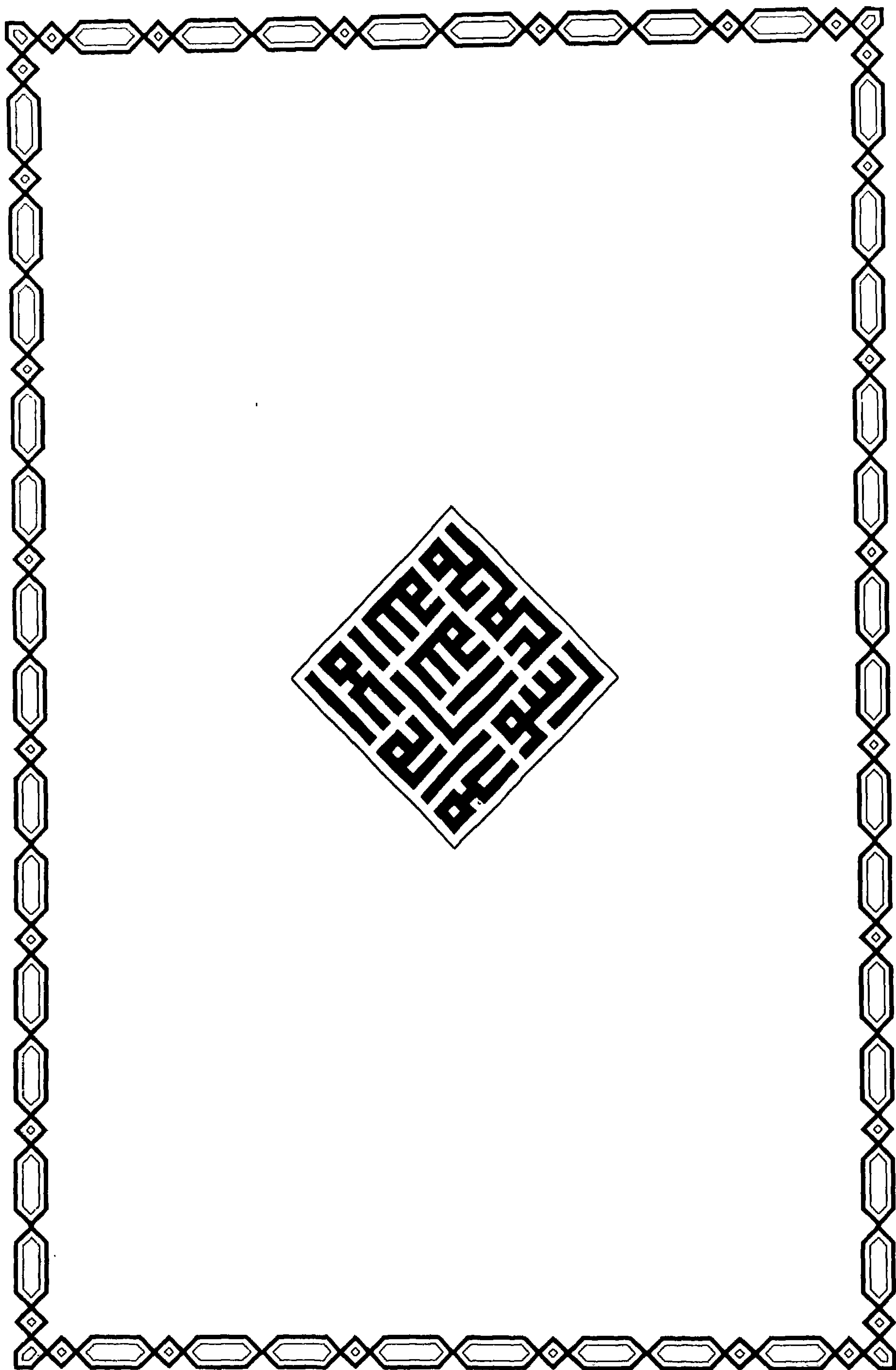
إن محمدًا صناعة إلٓهية لم تتكرر ، فسبحان من أبدع محمدًا !

وإذا كان السلف الأول قد أحدث خوارق تاريخية لأنه أحسن التأسى والتعلم والوفاء . فرجال محمد فى عصرنا يقدرون على مثل ذلك ، إذ الوسائل بين أيديهم لا تزال قائمة ، لا الكتاب انتهى .. ولا السنة اختفت .

المهم أن يكون الاتصال بالروح لا بالشكل .. ففساد الأديان يجئ من تحولها إلى رسوم وجسوم .

وكم من رسم خلا من المعنى !

وكم من جسم حلّت به حقيقة مارد ، وإن بدا للناس فى صورة عابد .



آيات النبوة المحمدية

فضيلة الأستاذ الشيخ
مصطفى الطير

تمهيد :

من كمال الحديث عن آيات النبوة المحمدية ، رأينا أن نسبقه ببيان الحكمة فى جعل النبوة والرسالة فى البشر دون الملائكة ، ولماذا يؤيدها الله بالآيات ، وماوجه اختلاف آيات المرسلين . وهل المعجزة تلقائية أو كسبية ، وما الفرق بينها وبين خوارق السحر والمخترعات ؟

كما رأينا أن ندرس شخصية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل النبوة ، ونبين أنه لم يكن يتوقع أن يشرفه الله بالرسالة إلى خلقه ، كما نبين الحركة الفكرية قبل ولادته ، فإذا أتممنا هذا الحديث ، تكلمنا على الآيات العظيمة والمعجزات الخطيرة ، التى أيد الله بها الرسالة المحمدية ، ليقبل عليها القلب فى شوق بالغ بعد هذا التمهيد ، وليعيش القارئ منها فى روضة فينانة بين أزاهير الحق ونسمات اليقين ، والله ولى التوفيق .

نبوة البشر وآياتها :

اقتضت حكمة العليم الخبير أن يكون أنبياؤه ورسله إلى البشر من أنفسهم ، وأن يمنحهم أرواحا عالية الطبقة عظيمة الصفاء والشفافية ، كاملة الصلاحية للاتصال بالملأ الأعلى ، لتتلقى منهم وحى الرحمن الرحيم .

ولم يجعلهم من الملائكة لأن البشر لا يستطيعون لقاءهم ولا يحتملون سماع الوحى منهم إن رأوهم على صورتهم ، ولكيلا يلتبس أمرهم عليهم إن رأوهم فى صورة البشر ، وفى ذلك يقول

الحق سبحانه : «ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون»[1] .

وليس من الحكمة أن يمنح الله جميع البشر من قوة الروح وصفائها ما منحه أنبياءهم ، حتى يروا الملائكة و يسمعوهم مباشرة ، فإن ذلك يكون إلْجَاءً وقهرًا على الإيمان ، فيفوت المراد من جعل الدنيا دار امتحان والأخرى دار جزاء ، ولأن الملائكة خلقوا بصورة لا تجعلهم يستقرون على الأرض بين الناس ، حتى يعايشوهم ويبلغوهم دين ربهم ، بل ينتقلون فى ملكوت الله تعالى بسرعة لا تخطر بالبال لتنفيذ ما وكله الله إليهم فى أرجائه ، فإرسالهم إلى البشر ليقيموا بينهم مخالف لما خلقوا لأجله ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا »[2] .

ولم يترك الله أمر النبوة فى البشر سهل الادعاء والاختلاق ، فقد أحاطها بسياج يحميها من زيف المزيفين ، حيث جعل لها آيات تدل عليها ، فمن ادعاها ولم تكن له آية عليها ، فهو نبى كاذب ومُدَّع فاجر وشيطان ماكر .

وآية النبوة معجزة يظهرها الله على يد مدعيها ، وقد عرَّف السَّعدُ المعجزة بأنها أمر يظهره الله بخلاف العادة ، على يد مدعى النبوة عند تحدى المنكرين ، على وجه يُعْجِزُ المنكرين عن الإتيان بمثله ، ويعتبر إجراؤها على يد مدعيها شهادة من الله على صدقه فيما يبلغ عنه ، لأنه سبحانه لا يؤيد كاذبا .

وقد جعل الله لكل نبى معجزة تناسب عصره ، وهى (إما أن تكون فعلا) كخروج ناقة صالح من صخر الجبل ، وقلب عصا موسى حية وابتلاعها سحر الساحرين دون أن تترك له بقية (وإما أن تكون تركا) كعدم إحراق النار لإبراهيم حين ألقوه فيها (وإما أن تكون قولاً) كالقرآن العظيم لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(المعجزة تلقائية وليست كسبية)

والمعجزة أمر تلقائى من لدن الحكيم الخبير ، وليس لمن أتى بها ولا لغيره قدرة على اصطناعه أوتعرف أسبابه ، فهى ليست كسبية ، وأحيانا يكون تلقيها مستتبعا لخوف من أيد بها كعصا

(١) سورة الأنعام . ٨ ، ٩ .
(٢) سورة الإسراء الآية ٩٥ .

موسى ، فإنه لما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرًا ولم يعقب ، حتى دعاه الله وثبته ، وفى ذلك يقول سبحانه فى سورة النمل : « وألقِ عصاك فلما رآها تهتز كأنها جانٌ وَلَّى مدبرًا ولم يُعَقِّب يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدىَّ المرسلون » آية ١٠ .

والمعجزة تخالف السحر ، فإن السحر مع كونه أمرًا خارقا للعادة فهو كسبي يمكن تعلمه ، وهو تخييل وليست له حقيقة ، على عكس المعجزة فهى غير كسبية ، وحقيقة وليست تخييلا للعيون . ولا يظهر الله المعجزة على يد متنبئ كذاب ، فلو ظهر على يده أمر خارق فهو سحر أو اختراع يمكن تعلمه والإتيان بمثله ، فهو من باب ربط المسببات بالأسباب ، ولذلك أعطى الله لكل نبي حق التحدى ـ أى طلب المعارضة لما جعله الله شاهدا على دعواه ـ لوثوقه بأنه ليس فى مقدور البشر تعاطى أسبابه والوصول إليه .

دراسة لشخصية محمد قبل النبوة :

من أهم ما ينبغى فى شأن نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أن تدرس شخصيته الكريمة قبل دعوته الناس إلى التوحيد ، وإعلانهم بأنه رسول رب العالمين إليهم ، لكى تتأيد آياته بشخصيته ، كما تأيدت نبوته ورسالته بآياته .

إنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب العربى الهاشمى القرشى ، المختار من خير بطون العرب وأعرقها فى النسب وأشرفها فى الحسب ، وأنْضرها عودا وأطيبها أرُومة ، وأفصحها لسانا وأوضحها بيانًا وأرجحها ميزانا ، وأعزها نفرا ، وأكرمها معشرا ـ من قبل أبيه ومن قبل أمه ـ ومن أكرم بلاد الله على الله ، سليل عدنان ، وحفيد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ولم يكن له من أولاده نبى سواه .

روى الإمام مسلم بسنده عن واثلة بن الأسقع ـ رضى الله عنه ـ قال : قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

ولد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام الفيل ، وهو الذى قصد فيه . أبرهة الحبشى حاكم اليمن من قبل النجاشى ـ قصد فيه ـ هَدْمَ الكعبة فهدمه الله ، ودمَّره وجيشه بصورة لم يسبق لها مثيل ، حكاها الله بقوله « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصفٍ مأكول » .

وكان ذلك : إرهاصًا وإيذانًا بنبوة نبى تكون هذه الكعبة قبلته وقبلة أمته ، وعلامة مميزة لها .

ولم ينجب أبوه عبد الله سواه لتنتقل إليه وحده بركة جديه إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ .

وقد مات أبوه وهو جنين فى بطن أمه ، ثم فقد أمه وعمره خمس سنين ، وهى عائدة به من زيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار بالمدينة ، حيث أدركتها منيتها بالأبواء فى طريقها إلى مكة .

روى الزهرى عن أسماء بنت رهْم عن أمها قالت : شهدت آمنة أم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى علتها التى ماتت بها ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ غلام يفع له خمس سنين عند رأسها ، فنظرت إلى وجهه وقالت : كل حيٍّ ميت ، وكل جديد بالٍ ، وأنا ميتة وذكرى باق ، وقد تركت خيرا وولدت طُهْرا ـ ثم ماتت .

وقد نشأ محمد فى كفالة جده عبد المطلب زعيم قريش منذ ولد ، ثم لم يلبث جده أن توفى ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سِنِّ الثامنة ، فكفله عمه أبو طالب الذى آلت إليه زعامة قريش ، ومع هذا اليتم المتتابع ، نشأ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعيد الهمة ، عزوفا عن صغائر الأمور ، سامى النفس رصين التصرف ، رفيع الخلق ، بعيدًا عن سفه الأطفال وسذاجة تصرفهم ، ولا عجب فى ذلك فقد نشأ فى مدرسة الرحمن الرحيم ، ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين .

وقد كانت عناية الله بادية عليه فى أمره كله ، ومن ذلك أن مرضعته حليمة السعدية ، جاءت به إلى أرض بنى سعد فى سنة شهباء جدباء ، فعمها الخصب والخير والبركة من حيث لا يعلمون ، فكانت غنمها تعود مساء كل يوم من مراعيها شباعًا مليئة الضروع باللبن ، أما غنم سواها فكانت تعود جياعا خاوية الضروع ولو رعت حيث ترعى غنم حليمة السعدية ، وكان القوم يعجبون لذلك .

ومن بركاته فى نشأته أيضا ما أخرجه ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : (قدمت مكة وهم فى قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب : أقحط الوادى وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس تجلت عنها سحابة ، ومعه أغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ الغلام بأصبعه وما فى السماء قَزَعَة(١) فأقبل السحاب من

---

(١) أى قطعة من السحاب .

هاهنا وها هنا ، وأغدق واغدودق[1] وانفجر له الوادى وأخصب .

وفى ذلك يقول أبو طالب :

وأبيض يُستسقَى الغمامُ بوجهه ثِمالُ اليتامى عصمة للأرامل[2]

ثم سافر إلى الشام مرتين مع عمه أبى طالب ، أولاهما فى السنة الثانية عشرة من عمره ، وثانيتهما فى الثامنة عشرة ، وقد حدثت له إرهاصات وكرامات عجيبة فى الرحلتين ، كتظليل الغمام له وحده دون غيره من الركب ، وتسليم الجمادات عليه وغير ذلك . ولما رآه بحيرا الراهب احتضنه وقال : هذا هو النبى الذى بَشَّرت به التوراة ، وأوصى عمه أن يحافظ عليه من اليهود ، وقد تجلَّى من صفاته بين قومه الصدق والأمانة ورجاحة العقل حتى عرف بذلك بين الناس فأصبحوا يلقبونه بالأمين ، فعهدت إليه خديجة بتجارة لها فى رحلة إلى الشام ، فسافر ومعه غلامها ميسرة ، فرأى منه فى تلك الرحلة من كريم الشمائل وعظيم الخوارق ما لم يشاهد مثله ، فلما عادوا بالتجارة رابحة أخبر ميسرة مولاته خديجة بما رأى من عجائبه ، وكانت سيدة جليلة ، لها حسب ومال ، فخطبته لنفسها ، فذهب مع عمه أبى طالب إلى عمها عمرو بن أسد ، فخطبها له أبو طالب قائلا : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضِئْضِئ[3] مَعَدّ وعُنْصر مضر ، وجعلنا حَضَنَةَ بيته ، وسُوّاس حرمه ، وجعله لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا ، وجعلنا حُكام الناس ، ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يُوزَنُ به رجل شرفا ونبلا وفضلا ، وإن كان فى المال قُلّ ، فإن المال ظل زائل ، وأمر حائل ، وعاريّة مستردة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق كذا وكذا .

وعلى ذلك تم الأمر وأنجب منها أولاده سوى ابراهيم فمن مارية القبطية ، ولما بلغت سنه خمسا وثلاثين سنة أعادت قريش بناء الكعبة حتى موضع الحجر الأسود ، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه فى مكانه وتنافسوا فى ذلك ، ودام خلافهم أربع ليال حتى كادت الحرب تنشب بينهم ، وكان أسن رجل فيهم أبا أمية بن المغيرة المخزومى عم خالد بن الوليد ، فقال لهم : ياقوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه ، فاتفقوا على تحكيم أول داخل ، فكان هذا الداخل

---

(١) أى كثر مطره .

(٢) الثمال الملجأ ، والمراد بالأرامل هنا المساكين من رجال ونساء ، وأكثر مايطلق على النساء ، وعصمته لهم منعهم من الضياع .

(٣) الضِّئضئ : الأصل والمعدن .

هو محمد ، فأطان له المختلفون جميعا ، لما عهدوه فيه من الأمانة وصدق الحديث ، وقالوا هذا محمد الأمين رضيناه حكما ، لأنهم كانوا يتحاكمون إليه ، وكان لايدارى ولا يمارى ، فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فاخذه ووضعه فيه ، وانتهت بحكمته تلك المشكلة التى كادت توقع الحرب بينهم .

وقد شهد له خصومه بعد البعثة بتلك السجايا الكريمة ، ولم يستطيعوا إنكارها مع كفرهم به ، فهذا ألد أعدائه النضر بن الحرث من بنى عبد الدار ، كان يقول لقومه حينما اجتمعوا ليتفقوا على ما يقولونه عنه للناس فى موسم الحج : قد كان محمد فيكم حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر ، لا والله ماهو بساحر .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ماكان ليدَع الكذب على الناس ويكذب على الله أخرجه البخارىُّ وغيره ، وكان ــ صلى الله عليه وسلم ــ يسمع الصلاة والسلام عليه من الأشجار والأحجار التى يمرُّ بها .

الحركة الفكرية قبل ولادته :

بشرت الكتب السماوية بمبعث نبى من جبال تهامة من ولد إسماعيل ، وكان اليهود يتوقعون مبعثه وينتظرونه ، وفى سنة إحدى وسبعين من ميلاد المسيح ثار اليهود على الرومان فى إيلياء (القدس) فخرب الرومان هيكلهم المقدس ، بقيادة القائد (طيطس أوْنيتوس) وتفرق كثير منهم فى الأرض ، ومنهم طوائف ذهبت إلى يثرب (المدينة) وما حولها ، وهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وأهل خيبر وغيرهم ، وقد حملهم على الهجرة إليها ما وجدوه فى كتبهم من أن الله سيبعث نبيا من هذه البقعة ، وأن دينه سيذيع وينتشر من يثرب ، فلذا أقاموا حولها ليؤمنوا به ويؤازروه ، حتى يعيد لهم مجدهم فى بيت المقدس بزعمهم .

ومن ذلك ما جاء فى الإصحاح الثامن من سفر التثنية (وسوف أقيم لهم نبيا من بين إخوتهم ــ يعنى بنى إسماعيل أخى جدهم إسحاق ــ وأجعل كلامى فى فمه ، ويكلمهم بكل شىء آمره به ، ومَنْ لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى ، فأنا أنتقم منه فأما النبى الذى يجترئ علىّ بالكذب ويتكلم باسمى بما لم آمره به ، أو باسم آلهة أخرى فليقتل .. » إلخ .

ولذلك كانوا يستفتحون به على خصومهم من الأوس والخزرج ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا

به ، وفى ذلك يقول الله تعالى : «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدِّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» .

ويقول : «ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمن . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين» .

وحدّث عاصم بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إنما دعا للإسلام مع رحمة الله تعالى ماكنا نسمعه من أحبار اليهود ، كنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبى يبعث نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكثيرا ما نسمع منهم ذلك ، فلما بعث الله محمدا أجبنا حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ماكانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه . فآمنا وكفروا .

وإنما قالوا لهم : نقتلكم معه قتل عاد وإرم لأن من صفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كتبهم أن هذا النبى يستأصل المشركين .

وبشر عيسى عليه السلام فى الإنجيل (بالفارقليط) وهو لفظ لا تينى معناه (أحمد) وهذا ما صرح به القرآن حكاية عنه (وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدىَّ من التوراة ومبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد»[(١)] .

وحدّث سلمان الفارسى أنه صحب قسيسا فكان يقول له : ياسلمان . إن الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد ، يخرج من جبال تهامة ، علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وكان هذا سبب إسلامه .

وفى الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى قال يسوع : (أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية من قبل الرب ، كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ـ أى من بنى إسرائيل ـ ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط عليه يسحقه) .

والحجر الذى رفضه البناءون كناية عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى رفضه أهل الكتاب ولم يؤمنوا به ، وقد نزع الله ملكوته منهم ، وأعطاه الأمة المحمدية ، وصاروا مع نبيهم

---

(١) سورة الصف : من الآية : ٦ .

كالبنيان المرصوص ، من عاداهم سحقوه « والله غالب على أمره » والبشائر عندهم كثيرة[1] وحسبنا هذا القدر.

ولهذا كانت كتبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ موضع الاحترام من ملوك أهل الكتاب ، وردوا عليها ردودًا كريمة ، وكاد قيصر الروم يسلم ، لولا ثورة أمته عليه بعد أن دعاهم إلى الإيمان بذلك النبي الكريم .

لم يتوقع محمد أن يكون رسولا :

كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعيدًا عن فكرة النبوة وبمعزل عنها ، فقد كان من أشراف قومه ، وقد منحه الله اليسر بعد العسر ، فكان موفقًا فى تجارته ، فلم يكن بحاجة إلى أن يدعى النبوة ابتغاء الجاه أو المال من ورائها ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ووجدك عائلا فأغنى » أى وجدك فقيرا فأغناك بالارتزاق بالتجارة .

ولما جاءه الوحى فى غار حراء ورجع إلى خديجة يرجف فؤاده من الروع قالت له : والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق :

ولما رفض معظم أهل مكة الإيمان بما جاءهم به ، أمره الله أن يقول لهم : « لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرًا من قبله أفلا تعقلون » أى لو شاء الله ألا يجعلنى رسولا إليكم ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به عن طريقى ، فقد لبثت فيكم زمنا طويلا أربعين سنة ، لا أدعى أننى رسول ولا أسعى إلى ذلك ، ولما حانت مشيئة الله : أن يكلفنى بالرسالة أمرنى بها ، وأيدنى بما لا سبيل لى ولا لغيرى إلى الإتيان بمثله ، وقد عرفتمونى فى هذا العمر الطويل صادقا أمينًا لا أكذب على الناس ، فكيف أكذب على الله المنتقم الجبار ، وأدعى ما لا قدرة لى على الإتيان بمثله ، أفلا تعقلون .

وقد عرض عليه قومه الملك والمال على أن يترك دعوة الله ، فرد عروضهم بإباء وإصرار ، وسيأتى الحديث عن ذلك مفصلا .

---

(١) وبخاصة فى إنجيل برنابا حيث صرح باسمه الشريف وذكر كثيرا من علاماته ، ولكنهم لا يعترفون به .

معجزات النبوة المحمدية :

بعد هذا التمهيد الذى لابد منه آن الأوان للحديث عن معجزات النبوة المحمدية ، فنقول وبالله التوفيق :

جمع الله سبحانه لنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين الآيات القولية والآيات الكونية ، فأما الآيات القولية فهى القرآن العظيم ، وأما الآيات الكونية ، فهى ما وقع على يديه من المعجزات التى لم يتوفر مثلها لسواه من المرسلين .

ولكن التحدى كان بمعجزة القرآن ، لأن الإسلام هو الدين الخاتم الذى كتب الله له البقاء إلى قيام الساعة ، فاقتضت حكمة الحكيم الخبير ، أن تكون معجزته مصاحبة له ، لكى تؤيده وتكون مصدر قوته على الدوام ، ولذلك كتب الله له الحفظ بقوله «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» .

أما الأديان السابقة فإنها كانت خاصة بأمم معينة ، وقابلة للنسخ بأديان تليها ، فلذا كانت آياتها كونية لم تلبث أن زالت من الوجود ، وأصبحت خبرًا يروى ، وعرضة لتكذيب المكذبين .

والمعجزات الكونية التى أجراها الله على يد سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، كانت معينة ومؤيدة ومطمئنة لقلوب المؤمنين ، ومنها ما اقتضاها جلب نفع للمؤمنين أو دفع ضرعنهم ، وليست أساسية فى إثبات الرسالة المحمدية ، ولذلك لم يذكرها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تحديه لمعارضيه ، بل اقتصر على التحدى بالإتيان بمثل القرآن أو بسورة منه .

وإن مثل المعجزات الكونية مع القرآن ، كمثل سائر معجزات موسى عليه السلام مع العصا ، فإنه تحدى فرعون بقلب العصا حية ، فقبل فرعون التحدى وعارضه بالسحر ، فابتلعته العصا وانتصر موسى عليه ، ولكنه لما لم يرجع عن غيه ، أيده الله بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، حيث سلطها الله على أعدائه ، وفى ذلك يقول نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ «ما من الأنبياء نبى إلا أعطىَ من الآيات مامثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيتُ وَحيًا أوحاه الله إلىَّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم أتباعا يوم القيامة» أخرجه البخارى فى كتاب فضائل القرآن .

وسنتحدث فيما يلى عن معجزة القرآن ، ثم نتبعها الحديث عن سائر معجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ

معجزة القرآن :

كان للعرب أسلوبهم فى نظمهم ونثرهم ، وجاء القرآن بمنهج مخالف لكليهما عجب له بلغاؤهم واهتزوا له اهتزازا عنيفا ، ولما عجزوا عن مجاراته قالوا إنه سحر مبين ، لماله من قوة التأثير على سامعه ، وجذبه لمشاعره وإدراكاته ، وكان أعتاهم حين يسمعه لا يسعه إلا اليقين بل الإقرار بأنه فوق مقدور البشر.

فعن محمد بن كعب قال «حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة قال ذات يوم وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده فى المسجد : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى هذا فأعرض عليه أمورًا لعله أن يقبل منا بعضها ويكف عنا ، قالوا بلى يا أبا الوليد ، فقام عتبة فجلس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : يا ابن أخى ، إنك مِنَّا حيث قد علمت ، من خيارنا حسبا ونسبا ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبْت آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قل يا أبا الوليد أسمع ، فقال : يا ابن أخى إن كنت تريد مما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفًا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملَّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًّا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاسمع ، فقرأ ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول سورة فصلت .

(بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرًا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة من تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ ، أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون . قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادًا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم . فإن أعرضوا فقل

أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم أن لا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون) .

فأمسك عُتْبَةُ بِفِيه وناشده الرحم أن يكف .

فلما رجع عتبة سألوه فقال : والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر ، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب ، يامعشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم ، فقالوا لقد سحرك محمد ، فقال لهم : هذا رأيى .

هذه خلاصة مارواه البيهقى وغيره .

وكان الوليد بن المغيرة زعيم قريش فى الفصاحة . روى عكرمة أنه قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اقرأ علىّ ، فقرأ عليه « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » قال أعدها على فأعادها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما يقول هذا بشر ، ثم قال لقومه ما فيكم رجل أعلم بالشعر والرجز منى ، والله مايشبه الذى يقوله شيئا من ذلك والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، فقالت قريش صبأ والله الوليد ، لتصبأن قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فتوجه وقعد اليه حزينا ، وكلمه بما أحماه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يهوس ، وتقولون إنه كاهن ، فهل رأيتموه يتكهن ، وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ، وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ، ! فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا فما هو؟ ففكر قليلا ثم قال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فارتج النادى فرحا ، فأنزل فى شأنه فى سورة المدثر مخاطبا رسوله « ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له ما لا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدّر . ثم قتل كيف قدّر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر ».

وقال بعض الفضلاء : لو أن هذا القرآن وجد مكتوبا فى مصحف فى فلاة من الأرض ، ولم

يعلم من وضعه هناك ، وقرأه العقلاء الذين لا يقلدون سواهم ، لشهدوا بأنه منزل من عند الله تعالى ، وأن البشر لا قدرة لهم على الإتيان بمثله ، فكيف إذا عرفوا أنه جاء به أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وكان أصدق الناس ، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا . وصدق الله تعالى إذ يقول « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »

نواحى الإعجاز فى القرآن :

لا يوجد كتاب سماوى أو من صنع البشر نال من العناية ما ناله القرآن الكريم ، تلقيا وحفظا وضبطا ونقلا ورواية ، منذ نزل على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى اليوم ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهو كما أنزله الله تعالى ، من سور وكلمات وحروف ، لم تنقص منه كلمة ولا ضاع منه حرف ، فلقد أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتاب الوحى وغيرهم من كتاب المسلمين أن يكتبوه فورا وحده دون سواه ، حتى حديثه النبوى ، حتى لا يختلط به غيره ، أو يشتبه به سواه ، ولم يسمح الرسول بكتابة السنة إلا فى أواخر حياته ، بعد أن اشتد الحذر عند المسلمين ، وعظم إدراكهم لنصوص القرآن الذى هو المصدر الأساسى لدينهم ، على أن يكتبوها بعيدة عنه .

وكان كل ذلك وفاء بوعد الله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون » ولكى يبقى بذاته آية دينه الباقى ما بقى الزمان ووجد الإنسان ، وكم حاول المستعمرون وغيرهم من أعداء الإسلام ان يقضوا عليه ، ففشلوا ، وبقى القرآن صامدا يصد العتاة ، ويحيط المكر السيىء بأهله ، ويحيى موات القلوب ، ويبعث الهمم من مراقدها ، يشحذ العزائم الكليلة ، وينشر الهدى فى العالمين ، وتلك أولى آياته البينات فى أنه تنزيل من حكيم حميد.

أما إعجازه الذاتى فيتجلى فى أمور كثيرة :

(١) أحدها بلوغه أعلى درجة من البلاغة فى عباراته ، وقد أبلغ ابن أبى إصبع وجوه البلاغة فيه إلى نحو مائة وجه ، منها المجاز والاستعارة والكناية ، والتشبيه المفرد والمركب والإيجاز والإطناب والمساواة ـ كل فى موضعه الملائم له ـ والإشارة والتوضيح عند الاقتضاء فى كليهما ، ونفى الشىء بإيجابه ، والتوشيح ورد العجز على الصدر وتشابه الأطراف والتورية والاستخدام والالتفات ، والانسجام والإدماج والافتنان ، وائتلاف اللفظ مع اللفظ ، وائتلافه مع المعنى ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، والترقى والتدلى والتضمين والجناس ، والجمع مع التفريق ،

والجمع مع التقسيم . والجمع مع التفريق والتقسيم . وجمع المؤتلف والمختلف . وحسن النسق واللف والنشر . والمشاكلة والمزاوجة والمواربة . وحسن الابتداء وحسن الاختتام ، وحسن التخلص .

(٢) وثانيها إيقاعه وجرسه . وقوة تأثيره على الأرواح والقلوب لمجرد قراءته ، ولو كان سامعوه لا يعرفون اللغة العربية . فإن جرسه وأداءه يشد إليه الأسماع ويجذب إليه القلوب . ولهذا وصفه أعداؤه بالسحر المبين حين سمعوه . قال تعالى فى سورة سبأ « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين »[٤٣] .

(٣) وثالثها براءته من الاختلاف والتفاوت ، فلا تجد فيه تضاربا فى معارفه وعلومه - مع اتساعه وتعدد أهدافه وأغراضه - « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » أما مايوجد من خلاف بين العبارات فى المواقف المتماثلة ، فليس خلافا فى الحقيقة ، وبيان ذلك أن قصص الأنبياء مع أممهم استغرقت عدة سنين ، تعددت وتنوعت فيها المواقف ، وكان الموقف الواحد يشتمل على نقاش طويل بغير اللغة العربية ، فالقرآن الكريم ترجم هذه المواقف ترجمة معنوية باختصار تارة ، وببسط تارة أخرى ، وبزيادة مرة وبنقص مرة أخرى ، ووزع أجزاء تلك المواقف على السور المختلفة . وهذه الأجزاء يكمل بعضها بعضا . وهى فى جملتها تلخيص لمعنى ما جرى بين الأنبياء وأممهم ، وليست حكاية لكل ما جرى بينهم فى عصور دعوتهم ، فإن ذلك ليس من أغراض القرآن الكريم ، وإنما هدفه الحديث باختصار عن مواطن الاتعاظ والاعتبار .

(٤) ورابعها أنه أخبر بقصص الأنبياء مع أممهم فى دقة وأمانة وصدق ونزاهة ، وبرأ الأنبياء من المفتريات التى ألصقها بهم كتاب تلك الديانات السابقة فى كتبهم التى يدعون قداستها ، ولم يتورعوا عن التورط فى افترائها مفصلة بأسلوب يعف القلم عن تسطيره .

وكما كان القرآن أمينا فى الحديث عن قصص الأنبياء . أظهر ما أخفوه من كتبهم من الأحكام وبعض هذه القصص .

ومعلوم تاريخيا أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان أميا من أمة أمية ، فلا سبيل له إلى علم شىء من أخبار الماضين ، قال تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون. بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ».

(٥) إخباره بمغيبات مستقبلة صدقتها الأيام ، كقوله « غُلِبت الروم فى أدنى الأرض وهم

من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين »

وبيان ذلك أن الفرس قاتلوا الروم فى أذرعات وبصرى والأناضول . واستولوا على تلك البلاد وحاصروهم فى القسطنطينية ، وقد فرح مشركو مكة وشمتوا فى المسلمين وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب . ونحن وفارس لسنا كذلك ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم . ولنظهرن عليكم ،

وقد تألم المسلمون لهذه الشماتة بهم ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية ، فقال لهم أبو بكر : لا يُقِرَّنَ الله أعينكم . فوالله لتظهرن الروم على فارس فى بضع سنين . فقال له أبيّ بن خلف : كذبت . اجعل أجلا أناحبك ـ أى أراهنك عليه . فناحبه على عشر قلائص [1] من كل واحد منهما ، وجعلا الأجل ثلاث سنين ، فأخبر أبو بكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك ، فقال : البضع من الثلاث إلى التسع ، فزايده فى الخطر (أى قيمة الرهان) ومادّه ـ أى طاوله ـ فى الأجل ، فجعلاه مائة قلوص إلى تسع سنين ، ومات أبيّ من جرح رسول الله إياه بعد قفوله من أحد ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية ، فأخذ أبو بكر الخطر ـ أى قيمة الرهان ـ من ورثة أبيّ ، وجاء به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : تصدق به فلولا أن محمدا نبى مرسل من عند ربه ، وأنه تلقى الوعد منه سبحانه بغلبة الروم لفارس ، لما استطاع الاجتراء على هذا الوعد الخطير ، بعد أن سحقهم الفرس وأجلوهم عن ممتلكاتهم فى آسيا كلها ، وحاصروهم فى القسطنطينية وضيقوا عليهم الخناق ، لأن الوعد حينئذ مغامرة خطيرة يؤدى عدم صدقه فيها إلى فقدان شخصيته وانهيار دينه . فإقدامه عليه أكبر دليل على تمكنه التام من صدق ما يقول ، ولا يتم له ذلك إلا بوحى من العليم الحكيم

وقد استدل الحنفية بالآية على جواز العقود الفاسدة فى دار الحرب ، وأجيب بأن ذلك كان قبل تحريم القمار .

ومن إخباره بالغيب قوله تعالى فى سورة النور : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ..» الآية (٥٥) .

قال أبو العالية فى سبب نزولها : مكث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة عشر سنين بعدما أوحى إليه خائفا هو وأصحابه ، يدعون إلى الله سرا وجهرا ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة

---

(١) جمع قلوص وهى الناقة الشابة .

وكانوا خائفين ، يصبحون ويمسون فى السلاح ، فقال رجل يا رسول الله . أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تلبثون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة ، وأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فوضعوا السلاح وأمنوا . اهـ

والواقع أن المدة التى مكثها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة بعد الوحى وقبل الهجرة إلى المدينة كانت ثلاث عشرة سنة ، لكن الإيذاء والعدوان بدأ بعد ثلاث سنين حين جهر الرسول بالدعوة ، واستمر عشر سنين ، وهذا هو المقصود من كلام أبى العالية ولقد حقق الله وعده للمؤمنين فى الجزيرة العربية فى حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث دان العرب جميعا بدين الإسلام ، وارتفع صوت المؤذن فى جنباتها ، الله أكبر الله أكبر حى على الصلاة حى على الفلاح .

وكما حقق للأمة الإسلامية هذا الفتح المبين فى عهد النبى الأمين ، حقق لها بعده فتوحات عظيمة فى الفرس والروم ومصر وسائر المشارق والمغارب ، وفاء بوعده للمؤمنين فى هذه الآية .

وكما تنبأ القرآن للمؤمنين بالخلافة على الأرض والتمكين فيها فى هذه الآية ، تنبأ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفتح فارس والروم ومصر وسائر بقاع الأرض .

فقد روى الإمام البخارى بسنده عن عدى بن حاتم قال : « بينا أنا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه أخر فشكا إليه قطع السبيل فقال « ياعدى : هل رأيت الحيرة ؟ » قلت له : لم أرها وقد أنبئت عنها ، فقال : « لو طالت بك حياة لترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف إلا الله » قلت فى نفسى : فأين دُعَّار طيىء[1] الذين سعروا فى البلاد[2] ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى » قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال « كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه ذهبا وفضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه ، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له فيقول : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى ، فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى يارب ، فينظر على يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وعن يساره فلا يرى إلا جهنم ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » قال عدى

---

(١) دُعَّار : جمع داعر وهو الخبيث الفاسق .

(٢) أى أوقدوا فيها نيران الفتن .

رضى الله عنه : فرأيت الظعينة [1] ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم الحياة ، لترون ما قال أبو القاسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخرج الرجل ملء كفه ذهباً أو فضة فلا يجد من يقبله » .

وتنبأ بفتح مصر ، فعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ستفتحون مصر فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذمة ورحما » أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه .

وتنبأ بأن تملك الأمة المحمدية نواحى الأرض المختلفة ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الله زوى لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها » من حديث أخرجه الإمام أحمد عن شداد بن أوس .

وقد حقق الله تلك الوعود جميعا ، فقد ارتفع لواء الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، وشمالها وجنوبها ، ولا توجد اليوم أمة فى الأرض إلا والإسلام إما غالب فيها ، أو له كيان بين أرجائها ، أو مكان ممتاز بين أديانها ، بفضل سلامة شرائعه ووضوح آياته ، وجهاد قادته وثقافة دعاته ، وما زلنا ننتظر المزيد من فضل الله . وقد جاء الوعد بتحقيق هذه الفتوحات والمسلمون قلة ، ومحاطون بالأعداء من كل جانب ، ولا يستطيع أعقل العقلاء أن يتصور حدوث تلك الفتوحات الموعودة ، وليس لهم من القوة العسكرية ما يمكنهم من الصمود أمام أعداء مشاكسين متربصين .

فلولا أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبى أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، لما اجترأ على الوعد بتلك الفتوحات التى هى إلى الخيال أقرب ، وقد حقق الله بعضها فى حياة الرسول ليقر بها عينه ، وحقق سواها بعده ليفرح المؤمنون بنصرالله وصدق وعده « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »

(٦) وسادسها : إعجازه العلمى ، ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى فى سورة النور « ألم ترأن الله يزجى سحابا ثم يوءلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » [٤٣] .

فأنت ترى أن هذه الأية بينت بصراحة أن السحب الركامية الممطرة ، تبدأ على شكل وحدات ، فتتجمع فى الاتجاه الرأسى ، وتصبح على هيئة جبال قاعدتها إلى أسفل ، وقمتها إلى

---

(١) الظعينة : هى المرأة فى هودجها .

أعلى ، وأنها هى التى ينزل منها البرد والمطر الغزير . وأن لها برقا شديد الضوء نتيجة شحنها بالكهرباء . وأن هذا البرق إذا تتابع يكاد يذهب بالأبصار ، لشدة لمعانه وكثرة ومضاته .

وقد سبقت هذه الآية ما عرفه العلماء من ذلك بأحقاب ودهور . فقد عرفوا ذلك أخيرا كما عرفوا أن السحب الركامية قد ترتفع على هيئة الجبال إلى عشرين كيلو مترا فى جو الأرض . فتلك الحقائق العلمية التى قررتها الآية . لا يمكن أن يعرفها إلا من ركب الطائرة ومارس العلوم الكونية . وبما أن محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمى من أمة أمية . وأن هذه الحقائق العلمية لم تعلم إلا أخيرا . فيكون إخباره بها دليلا ممتازا على أنه مرسل تلقى المعلومات من الله الذى أرسله وأنزلها إليه قرآنا يتلى . ومعجزة تذاع وتنشر.

ومن ذلك إخباره عن أن أصل العالم غاز ساخن عبر عنه بالدخان ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة فصلت « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين »[11] . وذلك أمر سبق به القرآن معرفة العلماء بأحقاب ودهور ، فكيف يتسنى لمن نطق بذلك أن يعرفه وهو أمى من أمة أمية . وأن ذلك كان أمرا مجهولا للبشرية جميعا وقت نزول القرآن .

هذان نموذجان لإعجازه العلمى المقطوع به ، ولسوف يأتينا المستقبل بالكثير مما أشار إليه القرآن من خفايا الكون . ولعل أسماء الحروف التى افتتح بها بعض السور تشير إلى خفايا من الغيب لا يعلمها الآن إلا الله تعالى . وقد يفتح الله على عباده بالوصول إليها ، ولعل من الإعجاز فيها أنه اتضح كونها إشارة الى أن معظم حروف السورة التى صدرت بها من جنس هذه الحروف . وقد تحقق ذلك بالإحصاء الألكترونى . فكيف عرف هذا محمد وهو أمى ، أليس هذا شاهدا على نبوته ــ ؟

(٧) سابعها : إعجازه الدينى ، فقد تضمن القرآن العظيم من آيات وحدانية الخالق وقوانين الشريعة ونواميس الأخلاق ما لم تصل إلى مثله البشرية من قبل ، فقد ضلت العقول فى معرفة الخالق حق معرفته . فتعددت فيه الآراء ، وتنافرت النحل والمذاهب ، فمنهم من عبد الحجر . ومنهم من عبد الشجر ، وآخرون عبدوا الشمس ، وسواهم ألهوا القمر ، ومنهم من عبدوا الحيوان حتى أحقره ، ومنهم المعطلون الذين لايدينون بإله ، إلى غير ذلك من فوضى العقائدولم تكد الكتب السماوية تنزل بالحق وتهدى الناس إلى سواء السبيل ، حتى غيرها أهلها وزيفوها .

متأثرين بعقائد الشعوب من حولهم ، فتاه الناس فى روافد الحيرة ، ومتاهات الضلال ، ولم يهتدوا إلى صراط الحق حتى جاءهم القرآن الكريم بالتوحيد ، وأرشدهم إلى آياته فى الأنفس والآفاق ، وبين أنه لوكان فى السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا . وأن ما سواه لا يستطيع أن يخلق الذباب أحقر الحشرات ولو اجتمعوا له ، وفى ذلك يقول سبحانه فى سورة الحج « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » وأن الله يأتى بالشمس من المشرق ، ولا يستطيع إله مما يدعون أن يأتى بها من المغرب ، وأنه هو الذى يحيى الموتى وينزل الغيث وأنه على كل شىء قدير ، وأنه لا يعلم ما فى الأرحام وسائر أنواع الغيب سواه .

أما عيسى الذى عبدوه لأنه يحيى الموتى فى زعمهم ، فإنه بشر لا حول له ولا قوة ، ولولا أن الله جعل له ذلك آية ليؤمن بنبوته قومه لما استطاع أن يحيى ذبابة ، ومع أن إحياءه للموتى كان له آية ، فإن ذلك كان بفعل الله ، وما عيسى سوى الأداة المنفذة لمشيئة الله تعالى ، فالله وحده هو الذى أحيا هذا العدد القليل من الموتى ، الذين شاء الله أن يكونوا له آية ، ولم تتعد مشيئة الله سواهم ، فلو أراد إحياء غيرهم لما استطاع ، لأن معجزته محدودة بهؤلاء ظاهرا ، أما فى الحقيقة فإن الذى أحياهم هو الله الذى يحيى جميع الموتى وهو على كل شىء قدير.

وكما أن إحياءه لهؤلاء الموتى بإذن الله ، فإن إبراءه للأكمه والأبرص كان كذلك بإذن الله ومعونته ، ولولا ذلك لعجز عن علاج أى عليل وشفاء أى مريض ، فالله وحده هو الشافى وهو وحده المعافى ، وما الأطباء إلا أسباب ظاهرة فحسب .

وأما أولئك الذين ينزلون الغيث صناعيا ، فإنهم أسباب ظاهرية فحسب ، فالهواء الذى يحولونه الى مطر ليس من خلقهم ، بل هو من خلق الله ، والعقول التى استعملوها فى إنزاله من خلق الله ، وأجسادهم وأرواحهم وجميع قواهم من خلق الله ، فالله وحده هو الذى أنزل الغيث على أيديهم ، وما هم بأكثر من الفلاح الذى يحرث الأرض ويضع البذر ويروى ، وينتظر الإنبات من الله ، وهو وبذوره وماء الرى وآلة الحرث كلها من خلق الله رب العالمين .

وأولئك الذين يعرفون الأجنة فى البطون لا يستطيعون علمها ذاتيا كما يعلمها الله ، فإنهم لا يعلمونها إلا بالأشعة أو بعلامة أقامها الله الذى أحسن كل شىء خلقه ثم هدى ، وعلمهم بها إجمالى أما الله تعالى ، فإنه يعلم كل شىء فيها تفصيلا ، ويعلم تطورها آناً فآناً ، فإنه هو الذى خلقها ودبرها وأدام رعايته لها قبل الولادة وبعدها .

والأطفال التى تتربى صناعيا فى الأنابيب ونحوها هم من خلق الله ، فالنطفة التى يزرعونها من خلق الله ، والبيئة التى يحيطونها بها ، والعناية المتوالية لها حتى يكمل نمو الجنين ، كل ذلك من خلق الله ، وهم فيما صنعوا كالزارع يبذر البذور ويتعهدها حتى تصبح نباتا بإذن الله ، فلا فرق بين أولئك الأطباء وهؤلاء الزراع .

وبالجملة فالخلائق جميعا من خلق الله ، ومواهبهم هبة من الله . وعلومهم من فيض الله . فكل شيء مرده إلى الله « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » .

وجاءهم القرآن بقوانين الشريعة العادلة . فأكرم المرأة وأعطاها حقها اللائق بها فى الميراث ، وحقها اللائق بها فى المجتمع . قال تعالى: « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة .. »(١)

وقد كانت المرأة منبوذة فى الجاهلية ، وتورث كالمتاع ، ولا حق لها فى الميراث فأنصفها الإسلام ، كما أعطى الصغار حقهم فى الميراث ، وكانوا لا يورثون فى الجاهلية إلا من ركب الخيل ودافع عن القبيلة .

وشرع العدل بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وباب الشريعة المحمدية واسع عريض يحتاج إلى مجلدات وموضوعات للحديث عنه ، وحسبنا أن نقول فيها إنها شرعت للناس ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، يستوى فى ذلك العربى والعجمى ، والعظيم والحقير ، والكبير والصغير ، فهم جميعا سواء أمام القرآن العظيم وقوانينه العادلة ، ولا يفرق بينهم فى الدرجة عند الله تعالى سوى التقوى ، كما قال سبحانه: « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

أما مكارم الأخلاق التى دعا إليها القرآن فحدث عنها ما شئت ، فإنها المثل الأعلى فى مناهج الحياة ، وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قمة فيها ، ولذا قال الله تعالى مثنياً عليه: « وإنك لعلى خلق عظيم » وأمرنا أن نهتدى به فقال « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » وإذا كان القرآن العظيم تضمن كل ذلك . وقد جاءنا به عربى أمى لا يقرأ ولا يكتب . ولم يطلب به ملكا ولا جاها ولا مالا ، ولم يورث أهله من بعده درهما ولا دينارا ، وقد عرف بالصدق والنزاهة ، والشرف والأمانة ، مع أصالة المحتد ، وطيب الأرومة ، فكل ذلك شاهد بأنه رسول مؤيد به من عند الله رب العالمين .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨ .

ومع أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤيد بكثير من المعجزات الكونية التى ستحدث عنها ، لكنه سبحانه لم يجعلها قطب دعوته وبراهينها ، لأنها زائلة غير با قية ، أما القرآن فهو دائم باق ، ليكون آية لهذا الدين المتين ، با قية ما بقى الزمان ، تهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، وتكون دائما مصدر تشريعه وآية كماله ، ولأنه من آن لآخر تظهر بعض آياته العلمية ، ولعل ماخفى منها أعظم من النماذج التى ذكرناها ، فالله يعلم ما تشير إليه فواتح سوره ، وبدائع آياته .

واعلم أن معظم المعجزات الكونية حدث فى العهد المدنى بين المؤمنين كرامة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتثبيتًا للمؤمنين ، واستجابة لمقتضى الحال ، كما سيتبين من روايتها .

النبى يصف فضل القرآن العظيم :

وقد رأينا قبل الانتقال إلى الحديث عن المعجزات المادية العينية أن نختم الحديث عن القرآن العظيم بوصف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ له إذ يقول :

« إن هذا القرآن مأدبة (١) الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله المتين والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب (٢) ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد (٣) ، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول : (ألم) حرف ، ولكن ألفٌ ولامٌ وميمٌ . ولا أُلْفِيَنَّ (٤) أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة ، فإن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة ، وإن أصفر (٥) البيوت لجوف أصفر (٦) من كتاب الله » أخرجه الحاكم وصححه والطبرانى فى الكبير ، والبيهقى فى شعب الإيمان وغيرهم عن ابن مسعود .

المعجزات المحمدية العينية (الكونية) :

كان للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ معجزات عينية كثيرة ، ولكنها لم يقصد بها التحدى ، لأن

---

(١) المأدبة بفتح الدال اسم مكان أو مصدر ميمى من الأَدَب ، وهو المراد هنا . ولذا قال : ـ صلى الله عليه وسلم ـ «فتعلموا من مأدبته» أما المأدبة بضم الدال فمعناها الطعام الذى يدعى إليه ، وهو غير المراد من الحديث .

(٢) أى لا يميل عن الحق فيدخل عليه العتاب .

(٣) أى لا يبلى ولا يضعف من كثرة القراءة .

(٤) أى لا أجِدنَّ .

(٥) أصفر اسم تفضيل من صَفِر المكانُ إذا خلا ، وهو من باب طَرِب .

(٦) فعل ماض رباعى بمعنى خلا أو افتقر ، يقال أصفر الرجلُ فهو مُصْفِر أى افتقر...

العقل فى عصره شب عن الطوق . وأصبح بحاجة إلى ما يغذيه ويرشده ، لا إلى ما يبهره ويخالف عاداته . فما أكثر الخوارق فى هذا الزمان . والغرض من هذه المعجزات تأييد معجزة القرآن وتكريم نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

ولقد استجاب الله لقريش مرة واحدة فيما طلبوه من معجزات كونية . وهى معجزة انشقاق القمر . ولما لم يؤمنوا بها مع ضخامتها لم يستجب لهم فيما طلبوه بعدها . لعدم الفائدة فى الاستجابة لقوم مستكبرين معاندين لا يريدون الهدى . وفيما يلى بيان هذه المعجزة العجيبة

إنشقاق القمر :

ثبتت هذه المعجزة بالقرآن وبالسنة . أما القرآن فذلك قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر »

وأما السنة فعن ابن عباس قال : « لما اجتمع المشركون إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ منهم الوليد بن المغيرة . وأبو جهل بن هشام . والعاص بن وائل . والأسود بن عبد المطلب والنضربن الحارث ونظراؤهم ، فقالوا للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين ، فسأل ربه فانشق » رواه عنه أبو نعيم بسنده . ورواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس أيضا بلفظ « إن القمر انشق على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

وفى الصحيحين من حديث أنس « إن أهل مكة سألوا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما » وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود قال « انشق القمر على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فرقتين . فرقة فوق الجبل وفرقة دونه . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اشهدوا »

وعلى هذا النحو رواه الترمذى من حديث ابن عمر ، والإمام أحمد من حديث جبير بن مطعم ، وزاد أنهم (قالوا سحرنا محمد فقالوا إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس)

ورواه أبو داود وغيره عن ابن مسعود قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال كفار قريش : هذا سحر بن أبى كبشة ــ قال ــ فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار فأخبروهم بذلك » إلى غير ذلك من الروايات العديدة عن الثقات .

قال ابن عبد البر : قدروى هذا الحديث عن جماعة كثيرة من الصحابة ، وروى عنهم أمثالهم من التابعين ، ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا وتأيد بالآية الكريمة .

وقال العلامة ابن السبكى فى شرحة لمختصر ابن الحاجب : والصحيح أن انشقاق القمر متواتر

منصوص عليه فى القرآن ، مروى فى الصحيحين وغيرهما ، وله طرق شتى بحيث لا يمترى فى تواتره . اهـ .

أما مجيئه فى القرآن ففى قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ولما كفرت به قريش ووصفته بالسحر أنزل الله عقب هذه الآية « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر » فهذا النص يؤكد وقوع الانشقاق وينعى عليهم تكذيبهم ووصفهم له بالسحر مع كونه حقيقة لا شك فيها .

وهو معجزة ضخمة لا تقل عن شق الطرق فى البحر بعصا موسى . وعبورهم فيها دون أن ينطبق البحر عليهم ويغرقهم ، بل هو أعظم ، لأن الله تعالى حفظ الأرض وباقى المجموعة الشمسية من آثار انشقاقه فحماها من الأنفطار والتدمير بسبب هذا الحدث الكونى الخطير ، وتأثيره على نظام الجاذبية بينه وبين سائر الكواكب فى تلك المجموعة . فالله سبحانه وتعالى أمسكها من الدمار وحماها بقدرته ، كما أمسك الماء فى البحر حتى لا يغرق موسى وقومه أثناء عبورهم فى الطرق التى شقها لهم معجزة لموسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

وكان عجيبا من قريش بعد هذه الآية أن يطالبوا بسواها مع ضخامتها ، كقولهم « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا »(١)

وقد كانت آية العروج إلى السماء إحدى أمانيهم ، فقد طلبوا أن يرقى فى السماء فحدث ذلك ، ولكن الله تعالى لم يطلعهم عليها لأمرين (أحدهما) أنهم سيقابلونها بالكفر بها ، وذلك ما حكاه الله بقوله « ولو نزلنا عليك كتابًا فى قرطاس فلمسوه بأيدهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين(٢) وبقوله « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصار نابل نحن قوم مسحورون(٣) .

ولقد صدق ما توقعه القرآن منهم ، فإن النبى لما حدثهم بقصة الإسراء به من المسجد الحرام

---

(١) سورة الإسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣ .

(٢) سورة الأنعام : ٧ .

(٣) سورة الحجر آية ١٤ . ١٥ .

إلى المسجد الأقصى وعودته فى نفس الليلة كذبوه ـ مع أنه لم يحدثهم عن قصة المعراج ، ثم بدالهم أن يمتحنوه فسألوه عن وصف المسجد الأقصى ـ ولم يكن قد رآه من قبل ، وكانت هذه الرحلة غريبة ومشاهدها عجيبة ، فصعب عليه استقصاء وصفه ، فجلاه الله له فوصفه ، فقالوا أما النعت فقد أصاب ، فأخبرنا عن عيرنا وتجارتنا العائدة من الشام ، فأخبرهم بأحوالها تفصيلا ، وذكر لهم أنها تقدم عليهم يوم كذا عند طلوع الشمس ، يقدمها جمل أورق عليه غرارتان سوداوان ـ فخرجوا يشتدون نحو الثنية فى اليوم الذى عينه لقدومها ، فقال قائل : هذه الشمس قد أشرقت ، وقال آخر : وهذه العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق عليه غرارتان سوداوان كما قال محمد ، فلم يزدهم ذلك إلا عنادًا ، إذ قالوا : هذا سحر مبين ، فلذلك لم يشهدهم الله رحلة المعراج لعدم الفائدة فى رؤيتهم إياها ، فلسوف يصفونها بأنها سحر مبين ، وأن أبصارهم سحرت .

(الأمر الثانى) أن الله لم يطلعهم عليها ، لأنها رحلة ترفيهية للرسول بعد ما قاساه فى الفترة المكيه من المتاعب والايذاء من قومه ، ولإعداده للمرحلة التالية من الدعوة فى الفترة المدنية ، فلذلك جعل الله آية الإسراء والمعراج خفية عنهم ، وفى هذا المعنى يقول سبحانه فى تعليل الإسراء « لنريه من آياتنا » وفى المعراج « لقد رأى من آيات ربه الكبرى »

تسبيح الطعام وتسليم الحجر والشجر :

نرجو أن يطمئن القارىء الكريم إلى أننا لن نذكر معجزة من المعجزات المادية العينية إلا مؤيدة بصحاح الأحاديث ، دعما للحق ، وإبرازًا للصدق ، وطمأنة للقلب ، ودعما لليقين ، وإليك البيان :

كان الطعام يسبح بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويسمع الصحابة تسبيحه ،

روى الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « كنا نأكل مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الطعام ، ونحن نسمع تسبيح الطعام »

وكان الحجر يسلم عليه ، فقد أخرج الإمام مسلم بسنده عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن »

وروى الترمذى وغيره عن على رضى الله عنه قال « كنت أمشى مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

بمكة ، فخرجنا فى بعض نواحيها ، فما استقبله شجر ولا حجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله

إنقياد الشجر له :

روى الإمام مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : (سرنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلنا واديا أفيح ، فذهب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقضى حاجته ، فاتبعته بإداوة من ماء ، فنظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم ير شيئا يستتر به ، فإذا شجرتان فى شاطىء الوادى ، فانطلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادى علىّ بإذن الله تعالى ، فانقادت معه كالبعير المخشوش[1] الذى يصانع قائده[2] ، ثم فعل بالأخرى كذلك ، حتى إذا كان بالمنصف بينهما قال « التئما علىّ بإذن الله فالتأمتا » .

حنين الجذع شوقا إليه ـ متواتر :

هذه معجزة رائعة تمت أمام الملأ ، وبيانها أن مسجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مسقوفا على جذوع النخل ، فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فصنع له منبر له ثلاث درجات لكى يسمع الناس خطبته لما كثروا ، فلما قعد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المنبر ، خار الجذع حتى تصدع وانشق ، وقد تعددت رواية ما حدث وتصوير خواره ، فمنهم من صوره بأنين الصبى ، ومنهم من صوره بصوت الناقة العشار ، ومنهم من صوره بصوت حنين الناقة التى انتزع منها ولدها ، ومنهم من صوره بجؤار الثور ، وكان ذلك من الجذع حزنا على فراق الرسول وتركه إلى المنبر الجديد . وقد أجمعت الروايات على أن المسجد ارتج لجؤاره ، وتأثر المصلون بصوته ، وأنه لم يسكت حتى نزل إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتزمه .

ويقول القاضى عياض : حديث حنين الجذع مشهور منتشر ، والخبر به متواتر ، أخرجه أهل الصحيح ، ورواه من الصحابة بضعة عشر صحابيًامنهم أُبىّ بن كعب ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وسهل بن سعد ، وأبو سعيد الخدرى ، وبريدة ، وأم سلمة ، والمطلب بن وداعة السهمى ويقول الإمام الشافعى : ما أعطى

(١) المخشوش : هو الذى وضع فى أنفه الخِشَاش وهو الحلقة ونحوها ليسهل قياده .
(٢) أى يطيعه .

الله نبيًا ما أعطى محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقيل له : أعطى عيسى : إحياء الموتى ، فقال أعطى محمدًا حنين الجذع حتى سمع صوته ، فهى أكبر من ذلك . وقال العلامة ابن السبكى : الصحيح عندى أن حنين الجذع متواتر .

وقال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : حنين الجذع وانشقاق القمر كلاهما نقل نقلا مستفيضا يفيدالقطع عند من يطلع على طرق الحديث .

وقال أبو القاسم البغوى : كان الحسن إذا حدّث بهذا الحديث بكى ثم قال : ياعباد الله : الخشبة تحنّ إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شوقا إليه ، لمكانه من الله ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه .

نبع الماء من بين أصابعه :

روى أحاديثه جماعة من الصحابة ، منهم أنس بن ما لك ، وجابر بن عبد الله ، وابن مسعود وابن عباس .

ففى الصحيحين عن أنس قال : (رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحانت صلاة العصر ، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه ، فأُتِيَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوضوء فوضع يده فى ذلك الإناء ، فأمر الناس أن يتوضئوا منه ، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضأ القوم ـ قال راويه عن أنس ـ فقلنا لأنس : كم كنتم ؟ قال : كنا ثلثمائة) .

وفى الصحيحين وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال (عطش الناس يوم الحديبية ، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين يديه ركوة توضأ منها ، وجهش الناس [1] نحوه ، فقال : ما لكم ؟ فقالوا : يارسول الله ما عندنا ماء نتوضأ به ولا نشربه إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا ، فقال راويه لجابر : كم كنتم ؟ قال جابر : لو كنا ما ئة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة) والركوة إناء صغير من الجلد يشرب فيه . وأحاديث نبع الماء من بين أصابعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وردت فى كثير من الأحاديث الصحاح .

قال القرطبى : قصة نبع الماء من بين أصابعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تكررت منه فى عدة

---

(١) أى فزعوا .

مواطن فى مشاهد عظيمة . ووردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعى المستفاد من التواتر المعنوى ، ولم يسمع عن غير نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث نبع الماء من بين عصبه ولحمه ودمه صلى الله عليه وسلم . وقال المزنى : نبع الماء من بين أصابعه أبلغ فى المعجزة من نبع الماء من الحجر ، حيث ضربه موسى عليه السلام بالعصا فتفجرت منه المياه ، لأ ن خروج الماء من الحجارة معهود ، بخلاف خروجه من بين اللحم والدم .

تفجير الماء وتكثيره ببركته :

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن معاذ : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لهم (إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى ، قال فجئناها وقد سبق إليها رجلان ، والعين مثل الشراك تبض[1] بشىء من ماء ، فسألهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل مسستما من مائها شيئا ؟ قالا : نعم ، فقال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثم غرفوا من العين قليلا قليلا حتى اجتمع فى شىء ، ثم غسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ به وجهه ويديه ، ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ يامعاذ : يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا قد ملىء جناناً) أى بساتين ، زاد فى الشفاء (فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق)

وفى البخارى من حديث المسور بن مخرمة أنهم نزلوا بأقصى الحديبية على ثمد[2] قليل الماء ، يتربضه تربضا ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العطش ، فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه) ومعنى يتربضه الناس يأخذونه قليلا ، ويجيش : بمعنى يفور

وفى رواية عروة أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ توضأ فى الدلو ومضمض فاه ثم مج فيه وأمر أن يصب فى البئر ، ونزع سهما من كنانته وألقاه فى البئر ودعا الله تعالى ، ففارت بالماء حتى جعلوا يغترفون بأيديهم منها وهم جلوس على شفتيها)

وفى الصحيحين عن عمران بن حصين قال:(كنا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سفر ، فاشتكى إليه الناس من العطش ، فنزل فدعا فلانا ـ واسمه أبو رجاء ـ ودعا علياً فقال : اذهبا فاستقيا الماء ، فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين ـ أى قربتين فيهما ماء ـ فجاءا بها إلى النبى ـ صلى

(١) أى تسيل قليلا قليلا .

(٢) أى بئر قليلة الماء .

الله عليه وسلم ـ فا ستنزلوها عن بعيرها ، ودعا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإناء ، فأفرغ فيه من أفواه المزادتين وأوكأ أفواهها، وأطلق العزالى ـ أى مصاب الماء ـ ونودى فى الناس : اسقوا واستقوا ، فسقى من سقى ، واستقى من شاء وهى قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها ، وايم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملئة منها حين ابتدأ فيها ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اجمعوا لها ، فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة ، حتى جمعوا لها طعاما فجعلوه فى ثوب ، وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها ، قال لها : تعلمين ما رزئنا من ما ئك شيئا ، ولكن الله هو الذى سقانا ، فأتت أهلها فقالت : العجب ، لقينى رجلان فذهبا بى إلى هذا الرجل الذى يقال له الصابىء ، ففعل كذا وكذا ، فوالله إنه لأسحر الناس كلهم ، أو إنه لرسول الله حقا ، ثم أسلمت هى وقومها) .

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي قتادة رضى الله عنه قال : (خطبنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: « إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء غدا إن شاء الله تعالى ، فانطلق الناس لا يلوى أحد على أحد ، فبينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسير حتى ابهارَّ الليل ـ أى ابيض ـ فمال عن الطريق فوضع رأسه ثم قال : احفظوا علينا صلاتنا ، فكان أول من استيقظ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والشمس فى ظهره ، ثم قال : اركبوا ، فركبنا فسرنا حتى إذا ارتفعت الشمس نزل ، ثم دعا بميضأة كانت معى فيها شيء من ماء ، فتوضأ منها وضوءا وبقى شيء من ماء ثم قال : احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ ، ثم أذن بلال بالصلاة فصلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ركعتين ثم صلى الغداة ، وركب وركبنا معه ، فانتهينا إلى الناس حين اشتد النهار وحمى كل شيء وهم يقولون : يا رسول الله هلكنا وعطشنا ، فقال : لا هلك عليكم ، ودعا بالميضأة فجعل يصب وأبو قتادة يسقيهم ، فلم يعد أن رأى الناس ماء فى الميضأة ، فتكابوا عليها ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسنوا الملء كلكم سيروى ، قال : ففعلوا ، فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصب وأسقيهم حتى ما بقى غيرى وغير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم صب ثم قال لى : اشرب فقلت : لا أشرب حتى تشرب ، فقال : إن ساقى القوم آخرهم ـ قال ـ فشربت وشرب)

تكثير الطعام القليل ببركته :

أخرج البخارى ومسلم فى غزوة الخندق عن جابر من حديث قال فيه : (فانكفأت إلى امرأتى فقلت : هل عندك شيء؟ فإنى رأيت بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمصاً ـ أى جوعا شديدا ـ فأخرجت جرابا فيه صاع من شعير ، ولنا بهيمة داجن ـ أى سمينة ـ فذبحتها وطحنت

الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ، ثم جئت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فساررته ، فقلت يارسول الله : ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير ، فتعال أنت ونفر معك ، فصاح النبى ـ صلى الله علية وسلم ـ : يا أهل الخندق إن جابرا صنع سؤرا ـ أى طعاما ـ فحيهلاً بكم [1] ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجىء ، ثم جاء فأخرجت له عجينا فبصق فيه وبارك ، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثم قال : ادعى خابزة فلتخبز معك ، واقدحى [2] من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف ، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هى ، وإن عجيننا ليخبز كما هو)

وروى البخارى ومسلم بسندهما عن أنس قال : (قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضعيفاً أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شىء ؟ فقالت : نعم ، فأخرجت أقراصا من شعير ، ثم أخرجت خمارا فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدى ، ولاثتنى ببعضه [3] ، ثم أرسلتنى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذهبت به فوجدت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المسجد ومعه الناس ، فسلمت عليه ، فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرسلك أبو طلحة ؟قلت نعم ، قال لطعام ؟ قلت نعم ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن معه : قوموا ، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى أتيت أباطلحة فأخبرته ، فقال أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم ، فقالت : الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأ قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هلمى يا أم سليم ما عندك ، فأتت بذلك الخبز ، فأ مربه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَفُتَّ . وعصرت أم سليم عكة [4] فآدمته ، ثم قال : ائذن لعشرة ثم لعشرة ، فأكل القوم كلهم وشبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا)

وفى رواية مسلم (ثم أكل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل البيت وتركوا سؤرا) أى بقية ، وفى رواية البخارى (فجعلت أنظر هل نقص منها شىء ؟)

---

(١) أى أقبلوا مسرعين .

(٢) أى اغرفى .

(٣) أى أدارت بعض الخمار على رأسه مرتين كالعمامة .

(٤) العكة : إناء السمن .

معجزة البركة فى غزوة تبوك :

أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة قال : (لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، فقال عمر : يا رسول الله . ادعهم بفضل أزوادهم ، ثم ادع الله عليها بالبركة ، فقال : نعم ، فدعا بنطع فبسط ، ثم دعا بفضل أزوادهم ، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة ، ويجيء الآخر بكسرة ، حتى اجتمع على النطع شيء يسير ، فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالبركة ثم قال : خذوا فى أوعيتكم ، فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملئوه ـ قال ـ فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكّ فيحجز عن الجنة) .

بركات أخرى عجيبة :

أخرج الإمام البخارى بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال :(كنا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثين ومائة وذكر فى الحديث أنه عجن صاع وصنعت شاة ، فشوى سواد بطنها ـ قال ـ وايم الله ما من الثلاثين ومائة ، إلا وقد حز له حزة من سواد بطنها ، ثم جعل منها قصعتين فأكلنا أجمعون ، وفضل فى القصعتين فحملته على البعير)

وروى الإمام مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه قال :(إن أم ما لك كانت تهدى للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عكة لها سمنا ، فيأتيها بنوها فيسألونها الأدم وليس عندهم شيء ، فتعمد إلى التى كانت تهدى فيها للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتجد فيها سمنا ، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته ، فأتت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أعصرتها ؟ قالت : نعم ، قال : لو تركتها ما زال قائما) .

تحقق نبوءته عن المستقبل :

من ذلك ما رواه الإمام البخارى وغيره عن أنس رضى الله عنه قال :(صعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وعمر وعثمان أُحُدًا ، فرجف بهم ، فضربه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ برجله وقال : « اثبت أحد ، فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان » وقد قتل عمر وهو يؤم المسلمين فى صلاة الصبح بيد العبد الفارسى الغادر أبي لؤلؤة ، وقتل عثمان بن عفان فى بيته فى الفتنة الكبرى التى اندلعت ضده فى آخر خلافته ، فتحققت نبوءته ـ صلى الله عليه وسلم ـ باستشهادهما .

وكلام الرسول للجبل يؤذن بأنه كان يعى ما يخاطبه به ، ويدل على ذلك أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « أحد جبل يحبنا ونحبه » أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ـ وأحد جبل قرب المدينة .

إبراؤه المرضى :

روى الإمام البخارى فى غزوة خيبر أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « أين على بن أبى طالب » ؟ فقالوا : إنه يارسول الله يشتكى عينيه ، قال : فأرسلوا إليه ، فأتى به فبصق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عينيه ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع »

وفى مسلم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال (فأرسلنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجئت به أقوده أرمد ، فبصق فى عينيه فبرأ)

وروى البخارى بسنده قال : « أصيب مسلمة يوم خيبر بضربة فى ساقه ، فنفث فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما اشتكاها قط »

وبعد ، فهذا غيض من فيض ، وقليل من كثير من آيات النبوة المحمدية ، أسأل الله سبحانه أن يتفضل بقبوله ، وأن يجزى رسوله الكريم عن جهاده فى سبيل دينه أرفع الدرجات ، وأكرم الصلوات والرحمات .

أثر حديث المعراج النبوى
فى الأدب العالمى

الأستاذ الدكتور
محمد رجب البيومى

يتابعُ علماءُ الأدب المقارن الصّلات القريبة والبعيدة بين الآثار الأدبية فى لغات العالم ، فيعقدون موازناتٍ دقيقة بين ما يلمسون تشابهه من هذه الآداب ، فهم يتتبعون الأفكار والأخيلة ناقدين محللين ، وكثيرًا ما ينتهون إلى الحكم بالتأثير القريب أو البعيد ، فى أثر من الآثار الذائعة ، حين يحلّلون عناصره الأدبية فيجدون بينها أصُولاً تمتُّ إلى أثر أجنبى آخر !

وهذا شيء طبيعى فى دنيا القول ، لأنّ الأفكار الأدبية والعلمية تتناقل وتَرْحل فى كل مكان .

والأديبُ أو العالم قارئٌ مثقف يلتقط ما يعثُر عليه إنْ قريبًا وإنْ بعيدًا ، وهو لا محالة متأثر بروائع ما يقرأ ولا يستطيع أن يمنعَ عن تفكيره وخياله ما يرفدهما بالقوة والنماء !

وقدْ كانَ حديث المعراج الذى حكاه نبى الإسلام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحد هذه الآثار الأدبية الخالدة التى امتد تأثيرها إلى آداب أمم مختلفة ! والتى أحدثت دويًّا عاصِفًا بين علماء النقد المقارن حين لمسُوا خُيوطها البارزة ، فى أكثر منْ نَسِيج فنّى ! ولعلنا نومئ إلى ذلك ببعض التفصيل .

إنّ كتب الأحاديث النبوية تَروى عدّة آثار خاصّةٍ بليلة المعراج فهناك روايات سنّية عن أنس بن مالك تَلقّى بعضها عن أبى ذر وبعضَها الآخر عن أبى هريرة وعنْ مالك بن صعصعة

الأنصارى . وهناكَ آثار شيعيّة عن الإمام زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب تلقّاها عن أبيه عن جده عن علىّ عن رسول الله ، وهنَاكَ روايات لا تصل إلى درجة ما رُوى عن أنس وزيد ـ رضى الله عنهما ـ ، بل تظهرُ عليها آيات الوضع وعلائمُ الاضطراب .

ومن كل ذلك امتد حديث المعراج امتدادًا كبيرًا وأُحيط بأقوال ضخمة للمفسرين والمحدثين والمؤرخين ، بحيثُ لو جُمع ما قيل بصدد ذلك لَشَغَل كتابا ضخما برأسه !

ثم جاء بعضُ العلماء فوصَلوا الأحاديث المختلفة فى رواية واحدة وجعلُوا منها نسقًا متّصلا متلاحقًا ، بل إنّهم تعَدّوا أحاديث المعراج إلى شروحه ، ثم انتقل هذا الحشد إلى الأجيال المتلاحقة فقرأه العلماء والأدباء وترجم إلى اللغات الأجنبية فأحدثَ دويّهُ الرنان .

ونحنُ الآن فى مجال إبرازِ التأثير القوى لحديث المعراج فى الأدبِ العربى والآداب المختلفة نضُع فاصلاً بيْن ما صحّت روايته عن الرسول أو رجحت وبين ما ضَعُفتْ نسبته إليه لأسباب ذكَرها المحدثون ، نضع هذا الفاصل لنحكم بأن ما صحت نسبته إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانَ الأساس الأول لهذه الصّورة عن السماء والأرض والجنة والنار إذْ أنّ محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكَى ما شاهده من العجائب حكاية رائعةً فتحتْ أمامَ الأدباء مجالَ التّصوّر الفسيح .

ومِنْ هُنا كان تأثيرُه المباشر فى كلّ رحلة خيالية إلى السماء وإلى الجنة والنار . أَما ماَ ضَعفت نسبته إليه فقد ساقه الوضّاعون متأثرين بحديث المعراج وناسجين على منواله ، فلَوْلاَ أَنّهم رأَوْا الكُوَى المضيئة بأشعة من حديث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما استطاعوا أن يقولوا شيئا ، وهنَا يكون الحديثُ الموضوعُ وليدَ تأثيرٍ منِ الحديث الصحيح ، فإذا استُلْهمه بعض الروائيينّ فإنّما يردون موردًا اشتقّ إبداعه وإلهامه من حديث صحيح ، ويمكننا إذ ذاك أن نُسمى ما ساقه الوَضّاعون من حديث المعراج أدبًا مَصْنُوعًا استُلْهمَ البيان النبوى ثم نَقَل تأثيره إلى أدباء العالم ، وهم بإنتاجهم المتشابه ، يعلنون بلسان النقد أنّ صاحب الإبداع الأول هُو نبىّ الإسلام لا محالة ، وغيره قد احتذاه .

وإذَا كانت رواية أنس بن مالك عن المعراج تُلخص حادث المعراج بما هُوَ معروف من مجئ جبريل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقديمه البراق وارتقائِه إلى السماوات السبع ، فرؤية آدم ويحيى وعيسى ويوسف وإدريس وهرون وموسى وإبراهيم بعد سؤال وجواب عن القادم والإذن له بالزيارة ، ثم مشاهدة أنوار ربّ العزة ، وفرض الصلاة خمسا بعد خمسين عَقِبَ مراجعةٍ

تنشد التخفيف ... إذا كانت رواية أنس بن مالك تَقِفُ عند ذلك فإنّ رواية الإمام زيد بن على وهو الفقيهُ المجاهدُ الشهيدُ العَلَمُ الثقة تفصّلُ الأمر بوضوح مستوعب وهىَ بعدُ روايةٌ محترمة عُزِيت إلى إمامٍ وَرِعٍ متحرز وذلك نصها :

قال على بن أبي طالب : صلّى بنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاة الفجر يوما ... فلمّا قضى الصلاة التفتَ إلينا . وقالَ : « أفيكم من رأى الليلة شيئا » ؟ قلنا : لا يا رسول الله .

قالَ : « ولكنى رأيتُ كأنّ ملكين أتيانى فأخذا بضبُعى فانطلقَا بى إلى السماء فانطلقت فمررت على مَلَك وأمامه آدمىّ وبيد الملك صخرةٌ يضربُ بها هامة الآدمى . فيقعُ دماغه جانبًا وتقع الصخرة جانبًا . قلتُ : ما هذا ؟ قالا : امْضه ، فمضيت فإذا أنا بملك وبَيْن يديه آدمى وبيد المَلَك صخرةٌ يَضربُ بها هامة الآدمى . فيقعُ دماغه جانبًا وتقع الصخرة جانبًا قلتُ : ما هذا ؟ قالاَ : امْضه . فمضيتُ فإذا أَنا بملكٍ وبين يديه آدمى وبيد الملك كَلّوب من حديد فيضعُه فى شدقه الأيمن فيشقّه حتى ينتهى إلى أذنه . ثم يأخذ فى الأيسر فيلتئم الأيمن . قلتُ : ما هذا ؟ قالا لى : امضه . فمضيت فإذا أنَا بنهر من دم يفور كفوران المراجل وعلَى حافّتى النهر ملائكة بأيديهم نار . كلّما طلع طالع قَذفوه بها ، فيقعُ فيه ، فيشتعلُ إلى أسفل ذلك النهر ، قَالَ : قلت : ما هذا ؟ قالا : امضه . فمضيت فإذا بيت أسفله أضيق من أعلاه ، وفيه قوم عراة تفور من تحتهم النار فأمسكت على أنفى من نتن ما أجد من ريحهم ، قلت ما هذا ؟ قالا : امضه . فمضيت ، فإذا أنا بتلّ أسود عليه قومٌ مخبّلون تُنْفخ النار فى أدبارهم فتخرُجُ من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم . قلت : ما هذا ؟ قالاَ : امضه فمضيتُ فإذا أنا بنار مطبقة موكل بها ملَكٌ لا يخرج منها شىء إلا أتبعه حتى يعيده فيها ، قلتُ : ما هذا ؟ قالاَ : امضه ، فمضيتُ فإذا أنا بروضة خضراء . وإذا فيها رجلٌ شيخ جميل لا أجدُ أجمل منه ، حَولهُ الولدان ، وإذا أنا بشجرة ورَقُها كآذانِ الفيلة . قلتُ : ما هذا ؟ قالا : امضه ، فصعدتُ إلى ما شاء الله من تلك الشجرة فإذا أنَا بمنازل لا منازل أحسن منها من دُرّة وزبرجدة وياقوتة وفيه أقداح وأباريق ، قلتُ : ما هذا ؟ قالاَ : لى : انزل فنزلت فضربت بيدى إلى إناء منها ثم غرفت فشربت فإذا هُو أحْلَى من العسل وأشدّ بياضًا من اللبن وألْينُ من الزبد ، فقالاَ لى :

أمّا صاحب الصخرة التى رأيت الملك يضرب هامته فيقعُ دماغه جانبًا وتقع الصخرة جانبًا فأولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة ويصلّون الصلوات لغير وقتها ، فهُمْ يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار .

وأما صاحب الكلوب الذى رأيت به ملكا موكّلا بيده كلّوب مِن حديد . يشقّ به شدقه الأيمنَ حتى ينتهى إلى أذُنه ثم يأخذ فى الأيسر ، فيلتئم الأيمْن . فأولئك الذين كانوا يمشون بين المؤمنين بالنميمة ليفرقوا بينهم فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار .

وأما البيت الذى رأيتَ أسفله أضيق من أعلاه وفيه قومٌ عُراة توقد تحتهم النّار فأمسكت على أنفك من نتن ما تجد من ريحهم ، فأولئك الزّناة وذلك نتن فُروجهم فهم يعذّبون بها حتىّ يصيروا إلى النار .

وأمّا التلّ الأسود الذى رأيتَ عليه قومًا مَخْبِلين تُنفخ النار فى أدبارهم فتخرجُ من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم فأولئك الذين كانوا يعملون عملَ قوم لوط الفاعل والمفعول به فهم يعذَّبون بهذا حتى يصيروا إلى النار .

وأما النّارُ المطبقة التى رأيتَ مَلَكًا موكّلاً بها كلما خَرجَ منها شىء أَتْبَعه حتّى يعيده فيها ، فتلك جهنم حتى يُفَرق بين أهل الجنة والنار .

وأما الروضة الخضراء التى رأيت فتلك جنة العامة . وأما الشيخ الذى رأيت أن لا أحد أجمل منه حوله الولدان فذاك أبوك إبراهيم .

وأمّا الشجرة التى رأيت وطَلَعْتَ إليها ، فيها منازلُ لا منازل أحسنَ منها ، منها درة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء . فتلك منازل أهل عليين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

وأمّا هذا النهر الذى رأيت فنهرك الذى أعطاكه الله ، وهذه منازلك ومنازلُ أمّتك ثم نوديتُ من فوقى يا محمد ، سَلْ تُعط ، فارتعدَت فرائصى ورَجَف فؤادى واضطربَ كلّ عضو منى ولم أسْتطع أنْ أجيبَ شيئًا فأخذ أحدُ الملكين يَدَهُ اليمنى فوضَعها بينْ ثديى وأخذ الآخرُ فوضعَ يده بين كتفى ، فسكن ذلك منى ، ثم نوديت من فوقى ، يا محمد سلْ تُعط ، قال : قلتُ : اللهم أسألك أن تثبت شفاعتى وأن تلْحق بى أهل بيتى ، وأن ألقاك لا ذنب لى»[(1)] .

هذه بعضُ المشاهد من عالم الغيب كما رواها حديث المعراج ، وكانَ من المنتظر أن ننقل حديث ابن عباس بدلَ حديث زيد بن على ، حيثُ يتضمّن كثيرًا من مشاهده ، ولكنّ المحدّثين قد ردوه مع ما ردّوا من روايات ضعيفة ذكرها الدكتور على حسن عبد القادر ص ١٢٨ من «كتاب المعراج » ، كما ذكر الدكتور بعضَ مصادر الروايات الصحيحة ص ١٣٧ .

(١) المعراج للقشيرى تحقيق د . على حسن عبد القادر من ص ٣٩ : ٤٢

فحديث المعراج إذنْ كما روته الروايات الراجحة ، ولخصهُ حديثا أنس وزيد يُعتبر فتحًا مبتكرًا فى عالم البيان التّصويرى تمخض عن الجديد الطريف .

وقد رَوى البخارى عن سمرة بن جندب حديثا آخر ينحو نحو حديث زيد فى لبابه ، وإنما ألمعنا إلى ذلك لتُزيل الشّك من الصّدور التى لا تزال تقابل بعض روايات الشيعة بالصدّود ، وهى فى ذلك واهمة مغرقة ، لأن أئمة المفسرين من الشيعة المخلصين كزيد بن على وجعفر الصادق لا يمكن أن يرتقى الشك إلى أقوالهم ، وإذا وُجد فى الشيعة مُغالون فلن يذهبوا بفضائل الأئمة المخلصين .

وقد جرت سنة الله سبحانه أن يوجد الباطل مع الحق فى كل شىء وفى رجال الدين من شيعة وسنيين .

وقد آن لنا فى مجال البحث العلمى أن نُنصف إخواننا فى الإسلام دون أن نأخذ البرئ بإثم الظالم .

ولعل الأزهر الشريف قد فطن إلى ذلك حين قرر دراسة فقه الشيعة بكلية الشريعة كى يلتقى المسلمون على نهج سواء .

لا جرم أنّ مشاهد القيامة فى القرآن قد صَوّرت اليومَ الآخر تصْويرا لا ينفدُ سحره ، ولكنّ القيام برحلة فى عالمِ الغيب هو مما أبرزه حديثُ المعراج لأول مرة فى الأدب العربى ، وقد استغلّه الخطباء والواعظون فى مواقف الترغيب والترهيب ، وليس هنا مجال القول فى ذلك ، ولكننا نبحث عن التأثير الفنى الخالص فى الأدب العربى أوّلا ثم فى غيره من الآداب .

أماَ فى الأدب العربى فقد كانَ صداه عند أبى العلاء المعرّى فى الرحلة الخيالية إلى الجنة والنار فى « رسالة الغفران » حيث استهلّها بزيارة للفردوس تصف شجرهُ وأنهاره ولَبَنَه وخَمْره وأوَانيه التى شُكّلتْ على هيئة الطير السابحة من كراكى ومكاكى وطواويس ، ثم أخذ يتحدث عمن تخيلهم بالفردوس من الشعراء : كزهير بن أبى سلمى وعبيد بن الأبرص والهذلى والنابغتين مناقشًا إياهم فيما ينقده من أدبهم المأثور .. ثم يقابلُ حسان بن ثابت فينقد بعض ما قاله ، ويتطرق فجأة بصاحبه إلى يوم الموقف فى يوم مقداره خمسون ألف سنة وبه يطول الأمد ، ويشتد الظمأ فيستشفع برجل عليه نور يتلألأ هو حمزة بن عبد المطلب فيرسلُ معه رسولا إلى على بن أبى طالب ليخاطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شأنه ، ثم يرد الحوضَ ويستشفع بفاطمة بنت محمد لتسترحم أباها فيشفع له ويعبر الصراط إلى الجنة ، فيحاورُ رضوان قبل دخوله ثم يلج إلى

نعيم الفردوس ليقابل حميد بن ثور ولبيدًا ويقيم لهما ولزملائهما من الشعراء مأدبةً حافلة بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، ويمرّ ملك كريم فيُعطيه ثمرةً من شجر الحور هى رمانة أو تفاحة أو ما شاء الله من الثمار فيكسرها فتخرجُ منْها حورية عينُها تبرق لحسنها حُوريّات الجنان ، وتقول له : إنى أتمنى لقاءك قبل أن يخلقَ الله الدنيا بأربعة آلاف سنة .

ويبدو له أنْ يطلع إلى أهل النار فيركب بعض دوابّ الجنة فيرى فى الطريق جنة العفاريت المؤمنين بمحمد والمذكورين فى سُورة « الأحقاف » فيسمعُ أشعار الجنّ ، ويرى بعضَ آساد الجنة ويحادث الحطيئة وقد جلس فى أهونِ منازل الجنة ، فإذا وصل إلى أقْصَى مكان بها ، وَجَد الخنساء تجلسُ هكذا لترى أخاها صخرًا يُعذب فى جهنم ، فإذا أطافَ بالنار رأى إبليس يضطربُ فى الأغلال والسلاسل ، ومقامعُ الحديد تأخذُه من أيدى الزّبانية ثم يصطنعُ على لسانه فكاهة سمجة ماكانَ أحرى أبا العلاء باجتنابها فى مثل هذا الموقف .

ويَرى بشار بن برد فى أصناف العذاب يُغْمضُ عَيْنيْه حتى لا ينظُر إلى ما نزل به من النّعَم فتفحتها الزبانية بكلاليب من نار فيحادثه مع زملائه المعذّبين من أمثال : امرئ القيس وعنترة العبسى وعلقمة وعمرو بن كلثوم وطرفة والأخطل، وإبليس يسمع ذلك الخطاب كلّه فيقول للزبانية : «ما رأيتُ أعجزَ منكم إخْوَانَ مالك ، ألا تسمعون هذَا المتكلم بما لا يعنيه فلو أنَّ فيكم صاحبَ نحيزة قوية لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى سقر ، فيقولون : ليسَ لنا على أهل الجنة من سبيل ، وبعد الرحلة الجهنمية يقفُل إلى الفردوس يحاور آدم وذات الصّفا ، ثم يضرب فى غيطان الجنة ليقابل حُوريّته التى انشقت عنها الثمرة» .

رحلة رائعةُ التصوير محلّقة فى القمة من عالم الفن ولو رسمنا مشاهدها فى لَوحاتٍ فنية كمَا رُسمت مشاهدُ الكوميديا الإلهية لأمْكن أن تُقارَنَ بها ، وأذكرُ أنّ فريقًا من أساتذة الأدب المقارن قد تلاحوا بصدد تأثير أبى العلاء فى دانتى . فمن مثبتٍ هذا التأثير متعلّل بما عُرِفَ من اتصال الشرق والغرب أثناء الحروب الصليبية وبعدها ، عن طريق مصر والشام وصقليّة والأندلس ، ومن مُسْتبعد لهذا التأثير ، لأنّ دانتى لا يمكن أن يصبر على قراءة رسالة تضم كثيرًا من النقاش النحوى والصرفى واللغوى ، والذين قد تلاحَوْا بصدد تأثر دانتى بأبى العلاء كَانَ عليهم أن يتجهوا إلى حديث المعراج مباشرة ، وهو المصدُر الأول لأبى العلاء باتفاق ، أما كونُه المصدرَ الأول أو أحَد المصادر الهامة لدانتى فهذا ما سيتضح لنا عن قريب .

لقد بدأ « دانتى » جحيمه ذاكرًا أنّه كان يضرب على غير هدى فى تيه لا أول له ولا آخر إذ يضلّ فى غابة مظلمة تعجّ بالأفاعى والوحوش وقد أنقذه فرجيل من أحد الكواسر ، بعد أن كاد

يمزقه . وقد دلفا معًا إلى الجحيم فسمع دانتى أنين المعذبين فسأل عنهم فرجيل فأجابه أنهم الذين قَضوا حياتهم فى لهو لا يعبأون بأوامر الله . ويرى أصحاب المطامع المنكرة تنصبّ فوقهم شآبيب من برد وثلج ويمزّق أجسادهم الكلبُ « سيْر سيرُوس » بأنيابه الحداد .

ثم يعبر دَركا آخر ليرَى نهرًا من الدم تسبح فيه أرواح الذين آذوا جيرانهم بالافتراءات .

أمّا المنافقون فَيرتَدُون عباءات من نار ، وطراطيرَ من جمر .

وقد فجر « دانتى » فُجورًا خسيسًا سَافِلاً حين أعماه التعصب فجعل نبى الإسلام ـ أكرم خلق الله وأشرفهم على الإطلاق ـ بين أهل النفاق من المعذبين ! ! وذلك ما يُنتظَر من كاثوليكى متعصب ظلّ يأسف على انقضاء الحروب الصليبية دُون أن تستأصل المسلمين ! ! ثم يشهدُ زمهريرًا من ثلج وبَرْد وماء يلفّ الآثمين فى قرار الدرك التاسع ، وحينئذ ينتهى الجحيم ، ويصل إلى المطر فيهب عليه أوّل أنفاس الفجر المرطّب بالندى ويَرَى النجوم تتألق فى بنفسج السماء ، ولجةً ترغى وتزبد حول جزيرة نائية ، ينهض فوقها جبل شامخ ، رفيع الذرى[1] إلى أن يصل إلى شجرة باسقة ، ذات طلع نضيد ، وفاكهة حلوة ، يفوح عبيرها وفى أوراقها أرواح تذكر الله وتسّبح بحمده .

والناقدُون يرونَ سدرة المنتهى فى المعراج هى التى ألهمت دانتى صورة هذه الشجرة وتَرى الأرواح الهائمة فى النارّ ظل « دانتى » على اللهب ، فإذا انتهى من المطهر سَمَا إلى الفردوس فَاحتسى جُرْعةً نزعَتْ ما فِى نَفْسِهِ مِنْ أدران الدنيا وجعَلتْ جسمه هُلامًا شفّافا كى يَرقى فى السماء دون عائق ، ثم يرى السيِّد المسيح وفى أثره مريم البتول ثم يدخلان سماءَ المنتهى ـ بهذا التعبير القرآنى ـ ذات الضوء الوهّاج ، فيقف قليلا ثم يفيقُ من رؤياه وتنتهى الرواية .

تلك هى الخطوطُ الواضحة فى كوميديا الشاعر ، وأثر حديث المعراج بها أوضحُ من أن يُدَلّ عليه فهو يتجلّى فى تكوين الهيكل العام للكوميديا من رُؤية المعذبين والسؤال عن جرائمهم ، ومن أدوات التعذيب وزبانيته ، ومن بحار الدم والصديد ومن سرد طائفة المقابح وما أعدّ لها من العقاب ومن غير ذلك مما يستشفّه القارئ من خلاصتنا المركزة التى أوجزنا بها خطوط الكوميديا الإلهية .

وقد قامت معركة حاميةٌ بين المستشرقين ، ما بين منكرين لتأثير حديث المعراج ، ومثبتين له

(١) من ترجمة الأستاذ د. خ من مجلة الرسالة أعداد يوليو وأغسطس سنة ١٩٣٦

حتى عُثِرَ علىَ مخطوطات قديمة لحديث المعراج تُرْجمتْ قديماً إلى اللاتينية قبل زمان الشاعر مما يُثبتُ إلمامه بها فى لُغَته ووطنه .

ولهذا الكشف الأدبي الجليل قصة طريفة لا مناص من الإشارة إليها بإيجاز .

لقد عاشَ دانتى فيما بين القرنيْن الثالث عشر والرابع عشر ورَحَل عن الحياة متمتعا بصيت أدبىّ رنّان ، إذ اعتُبرتْ ملحمتُه الإلّهية أنضج ثمار الأدب الإيطالى فى جميع عُصُوره وظلّتْ موضعَ المباهاة لَدَى قومه فكانوا يقابلون بالاستنكار والتهكم أحيانًا مَنْ يَسْعى لإيجاد مُقارَنة بَيْنها وبين النصوص العربية أو اليونانية ، ويروْن ذلك مُحاولة للنيل من شاعر مبتدع جلّ أن يُقْرنَ إلى نظير ، ولكنّ عُشاق المعرفة فى كلّ مكان لا يُبالونَ بإشباع الغرور القومى لدى بعض الطليان فهبّوا فى القرْن الماضى يَعقدون الدراسات المختلفة بين المتشابهات من أمثال «ملحمة فرجيل» «وحديث المعراج» «ورسالة أبي العلاء» وتتوالى الردود عليهم من المعارضين . دون أن يتقدم البحثُ خطوة إلى الأمام حتى جاء المستشرق الأسبانى «أسين بلا سيوس» سليل أبناء الأندلس الذين أشرقتْ بحضارتهم الإسلامية أوربا فى عصر الظلمات ، فأخَذَ على عاتقه أن يترهّب رهبنةً متصوفة فى البحث عن تأثير أجداده العرب من الأندلسيين فى آداب العالم وثقافاته ، ووصل فى بحثه إلى نتائج مدهشة تثبت تأثير بثولوجية ابن رشد فى سان اكوينتس ، وابن عربى فى ريمو ندلال ، وإخوان الصفا فى فرانس انسلمو .

وجاءتْ خاتمة أبحاثه تعلن تأثير العَقيدة الإسلامية فى كوميديا دانتى ، إذ ساعدته دراساته العربية العريقة أن يتتبع أكثر خواطر الشاعر معقبا عليها بنظائرها فى القرآن والحديث ، وقصة المعراج ، وبعض آثار ابن عربى المتصوف الأندلسى ، ولكنّ مجال الانكار بعدَ ذلك لا يزال متّسعا ، إذْ أن هناك سُؤالاً لا يجد الجواب الشّافى ، وهوَ كَيْفَ تطرّقتْ المعارفُ الإسلامية إلى الشاعر الإيطالى الكبير؟ ، ولو كانَ الجدلُ المقارن وَحْده مجالَ الترجيح لا نحسم النزاع ، لأنّ تحليلات آسين بلا ثيوس كانت من القوة بحيث لا يتطرق إليها اللبس ، ولكَنّ المتمسكين بالعثور على وثيقة تثبت إلمام دانتى بالثقافة الإسلامية يرفُضون كلّ جدل منطقى مُقنع ، ويودون ما يُلمَسُ باليد ، لا ما يُدرك بالعقل ، ولمْ يستطع البحاثة الكبير بلاثيوس أن يجد هذه الوثيقة فمات بحاجة لم يقضها كما مات الفرّاء وفى نفسه شىء من حتّى .

ولكنّ الحقّ لم يعدم أنصاره ، إذ اجتهد بعده المستشرق الإيطالى الأستاذ مُونيرى دى فيبار فى تتبع هذه المسألة حتى عثر على ترجمتين غَرْبيّتين مخطوطتين لقصة المعراج كما رَوَاها أهل الحديث

النبوى كتبت أولاهما بالفرنسية وحفظت بمكتبة اكسفورد ، وكتبت الأخرى باللغة اللاتينية وحُفظت بالمكتبة الأهلية بباريس .

وجاء بعده الأستاذ الإيطالى تشيرولى ، ودرس المخطوطين فأكد وجهة نظر الأستاذ مونيرى ومن قبله بلاثيوس وسَارع بنشرهما مضيفا إليهما ما تتطلبان من الحواشى والتفسيرات لتوضيح مسألة التأثير ، وبتوالى البحث ظهر أن كلتا المخطوطتين تُرجمت عن القشتالية من العربية إذ قام بترجمة القصة إلى القشتالية طبيب يهودى كان ببلاط الملك الفونسو بأشبيلية سنة ١٢٦٤ م يدعى ابراهيم الفقيم ثم نقلها فى أثره إلى اللاتينية والفرنسية معًا الكاتب الإيطالى بونافنتورا الذى كان سكرتير الفونسو (١٢٢١ ـ ١٢٧٤ م) .

لقد وقعت فى أيدينا الوثيقة المطلوبة إذن ، ولو عثر عليها بلا ثيوس لعد نفسه أسعد باحث خدم قضيةً غامضَة . فسلّط عليها من الأشعة ما يجلو الغموض . ولكنَّ الذين تم على أيديهم اقتطاف الثمرة يعترفون بالجميل لمن غرس البذرة وعمل على إروائها وتنميتها بعد أن مهد الأرض وقواها بالحراثة والتسميد .

وبهذا أصبح مؤكدًا لدى العلماء أن دانتى ـ وقد انتشرت هذه النصوص قبل ميلاده ـ قد اقتبس فكرة كوميدياه من المعراج وتأثر به فى نظمه وتفكيره وخياله أوضح تأثير .

يقول المستشرق الإيطالى الكبير الأستاذ أمبرتو ريزتيانو الأستاذ بجامعة القاهرة من بحث نَشرته « مجلة الرسالة » بافتتاحية العدد (٩٤٠) ما نصه « هذا وقد يتساءل الباحث عمّا إذا كانت ترجمة مِن هذه التراجم الثلاث كانت معروفة فى إيطاليا أثناء القرون الوسطى . والإجابة فى هذه المرة لابد أن تكون بالإيجاب إذ ورد هذا الكتاب الخاص بقصة المعراج فى كتابين من مؤلفات كاتبين إيطاليّين عاش أحدهما فى منتصف القرن الرابع عشر . وعاش الآخر فى أواخر القرن الخامس عشر . وليس هذا إلا دليلاً على انتشار المعلومات عن العقائد الإسلامية وفلسفة العرب فى بلاد أوربا ولا سيما إيطاليا فى القرون الوسطى » .

وأظنّ المتتبع لأدوار هذه القضية بإنصاف وحَيدة لا يَسعه إلا القول بتأثير حديث المعراج فى أروع تحفة يفتخر بها الإيطاليون . ويقيمون لدانتى كل عام مهرجانا تذكاريا لإبداعها ويرصدون الجوائز الأدبية باسمه من أجلها . وكأنه بها فى رأيهم أعظم أديب عرفه التاريخ .

أما أثر المعراج فى الأدب الفارسى فَمَا أَوْضَحَه وأقواه فيما نعرفه من أشعار المتصوّفة بفارس . وهم مسلمون قد درسوا عقائد شريعتهم وألموا بحياة نبيّهم ، ثم جذبتْهم قصة المعراج إلى رحلات

خيالية بديعة قاموا بها على جناح الشوق إلى آفاقهم الروحية .

ومن أشهرهم فى ذلك شيخهم الشاعر الأكبر سنائى صاحب كتاب «الحديقة» «ومثنويات كنوز الرموز» «وحديقة الحدائق» و«سير العباد إلى المعاد» وغيرها ، وقد اتصل فى صدر حياته بملوك غزنة ، إلا أنه تزهد وتصوّف وحج على قدم التجريد . وهنا تدفق الطوفان الإبداعى على لسانه شعرًا ، تردد على ألسنة معاصريه وتتلمذ عليه مَنْ سلك سبيله من بعده . أما معراج سنائى فقد نشره فى كتابه (سير العباد إلى المعاد) ليشرح رجوع النفس من عالمها المظلم الذى سقطتْ فيه إلى أصلها الإلهى ، ومقرها الأخير فى رحلة تُصور مقامات المتصوفة وأحوالهم تصويرًا يُدركه المتخصصون ممن تشربوا مصطلحات القوم وعرفوا خباياها وخفايا رموزها .

وإذا كان سنائى قد سبق دانتى فى الزمن فإن المستشرق نيكلسون قد عقد بينهما مقارنات تدل على استقاء الشاعر الإيطالى[1] من معين الفكر الإسلامى ، وإذا كان اطلاع دانتى على روائع «سنائى» لا يزال افتراضا فإنّ اطلاعه على حديث المعراج النبوى قد انتقل من ضباب الافتراض المحتمل إلى ضياء اليقين الجازم ، وقد تأتى الأيام المقبلة بالجديد عن تأثير سنائى إذا اطرد البحث على وجهه النزيه .

أما متصوفة الأدب العربى فقد جذبتهم قصة المعراج بصورها العلوية وأنوارها السماوية دون شكّ ، وأوضح من تأثّر بها إمامان كبيران هما : محيى الدين بن عربى الأندلسى . وأبو يزيد البسطامى .

فالأول فى الفتوحات المكية ، قد ذكر عن العرش والسدرة ، وأنوار ذى الجلالة ما نجدُ أصله فى الصحيح من حديث المعراج والموضوع معًا ، والطريف أن نيكلسون يجعل «دانتى» متأثرًا أيضا بابن عربى فى ذلك ويفيض فى مقارنات طريفة ليس هنا مجال تفصيلها .

وقد أشار إليها الدكتور مبارك فى الجزء الأول من التصوف الإسلامى ص ٢٠٧ نقلا عن غيره ، أما أبو يزيد البسطامى فقد نشر الدكتور على حسن عبد القادر نصّ معراجه ملحقًا بكتاب القشيرى ١٢٩ وهُوَ رحلة روحية بديعة تجسّم المعنويات فى صُور حية تنطق بالبراعة والإبداع .

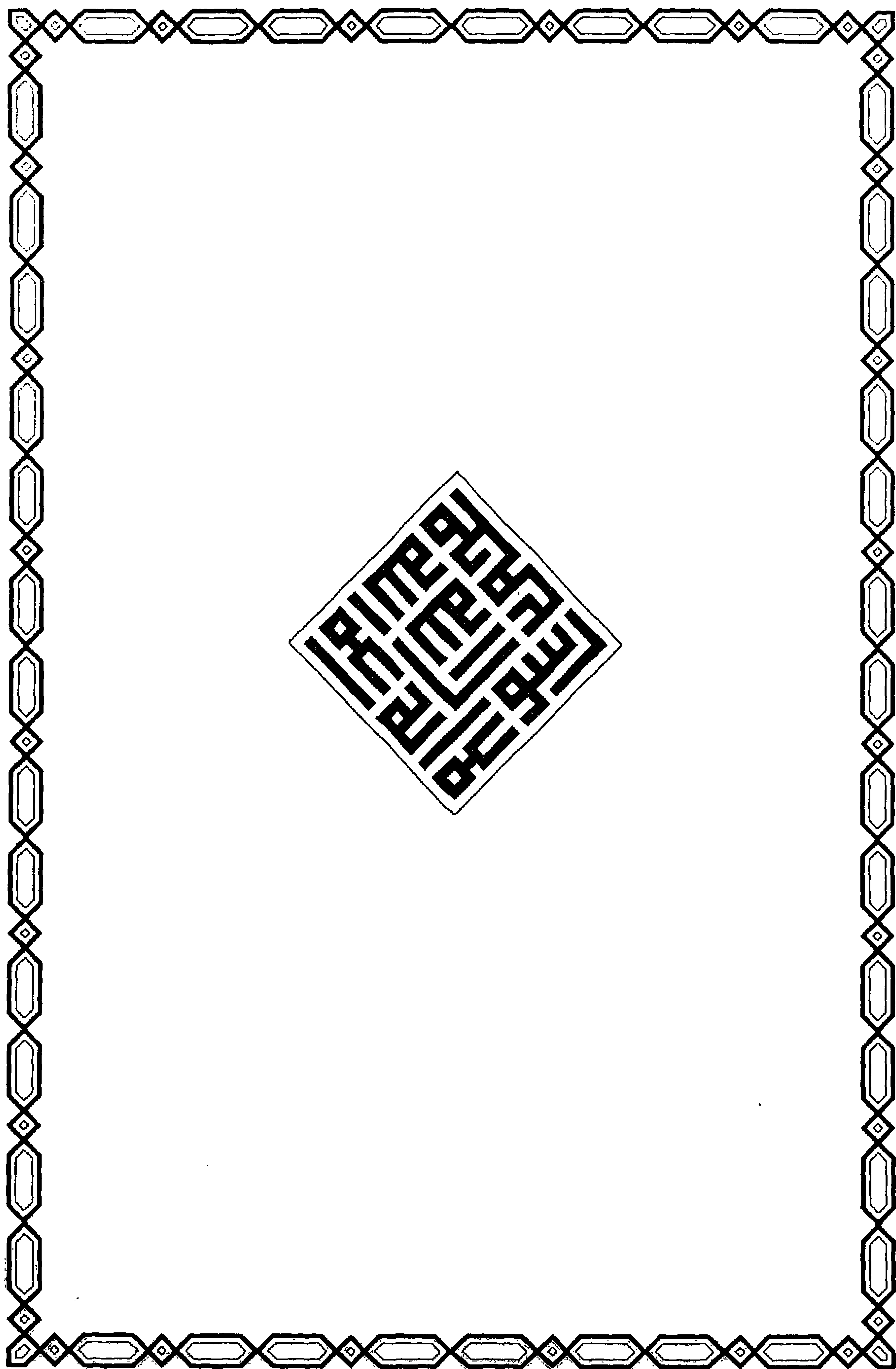
ويقول فى مطلعه : «إنى رأيت فى المنام كأنى عرجتُ إلى السماوات قاصدًا إلى الله على أن أقيم معَهُ إلى الأبد فامتحنت بامتحان لا تقوم له السموات والأرض ومَنْ فيهما إذ بَسَط لى بساط العطايا نوعًا بعد نوع وعُرض علىّ مُلْكُ كلّ سماء فى ذلك كُنْتُ أغضى بصرى عنها ، لما علمتُ

(١) كتاب المعراج ص١٣ للدكتور حسن عبد القادر

أنه بها يجربني فكنتُ لا ألتفت إليها إجلالا لحرمة ربي . وكنتُ أقول فى كلّ ذلك يا عزيزى . مُرادى غيرها تعرض لى . ثم مضى أبو يزيد يذكر ما رآه فى السماء الدّنيا من طير أخضر ، نَشَر جناحًا من أجنحته فحملتهُ إلى صفوف ملائكة يضعون أقدامهم بالنجوم فتساءلوا عن بشَر يصعدْ إلى مقر الأملاك فألْهِم كلمات قالها ثم صَعد إلى السماء الثانية فرأى فوجًا من الملائكة يستقبلونه استقبال مدينة لأميرها وتقدم إلى روضة خضرة تحوى نَهْرًا وحوْلَهُ ملائكة يطيرُون إلى الأرض كلّ يوم مائة ألف مرة .. فترك ذلك إلى سماوات أخرى فإذا جميعُ الملائكة يسلّمون عليه . يقول أبو يزيد : «فلماً علم سبحانه وتعالى منى صدق الإرادة فى القصد نادانى إليه ثم سقانى شربة مِن عيْن اللطف بكأس الأنس ... ثم قابل روح محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسلم عليه وأوصاه ...» .

تلكَ خُيوطٌ من معراج البسطامى وقدْ قيل عنه إنّ أبا يزيد يذكر ما يذكر على لسان الحال لا الوقوع ليقرّب إلى الوجدان بعض أحاسيسه . ولا نملك الحكم هنا على أحوال القوم إنما نثبت قضية التأثير كما اتضحت معالمها لدى الصوفى الكبير ، فى معرض نقدى أدبى فحسب .

إنّ حديثًا نبوياً ـ كحديث المعراج ـ يترك دويّه فى الآداب العربية والفارسية والأوربية وغيرها لجديرٌ أن نفسح له أطيب مكان فى كتاب تذكارى يَتحدّث عن أدب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .



تحفظات على الكتابة العصرية للسيرة النبوية

الأستاذ
أنور الجندى

إن العمل الذى قام به الكتاب العصريون لتقديم السيرة النبوية ، قد أدى دورًا لا بأس به ، وأحدث أثارًا طيبة فى نفوس المسلمين ، ولكنه لم يكن عملاً أصيلا على طريق التطور الطبيعى لكتابة السيرة من منطق المفهوم الإسلامى الجامع القائم على أساس التقدير الكامل للوحى والنبوة والغيبيات والمعجزات .

ومن هنا كان عجزه وقصوره الذى جعله فى تقدير الباحثين قائمًا على التبعية والاحتواء للمناهج الغربية التى لم تكن عمليتها إلا مظهرًا خادعا يخفى من ورائه الأهواء والخلافات بين الأديان ونزعة الاستعلاء الغربية ومطامع النفوذ الغربى فى السيطرة على الفكر الإسلامى والتاريخ الإسلامى حتى لا يحقق ابتعاثه الأصيل هدفًا يجدد حضارة الإسلام ويفتح الطريق لقيام المجتمع الإسلامى .

لقد احتوى هذا العمل على مجموعة من الأخطاء الأساسية التى كان مصدرها تبنى أسلوب المستشرقين وتبنى وجهات نظرهم وهم أساسًا لا يعترفون بالإسلام دينا خاتمًا ولا با لنبى محمد ، ولا يؤمنون بالوحى ولايفرقون كما يفرق المسلمون بين الألوهية والنبوة .

وفى مقدمة هذا البحث نؤكد أنَّ كتابات العصريين فى السيرة النبوية كانت فى عصرها أمرًا محببًا أقبل الناس عليه وقدّم سيرة الرسول وعظمة الإسلام للجماهير التى كانت لا تلم بالدراسات العلمية إلا قليلا .

فقد كتبت هذه الفصول أول الأمر فى المجلات الأسبوعية الذائعة (السياسة الأسبوعية . والرسالة) مماكان لها أثرها فى الانتشار والذيوع ، وقد اختلفت فعلا عما سبقها من كتابات السيرة التى نشرت فى مؤلفات لغلبة الأسلوب الصحفى الميسر .

ولقد كانت هذه الكتابات فى تقدير المؤرخين والباحثين على حالتين :

● **الحالة الأولى :**

العامل القريب والمباشر وهو ظهور حركة التبشير المسيحى الضخمة فى القاهرة عن طريق الجامعة الأمريكية عام ١٩٣٢ وتنصير عدد من الطلاب المسلمين بها وكان ذلك جزءًا من موجة ضخمة قام بها الغرب بعد أن استردت الفاتيكان الأموال الضخمة التى كانت قد احتجزتها الحكومة الإيطالية عنها .

● **الحالة الثانية :**

أثر الحرب العالمية الثانية فى نفوس الناس بالدعوة إلى الرجعة إلى الدين والتطلع إلى آفاق جديدة تقدمها رسالات السماء وفى مقدمتها الإسلام .

غير أن هناك عوامل أخرى خفية وراء ظواهر الأحداث تحدثت عنها كتابات الباحثين والمراقبين لهذه الأحداث منها :

أولا : رغبة حزب الأحرار الدستوريين فى كسب مشاعر الوطنيين بعد أن عرف عنه أنه الحزب الذى يجمع دعاة التغريب وأساطينه والذى صدرت من تحت عباءته الكتب التى أثارت الضجة وخالفت مفاهيم الإسلام الأساسية وهزت مشاعر الناس وفى مقدمتها (الشعر الجاهلى لطه حسين) و (الإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق) ، وكانت الفكرة التى استقر عليها الرأى هو الدخول إلى مشاعر المسلمين عن طريق الكتابة عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (هذا بالنسبة لكتاب حياة محمد للدكتور هيكل) .

ثانيا : الموقف الذى أحدثته الحرب العالمية من ائتلاف بين البلاشفة والرأسماليين فى وجه النازية وما تسرب إلى البلاد العربية من دعايات شيوعية ورغبة الغرب فى مواجهتها عن طريق تزييف مفهوم الماركسية عن البطولة الجماعية ورد الاعتبار للبطولة الفردية التى كانت عنوانًا على الفكر الليبرالى الغربى . ومن هنا كانت الكتابة عن البطولات الإسلامية من منطلق غربى « هذا بالنسبة للعبقريات » .

وقد ظهرت هذه الكتابات متفرقة فى الصحف : حياة محمد فى ملاحق السياسة ١٩٣٢ على أنها ترجمة وتلخيص لكتاب إميل درمنجم وكانت تنشر تحت هذا العنوان (حياة محمد . تأليف إميل درمنجم . تلخيص وتعليق الدكتور محمد حسين هيكل) ثم ظهرت فصول (على هامش السيرة) فى الأعداد الأولى من مجلة الرسالة التى صدرت ١٩٣٣ بقلم الدكتور طه حسين . أما فصول (عبقرية محمد) فقد بدأت عام ١٩٤٢ بقلم الأستاذ العقاد فى أحد الأعداد السنوية الخاصة بالهجرة بعد أن اشتعلت الحرب العالمية الثانية بعامين .

وكان الكتاب الثلاثة من المعروفين فى مجال الدراسات الأدبية والسياسية بأنهم عصريون ليبراليون علمانيون . قليلو الاهتمام بالدراسات الإسلامية . بل كانت جريدة السياسة تحمل حملات ضخمة على الإسلام (هيكل ـ طه حسين ـ على عبد الرازق ـ محمد عبد الله عنان) وتؤازر الغزو الثقافى ، بل لقد حمل الأستاذ العقاد حملة ضارية على الكتب الإسلامية التى صدرت عام ١٩٣٥ فى جريدة روز اليوسف اليومية وعدَّها ظاهرة خطيرة وقال : إن هذه الكتابات بمثابة مؤامرة على القضية الوطنية ، وتردد يومها أن الدكتور محمد حسين هيكل قد أحرز قدرًا ضخما من الكسب المادى من كتابه ومن ثم أصبحت الكتابة الإسلامية موضع تقدير فى نظر الكتاب ، غير أن أخطر ما هنالك أن الدكتور هيكل وعلى عبد الرازق أعلنا موقفًا خطيرًا فى مجلس الشيوخ عندما أثير النقاش فى كتابات طه حسين ووقفا للدفاع عنه وتبين من ذلك أن الكتابة عن الإسلام لم تكن تصدر عن إيمان برسالة الإسلام (دينًا ودولة) وإنما كانت من الأعمال السياسية والحزبية . وإذا كانت كتب : حياة محمد ، وعلى هامش السيرة ، والعبقريات ، قد هزت وجدان الشعب المسلم وقتها وأحدثت نوعا من الإعجاب والتقدير فإن هذا كان هدفا مقصودًا من الجهات التى شجعت ذلك وهو :

أولاً : مواجهة حركة اليقظة الإسلامية التى كانت تهدف إلى تقديم الإسلام كمنهج حياة ونظام مجتمع بكتابات إسلامية من أقلام رائعة لها مكانتها السياسية فى الجماهير لتحويل التيار نحو المفاهيم العلمانية والليبرالية وهو ما يسمى (تقديم البديل) المتشابه ظاهريًا والمختلف جوهرًا وهو بهذا استجابة ظاهرية للموجة الإسلامية ومحاولة لاحتوائها .

ثانيا : فرض المفهوم الغربى على السيرة والتاريخ الإسلامى وهو المفهوم المفرغ من الوحى والغيبيات والمعجزات .

ولكن هذه الظاهرة بالإعجاب بكتب الليبراليين عن السيرة لم تدم طويلا فقد تكشفت

خفاياها وظهر أن منهج الكتابة فى هذه المؤلفات لم يكن إسلاميًا أصيلا وإنما تشويه التبعية لمفاهيم الاستشراق والتغريب حتى ليمكن أن يقال فى غير ما حرج: إن المؤلفات الثلاثة الكبرى :

(حياة محمد ـ على هامش السيرة ـ عبقرية محمد)

هى نتاج غربى يعتمد على مذاهب الكتابة الغربية ويخضع لكثير من أخطائها ويسقط بحسن نية وراء مفاهيمها الكنسية والمادية ، ويختلف اختلافا واضحا عن مفهوم الإسلام الجامع .

ولقد تطورت الدراسات الإسلامية فى ظل حركة اليقظة الإسلامية واستطاعت أن تتحرر من هذه المرحلة التى كانت تمثل التبعية للفكر الغربى فى دراسات التاريخ الإسلامى وكتابة السيرة وهى التى قامت على مفهوم يتسم بالتأويل للمعجزات ومحاولة حجب الكثير من وجوه الإعجاز ومتابعة المستشرقين فى مفاهيمهم لسيرة النبى الكريم .

وفى الكتب الثلاثة نجد أن العمل يبدأ غربيًا ثم يفرض على سيرة الرسول .

فالدكتور هيكل يبدأ عمله فى كتابة السيرة بترجمة كتاب (اميل درمنجم) الكاثوليكى الفرنسى ويتبنى كثيرًا من آرائه التى يمكن أن توصف بالخطأ أو عدم القدرة على فهم الإسلام أو تبنى عقائد النصارى أو متابعة هدف يرمى إلى التقريب بين الأديان أو الدعوة إلى وحدة الأديان (وهو هدف ضال) .

والأستاذ العقاد يبدأ عمله بمنطلق غربى محض هو فكرة (العبقرية) التى تناولتها كتابات الغربيين شوطا طويلا عن نوع من الامتياز أو الذكاء فى مجال الفن والموسيقى والشعر والقصة فى الغرب ويسحب هذا الوصف على النبى المؤيد بالوحى وعلى العظماء من الصحابة دون تفرقة واضحة بين النبى والصحابى .

والدكتور طه حسين يعلن فى غير ما حرج أنه استوحى (هامش السيرة) من كتاب جيل لومتير عنوانه (على هامش الكتب القديمة) وأنه يحشد فيه كل ما استطاع من أساطير اليونان والمسيحية واليهودية والإسرائيليات وهكذا يتبين تبعية هذه الدراسات أصلا للفكر الاستشراقى .

ويمكن تصنيف الأخطاء التى وقعت فيها المدرسة التغريبية فى كتابة السيرة على هذا النحو :

أولا : متابعة مناهج ودراسات كتاب الاستشراق

فقد عمد الكتاب الكبار الثلاثة إلى البدء فى كتابة السيرة من منطلق غربى استشراقى .

فالدكتور هيكل معجب بكتاب إميل درمنجم وما يحويه من آراء تقرب مسافة الخلف بين

الإسلام والنصرانية ومن ذلك نراه يتابعه فى مجموعة من الآراء تختلف مع مفهوم الإسلام الأصيل وإن كان هيكل قد رد على آراء المستشرقين فى مسائل إلا أنه قد خضع لمناهج المستشرقين ولمفهومهم فى الفلسفة المادية ، بالنسبة للمعجزات ، وبالنسبة للإسراء والمعراج وبالرغم من نوايا الدكتور هيكل الطيبة فى تقديم صورة بارعة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن موقفه من إنكار المعجزات والغيبيات وتجاهلها حتى وإن وردت فى القرآن والسنة ـ على حد قوله ـ كان مأخذًا كبيرًا فى تعليل قيمة العمل الذى قام به .

فقد أنكر عددًا من المعجزات الثابتة بصريح القرآن ومتواتر السنة ، كنزول الملائكة فى بدر ، وطير الأبابيل ، وشق الصدر ، والإسراء ، وأنّ (اقرأ) كانت منامًا وأولَ ذلك كله إرضاء للمنهج العلمى الغربى الذى أعلنه وأعلن التزامه به فاعتبر الإسراء سياحة الروح فى عالم الرؤى ، ووصف الملائكة الذين أمد الله بهم المسلمين فى غزوة بدر بالدعم المعنوى ، ووصف طير الأبابيل بداء الجدرى ، واعتبر شق الصدر شيئًا معنويًا ، واعتبر لقاء جبريل بالنبى فى حراء منامًا ، وبذلك عمد إلى تفريغ تاريخ النبى من الحقائق الغيبية والمعجزات وقصر موقفه على أن للنبى معجزة واحدة هى القرآن الكريم مع أنَّ الخوارق والمعجزات لا يمكن أن تتنافى فى جوهرها مع حقائق العلم وموازينه وقد سميت خوارق لخرقها لما هو مألوف أمام الناس ، وما كان للإلف أو العادة أن يكون مقياسًا علميًا لما هو ممكن وغير ممكن ، ولما كان الله تبارك وتعالى هو صانع النواميس فإنه هو وحده القادر على خرقها متى شاء . يقول الشيخ محمد زهران :

ولقد علل الدكتور هيكل إنكاره جميع المعجزات المحمدية (غير القرآن) بأنها مخالفة للسنة الإلهية ، وزعم أن روايات معجزاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ موضوعة ، قصد واضعها إما أن يجعل لنبينا مثل مالموسى وعيسى عليهما السلام وإما أن يشكك الناس فى صحة آية (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

ولا شك أن دعوى استحالة خرق العادات المعبر عنه فى كتابه بمخالفة السنن يستلزم التسليم بها إنكار الإسلام من أصله وتكذيب الأديان كلها ومنها إنكار الأحاديث التى أطبق على قبولها أئمة الحديث وغيرهم مع تواترها والإجماع على مضامينها .

موقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وفاة ابنه إبراهيم :

كذلك فقد كانت الصورة التى رسمها الدكتور هيكل عن حزن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لوفاة ابنه إبراهيم مما لا يتفق مع جلال النبوة وعظمة الرسالة إذ صوره ـ صلوات الله

وسلامه عليه ـ واضعًا ولده فى حجره وعيناه تذرفان الدموع مدرارًا ولسانه ينطق بألفاظ يشيع منها الحزن والأسى وتقطر غماً وتأثراً مما يشبه أن يكون ضعفًا عن احتمال صدمة الحادث ...

والحقيقة أن رسول الله أسمى قدرًا من أن يصدر منه ما صوره الدكتور هيكل هيامًا فى الخيال والشعر والقصص ، وإنما أظهر رسول الله ما أظهر من حزن سام وذرفت عيناه دموعا مطهرة لا يذرفها إلا لله ، ولا يمكن أن يكون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بدرت منه الألفاظ التى نسبها إليه الدكتور هيكل منساقا مع شعوره حين حزن هو على فقد ولده ولأجل هذا غير اسم كتاب رحلته إلى أوربا إلى عنوان (ولدى) . إن رسول الله يعلم علم اليقين وحق اليقين أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأن ولده إبراهيم لن يعيش طويلا حيث يقول الله تبارك وتعالى (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ولقد مات له ولدان من قبل احتسبهما فى رضى وإيمان .

تقبل وجهات نظر درمنجم فى مسائل أساسية :

وقد أخذ على الدكتور هيكل تقبل وجهات نظر إميل درمنجم ، فى تصوره أن النبى قد تأثر بأهل الكتاب فى الجزيرة العربية أو فى ذهابه إلى الشام أو فى إرسال بعض أصحابه إلى الحبشة المسيحية ، فقد جرى هيكل وراء عبارات درمنجم دون أن يتبين مكره وخبثه حين حاول أن يصور دعوة النبى أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة لأنها مسيحية . ويتساءل الدكتور حسين الهراوى الذى ناقش هيكلا فى هذه النقطة : هل حقيقة كانت الهجرة إلى الحبشة لأنها مسيحية ، ويقول إن درمنجم شأن المستشرقين بتر هذه القصة بصفة مشوهة للحقيقة ، فلم يكن الدافع للنجاشى ورعه وتقواه ولم يكن سبب عطفه ورحمته ذلك الدافع الدينى بل الدافع الحقيقى أن هذا النجاشى كان عادلا وهذه هى الخلة التى ذكرها النبى حين قال : « لأنَّ فيها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق » .

ومن مراوغات درمنجم تفسيره للآية الكريمة :

« فإنْ كنت فى شكّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » . يريد درمنجم أن يقول : إن القرآن طلب إلى النبى سؤال أهل الكتاب وأنَّ الله تعالى رضى للناس الإسلام دينا مع بقاء الأديان التى سبقت ، وحدةً مندمجةً ، فيما أسماه الكمال الروحى . ولا ريب أن هذه مراوغة خطيرة من الاستشراق يحاول بها أن يفسر الآيات القرآنية تفسيرًا يخدم بها أهدافه ،

والحقيقة أن الإسلام جاء ليظهره الله على الدين كله وأن الأديان كلها التى سبقت كانت موصلة إليه لولا أن قادتها حرفوها .

ثانيا : ظاهرة إنكار المعجزات وتأويلها إرضاء للمنهج الغربى وباسم إعلاء نظرة العقل :

هذه الظاهرة واضحة تماما فى كتابات هيكل وطه حسين والعقاد وقد قامت عليها كتاباتهم فى (حياة محمد وهامش السيرة والعبقريات) وكانت لها جذور ممتدة فى كتابات الشيخ محمد عبده وفريد وجدى وقد هاجمها الشيخ مصطفى صبرى شيخ الإسلام فى الدولة العثمانية فى كتابه الضخم (موقف العلم والعالم من رب العالمين) .

وقد جرى الكتاب الثلاثة هذا المجرى باسم (المنهج العلمى الغربى) ..

والحقيقة أن المنهج العلمى هو منهج إسلامى الأصل والمصدر على خلاف دعوى بعض المتأثرين بالدراسات الغربية . ولقد كان من أبرز أهداف التغريب التأثير فى أسلوب كتابة التاريخ الإسلامى وفى مقدمة ذلك (سيرة النبى الأعظم) إيمانًا منهم بأن هذه الصفحات الباهرة من شأنها إذا عرضت عرضًا صحيحًا أنْ تبعث الأحاسيس العميقة فى قلوب شباب المسلمين ومن هنا كانت محاولتهم المسمومة فى إدخال أسلوب عصرى له طابع براق ولكنه يخفى من وراء ذلك إطفاء الأضواء التى يقدمها هذا التاريخ من حيث الصلة بالله تبارك وتعالى والإعجاز الربانى الواضح فى كل مواقف حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى تاريخ الإسلام وفتوحاته ، ولما كان هذا العمل هو بمثابة هدف واضح الدلالة فى مخطط الاحتواء الغربى الذى يرمى إلى التقليل من شأن البطولات الإسلامية ووضعها موضع المقارنة مع البطولات الغربية من خلال النواحى المادية وحدها فقد حجبت هذه الدراسات جانبًا كبيرًا من أثرها المعنوى والروحى الذى يهز النفوس ويملؤها بالثقة واليقين فى عظمة هذا الدين الخاتم وفى سعة العطاء الربانى لنبيه .

ومن هنا كان ذلك الأسلوب المسمى بالعلمى الذى اصطنعه كتاب لهم أسماء لامعة ولم تكن سابقة فى الدراسات الإسلامية بل كانوا غارقين فى دراسات الغرب وبطولات رجاله (جان جاك روسو ، فوليتر ، مونتسكيو ، أرسطو الخ) فى محاولة للتقليل من قدر أحداث السيرة النبوية تحت اسم العقلانية وإنكار المعجزات والجوانب الغيبية والإعراض عن الجوانب ذات الصلة بالإيمان والعقيدة واليقين والتقوى وغيرها ..

ولقد استطال الدكتور هيكل فى مقدمة كتابه بإعجابه وتبنيه للطريقة العلمية الحديثة وأشار إلى

ميزاتها وأفضليتها ، ولكن الشيخ محمد مصطفى المراغى فى مقدمته للكتاب حياة محمد لم يخف عليه هدف هذا فقال :

«أما أن هذه الطريقة حديثة فهذا مايعتذر عنه وقد ساير الدكتور (هيكل) غيره من العلماء فى هذا ، ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين . انظر كتب الكلام تراهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله . فيقول آخرون : لا : إن أول واجب هو الشك ، ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان وقد جرى الإمام الغزالى على الطريقة نفسها ، وقد قرر فى أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر وقدّر ورتب ووازن وقرب وباعد ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق وإلى ما اهتدى إليه من الآراء . وأنت واجد فى كتب الكلام فى مواضع كثيرة حكاية (تجريد النفس) عما ألفته من العقائد ، ثم البحث والنظر فطريق التجريد طريق قديم وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم . والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة فليس هناك جديد عندنا . ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت فى التطبيق العلمى والعملى فى الشرق وبعد أن فشا التقليد وأهدر العقل وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناصع وأفادوا منها فى العلم والعمل رجعنا نأخذها ونراها طريقة فى العلم جديدة» . اهـ

وهكذا تبين للمدرسة الحديثة أن الإسلام هو واضع الأسس لهذا المنهج العلمى الذى أخذوا به ، وإن لم يعطوه حقه من الأصالة الإسلامية بل قصروه على الجوانب المادية ففاتهم خير كثير ، نظراً لأن خلفياتهم مع الأسف كانت غربية ولم يكونوا قد قرءوا من التراث الإسلامى ما يمكنهم من معرفة الحقيقة كاملة .

لقد كتبت هذه الدراسات بالرغم من حسن النية عند البعض ـ بصورة قاصرة خالية من الإيمان اليقين تحت اسم العلم الذى لا يعترف للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا بمعجزة واحدة هى القرآن ، وكان من رأى فريد وجدى وهيكل الإعراض عن الخبر الصادق الذى ثبت فى الكتاب والسنة إذا عارض طريق العلم وبذلك حجبوا عن السيرة النبوية أهم جوانبها وأخطرها على الإطلاق وهو (جانب معجزة الوحى الإلهى وعالم الغيب) ..

ولطالما ردد هيكل وطه حسين وغيرهما كلمة العلم والمنهج العلمى . والحقيقة أنهم ما كانوا يقصدون (العلم التجريبى) الذى يقوم فى المعامل على أساس الأنابيق . وإنما العلم الذى قصدوا اليه والذى لقن لهم هو الفلسفة المادية التى قدمها التلموديون وكانت قد استفحلت فى الغرب بعد القضاء على الفلسفة المثالية المسيحية . وهى فلسفة التنوير كما يقولون ، قامت على إنكار جوانب

الإنسان الروحية والمعنوية وتصويره بصورة الحيوان والحيوان الناطق والخاضع لشهوتى الطعام والجنس (ماركس وفرويد) وقد امتد هذا الأثر إلى علوم الاجتماع والأخلاق والتربية والأدب والسياسة جميعًا ولم يكن هذا فى الحقيقة هو العلم ، وماكانت هذه الصيحات تساوى شيئًا لأن هذه المفاهيم كانت سرعان ما تتعثر وتسقط أمام المتغيرات فضلا عن أنه قد ثبت ـ من بعدُ ـ عجز العلم التجريبى عن أنْ يقول (كيف) وعجز الدراسات المادية أن تكشف سرائر العلوم الإنسانية .

ولقد كانت هذه الدراسات مع الأسف خاضعة لفكرتين مسمومتين قائمتين فى نفوس وعقول كتاب الغرب والتغريب هما :

١ ـ فكرة (إخضاع الدين لمقاييس العلم) فى أفق الفكر الإسلامى كما فعل الغرب وهى فكرة مردودة لعمق الفوارق بين الإسلام وبين المسيحية وقد تبين من بعد أنه ليس فى الإمكان إخضاع الدين لمقاييس العلم .

٢ ـ تخليص الفكر الإسلامى من سائر الغيبيات التى لا تخضع لمقاييس العلم الحديث . ومن هنا كانت محاولة إخضاع السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى لهذا المفهوم وهو ما جرى عليه كتاب التغريب من استبدال السند والرواية وقواعد التحديث وشروطه بأسلوب جديد (زائف) من الاستنتاج الشخصى المتصل بذوق ومزاج كل كاتب على حدة ، فطه حسين تابع لمذهب العلوم الاجتماعية ، والعقاد تابع لمذهب العلوم النفسية ، وهيكل تابع لمذهب تين وبرونتير الخ . هذا الأسلوب الذاتى خطير جدًا لأنه لا يقوم على قواعد أساسية علمية وإنما يقوم على أساسْ (الظن وما تهوى الأنفس) هذا الأسلوب يتيح لأصحابه أنْ يقبلوا وقائع وأحداثًا وأنْ يغضوا عن غيرها مما يختلف مع وجهتهم المسبقة ، ومن هنا كان خطورة هذا المذهب فى :

(استبعاد ما يخالف المألوف مما يدخل فى باب المعجزات والغيبيات) فى سيرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

كذلك فقد حاول دعاة التغريب الاستفادة من هذا الاتجاه ملحظًا خطيرًا هو القول بأن الغاية منها هو ما أطلق عليه (فكرة الاندماج الكلى فى الكمال الروحى) وأنها جميعًا وحدة متصلة تربط البشرية فى فكرة واحدة .

وهذه محاولة مضللة لأن الأديان مترابطة من حيث أن أولها يوصل إلى آخرها ولكن رؤساء

الأديان غيروا وبدلوا وبذلك جاء الإسلام مرة أخرى يربط نفسه بدين إبراهيم ليعيد هذه الوحدة فى مفهومها الصحيح .

ثالثا : إنكار معطيات الرسالة الخاتمة :

ومن ذلك ما أورده الدكتور زكى مبارك فى كتابه (النثر الفنى) من أنه كان للعرب فى الجاهلية نهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية كان الإسلام تاجاً لها أى أن الإسلام كان نتيجة وتاجًا لتلك النهضة لا سببًا لها . يقول : لأنه لا يمكن لرجل فرد مثل النبى محمد ـ عليه السلام ـ أن ينقل أمة كاملة من العدم إلى الوجود ومن الظلمات إلى النور ومن العبودية إلى السيادة القاهرة ، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون ـ أن تكون هذه الأمة قد استعدت فى أعماقها وفى ضمائرها وفى عقولها بحيث استطاع (رجل واحد) أنْ يكوِّنَ منها (أمة متحدة) وكانت قبائل متفرقة وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأوربا فى زمن وجيز ولوكان يكفى أن يكون الإنسان نبيًا ليفعل ما فعله النبى محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا لأن أممهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض .

وهذا واحد من اتهامات التغريب والاستشراق المسمومة حملها قلم رجل مسلم اعتقد هذا الاعتقاد وتعلم فى الغرب يحاول أن يرد نهضة العرب بعد الإسلام لا إلى النبوة والرسالة وما أنزل الله على الرسول من دين ،ولكن إلى علوم وآداب وتجارب كانت عند العرب وأن كل ما فعله النبى هو أنه نظمها حتى استطاع أهلها أن يسودوا فى القارات الثلاث فى زمن وجيز. يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى : إن تاريخ العلوم فى الأمة العربية بعد الإسلام معروف كما أن مقاومة العرب للنبى ودعوته ومحاربتهم له ولها معروفة ولكن الرجل ينكر التاريخ ويفترى تاريخًا آخر ، ويزعم زعما لا يجوز ولا يستقيم فى منطق أو تفكير إلا إذا كان القرآن كلام النبى ، كلام محمد العربى ، لا كلام الله ، عندئذ فقط يعقل أن يكون العربُ على ما وصف الدكتور من نهضة وعلم وأدب لأن القرآن أكثر من نهضة وعلم وأدب ولا يعقل إنْ كان كلام بشر أن يأتى صاحبه فى أمة جاهلة كالتى أجمع على وجودها قبل الإسلام مؤرخو اللغة العربية من شرقيين ومستشرقين ومؤرخو الإسلام .

وهكذا نجد الدكتور زكى مبارك يهدر مقام النبوة الإسلامية بمقاييس المادية البحتة التى صورت له كما صورت للمستشرقين أنه من المستحيل أن تؤدى رسالة النبى محمد فى خلال بضعة

عشر عاما إلى قيام هذا الملك الباذخ . وهذا هو إنكار المعجزات والغيبيات ، فى فهم السيرة النبوية وتاريخ الإسلام .

رابعا : إحياء الأساطير فى سيرة النبى :

يقول الدكتور طه حسين فى بحث نشره فى كتاب (الإسلام والغرب) الصادر عام ١٩٤٦ فى باريس : لقد حاولت أن أقص بعض الأساطير المتصلة بالفترة التى سبقت ظهور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قصصت مولده وطفولته ، ونشرت هذه السلسلة بعنوان مقتبس من جيل لوميتر وهو (على هامش السيرة) . ويتحتم أن نعترف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين اللتين أشعلت موقدين كبيرين : أحد الكتابين لجيل لومتير عنوانه (على هامش الكتب القديمة) والثانى : (حياة محمد لاميل درمنجم) .

أما كتاب جيل لوميتر فإنى بعد أن شغفت به كثيرًا وضعت فى نفسى الأسئلة الآتية :

هل يمكن إعادة كتابة مآثر الفترة البطولية فى تاريخ الإسلام فى أسلوب جديد أم أنه يتعذر ذلك ؟ ، وهل تصلح اللغة العربية لإحياء هذه المآثر؟

وقال عن كتاب (على هامش السيرة) :

هذا الكتاب من عمل المخيلة ، اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير ثم أعطيت نفسى حرية كبيرة فى أن أشرح الأحداث وأخترع الإطار الذى يتحدث عن قرب إلى العقول الحديثة مع الاحتفاظ بالطابع القديم .

وكان الدكتور طه يتحدث بهذا إلى المستشرقين فى أول مؤتمر للحوار بين المسيحية والإسلام ويعد كتابه هذا خطوة فى هذا السبيل من حيث دمج الأديان كلها فى كتاب واحد وفى اختراع أخطر بدعة من إحياء الأساطير فى الأدب العربى . هذا ماكشف عنه طه حسين بعد سنوات طويلة من ظهور (على هامش السيرة) فماذا كان موقف الباحثين منه ؟ يقول صديقه وزميل دربه الدكتور محمد حسين هيكل :

أستميح طه العذر إن خالفته فى اتخاذ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعصره مادة لأدب الأسطورة ، وأشار إلى ما يتصل بسيرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساعة مولده وماروى عما حدث له من إسرائيليات روجت بعد النبى ثم قال :

ولهذا وما إليه يجب فى رأيى ألا تتخذ حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مادة الأدب

الأسطورى ، وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب . وما اندثر أو ما هو فى حكم المندثر . وما لا يترك صدقه أو كذبه فى حياة النفوس والعقائد أثرًا ما . والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسيرته وعصره يتصل بحياة ملايين المسلمين جميعا بل هى فلذة من هذه الحياة ، ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثرًا . وأعلم أن هذه (الإسرائيليات) قد أريد بها إقامة ميثولوجية إسلامية [1] لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب . ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كانت هذه غاية الأساطير التى وضعت عن الأديان الأخرى . من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام .

ولا ريب أن كلام الدكتور محمد حسين هيكل هذا هو اتهام صريح لطه حسين فى اتجاهه وتحميله مسئولية من أخطر المسئوليات ، وهى :

إعادة إضافة الأساطير التى حرر المفكرون المسلمون سيرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها طوال العصور ، وإعادتها مرة أخرى لخلق جو معين يؤدى إلى إفساد العقول فى سواد الشعب وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وهذا الذى كشفه هيكل مازال كثيرون يجهلونه ، ومازال المتابعون لحياة الدكتور طه حسين وتحولاته يرون أن هذا أخطر تحول له وأن هذا التحول جاء ليخدع الناس عن ماضيه وسابقته فى إذاعة مذهب الشك وطارت الدعوات تقول : إن طه حسين عاد إلى الإسلام وإنه يكتب حياة الرسول ، ولم يكن هذا صحيحًا على الإطلاق ولكنه كان تحولا خطيرًا وفق أسلوب جديد لضرب الإسلام فى أعز فلذات حياته وهى سيرة الرسول الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولقد دمغه هيكل حين قال : لقد تحول طه الرجل الذى لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل إلى رجل كلف بالأساطير يعمل على إحيائها وإن هذا ليثير كثيرًا من التساؤل ، إذ أن طه وقد فشل فى تثبيت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمى لجأ إلى الأساطير ينمقها ويقدمها للشعب إظهارًا لما فيها من أوهام فى ظاهرها تفتن الناس .

وقد كان هذا مصدرًا لما أورده الأستاذ محمد النايف فى كتابه دراسات عن السيرة حيث قال : (إن على هامش السيرة) هو فى حقيقته على هامش الشعر الجاهلى ومتمم له ، فهو على طريق تطاوله على الإسلام ولكن مع المراوغة والمداهنة .

---

(١) الميثولوجيا : مصطلح غربى معناه : القصصى الأسطورى الذى يحرك العواطف وإن لم يكن له أثر من الصحة .

ومن أبرز ما يلاحظ أنه خلط تاريخ الإسلام بأساطير المسيحية واليهودية وقساوسة مصر والشام وخيبر ونصارى اليمن ، كما عنى عناية كبيرة بأساطير اليونان والرومان ، وخلط هذا كله خلطاً شديداً مع سيرة النبي وأراد بذلك إثارة جو من الاضطراب بين الإسلام المتميز بذاتيته الخاصة وبين ما كان قبل الإسلام من أساطير وخرافات وقد اهتم بتراث اليهود فقدم لهم قصة (مخيرق) اليهودى ...

وقد أخذ فى كتابه بالأحاديث الموضوعة وفى نفس الوقت رد أحاديث صحيحة لأنها خالفت هواه ، وعوَّل كثيراً على الإسرائيليات التى جاءت فى تاريخ الطبرى وأكثر من إيرادها وحشد قدراً كبيراً من الأساطير فى قصة (حفر زمزم) على يد عبد المطلب ، وبالغ فى قصة ولادة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أنه لم يثبت منها إلاّ حديث واحد وأخذ بالأخبار الموضوعة فى قصة (زينب بنت جحش) وجسم بعض المعجزات التى حدثت للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند مرضعته حليمه السعدية وأثناء سفر النبى فى تجارة خديجة رضى الله عنها . وقد خص الشياطين باهتمام بالغ فتوسع فى الحديث عنهم وصور مؤتمرًا يتصدره إبليس للشياطين ورسم صورة للشيطان الذى حضر خلاف قريش على الحجر الأسود وكان على شكل شيخ نجدى .

وعلى ندرة الصفحات التى خصصها لسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءت هذه ـ الصفحات مملوءة بالمغالطات والذى سلم من التحريف كان للمتعة والتسلية . ومن أخطر مزاعمه أن النبى قد أحبَّ زينب وهى زوجة لزيد وهذا بهتان عظيم .

وإذا كان طه حسين قد أشار فى المقدمة إلى أنه اهتم باختراع الأحاديث فإنَّ الحرية التى أباحها لنفسه لم تكن إلا لهوى معين وهدف واضح هو أن يقدم عن طريق القصص من السموم ما عجز عنه عن طريق النقد والكتابة الأدبية .

يقول (غازى التوبة) فى دراسته عن طه حسين وهامش السيرة :

إنَّ طه حسين ينصب نفسه إماما للأساطير اليونانية ويضع السيرة فى مصاف الإلياذة ويطلب من المؤلفين والكتاب أنْ يفتنوا فى الحديث عنها افتنان أوربا بأساطير اليونان كى يرضوا ميول الناس إلى السذاجة ويمتعوا عواطفهم وأخيلتهم ، ولكن هل يتساوى الأثران فى المجتمعين (الإلياذة فى المجتمع اليونانى والسيرة فى المجتمع الإسلامى ؟ وهل كانت السيرة يوما فى التاريخ موضوعا لتسلية قصصية أو مباراة لفظية ؟) .

ولم تكن السيرة يوماً من الأيام وسيلةً للتسلية والترفيه كما يهدف طه حسين ولكنها كانت

مصدرًا لابتعاث الهمم ودفع النفوس المؤمنة إلى النهوض بالمجتمعات فى ضوء حياة النبى وسننه .

ولقد تحدث كثيرون عن الشبهات الواردة فى (على هامش السيرة) ووصفها الأستاذ مصطفى صادق الرافعى بأنها « تهكم صريح » وقالت صحيفة الشهاب الجزائرية (ذى القعدة ١٣٥٢) الموافق ١٩٣٤ تحت عنوان : دسائس طه حسين :

ألف كتابًا أسماه على هامش السيرة (يعنى السيرة النبوية الطاهرة) فملأه من الأساطير اليونانية الوثنية وكتب ماكتب فى السيرة الكريمة على منوالها فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة وأساطير الخيال حتى يخيل للقارئ أنَّ سيرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما هى إلا أسطورة من الأساطير وفى هذا من الدس والبهت ما فيه ، والدكتور طه الذى كان يقول فى الإسلام ما شاء ولا يبالى بالمسلمين أصبح اليوم يحسب للمسلمين حسابًا فلا يكتب إلا ويقول : إنه مسلم وإنه يعظم الإسلام ولكن ما انطوى عليه صدره يأبى إلا الظهور كما بدا جليا فى كتابه هذا (على هامش السيرة) .

وقال الدكتور زكى مبارك (البلاغ ـ يناير ١٩٣٤) : وأنا أوصى قرائى أن يقرءوا هذا الكتاب (على هامش السيرة) بروية فإن فيه نواحى مستورة من حرية العقل عرف الدكتور كيف يكتمها على الناس بعد أن راضته الأيام على إيثار الرمز على التأليف (بعد ضربة الشعر الجاهلى) آثر أسلوب الرمز لتغطية أهدافه .

وقال الدكتور هيكل فى دراسة لهامش السيرة الجزء الثانى (ملحق السياسة ٣٧/١٢/٢٥) : إن اليهود لهم باع طويل فى دس الإسرائيليات فى الإسلام .

والحق أننى كنت أشعر أثناء قراءتى هذا الجزء الثانى من هامش السيرة وكأنما أقرأ فى كتاب من كتب الأساطير اليونانية ،وليس فصل (نادى الشياطين) بأشد إمعانًا فى أدب الأسطورة من سائر فصول الكتاب وقد عرف تبعية الدكتور طه حسين لمفهوم الإسرائيليات ووجهة نظر اليهود فى قضايا كثيرة مثل موقفه من عبد الله بن سبأ فى كتاب الفتنة الكبرى .

خامسا : الفوارق العميقة بين النبوة والعبقرية :

إن التفرقة بين (النبوة) و (العبقرية) هى من أخطر ما تعرضت له كتابات العصريين للسيرة النبوية فليس من المعقول أن تطلق تسمية (العبقرية) على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ المؤيد بالوحى وعلى صحابته أمثال أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وقد وصف الرسول ـ صلى الله

عليه وسلم ـ بالعبقرية فى كتابات العقاد والبطولة فى كتابات عبد الرحمن عزام ، وبطل الحرية فى كتابات عبد الرحمن الشرقاوى ، وكل هذه مسميات تحجب عن القارئ المسلم الصفة البارزة والمهمة الأساسية وهى « النبوة » المؤيدة بالوحى .

إن دراسة حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت أى اسم من شأنها أنْ تعجز عن استيفاء جوانب هذه الشخصية العظيمة ، وليس ثمة غير منهج واحد هو أنه نبى مرسل من قبل الله تبارك وتعالى . فإن هذا الفهم وحده هو الذى يكشف عن الحقائق الناصعة ويكشف عن صفحات السمو والكمال الخلقى والعقلى والنفسى .

إن كلمة (العبقرية) : هى مصطلح عرف فى الفكر الغربى وتناولته الأقلام ودارت حوله المعارك والمساجلات ، وفى عام ١٩٣٥ انتقلت هذه المعارك إلى المجلات العربية فدارت مناقشة طويلة بين محمد فريد وجدى والدكتور أمير بقطر .

والتقطها الأستاذ العقاد واختزنها فى ذاكرته ليجعلها عنوانًا لدراسة عن الرسول التى بدأها عام ١٩٤٢ .

ومن مجمل الدراسات التى دارت يتكشف أن هذه النظرية تجرى حول التميز والذكاء والتفوق فى مجال الفن والموسيقى والتصوير ولم يرد فى الأسماء التى تناولتها الأبحاث أى اسم من أسماء المصلحين أو أصحاب الرسالات .

ولقد قصر الدكتور أمير بقطر العبقرية على الذكاء ، وقال إنها تجئ عن طريق الوراثة وإنها غير مكتسبة ، وأوردت دوائر المعارف وصفا للعبقرية بأنها لغة الكامل فى كل شىء ، ويكون مبلغ رقم قياس ذكاء العبقرى فوق المعتاد ، وبينما يقصر أمير بقطر العبقرية على حالة اختبار الذكاء فإن (فريد وجدى) يرى أنها (هبة إلهية ثمرتها فوق القدرة البشرية يمنحها الله لبعض الأفذاذ لتبرز على ألسنتهم أو على أيديهم أمور لا يستطيع العقل البشرى أن يستقل بإيجادها) .

ولعل هذا هو المعنى الذى جعل العقاد يختارها ليصف بها الرسول مع أن جميع علماء الغرب لم يصفوا بها أحدًا من الأنبياء المسيح أو موسى عليهما السلام. والحقيقة أنَّ مقاييس الجاه والثروة والعظمة التى جاءت بها العلوم المادية الحديثة تختلف تماما عن التقديرات التى جاءت بها النبوة .

وإنَّ أى قدر من الموهبة الإلهية التى توصف بها العبقرية يختلف اختلافا واضحًا عن النبوة .

وبالرغم من الاختلاف فى فهم العبقرية بين كتابات العشرات من الباحثين الغربيين فإنَّ أحداً

لا فى الغرب ولا فى العرب أدخل النبوة والأنبياء فى هذه الدائرة.ولكن يبدو أنّ الأستاذ العقاد أراد أن يتفوق على صاحبيه (هيكل وطه) وقد سبقاه بعشر سنوات فى كتابة السيرة باتخاذ هذا المصطلح .

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى : يجب أن يقرأ للعقاد باحتياط وهو يكتب عن الإسلام فالعقاد ابن العصر الحديث أخذ ثقافته مما قرأ لأدبائه وعلمائه وهو شىء كثير وليس كل ما كتبه المستشرقون يقبله المسلم ولا كل نظريات الغرب متفق وما قرره القرآن ، ولكن العقاد اعتقد من هذه النظريات ما اعتقد ، فهو ينظر إلى القرآن من خلال ما اعتقد منها ويبدو أن من بين ما اعتقده العقاد نظرية (فريزر) فى نشوء الأديان فهى عنده ليست سماوية ولكنها أرضية نشأت بالتطور والترقى إلى الأحسن. ومن هنا تفضيل العقاد للإسلام على غيره من الأديان فهو آخرها وإذن فهو خيرها ويقول : إن لم يكن هذا هو تفسير إطلاق اسميه الغربيين على كتابيه (عبقرية محمد ، والفلسفة القرآنية) فهذه التسمية خطأ منه ينبغى أن يتنبه إليه قارئ الكتابين من المسلمين لينجو ما أمكن مما توحى به التسميات من أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبقرى من العباقرة لا نبى ولا رسول بالمعنى الدينى المعروف فى الأديان المنزلة ، ويؤكد هذا الإيحاء أنْ جاء الكتاب واحدًا من سلسلة كتب العبقريات الإسلامية ولن يكون أولها ، فالناشىء الذى يقرأ بعد عبقرية محمد عبقرية أبى بكر وعبقرية عمر مثلا لا يمكن أن يَسْلَمَ من إيحاء خفى إلى نفسه أنَّ محمدًا وأبا بكر وعمر من قبيل واحد ، عبقرى من عباقرة وإن يكن أكبرهم جميعًا ، كالذى سمى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بطل الأبطال فأوهم أنه واحد من صنف ممتاز من الناس متجدد على العصور بدلا من صنف اختتم به ـ صلى الله عليه وسلم ـ صنف الأنبياء والمرسلين من عند الله فالنبى والرسول يأتيه الملك من عند الله بما شاء الله من وحى ومن كتاب، ولا كذلك العبقرى ولا البطل ، فالنبوة والرسالة فوق البطولة والعبقرية بكثير . وكم فى الصحابة رضوان الله عليهم من بطل ومن عبقرى وكلهم يدين له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه رسول الله إلى الناس كافة فى ذلك العصر وما بعده وأنه خاتم النبيين .

ويقول الأستاذ غازى التوبة : كتب العقاد العبقريات دفاعًا عن العظمة الإنسانية فى وجه المتطاولين والحاقدين والمشوهين ، هذه العظمة الإنسانية التى تحتاج إلى رد الاعتبار فى عصره ودفاع العقاد عن العظمة الإنسانية هى حلقة من دفاعه عن الفرد وإيمانه به ، ولكن ما هى الأخطار التى هددت الفرد والعظمة وجعلته يستل قلمه سنة ١٩٤٢ ليكتب أول عبقرية من عبقرياته ؟ فى الحقيقة أن الأخطار المباشرة التى هددت الوجه الآخر من إيمان العقاد بالفرد هى

النظام الديمقراطى . هددته ثلاثة أخطار هى الفاشية والشيوعية والمد الإسلامى ، تصدى للفاشية فى (هتلر فى الميزان) وتصدى للشيوعية فى كتابيه (الشيوعية والإنسانية) و (أفيون الشعوب) . أما تيار المد الإسلامى فحاربه بسلاح الشخصيات فكتب العبقريات ليؤكد صحة أفكاره فى أولية الفرد فى التاريخ وأحقيته كمحرك له وليطعن ويشوه الإيمان بالجانب الجماعى فى الإسلام ويشكك فى دور العقائد والتربية فى توجيه الأشخاص ، فالعظيم عظيم بفطرته والعبقرى عبقرى منذ نشأته ، كذلك فقد ركز العقاد على العوامل الوراثية والتكوين الجسمانى والعصبى ، ووضع هذه الأسباب فى المرتبة الأولى فى توجيه الشخصية بحيث تأتى العقيدة الإسلامية والتربية فى المرتبة الثانية إن كان هناك دور للعقيدة أو التربية .

والعقاد فى موقفه هذا متأثر ببعض المدارس الأوربية التى تقدس الفرد والفردية وتفسر مختلف حوادث التاريخ على هذين الأساسين ، وقد أورد العقاد ذكرًا لإحدى هذه المدارس التى تحدد صفات العبقرى انطلاقا من تكوينه الجسدى وهى مدرسة (لومبروزو) .

وهكذا قَوْلب العقاد الشخصيات الإسلامية ضمن نظرياته الجاهزة فى الفرد والطوابع الفردية . وهو فى هذا قد حجب الجانب الربانى المعجز ، وحجب الغيبيات .

فهو فى موقفه من انتصار الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى غزواته لا يعرض مطلقا لوعد الله تبارك وتعالى لرسوله ورعايته والملائكة المقاتلين والنعاس الذى تغشى المسلمين أمنةً والمطر الذى طهرهم والرياح التى اقتلعت خيام المشركين وتثبيته لأفئدة المقاتلين وقذفه الرعب فى قلوب الكافرين ، فليست العوامل المادية وحدها هى قوام مكانة الرسول العسكرية ولكن العوامل الربانية يجب أن تضاف إلى ملكات الرسول فى التخطيط .

كذلك فهو لم يكشف عن دور الإسلام فى بناء شخصية الرسول ، فالإسلام هو الذى أعطى النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك الإيمان بالله تبارك وتعالى والإيمان بأحقية الموت فى سبيل الله وذلك القدر من الثبات والتضحية والإقدام والعزم والصبر.

هذا الجانب الذى تجاهله العقاد واكتفى بالمقارنة بين سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وبين نابليون فى النواحى المادية والعسكرية ، كذلك لم يتبين الفارق بين حروب محمد - صلى الله عليه وسلم - وبين حروب نابليون وأنها كانت خالصة فى سبيل الله ونشر الإسلام وليست فى سبيل المطامع والسيطرة .

ذلك أنه ناقش عبقرية الرسول العسكرية فى ضوء العبقريات البشرية ، ولم يتنبه للفوارق العميقة ، التى تتميز بها شخصية الرسول بوصفه نبيًا مرسلاً أو تلك التى هداه إليها الإسلام ، وأن تميزه هذا يختلف عن البطولات والعبقريات البشرية الأخرى .

ومن هنا يبدو النقص فى وزن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعبقريات البشرية الأخرى .

كذلك فإن هذا التميز الذى عرفت به شخصية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ « نبيا ومرسلا وهاديا » ، تختلف فى المقارنة بينه وبين الأبطال العالميين الآخرين من ناحية كما أنَّ شخصيته تختلف بينه وبين أبى بكر وعمر وغيرهم .

لقد تحدث العقاد عن الجانب المادى فى شخصية الرسول وحجب تماماً الجانب الروحى المتصل بالوحى وأظهره كمجرد إنسان يعمل بمواهب ممتازة وملكات خاصة وهكذا فإن (العبقرية) التى حاول العقاد أن يقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خلالها ، كان حجمها ضيقًا ومجالها ناقصًا ، وأخطر ما أخذ عليه هو أنه لم يظهر أثر الإسلام فى بناء شخصية الرسول وهو العامل الأكبر فى حياته وتصرفاته على النحو الذى وصفته السيدة عائشة رضى الله عنها بقولها (كان خلقه القرآن) هذه الربانية الخالصة التى تعلو على طوابع البشر ، وقد وصفها القرآن فى قوله تعالى :

(قل إنَّ صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له) .

كذلك فقد تحدث عن افتتان المسلمين بشخص الرسول وانبهارهم بمواهبه واعتبر إعجابهم به سببًا وحيداً لدخولهم فى الإسلام وعزا اجتماع الصداقات المتنوعة حوله بأنه كان نتيجة لمزاياه النفسية ، وبذلك أنكر أثر عظمة الإسلام نفسه فى إيمان أصحاب النبى ، وليس من شك أنَّ إعجاب المسلمين بالرسول له أهميته فى مرحلة الدخول فى الإسلام ولكن تقدير المسلمين للإسلام هو العامل الذى ثبتهم بعد ذلك على الإيمان بالإسلام وحفزهم للدفاع عنه .

إنَّ الأستاذ العقاد وقد حارب مذهب التفسير المادى للتاريخ الذى قدمه ماركس والشيوعية حرباً لا هوادة لها خضع مع الأسف للمذهب النفسى المادى الذى لا يعترف بالآثار المعنوية المترتبة على الإيمان والعقيدة فى بناء الشخصية كما تجاهل جانب الغيبيات ولم يفهم النبوة فهماً صحيحاً ، ولذلك فإنَّ الجانب الروحى القادر على العطاء فى بناء الشخصيات والذى صنع شخصية رسول الإسلام تراه باهتا غائما عنده ، وذلك لأنه اعتمد فى دراسة الشخصيات والبطولات على مذاهب غربية تتجاهل النبوة والوحى والغيبيات والمعجزات ، ولا تجعل لهذه

العوامل الروحية والمعنوية أى وزن وأى اعتبار وإنما قامت اعتباراتها على جوانب الحس وتركيب الإنسان المادى والوراثيات وغيرها .

سادسا : تطور جديد : التفسير الماركسى للسيرة :

ثم جاء بعد ذلك تطور جديد فى كتابة السيرة العصرية ، وهو إخضاعها للتفسير الماركسى على النحو الذى كتبه عبد الرحمن الشرقاوى تحت اسم (محمد رسول الحرية) .

وقد قال الشيخ محمد أبو زهرة فى توصيف هذا العمل : إن الكتاب كان له اتجاه غير دينى فى دراسته فهو ما درس محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنه رسول يوحى إليه بل على أنه رجل عظيم له آراء اجتماعية فسرها الكاتب على ما يريد ، وقد تبين أنَّ الكاتب يقطع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الوحى فكل ما كان من النبى من مبادئ وجهاد فى سبيله إنما هى من عنده لا بوحى من الله تعالى ، وهى بمقتضى بشريته لا بمقتضى رسالته . والعنوان (إنما أنا بشر مثلكم) يعلن أن ما وصل إليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مبادئ جاهد من أجلها إنما هو صادر عن بشرية كاملة لا عن نبوة ، وقد اقتطع هذه الجملة مما قبلها وما بعدها ونصها الصحيح (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد) وهو بهذا الاقتطاع ينفى الوحى عن الحياة المحمدية .

كذلك فهو ينفى الخطاب السماوى للرسول ولا يذكر أنَّ جبريل خاطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم فى العيان . وتصويره للوحى بأنَّه حلم فى النوم يخالف ما أجمع عليه المسلمون من أنَّ جبريل كان يخاطب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعيان لا فى المنام : الأمر الذى تردد ذكره فى القرآن على أنَّه رسول الله إلى الذين يصطفيهم من الإنبياء ليبلغ الرسالة الإلهية لأهل الأرض ، كذلك فهو يقطع الرسالة عن الرسول ويقطع الوحى عنه ويتجه إلى القرآن فيذكر عباراته أحيانًا منسوبة إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أنها من تفكيره ومن قوله لا أنها قرآن موحى بها وقائله هو الله سبحانه وأنَّ ذلك مبثوث فى الكتاب بكثرة وهو ينسب بعض آى القرآن إلى النبى ، وكذلك ينسب إبطال التبنى إلى النبى ولا ينسبه إلى الله تبارك وتعالى ، وكذلك ينسب تحريم الخمر إلى النبى ، كما أنه يذكر قصص القرآن على أنه نتيجة تجارب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وما كانت قصص النبى إلا من القرآن وما كانت له رحلات فى بلاد العرب بل إنه لم يخرج من الحجاز إلا مرتين إحداهما فى الثانية عشرة والثانية فى الخامسة والعشرين . ويرى الكاتب أنَّ القرآن من كلام محمد ولم يذكر قط على وجه التصريح أنَّ الله تبارك وتعالى هو منزل القرآن وباعث محمد بالرسالة بل إنَّ ذكر الله تبارك وتعالى يندر فى الكتاب بل لا تجد له ذكرًا قط

ولم يذكر القرآن إلا نادرًا بل لا تجد له ذكرًا قط ، وإذا ذكر آية ذكر أنها همهمة نفس النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو لا يذكر كلمة القرآن على أنه منسوب لله ، فى مقام يومئ بالتشكيك فى صدقه ويوهم بأنَّ به تحريفًا وتبديلا ومحاولة التقاط من واحد ممن كانوا يشتركون مع العشرات فى كتابة الوحى لإثارة هذه الشبهة .

ولقد كان هذا التطور فى كتابة السيرة نتيجة للأدوار التى مرت بها على أيدى السابقين .

سقوط المدرسة المادية فى السيرة :

قامت هذه المدرسة على إنكار الغيب والمعجزات فى آن وإنكار الوحى والنبوة فى آن آخر ، وحاولت أن تفسر الإسلام وسيرة الرسول تفسيراً ماديًا وجرت فى خضوع منكسر وراء العقلية الأوربية وتحت لواء ما زعموه المنهج العلمى الحديث ، وكانت هذه المدرسة رد فعل أثاره الانبهار والشعور بالضعف لدى طائفة من المسلمين ترى أن تتابع الأوربيين فى فهم الدين والعقيدة .

ولكن سرعان ما تكشفت هذه النزعة وسقطت وجهتها ، وبرزت كتابات مدرسة الأصالة التى أنكرت هذا الأسلوب الفلسفى المادى ، وأقامت مفاهيمها على الأساس القرآنى الأصيل، وظهرت تلك الكتابات بأقلام حسن البنا ومحمد الغزالى وسعيد رمضان البوطى وأبو الحسن الندوى وكثيرون غيرهم فردت إلى السيرة النبوية اعتبارها وأعادت تقدير جانب معجزة الوحى الإلهى والغيبيات والمعجزات .

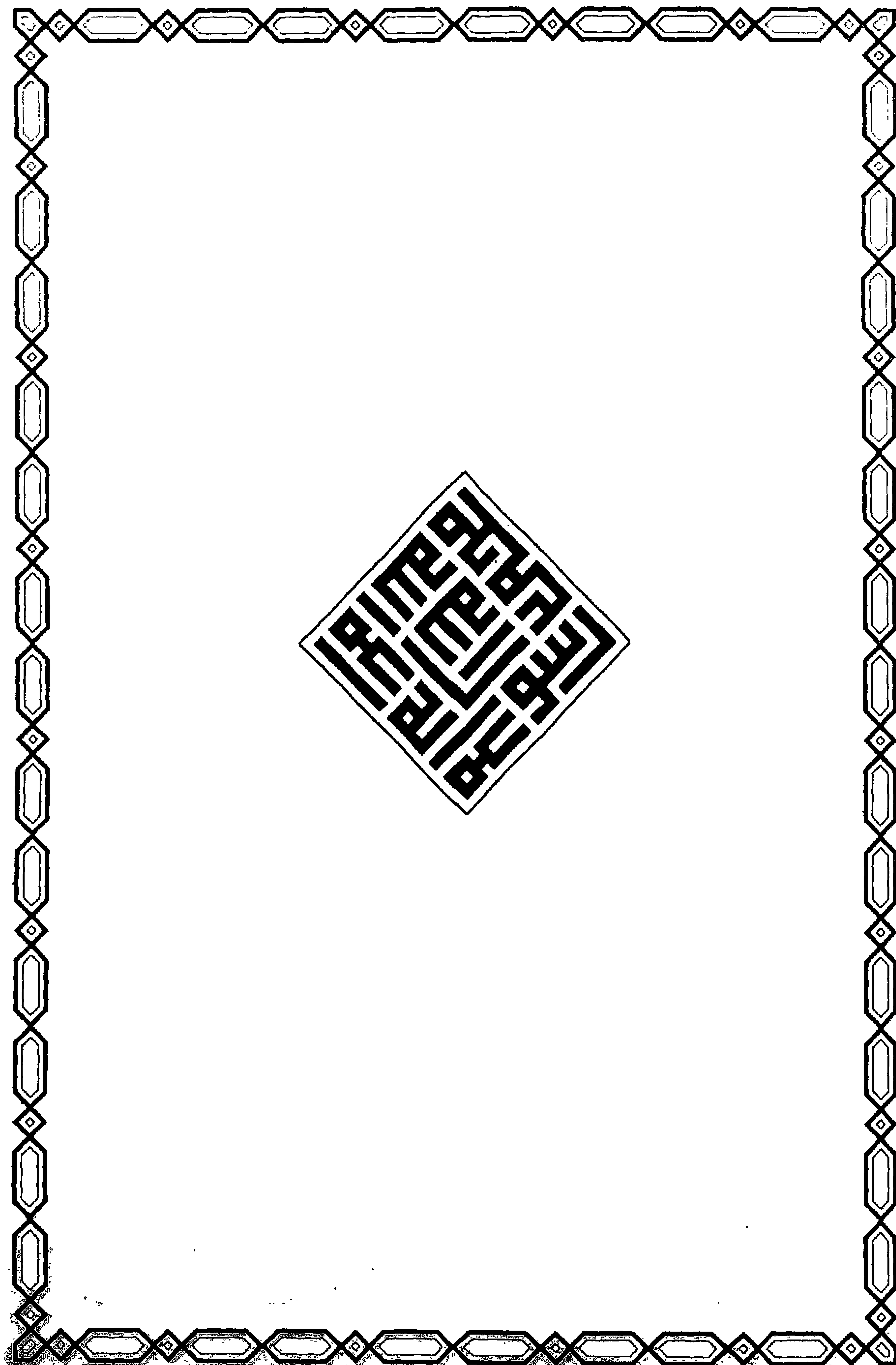
وقد جاءت كتابات مدرسة الأصالة فى السيرة النبوية مصححة لأغلاط كثيرين ممن كتبوا عن السيرة فى هذا العصر وأماطت اللثام عن المغالطات التى كانت ولا تزال تدسها أقلام كثير من المستشرقين والتغريبيين وهى أغلاط ومغالطات قامت لتغذيتها وترويجها مدرسة التبعية .

إنَّ هذه المدرسة لم تعد تخدع إلا قلة من بقايا المفتونين باسمها وإنَّ الحقائق الناصعة فى حياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ستظل هى المشرقة والسائدة .

وليس أدل على ذلك من هذه المؤتمرات للسيرة التى حشدت عشرات من الأعلام للكشف عن الجوانب المختلفة فى حياة هذا النبى الكريم الذى هدى البشرية إلى طريقها وأخرجها من الظلمات إلى النور .

المراجع :

* دراسات فى السيرة : محمد النايف
* الفكر الاسلامى المعاصر: غازى التوبة
* فقه السيرة : محمد سعيد البوطى
* كتابات الدكتور محمد أحمد الغمراوى ومحمد محمد حسين
* العبقرية : محمد فريد وجدى
* تقرير الشيخ محمد أبو زهرة عن كتاب محمد رسول الحرية
* مقالات الدكتور حسين الهراوى (ملاحق السياسة ١٩٣٢ - ١٩٣٣) .
* مجلة الفتح : محب الدين الخطيب



فى استقبال مؤتمر السيرة
الرسول الداعية

الأستاذ الدكتور
أحمد شلبى

عاشرت سيرة الرسول ـ صلوات الله عليه ـ أكثر من ثلاثين عاما ، منذ بدأت أكتب الجزء الأول من «موسوعة التاريخ الإسلامى» الذى يشمل هذه السيرة العطرة ، وكانت هذه المعاشرة تتجدد دون انقطاع عن طريق تدريس هذه السيرة للطلاب أو عن طريق إعادة طبع هذا الجزء وكذلك عن طريق الندوات والبحوث وغيرها .

وكنت ألاحظ أن المعايشة كانت دائما تمدنى بالمزيد والجديد حول هذه السيرة التى تعد نموذجا رائعا لكل مسلم ، وعلى هذا كانت كل طبعة من طبعات هذا الجزء تشمل زيادات وإضافات طيبة ولكنى عندما كنت أعد هذا الجزء للطبعة العاشرة خطر ببالى خاطر شدَّنى شدًّا هو :

لماذا اتجه اهتمام كتاب السيرة النبوية الشريفة فى فترة المدينة المنورة إلى الغزوات والحروب ! فبدأوا بعد الحديث عن الهجرة إلى الحديث عن غزوة بدر فى العام الثانى للهجرة ، فغزوة أحد ، فالصراع مع بنى النضير ، فغزوة الأحزاب ، .... إلى غزوة تبوك فى العام التاسع ، وبعدها يجئ حديث عن الوفود ، وحجة الوداع ، وانتقال الرسول ـ صلوات الله عليه ـ إلى الرفيق الأعلى .

لقد كانت فترة المدينة فترة مهمة جدًّا حافلة بجلائل الأعمال ، فلماذا اتجه الحديث إلى الغزوات والحروب فقط ؟ وعرفت السبب ، واتجهت بكل الثقة فى الله الى تدارك مافات ، وبعد جهد طويل أخرجت الطبعة العاشرة من هذا الجزء وهى أقرب ما تكون إلى سيرة كاملة لسيدنا

رسول الله ، تتبعت فيها أوجه نشاطه ـ صلوات الله عليه ـ ، فشملت هذه الطبعة موضوعات شتى بجوار الغزوات والحروب .

لقد كان الرسول أُمَّةً فى رجل كان داعية ومربيًا للدعاة ، وكان قاضيًا وقائدًا ، وتكلم عن الشباب والعمل ، وغرس أخلاق الإسلام وقاوم أخلاق الجاهلية ..... وقد تصل الأمة إلى الاستقرار والأمن فتقل مهمة القائد ، وقد تصل الى انتشار العدالة فتقل مهمة القاضى ، ولكن مهمة الداعية لا تتوقف ، ومهمة مربى الدعاة لا تتوانى ، ومن هنا فقد اتجهتُ بحديثى عن الرسول فى هذه المناسبة الطيبة إلى جهوده فى ميدان الدعوة وتربية الدعاة .

الديانات بين الخصوص والعموم :

ومن الواضح أن رسل الله قبل الإسلام كانوا لجماعات محدَّدة ، إذ كان كل رسول يرسل لقومه ، وكانت الدعوة محدودة الفكر ، وكانت عبارة عن عبادة الله وحده ، وقد يضاف الى ذلك محاربة انحراف اجتماعى إذا كان هناك انحراف تفشَّى بين القوم ، ومن هنا كانت الدعوات السابقة يسيرة سهلة ، قال تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ » (سورة الأعراف الآية ٥٩) .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ »

(هود الآية : ٢٥ ـ ٢٦)

« وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ »

(الأعراف ٨٠)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ »

(الأعراف ٨٥) .

« وإلى ثمود أخاهم صالحًا » (الأعراف ٧٣)

« وإلى عاد أخاهم هودًا » (هود : من الآية ٥٠)

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه » (الزخرف ٢٦) .

« ورسولا إلى بنى إسرائيل » (آل عمران ٤٩)

ثم جاء الإسلام للناس جميعًا من جانب ، وجاء شاملا لأمور الدين والدنيا من جانب آخر ، وعن عموم الرسالة يقول تعالى :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء ١٠٧)

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا (سبأ ٢٨)

« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا » (الفرقان الآية الأولى) .

وعن شمول الرسالة لأمور الدين والدنيا يرى قارئ القرآن الكريم فى عشرات الآيات ، ما يربطه بربه أو ما يربطه بالإنسان أو المجتمع ، وإذا أردنا أن نقتطف من القرآن الكريم نماذج لذلك فإننا نشير الى آيات سورة الإسراء التي تقول : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ... » فهذه الآيات تتحدث عن علاقة الإنسان بربه ، ثم تحذر من عقوق الوالدين ، وتوصى بذوى القربى والمسكين وابن السبيل ، وتحذر من الإسراف والبخل جميعا ، وتحذر من قتل النفس ومن القرب من الزنا ، ومن ظلم اليتيم وأكل ماله ، وتحتم على المسلم أن يفى بعهده ، وألا يستعمل سمعه وبصره وعقله فى غير ما خلقت له هذه الحواس .

وآيات أخرى كثيرة تتحدث عن التشريع والمساواة والعدل والحب وعدم سوء الظن وعدم السخرية بالآخرين وعدم التجسس ....

خلود الرسالة الإسلامية :

ثم إن الرسالة الإسلامية ـ بالاضافة إلى عمومها للناس جميعًا وبالاضافة إلى شمولها أمور الدين والدنيا ـ هى رسالة خالدة ما بقى هذا الكون ، فليست مرتبطة بجماعة ولا مرتبطة بزمن ، إذ أن الرسول محمد ـ صلوات الله عليه ـ خاتم الأنبياء . قال تعالى :

« ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (الأحزاب ٤٠)

« إن الدين عند الله الإسلام » (آل عمران ١٩)

وكل هذا يوضح أهمية الدعوة فى الإسلام ، ويبرز جانبًا مهما من حياة الرسول وهو قيامه بالدعوة من جانب وتربيته الدعاة من جانب آخر حتى يكون قدوة للأجيال فى القيام بهذا الأمر الخطير الذى يقدم الدين من جيل الى جيل للناس جميعًا مهما اختلفت لغاتهم أو أجناسهم أو مناطقهم .

أديان دعوة وأديان ليست للدعوة :

والأديان التى عاصرت الإسلام تنقسم من الناحية الواقعية قسمين :

١ ـ أديان دعوة وفى مقدمتها الإسلام ثم المسيحية والبوذية فهذه الأديان يقوم سباق بينها للنشر ودعوة الناس لها .

٢ ـ أديان لا تهتم بالدعوة كالهندوسية الخاصة بالهند والكونفوشية الخاصة بالصين والزراد شتية التى كانت خاصة بإيران ، واليهودية الخاصة ببنى إسرائيل .

خريطة مفتوحة أمام الإسلام :

ويلاحظ علماء مقارنة الأديان أن خريطة العالم الإسلامى مفتوحة . أى أن الدعوة للإسلام لا تزال تجد طريقها أمام الملايين .

فقد دخل الإسلام أفريقية من الشرق منذ عهد مبكر حين الهجرة للحبشة ، ودخل بعد ذلك مع المهاجرين من فارس ومن الجزيرة العربية ومن عمان ، ودخل من الغرب عن طريق المرابطين ، ودخل من الشمال عن طريق مصر والأزهر ، وعن طريق معاهد القيروان وتلمسان ، ودخل من الجنوب عن طريق الماليزيين والإندونيسيين الذين دفعهم الاستعمار لهذه المناطق إبان استعمارها ، ومع هذا فلا يزال قدر كبير من القارة ينتظر دخول الإسلام ، فالفرصة لا تزال مواتية .

ومثل هذا يقال عن الإسلام فى آسيا ، فقد دخل الإسلام بعض دول جنوب شرق آسيا كإندونيسيا وماليزيا ، ولكن لا تزال الفرصة سانحة فى تلك البقاع ليغمر الإسلام تايلاند وبورما وسنغافورة والصين وغيرها .

وذلك بخلاف الأديان الأخرى التى تعد الخريطة بالنسبة لها مقفلة ، فالمسيحية شملت أوربا وأمريكا ولا تجد لها وسيلة للنشر إلا أن تجئ الى آسيا وأفريقية .

والبوذية خريطتها مقفلة أيضا لأنها لا تجد لها أرضا إلا فى الشرق الأقصى غالبا . وعلى هذا ففرصة الإسلام واسعة والتزام المسلمين بالدعوة التزام لا محيد عنه ، لو تعلموا من الرسول كيف دعا للإسلام وكيف ربى الدعاة .

الرسول داعية :

وحياة الرسول كداعية نموذج رائع ، وعلينا أن نتدارس هذه الحياة لنرى كيف دعا إلى الإسلام وكيف اختار الدعاة ورباهم .

وإذا كانت حياة الرسول هى مقياس السلوك لعامة المسلمين فإنها بالنسبة للدعوة أكثر لزوما وضرورة لمن يعملون فى هذا المجال ، ومن الواضح أن الرسول بدأ دعوته فى مكة ولاقى هناك عنتًا شديدًا ، ولكنه صبر وصابر ، واتبع الرسول فى عمله خطوات تعد نموذجا رائعًا لكل داعية ، فقد دعا للدين سرًا بادئ الأمر،ثم خطا خطوة إلى الأمام فدعا أهله وعشيرته ، ثم ارتقى إلى القمة عندما جاهر بالدعوة لكل الناس ، وكان القرآن الكريم هديًا له فى هذه الخطوات ، وهو بذلك هدى لكل داعية ألا يندفع إلى خطوة قبل أوانها ، بل يترفق الداعية بالناس ، ولا يتجاهل بُعْدهم فى العقيدة عنه ، ويتلمس الوسيلة للوصول إلى قلوبهم ، وقد تكون الوسيلة بدعوة الأصفياء وتحاشى القساة ، أو بالاعتماد على صلات القرابة ، فاذا وجدت الدعوة بعض الاستجابة عن هذين الطريقين راح يجهر بها بعد أن يكون قد قوى جانبه .

ومن الواضح أن الرسول ضحى من أجل الدعوة بما يملك من جهد ومال ، ولذلك سخر منهم عندما قالوا له : إن كنت تريد مالا أعطيناك مالا ، وإن كنت تريد الرياسة ملكناك علينا ... فما كان له فى ذلك هدف ، وكلما ترفع الداعية عن متاع الدنيا كلما كان أعمق تأثيرًا وأكثر نجاحا .

ولم تنجح الدعوة فى الانتشار بمكة ، وكانت المقاومة عنيدة ومستمرة ولكن الداعية العظيم لم يلن ولم يضعف ، وراح يتلمس أمكنة أخرى يبذر فيها بذوره الطيبة ، فلجأ إلى الطائف ، بيد أن رحلة الطائف على الرغم من وعورة الطريق وصعوبة الزاد لم تأت بطائل ، ولكن الداعية العظيم يتلمس مرة أخرى طريق النجاح ، فاتخذ من مواسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين وفود القبائل التى كانت تتدفق إلى مكة ، ولكن جبابرة الشرك لاحقوه فى هذه الخطوة ، وبخاصة عمه أبو لهب الذى كان يتتبعه ، ويصيح فى القوم الذين يلقاهم محمد قائلا : «إنه لصابئ يريدكم أن تنسلخوا عن دين آبائكم إلى ماجاء به من بدعة وضلالة» وكان جاه قريش وسطوة أبى لهب تنال الغلبة فى كثير من الأحوال فكانت جماعات الحجيج تقول لمحمد : إن قومك وذوى قرابتك أعرف الناس بك ، ولو كنت على حق لا تبعوك وساعدوك ، ولكن ذلك لم يوهن عزيمته ، فاستمر فى لقائه بجماعات الحجيج ، حتى صادف جماعة من يثرب فدعاهم وتلطف إليهم ، وكان ذلك بدءًا لانفتاح الأبواب المغلقة ، والقلوب المقفلة .

ونمت الدعوة بين أهل المدينة من يوم الى يوم .. وفى أحد اللقاءات جاءت الدعوة من مسلمى المدينة إلى محمد ليهاجر إليهم بعد أن انتشر دين الله هناك ، فدخل كل بيت من بيوت المدينة تقريبًا واستجاب لهم الرسول وهاجر إليهم ، وبدأت الدعوة للإسلام بالمدينة تأخذ طابعًا جديدًا فقد بنيت مساجد أصبحت مراكز للدعوة ، وأصبح للدعوة جاه وحماة . وأصبح المسلمون بعد هذا الجهد الجهيد أقوى من أعدائهم فى هذا المقر الجديد .

جانبان للدعوة :

ووضح أن الدعوة الإسلامية فى المدينة أصبحت ذات شقين كبيرين ، الشق الأول مع المسلمين لتعليمهم التزامات الدين الجديد ، وشرح التشريعات الجديدة التى بدأت تتدفق فى القرآن الكريم فى هذا العصر ، والشق الثانى المواجهة مع الكتل الكبرى بالمدينة التى كانت لم تدخل الإسلام بعد ، ثم الاتجاه للدعوة للإسلام خارج المدينة .

ففى الشق الأول اهتم الرسول بالمسلمين اهتماما كبيرًا ليثبت الدعوة فى قلوبهم ، وليعلمهم ماجدَّ من تشريعات ، فأطال جلساته بالمسجد ، والمسلمون يحيطون به ، يعلمهم ويرشدهم ، وهم يسألونه عما يشغلهم فيجيبهم ويهديهم ، واهتم الرسول كذلك بالمرأة اهتماما كبيرًا ، ومن ذلك قوله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وكان ـ فيما يرويه البخارى يصلى خلفه بعض النساء صلاة الفجر ، وكان من حكمته عليه السلام أنه عقب السلام ونية الخروج من الصلاة ، كان يبقى فى مكانه فترة لينصرف النساء فى الصفوف الخلفية فاذا اطمأن إلى انصرافهن قام وقام معه الرجال ، وكان يخفف صلاته إذا سمع بكاء طفل خلفه خشية أن تفتتن به أمه فتنصرف عن صلاتها أو يقل خشوعها .

وسأل النساء رسول الله أن يجعل لهن مجالس خاصة يعلمهن فيها ويجيب عن أسئلتهن فقلن له : يارسول الله ، غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا مجلسًا لنلقاك فيه ، فكان يلقاهن مرة أو مرتين كل أسبوع ، وكان يجلس معهن فى أحد بيوته أو فى بيوت أصحابه .

وعلينا ألا نغفل هذاالاتجاه . فإن الملاحظ أن الدعاة يتجهون للرجال ولا يلتقون بالنساء إلا نادرًا ، وليس عندنا للأسف دعاة من النساء ليكثرن اللقاءات مع بنات جنسهن ، فأوشكنا أن نهمل المرأة مع أن المرأة شديدة التأثير فى أولادها وفى أسرتها .

واهتم الرسول اهتمامًا كبيرًا بمن سيصبحون علماء الأمة ودعاة الإسلام فيما بعد ، أولئك الذين ستئول إليهم قيادة الحركة العلمية ، فاتجه الرسول بعناية لتربية العلماء والدعاة

وفى الشق الثانى وهو دعوة غير المسلمين للإسلام كانت سياسة الرسول غاية فى الروعة والذكاء ، وقد بدأ أولا بالمدينة لتأمين المركز الإسلامى الجديد ، وكان فى المدينة منافقون تظاهروا بالدخول فى الإسلام ، وعرب تمسكوا بوثنيتهم ، وجماعات اليهود .

ففيما يتعلق بالمنافقين أغضى الرسول الطرف عن نفاقهم وأظهر أنه لا يعرفه ، وأخذ يلاطفهم ويتودد إليهم ، حتى أزال النفاق من قلوب الكثيرين منهم .

أما العرب الوثنيون واليهود فقد عقد معهم معاهدة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين ، وأمِنَ المسلمون بذلك الحياة فى المدينة المنورة ، وأصبحت الدعوة هى الشغل الشاغل للرسول بعد أن استقرت الأمور بالمركز الجديد .

وقد زاول الرسول دعوة عرب المدينة الذين كانوا لم يدخلوا الإسلام بعد ، ويومًا بعد يوم استجاب هؤلاء لدعوته حتى شمل الإسلام عرب المدينة كلهم تقريبًا .

واتجه الرسول إلى اليهود فظل يتخير أفضلهم ويدعوهم إلى الإسلام حتى دخل منهم جماعة مستجيبين لهذه الدعوة ، ومن هؤلاء : عبد الله بن سلام الذى كان يدعى « الحصين بن سلام » قبل الإسلام .

وتطلع الرسول بعد المدينة إلى خارجها ، وكان اهتمامه واضحًا بالنصارى ، فهم أهل كتاب يؤمنون بالله ، فدعاهم إلى لقائه ، فوفدت له وفود منهم ، من نجران ، وكان الرسول يحسن استقبالهم ويدعوهم إلى الإسلام ، ويذكرهم بما فى كتبهم مما جاء عنه ، فأسلم منهم عدد كبير ، كما أسلم عدى بن حاتم الذى كان قد اعتنق النصرانية .

ثم اتجه الرسول إلى قلب الجزيرة العربية داعيًا ، وكان يهتم بالرؤساء الذين يعرف فيهم الدعة والاستقامة ، فاستجاب الكثيرون منهم ، وكان دخول هؤلاء الرؤساء فى الإسلام ، يفتح الباب لتدفق أتباعهم .

وانتشر الإسلام فى قلب الجزيرة العربية بوسائل الدعوة الرشيدة التى اتبعها الرسول ، وسرعان ما تطلع ـ عليه السلام ـ الى أطراف الجزيرة ، فأرسل الدعاة واستقبل الوفود ، ولاقت الدعوة كل نجاح بهذا الطريق أو ذاك ، بل تطلع ـ عليه السلام ـ إلى الممالك والدول التى تحيط بالجزيرة العربية فأرسل لهؤلاء رسائل ومبعوثين ، ودق بذلك هذه القلوب ، فكان ذلك إيذانا بالفتوح الإسلامية التى جاءت فى العصور التى تلت عصر الرسول .

الحكمة فى كتب الرسول للملوك والرؤساء :

والذى يقرأ كتب الرسول إلى الملوك والرؤساء يجدها صيغت بمنتهى الحكمة والمعرفة ، فالرسول فيها سمح .. يدعو ولا يهدِّد ولا يقلل من مكانة الملوك والرؤساء . بل يكتب لهم بألقابهم ، ويعترف بمكانتهم ، ويقرر أن سلطانهم فى ظل الإسلام باق لهم ، وهو بذلك يؤكد أنه ليس طالب مُلكٍ ، ثم هو يذكر أن هناك زكاة فى أموال الأغنياء ، ولكنه يؤكد أن الزكوات والصدقات لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ، وإنما تؤخذ من أغنياء المسلمين وترد على فقرائهم ، وهو بهذا يؤكد أنه ليس طالب مال ، وهو ـ عليه السلام ـ يخاطب كل ملك حسب ظروفه ، فإن كان من أهل الكتاب أشار الى ما بين الأديان السماوية من روابط ، وإن كان من غيرهم أشار الى التزام البشرية بالعودة إلى الله وترك عبادة ما سواه .

وهكذا كان محمد الداعية نموذجًا عظيما لحمل الدعوة ، وشرحها ، وتقديمها للناس ، والدفاع عنها ، فما أحوجنا أن نتدارس بعمق طريقته لنتأسى بها ، وأن نحاول أن نتخلق بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر والدأب ونحن ننقل فكرنا الى أية جماعة من جماعات البشر.

الرسول يربى العلماء والدعاة :

من أبرز ما يقوم به القادة الموهوبون المخلصون أن يربوا الصف الثانى الذى يأخذ عنهم ويحمل العبء معهم وبعدهم ، بل أن يربوا صفوفا متتالية أشبه بدرجات السلم ، لتسير أمور المجتمع فى مأمن من الأحداث ، بحيث لو مات قائد أو اختفى بسبب ما ، ظهر خلفه من يحمل العبء توقف أو اضطراب ، وتعتبر تربية الصفوف التالية أبرز ما يهتم به القادة إن كانت لهم قيم يحرصون عليها ، وأهداف يسعون لنيلها .

وموقف الرسول ـ صلوات الله عليه ـ من تربية الصفوف التالية موقف نموذجى ، يتحتم على المسلمين أن يتعرفوا عليه ليقتدوا به ويسيروا على هديه ، وقد اهتم الرسول بتربية الصفوف التالية فى مختلف الميادين ، فى ميدان السياسة والحكم ، وفى ميدان الحرب والجهاد ، وفى ميدان العلم والدعوة ، وهنا ـ ارتباطا بالرسول الداعية ـ نتحدث عن الرسول وهو يربى العلماء والدعاة .

كان للرسول ـ صلوات الله عليه ـ قدرة هائلة فى اختيار الأشخاص الذين يحملون راية العلم بعده ، ويتحملون مسئولية توصيل المعارف إلى الناس ، وإذا كانت الحياة فى الجامعة تعطى اهتماما كبيرًا لاختيار المعيدين وطلاب الدراسات العليا ليكون منهم أساتذة المستقبل ، فإن ذلك مأخوذ من حكمة الرسول وفطنته ، فقد كان شديد الاهتمام باختيار العناصر الصالحة التى يفضى لها

بمزيد من الخبرات والمعارف لتحمل رسالة العلم بعده ، ومن أبرز صفات حملة العلم : الدأب على البحث ، وسعة الطاقة ، والرغبة فى العطاء الفكرى ، ويروى أن الرسول ـ صلوات الله عليه ـ كان يختار لذلك مجموعة من خاصة المسلمين ليعطيهم من التفاصيل الفكرية مالا يمكن أن تطيقه أفكار سواهم ، فقد كان الصحابة يتفاوتون فى العلم والهدى ، فمنهم من أخذ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنصيب وافر ، ومنهم من أخذ قدرًا متوسطا ، ومنهم من كان قليل البضاعة صاحب النبى وكأنه لم يصاحبه ، ولذلك تروى عائشة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «ما أظن فلانا وفلانا يعرفان ديننا الذى نحن عليه» (رواه البخارى) وتروى أم سلمة عن الرسول قوله : «إن من أصحابى من لا يرانى بعد أن أفارقه» أى أنه سينسى بعض ما قدمت من تعاليم وأفكار .

أما القسم من الصحابة الذين يصدق عليهم قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «العلماء ورثة الأنبياء» فكان منهم على بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى أبى حذيفة بن اليمان ، وكثيرون أمثالهم ، وكان الخلفاء الراشدون يلجأون لهؤلاء إذا حزب أمر فكرى ، فكان على ـ رضى الله عنه ـ أقضى القضاة ، كما كان منهم مجالس الشورى للخلفاء

الصفات اللازمة للدعاة :

ما الصفات التى لاحظها الرسول فى هؤلاء الذين اختارهم ليكونوا دعاة الإسلام ؟ وما الوصايا التى قدمها لهم وهم يخطون لحمل هذه المسئولية ؟

أبرز الصفات التى يلزم أن تتوافر فى الداعية هى : العلم ، وعدم الحرص على ترف الحياة ، والرغبة فى العطاء ، وقوة البيان ، وسماحة النفس ، ونقاء السريرة ، والشجاعة فى مواجهة الشدائد ، وهذه الصفات جميعها كانت واضحة المعالم فى الدعاة الذين اختارهم الرسول لحمل مسئولية الدعوة الى الله .

القائد العسكرى والداعية :

وكان خالد بن الوليد قائدًا مبرزًا لم يهزم قط.. كان موهوبًا فى عالم الحرب ، ولكنه لم يكن كذلك فى عالم الدعوة . ولذلك يروى التاريخ أن الرسول أرسله الى بنى الحارث بن كعب وأمره ألا يقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم دعائم الدين وكتاب الله وسنة نبيه ، فذهب خالد بذلك ، فاستجاب له بنو الحارث ، وكتب خالد بذلك للرسول ، فأجابه الرسول بكتاب يحمد الله فيه أن اهتدى هؤلاء إلى الإسلام ، وطلب من خالد أن يبشرهم وينذرهم ، كما

طلب منه أن يعود اليه ومعه وفد منهم ، وعاد خالد ومعه هذا الوفد ، والتقى بهم الرسول فوعظهم وزكاهم ، ثم أرسل معهم عمرو بن حزم الأنصارى ليفقههم فى الدين ويعلمهم السنة وتعاليم الإسلام ، وكتب اليه كتابا طويلا يكون دستوره فى هذا العمل ، ونقتبس منه بعض فقرات :

أمره بتقوى الله فى الأمر كله «فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» وأمره أن يأخذ الحق كما أمره به الله ، وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين ، وينهى الناس عن الشر ، ويلين إلى الناس فى الحق ويشتد عليهم فى الظلم ...»

داعية اليوم وكيف يكون :

ذلك هو الطريق الذى ربى الرسول الدعاة عليه ، وهو بذلك يعطينا نموذجًا ينبغى أن نقتدى به فى عهدنا الحاضر وفى المستقبل ، فداعية اليوم ينبغى أن يكون عالما واسع الفكر والفقه ، وأن يحفظ القرآن الكريم أو أكثره على الأقل ، ويحفظ مجموعة مناسبة من أحاديث الرسول ، وأن يكون واسع الاطلاع وبخاصة فى العلوم الإنسانية التى ترفع شأنه وتطلق لسانه بين الجماهير ، ويتحتم على داعية اليوم أن يكون عالما بعلوم العصر التى تفيده أكبر إفادة فى نطاق الدعوة مثل : مقارنة الأديان والحضارة الإسلامية ، وأن يكون ذا عقل راجح يتعرف أحداث التاريخ بذكاء وعمق ، فلا يخدعه ما ظهر فى التاريخ الإسلامى من انحراف ، بل يكون قادرا على تصحيح جوانب هذا التاريخ .

ويتحتم على داعية الحاضر والمستقبل أن يجيد لغة أوربية عالمية حتى يستطيع أن يحضر المؤتمرات الإسلامية العالمية ويحادث المسلمين غير العرب.. وقد كنا حديثا فى مؤتمر إسلامى فى باكستان ، وقبل ذلك كنا فى مؤتمر بماليزيا وأسبانيا وكانت اللغة الإنجليزية هى لغة المؤتمر والمؤتمرين ، وبالإضافة إلى اللغة العالمية ينبغى على الداعية أن يجيد لغة البلاد التى يعمل بها ، وعلى الداعية المسلم بوجه عام والعربى بوجه خاص أن يجيد اللغة العربية ، وأن تكون لديه القدرة على الأداء بها ومعرفة أساليب البلاغة فيها ، فهى اللغة الأصيلة للدعوة الإسلامية .

ويتحتم أن يكون داعية الحاضر والمستقبل بعيدًا عن حدود الوظائف التى تسعى للمال وتعمل للاستزادة منه ، ينبغى لهذا الداعية أن يكون فيه خلق العطاء ، وليس معنى هذا أن يكون الداعية محروما ، بل ينبغى أن تعطيه الحكومات ما يحتاجه ، ولكننا نريده هو متطلعا للبقاء أكثر من تطلعه للنعيم الزائل .

ويتحتم أن يكون داعية الحاضر والمستقبل حسن العشرة سمح النفس واسع القدرة على الحوار الذى ينطبق عليه قوله تعالى «وجادلهم بالتى هى أحسن» وقوله : «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» .

ويتحتم على داعية الحاضر والمستقبل أن يبشر بالخير ويتعرف على روح الإسلام وألا تكون مجالسه حافلة بالتخويف من الآخرة ، بل أن يكون الأمل فى النجاة منهجًا له ، وأن تكون وسائله للوصول إلى الغاية سهلة يسيرة ، فالدين يسر لا عسر فيه ، ويتحتم عليه أن يهتم اهتماما كبيرًا بمشكلات الناس والحياة ، وأن يحاول أن يعالجها بروح الإسلام ، وأن يتذكر دائمًا جانب المعاملة فى الفكر الإسلامى ، فليس الإسلام عبادة فقط كما يصوره كثير من الدعاة ، بل إن الإسلام يهتم بعلاقة الإنسان بربه كما يهتم بعلاقة الإنسان بالانسان والمجتمع .

ولا شك أننا إذا ربينا الداعية المسلم على هذا النمط أمَّلنا منه خيرًا كثيرا للإسلام والمسلمين .

وفى كلمة موجزة ينبغى أن نتذكر أن هناك فرقًا كبيرًا بين الداعية والمدرس ، وأن مهمة المدرس تبدأ بعد نجاح مهمة الداعية ، والمدرس يجيد علوم اللغة وعلوم الشريعة ، ولكن الداعية يحتاج لعلوم أوسع : كمقارنة الأديان والحضارة الإسلامية ليجذب الناس إلى الإسلام ثم يسلمهم للمدرس .

خطر ينبغى الحذر منه :

وبعد أن تحدثنا عن محمد الداعية وعن وسائل تربية الدعاة ... نصل الى نقطة خطيرة ، هى أن نشاط الدعاة المسلمين الأول سواء أولئك الذين رباهم الرسول أو الذين جاءوا على شاكلتهم فى القرون الأولى هو الذى دفع سواهم من أتباع الديانات الأخرى ليسيروا سيرتهم فى الدعوة لأديانهم ، وعلى هذا فعندما نستعرض الحركات الدينية بالعالم خلال القرون الماضية نجد أن الإسلام قد انتشر بطريقة رائعة فى مختلف البلدان فيما يسمى اليوم بالعالم العربى ، وفى شبه جزيرة الهند وفى الأندلس ، وفى جنوب الصحراء الأفريقية ، كما نجد أن انتشار الإسلام فى تلك النواحى وسواها جاء على حساب أديان ومعتقدات أخرى كانت فى تلك المناطق وآثرت الانكماش والتخلى عن بعض مناطق نفوذها للزحف الإسلامى ، الذى كان يهدر ولا تستطيع قوة أن تقف أمامه .

ولكن هذا النشاط الإسلامى دفع بعض الديانات التى تراجعت إلى إعداد دعاة ومبشرين للصمود والمقاومة والهجوم ، وبينما كان هؤلاء يتجهون هذا الاتجاه ، كان الدعاة المسلمون

يرجعون القهقرى ، وينكصون عن الاستعداد . وأصبح أكثر الدعاة المسلمين لا يتمتعون بالكفاءة والمثابرة التى كانت يتمتع بها أسلافهم ممن حملوا الإسلام الى مختلف البقاع .

وهذا الوضع يصور كارثة كبرى ومحاولة لقلب كفتى الميزان ، لترجح الكفة التى كانت شائلة ، ولتشيل الكفة الإسلامية التى كانت راجحة ، وهذا يدعو الى سرعة التصرف لنُعِدَّ للدعوة رجالا أفذاذًا يحملون العبء الذى كان يحمله المسلمون فى العهود السابقة .

وإعداد هؤلاء الدعاة يجعلنا نحتاج إلى شباب لهم مواهب عالية ، وإلى مناهج تنمى هذه المواهب ، وتسكب فى هذه العقول صور الفضائل ، وصور الفكر ، ليحملوا المشعل ، وليسيروا بالهداية الى كل مكان ، أما الشباب ذوو المواهب فيجب البحث عنهم وتشجيعهم بكل الوسائل ليتجهوا هذا الاتجاه ، ومن عجب أننا نلاحظ قوى هائلة تبحث عن الأصوات الجديدة للغناء وتبحث عن الوجوه الجديدة للتمثيل ، ولا نجد من يبذل أى اهتمام أو أى جهد للبحث عن القدرات التى تحمل الهداية للبشرية ، وتقدم للناس خاتمة الديانات .

إنها صيحة ، نرجو الله أن ييسر من المسلمين من يحمل عبأها ، ويسعى لتنفيذها .

محمد صلى الله عليه وسلم
الرسول السياسى

الأستاذ الدكتور
محمد عمارة

بعد حمد الله ، وشكره .. والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله ، خاتم أنبيائه ورسله .. يجدر بنا أن نبدأ بـ «التعريف» بعنوان هذا البحث .. وبـ «التكثيف» لمضمون القضية الفكرية التى تحملها سطور هذه الصفحات .

ذلك أن الحديث عن [محمد : الرسول ـ السياسى] .. يستلزم التمهيد بين يديه بـ «تعريف» «الرسول» و «الرسالة» .. و «السياسى» و «السياسة» ، وصولا إلى القضية التى هى أخطر وأعقد قضايا هذا المبحث .. قضية العلاقة بين «الرسالة» وبين «السياسة» .. بين «ماهو بلاغ عن الله» وماهو «سياسة للناس ورئاسة للدولة» فى الإنجاز الذى أنجزه محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ .. أى العلاقة بين «الدين» و «الدولة» كما رآها ويراها الإسلام .

● أما «الرسول» ، فلقد تعارف المسلمون على أنه : الإنسان الذى «بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبليغ الأحكام»[1] .

.. وهذه «الأحكام» التى أمر الله رسوله بتبليغها ، هى جُماع الرسالة ، التى عرّفوها بأنها «هى : سفارة العبد بين الله تعالى وبين ذوى الألباب من خليقته ، ليزيح بها عللهم **فيما قصرت**

---

(١) التفتازانى فى [شرح العقائد النسفية] ص ١٢٩ ، ١٣٠ طبعة القاهرة ، الأولى سنة ١٣٣١ هـ سنة ١٩١٣ م .

عنه عقولهم من مصالح الدنيا والآخرة»[٢] .

● أما «السياسة .. التى عرّفها المحدثون «بأنها» : رياسة الناس وقيادتهم»[٣] ـ فإن لها فى تراثنا الإسلامى تعريفا دقيقا يقول عنها : إنها «ماكان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، **وإن لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحى**»[٤] .

وعلى ضوء هذه التعريفات ، التى حددت عنوان هذا المبحث ، نبصر العلاقة بين «الرسالة» و «السياسة» بين «الدين» و «الدولة» فى إنجاز الرسول ، ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

فـ «الرسالة» ـ التى هى : «الدين» والبلاغ عن الله سبحانه ـ قد قصدت ، فى الجوهر والأساس ، إلى إزاحة العلل عن الأمة فيما قصرت عنه العقول فعجزت عن إدراكه مع الاستقلال .

وأحكام «الرسالة» وهدى «الدين» هو مما يدخل فى نطاق «السياسة» ، لأن الناس به ومعه «يكونون أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد» .

لكن «السياسة» لا تقف عند معالم وأعيان أحكام الرسالة وأصول الدين ، لأن نطاقها الأكبر وميدانها الأوسع هو مما يخضع للتطور والتغير ، فيتمايز عن «ثوابت الدين» ، الذى أكمله الله . فتنزه عن التطور والتغيير ، ومن ثم كان فيها ـ «السياسة» ـ الكثير مما «لم يشرعه الرسول ولا نزل به «وحى» ... فإذا ما جاء هذا القسم من «السياسة» متسقا مع مقاصد الشريعة الإلهية ، أى محققا «للعدل» الذى أرسل الله رسله وأنزل كتبه لترتفع أعلامه وموازينه بين الناس ، كان جزءًا من «السياسة الشرعية» .. أما إذا تنكب هذا القسم من السياسة طريق «العدل فإنه يخرج من إطار «الرسالة» ونطاق «الدين» ، ويكون ، لذلك ، مجافيا للسياسة الشرعية ! .

إذن ، فبين «الرسالة» و «السياسة» علاقات .. وفروق .

وبين «الدين» و «الدولة» عموم وخصوص .

فكل «الرسالة» «سياسة» .. وليست كل «السياسة» «دينا ورسالة» ، وإن كان «الدين» قد

---

(٢) المصدر السابق . ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٣) مجمع اللغة العربية [المعجم الوسيط] . طبعة القاهرة . الثانية ، سنة ١٣٩٢ هـ سنة ١٩٧٢ م .

(٤) ابن القيم [أعلام الموقعين] جـ ٤ ص ٣٧٢ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

حدد لها الإطار والمقاصد التى تكون « بالتزامها وتغيّيها « سياسة شرعية » حتى وإن كانت من إبداع البشر ، لا من وحى الشارع إلى رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

هذا عن « التعريف » بعنوان المبحث .. و « التكثيف » للقضية الجوهرية التى نجتهد للبرهنة عليها فى هذه الصفحات .

* * *

محمد .. الرسول

فى مكة المكرمة بدأ طور « النبوة » لمحمد بن عبد الله ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند ما بدأه الوحى : [اقرأ باسم ربك] (٥) ـ فلما انتهت « فترة » الوحى بدأ طور « الرسالة » عندما طلب الله منه « البلاغ » ، فنزل عليه جبريل بآيات القرآن الكريم [يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر] (٦) .

ومنذ ذلك التاريخ تتابع الوحى ، وأخذت عقائد « الإسلام الدين » تتبلور ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبلغها ، سرًا إلى القلة التى آمنت بالدين الجديد .. لقد اقترنت عقيدة « التوحيد بـ « الرسالة » .. ثم شرعت « الصلاة » .

ولقد ظل المسلمون طوال سنوات « العهد المكى » قلة مستضعفة ، أقاموا « الدين » قدر استطاعتهم ، متحملين فى سبيل ذلك العنت والفتنة والبلاء .. خضعت أرواحهم لدين الله ، لكنهم لم يبلغوا من القوة الحد الذى يمكنهم من إقامة الكيان السياسى الخاص بهم ، والمعبر عن « دولة الإسلام » .. فكان الإسلام ، فى العهد المكى ، دينًا لا دولة .. وكان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسولا يبلغ أحكام الدين عن الله إلى الناس ، تلك الأحكام التى دارت حول « التوحيد » و « الرسالة » وبعض شعائر « العبادات » .. ولم يكن ، فى ذلك العهد ، سائسًا لدولة ولا قائدًا سياسيًا لمجتمع سياسى مستقل عن مجتمع المكيين .

---

(٥) العلق : ١ .

(٦) المدثر : ١ ـ ٧ .

محمد : السياسى

لقد اكتفينا ، فى الحديث عن «محمد : الرسول» ، بسطور تشير إلى هذه المهمة ـ مهمة «الرسالة» ـ من إنجازه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذلك أن «رسالته» ليست ـ عند التحقيق ـ بموضوع للخلاف .

- إنها واحدة من العقائد الأساسية فى دين الإسلام ـ يشهد بها المسلم كما يشهد بتوحيد الله .

- وحتى الكفار ، الذين يجحدون رسالته ـ إنما يجحدون صدق دعواه لها ، ولا يجحدون أنه تقدم إلى الناس يبشرهم وينذرهم برسالة قال عنها : «إنها وحى من الله» .

- أما آيات القرآن الكريم ، التى تتحدث عن «محمد : الرسول» ، فإن إحصاءها ـ مجرد الإحصاء ـ يستغرق الصفحات .. وذلك من مثل الآيات الكريمة :

[**محمد رسول الله** والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ...][7] .

[**وما محمد إلا رسول** قد خلت من قبله الرسل][8] ..

[ماكان **محمد** أبا أحد من رجالكم ولكن **رسول الله** وخاتم النبيين][9] .

[وهو الذى بعث فى الأميين **رسولا** منهم][10] ..

[هو الذى أرسل **رسوله** بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله][11] .

[إنا **أرسلناك** بالحق بشيرًا ونذيرا][12] .

[**وأرسلناك للناس رسولا** وكفى بالله شهيدا][13] .

[كذلك **أرسلناك** فى أمة قد خلت من قبلها أمم][14] .

---

(٧) الفتح : ٢٩ .

(٨) آل عمران : ١٤٤ .

(٩) الأحزاب : ٤٠ .

(١٠) الجمعة : ٢ .

(١١) التوبة : ٣٣ ، الفتح : ٢٨ ، الصف : ٩ .

(١٢) البقرة : ١١٩ .

(١٣) النساء : ٧٩ .

(١٤) الرعد : ٣٠ .

[يا أيها النبى إنا أَرْسَلْنَاكَ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا][15] .

[وما أرسلناك إلا كافة للناس ـ بشيرًا ونذيرًا][16] .

[وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدًا][17] .

[إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدًا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا][18] .

[قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا][19] .

[قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولا ؟][20] .

إلى غير ذلك ، مما ماثلها ، من آيات القرآن الكريم ..

فوضوح جانب « الرسالة » من إنجازه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى دعانا إلى الاكتفاء فى الحديث عنه بالإشارة فى سطور .

لكن ... ليس كذلك مهمة « السياسة » فى إنجازه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ؟ ! .. فحولها قام ، ولا يزال قائما الخلاف ! ..

* * *

ونحن نستطيع أن نوجز الخلاف الذى قام ، ولا يزال قائما . حول مهمة « السياسة والسياسى » من إنجازه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهل كان سياسيًا ؟ أم كان رسولا فقط ؟ .. وإذا كان سياسيًا فما طبيعة سياسته ؟ بمعنى : ماهى علاقة سياسته برسالته ؟ ؟ .

نستطيع أن نوجز الحديث عن هذا الخلاف عندما نشير إلى معالمه وأطرافه الأساسيين .

● فهناك الذين أنكروا ، وينكرون أن يكون محمد « سياسيًا ، ومؤسسًا لدولة سياسية » .. ويقولون : « إن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة ، وأنه ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى

---

(١٥) الأحزاب : ٤٥ .
(١٦) سبأ : ٢٨ .
(١٧) النساء : ٧٩ .
(١٨) المزمل : ١٥ .
(١٩) الأعراف : ١٥٨ .
(٢٠) الإسراء : ٩٣ .

الذى يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها . ماكان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل ، وماكان ملكا ولا مؤسس دولة ، ولا داعيًا إلى ملك »[٢١] .

فهولاء يقولون : إن محمدًا كان رسولا فقط .. ولم يكن سياسيًا .. فهو لم يؤسس دولة ولم يرأس حكومة ، ولم يقم من الناس مقام القائد السياسى ، على النحو الذى عرفه التاريخ السياسى من القادة السياسيين .

ومن هؤلاء من يستند فى هذه الدعوى إلى وقوف القرآن الكريم ، فى وصف محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والحديث عنه عند وصف النبى والرسول ، وخلوه من وصفه له بصفة السياسى ، والحاكم السياسى ، وقائد الدولة ، ورئيس الحكومة .. فيقولون : « إن القرآن الكريم لم يجعل النبى العربى محمدا بن عبد الله ، ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، ملكا أو رئيس دولة ، وظل ينعته بالنبى الرسول .. وليس من حقنا بأى حال من الأحوال أن نلتزم بغير ما جاء به القرآن الكريم ونستبدله بغيره .

لم يكن نبى الإسلام فى أى وقت من الأوقات ملكا أو رئيس دولة ، وإنما ظل دائما النبى الرسول .. »[٢٢] .

● وهناك ـ على النقيض من هؤلاء ـ من لم ينكركون « الدولة » و « الحكومة » من الإنجازات التى مارسها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فاعترف بتأسيسه « للدولة » ورياسته « الحكومة » .. لكنه اعتبر هذه « الدولة » وتلك « الحكومة » « دينًا خالصًا » و « وحيًا إلهيًا » لا دخل فيهما للطابع « المدنى ـ السياسى » ، ولا أثر فيهما لاجتهاد الرسول كبشر .

فهذا الجانب السياسى ـ إن جاز التعبير ـ من إنجاز الرسول ، هو ـ فى رأى هذا الفريق ـ « دين خالص » ليس للرسول فيه سوى البلاغ عن الله والتنفيذ لوحيه ، مثله فيه كمثل بلاغه لشعائر الصلاة والصيام وممارسته لها وفق القواعد التى حددها وحى السماء .

فالإسلام ، عند هؤلاء ، « رسالة دينية خالصة » .. ليس فيها « سياسة » ، بالمعنى « المدنى ـ والبشرى ـ والاجتهادى ـ والإبداعى » ، لأن ما يدخل منها تحت هذا العنوان إن هو إلا « دين .. ووحى .. وروحانية » لا أثر فيه لاجتهاد النبى ، كبشر ، ولا للمسلمين ، أو الواقع الذى قامت

---

(٢١) على عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص ١٥٤ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(٢٢) د . محمد أحمد خلف الله [النص والاجتهاد والحكم فى الإسلام] ـ مجلة [العربى] عدد ٣٠٧ رمضان سنة ١٤٠٤ هـ يونيو سنة ١٩٨٤ م ص ٤٣ .

فيه « الدولة » و « الحكومة » التى رأسها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

ونحن نستطيع أن نميز من أصحاب هذا الرأى فرقاء ، اجتمعوا على « المضمون » ، وتمايزوا فى « الشكل » الذى صاغوا به هذا « المضمون » .

(ا) فالمستشرق ستيلانة « De Santillana » [١٨٤٥ ـ ١٩٣١ م] يمثل هذا الموقف فى الدراسات الاستشراقية التى كتبت عن هذا الموضوع .. وهو يوجز هذا الرأى فيقول : « **الإسلام هو حكومة الله المباشرة ، يحكمها الله الذى يرعى شعبه دائما . فالدولة فى الإسلام يمثلها الله ، حتى الموظفون العموميون هم موظفون عند الله** »[٢٣] !

(ب) والخوارج ـ من بين تيارات الفكر الإسلامى ـ وقد ارتادوا هذا الميدان فى تراثنا السياسى ـ فلقد خلطوا بين « حكم الله » بمعنى « القضاء الدينى » ، الذى لأجله كان ، سبحانه ، هو « الشارع » الوحيد ، وبين « الحكومة » ، بمعنى « الإمارة السياسية » ، التى هى الرياسة والقيادة فى المتغيرات الدنيوية ، وإقامة العمران وتطويره فى دنيا الناس ، وتحويل أصول الشريعة وقواعدها الخاصة بالحياة السياسية والاجتماعية إلى تفصيلات توضع فى الممارسة والتطبيق .

ارتاد الخوارج هذا الميدان ، عندما خلطوا هذا الخلط ، فجعلوا « الدولة .. والإمارة .. والسياسة » « دينًا خالصًا » ، ومن ثم رفضوا أن يكون للبشر مدخل فى « السياسة والحكومة » .. أى رفضوا ـ بلغة عصرنا ـ أن تكون « الأمة ـ فى السياسة مصدرًا للسلطة والسلطان » ـ وقالوا لعلى بن أبى طالب ـ الخليفة الراشد الرابع ـ عندما قبل التحكيم فى النزاع مع معاوية بن أبى سفيان : « حكّمت الرجال فيما حكَم فيه القرآن ؟ ! » .. قالوا ذلك منكرين ومستنكرين .. ثم صاحوا : « لا حكم إلا لله » ! ، حتى لقد جعلوا منها شعارًا لهم ، فسموا لذلك بـ « المحكِّمة » ! ..

ويومها رد على بن أبى طالب على هذا الخلط الذى جعل « السياسة » « رسالة » خالصة .. فقال فى وصفه لعبارة « لا حكم إلا لله » : « كلمة حق يراد بها باطل ! ! » نعم ، إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون : « لا إمرة إلا لله . وإنه لابد للناس من أمير برّ أو فاجر »[٢٤] !

---

(٢٣) [القانون والمجتمع] ص ٤٠٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ترجمة : جرجيس فتح الله . طبعة بيروت ـ ضمن كتاب « تراث الإسلام » ـ سنة ١٩٧٢ م .

(٢٤) على بن أبى طالب [نهج البلاغة] ص ٦٥ . طبعة دار الشعب . القاهرة .

فالخوارج .. فى تراثنا ـ هم الذين ارتادوا ـ بهذا الخلط الذى جعل «السياسة» «دينًا ورسالة» ـ ارتادوا القول بأن «حكومة الإسلام السياسية» هى «حكومة الله الدينية» ، فهى بلاغ عن الله ، ووحى منه لرسوله ، لا شأن فيها للبشر ولا سلطان فيها للناس .

وعلى هذا «الدرب الخارجى» يسير اليوم دعاة بعثوا شعار «الحاكمية» هذا ، بمعناه الذى يجرد الأمة من أية سلطات ، ومن أى سلطان فى دنيا «الدولة» و «الحكومة السياسية» .. فشاعت وتشيع كتابات تقول : إن أى جماعة أو شخص يدعى لنفسه أو لغيره حاكمية **كلية أو جزئية** ، هو ولا ريب سادر فى الإفك والزور والبهتان المبين ... فالله معبود بالمعانى الدينية ... وسلطان حاكم وحده .. **بالمعانى السياسية والاجتماعية .. وهو لم يهب أحدًا حق تنفيذ حكمه فى خلقه .. وإن الإنسان لا حظ له من الحاكمية إطلاقا ... وإن الأساس الذى ارتكزت عليه دعامة النظرية السياسية فى الإسلام : ان تنتزع جميع سلطات الأمر والتشريع من أيدى البشر ، منفردين ومجتمعين ...**» [٢٥] .

فهم ـ بعد أن بعثوا هذا «الشعار الخارجى» ـ شعار «الحاكمية لله وحده» .. وطبقوه فى دنيا «الدولة والحكومة السياسية» ـ قد اتفقوا ـ واقعيا وعمليا وفى المضمون ـ مع المستشرق «سنتيلانة» عندما جعل «السياسة» «رسالة خالصة ودينًا محضًا ووحيًا وبلاغًا» ، فقال عن حكومة الإسلام إنها : «حكومة الله المباشرة» ! ..

(جـ) وإذا كان القول بهذا الرأى قد جمع ـ عمليًا وباعتبار المضمون ـ بين من لا يظن اجتماعهم : الخوارج القدماء ـ ودعاة محدثين ينفرون من سيرة الخوارج ومسلكهم ! .. ومستشرقين يصورون الإسلام ويتصورونه «كهانة ـ كنسية» كتلك التى فرضتها البابوية الكاثوليكية على أوربا فى العصور الوسطى .. فإن هذا الرأى قد جمع مع هؤلاء أيضا ـ رغم تباين الموقع والمنطلق وتغاير الملابسات ـ أولئك الذين قالوا ويقولون بنظرية الإمامة الشيعية فى فكرنا الإسلامى ، القديم منه والحديث ! ..

ففى نظرية الإمامة الشيعية نرى «الإمامة» ـ وهى الولاية ـ والدولة والرياسة السياسية جزء منها ـ نراها :

---

(٢٥) أبو الأعلى المودودى [الحكومة الإسلامية] ص ٧٠ ، ٧٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م و [نظرية الإسلام السياسية] ص ٣١ ـ ٣٤ . طبعة بيروت ـ ضمن مجموعة عنوانها نظرية الإسلام وهديه فى السياسة والقانون والدستور» ـ سنة ١٩٦٩ م .

● ـ أصلا من أصول الدين « لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها »[٢٦] .. بل هى أدخل فى أصول الدين وأوكد فى أركانه من معرفة الله ومن عدله ، ومن نبوة أنبيائه .. فهى من قواعد الإيمان الخمسة ـ الشاملة لقواعد الاسلام ـ :

١ ـ المعرفة : بما فيها الصفات الثبوتية والسلبية .

٢ ـ التصديق : بالعدل والحكمة .

٣ ـ التصديق : بنبوة محمد ، وجميع ما جاء به .

٤ ـ التصديق : بإمامة الأئمة الإثنى عشر ، وما جاءوا به .

٥ ـ التصديق : بالمعاد الجسمانى .

وهم يجعلون القواعد « الثلاثة الأولى خاصة بالإسلام ، والأخيرتان من امتياز الإيمان[٢٧] .

● وهم يقيسونها على « النبوة » ، ويقررون « العصمة » لصاحبها ، الأمر الذى يجعل « سياستها » « ديناً خالصاً » .. فيقولون : إننا « نعتقد أن الإمامة كالنبوة .. وحكمها حكم النبوة ، بلا فرق[٢٨] ولذلك « فإن دفع الإمامة كفر ، كما أن دفع النبوة كفر ، لأن الجهل بهما على حد واحد .. لأن منطلق الإمامة هو منطلق النبوة والهدف الذى لأجله وجبت النبوة هو نفس الهدف الذى من أجله تجب الإمامة ، وكما أن النبوة لطف من الله كذلك الإمامة ، واللحظة الحاسمة التى انبثقت بها النبوة .. وهى يوم الدار ـ [عندما جمع النبى عشيرته ودعاهم للإسلام] ـ هى نفسها اللحظة التى انبثقت بها الإمامة .. واستمرت الدعوة ذات لسانين : النبوة والإمامة ، فى خط واحد » .

بل لقد رفعوا شأن « الإمامة » على « النبوة » ، عندما قالوا : « ولقد امتازت الإمامة على النبوة بأنها استمرت بأداء الرسالة بعد انتهاء دور النبوة .. فالنبوة : لطف خاص ، والإمامة : لطف عام[٢٩] » !

---

(٢٦) محمد رضا المظفر [عقائد الإمامية] ص ٦٥ . طبعة النجف . دار النعمان .

(٢٧) أبو جعفر الطوسى [تلخيص الشافى] جـ ١ ق ١ ص ٩١ « هامش » ، ص ٥٩ ، ٦٠ . تحقيق السيد حسين . العلوم . طبعة النجف ١٣٨٣ هـ ١٣٨٤ هـ . وأبو جنيفة النعمان المغربى [دعائم الإسلام] جـ ١ ص ٢ ، ١٣ تحقيق آصف بن على أصغر فيضى . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

(٢٨) [عقائد الإمامية] ص ٧٤ .

(٢٩) [تلخيص الشافى] جـ ٤ ص ١٣١ ، ١٣٢ . والشريف المرتضى [مجموع من كلام السيد المرتضى] اللوحة ٦٣ . مخطوط بالمكتبة التيمورية . دار الكتب المصرية .

● بل لقد جعلوا « الإمامة » ـ والسياسة بعضا من مها مها ـ هى « الرسالة » ، ففسروا قول الله سبحانه لرسوله : [يايها الرسول بَلِّغْ ما أنزل إليك من ربك . وإن لم تفعل فما بلغت رسالته[٣٠]] بأن معناه : « بين لتابعيك .. من القائم مقامك بعدك ـ [الإمام] ـ .. وإن لم تفعل فكأنك ما قمت بالأمر على وجهه ..[٣١] » !

● فالسياسة ـ عند أصحاب نظرية الإمامة الشيعية ـ مقدسة . لأنها دين خالص ، وذلك لأن مصدرها ـ الإمام ـ له عصمة الأنبياء ، إذ « يجب أن يكون الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه ـ نبياً كان أو إماماً ـ معصوماً .[٣٢] »

إنها « الكهانة » .. لأن مصدر السياسة ـ الإمام ـ « واسطة بين الله وبين خلقه » .. وهو « معصوم » من الخطأ . وحده ، دون الأمة .. والله هو الذى يختاره ، دون البشر ، الذين « ليس لهم حق فى تعيينه أو ترشيحه أو انتخابه لأن الشخص الذى له من نفسه القدسية استعداداً لتحمل أعباء الإمامة العامة وهداية البشر قاطبة يجب ألا يعرف إلا بتعريف الله ولا يعين إلا بتعيينه .. ولذلك فليس للناس أن يتحكموا فيمن يعينه الله .[٣٣] »

إنها ذات نظرية « الحكم بالحق الإلهى » ، التى عرفتها أوربا الكاثوليكية فى عصورها الوسطى .

* * *

فنحن إذن ، أمام تيارين ، يقفان من علاقة « الرسالة » بـ « السياسة » ـ و « الدين » بـ « الدولة » ـ على طرفى نقيض .

أولهما ـ : ينكر أن يكون للسياسة علاقة بالرسالة ، فيرى الإسلام ديناً خالصاً ، ويرى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسولا ، لا حاكما ولا رئيس دولة ، ولا سائسا للمجتمع الذى عاش فيه .

وثانيهما ـ : يطابق بين الرسالة والسياسة ، فيجعل السياسة دينًا خالصًا ، ووحيًا إلهيًا ،

---

(٣٠) المائدة : ٦٧ .

(٣١) الكرمانى : أحمد بن حميد الدين [راحة العقل] ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ . تحقيق : د . محمد كامل حسين . د . محمد مصطفى حلمى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

(٣٢) [تلخيص الشافى] جـ ١ ق ١ ص ٢٠١ .

(٣٣) [عقائد الإمامية] ص ٧٤ .

وبلاغا عن الله إلى خلقه . عبر النبي والإمام ، ومن ثم يجعل الله هو الحاكم الأوحد فى شئون المجتمع السياسية عندما ينكر أن يكون للأمة مدخل فى السلطة والسلطان .

ونحن إذا تأملنا هذا الاستقطاب الذى قام ويقوم بين بعض تيارات الفكر السياسى الإسلامى ودارسى هذا الفكر ، نتذكر ، فى أسف وأسى ، تلك الآفة التى أصابت وما زالت تصيب الكثيرين من أبناء أمة الإسلام .. آفة « التقليد » **للأطروحات الفكرية التى عرفتها ديانات أخرى وحضارات أخرى ، رغم تعارض أسسها وغاياتها ومناهجها مع الأسس والغايات والمناهج التى تميز بها الإسلام .**

حدث ذلك ، ويحدث رغم وضوح مضاره ومخاطره . على ذلك التميز الذى طبع نهج الإسلام فأكسبه خصوصية ازدان بها : كدين ، وكحضارة .. وهى خصوصية من الواجب أن تسعى إلى التحلى بها أمة هذا الدين .

وهو قد حدث ، ويحدث رغم أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد حذرنا مغبته منذ عصر البعثة ، عندما تنبأ به فقال ، محذراً : « لتتبعن سنة من كان قبلكم ، باعًا بباع ، وذراعًا بذراع ، وشبرًا بشبر ، حتى لو دخلوا فى جحر ضب لدخلتم فيه »[٣٤] !

لقد عرفت مجتمعات قديمة وحضارات غير إسلامية ، ذلك النهج الذى جعل « السياسة » « دينًا خالصًا » ، وكان ذلك قبل أن تبلغ الإنسانية طور الرشد الذى يؤهل الأمة لأن تكون مصدرًا للسلطة والسلطان فى شئون الدنيا وتنظيم الدول وسياسة المجتمعات .

فعرفت الكسروية الفارسية كسرى مفوضًا من معبوده « أهورا ـ مزدا » ، مفوضًا بالحق الإلهى لتكون « سياسته » « دين السماء وقانونها المقدس ! .

وعرفت القيصرية الرومانية القيصر ـ فى الوثنية ـ : ابن السماء ـ وفى المسيحية ـ : رئيس الكنيسة ، الحاكم بالحق الإلهى ، على النحو الذى اشتهر فى أوربا الكاثوليكية بعصورها الوسطى ـ المظلمة ! .. كما عرف التاريخ العبرانى « وحدة السياسة والدين » لدوام السلطة السياسية بيد الأنبياء ! ..

لكن الإسلام ، الذى فتح ـ بختم طوْر النبوة ـ للإنسانية باب المرحلة التى بلغت فيها رشدها ، هو الذى علمنا رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أن هذا الطور الجديد قد اقتضى تطورًا

---

(٣٤) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه وابن حنبل .

حاسمًا وتغيرًا نوعيًا فى طبيعة السلطة السياسية للدولة الإسلامية، وفى طبيعة العلاقة بين « الرسالة » و « السياسة » بين « الدين » و « الدولة » .. عندما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « إن بنى إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبى خلفه نبى، وإنه لا نبى بعدى، إنه سيكون خلفاء »[٣٥] .

فنبه على أن لنظام الحكم فى الإسلام طبيعة تخالف طبيعته التى عرفت فى التاريخ القديم وفى الحضارات التى سبقت حضارة الإسلام .. وعندما قال ـ معلقًا على حادث تأبير النخل ـ : « إنما أنا بشر مثلكم .. وما قلت لكم : قال الله ! .. فما كان من أمر دينكم فإلىّ، وما كان من أمر دنياكم فشأنكم به، أنتم أعلم بأمر دنياكم » ![٣٦] .

فنبه على أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ، مع جمعه بين « الرسالة » و « السياسة »، قد تمايز فى إنجازه ماهو « رسالة » عن ماهو « سياسة » .. ماهو « دين » عن ماهو « دولة » .. فاختلف الوضع وتغير، نوعيًا، عن « الكهانة » التى سادت عصور وحضارات ماقبل الإسلام ..

لكن ... وبالرغم من هذا الهدى النبوى، فلد نفر من المسلمين من تقدم أمة الإسلام، باعاً بباع، وذراعاً بذراع، وشبراً بشبر، فجعلوا « السياسة » « ديناً خالصاً »، وأوجبوا للإمام عصمة الأنبياء ! ..

وإذا كان هذا الفكر قد ظل فى تاريخنا وتراثنا مجرد « فكر نظرى »، نشأ كرفض للسلطة السياسية البشرية الظالمة، وكحلم بسلطة معصومة صنعها الله على عينه واصطفاها كما اصطفى الأنبياء ! .. فإن شبيهه ـ « الكهانة الكاثوليكية » ـ عندما سادت أوربا العصور الوسطى، قد أفرزت ذلك اللون من ردود الفعل الحادة .. أفرزت نهج « العلمانية » Secularism .. الذى أنكر أهله ومفكروه أن تكون « للدين » علاقة بـ « الدولة والمجتمع »، ورفضوا أن تكون « للرسالة الدينية » صلة بـ « سياسة دنيا الناس » ! ..

وكما ابتلى تراثنا القديم بآفة تقليد « الكهانة » القديمة .. كذلك ابتلى فكرنا الحديث بآفة تقليد « العلمانية » الأوربية .. وغفل الفريقان ـ القائلون بأن « دولة » الإسلام هى « دين خالص » .. والقائلون بأن الاسلام « دين » لا علاقة له ب « الدولة » ـ غفلوا عن أن للإسلام، وفى هذا الأمر، نهجاً متميزاً، يرفض « الكهانة » و « وحدة الدين والدولة » و « الرسالة والسياسة »

---

(٣٥) رواه البخارى وابن ماجة وابن حنبل .

(٣٦) رواه مسلم وابن ماجة وابن حنبل .

و « السلطة الدينية » و « الدولة الدينية » و « الحكم بالحق الإلهى » .. كما يرفض ، فى ذات الوقت نقيض هذه « الكهانة » : « العلمانية » التى تفصل « الدين » عن « الدولة » ، وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ! .

إنه النهج الإسلامى ، المتميز بـ « وسطية » الإسلام .. تلك الوسطية التى لا تعنى رفض هذين النقيضين لكى تقف بينهما ، وعلى مسافة متساوية بينها وبين كل منهما ـ كما هو شأن « الوسطية الأرسطية » ـ وإنما هى ترفض الانحياز لأى من النقيضين ، لتصوغ معالم موقفها الثالث من السمات والقسمات الممكن جمعها والتأليف بينها من بين سمات وقسمات النقيضين اللذين رفضت الانحياز لأى منهما .. فهى وسطية « العدل » بين الظلمين .. و « الحق » بين الباطلين .. و « الاعتدال » بين التطرفين .. الوسطية التى تجمع وتؤلف بين ما يعد فى المنظومات غير الإسلامية متناقضات يستحيل الجمع بينها ، فضلا عن التأليف ! ... الوسطية التى تجمع بين « الرسالة » و « السياسة » .. بين « الدين » و « الدولة » ، مبصرة العلاقة بينهما ، دون أن تبلغ هذه العلاقة حد « الاندماج والوحدة » ـ كما فى الكهانة والدولة الدينية » ـ .. ودون أن تتدنى وترق هذه العلاقة إلى حد « الانفصال » ـ كما هو الحال فى « العلمانية » ـ الوسطية التى تدعو إلى « الدولة الإسلامية » و « السياسة الإسلامية » فى ذات الوقت الذى ترفض فيه « الدولة الدينية » رفضها للعلمانية ؟! ..

* * *

علاقة « الرسالة » بـ « السياسة »
و « الدين » بـ « الدولة » :

كل تيارات الفكر الإسلامى السنية وأعلام علمائها ، مجمعون على أن « الدولة » ليست « ركناً » ولا « أصلا » من أركان « الدين » وأصوله ... فهذه الأركان والأصول قد حددها حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، الذى يقول : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وإقام الصلاة . وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا[٣٧] » ..

وهى ، كذلك ـ كما يقول ابن تيمية [٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م] ـ ليست ركناً من أركان « الإيمان » الستة ـ [وهى الايمان : بالله ، والملائكة ، والكتب ، والرسل ، واليوم

---

(٣٧) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن حنبل .

الآخر ، والقدر] ـ ولا ركناً من أركان « الإحسان » ـ [التى يجمعها : أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك](٣٨) ..

ولم يقل أحد من هؤلاء الأعلام إن الوحى القرآنى قد فصل للدولة الإسلامية نظاما ، ولا أن الله قد أوجب على رسوله ، فى القرآن ، إقامة « الدولة » كما أوجب عليه أركان الإسلام وفرائض الدين وأصول الاعتقاد .

فـ « الدين » : « وضع إلهى » ، وهو ، فى الرسالة الخاتمة ، قد اكتملت أركانه وعقائده وأصوله وشريعته فى القرآن الكريم ، الذى لم تشتمل آياته على نظام للحكم ، ولا تشريع للدولة ، ولا تفصيل للحكومة التى يزكيها كى تسوس مجتمع الإسلام .

وبالطبع ، فليس بين أهل الإسلام من يعتقد أن هذا « السكوت القرآنى » عن تفصيل شأن « الدولة » ونظام الحكم السياسى راجع إلى السهو أو القصور أو التقصير .. فحاشا لله وتنزه سبحانه .. لكن الذى يعتقده المسلمون هو **أن القرآن [ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه] لما كان كتاب الرسالة الخاتمة ، فإنه قد وقف عند النهج والمقاصد والغايات والفلسفات فى كل ما يتصل بالأمور التى هى محل وموضوع للتغير والتطور ، الذى هو قانون طبيعى وسنة من سنن الله فى الكون الذى أبدعه ويرعاه . ومن هذه الأمور : إقامة « الدولة » وقيادة الأمة ، وسياسة المجتمعات .**

فكون « الدولة » ليست ركناً من أركان « الدين » ، لا يعنى انتفاء العلاقة بينهما ، على نحو ما يفهم العلمانيون .. لا لما قدمنا من السبب الذى أخرجها من نطاق الثوابت الدينية فقط ، وإنما لأسباب أخرى تشهد لوجود العلاقة بين « الدين » و« الدولة » ، على النحو الذى تميز فى الإسلام وتميز به الإسلام .

- **فالقرآن الكريم ، الذى لم يفرض على المسلمين إقامة « الدولة » .. قد فرض عليهم من الواجبات الدينية ما يستحيل عليهم القيام به والوفاء بحقوقه إذاهم لم يقيموا « دولة » الإسلام ! .**

فهناك من فرائض الإسلام وواجباته الدينية ، حدود لا بد لقيامها وإقامته من « الولاية » و « الدولة » و « السلطان » .

مثل : جمع الزكاة من مصادرها ووضعها فى مصارفها .

---

(٣٨) ابن تيمية [منهاج السنة النبوية] جـ ١ ص ٧٠ ـ ٧٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

ومثل : القصاص ومايلزم له من تعديل للشهود وتنظيم للقضاء .

ومثل : رعاية المصالح الإسلامية ، على النحو الذى يجلب النفع ويمنع الضرر والضرار .

ومثل : تنظيم فريضة الشورى الإسلامية فى أمر المسلمين .

ومثل : القيام بفريضة العلم .

ومثل : وضع الآية القرآنية التى توجب على المسلمين طاعة أولى الأمر منهم فى التطبيق ،

ذلك أن القرآن الكريم قد توجه إلى ولاة الأمر .. أهل « الولاية » و« الدولة » و« السلطان » ، فأوجب عليهم أداء الأمانات إلى المحكومين [إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيراً(٣٩)] .

ثم توجه ، فى الآية التى تلت هذه الآية ، إلى الرعية والأمة فأوجب عليها طاعة أولى الأمر الذين ينهضون بأداء هذه الأمانات [يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا](٤٠) .

فوجود « ولاة للأمر » يجب عليهم أداء الأمانات إلى المحكومين .. ووجود رعية تجب عليها طاعة « ولاة الأمر » هؤلاء ، هى فرائض دينية لا سبيل إلى الوفاء بها إذا غابت « الدولة » من عالم الإسلام والمسلمين .

وهكذا نجد أن « الدولة » ، رغم أنها ليست فريضة قرآنية ولا ركنًا من أركان « الدين » ، إلا أنه لا سبيل ، فى حال غيابها ، إلى الوفاء بكل الفرائض القرآنية الاجتماعية ، والواجبات الإسلامية الكفائية ، التى يقع الإثم بتخلفها على الأمة جمعاء ، والتى كانت ، لذلك ، آكد من فروض الأعيان ! ..

فوجوب « الدولة » ، إسلامياً ، راجع إلى أنها مما لا سبيل إلى أداء الواجب الدينى إلا به .

ومن هنا تأتى علاقتها ، وعلاقة « السياسة » بـ« الدين » فى نهج الإسلام ! .

---

(٣٩) النساء : ٥٨ .

(٤٠) النساء : ٥٩ .

إنها « واجب مدنى » اقتضاه ويقتضيه « الواجب الدينى » الذى فرضه الله على المؤمنين بالإسلام .

● ويزيد هذه الحقيقة الإسلامية جلاءً ووضوحًا اتفاق المسلمين ـ باستثناء أبى بكر الأصم [٢٧٩ هـ ٨٩٢ م] ـ من المعتزلة ـ و « النجدات » ـ من الخوارج ـ اتفاقهم على « ضرورة الدولة » ووجوبها ، شرعا أو عقلا ، أو للاعتبارين ـ لأن « الناس يتظالمون فيما بينهم ، بالشره والحرص المركب فى أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى الحكام »(٤١) ..

ولأن « الإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه . واستعانته صفة لازمة لطبعه ، وخلقة قائمة فى جوهره .. »(٤٢) ..

ولأن « صلاح الدنيا معتبر من وجهين :
أولهما ـ : ما ينتظم به أمور جملتها ..
وثانيهما ـ : ما يصلح به حال كل واحد من أهلها .. »(٤٣) ..

ومع اتفاقهم على ضرورتها ووجوبها ، فإنهم قد اتفقوا ـ خلا الشيعة ـ على أنها من الفروع ، وليست من أصول العقائد ولا من أركان الدين ـ فهى واجب مدنى اقتضاه ويقتضيه الواجب الدينى ، المشتمل على تحقيق الخير للإنسان فى هذه الحياة .

فالإمام الغزالى [٤٠٠ ـ ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م] يقول : « إن نظرية الإمامة ليست من المهمات ، وليست من فن المعقولات فيها ، بل من الفقهيات ـ [الفروع](٤٤) .

والنظريات قسمان : قسم يتعلق بأصول القواعد ، وقسم يتعلق بالفروع .

وأصول الإيمان ثلاثة : الإيمان بالله ، وبرسله ، وباليوم الآخر ، وما عداها فروع ... والخطأ فى أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها ـ [أى فى جماع الدولة والسياسة] ـ لا يوجب شىء منه التكفير »(٤٥) ! .

وإمام الحرمين : الجوينى [٤١٩ ـ ٤٧٨ هـ ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥ م] يقول : « إن الكلام فى

---

(٤١) الجاحظ [رسائل الجاحظ] جـ ١ ص ١٦١ . تحقيق : عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
(٤٢) الماوردى [أدب الدنيا والدين] ص ١٣٢ . تحقيق : مصطفى السقا . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
(٤٣) المصدر السابق . ص ١٣٤ .
(٤٤) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٤ . طبعة القاهرة ـ صبيح ـ ضمن مجموعة . بدون تاريخ .
(٤٥) [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] ص ١٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م .

الإمامة ليس من أصول الاعتقاد»(٤٦) .

وعضد الدين الإيجى [٧٥٦ هـ ١٣٥٥ م] والجرجانى [٧٤٠ - ٨١٦ هـ ١٣٤٠ - ١٤١٣ م] يقولان : «إن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد ، بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين ..»(٤٧) .

ويتفق الشهرستانى [٤٧٩ - ٥٤٨ هـ ١٠٨٦ - ١١٥٣ م] مع كل هؤلاء ، فيقول : «إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد ..»(٤٨) .

أما ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م] فإنه يرفض قول الشيعة بأن الإمامة من أركان الدين ، ويقول : « .. وشبهة الشيعة الإمامية فى ذلك إنما هى كون الإمامة من أركان الدين .. وليس كذلك . إنما هى من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق» !(٤٩) .

فهى ليست ركنًا دينيًا .. وإنما هى واجب مدنى وضرورة مدنية ، لكن ليس بالمعنى الذى يقطع صلاتها وعلاقاتها بالواجبات والفرائض الدينية ، على النحو الذى يقول به العلمانيون ، لأن قيام الكثير من الواجبات « الدينية » متوقف على تحقق هذا الواجب « المدنى » .. وإنما بمعنى انتفاء « الكهانة » و « الثيوقراطية » [Theo-Gracy] عن طبيعة « الدولة » والسياسة فى الإسلام ..

● ونحن إذا تأملنا موقف أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - من قتال القبائل التى بقيت على إسلامها ، بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لكنها امتنعت عن تسليم زكاة أموالها إليه ، كخليفة للدولة الإسلامية .. إذا تأملنا هذا الموقف وجدناه نموذجا جيد التعبير عن طبيعة العلاقة بين « الدين » و « الدولة » فى نهج الإسلام ..

فالذى ، رفضته هذه القبائل وارتدت عنه لم يكن « دين » الإسلام .. لأنهم ظلوا على الإيمان « بالتوحيد » ، و « النبوة » ، يصلون ، ويصومون ، ويحجون .. بل لقد ميز مالك بن نويرة وأصحابه الزكاة عن أموالهم .. لكنهم امتنعوا عن إعطائها « للدولة » الجديدة ، دولة الخلافة ، التى قامت بالمدينة عقب وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - .. وكانوا فى هذا الموقف مرتدين عن وحدة الدولة ، رغم « إيمانهم بالتوحيد الدينى » الذى جاء به الإسلام ..

---

(٤٦) [الإرشاد] ص ٤١٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

(٤٧) [شرح المواقف] جـ ٣ ص ٢٦١ . طبعة القاهرة سنة ١٣١١ هـ .

(٤٨) [نهاية الإقدام] ص ٤٧٨ تحقيق : الفريد جيوم . طبعة مصورة . بدون تاريخ أو مكان الطبع .

(٤٩) [المقدمة] ص ١٦٨ . طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

لكن أبا بكر - رضى الله عنه - ، بعبقريته السياسية التاريخية ، لم يقبل منطق عمر بن الخطاب ، الذى سأله معترضا : كيف تقاتلهم وهم يشهدون أن لا إله إلا لله ؟ .. وفى السنة النبوية أن من شهد بها فقد عصم ماله ودمه ؟ ! . لم يقبل أبو بكر هذا المنطق ، الذى يقف عند « الدين » ، دون أن يبصر علاقته بـ « الدولة » .. فمع تسليمه بإيمان القوم المرتدين بالإسلام ، رغم ارتدادهم عن وحدة « الدولة » الإسلامية ، أبصر علاقة « الدين » بـ « الدولة » ، ورأى **وحدة الدولة حقًا يقتضيه « التوحيد فى الدين » ! ..**

فوجود « دولة الخلافة » ، يومئذ - وهى ضرورة مدنية ، وواجب سياسى - كان السبيل لتنظيم « الزكاة » ، التى هى واجب دينى ، وركن من أركان الإسلام الدين .

وهذا هو المعنى الحقيق والعميق لعبارة أبي بكر التى حسمت الحوار الذى دار حول مشروعية قتال هؤلاء المرتدين عن وحدة الدولة الإسلامية .

إن الزكاة هى حق لا إله إلا الله ! .. « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » .. وبه شرح الله صدر عمر لرأى الصديق فى هذا الموضوع الخطير .

بل لعلنا لا نغالى إذا قلنا إن وجود « دولة الخلافة » - التى حماها الصحابة ودعموها بقتالهم للمرتدين - رغم طابعها المدنى ، وانتفاء وصف « الواجب الدينى والفريضة الدينية » عنها - إن وجودها كان السبيل لما هو أكثر من إقامة « فريضة الزكاة الدينية » ، كركن من أركان الدين . إذ أنها كانت السبيل لإقامة الإسلام كله كدين .. فـ « الدولة » هى التى نشرت الإسلام خارج شبه الجزيرة ، بعد أن أعادت رفع أعلامه التى طواها العرب المرتدون .. ولولاها لتهددت الإسلام مخاطر أن يصبح مجرد نحلة من النحل التى عرفها التاريخ ، أوديانة يقف شرف التدين بها عند قلة من الناس .

لقد كانت هذه « الدولة » هى الأداة التى تحقق بها وعد الله سبحانه فى قرآنه الكريم : [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] ! .. (٥٠)

إن « التشيع » - كمذهب - لم يبلغ فى المنطق والاتساق والتماسك مبلغ « الاعتزال » .. وعبقرية الليث بن سعد [٩٤ - ١٧٥ هـ ٧١٣ - ٧٩١ م] ومحمد بن جرير الطبرى [٢٢٤ - ٣١٠ هـ ٨٣٩ - ٩٢٣ م] فى الفقه لا تقل عن عبقرية مالك بن أنس [٩٣ - ١٧٩ هـ ٧١٢ - ٧٩٥ م] ومحمد بن إدريس الشافعى [١٥٠ - ٢٠٤ هـ ٧٦٧ - ٨٢٠ م] .. لكن وجود

---

(٥٠) الحجر : ٩ .

« الجماعة المنظمة » هو الذى ضمن البقاء كله لمذهب التشيع ، ولفقه مالك والشافعى ، على حين ذاب الاعتزال ، واندثر إبداع الليث والطبرى كفقهاء .. وهذا برهان على أهمية « النظام والتنظيم » بالنسبة لبقاء وانتشار الدعوات .. وبرهان على مكان « الدولة » ـ رغم طابعها المدنى ـ من الإسلام كدين .. **فتميز طبيعتها عن طبيعة الدين ، وإن برأها من « الكهانة والثيوقراطية » ، إلا أنه لا يقطع الصلات بينها وبين الدين ، على النحو الذى يقول به العلمانيون فهى واجبة بنظر الإسلام ، وضرورة شرعية ، لأن فى تخلفها تخلف الواجبات التى فرضها الدين !** .

* * *

معالم دولة الرسول
عليه الصلاة والسلام

على أن أبلغ رد على العلمانيين ، القائلين بعلمانية الإسلام ، والذين يزعمون أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يؤسس دولة ولم يقم حكومة ولم يكن قائدا سياسيا للمجتمع المدنى الذى عاش فيه بعد هجرته [١ هـ ـ ٦٢٢ م] .. إن أبلغ رد على هؤلاء هو الإشارة إلى معالم هذه الدولة التى أسسها الرسول وصحبه ، وهى المعالم التى تواترت أخبارها فى أمهات مصادر التاريخ والحديث .

● فقبل شهور من هجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، من مكة إلى المدينة تم عقد تأسيس هذه الدولة بين الرسول وبين قادة الأوس والخزرج وممثليهم ، الذين التقوا به فى موسم الحج من ذلك العام .. فكانت « بيعة العقبة » هذه عقدًا سياسيًا وعسكريًا واجتماعيًا ـ حقيقيًا لا مفترضًا ـ لتأسيس الدولة الإسلامية العربية الأولى فى التاريخ ! .

فقبل هذه البيعة كان المسلمون بمكة جماعة مستضعفة ، تخفى الإيمان وتستخفى بشعائر الدين الجديد .. لكن هذه البيعة التى تمت بين النبى وبين خمس وسبعين من وجوه الأوس والخزرج ـ من بينهم امرأتان ـ قد نصت وشملت ـ إلى جانب الإيمان بـ « الدين » الجديد ـ بنود تأسيس « دولة يثرب (المدينة) » ..

ففيها تم الاتفاق على : هجرة الرسول وصحبه إلى المدينة ، مكونين مع أهلها أمة جديدة لها سلطانها الموحد والجديد .. وعلى أن يكونوا القوة المقاتلة لحماية الدعوة الجديدة والكيان السياسى والاجتماعى الجديد .. وعلى أن يحموا قائد هذا الكيان الجديد ـ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم .. وعلى أن يحاربوا معه « الأسود والأحمر » أى

كل من يعاديه ويعتدى عليه فى موطنه الجديد ..

ولقد عاهد الرسول هذا النفر من الأوس والخزرج ، الذين مثلوا «الجمعية التأسيسية» للدولة الإسلامية العربية الأولى ، عاهدهم على أن يكون انتماؤه إلى هذا الكيان الجديد انتماء مصير مؤبد .. فجوابًا على سؤالهم له :

« ـ يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال ـ [يهود يثرب] ـ حبالا ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ ! » .

جوابًا على هذا التساؤل ، قال : ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو يبتسم :

« ـ بل الدم الدم ، والهدم الهدم ـ [أى منزلى فى منازلكم ، وقبرى فى مقابركم .. ومن طلب دمكم فقد طلب دمى !] ـ أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » !

ولقد طلب النبى من هذه «الجمعية التأسيسية» أن يختاروا منهم القيادة «التى كانت بمثابة وزراء الرسول ومستشارى حكومته بين الأنصار ..

فقال : « أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبًا يكونون على قومهم بما فيهم » ، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس(٥١) .

● فلما هاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والمؤمنون من قريش إلى المدينة ، وجد بها إلى جانب من آمن بالإسلام من الأوس والخزرج ـ [الأنصار] ـ قطاعات من قبائل المدينة العربية قد تدينت باليهودية .... فاتفق وممثلى هذه القطاعات والجماعات ، التى لم تدخل بعد فى « الدين الجديد » على أن يدخلوا فى « الدولة الجديدة » ، كجزء من رعيتها السياسية ، مع احتفاظهم بحرية الاعتقاد الدينى ـ فتكونت الرعية السياسية للدولة الجديدة ، التى قاد الرسول حكومتها من المؤمنين بالإسلام . مهاجرين وأنصارًا ـ ومن العرب الذين ، بقوا على يهوديتهم .

ولهذه الدولة وضع الرسول دستورًا بلغت « مواده » نحوًا من الخمسين مادة ، ينظم كل شئون الدولة فى السلم والحرب ، وفى التعاون الأدبى والإنفاق المادى ، وفيما هو خاص بكل قبيلة وماهو عام فى الرعية السياسية الجديدة ـ وفى الموقف من الخارجين على هذا الدستور .. وفى حرمة الوطن الجديد وحدوده .. وفى علاقات هذه الرعية الجديدة بمشركى قريش ، أعداء هذه الدولة

---

(٥١) رفاعة الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

الوليدة . وفى المرجع عند الاختلاف على شأن من شئون هذه الرعية ودولتها .. الخ .. الخ .. الخ .

ولقد سمى المؤرخون هذا الدستور مرة بـ « الصحيفة » ، ومرة بـ « الكتاب » .. لأنه قد تحدث فى مواده ، عن هذه الرعية السياسية لهذه الدولة الجديدة حينا باسم : « أهل هذه الصحيفة » ، وحينا باسم : « أهل هذا الكتاب » .

ففى هذا الواقع الجديد ، وجدنا « أمة مؤمنة » ، تتألف من المهاجرين والأنصار الذين أقام عقد « المؤاخاة » بينهم رباطا وثيقًا فى « الحق » وفى سبل العيش » .. ووجدنا مع المهاجرين والأنصار هذه الجماعة العربية المتهودة ، التى دخلت مع المؤمنين فى إطار « الرعية السياسية » ، أى « الأمة السياسية ـ والقومية » للدولة الجديدة .

ووجدنا هذا الدستور ـ الذى هو غير القرآن دستور الجماعة المؤمنة ـ وجدنا هذا الدستور السياسى يتحدث عن أبرز جماعتين تتكون منهما هذه « الأمة السياسية الجديدة » فيقول عن المهاجرين والأنصار : ـ أمة الدين ـ إنهم « أمة واحدة من دون الناس » ..

ثم ـ بعد أن عدد قبائلهم ـ يعدد قبائل العرب المتهودة ، ليخلص لتقرير ولادة هذا الكيان السياسى و « الأمة السياسية » ، فيقول : « وإن يهود بنى عوف وبنى النجار وبنى الحارث ، الخ .. الخ ... أمة مع ، المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .. » .

ثم يقرر هيمنة الإسلام كدين ، وقيادة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فى هذا الكيان السياسى الجديد والدولة الوليدة ، فينص فى إحدى « مواده » على : « .. وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ... » (٥٢) .

فهى ، إذن « دولة » .. سبق قيامها « عقد تأسيس » .. وقام لها « دستور » ما زالت مواده المحكمة الصياغة تجتذب إعجاب أرباب هذا الفن من الفقهاء الدستوريين ؟ ! ..

- وإذا كانت أحداث الحرب والقتال ووقائع الغزوات والسرايا والبعوث قد شغلت الحيز

---

(٥٢) انظر نص هذه الصحيفة ـ الكتاب » فى امهات كتب السيرة النبوية .. ولقد أورده النويرى فى [نهاية الأرب] جـ ١٦ ص ٣٤٨ ـ ٣٥١ . طبعة دار الكتب المصرية . وانظره كذلك فى [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٥ ـ ٢١ جمع وتحقيق : محمد حميد الله الحيدر آبادى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

الأكبر من صفحات مصادر السيرة النبوية ومراجع التاريخ التى أرخت للحقبة المدنية من عصر البعثة . حتى لقد توارت ، فى هذه المصادر . معالم « الدولة » وأركان « الحكومة » وأدوات « الولاية » ودوائر « السلطة والسلطنة » التى قامت للإسلام والمسلمين فى هذه الحقبة ... إذا كان ذلك قد حدث لمصادر السيرة ومراجع التاريخ ، فإن مصادر السنة النبوية وصحاح الحديث النبوى وجوامعه قد ظلت الديوان الأعظم الذى بقيت فيه ، متفرقة ومتناثرة ، معالم هذه الدولة وأمارات « محمد ــ الحاكم ــ وقائد المجتمع ــ وسائس الأمة ــ ورجل الدولة » .

ولقد قيض الله لهذه القسمة ، التى تمثل المنطلق لتراث الإسلام السياسى ، عالما أبحر فى محيط السنة ، والتقط منه اللبنات التى أقامت معالم دولة المدينة شامخة وبارزة ومتألقة للناظرين .

وهذا العالم هو : الخزاعى ، أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود بن موسى بن أبى غفرة الخزاعى [٧١٠ ــ ٧٨٩ هـ ١٠٢٦ ــ ١١٠٣ م] .. أما كتابه الذى تفرد فى تراثنا بكونه ديوان معالم دولة الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ . فهو كتاب [تخريج الدلالات السمعية] (٥٣) .. ومن هذا الكتاب ، الذى هو جماع ما تناثر فى مصادر الحديث النبوى من أخبار « الدولة » ومعالمها وأركانها ودوائرها وأدواتها ندرك أننا **بإزاء « دولة » كاملة الأركان ، تامة المعالم ، قياسا على العصر والواقع الذى قامت فيه ونهضت لضبط شئونه وتلبية احتياجات الرعية فيه** .

فعلى رأس هذه الدولة كان القائد والأمير وولى الأمر والإمام : محمد بن عبد الله ، ــ صلى الله عليه وسلم ــ . وكان له وزراء ومشيرون ، اشتهر منهم : هيئة العشرة ــ المهاجرون الأولون .. ونقباء الأنصار الإثنا عشر... وكان هناك من اختص « بالحجابة » ، و« السقاية » ، و« الكتابة » ، و« الترجمة » ، وحمل « الخاتم » ، و« إمارة الحج » .. الخ .. الخ .

وفى فقه الدين كانت هناك « عمالات » : « تعليم القرآن » .. و« تعليم الكتابة والقراءة » . و« الإفتاء » .. و« تعليم الفقه » .. و« إمامة الصلاة » .. و« الأذان » .. الخ .. الخ .

وفى العلاقات الخارجية والإعلام كان هناك : « السفراء » .. و« التراجمة » .. و« الشعراء » .. و« الخطباء .. الخ .. الخ .

وفى القطاع الحربى ، كان هناك ــ غير أمراء القتال وجنده ــ : « كتاب الجيش » ..

(٥٣) انظر خلاصة هذا الكتاب فى [الأعمال الكاملة للطهطاوى] جـ ٤ ص ٤٨١ ــ ٧٦٥ . وانظر نصه فى ثنايا كتاب [نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية] لعبد الحى الكتانى جـ ١ ، ٢ طبعة بيروت دار الكتاب العربى .

و «فارضو العطاء» .. و «العرفاء : رؤساء الجند» .. الخ .. الخ .

وعلى النواحى كان هناك ولاة وأمراء للأقاليم .. وفيها كان القضاة .. وعمال الجباية والخراج .. وصاحب المساحة .. وعمال الزكاة والصدقات .. والخارصون للثمار .. وحارس الحمى .. الخ .

كما كان هناك «فارضو المواريث» .. فارضو النفقات» .. الخ .. الخ .

كذلك كان هناك من يقوم بمهمة «المحتسب» .. و «صاحب العسس» .. و «متولى حراسة المدينة» .. و «العين : الجاسوس» .. و «السجان» .. و «المنادى .. و «مقيم الحدود» .. الخ .

وعند الغزو . كان هناك : «أمراء الجهاد .. و «المستخلفون على المدينة» .. ومن «يستنفر الناس للقتال» .. و «صاحب السلاح» .. و «صاحب اللواء» .. و «أمراء أقسام الجيش الخمسة» ـ و «حراس القائد» ، ـ عليه الصلاة والسلام ـ . و «القائمون على متاع السفر» .. ومن «يخذلون الأعداء» .. ومن «يبشرون بالنصر» .. الخ .. الخ .

وكثير من هذه الوظائف الإدارية كان لها أربابها ، الذين عينهم الرسول فيها ابتداء ، أو أقرهم على مهنهم وحرفهم .. ومنهم من عزله عن وظيفته وعين فيها البديل .

● ولقد كان المصطلح المعبر عن الإمارة والسياسة وشئون الدولة ، فى ذلك التاريخ هو مصطلح «الأمر» .. ومنه كان «الائتمار» و «الأمير» .. ولتميز «الأمر» عن «الوحى والدين الخالص» كان الأمر شورى فى شريعة الإسلام .. وكانت الشورى فريضة إلهية وجبت على الرسول ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [وَشَاوِرْهُم ، فِي الأَمْرِ][٥٤] .. وصفة للمؤمن ، بنص القرآن الكريم [وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم][٥٥] .

وكما كان الرسول معصوما فى البلاغ عن الله سبحانه ، لا ينطق فيه عن الهوى ، لأن بلاغه هذا هو وحى يوحى ـ فلقد كان فى «الأمر : السياسة» مجتهدا ومستشيرا .. فهو فى البلاغ الدينى : بشر يوحى إليه ـ وفى سياسة الدولة : بشر يجتهد ويستشير ..

ومن هنا يأتى المَعْلَم الثانى من معالم «دولة» الإسلام ، والذى به تتميز عن «دولة الكهانة»

---

(٥٤) آل عمران : ١٥٩ .

(٥٥) الشورى : ٣٨ .

و «الدولة الدينية» ، التى عرفتها الحضارات غير الإسلامية ، تستبد بها فئة خاصة بزعم أنها مفوضة للحكم بالحق الإلهى .

فالدولة الإسلامية ترعى روح الشريعة الإلهية الثابتة وتلتزم بالحدود القرآنية القطعية الدلالة والثبوت ، ومن ذلك يتكون «لها إطار دينى ، يقف عند الكليات والمقاصد والغايات والفلسفات ، وفى داخل هذا الإطار تجتهد الأمة بواسطة الدولة لتساير بإبداعها الفكرى فى النظم والقوانين حركة الواقع المتغير والمتطور دائما وأبدا ، بحكم قانون الله وسنته فى تطور واقع الحياة والمجتمعات .. فهى «دولة» فيها «الثابت ـ الدينى» وفيها «المتغير ـ المدنى» .. ومن هنا قامت «العلاقة» ، وفى ذات الوقت «التمايز» بين «الرسالة» و «السياسة» .. بين «الدين» و «الدولة» فى هذا البناء الإسلامى الفريد ! ..

وإذا كان المَعْلَم الأول من معالم دولة المدينة ـ والمتمثل فى مظاهرها وقسماتها وأركانها وأدواتها ـ هو الرد المفحم والنقض الهادم لدعوى الذين زعموا ويزعمون «علمانية الإسلام» .. فإن هذا المَعْلَم الثانى من معالم هذه الدولة ـ والمتمثل فى تمييزها بين ما هو دين ثابت وما هو سياسة متطورة ـ وهو «التمييز» الذى ينكر «علمانية فصل الدين عن الدولة» إنكاره «كهانة الدولة الدينية وتوحيدها للسلطتين» ـ .. إن هذا المعلم هو الرد المفحم والنقض الهادم لدعوى الذين زعموا ويزعمون أن «الإسلام الدولة هو حكومة الله وحده أو حاكميته وحدها» ! ..

فعندما يقول المستشرق دافيد دى سانتيلا : «**إن الإسلام هو دولة الله المباشرة** ، هو حكم الله الذى يرعى شعبه بعينه .. إن أساس الوحدة الاجتماعية ، المسمى فى المجتمعات الأخرى «بولس» Polis و «كيفتاس» Civitas (أى الحكومة) ، يمثله (الله) عند الإسلام ، فالله هو الاسم الذى يطلق على السلطة العاملة فى حقل المصلحة العامة ، وعلى هذا المنوال يكون بيت المال . هو : (بيت مال الله) ، والجند هم : (جند الله) ، حتى الموظفون العموميون ، هم : (عمال الله) .إن الله فى الشرع الإسلامى يقوم مقام سلطة المدينة Civitas وهو المبدأ الرومانى القديم ... **فالله وحده يقيم الأمراء ، والله وحده يجردهم من الإمارة والسلطان**»(٥٦) ؟ !

---

(٥٦) [القانون والمجتمع] ص ٤٠٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ . [ويتبع سانتيلا فى هذا الرأى العلمانيون الذين يتوسلون بهذا الرأى إلى أن هذا النظام الاستثنائى حكومة الله ، قد انتهى ، ومن المحال عودته .. فالعلمانية هى الحل . انظر ، مصطفى مرعى . مجلة [المصور] العدد ٣١٠٤ من ٦ إبريل سنة ١٩٨٤ م . و د . محمد أحمد خلف الله . جريدة [الأهالى] ص ٥ عدد ١٤٦ فى ٢٥ من يوليو سنة ١٩٨٤ م .

عندما يقول «سانتيلا» ذلك .. نقول له : ليس هذا هو الإسلام .. فلقد رأيته بعين الكهانة الكنسية الكاثوليكية ، فأسقطت عليه الواقع الذى أقامته فى أوربا العصور المظلمة .. وأقصى ما يمكن أن يعتذر عنه لصاحب مثل هذا التحليل هو أنه لم ير من الإسلام إلا نظرية الإمامة الشيعية ، ففيها وحدها «الله وحده هو الذى يقيم الأمراء» .. وليس هذا هو الإسلام ! ..

نقول ذلك ولدينا عشرات البراهين ، المستمدة من إنجاز الرسول ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، على «جبهة الدولة» ، عندما التزم إنجازه السياسى هذا «بالتمييز» دوما بين ماهو «دين خالص» . وبين ماهى «سياسة» تقيم «الدولة» وتقودها وتنظم المجتمع وتطور عمران الحياة الدنيا .

وإذا كان المقام لا يسع الإفاضة فى إيراد هذه البراهين ، فإننا نكتفى منها بالبعض ، الحاسم فى الدلالة على هذا الذى نقول :

١ ـ ففى غزوة بدر .. وبعد أن عسكر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، بجيش المسلمين ، استعدادا للقتال سأله المسلمون ، بلسان الحباب بن المنذر ، عن «طبيعة» قراره هذا ؟ هل هو «دين» ، فله الطاعة والتسليم ؟ أم هو «سياسة ورأى» ، فيخضع للشورى والبحث والتعديل ؟؟ .. سأله الحباب : «ـ يارسول الله ، أرايت هذا المنزل ، أمنزل أنزلكه الله ، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ ..»

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

«ـ بل هو الرأى والحرب والمكيدة .. »

فقال الحباب :

«ـ يارسول الله ، إن هذا ليس لك بمنزل ! فانهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم ـ [قريش] . فننزله ، ونغور ما وراءه من القُلُب ـ [الآبار] ـ ثم نبنى عليه حوضا ، فنملؤه ماء ، ونشرب ولا يشربون .. »

فاستحسن الرسول رأى الحباب ، وفعله(٥٧) !

فهنا «تمييز» ـ من المسلمين ومن الرسول ـ بين ماهو «دين خالص» وما هو «سياسة لأمر الجيش» ، كشأن من شئون «الدولة» و «الدنيا» .

---

(٥٧) ابن عبد البر [الدرر فى اختصار المغازى والسير] ص ١١٣ . تحقيق : د . شوقى ضيف . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

٢ ــ وفى غزوة الخندق ــ [سنة ٥ هـ] ــ .. عندما اشتد الأمر على المسلمين فى المدينة المحاصرة ، سعى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، إلى عقدِ «معاهدة» مع قادة «غطفان» وأهل «نجد» يتخلون بموجبها عن حلفهم مع قريش ، ويفكون حصارهم للمدينة ، لقاء حصولهم على ثلث ثمار المدينة .. وبعد أن تمت المفاوضات ، وأعد مشروع المعاهدة ، وقبل إمضائه ، استشار الرسول قائدى الأنصار : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة .. فدار بينهم هذا الحوار «الذى بدأه سعد بن معاذ :

« ــ يارسول الله أهذا أمر تحبه فنصنعه لك ؟ أو شىء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ؟ أو أمر تصنعه لنا ؟؟ ..

ــ « بل أمر أصنعه لكم . والله ما أصنعه إلا لأننى قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » ! .

ــ يارسول الله ، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان .. وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا بشراء أو قِرى ــ [ضيافة] ــ فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ ! .. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ! .. » .

فنزل الرسول ، مسرورا ، على رأى أصحابه ، وعدل عن الرأى الذى كان قد ارتآه .. وقال لقادة غطفان : « انصرفوا ، فليس لكم عندنا إلا السيف » . وتناول الصحيفة ــ [مشروع المعاهده] . فمحاها [٥٨] ..

فهنا ، أيضا ، تمييز من الصحابة ، قادة الأنصار ، عند مداولاتهم مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، بين «الدين» وبين «السياسة» .. فلما لم يجدوا مارآه الرسول وأشار به «وحيًا ودينًا خالصًا» ، يستوجب السمع والطاعة . قدموا مشورتهم واجتهادهم ، الذى بدل الموقف ، لأن القضية سياسة وحرب واقتصاد .. وعلى رأيهم نزل الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ .

٣ ــ وقصة الرسول مع تأبير نخل المدينة شاهد فى هذا المقام .. فبعد هجرة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى المدينة وجد أهلها «يلقحون» نخلها .. «فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ » قالوا : يأخذون من الذكر فيجعلونه فى الأنثى . قال : « ما أظن ذلك يغنى شيئا » . فبلغهم ،

(٥٨) المصدر السابق . ص ١٨٤ .

فتركوه .. فصار الثمر شيصا ..» فلما راجعوه فى الأمر، قال : «**إنما هو الظن ، إن كان يغنى شيئا فاصنعوه ، فإنما أنا بشر مثلكم ، وإن الظن يخطئ ويصيب ، ولكن ما قلت لكم : قال الله ! .. فلن أكذب على الله .. ما كان من أمر دينكم فإلى ، وإن كان شأنا من أمر دنياكم فشأنكم به . أنتم أعلم بأمر دنياكم !** (٥٩) » .

فهنا ، بالنص لا بمجرد الاستنتاج ، تمييز حاسم وواضح وقاطع بين ما هو « سياسة ودنيا » ، وبين ماهو « وحى ودين » ..

٤ ـ ويدخل فى هذا الباب .. باب « السياسة والرأى والاجتهاد » إنجاز الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ميدان « القضاء » .. فلقد كانت تُعرض عليه المنازعات ، فيستوضح البينات ، ويجتهد ثم يقضى « بالرأى » لا بالوحى الدينى ، الذى لا ينطق عن الهوى .. ولذلك ، فلقد تحدث إلى أصحابه منبها لهم على أن قضاءه ليس وحيًا حتى يصادف الصواب مهما خفى ، ومن ثم فهو ليس « دينًا » ، وإنما هو من « الرأى والاجتهاد وأمور الدنيا » المتميزة عن شئون « الدين » .. تحدث إليهم فى هذا الأمر فقال : «**إنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى له بما يقول .. فأنا بشر أقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه بقوله .. فأظنه صادقا** ... فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها ! » (٦٠) .

فهو هنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينبه على أن بشريته تجعله يقضى بناء على ما يسمع من الحجج والبينات ، وأنه قد يقضى بناء على « ظنه » صدق طرف من طرفى النزاع ... وكل ذلك يخرج قضاءه من دائرة « الدين » الموحى به ، المبرأ من الخطأ والمنزه عن الظن ، ويدخل به إلى دائرة « الرأى والاجتهاد » ، دائرة « الدولة والسياسة » لأمور الناس ! .

٥ ـ بل إننا لنجد لرسول الله ـ صلى الله عيه وسلم ـ ، موقفا صريحا يدعو فيه صحابته وقادة جيوشه إلى التمييز ما بين « حكم الله » سبحانه ، الذى هو قضاء دينى قد اختص به ، وأودع الوحى بعضا منه ، وبين ما هو سياسة وحرب واقتصاد وشئون تتعلق بالمجتمع والدولة ، مما لم يرد فيها نص قطعى الدلا لة والثبوت .. ذلك أن تقديرنا للأمور وقرارنا فيها هو « حكمنا نحن » ، وليس لإنسان ، حتى ولو كان صحابيا جليلا ، أو سيفا من سيوف

---

(٥٩) رواه مسلم وابن ماجة وابن حنبل .

(٦٠) رواه ابن حنبل .

الله ، أو أميرا من أمراء رسوله ، أن يدعى أنه يحكم بين الناس بحكم الله ، ولا أن قراره هو كلمة الله .. ينهى الرسول صحابته عن انتحال هذه «السلطة الدينية» الإلهية ، ويطلب من قادة الجيوش وأمراء السرايا أن تكون معاهداتهم مع من يحاربون ويصالحون معاهدات واتفاقات موضوعة فى الإطار البشرى والسياسى ، دون أن يزعم لها نسبة تخرجها من دائرة «الرأى والاجتهاد» وتضفى عليها قداسة «حكم الله» ! ..

فلقد روى عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أنه «كان إذا أمّر . [بتشديد الميم مفتوحة] ـ أميرا على جيش أو سرية أوصاه : «**إذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا**»[٦١] ؟ !

فهو هنا يدعو إلى التمييز بين حكم الله وقضائه ـ المأخوذ من النصوص القطعية الدلالة والثبوت وحدها ـ وبين حكم الناس وسياستهم وحربهم وقضائهم ، وينهى عن أن يضفى البشر على أحكامهم الاجتهادية صبغةإلهية تمنحها قداسة أحكام الله ! ..

ولو لم يكن فى سنته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، غير هذا الحديث الشريف لكفى فى رفض الإسلام للسلطة الدينية الكهنوتية ، ولقام دليلا على خطل الرأى الذى زعم أصحابه أن حكومة النبى وسياسته للدولة إنما كانت هى «حكومة الله» و«حاكمية الله» التى تجعل «الدولة والسياسة» «دينًا خالصًا» فتنزع من الأمة الحق فى أن تكون مصدرًا للسلطة والسلطان فيما لم يسبق فيه حكم الله ! ..

* * *

ولما كانت السنة النبوية التى مثلت «ديوان سياسة الدولة الإسلامية» على عهد البعثة قد امتلأت بالمواقف والنصوص التى ضربنا منها الأمثال الشاهدة على التمييز ـ دون فصل ـ بين ماهو «رسالة ووحى ودين» وماهى «سياسة ورأى واجتهاد ودولة» فى إنجاز الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ . فلقد وجدنا كثيرين من علماء الأصول وأئمة الحديث النبوى يفردون المباحث التى قسمت هذه السنة إلى :

(ا) سنة تشريعية : تمثل الثوابت الدينية ، الواجب الالتزام بنصها ، لتعبيرها عن الثوابت التى ضمنت وتضمن للأمة تميزها الحضارى ، رغم اختلاف الزمان والمكان .

---

(٦١) رواه مسلم والترمذى والنسائى وأبو داود وابن ماجة والدارمى وابن حنبل .

(ب) وسنة غير تشريعية : تمثل إنجاز الرسول فى سياسة الدولة .. وفى القضاء ، وكل ماسكت عنه « الوحى الدينى » مما تعلق بالمتغيرات التى تتبدل وتتطور باختلاف الزمان والمكان .. لقد ازدانت مباحث الكثير من علماء الأصول وأئمة الحديث فى تراثنا بالآثار الفكرية التى عنيت بهذا البحث الهام .. بل ومنهم من أفرده بالتأليف فى كتاب خاص ! ..

وفى هذا المقام تكفى إشارتنا إلى اثنين من هؤلاء الأعلام :

● فالإمام القرافى : أبو العباس أحمد بن إدريس [٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م] يجعل هذه القضية محور كتابه الهام [الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والإمام] ... وفيه يقسم السنة النبوية الشريفة إلى أقسام أربعة :

أولها ــ : تصرفات الرسول « بالرسالة » ، أى بحكم كونه رسولا يبلغ رسالة ربه ويبشر وينذر بوحى السماء .

وثانيها ــ : تصرفات الرسول « بالفتيا » ، أى المتعلقة بالفتاوى التى يفسر بها غامض الوحى ويفصل بواسطتها مجمله .

وثالثها ــ : تصرفات الرسول « بالحكم » ، أى القضاء ، وهى التى تتعلق بقضائه بين الناس فى المنازعات .

ورابعها ــ : تصرفاته « بالإمامة أى السياسة » ، وتشمل كل أقواله وأفعاله وإقراراته الخاصة بالدولة والسياسة فى مختلف الميادين والمجالات .

وبعد هذا التقسيم ، يحدد الإمام القرافى أن القسمين الأول والثانى من السنة ــ [أى التصرفات بالرسالة ، وبالفتيا فى الدين] ــ هما تبليغ وشرع ، يدخلان فى باب « الدين » .. أما القسم الثالث ــ [أى تصرفات الرسول بالحكم ــ القضاء] ــ فليست دينا ، إذ هى مغايرة لتصرفاته بالرسالة ، وبالفتيا .. ومن ثم يجب الوقوف بها عند محل ورودها ، لأن أحكامه فيها مترتبة على ما ظهر للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من البينات التى حكم وقضى بناء عليها ووفقا لها .

وكذلك الحال مع تصرفاته وسنته ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فى الإمامة ، التى هى رياسته للدولة وسياسته لشئونها العامة والمتنوعة وفق المصلحة فيما هو مفوض إليه : وفى هذا القسم تدخل الآثار والسنن والمأثورات التى تتحدث عن : قسمة الغنائم ، والتصرفات المالية المتعلقة بالأرض والزراعة والتجارة والحرف والصناعات .. الخ .. وتجييش الجيوش وتجهيزها وقتالها .. وكذلك

عقد المعاهدات .. والأمور الإدارية المتعلقة بتعيين القادة والأمراء والولاة والقضاة والعمال .. الخ .. الخ .

فى هذين القسمين ـ [الثالث والرابع] ـ من أقسام السنة النبوية يتحقق التأسى والاقتداء بالرسول وسنته بالتزامنا المبادئ والمعايير الكلية والمقاصد والغايات التى حكمت تصرفات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فى كل من « القضاء » و « السياسة » .

فليس « الحكم والقضاء » ، وليست « السياسة » وشئون المجتمع السياسية دينا وشرعا وبلاغا ، يجب فيه الالتزام بما فى السنة النبوية من وقائع وأوامر ونواهى وتطبيقات ، لأنها أمور تقررت بناء على بينات قد يتبين لنا غيرها ، وعالجت مصالح هى « بالضرورة » متطورة ومتغيرة .. وذلك على عكس ماهو « دين » و « شرع » و « بلاغ » ، من هذه السنة النبوية الشريفة ، مثل ما جاء منها متعلقا بالرسالة ، وبالفتيا ، فإن الاتباع فيه واجب دينى ، والتقيد بأحكامه شرط لصحة إيمان المؤمن بالإسلام[٦٢] .

إن صحابة رسول الله لم يغيروا شيئا من « سنته الدينية » ، بينما أعملوا رأيهم واجتهادهم فى سننه السياسية والإدارية ، فوجدنا الولاة والعمال الذين ولاهم الرسول وظائف الدولة ، كعمال على الأقاليم ، وجباة للأموال والصدقات ، وكسفراء وكتاب ومترجمين .. الخ .. الخ .. وكذلك سننه فى تنظيم الجيوش وأساليب القتال وإدارة شئون الدولة .. الخ .. الخ .. قد أصابهم وأصابها تغييرات وتغييرات .. فكان ذلك شاهدا من شهود التمييز بين ماهو سياسة ودنيا وماهو وحى ودين .. وكان . أيضا ، عاملا حدد نطاق التأسى ومضمونه فى السنة النبوية .. ووجدنا أسلافنا من علماء الكلام والأصول يقررون : أن « التأسى بالرسول ليس بواجب إلا فى الشرعيات المخصوصة ، التى قد أمنا منه وقوع الخطأ فيها ، دون غيرها .. » ![٦٣]

● وبعد الإمام القرافى ، أتى الفقيه المجدد ، والمجتهد الأصولى ، والإمام المحدث : ولى الله الدهلوى : أحمد بن عبد الرحيم الفاروقى [١١١٠ ـ ١١٧٦ هـ ١٦٩٩ ـ ١٧٦٢ م] ليقرر ذات الحقيقة وذات المبادئ فى كتابه [حجة الله البالغة] ، الذى قسم فيه السنة النبوية إلى قسمين :

---

(٦٢) القرافى [الأحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والإمام] ص٨٦ ـ ١٠٩ تحقيق : الشيخ عبد الفتاح أبو غدة . طبعة حلب سنة ١٩٦٧ م .

(٦٣) قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد [المغنى فى أبواب التوحيد والعدل] جـ ١٥ ص٢٨٦ . طبعة القاهرة .

أولها : ما سبيله تبليغ الرسالة ، وفيه قوله تعالى : [وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا] (٦٤) .. ويدخل فى هذا القسم : علوم الآخرة ، وعجائب الملكوت ، وشرائع ضبط العبادات .. وبعض هذه العلوم وحى ، وبعضها اجتهاد جاء بناء على ما علّمه الله من مقاصد الشرع ، فهو بمنزلة الوحى .

وثانيهما : ما ليس من باب تبليغ الرسالة ، وفيه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيى فإنما أنا بشر » وقوله ، فى قصة تأبير النخل : « فإنى إنما ظننت ظنا ، ولا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به ، فإنى لم أكذب على الله » (٦٥) .

وفى هذا القسم تدخل : علوم الدنيا : الطب ، والزراعة ، والصنائع ، والحرف ، وكل ما كان سنده ومصدره ، التجربة .. والأمور المتعلقة بالسياسة ، من كل « ما يأمر به الخليفة » فى الحرب والغنائم الخ .. الخ .. وكذلك أمور القضاء ، لأنها مبنية على البينات والإيمان . (٦٦)

فكل ما خرج عن القسم الخاص بتبليغ الرسالة الدينية ، من السنة النبوية الشريفة فليس من ثوابت « الدين » ، وإنما هو من متغيرات « الدنيا والسياسة » ، التى على العقل المسلم أن يتناول موضوعاتها ابتداء بالنظر والاجتهاد .. على أن يكون نظره فيها واجتهاده محكوما بالإطار الدينى المتمثل فى الحدود التى هى قطعية الدلالة والثبوت ، وفى روح الشريعة ومقاصدها وفى تحقيق المصلحة لمجموع الأمة ودفع الضرر والضرار عن جمهور المسلمين .

* * *

إن الاسلام : « دين » و « دولة » .. وإن « واو » العطف التى تعطف « الدولة » على « الدين » كما تفيد « المغايرة » ـ وهذا هو معناها اللغوى ـ فإنها تفيد قيام الصلة والاشتراك .. فهناك تمايز بين « الدين » و « الدولة » .. بين « الرسالة » و « السياسة » ، وفى ذات الوقت هى صلات وخيوط ووشائج تربط بين « الرسالة » و « السياسة » .. بين « الدين » و « الدولة » بروابط الحدود الإسلامية ومقاصد الشريعة التى شرعها الله .. وهذا هو النهج الوسطى الذى ميز ويميز موقف الإسلام فى

---

(٦٤) الحشر : ٧ .

(٦٥) رواه مسلم وأبن حنبل .

(٦٦) ولى الله الدهلوى [حجة الله البالغة] جـ ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ . طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

هذه المعضلة الفكرية ، التى تطرف إزاءها الكثيرون ، وخاصة فى الحضارات غير الإسلامية . فقال فريق منهم : بالكهانة التى جعلت « الدولة » دينا ، والسلطة فيها دينية لها قداسة الدين وثباته المستعصى على التطور والتغيير.

وقال فريق آخر : بالعلمانية ، التى فصلت « الدين » عن « الدولة » ، وأطلقت العنان لعقل الإنسان وسلطة البشر فى سياسة المجتمع ، دونما حدود ، حتى لو أحلت الحرام وحرمت الحلال .

وإذا كان النهج الإسلامى قد برئ ويبرأ من هذا الغلو .. فإن مصدره ومنطلقه كان ولا يزال : الفقه والوعى بطبيعة العلاقة بين « الرسالة » و « السياسة » فى الإنجاز النبوى .. إنجاز [محمد : الرسول ـ السياسى] . ـ عليه الصلاة والسلام ـ .(٦٧)

---

(٦٧) لمن يبغى المزيد من التفصيل حول آرائنا فى علاقة الدين بالدولة هناك كتبنا : [الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية و [المعتزلة وأصول الحكم] و [الإسلام والسلطة الدينية] و [الإسلام بين العلمانية والسلطة الدينية] و [نظرية الخلافة الإسلامية [.

موقع السيرة فى البناء الفلسفى للإسلام
أو
فلسفة الإنذار

الأستاذ الدكتور
يحيى هاشم حسن فرغل

عناصر الموضوع :

1 ـ فشل الفلسفة النظرية
2 ـ فلسفة الضرورة العملية
3 ـ المنطق العملى (الإنذار فى سير الأنبياء السابقين
4 ـ المنطق العملى (الإنذار) فى سيرة محمد ـ صلى الله عليه وسلم
5 ـ عناصر المنطق العملى فى الإنذار
6 ـ منطق الإنذار بواقعة مستقبلية
7 ـ بين الإنذار والتبشير
8 ـ منطق الإنذار فى قضية التوحيد
9 ـ منطق الإنذار فى قضية التشريع
10 ـ بين العقل النظرى والعقل العملى فى سيرة الرسل
11 ـ اليقين فى (المنطق العملى)
12 ـ الشروط العملية للتفرقة بين إنذار وإنذار
القاعدة الأولى : فى طبيعة الإنذار
القاعدة الثانية : فى مصدر الإنذار
القاعدة الثالثة : فى مورد الإنذار
القاعدة الرابعة : فى حامل الإنذار
(أ) الاحتكام إلى سيرته
(ب) الاحتكام إلى سيرة أصحابه
(جـ) انتصاراته
(د) تكاثر الأدلة على صدقه مع «المعجزات»
(هـ) نظرة أتباعه من خلال «المنطق العملى»
(و) نظرة المستشرقين
13 ـ إعلان فلسفة التسليم
خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس)

(٢ : يونس)

فشل الفلسفة النظرية :

يزعم المتكلمون أن الطريق الوحيد الذى يصح الاعتماد عليه فى معرفة صدق الرسول هو (المعجزة) باعتبار أنها تدل على ذلك دلالة عقلية .

وقد جاء موقفهم هذا متسقا مع رأيهم فى أن الطريق الوحيد الذى يصح الاعتماد عليه فى معرفة الله هو (العقل) النظرى .

وجاء موقفهم هذا أيضا متفرعا عن رأيهم فى أن (العقل) النظرى هو الأساس الذى يصح الاعتماد عليه فى الوصول إلى المعرفة .

وقد بينا باستفاضة فى غير هذا الموضع أن العقل النظرى (المستقل) لا يمكن الاعتماد عليه فى الوصول إلى المعرفة [1] .

فلسفة الضرورة العملية :

والحقيقة الكبرى التى اتضحت لنا هى أن الاتجاهات الفكرية البشرية مهما اختلفت ومهما

---

(١) انظر كتابنا (الأسس المنهجية فى بناء العقيدة الإسلامية) وكتابنا «فلسفة التسليم»

وضعت من شروط ـ على اختلافها ـ للتوصل إلى المعرفة فإنها تتنازل عن شروطها هذه فى الأسس التى تقوم عليها ، وتؤمن بهذه الأسس إيمانا تسليميا مضطرة إلى ذلك بحكم ما نسميه (الضرورة العملية) .

لقد فعلت ذلك الفلسفة العقلية اليقينية : شددت فى الحصول على الأدلة العقلية لكنها بالنسبة لأصل هذه الأدلة وهو العقل آمنت به إيمانا تسليميا أوليا خاضعة فى ذلك لحكم الضرورة العملية .

وفعلت ذلك الفلسفة اللاأدرية ، شددت فى إنكارها للأدلة العقلية وفقدت الثقة فى الأساس الذى تقوم عليه ، لكنها اضطرت بعد ذلك إلى الأخذ (بالجانب العملى) وآمنت به إيمانا تسليميا أوليا خاضعة فى ذلك لحكم (الضرورة العملية) .

وفعلت ذلك الفلسفة التجريبية : شددت فى اشتراط التجربة ، لكنها اضطرت بعد ذلك إلى الأخذ ببعض المبادئ التى تقوم عليها التجربة ، دون أن تثبت هذه المبادئ تجريبيا ، ومنها على سبيل المثال مبدأ (سير الطبيعة وفقا لقوانين) ـ وآمنت بهذه المبادئ إيمانا تسليميا أوليا خاضعة فى ذلك لحكم (الضرورة العملية) .

وهنا يحق لنا أن نعلن أن الضرورة العملية هى التى تتجاوز الشك فى طريق الوصول إلى معرفة الله .

وقد اعترف بذلك أصحاب مذاهب (نقد العقل) أنفسهم ابتداء من امبريكوس أشهر الشكاك اليونانيين إلى هيوم وكانط ووليم جيمس فى الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة .

فإلام ينتهى أمر الشاك ؟ إنه من الناحية النظرية لا يقرر شيئا ولكنه من الناحية العملية سوف تفجؤه (الضرورة العملية) بصفعة تخرجه من دائرة الشك تماما . ذلك أن الإنسان لا يمكن أن يستمر فى دائرة (اللاعمل) التى يقتضيها الشك .

إنه يخرج من هذه الدائرة أراد أو لم يرد ، بحكم (الضرورة العملية) يخرج من هذه الدائرة إلى دائرة عمل هى من شأن الذين لا شك عندهم . إنه إذا ـ جاء خبر إلى فيلسوف من فلاسفة الشك بأن مجموعة من اللصوص تنوى مهاجمة بيته فى هذه الليلة فماذا يكون الموقف فى هذه الحالة ؟ إن المتأكد من صدق هذا الخبر (يعمل) الآتى : يستعد بالسلاح والحراسة ، والمتأكد من كذب هذا الخبر (يعمل) الآتى : ينام مطمئن البال ويترك السلاح ويترك الحراسة . أما فيلسوف الشك غير المتأكد من صدق الخبر أوكذبه فإنه يطالب بالدليل لكن الدليل لا يأتيه ، أو

يأتيه دون أن يقتنع به. فما هو موقفه عندئذ إنه من الناحية العملية إذا ترك نفسه للشك سوف (يعمل) عمل المتأكد من كذب الخبر. إنه لا يقف بين بين. لابد له من أن يخرج من دائرة (اللاعمل) التى - يفرضها عليه شكه إلى دائرة (عمل) هى من شأن المتيقن: أى إنه بحكم (الضرورة العملية) أراد أو لم يرد يسلم نفسه لعمل ما. وقد كان يجدر به أن يسلم نفسه للجانب الأحوط، إنه ما دام لا يستطيع أن يخلص لشكه من الناحية العملية وسوف ينحاز لعمل ما دون أن يستطيع تبرير هذا الانحياز من الناحية النظرية، فعليه حينئذ أن يختار الجانب الأحوط وأن يسلم نفسه لجانب السلامة وهو جانب الاستعداد للخطر بما يناسبه من العمل.

وهنا يمكن القول بأن الشك قرار من الناحية العملية. هذا المنطق ينتقل بنا مباشرة إلى الدين.

وهذا ما جعل وليم جيمس يقول: (إذا كان الملحد يخشى الوقوع فى اعتقاد لم يقم عليه دليل يقينى قطعى.. فإن عليه أن يخشى أمرا أشد بطشا وأشد تنكيلا: هو الوقوع فى عصيان. إله، لم يقم على نفيه دليل يقينى قطعى).. وهو ما جعل بسكال يقول من قبله: (فلنذكر الملحد بالموت وبالأبدية: ماذا - لديه من القول عنهما: هل يقول إنه لا يبالى؟ أليس منتهى الحماقة ونحن نعنى أكبر العناية بصغائر الأمور ألا تثير اهتمامنا المسألة الكبرى التى يتوقف عليها النعيم الأبدى أو الشقاء الأبدى: هل يقول: إن العقل يجد أن الدين غير مفهوم: فليكن.. ولكن كيف يستنتج من هذا أن الدين ليس حقا؟ لنفرض أن الغموض متساو من جهة إثبات الدين ومن جهة نفيه يبقى أن الاختيار بينهما ضرورى ... ولنلاحظ أن عدم الاختيار هو فى الحقيقة اختيار للنفى وهو اختيار محض للجهة الأشد خطرا.

فاللامبالاة بالعواقب هى جوهر الموقف الإلحادى.. وهى جوهر الجريمة بوجه عام.

يقول تعالى: (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين). ٧٥ - يونس.

ولهذه اللامبالاة دوافعها النفسية والاجتماعية: الكبر والوضع الاجتماعى (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين) ٧٨ - يونس.

وإذن فأعتى أنواع الإلحاد لا تتجاوز مستوى الشك، والشاك - حتى فى وضع اللامبالاة - يعمل عمل من يتخذ قرارا، أراد ذلك بوعى أو تورط فيه بغير وعى.

والذى يضعه فى هذا المأزق العملى : هو الإنذار .. الإنذار باليوم الآخر وهذا ما نزيده بيانا فى الصفحات التالية :

المنطق العملى (الإنذار) فى سير الأنبياء السابقين

إن الإنذار باليوم الآخر هو (المنطق العملى) القائم على (الضرورة ـ العملية) وهو الذى يقودنا إلى الإيمان بالله والتصديق بالرسول .

وهذا المنطق نفسه هو الذى يقودنا مباشرة إلى صميم الفلسفة الإسلامية العملية .

لأنه هو المنطق الذى تدلنا السيرة النبوية على استعمال الرسول إياه فى سير الأنبياء السابقين وسيرة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على السواء ففى سيرة سيدنا نوح :

جاء قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) ٢٥ ، ٢٦ ـ هود .

ثم يقول سيدنا نوح : (قال رب إن قومى كذبون ، فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين) ١١٧ ، ١١٨ سورة الشعراء .

ويربط القرآن هذا الإنذار بشقيه : دنيويا فى الطوفان ، وأخرويا فى النار بقوله تعالى : (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ، فإذا نفخ فى الصورة نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة)

وفى سيرة سيدنا هود يقول تعالى : (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ٢١ ـ الأحقاف .

ويقول لهم سيدنا هود : (أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ، أو عجبتم أن جاءكم ذكْر من ربكم على رجل منكم لينذركم) ٦٨ ـ ٦٩ : الأعراف .

ولكن قومه يقولون له متحدين :

(أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) .

ثم قالوا له : (سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ، إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين) .

وعندئذ حق عليهم القول فى قوله تعالى : (فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) ٧٢ ـ الأعراف .

ثم يربط القرآن هذا الإنذار الدنيوى بالإنذار الأخروى إذ يقول تعالى : (فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون) ١٦ ـ فصلت .

وفى سيرة سيدنا صالح جاء قوله تعالى :

(كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر ، أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ، سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) ٢٣ ـ ٢٦ ـ القمر .

ويضع القرآن أمامهم نذيرا دنيويا بموازاة النذير الأخروى : (هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم) ..

ولكنهم كذبوه وتحدوه : (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ، وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) ٥٠/٥٣ ـ النمل .

ويبدو منطق الإنذار واضحا أيضا فى سيرة سيدنا إبراهيم إذ يقول لقومه كختام حاسم لجدل عقيم . (وحاجه قومه قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئًا وسع ربى كل شىء علمًا أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

ويعقب القرآن على هذا الإنذار بأنه هو الحجة العملية ، أو المنطق العملى وذلك إذ يقول تعالى : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) ٨٠/٨٣ الأنعام .

ولعل الإنذار الدنيوى الموازى للأخروى قد جاء فى سيرة إبراهيم عليه السلام فى صورة معكوسة ولها نفس الدلالة: أن الخطر قادم، وأن النجاه منه إنما هى بيد الله. وأقصد بالصورة المعكوسة أن الإنذار الدنيوى توجه هنا إلى إبراهيم من قومه إذ نادوا بإلقائه فى النار (حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) .

فكان الرد الإلهى : (قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) ٦٨/٧٠ ـ الأنبياء .

وفى سيرة سيدنا لوط تأتى الإشارة إلى الإنذار فى قوله تعالى : (ولقد راودوه عن ضيفه

فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) .. ثم يأتى قولهم له (.. ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) ثم يأتى وعد الله (فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم) ٧٦/٧٣ ـ الحجر.

عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم) ٧٦/٧٣ ـ الحجر.

وفى سيرة سيدنا شعيب جاءت الإشارة إلى الإنذار فى قوله لهم : (و يا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) ٨٩ ـ هود

فكذبوه وتحدوه قائلين (وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين. فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين. قال ربى أعلم بما تعملون. فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) ١٩٠/١٨٦ـ الشعراء.

يقول تعالى على لسان سيدنا شعيب (ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخذيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ٩٤/٩٣ ـ هود.

وفى سيرة سيدنا موسى يأتى قوله لفرعون : (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) ٤٨ ـ طه .

ويأتى قوله تعالى شارحا للمنطق العملى فى الإنذار : (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ..) ثم يقول : (وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد) ثم يقول (ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة ـ وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب

النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) ٤١/٤٥ ـ غافر.

وفى الربط بين الإنذارين جاء قوله تعالى فى سيرة موسى عليه السلام : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) .

وجاء قوله تعالى (وقالوا مهما تأتنابه من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) .

وحينئذ قالوا : (ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) ١٣٤ الأعراف .

ويقول تعالى : (فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون) ٤٧/٤٨ الزخرف

وفى قصة موسى تظهر (فلسفة الواقعة) فى أن الوقاية منها تكون ـ بالخشية لا بالتحقق وذلك إذ يقول تعالى : (ألآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) ٩١/٩٢ يونس .

وفى سيرة داود يأتى قوله تعالى:(يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) . ٢٦ ـ ص

وفى سيرة سيدنا عيسى يأتى قوله تعالى عندما طلب الحواريون إنزال مائدة من السماء :(قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدا من العالمين) ١١٥ ـ المائدة .

وياتى قوله تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا) ١٧٢ ـ النساء

المنطق العملى (الإنذار) فى سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

عندما استعد رسول الله صلى الله عليه وسلم للدعوة إلى الإسلام فبماذا أخذ يستعد ؟

بالذهاب إلى الكتب ؟ والإغراق فى التأمل النظرى ؟ وفتح الفصول الدراسية النظرية المجردة ؟ وقد كان الله ومازال قادرا على تهيئة الظروف لذلك لو كان هذا هو الطريق ؟ كلا .

وإنما أخذ يستعد لذلك على النحو (العملى) الذى أمر به فى قوله تعالى (يأيها المدثر قم فأَنذر) وعندئذ قام الرسول صلى الله عليه وسلم على (الصفا) فعلا أعلاها حجرا ثم نادى (يا صباحاه) فقالوا من هذا ؟ فجاء أبو لهب وقريش فاجتمعوا إليه فقال لهم أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟

قالوا : ما جربنا عليك كذبا .

فقال : يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئا .

وفى حديث آخر أنه قال لهم : مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل جاء قومه فقال يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى إنى أنا النذير العريان .فصدقته طائفة فنجا ونجوا على مهلهم وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم .

وفى حديث آخر يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه : (إنى لآخذ بحجزكم أن تساقطوا فى النار) .

وفى قضية الإنذار والعمل لما بعد الموت يخاطب الرسول الإنسانية جمعاء خطابا عمليا فيقول (الكيس من دان نفسه . وعمل لما بعد الموت ـ والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ..) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

ويقرر القرآن مهمة الإنذار فى رسالة الرسول فى طائفة كبيرة من الآيات بلغت أكثر من مائة وثلاثين موضعا نشير إلى بعضها فيما يلى :

(إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل) ١٢ ـ هود .

(كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره) ١٢/١١ ـ عبس .

(سيذكر من يخشى ..) ١٠ ـ الأعلى

(فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر) ٢١ ، ٢٢ ـ الغاشية

(فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) ٤٥ ـ ق

(وما على الرسول إلا البلاغ المبين) ٥٤ ـ النور

(وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) ٢٠ آل عمران .

(وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير) ٢٢ ، ٢٣ ـ فاطر

(يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) ١٥ ـ غافر

(وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) ١٩ ـ الأنعام

(هذا بلاغ للناس ولينذروا به ..) ٥٣ ـ إبراهيم
(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) ١ ـ الفرقان
(فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) ١٣ ـ فصلت
(فأنذرتكم نارا تَلَظَّى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى) ١٤ ـ الليل
(كتاب أنزل إليك فلايكن فى صدرك حرج منه لتنذر به) ٢ ـ الأعراف
(هذا نذير من النذر الأولى) ٥٦ ـ النجم
(بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون)٣ ـ السجدة
(لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) ٦ ـ يس
(وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) ٢٤ ـ فاطر.

وهذا المنطق العملى فى الإنذار يتمثل فى قول سيدنا على رضى الله عنه لمن كان يشاغبه فى أمر الآخرة : (إن كان الأمر كما زعمت تخلصنا جميعا وإن كان الأمر كما قلت فقد هلكتَ ونجوتُ) .

وهو المنطق العملى الذى يقول فيه ابن أبى العز فى شرحه للعقيدة الطحاوية ، (نعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يصدق وينتفع وأن يكذب ويتضرر : مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع وحينئذ فالاعتراف بوجوب الصانع والإيمان به هو الحق ..)[1] .

وهو المنطق العملى الذى استنقذ به الشاعر الحائر أبو العلاء المعرى نفسه إذ يقول :

زعم المنجم والطبيب كلاهما   لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر   أو صح قولى فالخسار عليكما
طهرت ثوبى للصلاة وقبله   طهر فأين الطهر من جسديكما
وذكرت ربى فى الضمائر مؤنسا   خلدى بذاك فأوحشا خلديكما

عناصر المنطق العملى فى الإنذار

الإنذار موقف يتلخص فى كلمتين أو ثلاث : خبر عن مجهول ، وتصديق فى جانب ، وتكذيب فى جانب آخر.

هو منطق عملى يركز فيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمرين نمارسهما فى حياتنا العملية ، ولا غنى لأحد مهما يكن موقفه الفلسفى أو التأملى عن الأخذ بهما .

(١) شرح للطحاوية ص١٦ طبعة مطبعة الامتياز

أولها : تصديق خبر عن واقعة نجهلها إذا أتى من المعروف بالصدق ...
ثانيهما : الأخذ بالأحوط فيما يتضمن الخبر عنه تحذيرًا من خطر (محتمل) .

وهذا المنطق العملى هو المتمثل فى قوله تعالى : (وما ذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر) . ومن قبل استعمل رجل مؤمن من آل فرعون هذا الدليل العملى فى جداله مع قومه (وإن يك كاذبا فعليه كذبه . وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) .

ولأن المسألة من ناحية الرسول محض إخبار وإنذار : فقد جاء قوله تعالى : (إن أنت إلا نذيرٌ) .

وجاء قوله تعالى: (وما عليك إلا البلاغ) . وترتيبا على ذلك يمكننا أن نقول بغير مبالغة : ما على المنذر من دليل وإلا فقل لى ماذا تفعل إذا أبلغت بإنذار وخبئ عنك الدليل؟

إن سوق المنذر للدليل هو محض تبرع ، أو مودة ، لكنه فى منطق الإنذار نفسه غير لازم .

مرة أخرى (إن أنت إلا نذير)
وفى الحكمة القديمة (لقد أعذر من أنذر)

ولأن المسألة من ناحية العبد هى محض اختيار ينبغى أن يتجه فيه إلى السلامة جاء قوله تعالى : (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) ـ ١٠٨ ـ البقرة .
ثم جاء قوله تعالى : (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) ٢٥ ـ يونس .

ومن هنا كان (المؤمن) اسما للإنسان الطالب للأمن وهو لا يكون إلا فى الإيمان (الآمن) بالله .

ولهذا كان المؤمن اسما لله من الجانب الآخر إذ هو المؤمن أى المعطى للأمن ولا أمن إلا فى الركون إليه ... ولا أمن عند الكافر بأى وجه من الوجوه فيقول سبحانه وتعالى عن الناجين من عذاب ذلك اليوم لأنهم توقعوه واتقوه : (والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون) .

ثم يقول عن الهالكين :
(فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث

سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون) ١ ـ هـ

والطريق الذى يبعد الإنسان عن العذاب مفتوح منذ اليوم .. والإنسان مدعو إليه قبل أن تقع الواقعة (ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا) ٣٩/٤٠ ـ النبأ

والتفاتة الكافر إلى التراب هنا التفاته ذكية . فهى ليست محض تحقير لذاته .. وإنما هو وجد نفسه قد عومل معاملة التراب (وقودها الناس والحجارة) دون أن يكون له حظ التراب فى انعدام الإحساس بالألم . فتمنى أن لو كان محروما من نعمة الحياة التى لم يوفها حقها من العناية بها والشكر لصاحبها .

وفى منطق الإنذار نجد أنه : (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) . بل لا وجه للمقارنة ولا حاجة إليها فى أرض الإيمان ولكن المقارنة مطروحة على الكافرين أنفسهم .

فالمؤمن يعمل من أجل الجنة (أصحاب الجنة) وهو ليس مهددا بغيرها على أى وجه . والكافر لا يعمل من أجل الجنة وهو مهدد بالنار على الوجه الذى يخيب فيه ظنه ، فهو من أصحاب النار .. فأصحاب النار مهددون بها وأصحاب الجنة غير مهددين بالنار على الإطلاق . ولهذا كان (أصحاب الجنة هم الفائزون) بإطلاق .

وفى منطق الإنذار نجد أنه لاخسارة على المصدق بالإنذار (أم يقولون ـ افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برئ مما تجرمون) ؟ ٣٥ ـ هود .

وفى منطق الإنذار نجد أنه : لا مجال للاستدلال على كذب الإنذار[1] فغاية ما يصل إليه المكذب أن يظن (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) ٢٧ ـ هود .

وإذا تأملنا الربط الوارد بين الإنذارين الدنيوى ، والأخروى كما وجدناه فى سيرة سيدنا نوح . وهو . وصالح . وإبراهيم . ولوط ، وشعيب . وموسى .. إلخ أدركنا دلالته الواضحة على جانب هام من جوانب المنطق العملى فى الإنذار . وذلك أنه فى كل مرة يتحدث فيها الرسول عن إنذار بعذاب الآخرة فإنه يضع ذلك بموازاة إنذار بعذاب فى الدنيا . واقع ، أو محتمل . وما ذلك إلا ليعلن للعقل البشرى على مدار التاريخ : أنه بنفس الإجراء العملى الذى تتفق

(١) مع ملاحظة تطبيق (الشروط العملية) التى نذكرها فيما يلى .

الإنسانية على اتخاذه دفعا للإنذار الدنيوى وهو اتخاذ جانب السلامة والاحتياط وطلب الأمن . من يملكه ، عليها أن تفعل مثل ذلك بالنسبة لإنذار يتعلق بما بعد الموت . فهو لا يختلف فى نسقه المنطقى عن الإنذار الأول قيد أنملة . فإذا لم تفعل الإنسانية ذلك بدافع الكبر أو الجمود أو العناد فإنها لا تظلم إلا نفسها . وليس لها بعد ذلك أن تطلب النجاة من تولت عنه وأعطته ظهرها ونسيته فنسيها (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) ٣٤ ـ الجاثية

(لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ٢٦ ـ ص .

(نسوا الله فنسيهم) ٦٧ ـ التوبه .

(قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) آخر سورة الفرقان .

منطق الإنذار بواقعة مستقبلية

ومن الناحية المقابلة فإنه لا مجال للاستدلال الفلسفى الملزم على صحة الإنذار بواقعة مستقبلية .

(قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) ٢٨ ـ هود .

ولقد اتجه البعض إلى طلب حصول الواقعة ليمكن التصديق بها (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) ٣٢ ـ هود .

ولأن استعجال الواقعة للتصديق بها هو من شأن الحمقى والمضللين ، جاء قوله تعالى : (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون) ٨ هود . إن الحمقى الظالمين لأنفسهم هم الذين يطلبون التحقق من الواقعة الخطيرة بوقوعها (يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها) . أما الذين ينصفون أنفسهم فهم الذين يتعاملون مع الواقعة على البعد على الغيب يتعاملون معها بالخشية قبل الوقوع ، لا بالتحقق بالوقوع : (إنما تنذر من يخشاها) وهى على كل حال واقعة قريب . سواء ـ لأصحاب التحقق بالوقوع ، أو لأصحاب الخشية بالغيب . (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) النازعات .

وفى منطق الإنذار وما يتضمنه من التحقق بالوقوع جاء قوله تعالى : (عم يتساءلون ، عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون ، كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون ..) ١/٥ ـ النبأ .

ومتى سيعلمون ؟ قبل أن يجيب القرآن : يضع فاصلا من الآيات المذكرة بنعم الله ، ليبرز

مدى الجحود الذى يقع فيه المكذبون بيوم القيامة ثم يجيب بذكر اليوم الذى فيه يعلمون صحة ما كذبوه .

(إن يوم الفصل كان ميقاتا) ١٧ ـ النبأ

يعلمون بالنبأ يوم وقوعه .. ثم يذكر أهوال هذا اليوم التى تقع فيتعذب بها من يتعذب بها ؟ الذين لم يتوقعوها .. (إنهم كانوا لا يرجون حسابا، وكذبوا بآياتنا كذابا) ٢٨/٢٧ـ النبأ.

وينجو من هذا العذاب أولئك الذين اتقوا ذلك اليوم على البعد (إن للمتقين مفازا) وفى هذا المعنى نفسه جاء قوله تعالى فى سورة المعارج ـ (سأل سائل بعذاب واقع ، للكافرين ليس له دافع ، من الله ذى المعارج ، تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبرا جميلا ـ إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) ثم يأخذ فى وصف ما يقع فى هذا اليوم من أهوال ثم يقول عن النار فى ذلك اليوم : (كلا إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى) .

إن التحقق من اليوم الآخر معناه مكابدة وقوعه بالفعل .. والطالبون ـ لهذا التحقق (الآن) هم طالبون لوقوع الواقعة المحذرين منها ؟ عجبا (وإما نرينك بعض الذى نعدهم ؟)
(ويقولون متى هذا الوعد)
(قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارًا)
(أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟) ٤٦/٥١ـ يونس .

يستعجل المتشككون العذاب ليقع ليؤمنوا . أيكون ثمة فائدة لهم عند ذاك ! هل يجوز هذا الطلب فى نظر المنطق العملى ؟

(أثم إذا ما وقع آمنتم به .. الآن ؟ لا فائدة الآن . فهذا الآن هو الذى أردنا لكم تفاديه وأنتم أصررتم على مواقعته . أصررتم على مواقعته لتفاديه ؟ ذلك أعجب العجب .. فى أى قياس عملى يجوز ذلك ؟ فى أى قياس عملى يمكن التحقق من الواقعة قبل وقوعها ؟ فهل يجوز بعد ذلك فى القياس العملى أن تهمل الواقعة حتى تقع ؟ .

أيكون فى وسع المنذر أن يقدم شيئا على الواقعة التى ينذر بها غير التأكيد والتأكيد والتأكيد . ثم يقسم على هذا التأكيد ويقسم ، ويقسم .. أثمة فى الوسع ـ العملى ـ أكثر من هذا ؟ أليس هذا هو أقصى ما يستطاع فى منطق الإنذار بواقعة مستقبلية .. (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق) ؟ . يونس ـ ٥٣

فماذا يراد بعد ؟ إن أسلوب القرآن صريح فى أن تأكيد (الخبر) عن واقعة مستقبلية لا يكون بأكثر من القسم . القسم بأقوى أنواعه التى تدور فى فلك الواقعة نفسها ولكن ماذا يجدى القسم مع أصحاب النزعة الواقعية «العمياء» ؟ القسم صيغة مطروحة (يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) أول سورة يس ..

ولكن العدول عن القسم صيغة مطروحة أيضا (فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم) إلى أن يقول :

(وما صاحبكم بمجنون) (وما هو على الغيب) (بضنين) (فأين تذهبون)

إن الإخبار بواقعة مستقبلية يستتبع أحد أمرين : إما تصديق وإما تكذيب . والبحث فيما وراء ذلك من أدلة نظرية بعيد تماما عن الطبيعة العملية للموقف (فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) ٧٣ - يونس . وما كان هناك مفر من أن يغرقوا لقد أنذروا بالطوفان قبل أن يقع بهم .

فانتظروا إلى أن وقع بهم .. فهو أغرقوا أنفسهم (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) .

يقول القاضى عبد الجبار فى العلم بالواقعات المستقبلية : (وانما تعلق أكثر التكاليف دِينًا ودُنيًا بالظنون .. لتعذر أن يصل المرء إلى العلم بالواقعات فى المستقبل فأقيم الظن مقامه ثم لا يكون عمله عملا بالظن .. وإلا فمتى حصل غالب الظن فى حصول نفع أو ضرر علم أحدنا بعقله حسن الإقدام أو وجوب التحرز) .

إن استمرار الإنسانية فى طلب الدليل النظرى على حادثة مستقبلية ذات طبيعة عملية لهو نوع من الإصرار على التكذيب المحض ! يقول تعالى عن هؤلاء : (ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين) ٧٤ - يونس .

إن الإنذار الذى يأتى به الرسول هو - بكل بساطة - خبر عن واقعة مستقبلية ومن شأن الوقائع المستقبلية أن لا يحدث التحقق منها إلا بوقوعها إنك لا يمكنك أن تتحقق من أن فلانا سوف يقتل فلانا مهما تواردت أمامك الأدلة والبراهين إلا إذا حصل القتل فعلا وعندئذ يكون الوقت قد فات للتحرز وفرصة النجاة بالاستعداد قد أفلتت ومن هنا جاءت تسمية القرآن للآخرة بـ (الحاقة) - فهى بذاتها التى تضع عينك على الحقيقة ، فتتعرف على الحقيقة وتتيقين منها ببروزها

أمامك بالفعل ، ولا طريق للتيقن من الوقائع بغير هذا مادمت تريد تحصيل اليقين بجهودك الشخصية ، وتنصرف عن الاستعداد للخطر قبل وقوعه .

بين الخبر الإنذارى والخبر التبشيرى

وقد يقول قائل ولم كان التركيز فى منطق الرسل على الإنذار بالعذاب بقدر أكبر مما كان للتبشير بالجنة : ؟[1]

والجواب على ذلك إن منطق الإنذار أكثر افحاما من منطق التبشير ، فمن حق المكذبين أن يقولوا إليكم عنا بجنتكم هذه لا نريدها ، ولكن أنى لهم أن يقولوا إليكم عنا بناركم ، وهى تقع على رءوسهم أرادوا أم لم يريدوا : ومن هنا كان وقوع الضرر أكثر فعالية فى الرجوع إلى الله من وقوع الخير وهذا ينعكس بالتالى على الإنذار والتبشير .

(وإذ مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مركأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ماكانوا يعملون) . يونس - ١٢ .

والتعبير بالمسرفين هنا يظهر كيف أن هؤلاء يهدرون فعالية الخير الذى يقع بهم ويذهبون به بددا ..

ويقول الله تعالى : (وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا ..) يونس ٢١ .

ومكرهم هنا استعمالهم أحابيل العقل النظرى (قل الله أسرع مكرا ..) يونس ٢١ يعنى أن مكرهم ينقلب عليهم مباشرة لأنهم إنما يؤذون أنفسهم بهذا المكر فرجوع مكرهم إلى نحورهم شىء طبيعى وهو المقصود بقوله تعالى : (قل الله أسرع مكرا) لأن وقوع الأمور على وجهها الطبيعى إنما هو من سنن الله .

ويقول تعالى فى بيان فعالية الضر : (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق) يونس ٢٢ ، ٢٣ .

---

(١) جاءت مادة أنذر ومشتقاتها فى القرآن حوالى مائة وعشرين وثمانية . ومادة (بشر) بمعنى البشارة حوالى خمسة وأربعين .

وهنا يأتى مرة أخرى معنى « قل الله أسرع مكرا » فيفسره تعالى على النحو المذكور سابقا إذ يقول تعالى تكملة لهذه الآية : (.. يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) ٢٣ ـ يونس .. إن الألم ومن ثم (الإنذار بالنار) أكثر تقريبا إلى الحق .. من النعيم (ومن ثم البشارة بالجنة) ..

(وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) .. لم تكن دعوة موسى هذه رغبة فى شماتة . أو تعبيرا عن حقد ، وإنما كانت إدراكا لطبيعة الإنسان فى تردده بين الحق والباطل والعوامل التى تؤثر على حركته بينهما .

ولذا فإن الله استجاب لدعوة موسى عليه السلام (قال قد أجيبت دعوتكما) ٨٩ ـ يونس .

منطق الإنذار فى قضية التوحيد

وليس منطق الإنذار كافيا فى الركون إلى الله والإيمان به فحسب ولكنه كاف فى قضية التوحيد أيضا :

يقول تعالى : (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ماكنتم إيانا تعبدون ، فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ..) ٢٩/٢٨ ـ يونس .

ومنطق الإنذار ـ خوف عذاب يوم عظيم ـ كان يقتضى ممن أشرك أن يكون بيده ضمان ممن يملك هذا اليوم (مالك يوم الدين) أن يقول له : قبلت ذاك الشريك وهو معتمد عندنا ، أو يكون بيده ضمان من ذاك الشريك أن يقول له : عندى ضمان من الله موثق أن أكون مقبولا عنده كشريك .

أو يكون بيده ضمان من ذاك الشريك أن يطمئن عبده إلى أنه صاحب حول وطول وقوة يعصم العبد بها . والأمر الذى لا شك فيه أن (العبد) ليس بيده شىء من هذه الضمانات فيرجع الأمر إذن إلى دخول العبد فى رحاب « الله أكبر» (وردوا إلى الله مولاهم الحق ..) يونس ٣٠ ، مكتفيا به (. فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) يونس ـ ٢٩.

معتمدا على المعبود الذى يملك الرزق والسمع والبصر والحياة والموت .... (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ..) يونس ٣٠

ماذا يقول المشركون إزاء هذا السؤال ؟ (فسيقولون الله) يونس ٣١ وهنا نرجع إلى منطق الإنذار والبحث عن دار السلام .. ولذا ينبه القرآن إلى هذا المنطق إثر هذا التحليل لموقف المشرك عند الشركاء .. فيقول (فقل أفلا تتقون) .. يونس ٣١ .. منطق الإنذار . منطق التقوى ، يلزم الإنسان عمليا بالاعتصام بالله لأنه هو الذى يعصم العبد من الشركاء ، وهو الذى لا يعصم العبد منه شريك (.. ما لهم من الله من عاصم) .. وكما نقول عن الآخرة وعن الإيمان عموما (السلامة متحققة فيه والمهالك مخوفة فى مخالفته ..) . فكذلك الأمر فى التوحيد : (السلامة متحققة فيه والمهالك مخوفة فى مخالفته) .

فما حاجتنا بعد إلى جدل الفلاسفة وعلماء الكلام ؟

لتحصيل مزيد من الإيمان واليقين ؟

نقول فاقد الشيء لا يعطيه ، ونكرر ولا نمل التكرار : مزيد الإيمان واليقين يأتى من الله بعد التسليم له وحده .

(وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون) . يونس ـ ٦٦

ويزيد القرآن الأمر توضيحا فى منطق الإنذار إزاء قضية الشرك فيقول : (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده .. ؟)

(قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ..)

(قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق .. ؟)

(قل الله يهدى للحق .. ؟)

(قل الله يهدى إلى الحق .. ؟)

فمنطق الإنذار يقتضى إجراء الموازنة بين الله الواحد وبين الشركاء لكى يحدد الإنسان موقفه إزاء الإنذار الصادر إليه والمقارنة هنا تجرى على النحو الوارد فى الآيات :

(قل من يرزقكم) ؟

(أمّن يملك السمع والأبصار) ؟

(ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) ؟

(ومن يدبر الأمر) ؟

(من يبدؤ الخلق ثم يعيده) ؟ يونس ـ ٣٤

(من يهدى إلى الحق) ؟
(أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع ، أمن لاَ يَهِدِّى إلا أن يهدى) ؟
(هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا ..) يونس — ٦٧
(هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض) يونس — ٦٨
(له ما فى السموات وما فى الأرض) يونس — ٦٨
(ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) يونس ١٨ .

وهنا يمكن القول بأن الإنذار فى هذا الإطار المحصور فى الاتجاه إلى الله والبعد عما سواه .. هذا الأسلوب الإنذارى كاف فى إسقاط أوثان الشرك دون حاجة إلى العقلانية التى حسب المتكلمون والفلاسفة أنها السند الوحيد فى مقارعة الباطل .

منطق الإنذار فى قضية التشريع

فى نفس السياق : سياق الإنذار باليوم الآخر بمنطقة العملى المؤدى — إلى الاعتصام بالله والتوحيد وانتظار اليوم الآخر .. بنفس هذا المنطق وفى نفس هذا السياق يتحدث القرآن عن موقف الإنسان كما يجب أن يكون — من قضية التشريع فيقول : (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم ... ؟)

منطق الإنذار يقتضى منى أن أستند فيما أحل وأحرم إلى إذن إلهى .. ليكون فى يدى — هذا السند . أتقدم به إلىالله يوم القيامة ، فأقول : حرمت لأنك حرمت وحللت لأنك حللت .. هذا السند هو صَكُّ الأمان والسلامة والنجاة .. أما إذا لم أفعل فما هو الضمان : وكيف أحتج وإلى أى شىء أستند ؟ .

هنا بالمنطق العملى يكون اليقين بالنجاة ويكون التعرض للهلاك .. يقين النجاة فى سند يحمل الإذن الإلهى.. والتعرض للهلاك يكون فى ضياع هذا السند من يدى .. (أم على الله تفترون ؟ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟) يونس — ٥٩/٦٠

أليس المللتزم بالسند الإلهى فى التشريع أليس يتحرك فى دائرة اليقين بالأمن والسلامة ؟ . أليس المستخف بهذا السند أليس يضطرب فى دائرة احتمال تخلى الله عنه يوم يقع العذاب ؟ .

وليس هذا المنطق العملى قائما على أرضية من الشك الرجراج كما قد يظن البعض[1] . لأن هؤلاء لا يزالون يعصبون أعينهم بغشاوة العقل النظرى يشير إليها قوله تعالى فى سورة يس : (إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وبالله عليك أية أغلال وأية سدود وأية أوزار وأية أثقال ـ إن لم تكن هى تلك (الأنظار) و (التأملات) التى يشترط عليك (النظريون) خوضها من خلال ركام فلسفات سقراط وأفلاطون وأرسطو والفارابى وابن سينا وابن رشد والقاضى عبد الجبار والعلامة عضد الدين ؟

إن طبيعة العقل النظرى وجدليته هى التى تقصر به عن التفرقة بين الحق والزيف .

وهنا تأتى سيرة موسى عليه السلام مع فرعون بكاملها . إن المأساة هنا هى مأساة الإنسان (المرتبط بالعقل النظرى) فى عجزه عن التفرقة بين الحقيقة وتمثلها (الحية تسعى حقيقة) وبين الزيف وتمثله (الحية تسعى سحر) . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون) ٧٦ ، ٧٧ ـ يونس .

ثم يقول سبحانه وتعالى : (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم . فلما جاء السحرة قال : لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ، فلما ألقوا قال موسى : ما جئتم به السحر) .

وماذا يفرق بين الحق والسحر؟ إنها كلمة الله .. كلمة الله « الفاعلة » (إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) ٨٢/٨١ ـ يونس .

(فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون) ٤٨/٤٥ ـ الشعراء .

ومنذ هذه الواقعة التاريخية التى انتصر فيها فرعون للسحر انحرف التاريخ الإنسانى إلى مسارب العقل النظرى المسحور .. إذ ماذا لو أن فرعون قبل رسالة موسى ؟ إذن لتغير وجه التاريخ : إذن لتطهرت مصر من الوثنية فى وقت مبكر وإذن لتطهرت الأرض من العنصرية بذوبان اليهود .. وإذن لما عرفت الإنسانية شيئا يسمى اليهودية أو الصيهونية .. إذن لتغير وجه التاريخ .. إذن .

---

(١) سيأتى بعد هذا مباشرة الكلام عن اليقين فى المنطق العملى .)

لاجتمع مع القوة (مصر) الحق (موسى) ولكن مصر تقاعست وتراجعت وتأخرت .. تأخرت من عصر موسى إلى عصر محمد .. وبين العصرين أفرخت اليهودية وأفرزت ! .. أفرخت الصهيونية العالمية .. وأفرزت سموم العنصرية .. وتكرست منذ ذاك الوقت انفصالية الحق عن القوة .. وضياع القوة فى مسارب الباطل .. وانفصال المنطق النظرى عن المنطق العملى .. وفى هذا الطريق سار اليونان وسارت الحضارة الهيلينية والرومانية وإلى هذا انحرف ما يسمى (الفلسفة الإسلامية) التقليدية عند الفارابى وابن سينا وابن رشد

وماذا عن أتباع موسى عليه السلام من اليهود ؟ إنهم لم يكونوا على أرض صلبة من الإيمان الخالص .. إنهم تبعوه لعصبية عرقية قومية .. هكذا كانت بداية التجمع اليهودى حول موسى قائمة على شفا جرف هار من ضلال ؟ ذلك أنه (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) ٨٣ـ يونس ..

هكذا كانوا بين مقتض ومانع ، كلاهما غريب عن الدافع الحقيقى للإيمان مقتض هو العصبية العرقية ، ومانع هو الخوف من غير الله وهنا يعلن موسى عليه السلام الدافع الحقيقى . فى قوله : (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ..) ٨٤ يونس .

إن أصحاب المنطق النظرى هؤلاء هم الذين تقول عنهم سورة يس (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) ومن ثم فهى تختصر بنا الطريق وترجع بنا إلى منطق الرسل ، منطق الإنذار وتبدأ معنا من إعلان الخطر القادم (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ، إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين) .

اليقين فى المنطق العملى

فإذا تركنا المنطق النظرى بسدوده وغشاوته وأثقاله وجدنا المنطق العملى بقيامه على أرض الضرورة العملية ينطلق من (يقين) جديد وقطعية جديدة هى موضع السجود والإقرار من النظريين والعمليين وأصحاب الفلسفات المختلفة جميعا ، وقد أشار الإمام الغزالى إلى هذا «القطع» وهذا اليقين فى كتاب ميزان العمل إذ يقول : (لقد تبين على القطع أن العظيم الهائل وإن لم يكن معلوما فبالاحتمال يتقدم على اليقين المستحقر.) وهو يعنى بالعظيم الهائل (خطر الآخرة) ويعنى باليقين المستحقر بعض اللذات ، القريبة فى هذه الدنيا .

وهذا المنطق العملى بأرضيته القطعية تلك هو الذى ظهرت أصوله فى علم أصول الفقه عند أهل السنة والمعتزلة على السواء . وفى هذا يقول القاضى عبد الجبار من المعتزلة :

(لقد تقرر فى العقول وجوب دفع الضرر عن النفس معلوما كان أو مظنونا متى كان المتحرز منه أعظم من المتحرز به ..)

وفى هذا يقول علماء الأصول أيضا (العمل بالظن فى تفاصيل معلوم الأصل واجب عقلا كإخبار (واحد) بمضرة طعام يوجب العقل ـ أى العقل العملى ـ العمل بمقتضاه للأصل المتيقن من وجوب الاحتراس عن المضار) .

وفى هذا يقول العلامة ابن الوزير : (من واجب العاقل أن يدفع عن نفسه المضار المحتملة .. لأن السلامة متحققه فى الإيمان والخطر مأمون فيه والمهالك مخوفة فى مخالفته ..)

إن التيقن بالنجاة كائن على طريق الإيمان ، وإن توقع الهلاك كائن على طريق الكفر .. وفى هذا يقول تعالى :

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ..)

هكذا : الإيمان على أساس التقوى : تقوى عذاب يوم عظيم ، هو الذى يدخل الإنسان فى يقين اللاخوف واللاحزن ، أما اللاتقوى واللاإيمان فهو يدخل الإنسان حتما فى الخوف : خوف أن يحصل العذاب .، ويدخله حتما فى الحزن : حزن الإنسان على نفسه : أنه وقع فى إسار هذا الخوف المقيم .. أما أولياء الله فإنهم لا يخافون ، وكيف يخافون يوما قد أخذوا أُهبتهم له وابتعدوا بأنفسهم عن مجرى الهلاك فيه ؟

وهم لا يحزنون ، وكيف يحزنون على أنفسهم وقد نأوا بها عن مظنة الهلاك ؟ وكيف يحزنون وقد اطمأنت نفوسهم إلى سكة السلامة بيقين ؟ .

إن الملحد إذ يرفض عبوديته لله فإنه لا يكون على يقين من النجاة بعد الموت .. إنه كذب باليوم الآخر دون أن يكون لديه الأسباب اليقينية لهذا التكذيب ومن هنا فهو يشك فى أسبابه التى يعتمد عليها ويشك بالتالى فى نجاته فى ما بعد الموت ..

إنه كما يقول الله تعالى : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ..) يونس ٣٩ كذبوا بالآخرة دون أن يكون لديهم إحاطة علم بها .. ومنطق الإنذار الذى ـ عكسه الفلاسفة ـ يقتضى عدم التكذيب بخطر قادم إلا بعد الإحاطة التامة . ومنطق الإنذار نفسه يجعل المؤمن فى أمان بيقين مهما يكن الأمر .

فالتحدى القائم هنا بين المؤمن والكافر ـ هو على أساس المنطق العملى الذى لا مفر منه لذلك يعقب القرآن قائلا :

(ومنهم من يؤمن به ، ومنهم من لا يؤمن به .. وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم .. أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون ..) يونس ٤٠ ، ٤١ .

ويقول تعالى : (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون) .

والمنطق العملى هنا واضح شديد الوضوح : ليعمل كل على مكانته ولينتظر :
لينتظر المؤمن ما بعد الموت ؟ أثم خطر عليه هناك ؟ .
ولينتظر الكافر ما بعد الموت ؟ أثم أمان عليه هناك ؟ .
أمان مطلق فى جانب الإيمان . وهذا هو اليقين .. وتبعا لهذا المنطق يمكننا أن نقرر أن الإمام ابن حزم بلغ غاية الصواب وهو يتحدث عن التقليد عندما ذهب إلى أن المطالبة بالبرهان فى قوله تعالى : (قل هاتوا برهانكم ..) .. لم تكن فى القرآن قط موجهة لمن هم على طريق النجاة . وإنما هى توجه للكافرين لا غير.

وإذا كان الظن مما يعمل به عند العجز عن اليقين فهو بالتأكيد لا يجوز اتباعه عند وجود يقين يتعارض معه .. وهنا اليقين بالنجاة ـ عمليا ـ موجود فى الإيمان والتوحيد . ولكن النجاة فى غيرهما مشكوك فيها على الأقلّ فأى ـ الجانبين نتبع ؟ جانب اليقين فى النجاة ؟ أو جانب الشك فيها .. ؟ .

ولهذا يقول سبحانه وتعالى : (وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ..) يونس . ٣٦ .

الشروط العملية للتفرقة بين إنذار وإنذار

واذا كنا بهذا قد وضعنا الأساس للفلسفة الإسلامية الذى يتمثل فى مبدأ الضرورة العملية السائد فى جميع الفلسفات .

وبينا ما يقوم على هذه الضرورة من إجراء عملى يتمثل فى الإنذار كمنهج يتضح فى سيرة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسير الرسل جميعا .

وبينا ملامح (المنطق العملى) الذى يتغلغل فى منهج (الإنذار) .. فإنه لا ينبغى أن نغفل عن

القواعد العملية النابعة من صميم هذا المنطق وهى القواعد التى تفرق بين إنذار متبوع وإنذار متروك .

وهى فى رأينا القواعد الأربعة المتكاملة الآتية :

القاعدة الأولى : فى طبيعة الإنذار

أول هذه القواعد العملية يرجع إلى طبيعة الإنذار وذلك أنه إذا تكاثرت الإنذارات كان للأكبر فيها أن يلغى الأصغر فإنه إذا قال لك قائل : إذا لم تخرج من بيتك اليوم تعرضت للحرمان من الرزق ثم قال لك آخر : إنك إذا خرجت اليوم ـ تعرضت لمضايقات المرور كان الإنذار الأول هو الإنذار الأكبر المتبوع .. وكان الثانى هو الأصغر المتروك .

وهنا نجد فى رسالة الرسل الذين يمثلهم محمد صلى الله عليه وسلم أن ـ الإنذار الذى جاءوا به هو (الإنذار الأكبر) على وجه الإطلاق ، فهو لا يهددك بالحرمان من متعة ولا يهددك بالحرمان من منصب ، ولا يهددك بالحرمان من نصر ولكنه يضع أمامك التهديد بالعذاب الخالد الأبدى ويعدك بالنعيم الأبدى فهو الإنذار الأكبر بإطلاق .. ويضاف إلى طبيعة الإنذار أن يكون المتحرز منه أعظم من المتحرز به .

فالجيش إذ يدخل ساحة المعركة مع العدو : يتحرز من عبودية الهزيمة وهى أكبر ، بآلام الحرب وهى أقل ... وأنت إذ تدخل ساحة المعركة مع الجهل تتحرز من عواقب الجهل : وهى أكبر بآلام السهر مع الكتاب . وهى أقل ، هكذا الأمر فى هذه الحياة الدنيا وكذلك الأمر فى خبر يأتيك عما بعد الموت .. أنت تتحرز ـ فيه من النار الخالدة : بترك الشهوات المؤقتة .

القاعدة الثانية : فى مصدر الإنذار

ولا يستقيم أمر هذا الإنذار إلا بالنظر إلى القاعدة العملية الثانية فإنه إذا جاءك الإنذار الكبير من منذر صغير سقط هذا الإنذار مهما يكن أمره ، لأنه لا يملكه ولو افتراضا . ذلك أنه إذا قام مضحك الملك فى مجلس الملك ليقول له : إذا لم تعطنى درهما خلعتك ، كان ذلك أجدر به أن يكون سببا لإشاعة المرح والسخرية ، لا أن يكون سببا للانزعاج وتهييج الخواطر ، فهو إنذار ساقط منذ البداية .

وهنا نجد فى رسالة الرسل أن الإنذار الذى جاءوا به لم يكن هو الإنذار الأكبر فحسب .

ولكنه جاء صادرا من المنذر الأكبر ـ ولو على قاعدة الافتراض ـ لأن الذى أصدر الإنذار موصوف بأنه مالك الملك ـ مالك يوم الدين ـ إنه الموصوف بصفات الكمال على الإطلاق ، بإطلاق .

فهو العالم القادر المريد السميع البصير المتكلم الخالق المدبر الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار الرحمن الرحيم الغفار الوهاب الرزاق الفتاح العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الجليل الكريم الرقيب المجيب الودود الباعث الشهيد الحق القوى المتين الولى الحميد الواحد الصمد ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، ذو الأسماء الحسنى .

إذن فهو الإنذار الأكبر ، الصادر من (الله أكبر) بإطلاق .

القاعدة الثالثة : فى مورد الإنذار

ولا يستقيم أمر هذا الإنذار بقاعدتيه السابقتين إلا بالنظر إلى القاعدة الثالثة التى ننظر فيها إلى مورد الإنذار : ذلك أنه إذا جاءك الإنذار الكبير من المنذر الكبير ـ افتراضا ـ ليطلب منك أنت مورد الإنذار أن تقوم بعمل لا تملك منه شيئًا لأنه لا يتفق مع فطرتك ، كأن يطلب منك الملك أن تحمل عشرة أطنان فوق كتفك وإلا أعدمك ، فهذا إنذار ساقط ، وأجدر به أن يكون حكما مبرما بإعدامك منذ الآن ، وليس عملا مطلوبا منك أن تقوم به .

وهنا نجد فى رسالة الرسل ـ فى حدود ما نعرفه عن محمد صلى الله عليه وسلم ـ أنهم جاءوا إليك بإنذارهم ليطلبوا منك ما يتوافق مع فطرتك أولا ـ (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وما يتحرك بها إلى الأفضل ثانيا : (ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) .

لقد كانت رسالة الإسلام وما تزال تتفق مع الفطرة البشرية من ناحية وتسمو بها من ناحية أخرى : تتفق وتسمو وجدانا وأخلاقا ، وعقلا ، وجسدا .. أما أنها تتفق مع وجدان الإنسان فإنه ليس فيها ما يتناقض مع مشاعر الإنسان وفطرته فليس فيها دعوة إلى رهبانية ، أو دعوة إلى تقطيع صلات الأرحام .... أو إلى صراع الطبقات ، أو القوميات أو الأديان .. الخ .

وأما أنها تتفق مع عقله فذلك أنه ليس فيها ما يتناقض مع هذا العقل كأن يلتزم بأن واحدا زائدا واحدا تساوى واحدا .

وفرق بين أن يكون فى الدين شىء فوق مستوى الفهم كأن يجهل العقل البشرى كيف خلق الله الخلق ؟ وكيف يبعث الناس بعد الموت ؟ وبين أن يكون فيه شىء يرفضه العقل كالثالوث أو الفداء .

وأما أنها تتفق مع جسده فليس فيها تحريم الزواج على رجل الدين مثلا أو تكليف بما لا يطاق، حتى فى دائرة التحريم فإنه : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه).

وأما أنها تسمو فلأنها كما قال تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة . ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) .

يسمو بهم بالعلم والقيم جميعا .

القاعدة الرابعة : فى حامل الإنذار

ولابد من القاعدة الرابعة التى تتعلق بحامل الإنذار ذلك أنه إذا أرسل الملك إلى رعيته رسولا ينذرهم بعقاب من يصنع الخمر، وكان الرسول هو صاحب المصنع ، كان الإنذار بالضرورة ساقطا لأنه يعنى أن الملك يهزل ، أو يجهل .

وهنا نجد فى رسالة الرسل ـ أنهم إذا جاءوا بالإنذار الأكبر من المنذر الأكبر كانوا وهم حملته يمثلون الإنسان (الأكبر) إن صح هذا التعبير.

لقد كان رسول الله على مستوى الإنذار الذى جاء به .

(أ) سيرته صلى الله عليه وسلم

هنا كان حامل الإنذار كاملا فى أخلاقه ، وفى عقله وفى جسده ، لأن هذا مقتضى أن يكون الرسول حاملا للإنذار الأكبر من المنذر الأكبر.

فإذا اكتملت هذه القواعد الأربعة كان الإنذار هو المتبوع بإطلاق ، وسقطت من حوله جميع الإنذارات الأخرى فيستقيم أمر الرسالة الصحيحة ، ويشع نورها من بين ظلام الرسالات والمذاهب الساقطة المتروكة .

وهكذا كان أمر الإسلام ، جاء بالإنذار الأكبر من المنذر الأكبر يحمله الإنسان الأكبر.. لقد كان هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم فى سيرته ... كان متصفا بالعصمة عن المعصية قبل البعثة وبعدها متصفا بالذكاء والفطنة ورجاحة العقل.. متصفا بسلامة الجسد من العيوب التى تنفر منه ، وتصرف الناس عنه .. (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .. (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) .

ومن هذه القاعدة العملية الرابعة تدخل (السيرة) ركنا أساسيا فى تكوين البناء الإسلامى فلسفيا وعمليا على السواء .

لقد كانت شخصية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سيرته مصداقا لقوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

ومصداقا لقوله تعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

وبالرجوع إلى سيرته قبل البعثة نجد بعده عن لهو أقرانه بمكة ، وتجنبه عبادة الأصنام . وإجماع أصحابه وغيرهم على وصفه بالصادق الأمين .
ولقد شهد له بذلك (بالصدق) أعداؤه الذين (كذبوه) فى دعوى الرسالة فقد أخرج الترمذى أن أبا جهل قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به .

ومنطق المكذبين هنا لا يتفق مع طبيعة النفس البشرية فى التعود على الصدق أو الكذب .

أنه يستحيل ـ عمليا ـ وها نحن نتحرك فى دائرة المنطق العملى ـ يستحيل أن يكون المرء صادقا فى كل أموره إلا أمرا واحدا .. خاصة إذا كان مستمرا فى كذبته فى هذا الأمر الواحد لا يتوب منها ولا ينقطع عنها .

لا يمكن لطالب علم مثلا أن يتحرى الصدق فى كل أمر ، إلا أمرا واحدا يبلغ فيه أهله أنه نجح فى الامتحان ، وهو كاذب . لأن هذه الكذبة الأخيرة المستمرة تحتاج إلى غذاء مستمر لتبقى ، غذاء من الكذب والرذائل بأنواعها المختلفة فقد يضطر ـ إنقاذا لكذبته الواحدة ـ أن يكذب فى نوعية الكتب المطلوبة للعام القادم ، وأن يكذب فى توقيت تخرجه ، وأن يرشو صديقا أو موظفا ليشهد له ، وقد يضطر إلى ما هو أشنع من ذلك .

طبيعة النفس البشرية لا تسمح بهذا رغم أنف أبى جهل ، إن النفس البشرية هنا مكشوفة فى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة .. وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا .. وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) ..

طبيعة النفس البشرية هذه وشهادة الأصدقاء والأعداء والتاريخ لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصدق ، كافية فى حسم القضية وإعلان صدق محمد فيما يخبر به عن الآخرة وفقا لمنطق الإنذار الذى ذكرناه .

وبالرجوع إلى سيرته بعد البعثة نجد التزامه الكامل بما يدعو إليه وفى هذا تصبح السيرة هى الشريعة ، والشريعة هى السيرة تطابقا كاملا بين النظر والعمل .

(ب) سيرة أصحابه المقربين

وفى هذا أيضا تأتى دلالة عملية أخرى ، من حيث التطابق بين الصانع وصنعته ، فالنبى صلى الله عليه وسلم صنعته هداية البشرية . وإذن يستدل على صدقه مما صنع بأصحابه ..

وهنا تصبح سيرة الصحابة جزءا لا يتجزأ من الاستدلال على صدقه ـ عليه السلام ـ .

إن دعوى النجار فى أنه نجار تظهر من صنعته فى الخشب وإن دعوى الحداد فى أنه حداد تظهر فى صنعته فى الحديد .. وإن دعوى الطبيب فى أنه طبيب تظهر من صنعته فى شفاء المرض .. وإن دعوى النبي فى أنه نبى تظهر من أثره فى استقامة أصحابه المقربين منه .

فهل كان منهم من فاسق أو طاغية ، أو متكبر ، أوكذاب . ؟ أمامنا تاريخ أبي بكر وعمر ، وعلى ، وبلال ، وسلمان ، وأبي ذر .. الخ . أعلام مضيئة فى تاريخ الإنسانية تدل على صنعة محمد . وأنها كانت حقا صنعة الأنبياء ..

وقد تنبه إلى ذلك أبو الحسن الهارونى الحسنى الزيدى ت ٤٢١ هـ عندما قال : (ثم رزق ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى آله مالم ينقل أن أحدا من الأنبياء رزق مثله من الأصحاب الذين كانوا أعلاما ، نحو أمير المؤمنين على ـ عليه السلام ـ الذى بهر بفضائله الكافة واجتمع فيه ما تفرق فى غيره من المناقب والمحاسن .. ثم من دونه من العلماء وكبار الفقهاء مثل : عبد الله ابن عباس ثم زيد بن ثابت ، ثم معاذ بن جبل . ثم عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ثم عبد الله ابن عمر ، ثم حذيفة بن اليمان ، ثم الزهاد مثل : سلمان الفارسى ثم أبو ذر الغفارى .. ثم إنهم حازوا هذه الفضائل .. فى مدة يسيرة .. فتأمل رحمك الله ما ذكرت من أحوالهم .. لتعلم أن ذلك كان بتوفيق من الله نبه به على نبيه المختار . فى صدق ما ادعاه بل لا يبعد أن يقال : إن ذلك آية بينة ودلالة محققة)[1] .

(جـ) انتصاراته

وفى نطاق المنطق العملى أيضا يأتى ما سجله التاريخ من نصرة الله لرسوله كدلالة على صدقه .

---

(١) انظر كتاب إثبات نبوة النبى . تحقيق خليل أحمد إبراهيم الحاج ـ طبعة دار التراث العربى عام ١٩٧٩ ـ ص ١٧٦ .

وهنا ينبغى أن نفرق بين النصرة المتصفة بالرسوخ والاستمرار المتصلة بموضوع الدعوة . وبين الفورة السريعة الزوال ، والنصرة الظاهرية المصحوبة بانهزام الدعوة ذاتها .. فدلالة الصدق تكون فى الأولى ولا تكون فى الثانية ، كما ينبغى أن نفرق بين نصرة تأتى لمن ادعى الرسالة وهو كاذب ، فهذه لا تجوز بالقياس إلى صفات الله ، المنذر ، وبين نصرة تأتى ، لزعيم ، بلغ فى الفسق مبلغه لكنه لم يقتحم مجال ادعاء الرسالة فهذه تجوز ولا تضر بدلالة الصدق التى نحن بإزائها .

إذا لاحظنا ذلك فى مجال ، النصرة ، دهبنا إلى التاريخ لنشهد انتصار نوح وانتصار إبراهيم ، وانتصار يوسف ، وانتصار موسى ، وانتصار عيسى وانتصار محمد ، .. ثم لنشهد مصير أعدائهم فى مزبلة التاريخ .

فى هذا المنطق العملى الخاص بالنصرة يقول على بن زين الطبرى فى كتابه ، (الدين والدولة) ، بعد أن انتقل من المسيحية إلى الإسلام : (من آيات النبى – صلى الله عليه وسلم – هذه الغلبة التى احتج بها المسلمون كافة وقد كنت أقول فيها مثل الذى قال غيرى من النصارى ، إن الغلبة أمر مشترك فى الأمم ، وما كان مشتركا فليس بآية من آيات النبوة ، حتى إذا أفقت من سكرة التيه وهببت من سنة الحيرة وانجابت عنى فتنة التقليد علمت أن ذلك ليس كما قالوا ..) .
لم ؟ وما الفرق ؟

هنا يقارن ابن زين بين غلبة محمد وقد بدأ فى غاية الضعف وانتهى إلى غاية القوة داعيا إلى كل فضيلة فى العقل والنفس والعمل مستصنعا أصحابا وأعوانا يسيرون على طريقته ، ويستدل بهم على فضله ، وبين غلبة الإسكندر – وأردشير وبابك – مثلا – وغلبتهم (لم تكن فى الله ولا للدعاء إلى الله ولا إلى أنبيائه ، بل لطلب الغلبة والعز والسمعة وهم بين دهرى وثنوى أو وثنى ..) ثم يتساءل : من الذى أعانه على غلبته ؟ الله ؟ أم الشيطان ؟ . من الواضح أنه ليس من الشيطان لأن معنى ذلك أن يعين الشيطان من يحاربه فكيف يكون شيطانا ؟ (إن من ظن بالشيطان أن يعين على إظهار مثل هذا الدين وتأييده فقد أحسن فيه الظن وقال فيه الجميل وكذب ما قال الله وأنبياؤه فيه)[1] .

(د) تكاثر الأدلة

وفى هذا النطاق – المنطق العملى – يأتى ما نسميه مبدأ (تكاثر الأدلة) .. ذلك أنه قد يحمل

(١) الدين والدولة – ص ١٠٨ – ١١٣

التصديق بأمور مجتمعة ولا يحصل بواحد منها على حدة .

ومثال ذلك خبر الواحد : يبدأ العلم به ظنا ، ويتقوى بالتواتر إلى أن يصير علما يقينيا فيستفاد من المجموع مالا يستفاد من كل واحد من أفراد هذا المجموع على حدة .

وإلى هذا المبدأ أشار الإمام الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) ..... وإذا طبقنا هذا المبدأ كان علينا أن نضع أمامنا كل دلائل صدق رسول : ما يتعلق بشخصيته وما يتعلق بموضوع دعوته ، وما يتعلق بمعجزاته أيضا ، فيفيض عن هذا المجموع شعور يقينى لا يقاوم بصدقه .

وبهذا تصبح السيرة هى العمدة فى الاستدلال على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .. وقد ذهب إلى ذلك الشيخ محمد عبده حيث كان يرى أن أرباب الأفكار العقلية إذا رأى أحدهم خارقا قد اقترن بدعوى النبوة فلابد من أن ينظروا فى مقدمات كثيرة ... وهم عندئذ لا يكتفون بظهور المعجزة على يده ، بل لابد للواحد منهم (أن ينظر إلى هذا الرجل هل هو خير فى ذاته أو شرير ، فإن كان شريرا فى ذاته يدعو إلى مالا ينتج ، ولا غرض له إلا الرياسة ، وتقلب أحوال الأمم فى الشرور ، وسفك الدماء فهو الساحر الخبيث . وإن كان خيرا يدعو إلى ما يعود على بنى نوعه بالصلاح والنجاح فهو الصادق النبى)[1] .

وقد أدرك المتكلمون هذا (المجموع) وإن أخطأوا ـ فى رأيى ـ فى جعلهم المعجزة هى العمدة .

يقول سعد الدين التفتازانى فى شرح المقاصد : (ما سبق ـ أى المعجزات هو العمدة فى إثبات النبوة ، وإلزام الحجة على المجادل والمعاند ، وقد يذكر وجوه أخر تقوية له وتتميما وإرشادا لطالب الحق وتعليما :

الأول أنه قد اجتمع فيه من الأخلاق الحميدة والأوصاف الشريفة والسير المرضية والكمالات العلمية والعملية والمحاسن البديعة الراجعة إلى النفس والبدن والنسب والوطن ما يجزم العقل بأنه لا يجتمع إلا لنبى .

الثانى : إن من نظر فيما اشتملت عليه شريعته مما يتعلق بالاعتقادات والعبادات والمعاملات السياسية والآداب وعلم ما فيها من دقائق الحكمة علم قطعا أنها ليست إلا وضعا إلهيا روحيا سماويا والمبعوث بها ليس إلا نبيا .

---

(١) انظر حاشية على شرح الدوانى على العقائد العضدية ص ١٥٠ طبعة ١٣٢٢ هـ

الثالث : أنه انتصب فى ضعفه وفقره وقلة أعوانه وأنصاره حربا لأهل الأرض ـ آحادهم وأوساطهم وأكاسرتهم وجبابرتهم فضلل آراءهم وسفه أحلامهم وأبطل مللهم وأظهر دينه على الأديان وزاد على مر الأعصار والأزمان وانتشر فى الآفاق والأقطار وشاع فى المشارق والمغارب من غير أن تقدر الأعداء مع كثرة عددهم وعدتهم وشدة شوكتهم وشكيمتهم وفرط حميتهم وعصبيتهم وبذلهم غاية الوسع فى إطفاء أنواره وطمس آثاره ـ على إخماد شرارة من ناره ، فهل يكون ذلك إلا بعون إلهى ، وتأييد سماوى .؟

الرابع : أنه ظهر أحوج ما كان الناس إلى من يهدى إلى الطريق المستقيم ويدعو إلى الدين القويم ، وينظم الأمور ويضبط حال الجمهور لكونه زمان فترة من الرسل وتفرق للسبل . وانحراف فى الملل .. واختلاف الدول ، واشتعال للضلال واشتغال بالمحال ، فالعرب على عبادة الأوثان ووأد البنات والفرس على تعظيم النيران ووطء الأمهات ، والترك على تخريب البلاد وتعذيب العباد والهند على عبادة البقر وسجود الحجر والشجر واليهود على الجحود ، والنصارى حيارى فيما ليس بوالد ولا مولود ، وهكذا سائر الفرق فى أودية الضلال وأخبية الخيال والخبال)[1] .

ومع ذلك فنحن نرى أن الدلالات المتكاثرة تمثل ما هو فوق الحد الأدنى من الدلالة المطلوبة .

إن الحد الأدنى موجود فى بداية الرسالة ، ونحن نجد هذ الحد الأدنى فى : سيرة الرسول قبل الدعوة بصفة عامة .. وفى تقرير السيدة خديجة عنه عندما صدقته وفى كلام هرقل لأبى سفيان وفى مقتطفات من استجابة السلف الأوائل .

(هـ) المنطق العملى عند المسلمين الأوائل

هذا هو المنطق العملى الذى دل على صدقه عند اتباعه .. نجد أمثلة له فيما يأتى :

بعد أن بدىء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالوحى ورجع إلى خديجة يرجف فؤاده ويقول : زملونى وأخبرها الخبر وقال : لقد خشيت على نفسى .

قالت له : كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا .. لماذا ؟ .. قالت : (إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق) .

---

(١) شرح المقاصد جـ ٢ ص ١٨٨ .

وفى خبر الجلندى ـ ملك عمان ـ لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام قال الجلندى : والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له وأنه يَغلب فلا يبطر . ويُغلب فلا يضجر ، ويفى بالعهد . وينجز الموعود . وأشهد أنه نبى) .. وفى نطاق هذا المنطق العملى أيضا جاء ماروواه مسلم وغيره : أن ضمادا ـ وهو ابن ثعلبة من أزد شنوءة كان صديقا للرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ـ لما وفد على النبى قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ـ ورسوله ، فقال ضماد : أعد على كلماتك هؤلاء ، فلقد بلغن قاموس البحر هات يدك أبايعك) ..

وفى هذا النطاق العملى أيضا المتأثر بشخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء ما رواه الترمذى بسنده عن عبد الله بن سلام قال : لما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة . جئته لأنظر إليه ، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب) ..

وفى هذا النطاق أيضا جاء ما رواه ابن سعيد ـ انظر شرح الشفاء جـ٢ ص ٧١٠ وما بعدها ـ عن أبي رمثة التيمى . (قال : أتيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعى ابن لى فأريته ، فلما رأيته قلت : هذا نبى الله) ..

وعندنا مثال من هرقل عندما بلغته الدعوة ، وأخذ يسأل عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفدا من العرب ، لم يكونوا قد أسلموا ، وعلى رأسهم أبو سفيان سأل أبا سفيان الذى قال عن نفسه : (فو الله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عليه) .

يقول هرقل : (سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب .. وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .. سألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتى بقول قيل قبله فذكرت أن لا وسألتك هل كان من آبائه ملك ؟ فذكرت أن لا .. قلت : لو كان من آبائه من ملك ، قلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا .. فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه .. وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون . فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا .. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب وسألتك هل يغدر ؟ ، فذكرت أن لا وكذلك

الرسل لا تغدر ، وسألتك بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين .. وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه . ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه) . هذا مثال للبحث .. قائم على المنطق العملى .

(و) نظرة المستشرقين

وقد يهمس هامس ، أو قد يصخب صاخب : وماذا عن الطعون التى وجهت إلى شخصية (الرسول صلى الله عليه وسلم) من طائفة من المستشرقين وأتباعهم والجواب على ذلك فى غاية اليسر : لأنا نقول ؟ لقد تكفل المستشرقون بعضهم ببعض[١] ، فما من طعن وجه إلى الرسول من أحدهم إلا وجاء الرد عليه مفحما قاطعا من آخر . حتى إنه لم يبق من هذه الطعون بقية إلا وقد اقتلعت من جذورها ، ولتذهب هذه الطعون علامة على أكذوبة البحث عند أصحابها ، وسبة فى تاريخ الاستشراق الموتور .

ويكفى أن نشير هنا إلى ما ذكره المستشرق هنرى دكاسترو عن تاريخ التعصب لدى المستشرقين ، وأنهم لم يبدأوا فى البحث عن الإسلام بغير تعصب إلا فى زماننا هذا فى القرن التاسع عشر على حد تعبيره . ثم قوله : (وأول ما دار البحث فيه مسألة صدق النبى فى رسالته وقد قلنا إن ذلك متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب) ..[٢]

ونشير أيضا إلى ما قاله اللورد هيدلى : (نحن نعتبر أن نبى بلاد العرب الكريم ذو أخلاق متينة ... ولم يرفيها أقل نقص أبدا ، وبما أننا فى احتياج إلى نموذج كامل يفى بحاجتنا فى خطوات الحياة ، فحياة النبى المقدس تسد تلك الحاجة)[٣] .

كما نشير إلى ما كتبه توماس كارليل فى كتابه الشهير ، الأبطال .. ـ عن محمد صلى الله عليه وسلم ومن ذلك قوله : (لقد أصبح من العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمدا خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من

---

(١) انظر ما كتبه الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه أوروبا والإسلام وبخاصة ما جاء تحت عنوان (تخبط المستشرقين) .
(٢) خواطر وسوانح للكونت هنرى دى كاسترو . ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا نشرة دار الفرجانى ص ٢٠
(٣) أوروبا والإسلام للدكتور عبد الحليم محمود طبعة الأهرام عام ١٩٧٣ ص ٦٢

مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا)[1] ..

وإذا كان المستشرق المعاصر مونتجو مرى وات يعترف بأن العصور الوسطى شوهت تعاليم الإسلام فى نقاط أربعة رئيسية منها ما يتعلق بشخصية محمد ويقرر أن الدراسات الموضوعية الحديثة قد اختلفت فى هذه النقاط مع صورة الإسلام فى العصور الوسطى الأوروبية . فإنه ليذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول : (إننا فى عالم اليوم وبفضل ما أسهم به فرويد من أفكار نعلم جيدا أن الظلمة التى ينسبها المرء إلى أعدائه ما هى إلا إسقاط للظلمة الكامنة فيه هو والتى لا يريد الاعتراف بها . وعلى ذلك فإنه ينبغى علينا أن ننظر إلى الصورة الشائهة للإسلام باعتبارها إسقاطًا لما اكتنف عقول الأوروبين من جهالة) .. (وإنها ترمز للشرور القائمة فى أوروبا ذاتها)[2] .

إعلان فلسفة التسليم

وهنا نقرر أن الفكر الإسلامى يمكنه أن يعلن ما يمكن أن يسمى : فلسفة التسليم . ذلك أن المتعرض للدعوة بعد أن يتعرض للإنذار : فيدفعه الإنذار دون إبطاء أو تعويق لمنطق الإنذار نفسه إلى التعرض لعوامل تصديق الرسول كما سقنا على النحو السابق يجد نفسه مضطرا عمليا إلى التسليم .

فينطق بالشهادتين كما طلبهما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ (أشهد أن لا إله الا الله) . (وأشهد أن محمدًا رسول الله) .. فيكون مسلما وهذا هو التسليم الذى يدعو الإسلام إليه الإنسان .

يقول تعالى : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) .. ٥٤ الزمر .

ويقول تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ٦٥ النساء .

---

(١) الأبطال : ترجمة محمد السباعى نشر المكتبة التجارية جـ١ ص٩٦ .
(٢) فضل الإسلام على الحضارة الغربية لمونتجمرى وات ترجمة حسين أحمد أمين طبعة دار الشروق عام ١٩٨٣ ص ١٠٠ ، ص١١٣ .

ويقول تعالى : (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ١١٢ .. البقرة .

ويقول تعالى : (فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا) ١٤ الجن .

ويقول تعالى : (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) ١٣١ البقرة .

ويقول تعالى : (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) ٨٣ آل عمران .

ويقول تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) ١٩ آل عمران .

ويقول تعالى : (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور) ٢٢ سورة لقمان .

ويقول تعالى : (قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) ٧١ ـ الأنعام .

والمسلم بهذا : يختار الكائن الذى يسلم نفسه له وهو (الله) بينما غيره (يسلم) نفسه ـ دون أى اختلاف فى المنهج ـ لغير الله .

يسلم الفيلسوف نفسه (للعقل) لا لبرهان وإنما للضرورة العملية ويسلم (المادى نفسه للطبيعة) لا لبرهان أو تجربة وإنما للضرورة العملية ويسلم (اللا أدرى ، نفسه لعمل أعمى ، واقعا بذلك فى اختيار لا مفر منه بحكم الضرورة العملية) .

ويصبح موقف المسلم بين هؤلاء هو الموقف الوحيد الذى تكون فيه النجاة فى الدنيا والآخرة ، وهو أيضا الموقف الوحيد الذى يسترجع به الثقة فى (العقل) و (التجربة) و (الأشياء) جميعا .

ومن هنا يتبين لنا أن الضرورات العملية ليست متساوية الدرجة أو القيمة إن هناك أنواعا من الإيمان لا مبرر لواحد منها إلا فى الضرورة العملية فهى الأساس الذى يقوم عليه الإيمان العقلى ، أو العقل .. وهى الأساس الذى يقوم عليه الإيمان العلمى ـ أو العلم .

وهى الأساس الذى يقوم عليه الإيمان العملى ـ أو العمل .

وهى الأساس الذى يقوم عليه الإيمان الدينى ـ أو الدين .

ومن ثم فإنه لا يجوز لنوع من أنواع الإيمان هذه أن ينكر على الآخر أساس وجوده طالما يقوم على نفس الأساس الذى يقوم عليه صاحبه ـ وهو (الضرورة العملية) .

وتتميز بعد ذلك الضرورة المتمثلة فى الإيمان بالله ورسوله بأنها هى وحدها التى تغطى جانب الحياة فى الدنيا والآخرة كما تتميز بأنها وحدها التى تضمن فى إطارها ضرورات الإيمان بالعقل والذات والوجود وضرورات الإيمان بالنظر، والعلم والعمل .

والمسلم بذلك التسليم يضع قدمه على أول الطريق ، طريق تلقى المعرفة الإلهية ..

١ ـ من مصدرها الذى هو سبحانه وتعالى .

٢ ـ إلى موردها الذى هو الإنسان بقواه المختلفة .

٣ ـ صاعدا بذلك من الظن إلى اليقين .

٤ ـ وفقا لقوله تعالى ـ من غير تأويل بعيد : ـ (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ٩٩ الحجر . صدق الله العظيم .

خاتمة

وأخيرا .. ونتيجة لما تقدم فإننا نقرر أمورا على جانب كبير من الأهمية .. تلك هى أن الطريق المعتمدة للوصول إلى معرفة صدق الرسول تقوم على الفلسفة الوحيدة التى يسمح بها الإسلام أو يشجعها ، وهى ما نسميه ، الفلسفة العملية ، وتلك طائفة من مبادئها نجدها فى علم أصول الفقه على الخصوص .

وأن العقل الذى يحترمه الإسلام هو ما يمكن أن نسميه ، العقل العملى ، الذى عرفه علماء الكلام أنفسهم بأنه : (قوة التصرف فى الموضوعات واستنباط الصناعات وتمييز المصالح من المفاسد لانتظام المعاش والمعاد ..) .

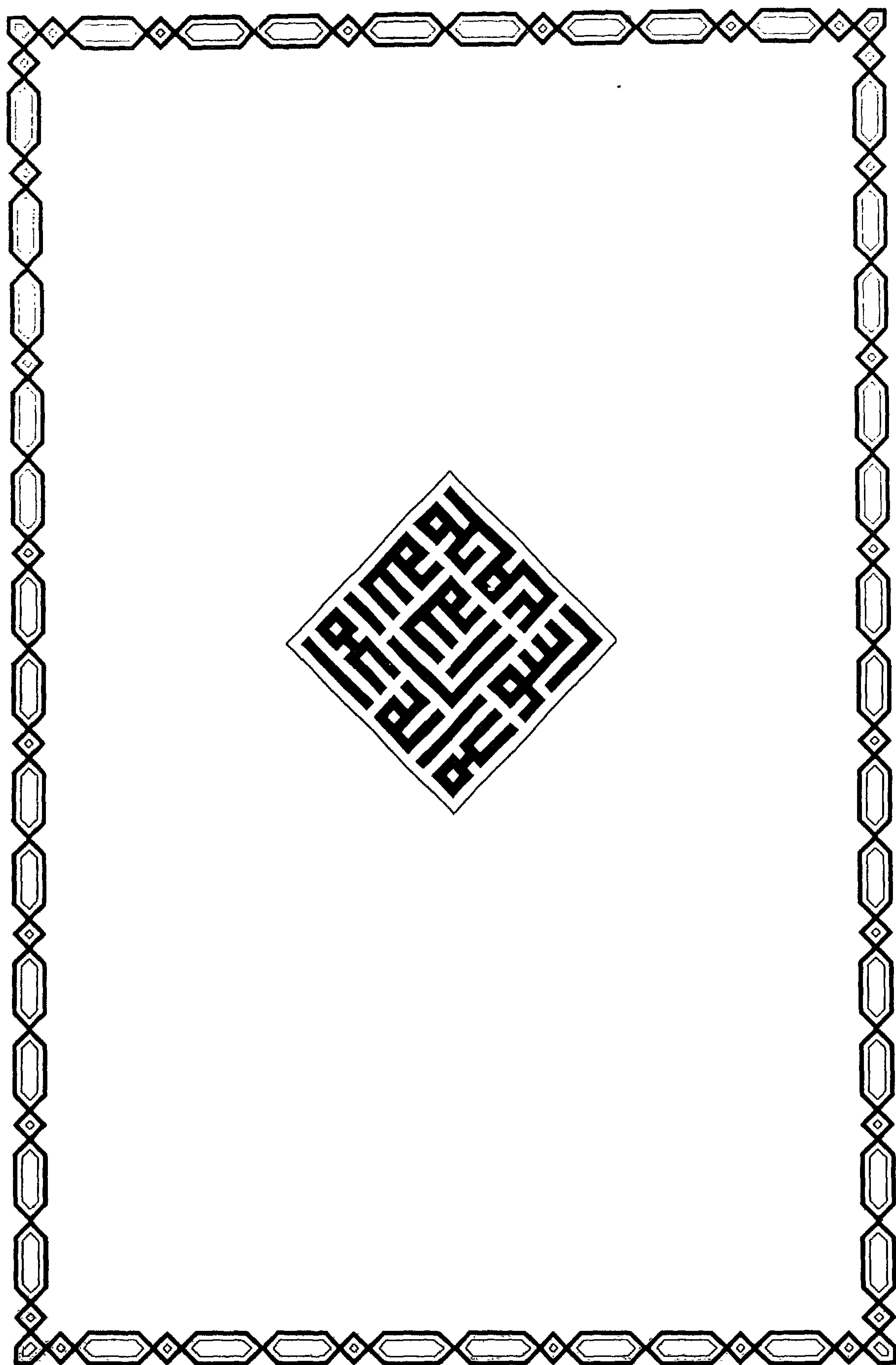
وأن ، (الاعتقادات) ، وفقا للمنهج الإسلامى هى عمل ، أو أصل لعمل أو ثمرة لعمل . منذ اللحظة الأولى التى يعلن فيها الإسلام عن نفسه وأن «الإنذار» الذى اطرد مجيئه واستفاض فى رسالات الرسل لم يكن محض تهديد ، أو نفثة غضب على العصاة وإنما هو باب رحمة فتح لهم قبل أن تقع الواقعة ، وهى الواقعة التى لا ينجو فيها إلا من اتجه إلى طريق النجاة ، وأن لهذا الإنذار منطقه وعناصره وشروطه وهى تنتسب جميعا إلى الفلسفة العملية للإسلام ويمكن أن نطلق عليها فلسفة الإنذار تفريعا (فلسفة الإسلام : العملية) .

وأن هذا الاتجاه العملى لم يكن مجرد فصل أول من فصول الدعوة الإسلامية قضت به ضرورة موقوتة ، سوف تأتى من بعده فصول وفصول ، تتطور بتطور الأفراد والجماعات .. وإنما

هو اتجاه ذاتى فى صلب الرسالة الإسلامية ، وأى تعديل فيه أو إضافة إليه تكون زائفة أو مؤقتة أو مضللة .

ويبقى للإسلام روحه الأصلية وفلسفته الخاصة ، التى تتمثل فى شخصية الرسول وسيرته صلى الله عليه وسلم لتظهر أعماق الإسلام : ولتلتقى فى نفس الوقت مع أعماق الإنسان ، فى أرقى العصور .

وبالله التوفيق ...



بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وقيمه الحضارية

الأستاذ الدكتور
رؤوف شلبي

أولا ـ النسب الزكي وخصائصه :

إن الدراسات الحديثة فى الوراثة والاستيراتيجية تضع معيارا لقياس السلوك المنتظر للزعماء والقادة الذين يتقلدون زمام الأمور فى دول العالم الحديث .

فبمقدار ما يتحمله الزعيم من خصائص فى الوراثة والأخلاق بمقدار ما يتكهن له الدارسون من سلوك وممارسات .

وأصبح من المعروف فى معاهد الدراسات الاستيراتيجية أن علم الوراثة وعلم الأخلاق من الأصول التى ترتكز عليها الدراسات الاستيراتيجية المتعلقة بالتنبؤ لممارسات الزعماء الذين يتولون جديدا مقاليد الأمور فى بلد ما .

وسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان باصطفاء الله له رسولا خاتما فهو أعلى وأكرم من أن يقاس بمقاييس علماء الاستيراتيجية الحديثة ـ غير أنه قد يكون من المقبول علميا أن ننشر على الناس خصائص نسبه الذى اختصه الله به ليكون ذلك نبراسا فى تفهم القيم الحضارية التى أرساها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مجالات كثيرة من مجالات الحياة لأنه أسوة وقدوة .

فيكون نسبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما قرره من قواعد فى القيم الحضارية هو الأصل الذى ترتكز عليه الحياة الإسلامية فى دنيا المسلمين قاطبة .

ويختص نسب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدة خصائص فى مقدمتها :

* البقاء إلى جوار البيت الحرام . والتمسك بملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ .
* الفروسية . * شرف النفس . * حفظ الأسرار .
* العناية بمكارم الأخلاق . * الرحمة بالضعاف .

وبيان ذلك :

(أ) البقاء إلى جوار البيت الحرام

إن عدنان هو : الجد الذى يثبت إليه نسب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ علميا وتاريخيا .

* لقد ولد لعدنان ولدان :

● عك بن عدنان . ● ومعد بن عدنان .

أما عك فقد : نزح إلى اليمن وتزوج من الأشعريين .

وأما معد فقد : استقر بمكة مجاورا بيت الله الحرام الذى رفع قواعده سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أصل هذه الدوحة الشريفة .

* ثم ولد له : نزار ، وقضاعة ، وقنص

أما نزار فقد : استقر بمكة .

وأما قضاعة فقد : انتقل إلى حمير فى بلاد سبأ .

وأما قنص فقد : هلك .

* ثم كان من نزار أولاده : ربيعة ، وأنمار ، وإياد ، ومضر .

لم يستقر واحد منهم إلى جوار البيت الحرام سوى : مضر . ومن خصائص مضر أنه : ما رآه أحد إلا قدره وأحبه ، فهو صاحب كنف موطأ .

فسلسلة النسب الزكى مستقرة حول البيت العتيق ، فهو جوار طاهر فى كنف بيت عتيق معَظَّم فى آباء ممجدين مؤثلين .

* ثم كان من مضر ولداه : غيلان ، وإلياس .

أما غيلان فقد : أفسد الدين .

وأما إلياس فقد : صان ملة إبراهيم وحافظ على الشرائع التى ورثها البيت الإسماعيلى من جدهم إبراهيم ، واسماعيل ـ عليهما السلام ـ .

* تقول مصادر السيرة النبوية المعتمدة :

إن إلياس أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام وكان فى العرب مثل : لقمان الحكيم فى قومه[1] .

(ب) الفروسية :

* ومن إلياس كبير قومه كان ثلاثة نفر : عامر ولقبه : مدركة .

وطابخة .

وقمعة .

كان عامر «مدركة» هو : الفارس المقدام الشجاع وهو الجد فى السلسلة الشريفة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستحق هذا اللقب لأنه . أدرك كل عز وفخر .

أما الآخران فقد : كانا كسولين .

(جـ) حفظ الأسرار :

* ثم ولد له : خزيمة . وهزيل .

وكان خزيمة : أشرف الناس نفسا فأنجب أربعة : كنانة ، وهى التى : اصطفاها الله من ولد إسماعيل . وكان أسد . وأسدة . والهون .

وكان كنانة هو : جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد اختص بأنه يكن ويحفظ أسرار الخلق وهى صفة أمانة الأسرار للمجتمع .

تقول المصادر الموثوق فيها علميا :

قيل له كنانة : لأنه لم يزل فى كِنٍّ قومه بستره على قومه وحفظه لأسرارهم ، وكان شيخا حسنا عظيم القدر تحج إليه العرب لعلمه وفضله ، وكان يأنف أن يأكل وحده .

* ثم كان منه : النضر . ومالك ، وعبد مناف . وملكان .

وسمى النضر : لنضارته ، وحسن طلعته ، وبهائه .

(د) البحث عن مكارم الأخلاق :

* ثم كان من النضر مالك ، ويخلد .

يقولون فى المصادر الوثيقة للسيرة : سمى مالكا لأنه : ملك أمر العرب .

---

(١) «السيرة الحلبية» جـ ١ ص ١٦ ـ ١٧ .

* ومنه كان فهر، وفهر هذا هو : قريش وسمى بذلك : لأنه كان يقرش: يعنى يفتش عن خلة حاجة المحتاج ليسدها ويقيل عثرته ، وكان أبناؤه من بعده يقرشون أهل الموسم بمعنى : أنهم يقضون لهم حوائجهم .

* ومن فهر كان أبناؤه : غالب . ومحارب . والحارث ، وأسد .

وكان غالب هو : جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه كان يغلب على الحق .

* ومن غالب كان : لؤى ، وتميم .

وكان لؤى هو : جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومنه : كان كعب . ومنه : كان مرة . ثم كان كلاب . وكان كعب يجمع قومه يوم العروبة وهو يوم الجمعة أو يوم الرحمة ويقال : إنه أول من سمى يوم الجمعة بذلك لاجتماع قريش فيه إليه .

وكلاب : اكتسبها من كثرة استخدامه لكلاب الصيد . واسمه : حكيم .

وكلاب هو مجمع جدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبيه وأمه لأنه أنجب : قصى : جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبيه ، وزهرة : جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمه .

ومن خصائص قصى :

الحجابة : وهى حراسة الكعبة .

الرفادة : إطعام أهل المواسم فى الحج .

اللواء : حق إعلان الحرب وعقد الجيوش .

السقاية : سقاية الحجيج الماء بلا مقابل .

الندوة وهى : الشورى .

* ومن قصى كان أولاده : عبد مناف وهو جد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعبد الدار ، وعبد العزى ، وعبد قصى .

أما عبد مناف فقد : امتاز فى ظل والده بالوقار والاحترام لذاته .

وكان عبد الدار هزيل المقام فرأى قصى أن يعطيه شيئا من الشرف فوزع وظائفه على أولاده ، فأعطى عبد مناف السقاية والرفادة ، وهى صفات : الكرم والجود والسخاء المتكرر الدائم . وأعطى عبد الدار اللواء ليرفع من ضعفه .

(هـ) الرحمة بالضعفاء :

* ثم كان من عبد مناف رجال هم : هاشم ، والمطلب . وعبد شمس ، ونوفل .

وكان هاشم كريما يحفظ له التاريخ أن قريشا أصابتها مخمصة وهو فى بلاد الشام فاشترى دقيقا وكعكا . وقَدِم مكة فهشم الخبز والكعك ونحر الجزر وجعله ثريدًا . وأطعم الناس حتى أشبعهم فسمى لذلك : هاشما .

يقول الكاتبون القدامى : كان هاشم يحمل ابن السبيل ويؤمن الخائف ثم وَرَّث هاشم خصائصه فى العدل الاجتماعى إلى المطلب أخيه . ثم ورثها عبد المطلب بن هاشم من عمه المطلب .

وعبد المطلب له خصائص أضفت عليه ألقابا فهو : مطعم طير السماء . وهو : شيبة الحمد وهو رجل مجاب الدعوة كانت قريش تستسقى به مطر السماء وسمى لذلك : بالفياض .

* ومن عبد المطلب كان عبد الله الذى جعل الله منه المصطفى الخاتم سيدنا محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى حمل من أرومته هذه الخصائص العليا .

ـ الجوار إلى بيت الله العتيق والبقاء على ملة إبراهيم الحنيف .

ـ الفروسية والإقدام والشجاعة .

ـ شرف النفس وعلو الهمة .

ـ حفظ الأسرار والأمانة .

ـ مكارم الأخلاق وفضائلها .

ـ رعاية الضعفاء وحماية المحاويج .

وبهذه الخصائص الوراثية التى تعتبر قاعدة فى الدراسات الاستيراتيجية يكون سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على السنام من ذروة المجد والشرف المؤثل لجميع زعماء العالم قديما وحديثا ، وإذن فما هرطق به قليلو الثقافة وضعفاء التفكير من المستشرقين وكتاب الغرب الحاقدين من أمثال : لا مانس ، ومستر موير ، ودر منجم ، إنما هو محض افتراء مزيف لا يعتمد على توثيق من مصدر أمين ، ولا يصدر من عقل محترم لنفسه يعرف أصول النتائج من مقدماتها ، ولا سيا ، ما قاله الكاتب الفرنسى «مسيو جاستون فييت» .

فما هو إلا استخفاف بالعقلية العلمية وزاد لمحبى ومروجى الإشاعات والأكاذيب من كتاب يحبون الجهل الماجن على العلم الموثق .

ونحن العرب المسلمين بما لنا من أمجاد فى الفتح الإسلامى والحضارة العالمية نثق كل الثقة فى أصول البيت النبوى الكريم الشريف ، وفى القيم الحضارية التى تدثرت به والتى انبثقت عنها .

ثانيا ـ القيم المنبثقة عن النسب الزكى :

(أ) رفعة النسب وعدالة الحكم :

القيمة الحضارية الأولى المنبثقة عن هذا النسب أن العدل فى الحكم لا يتحقق بصورة جدية وصادقة إلا إذا كان نسب الحاكم نقيا شريفا لأن عوامل الوراثة فيه ترجح جوانب العدالة على ما يناقضها من خلال فى الذات وفى السلوك.

وحول هذا ينبغى أن يفهم معنى الحديث الشريف «الإمامة فى قريش» وبقية الأحاديث التى تثبت شرف النسب الزكى مما رواه مسلم : «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من بنى قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم».

وما رواه البيهقى عن الحاكم قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

«إن الله أخرجنى من النكاح ولم يخرجنى من السفاح».

ولقد شهدت الحياة الإنسانية قلقا فى كثير من الأنظمة فى مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والإدارية لتخلف المجتمعات الإنسانية عن هذه القيمة الحضارية.

ويبقى للإسلام وحده أنه الذى يحافظ على القيم الحضارية فى إحقاق العدل عن طريق طهارة الوراثة، وفى الحديث الشريف : «أنا جد كل نقى».

ولذا فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوصى جماعة المسلمين باختيار هذا النقاء فى الأصول فيقول : «إياكم وخضراء الدمن» «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

(ب) استمرارية النقاء لضمان استمرارية إقامة العدل :

وقد فهم بعض المفسرين قول الله تعالى : «وتقلبك فى الساجدين» هو انتقال الوراثة فى أصلاب أجداد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جد طاهر نقى مؤمن إلى جد مثله فى الطهارة والنقاء والإيمان.

ولذا فإن وصية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجماعة المسلمين : «إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل». فالإدامة على الطاعة تمنع وقوع المعصية، وإن قلت الطاعة كمًا فإنها كطاعة تبقى كيفا محصنا من الوقوع فى المعاصى. وهو قدر كاف فى استمرارية النقاء والطهر.

وفى السنة : «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل» متفق عليه.

فالدوام على الطاعة : يوجد رأيا عاما اجتماعيا يتحول إلى ضبط اجتماعى يعقبه انضباط فى السلوك الأخلاقى والعمل الإدارى ومحاسبة النفس .

(جـ) مكارم الأخلاق غاية نبيلة لاحترام الكيان البشرى :

فإذا ما دعا محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكارم الأخلاق فإن له من أرومته وأجداده أصلاً وسندًا .

وعندما تشهد أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ بأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« كان خلقه القرآن » .

كانت دعوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمكارم الأخلاق لها أصل فى أرومته، ولها سند فى تطبيقاته وسلوكه .

والقيمة الحضارية أن من يعلن شعارًا عليه أن يجد له فى سلوكه سندًا وله فى أصله تاريخ .

وإذن فمقياس صدق الزعماء وميزان الحكم عليهم ليس هو الشعار الذى يرفع ولا الكلام الذى يقال ولكن العمل الذى يصدر عنهم ، والأصل الذى يتواءم مع السلوك الذى يمارسونه وقديما قالت العرب : «كل إناء بما فيه ينضح» .

وهو مثل مضطرد لا يتخلف حسب وقائع الأحداث فى التاريخ .

وقديما قال الشاعر :

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا   كيما يصح به وأنت سقيم
لاتنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وقد سجل القرآن الكريم هذه القيمة الحضارية فقال الله ـ جل شأنه ـ :

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم .. » « سورة البقرة : ٤٤ » .

وفى حياة الدعوة والداعية الصادق جعل الله قوله متأخرا على ممارساته .

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » « سورة فصلت : ٣٣ » .

ثالثا ـ الممارسات الحضارية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

من الممارسات الحضارية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شمائله التى لا تحصى ولا تعد ، ولكن

سنا من شعاعها تلقيه هنا كعلامة على الطريق .

● **عدله** : ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد شهدت به قريش من قبل البعثة فقد ارتضوه حكما يوم وضع الحجر الأسود فى الكعبة .

وإذا كان الفضل ما شهد به الأعداء فقد قال النضر بن الحارث لقريش :

« قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر . لا والله ما هو بساحر » .

تقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « ما خير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمرين الا اختار أيسرهما مالم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه »[1] .

* * *

● **وكرمه** : فقد ثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجود الناس . وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجود بالخير من الريح المرسلة[2] .

وفى الآثار الوثيقة : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما سئل عن شىء ، فقال : « لا »[3] .

يقول أنس ـ رضى الله عنه ـ : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا يدخر شيئا لغد » .

* * *

● **العفو عند القدرة** : ومن كرمه النفسى عفوه عند قدرته على أخذ الحق ممن ظلمه وموقفه الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم فتح مكة[4] مشهور ، وموقفه من الرجل الذى اخترط السيف عليه وهو نائم وقال : من يمنعك منى .

---

(١) راجع « الشفاء » للقاضى عياض جـ ١ ص ٨٢ طبع مطبعة الحلبى .

(٢) ، (٣) « الشفاء » جـ ١ ص ٦٥ .

(٤) « إمتاع الأسماع » جـ ١ ص ٣٨٦ .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الله » فوقع السيف من يد الرجل فعفا عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ[1] .

تقول السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « ما رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منتصرا من مظلمة ظلمها قط مالم تكن حرمة من محارم الله ـ وما ضرب بيده شيئا قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما ضرب خادما ولا امرأة » .

وجىء إليه برجل فقيل : هذا أراد أن يقتلك ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لن تراع ـ لن تراع ـ ولو أردت ذلك لم تسلط على » .

* * *

● **أمانته على رعيته** : جاء رجل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأله ، فقال له : « اجلس سيرزقك الله » ، ثم جاء آخر، ثم آخر ، فقال لهم : « اجلسوا » فجاء رجل بأربع أواق فأعطاها إياه ، وقال يا رسول الله : إن هذه صدقة، فدعا الأول فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثانى فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثالث فاعطاه أوقية ، وبقيت معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوقية واحدة فعرض بها للقوم فما قام أحد ، فلما كان الليل وضعها تحت رأسه فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلى .

فقالت عائشة ـ رضوان الله عليها ـ : يا رسول الله هل لك شىء ؟ قال « لا » .

قالت فجاءك أمر من الله ؟ قال : « لا » .

قالت : إنك صنعت منذ الليلة شيئا لم تكن تفعله فأخرجها وقال : « هذه التى فعلت بى ماترين إنى خشيت أن يحدث أمر من أمر الله ولم أمضها »[2] .

* * *

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سفر مع أصحابه فأمر أصحابه أن يهيئوا الطعام بإصلاح شاة ، فقال رجل : يارسول الله عَلَىَّ ذبحها ، وقال آخر : عَلَىَّ سلخها ، وقال آخر : عَلَىَّ طبخها .. فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وعَلَىَّ جمع الحطب » .

فقالوا : يارسول الله نكفيك العمل .

---

(١) الشفاء » جـ ١ ص ٦٢ ـ ٦٣ .
(٢) راجع « محمد المثل الكامل » للمرحوم محمد أحمد جاد المولى ص ٢٦ .

فقال : « علمت أنكم تكفوننى . ولكن أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يكره من عبده أن يراه متميزا على أصحابه » .

وكتب الشمائل زاخرة بخصائصه الشريفة التى تؤكد فى أسلوب علمى الممارسات الحضارية التى انبثقت عن النبوة الخاتمة والتى يقوم على منوالها مجتمع الأمن والرخاء والاحترام لجميع أفراد المجتمع .

وتحضرنى مقالة عالم بوذى من علماء جنوب شرقى آسيا وهو يصور إعجابه الشديد بشخصية سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول : كان محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكمل زعماء العالم قاطبة لأنى أجد فى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلالا مختلفة وأخلاقا جمة وخصالا كثيرة لم أرها اجتمعت فى تاريخ العالم لإنسان واحد فى آن واحد .

فقد كان ملكا دانت له أوطانه كلها يصرف الأمر فيها كما يشاء . وهو مع ذلك متواضع فى نفسه يرى أنه لا يملك من الأمر شيئا . وأن الأمر كله بيد ربه . وتراه فى غنى عظيم تأتيه الإبل موقورة بالخزائن إلى عاصمته ، ويبقى مع ذلك محتاجا ولا توقد فى بيته نار لطعام الأيام الطوال . وكثيرا ما يطوى على الجوع .

وتراه قائدا عظيما يقود الجند القليل العدد الضعيف العدد فيقاتل بهم ألوفا من الجند المدجج بالسلاح الكامل ثم يهزمهم شر هزيمه .

ومع ذلك نجده محبا للسلام يؤثر الصلح ويوقع شروط الهدنة على القرطاس بقلب مطمئن ، وجأش هادئ ومعه ألوف الصحابة وكل منهم شجاع مقدام باسل ، وصاحب حماسة وحمية تملأ جوانحه .

وتشاهده بطلا شجاعا يصمد وحده لآلاف من أعدائه غير مكترث بكثرتهم وهو مع ذلك رقيق القلب رحيم رءوف متعفف عن سفك قطرة دم .

وتراه مشغول الفكر بجزيرة العرب كلها بينما هو لا يفوته أمر من أمور بيته وأولاده ، ولا من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم ، ويهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم وصدوا عنه فيحرص على إصلاحهم .

وبالجملة إن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنسان بمعنى الكلمة يهمه أمر العالم كله وهو مع هذا متبتل إلى الله منقطع عن الدنيا فهو فى الدنيا وليس فيها لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضى الله ، لم ينتقم من أحد قط لذات نفسه ، وكان يدعو لعدوه بالخير ويريد لهم الخير لكنه لا يعفو

عن أعداء الله ولا يتركهم ، ولا يزال ينذر الذين قد صدوا عن سبيل الله .

إنك تراه ـ صلى الله عليه وسلم ـ زاهدًا فى الدنيا عابدًا يقوم الليل لذكر الله ومناجاته كما تحكى شمائله أنه الجندى الباسل المقاتل . وتراه رسولا حصيفًا ونبيًا معصومًا وفى الساعة التى تراه فاتحا للبلاد ظافرًا بالأمم تجده يضطجع على حصير من خوص . ويتكئ على وسادة حشوها من الليف الخشن .

وإذا خطر لبال أحد أن يدعوه بسلطان العرب يكون أهل بيته فى فاقة وشدة عقب استقبالة الأموال العظيمة الآتية إليه من أنحاء الجزيرة العربية فيضعها فى فناء المسجد أكواما ويوزعها على أهل الحاجة . وتأتيه بنته وفلذة كبده فاطمة تشكو إليه ما تكابده من حمل القربة والطحن بالرحى والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ يقسم بين المسلمين ما أفاء الله عليه من عبيد وإماء فلا تنال ابنته من ذلك إلا الدعاء لها بكلمات يعلمها إياها كيف تدعو بها ربها .

وجاء عمر ذات يوم إلى حجرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأجال بصره فيها فلم يجد إلا حصيرا من خوص ، وكل ما كان فى البيت صاع من شعير فى وعاء ، وعلى مقربة منه شن معلق على وتد .. هذا كل ما كان يملكه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يتمالك عمر من البكاء .

فقال له الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « ما يبكيك يا عمر؟ »

فقال عمر : وما لى لا أبكى : إن قيصر وكسرى يتمتعان بالدنيا وينعمان بنعيمها ، وإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يملك إلا ما أرى ؟ ! !

فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أما ترضى يا عمر أن يكون ذلك نصيب كسرى وقيصر من نعيم الدنيا وتكون لنا الآخرة خالصة من دون الناس » ؟ .

ومما لا ريب فيه أنه لا يستحق إنسان أن يكون قدوة للعالم فى جميع مناهج الحياة إلا إذا اجتمعت فيه مثل هذه الخلال الشريفة كلها والخصال الإنسانية الكاملة بأجمعها مما يحتاج إليه الناس كافة فى معايشهم فتكون لهم فى سيرته أمثلة كثيرة وفى هديه أمور متنوعة تستنير بها كل طوائف الإنسانية ، وكل فرقة من أمة البشر فيتخذونه فى أنفسهم سننا وأدبا ومناهج من حياته الشريفة لحياتهم الاجتماعية والعائلية .

وبذلك يكون الشخص العظيم المقتدى به هاديا للناس بأعماله وأخلاقه وخصاله (١) .

---

(١) بتصرف عن « الرسالة المحمدية » للسيد سليمان الندوى ص ٨٧ ـ ٨٩ .

تلك شهادة رجل شرقى من بلاد الهند وهو على ملة نضعها فى مواجهة تهافت الفكر الأوربى الذى يتعرض لأمور بيته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيطعن أو يسب وهو يدعى زورا الحيدة العلمية فى البحث ليصدقه من أحب أن يستخف عقله باسم الاستشراق أو العلمانية .

فهل يستطيع أحد من زعماء العصر الحديث أن يقيم من نفسه فى المجال الحضارى قدوة أى قدوة لشعبه مثلما كان محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للعالمين قدوة حسنة ؟ .

إن آخر جملة تتحدى بها الحضارة الإسلامية جميع نظم الحضارات أن سيدنا محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فى أخريات حياته : « من كنت قد جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه » . فلم يجد واحدًا من جموع الأمة يقول له ـ صلى الله عليه وسلم ـ لى عندك قود رغم طول الممارسات السياسية والعسكرية والاجتماعية .

وهذا هو مفهوم رجل الدولة الحضارى . وهو الأمر الصعب الذى لا يستطيع الحصول عليه رجل دولة فى القديم أو فى الحديث .

فالعبرة فى نظم الحكم إذن ليست هى الثيوقراطية أو الديمقراطية أو الديكتاتورية بل هى لغة الحضارة الجادة . ورجلها صاحب الشمائل الرفيعة الذى يصلح أن يكون قدوة حسنة لجميع الناس .

رابعا ـ الجوانب الإنسانية والإيمانية فى زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

زوج الله ـ جل جلاله ـ نبيه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عددا من الزوجات هن أمهات المؤمنين . وعند حد معين . قال الله ـ جل جلاله ـ لنبيه المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبًا » سورة الأحزاب : ٥٢ .

فتزويج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تكليف إلهى مثل اصطفائه للنبوة .

ومع هذا فقد أعطى بيته حقه كاملا فهو يرعاه كما يرعى سائر أحوال الأمة لا يصرفه عن رعايته شأن من الشئون ، ولا يصرفه رعاية بيته الشريف عن شىء من أمور المجتمع والدولة والوحى ، وهذه نقطة إعجاز يعرفها من يسمون حديثا بكبار رجال الدولة والذين ينصرفون عن شئون بيوتهم لكثرة مشاغلهم أو يسهون عن واجباتهم لا نشغالهم بشئون بيوتهم .

أما محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يشغله شىء عن شىء فقد اتسع بفضل الله وقته وجهده

لجميع الشئون الخاصة والعامة فى لحظات العسر واليسر على السواء ، وكان للبيت النبوى «بروتوكول» خاص :

١ ـ كان يزور كل زوجاته كل يوم .

٢ ـ ويبيت عند من كانت ليلتها بقسمها، فيقول صاحب « زاد المعاد » : وكان يطوف على نسائه .

وفى مسلم من حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ : «كان للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تسع نسوة ، فكان إذا قسم بينهن لا ينتهى إلى المرأة الأولى إلا فى تسع فكن يجتمعن كل ليلة فى بيت التى يأتيها ..» .

٣ ـ وكان يقرع عند السفر بين نسائه. فقد جاء فى « زاد المعاد » : وكان إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه[1] .

٤ ـ وكان إذا غاب فى السفر لا يطرق أهله ليلا وأحاديث النهى عن ذلك رواها البخارى ومسلم من حديث جابر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلا » .

ومن حديث أنس عند الشيخين : «كان لا يطرق أهله ليلا ، وكان يأتيهم غداة أو عشية » والدليل على انسجام هذا البروتوكول لبيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن واحدة من أمهات المؤمنين لم تتمرد عليه كما يحدث عادة فى بلاط الملوك وقصور الرياسات فى العالم قديما وحديثا .

وهذه هى آية الإعجاز فى هذا الزواج : إن الرجل العادى الذى يدعى الاتزان لا يقدر على إرضاء زوجته لا فى حياته وبالطبع بعد مماته .

وقد عاشت أمهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن ـ فى ظل النبوة الخاتمة فما شكت إحداهن من خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل سئلت عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقالت : «كان خلقه القرآن » ووافقت جميع أمهات المؤمنين السيدة عائشة على هذا الوصف .

وبعد وفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ استمر هذا الوصف حقيقة فأكدن ـ رضوان الله عليهن ـ أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان خلقه القرآن .

---

(١) راجع « زاد المعاد » جـ ٢ ص ١٥٢ .

وإذن فأية شخصية هذه التى ترضى : الشابة البكر.
والعجوز ذات التجربة .
والعربية ذات الكبرياء .
والمسيحية ، فيما قبل .
واليهودية فيما قبل .
والتى قتل أبوها وأخوها وعمها وقومها والتى كثرت أسفارها ورحلاتها .... ؟

أية شخصية يمكنها أن تضع برتوكولا لبيت الزوجية فيرضى الجميع مع اختلاف الجنسيات والبيئات والسن والملكات النفسية ! !

أليس ذلك دليلا إعجازيا على صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نبوته الخاتمة .. ؟

بلى ورب محمد ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ .

* * *

ومن جانب آخر فإن عموم الرسالة المحمدية يتطلب نجاح تجربة انسجام العديد من الجنسيات والبيئات تحت ظل بيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فعلى اختلاف بيئات النشأة لأمهات المؤمنين فقد اتحدن فى عقد إسلامى واحد نظمه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعائل البيت ورئيسه الموجه .

* * *

ومن وجهة أخرى فإن أحكاما عديدة تتصل بشئون المرأة وتحتاج إلى من يطلع عليها بصفة شرعية تحتاج إلى عديد من الزوجات يتفقن فى قبول الأحكام واستشعار قيمها مع اختلاف فى أعمارهن وظروفهن ، وبيئاتهن وأسلوب تربيتهن الأولى .

والجوانب الإنسانية فى زواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبدو واضحة لكل باحث يدرس الأسباب التى دعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلحق عددا ببيته من أمهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن ـ .

● **فسودة بنت زمعة** كانت زوجة للمهاجر المسلم السكران بن عمرو الأنصارى توفى عنها عند العودة من الهجرة الثانية إلى الحبشة فصارت فى مكة وحيدة . وأهلها قوم كفر وعناد فهل يتركها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعانى وقد ماتت خديجة رضى الله عنها ؟ .

- **وزينب بنت خزيمة** كانت : زوجة البطل المغوار البارز والشهيد يوم بدر الحصين بن الحارث ابن عبد المطلب وهى التى تدعى أم المساكين ، وكانت كبيرة السن ماتت بعد ذلك بشهرين فهل كان يتركها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزوجها ابن عمه ؟ .

- **وزينب بنت جحش** كان : تزويجها لتغيير اجتماعى أراده الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو إلغاء التبنى الذى جرى عليه العرف الاجتماعى .

- **جويرية بنت الحارث** من بنى المصطلق كان زواجها تخفيفا لحدة التوتر بين قومها المتمردين وبين جماعة المسلمين .

وقد نجح هذا الزواج فى إقرار الأمن والإيمان ، وكم من زيجة سياسية حدثت بعد ذلك وقبله ولم تنجح .

وقد قيل فى شأنها : «إنها أيمن امرأة على قومها» .

- **صفية بنت حيى** : يهودية رأت قومها صرعى فى ميدان القتال وكانت تسمع الحديث بين عمها ووالدها عن صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم صارت مسبيته وهى عزيزة قومها فأيهما أليق تصير واحدة من أمهات المؤمنين ويتلطف الجو بين بقية قومها وجماعة المسلمين أو تبقى جارية .... ؟

- **أم حبيبة بنت أبى** سفيان : هاجرت إلى الحبشة مع زوجها ثم كفر ثم مات فاجتمعت عليها نكبات : كفر أهلها ، وغربتها ، وكفر زوجها ثم موته .. ألا تستحق هذه القرشية من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو المبعوث رحمة للعالمين أن يخفف عنها آلامها .. ؟ نعم وقد فعل .

- **وحفصة بنت عمر بن الخطاب** : مات عنها زوجها البدرى خنيس بن حذاقة بن قيس وعرضها أبوها على أصحابه ، وكانت السماء قد رشحتها لبيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليطيب بذلك خاطرها وخاطر أبيها ، وأبوها هو من هو ؟ .

- **وأم سلمة** : هند بنت أبى أمية المخزومية كانت تحت ابن عمها عبد الله بن عبد الأسد بن هلال الذى هاجر إلى الحبشة وهى معه ثم استشهد يوم أحد وتحتها أربعة أولاد فمن الذى يرعاها ويرعاهم .. ؟ وهى مسنة كبيرة وأم أيتام .. وكانت شديدة الغيرة ....

- **ميمونة بنت الحارث الهلالية** ، وهى التى : وهبت نفسها للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى آخر من تزوجها وبعدها نزلت آيات الأحزاب «لا يحل لك النساء من بعد» إعلانا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه جل جلاله هو الذى قدر هذا الزواج للرسول الكريم ـ عليه الصلاة

والسلام ـ للعوامل الإنسانية الرفيعة التى تتفق مع قيم رسالته وطبيعة بعثته رحمة للعالمين. وتنسجم مع استمرارية التدليل على صدق نبوته بعد مماته.

فيكون الوحى بالقرآن إعجازا له حال حياته ويبقى بعد ذلك كذلك معجزا بذاته وبشرعه ويكون زواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كشفا للجوانب الإنسانية فى حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ويبقى بعد مماته إعجازا يبرهن على صدقه فى نبوته وأنه حرى بأن يكون النبى الخاتم للناس أجمعين (١).

رفض دعاوى الغرب :

أما دعاوى كاتبى الغرب فهى مرفوضة.

● إنها مرفوضة منا إسلاميا فالإسلام لا يسمح لمسلم أن يتسمع لمقالة من كافر فى حق الله ورسوله وجماعة المؤمنين، بل إن مقالة الفاسق مطلقا مردودة إسلاميا.
«يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ..» سورة الحجرات : ٦.

● وهى مرفوضة لتناقض كاتبى الغرب بين دعاويهم وتهافت أدلتهم، فهم لا يصدرون عن أدلة موثوق بها أو حجة يعرضونها فى سياق العلم المقنع بل هى أهواء تفرضها عليهم نزعاتهم الأوربية التى تكره الشرق منذ القدم.

● ثم هى مرفوضة من العقلاء منهم، وفى مقدمتهم السير بادلى الذى قال فى كتابه «محمد الرسول» :

«إنه لا داعى إلى قياس حياة محمد الزوجية بالمقاييس الغربية ولا الحكم عليها من وجهه نظر التقاليد والقوانين التى سنتها المسيحية فى الغرب».

وأياما كان غرض الكاتب من هذا الدفع فإن حياة أوربا لا تسمح لهم بنقد أى نظام شريف فاضل، فالذى ينتقد النظم العفيفة الشريفة لابد وأن يكون على مثالها إن لم يكن أرقى منها، والأوربيون قاطبة ليسوا على شىء من هذا القبيل.

إن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبى الله ورسوله الخاتم إلى الناس كافة وهو أول من أرسى أرقى حضارة لكرامة الإنسان وعقله وفكره ومعلوماته، وكل ألوان نشاطه «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».

---

(١) راجع «السيرة» لابن كثير جـ ٤ ص ٥٧٩/٥٩٥ راجع «زاد المعاد» جـ١ ص ١٠٥ ـ ١١٤.

لقد تبين الرشد من الغى وأصبح فى كل صقع من العالم فذ يعرف أن محمدا حقا رسول الله إلى الناس أجمعين .هذا وبالله التوفيق .

«المراجـع»

* القرآن الكريم .
* صحيح البخارى ومسلم ومسند أحمد . فيض القدير .
* الشمائل لابن كثير تحقيق د/ مصطفى عبد الواحد .
* السيرة النبوية لابن هشام ، السيرة النبوية لابن كثير تحقيق د/ مصطفى عبد الواحد .
* زاد المعاد فى هدى خير العباد .
* الشفاء للقاضى عياض .
* المواهب اللدنية .
* السيرة الحلبية .
* الطبقات الكبرى لابن سعد .
* الإصابة فى تمييز الصحابة .
* الرسالة المحمدية للسيد الندوى .
* محمد المثل الكامل / محمد جاد المولى .
* السيرة النبوية للسيد الحسن الندوى .
* الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى رءوف شلبى .
* الدعوة الإسلامية فى عهدها المدنى رءوف شلبى .
* بشائر النبوة الخاتمة رءوف شلبى .
* دلائل النبوة للبيهقى .
* محمد رسول الله : أتين دينيه .
* تاريخ الحضارات العام .
* عبقرية محمد عباس العقاد .
* حياة محمد هيكل باشا .
* السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة المرحوم الدكتور / محمد أبو شهبة .
* نور اليقين محمد الخضرى بك .

الجانب الغيبي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم

الأستاذ الدكتور
عبد الصبور شاهين

معنى الغيب :

يقول اللغويون : إن الغيب : ما غاب ، وقد اشتق من مادة (غ ى ب) كلمات مستعملة فى اللغة منها : الغيابة ، وهى ما يستر ويغيّب ، والاغتياب ، وهو مصدر من اغتاب ، أى : ذكر صاحبه وهو غائب ، والاسم هو الغيبة ، وهى فِعلة من غابه ، أى : غيّبه وذكره بما فيه من السوء .

ويشير معجم ألفاظ القرآن الكريم إلى أن اللفظ يستعمل بوجهين ، حسى ، ومعنوى ، فالغيبة والغيابة : منهبط من الأرض ، والغابة : الأجمة ، وهى جماعة الشجر الملتفة التى تستر ما يتوارى فيها ، وكل ذلك مرتبط بحاسة المشاهدة ، وأحسب أن حاستى النظر واللمس هما ـ فى اعتبار اللغة ـ فيصل ما بين الحسى والمعنوى ، فالمسموع والمشموم والمذوق ، من الأصوات ، والروائح والطعوم ـ يعتبر ـ لغويًا ـ من باب المعنوى ، مشتركاً فى ذلك مع المدرك من المعانى ، على حين يقتصر الحسى على المرئى والملموس ، وهو تقسيم عرفى لا يخضع للمنطق ، إذ يرى المنطق أن كل ما يدخل إلى العقل عن طريق الحواس الخمس هو حسى ، وما عداه من المجردات هو معنوى ، ولكن العرف اللغوى جرى على الربط بين الحسى والشخصى الماثل ، ولا بأس فى هذه التفرقة مادامت الألفاظ مؤدية ما يراد بها من دلالات .

وعود إلى تحديد معنى (الغيب) لنجد أنه ما غاب حساً أو معنى ، وهذا هو المقصود فى

الاستعمال القرآنى ، علماً بأن هذا (الغيب) هو بالنسبة إلى الناس ، باعتبارهم مخلوقات محدودة القدرة والعلم (وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً) ، فهو ليس غيباً بالنسبة إلى الله سبحانه ، لأن علمه هو الانكشاف المطلق لكل ماكان وما يكون ، وهو الذى يأذن للمخلوق أن يعلم ، وبالقدر الذى ترتضيه مشيئته جل وعز.

فإذا جئنا إلى موضوع هذا الغيب وجدنا أنه يتوزع على مجالين :

المجال الأول : مجال الحياة الدنيا بكل أبعادها التى تدخل فى نطاق الحواس ، فكل ما يجرى فى هذه الحياة مما لا تدركه الحواس أو العقول هو غيب ، سواء أكان قد مضى ، كحوادث التاريخ ، وعواقب الماضين من الأقوام والدول ، أم كان من حوادث الحاضر التى لم تنكشف لنا وقائعها وأسبابها ، كنزول مطر فى مكان بالنسبة إلى من يعيشون بعيداً عنه ، وكحدوث كارثة جوية غامضة بالنسبة إلى من يبحثون عن أسرارها ، فهى غيب بالنسبة إلينا ، حتى تنكشف لنا هذه الوقائع والأسباب .

ولا ريب أن إشارة القرآن إلى قصص الأنبياء والمرسلين السابقين على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تؤكد هذا المعنى ، قال تعالى عن مريم : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وماكنت لديهم إذ يختصمون » (آل عمران/ ٤٤) .

وقال سبحانه عما كان بين يوسف وأبويه وإخوته : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » (يوسف/ ١٠٢)

لقد كان مضمون الغيب المشار إليه فى هاتين الآيتين ـ ذات يوم ـ واقعاً مشاهداً ، فلما انطوى فى ضمير الزمن ، وغابت شواهده عن الأعين أصبح (غيباً) . وهو هنا مرادف لما قبل التاريخ ، أو التاريخ الذى لا يعرف أحد شيئاً من تفاصيله ، حتى جاء الوحى بأنبائه .

كذلك يدخل فى نطاق هذا الغيب النسبى ما استكن من أسرار المادة ، مما لم يكشف عنه النقاب بعد ، كالمعلومات الفضائية ، وسر بعض الأمراض التى يعانى منها البشر كالسرطان ، إلى أن يأذن الله للعلماء بشىء من علمه ، فيستحيل الغيب إلى مشاهدة وعيان ، وهو ما يطلق عليه لدى بعض المفكرين (الإلهام العلمى) .

غيب الغيب :

غير أن هناك جانباً من الغيب ، مطلقًا ، لا يتصور الكشف عنه ، وهو جانب استأثر الله بعلمه ، وذكر أن الإنسان محجوب عن بلوغ شيء منه بقضاء مشيئته سبحانه ، وذلكم هو الجانب الإلهي ، أي : ما يتصل بذات الله سبحانه ، فهو غيب الغيب . الذى « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » (الأنعام ١٠٣) .

« قال أبو البقاء فى كلياته ، فى تعريف (غيب الغيب) : » هو الذات الإلهية المطلقة ، وهو هويته السارية للكل علماً لا يمكن أن يتعلق به بهذا الاعتبار علم ، لكونه محتجباً فى حجاب عزته » ، وقد علَّم الحق سبحانه كليمه موسى ـ عليه السلام ـ هذه الحقيقة حين بداله فى لحظة القرب أن يقول له : « رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً . وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » الأعراف / ١٤٣ .

ودعك من التفسيرات التى تذهب إلى أن انكشاف ذات الله أمر ممكن ، من حيث كان استقرارالجبل ممكناً ، لأنه أحد الاحتمالين ، والمعلق على الممكن ممكن ، فهذا نوع من المماحكات المنطقية ، لا يصلح فى باب رؤية الذات الإلهية ، فهذا الإنسان المحدود بمعنى الكلمة لا يستقيم فى العقل تصور قدرته على إدراك اللامحدود ، وهو فى الواقع عاجز عن بلوغ ذرات من علم الله المحيط ، فكيف به يتصور إدراك ذات الله ، فضلاً عن رؤيتها ، وحسبنا أن نقرأ جواب الحق تبارك وتعالى عن موسى بقوله : (لن ترانى) وهو نفى على التأبيد ، لا يضعفه ما جاء بعده من استدراك .

وإذا قيل : إن ذلك سيكون بإقدار الله للمؤمن فى الآخرة ، قلنا : إن القضية برمتها ـ غيب من الغيب الذى لا ينبغى الخوض فيه ، وبناء موقف اعتقادى على أساسه ، بل نؤمن إيمان تسليم بربنا الذى ليس كمثله شيء ، كما نؤمن بما أخبر عن وجوده فى ملكه العظيم من الأكوان ، والعرش ، والكرسى ، واللوح المحفوظ ، والقلم ..... الخ ....

كذلك يعتبر من الغيب ما يتصل بعلم الله للآجال ، والأرزاق ، وأمور المستقبل كله ، إلى أن يأذن الله بتجليتها فى وقتها ، فتصير علماً مشهوداً .

الملائكة والجن :

ومن عالم الغيب كذلك ما خلق الله من عوالم تختلف طبيعة تكوينها ، كنهاً (مادة) ، وكماً وكيفًا : عن طبيعة عالمنا المادى ، كالجن ، والملائكة ، وإذا جاءت المصادر الدينية بظهور بعض هذه المخلوقات فى أحوال خاصة ، فإن ذلك ليس إلا دليلاً على وجودها من ناحية ، وعلى غيبيتها من ناحية أخرى ، فهو الشهود الذى يؤكد الغيب ويصدقه ، أو هو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ـ كما يقولون .

ولقد تواترت الأخبار بأن الملائكة مخلوقات من نور ، كما جاء القرآن بأن الجن مخلوقات (من مَارِجٍ مِن نَار) ، والنور والنار من مادة واحدة محسوسة ، يربط بينهما ما يشبه ارتباط الأثر بالسبب ، ومع ذلك لا نشهد شيئاً من منتجاتهما الملائكية والجنية ، وهو أمر يؤكد أن النور والنار فى هذا المقام ذوا حقيقة مختلفة عن حقيقة ما نحسه منهما على هذه الأرض ، كاختلاف ما بين النوع والنوع ، والجنس واحد .

إن ذلك يدعونا إلى التأمل فى قوله تعالى : «كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » (البقرة /٢٨٥) ، فإذا كان موضوع الإيمان متعلقاً بذات الله ، وبوجود عالم الملائكة ، وبالكتب وبالرسل ، فإن بابين من هذه الأربعة ـ كما نرى ـ غيب لا شهود معه ، وهذا الغيب هو فى الوقت نفسه مصدر النصف الآخر . فما كان الرسل رسلاً إلا بما حملوا من أوامر الغيب وتكاليفه ، وماكانت الكتب المنزلة إلا تعبيراً عن إرادة غيبية ، هى إرادة الخالق سبحانه .

وقد اصطلح كتاب الفكر الإسلامى على نسبة الأعمال التى تتم فى مجال الرسالات والرسل إلى القوى الغيبية Les forces metaphysiques على حين ينسبون الأعمال التى تتوقع من الجن والعفاريت إلى القوى الخفية Les forces occultes وذلك للتفريق بين مصدرين من مصادر التأثير فى حياة الناس . **مصدر القوى الغيبية** . وتتمثل فى الملائكة الذين ينفذون مشيئة الله ويبلغون رسالته ، فهم (لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون) . وهم (عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون) . وبين **مصدر القوى الخفية** التى ينسب إليها حقاً ، أو توهماً ، إحداث بعض الأمور المخوفة فى حياة البشر.

وكثيراً ما يقع اختلاط بين هاتين القوتين فى تصور الناس ، وهو ما ينبغى أن ننبه إلى خطورته ، نظراً إلى ارتباط مفهوم السحر بالقوى الخفية ، وقدكان للسحر تأثير خطير على عقائد

البشر ، حتى لقد تفرد أحياناً بإيمان بعضهم ، إلى أن حسم الاسلام قضيته حين قال فى القرآن : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » (البقرة/١٠٢) .

ومع ذلك بقيت فى الأنفس رواسب تذعن بها لتأثير هذه القوى الخفية فى حالات ضعفها وأزمتها ، ويوشك من يقع فى هذا التأثير أن يبتعد عن مجال الإيمان بالغيب ، الذى هو شرط الإيمان الصحيح ، وفى الحديث الصحيح : (اجتنبوا السبع الموبقات : الشرك بالله ، والسحر ...) .

على أننا مطالبون أن نؤمن بوجود عالم الجن ، وعالم الملائكة ، وهو إيمان يقتصر على مجرد إثبات هذا الوجود ، معلوماً من الدين بالضرورة دون أن يتسع لنسبة تأثير ما لهذين العالمين فى حياتنا على الأرض إلا بإذن الله ، وتعيينه ، كما جعل من الملائكة رسلاً وحفظة للعباد ، ورقباء يحصون عليهم أعمالهم ، ومعقبات من بين أيديهم ومن خلفهم ، وكما جعل من الجن إبليس وقبيله ، مسلطين على الغاوين غير المخلصين من العباد ، وقال فى شأنهم : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » (الأعراف/ ٢٧) .

المجال الثانى : مجال الحياة الأخرى ، وهو مجال غيبى قامت على تأكيد وجوده الأديان . وبنيت على أساسه عقيدة التوحيد ، وهو متصل بحياة البشر ، وهو مجال غيبى من أول لحظاته ، حين يتوجه الإنسان إلى ساحته عبر بوابة الموت ، بل وقبل أن يدلف إلى هذه الساحة ، مع مقدماته الغيبية ، ساعة الاحتضار ، عندما ينعقد اللسان عن الكلام ، وتستشف العين طريق المصير ، مخترقة إليه أغلفة العالم المادى .

ومنذ أن يدخل الإنسان هذا العالم فإنه يصبح خلف ستائر كثيفة من الغيب المحجب ، الذى استأثر الله بعلمه ، وجعل بدايته الحياة البرزخية فى روضة أو فى حفرة : (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) (المؤمنون /١٠٠) ، ثم يكون يوم القيامة ، ثم البعث والنشور ، ثم الحشر ، والحساب ، والجنة والنار ، وعالم الخلود فيها هو من أخص أخبار الغيب ، رغم ما جاء فى القرآن من تفاصيل تتعلق بألوان النعيم أو أحوال العذاب فى هذا العالم ، فقد حسمت السنة قضية العلاقة بين الوصف والموصوف حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجنة : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وهو قول يصدق فى رأينا أيضاً بوصف النار .

وقد روى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل . وأتوا به متشابهاً) (البقرة ٢٥) قال : (ليس فى الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء) . أى : أن الحقائق التى تكمن خلف الأسماء شيء مختلف تماماً عن المدلول الدنيوى لها .

ترى ، ماذا بقى من الوجود لعالم الشهادة ، بعد أن أوجزنا القول على هذا النحو فى عالم الغيب ؟؟ . . .

إن عالم الشهادة يبدو فى نظرنا غاية فى الضآلة كماً وكيفاً . على الرغم من اتساع رقعته رأى العين ، ونقصد بالعين هنا ما بلغه الإنسان من علم بوساطة المناظير المكبرة (الميكروسكوبات) . أو المقربة (التلسكوبات) ، فقد استطاع الإنسان قطع المسافات الهائلة ، واختصار الزمان عن طريق هذه المناظير ، التى تتجول فى جو السماء ليل نهار ، وعن طريق الأقمار الصناعية التى تعربد فى الفضاء باحثة ، مصورة ، مبلغة كل ما يقع على شاشاتها وعدساتها من كائنات وأجرام .

ولا ريب أن حدود العلم بعالم الشهادة قد اتسعت وتراحبت بعد نجاح الإنسان فى غزو الفضاء ، ومع ذلك فإن مبلغ علم الإنسان لم يتجاوز حدود القليل الذى تسمح به إرادة (عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) (السجدة ٦) ويكفى أن يلقى الإنسان نظرة على نفسه ، ليدرك مقدار ما يستكن فيها من غيوب وأسرار هائلة لا يحتاج العلم بها إلى مناظير ، بقدر ما يحتاج إلى إلهام إلهى يجلو غوامضها ، ويكشف عن مكنوناتها ، وصدق الله : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) ، (فصلت/ ٥٣) .

الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والغيب :

أول ما نطالعه فى صفحته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك الخبر الذى أعلنه ذات نهار : أنه قد جاءه فى غار حراء مَنْ أَمَرَه بقوله : (اقرأ) ، ثم ... أقرأه جملاً غريبة تقول : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) . (العلق/ ١ ـ ٥) .

إن هذا الخبر كان يسجل أجلى اتصال بين الوحى والموحى إليه ، والوحى غيب كما نعلم ، ولكنه غيب أدى إلى شهود ، لأنه أسفر عن عناصر محسوسة بالمعنى الدقيق : جمل مكونة من أصوات ، وتتضمن معانى ذات تأثير متميز.

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يتصل فيها الوحى بمحمد ، فإن من المؤكد أن حياته قبل البعثة كانت عناية ربانية مباشرة ومستمرة ، وإن لم يحط بها محمد خبراً ، وحسبنا أن نقرأ آيات

الضحى : (ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ؟) (الضحى/ ٦ ـ ٨) ، وهى آيات تسجل عناية الله بحبيبه ومصطفاه فى مراحل مختلفة من حياته ، لكل مرحلة ما يناسبها من الحفاظ ، والرعاية ، فالإيواء ، والهداية ، والإغناء فى هذا المقام صنوف من تجلى العناية الإلهية على ذلكم الإنسان ، الذى سيكون له شأن ، أى شأن ، فى مصير البشرية .

بل إن هذه العناية الإلهية قد برزت فى ملحمة محمد من قبل أن يولد ، وذلك حين سيرت الأحداث فى عام مولده بطريقة لا يمكن تفسيرها إلا على نحو إرهاصى ، وقد سجل القرآن هذا المشهد الهائل فى سورة الفيل : (ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول) آيات تصور زحفاً ضخماً جرت أحداثه على بطحاء مكة ، غير بعيد من محمد ، فقد كان جنيناً فى رحم أمه آمنة ، ولقد كان من المحتمل لو حقق العدوان أهدافه أن يغتال الجند من أصحاب الفيل آمنة ، فيغتالوا بذلك مستقبل البشرية فى إهاب جنينها ، وكان من المحتمل أيضاً أن يأسروا آمنة ضمن غنائم الحملة العدوانية فيولد جنينها فى الأسر ، وهو احتمال لا يمكن تصور نتائجه ، من أجل هذا دمر الله أصحاب الفيل تدميراً سماوياً تلبية لدعوة عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهُمّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم غدواً مِحالَك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

لقد دمرهم الله ، وجعل تدميرهم هذا كالمقدمة لميلاد محمد ، الوليد الذى سوف يصبح ذات يوم ـ بعد أربعين عاماً من هذا الحدث الرهيب ـ رسول الله وخاتم النبيين .

لقد كانت نعمة الله على عبده محمد قبل أن يولد هى أن يهيئ الظروف التى يتم فيها مولده بمكة الحرة المنتصرة على بربرية أصحاب الفيل وعدوانهم ، لا مكة الذليلة الأسيرة الكسيرة ، وفى قريش وهى تشعر بحماية رب البيت الحرام ، ومناعة البلد الحرام ، لكأنما أراد القرآن أن يصور فى آياته هذه ـ الارتباط بين قصة أصحاب الفيل وبين مولده صلى الله عليه وسلم بهذا التعبير (التلسكوبى) الشفاف (ألم تركيف فعل ربك) ، وهو تعبير يستحضر صورة (غيب)

لم يكن محمد شاهداً فيه ، فمثله كمثل ما أخبر به القرآن من أنباء (الغيب) عن زكريا وقومه من بنى إسرائيل (إذ يلقون أقلامهم) فى نهر الأردن ليستهموا (أيهم يكفل مريم) . (آل عمران/ ٤٤) .

فها نحن أولاء نرى علاقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعالم الغيب من قبل أن يولد . ولسنا بحاجة إلى أن نوغل فى رحلته الغيبية أكثر من هذا ، فهو أولاً وآخراً ، وبنص القرآن ، إرادة أزلية لله سبحانه أن يكون كلمته الخاتمة ، وصفوته من خلقه ، وقد (أخذ الله ميثاق النبيين) أزلاً (لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا : أقررنا قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) (آل عمران ٨١) ـ فهذه فى الواقع بديهة العقيدة الواحدة التى جمعت بين أنبياء الله ورسله ، ولا يُعَدُّ أحد من أهل الأديان مؤمناً حقاً حتى يسلم بها : (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله) (البقرة/ ٢٨٥) .

وفى السيرة أخبار كثيرة عن ظواهر كانت ترافقه صلى الله عليه وسلم منذ كان طفلاً فى البادية، كشق الصدر ، وفى رحلاته إلى الشام للتجارة ، كالغمامة التى كانت تظلله أينما سار ، يراها رفاقه ، ويتعجبون من أمرها وأمره ، ولقد كان بعض هذه الأخبار ـ عن خوارق العادة التى كانت تصاحبه فى أسفاره ـ سبباً فى إقبال السيدة خديجة على اختياره والزواج منه ، فقد حدَّثها غلامها ميسرة عن قول الراهب بحيرى فى شأنه وكان قد نزل ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ظل شجرة قريباً من صومعته ـ : « ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى » ، كما حدثها عما كان يرى من إظلال الملكين إياه (انظر الروض الأنف ١/ ٢١٢) .

ولئن كنا نميل إلى عدم الأخذ بالتحديد الوارد فى هذه الأخبار ، إذ لا يعقل تعرف ميسرة على حقيقة ما يُظِلّ محمداً ، على حين أن محمداً كان يجهل ذلك قطعاً آنئذ ، كما أن نسبة التصريح بنبوة المستظل بالشجرة إلى الراهب هو نوع من التزيد فى الأخبار ـ فيما نرى ـ على الرغم من هذا نرى أن انطباع ميسرة عن صحبة محمد كان مزيجًا من الأحاسيس والمشاعر السامية ، التى تضع محمداً فوق مستوى كل الرجال بما يملك من ميزات فائقة ، وقدرات خارقة .

فإذا انتقلنا إلى مرحلة ما قبل الوحى وجدنا النص الكريم الذى رواه البخارى فى صحيحه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « أول ما بدئ به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحى

الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » ، وليس بين أيدينا شيء من تفاصيل هذه الرؤى الصالحة ، اللهم إلا أنها كانت شديدة الوضوح ، بحيث إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يستشعر أن بينها وبين الواقع فرقاً ، والرؤيا من الرحمن ، وهى إعلام غيبى بأمور تتصل بحياة الرائى ، ماضياً أو حالاً أو مستقبلاً ، غير أنها بالنسبة إلى الرسول كانت تهيئة لنفسه ، وإعداداً له للاتصال المرتقب بالملأ الأعلى ، ومن المؤكد أن هذه الرؤى قد خلقت فى فؤاده قلقًا وأشواقاً إلى استشراف هذا الغيب الذى يخايله ، حتى قادته هذه الأشواق إلى الخلاء .

تقول عائشة فى نفس الحديث : « ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء « فجاءه الملك » . إن هذه المرحلة فى حياة النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كانت انشغالا خالصا بالغيب ، وشوقاً دائماً إلى المزيد من تجليه ، واستغراقاً عميقاً فى ومضاته التى تبدو للعين فى هيئة ملك ، وتبدو للأذن فى هيئة صوت مدوٍّ وتبدو للعقل فى هيئة معان مدهشة ، ولكنها جميعاً أمور صادرة عن الغيب الذى أصبح الشغل الشاغل للرسول .

وإذا ذكرت السيرة أن الوحى قد فتر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى شق عليه ذلك فأحزنه ، إلى أن جاءه جبريل بسورة الضحى ـ فإن المسافة التى غابها خلال هذه الفترة كانت مليئة ولا شك بالتأمل الدائب فى الآيات القليلة التى كانت نزلت على قلب رسول الله ، وهى بحسب أخبار ترتيب النزول ، خمس آيات من سورة العلق ، وآيات من سورة القلم ، ثم آيات من المزمل ، وآيات من المدثر ، ثم الفاتحة ، ثم تبت يدا أبى لهب ، ثم التكوير ، ثم الأعلى ، ثم الليل ، ثم الفجر ، وبعض هذه السور نزل كاملاً ، وبعضها مجزءاً ، ولكن مجموع الآيات فى أكثر تقدير لا يزيد على مائة آية ، من الآيات القصار ، التى تتكون أحياناً من كلمة واحدة ، أو حرف واحد ، وأكثرها من ثلاث كلمات ، أى أن متوسط عدد الكلمات كان فى حدود ثلثمائة كلمة فقط .

كان هذا القدر من الكلمات المنزلة موضوع عكوف وتأمل من الرسول خلال هذه الفترة ، يحاول ولا شك أن يستشف من بين حروفه ما عسى أن يهديه إلى سبب هذه القطيعة المريرة القاسية المفاجئة ، التى بدت دون مقدمات ، والتى دامت سنتين ونصف السنة ، ثلاثين شهراً هى أشد ما عاشه رسول الله من أيامه المباركة ، لما عاناه خلالها من حيرة نفسه ، ومن سخرية

قومه حتى قالت له امرأة : (إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك) ، إلى أن عاوده الوحى بهذه الآيات الجميلة المؤنسة : « والضحى ، والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » . (الضحى/ ١ ـ ٥) .

من هذه اللحظة لن يتوقف تيار الوحى عن مساعفة رسول الله بما يحتاج إليه من بيان يعلنه ، أو حجة يقيمها على معانديه ، أو تشريع يفرضه على المؤمنين به ، وذلك فى إطار الخطة التى قررها القرآن الكريم : «كذلك لنثبت به فؤادك . ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » . (الفرقان/ ٣٢ ـ ٣٣) .

ومن هذه اللحظة تبدأ حياة محمد موزعة بين مهمتين :

الأولى : النهوض بتبعات الرسول ما بين وحى وتبليغ .

والثانية : النهوض بتبعات الإنسان فى حياته اليومية ، الفردية والأسرية .

ولقد كان لدى (الرسول) من القدرة على الوفاء بمتطلبات الرسالة . ما يفوق قدرات البشر جميعاً ، بل ما يعم برحمته العالمين ، وكان لدى (الإنسان) من القدرة على رعاية أهله ما يجعله مثلاً أعلى فى الأبوة والرجولة .

ليس معنى ذلك أن محمداً كان يعيش بشخصيتين ، لكل منهما دور فى مسيرته ، بل كان يعيش بشخصية واحدة تتكامل فيها الصفات المثالية ، وتتألق ، كما عبر القرآن عنه حين قال : « قل سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولاً » (الإسراء ٩٣) ، « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ » . (الكهف/ ١١٠) .

فهو ، بما هو رسول يوحى إليه ، يتعامل مع عالم الغيب وملائكته ، وهو ، بما هو بشر ، يتعامل مع الناس ، واحداً منهم ، وإن كان قدوتهم .

إن الفصل المنهجى بين هذين الاعتبارين ، ومراعاة حدودهما ـ أساس فى عقيدة الإسلام ، وتلخيص دقيق لموقع الرسول من الرسالة ، **فالرسول** متصف بجملة من الصفات المستمدة من عالم الغيب وقواه العلوية ، أجلاها وأعمقها أنه « مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى » وإنما عن الغيب . بل عن غيب الغيب ، « إن هو إلا وحى يوحى » (النجم/ ٣ ـ ٤) ، وهو بهذه الصفة معصوم فى تبليغ الرسالة عصمة مطلقة ، لأنه مجرد حامل لرسالة « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » (المائدة/ ٦٧) ، و« ما على الرسول إلا البلاغ » . (المائدة/ ٩٩) .

أما **البشر** فإن له جانباً إرادياً ، يتأتى معه الاجتهاد الذى قد يصيب ، وقد يجانب الصواب ، وسواء أكان ذلك نابعاً من فطرته كبشر ، وتعبيراً عن حقيقته ـ صلى الله عليه وسلم ـ طبقاً لتفسير معين ، أم كان موقفاً تعليمياً للأمة يؤديه الرسول باعتباره جزءاً من رسالته ، طبقاً لتفسير آخر ـ فإن النصوص السابقة قد حرصت على تأكيد هذين البعدين فى شخص محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، بعد الرسالة ، وبعد البشرية ، وجاء مصداقا لذلك قول رسول الله فيما رواه مسلم « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » .

ولقد سبق أن قلنا : إن الفصل بين هذين الاعتبارين هو فصل منهجى ، ونعنى أنه ليس فصلاً واقعياً ، إذ يستحيل تقمص محمد لحالة دون أخرى فى موقف ما ، **فالرسول** مهيمن على **البشر** فى كيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وإذا كنا مسلّمين بأن (البشر) فى محمد لا يمكن أن يأتى بما يخالف (الرسول) ، سلمنا حينئذ بأن (الرسول) كانت له الهيمنة فى كل أحواله عليه الصلاة والسلام ، وإن حمل بعض هذا الكل طابع البشرية ، كانت البشرية فيه بقدر ما يعايش الناس ، خارج إطار الرسالة ، للحظات عابرة .

الرسول وعلم الغيب :

ولنناقش الآن قضية أخرى من صميم ما نتحدث فيه ، ونتساءل : هل كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلم الغيب ؟ ... والمقصود بالسؤال هنا : شيئاً من الغيب ، لا الغيب كله ، فلا يعلم الغيب كله إلا الله سبحانه ، وقد نهينا عن أن نتصور أن مخلوقاً يشبه الخالق فى شىء ، والله سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ) فى أى شأن ، ومن قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه البخارى والدارمى بسندهما : « لا تطرونى كما أطرت ـ أو تطرئ ـ النصارى ابن مريم ، ولكن قولوا : عبد الله ورسوله » ، وعبد الله ورسوله محمد ليس إلهًا ، ولا بعض إله .

ومقتضى هذا أن الغيب علم خاص بالله وحده .

قد خطر لليهود مرات أن يسألوا الرسول عن أمور من الغيب ، سألوه مرة عن الروح ، فنزل قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربىّ ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (الإسراء/ ٨٥) وسألوه مرة أخرى عن الساعة (أو سأله عنها المشركون) فنزل قوله تعالى : « قل إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو) (الأعراف/ ١٨٧) .

فالقرآن على هذا يقرر أن الله لم يطلع على هذا الغيب ملكاً مقرباً ، ولا رسولاً ، وفى حديث جبريل حين سأل النبى عن (متى الساعة) قال النبى : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . ولكن

القرآن يقرر فى آية أخرى فى صفة الله سبحانه أنه : «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول» وبهذا الاستثناء يدخل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى زمرة من يظهرهم الله على بعض غيبه ، لأنه سيد من ارتضاهم لأمانته ، بيد أن ذلك خاضع لقيود تضمن حفظهم للسر فلا يبوحون به لمخلوق .

ومن هذا الباب نستطيع أن نقول : إن الله قد أظهر نبيه ـ ولا شك ـ على غيوب ، كما أراه مرائى فى ملكوته ، لم يظهر عليها الملائكة المقربين ، ولعل ذلك هو المقصود من إشارات حديث المعراج .

الغيب وسر الإعجاز :

بقى أن نتعرض لجانب مهم من جوانب الغيب فى حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو جانب المعجزات ، أو الآيات بحسب تعبير القرآن ، وقد اقتضت إرادة الله تأييد بعض رسله بآيات يقيم بها الحجة على العباد «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» (النساء/ ١٦٥) ويمكن تصنيف هذه الآيات إلى نوعين :

نوع حسى بصرى ، يقوم تأثيره على تحقيق الإقناع بوساطة الرؤية الباهرة ، ومن هذا القبيل سائر معجزات الرسل قبل محمد ، كرؤية العصا وقد صارت حية تسعى ، حتى تقول السحرة لفرعون : «لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا» (طه/ ٧٢) ...

ونوع عقلى ، يقوم تأثيره على تحقيق الإقناع بوساطة التأمل فى كلام الله سبحانه ، وتلكم هى معجزة القرآن ـ وحدها ـ المعجزة التى تحدت ، وتتحدى العقل بعد أن بلغ رشده .

ولا ريب أن هذه الآيات قائمة فى تحقيقها للإعجاز على سنة من سنن الله تختلف عما عهد البشر من سنن كونية ، فهى ليست شذوذاً عن القاعدة ، بل هى قاعدة أخرى ولكنها غيبية لا يعلم سرها إلا علام الغيوب .

ولما كان الرسل مجرد مبلغين لرسالة كلفوا بها فإن علاقتهم بالمعجزة لم تكن تتعدى مهمة إجرائها أو إظهارها ، دون أن يحاول أحد منهم معرفة السنة التى كانت بها المعجزة معجزة ، ذلك أن اهتمام الرسل كان دائماً بمعرفة خالق المعجزة ، لا المعجزة ذاتها ، فما ينبغى أن تشغلهم الوسيلة عن الغاية ، حسبهم من معرفة المعجزة أنها تواتيهم بالتأييد كلما احتاجوا إليها ، وهم يشعرون فى أعماقهم أن الله هو الذى ييسر لهم استخدامها فى مخاطبة أقوامهم ، وفى تحدى المعاندين منهم ،

ولذلك لم يسأل إبراهيم ربه أن يريه كيف كانت النار برداً وسلاماً عليه ، وحين سأله أن يريه كيف يحيى الموتى كانت قضية الإيمان بربه هى الأساس ، ثم إن السؤال لم يتعلق بسر معجزة لإبراهيم ، كذلك لم يسأل موسى ربه أن يظهره على سر العصا أو اليد ، وإنما سأله أن يريه ذاته ، التى هى سر السر، وغيب الغيب .

من هنا نستطيع أن نقرر أن المعجزة جزء من عالم الغيب ، وأن اعتبار القرآن معجزة دائمة إلى يوم القيامة يفرض علينا أن نسلم له بهذا الطابع الغيبى ، الذى يكمن خلف حروفه ، وكلماته ، وجمله وآياته ، وأحكامه ، وتشريعاته ، وصوره وسوره ، ونرى ـ والله أعلم ـ أن هذا هو سر إعجازه ، الذى حاول كثيرون أن يكشفوا عنه ، بل وتوهموا أنهم كشفوه فعلاً حين اهتدوا إلى تحليل الأسلوب البيانى ، أو أدركوا الصورة الكلية ، أو فسروا بعض غوامضه ، أو عللوا بعض ظواهره ، وهم بذلك لم يتجاوزوا وصف الإعجاز ، مجرد دراسة وصفية ، أما سر الإعجاز ـ فى رأينا ـ فغيب مكنون لا علاقة له بالكلمات أو الآيات ، وإن كانت هى مظهره ومجلاه ، إنه السنة الكونية التى انبثق عنها نظام البيان القرآنى ، وهو سر كامن تحت حرفين فقط ، يشيران إلى رأينا هذا إشارة محددة ، حين قال تعالى فى وصف القرآن : إنه « تنزيل من حكيم حميد » ، فحرف الابتداء (من) فى هذا التركيب متوسط بين حقيقتين متغايرتين هما : التنزيل ، والحكيم الحميد ، وسر الإعجاز هو هذه الـ (مِنِّيَّة) التى ستظل مستكنة فى ضمير الغيب ، مادامت السموات والأرض ، فكل ماكتب عن الإعجاز هوكما قلنا دراسة وصفية لوجوه الإعجاز ، ولا علاقة لها بسره .

ولا ريب أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان عالما بما يميز معجزته القرآنية عن سائر معجزات السابقين من الرسل ، كما كان عالماً بأن كل آيات الله التى أيد بها رسله إنما تنبع من مشكاة واحدة ، لأنها كانت دليلاً على قضية واحدة ، وهى كالمقدمات المبسطة لنزول آيته الكبرى ، والمعجزة الدائمة .

وبلغ من إدراك رسول الله لهذا التميز أنه كان حريصاً على تجنيب أصحابه مغبة الخلط بين المعجزة الحسية ، والمعجزة العقلية القرآنية ، فهو لم يتحد قومه بشىء مما أكرمه الله به من خوارق بصرية كانت تجرى على يديه كأنها أمور عادية ، كتسبيح الحصى فى كفه ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وحنين الجذع إليه ... إلى كثير مما حفلت به كتب السنة ، لم يتحدهم إلا بالقرآن ، المعجزة بمعنى الكلمة .

ثم إنه التفت مرة إلى أصحابه ، حين وجدهم يخلطون بين ما هو من باب المعجزة ، وما هو من باب توهم المعجزة ، فعلمهم أن ما يرون هو من سوء التفسير ، وخداع الفهم . كان ذلك حين كسفت الشمس يوم مات ولده إبراهيم ، ورأى بعضهم أن ثمة ارتباطاً بين موت ولده والكسوف ، وكان من الجائز أن يشغل النبىّ فى هذا اليوم حزنه الشديد على ولده ، فلا يعلق على شىء مما يقال ، ولكنه عليه الصلاة والسلام بادر إلى معالجة الموقف بكلماته الحاسمة : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته » .

وأغلب الظن أن رسول الله لو لم يقل هذا البيان لظل الناس على سوء فهمهم إلى أن يكشف العلم وجه الحق فى ظاهرة الكسوف ، ولكنها كانت ستكون فرصة للخلط بين ما ينتمى من الظواهر الكونية إلى عالمنا بقوانينه وسننه ، وبين ما ينتمى إلى عالم الغيب من الخوارق والآيات ، وهو خلط لا يليق بأمة محمد ، ونبيها محمد بين ظهرانيها .

حقائق غيبية فى مسيرة النبى :

على أن القرآن قد ذكر حقيقة من حقائق الغيب كان لها تأثير كبير فى عالم الشهادة ، وتلكم هى واقعة تأييد الله للنبى بالملائكة ، خلال معاركه مع المشركين ، وقد ثبت ذلك نصاً فى ليلة الهجرة ، وأشار إلى ذلك قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذا أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذا هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها » (التوبة/ ٤٠) ، وفى معارك ثلاثة من معاركه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فى **بدر** ، وأشار إليها قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » (الأنفال/ ٩) ، كما أشار إليها خلال الحديث عن أحد : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون ، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » (آل عمران/ ١٢٣ ـ ١٢٥) . **وفى غزوة الأحزاب** ، أشار إليها قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها » (الأحزاب/ ٩) . **وفى غزوة حنين** ، أشار إليها قوله تعالى : « ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها » (التوبة/ ٢٦) .

ويلفت نظرنا فى هذه الآيات وصفها الجنود المنزلة بأنها (لَمْ تروْهَا) لأنها من تلك المخلوقات اللطيفة النورانية (الغيبية) .

على أن النص على هذه المعارك لا يمنع أن تكون الملائكة قد شاركت فى معارك أخرى ، فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيما بعد على طول تاريخ الصراع بين الإيمان والكفر ، فى الفتوحات الإسلامية ، وفى الحروب الصليبية ، وفى الحروب ضد التتار ، وفى غيرها من المعارك التى كان النصر فيها للإيمان ، فالله يؤيد بنصره من يشاء ، ويقول : « وإن جندنا لهم الغالبون » (الصافات/ ١٧٣) .

ويرى كثير من المفسرين أن إمداد الله لرسوله بالملائكة لم يكن تدخلاً فى واقع الحرب بينه وبين عدوه ، بل كان لمجرد التثبيت والتأييد ، وذلك مستفاد من قوله تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . (آل عمران/ ١٢٦) .

ولهذا الرأى وجاهته ، لأن ملكاً واحداً من الملائكة كفيل باكتساح جيوش من أعداء الله ، فكيف (بألف من الملائكة) أو (بخمسة آلاف) ؟ ! ثم إن هذا التأييد والتثبيت الربانى الغيبى لا يتنافى مع السنة الإلهية فى تنظيم الحياة البشرية على ظهر الأرض ، سنة (الدفع) الواردة فى قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . (البقرة/ ٢٥١) .

فالنصر أولاً وأخيراً لمن يستعد له بالإيمان ، وبما يستطيع من قوة ، ولمن يتوكل على الله بعد الأخذ بالأسباب ، ولمن يضرب العدو بطريقة مؤثرة حتى يجبره على التسليم . فإذا تحقق النصر بعد ذلك كان مهرجاناً أرضياً سماوياً تشارك فى أفراحه كوكبة من الملائكة الذين قدموا للمنتصرين التأييد المعنوى ، وثبتوا أقدامهم على أرض المعركة .

فهذا عن تدخل قوى الغيب فى معارك النبى ضد المشركين .

أما عن تدخل هذه القوى فى المواقف الشخصية التى تعرض خلالها رسول الله للأذى فإن أبرز هذه المواقف كان خلال الهجرة كما سبقت الإشارة إليه ، ولكن كتب السيرة قد حفلت بروايات تثبت تدخل الملائكة بصور مختلفة لحماية النبى ، أو لإرهاب أعدائه .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم ؟ [يقصد السجود] قال : فقيل : نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأَطأَنَّ على رقبته ، أو لأعفرنّ وجهه فى التراب ، قال : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

يصلى ، زعم ليَطَأَ على رقبته ، قال : فما فجئهم منه إلا وهو ينكُص على عقبيه . ويتقى بيديه . قال : فقيل له : مالك ؟ فقال : إن بينى وبينه لخندقاً من نار . وهولاً . وأجنحة . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : لو دنا منى لا ختطفته الملائكة عضواً عضواً ، قال : فأنزل الله عز وجل : « كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ... ، كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ... إلى آخر السورة » .

وذكر ابن هشام فى سيرته خبراً آخر عن أبى جهل أنه توعد رسول الله إذا سجد فى صلاته أن يفضخ رأسه بحجر ، فبينا رسول الله يصلى ، فلما سجد احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه . حتى إذ دنا منه رجع منهزمًا ممتقعًا لونه مرعوبًا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده ، فقامت إليه رجال قريش فقالوا : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، والله ما رأيت مثل هامته . ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فَهَمَّ بى أن يأكلنى .

قال ابن إسحاق : فذكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذلك جبريل عليه السلام ، لو دنا لأخذه .

فهاتان صورتان من تدخل الغيب لحمايته صلى الله عليه وسلم ، شهدهما عدو الله أبو جهل ، فى لحظة لا يكون فيها إلا الصدق المطلق ، وقد رأى بعينيه هذا الهول يحول بينه وبين رسول الله ، ومع ذلك ظل على جحوده وكفره ، فقد طمس الله بصيرته ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلعله كان يفسر ظهور هذه القوى بأنها من أثر السحر الذى وصف به القوم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهو التفسير الذى بدا فى عرض قريش على رسول الله أن يعالجوه من هذا الذى يأتيه ، إن كان رَئِياً من الجن لا يستطيع أن يرده عن نفسه ، لقد كان القوم يدركون وجود عالم الجن ، ولكنهم فيما يبدو كانوا يشكون فى عالم الملائكة ، ومن ثم وجدناهم ــ كما سجل القرآن عنهم ــ يتصورون الملائكة بنات الله وإناثه ، من باب السخرية والإساءة إلى ما يتصل بالملأ الأعلى .

غير أن جبريل ، وهو الملك العظيم الذى حمل السفارة إلى محمد ، كان يبدو فى أشكال كثيرة ، منها أشكال الوحى المختلفة التى نص عليها حديث البخارى (أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى) ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة مرفوعاً : (لم أره ــ يعنى جبريل ــ على صورته التى خلق عليها إلا مرتين) أى : على الصورة الملائكية . (انظر فتح البارى ١/ ٥٤) .

وقد جاء أيضاً فى حديث البخارى : (كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل فقال ما الإيمان ؟ .... ثم ... ما الإسلام ؟ ... ثم .. ما الاحسان ؟ ثم قال : متى الساعة ؟ ... ثم أدبر فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ردوه ، فلم يروا شيئاً ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم) .

والواقع أن جبريل عليه السلام لم يفارق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ نزل بالوحى ، على مدى ثلاث وعشرين سنة ، لم يفارقه إلا لكى يعاوده بالوحى مرة أخرى ، وهو خلال ذلك يتعهده بالتسديد ، والدفاع عنه ، ويساعفه بالأخبار عن أصحابه ، وعن أعدائه ، حتى اكتمل الوحى ، وتمت نعمة الله على أمة الإسلام .

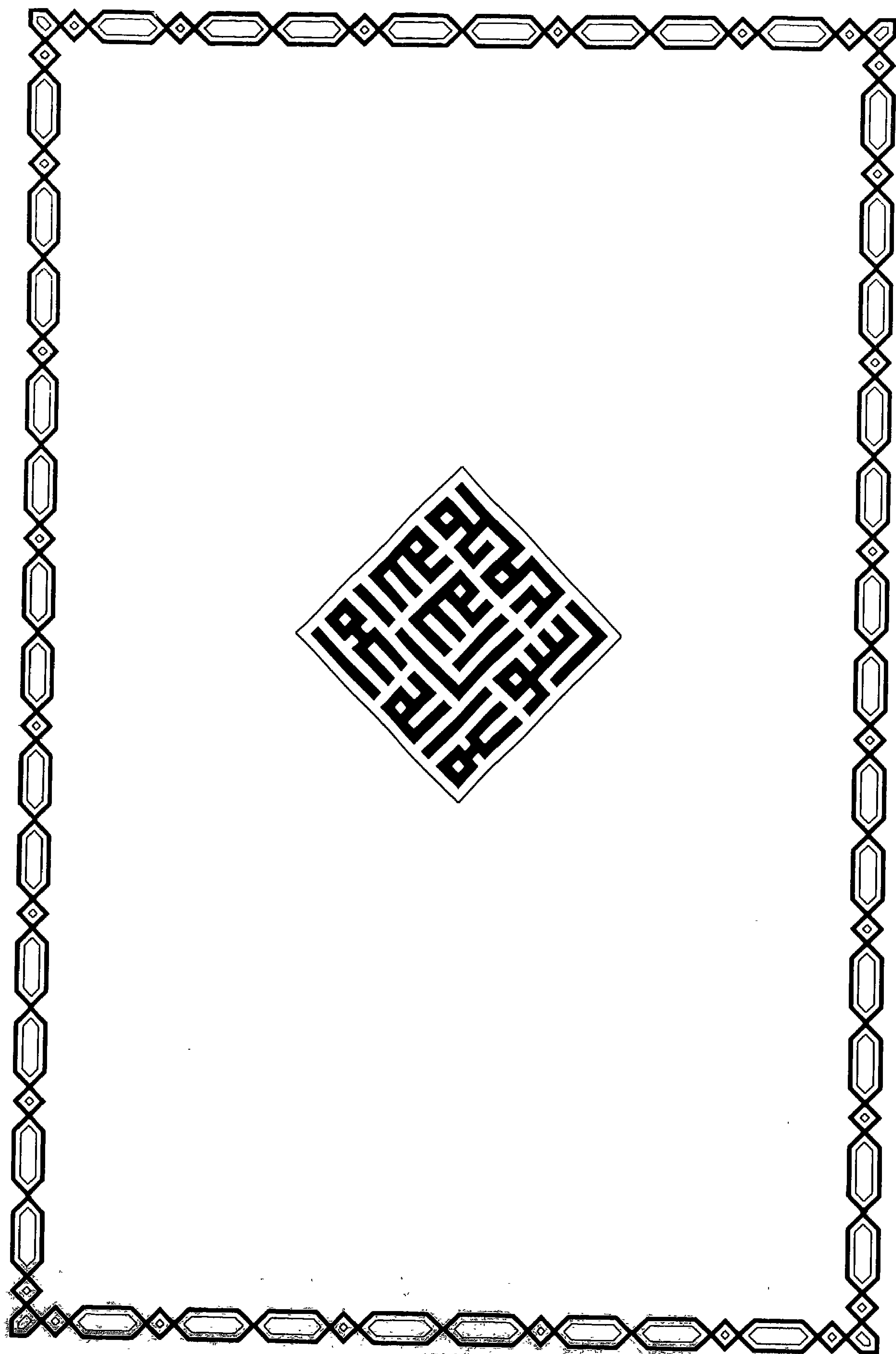
خاتمة :

إن تأملنا لحياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعونا إلى الاعتقاد بأنها كانت مطبوعة بطابع غيبي فى جميع المراحل ، وحسبنا أن نقرأ هذا الأثر عن رسول الله ، (إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى) ، وذلك مع ضرورة التحفظ تجاه ما ذكر فى أحاديث من الضعاف أو الموضوعات ، عن طبيعته النورانية ، وهى أخبار واهنة بنى عليها بعض الغلاة والمتنطعين أفكارا شاطحة ، ومذاهب سخيفة تكاد تجرد رسول الله من بشريته التى أكدها القرآن ، وربما ذهب بعض هؤلاء المجانين إلى حد الإشراك والتجديف فى تصور علاقة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ برب العزة ، وتعالى الله عما يصفون أو يشركون .

يكفى أن نقول ببساطة : إن رسول الله كان فى معية دائمة ، معية عبادة وخشوع ، فهو فى ليله ونهاره ، وفى صحوه ومنامه ، وفى بيته وخارجه ، ومع أزواجه أو مع الناس ـ لم يكن إلا موصولاً بأسباب الغيب ، بل إن الغيب فى حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حضوراً لا يغيب ، لأن الله ، وهو غيب الغيب ، كان فى قلبه بجلاله ، وبكماله ، ومن ثم لا نستطيع أن نخلى دقيقة واحدة من حياة رسول الله من هذا الحضور الإلهى الذى كان به رسول الله محمد سيد المرسلين ، وإمامهم ، حتى كان له هذا الشرف المسجل فى قوله الله فى كتابه الكريم :

« إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا » .

ولن ينال محمد من الشرف والسؤدد أعظم من أن يقال : إنه (عبد الله ورسوله) ، بعيدًا عن أن يكون حبنا له غلوًا فى ذاته ، أو إنكارًا ، أو تأويلا لما وصف به فى نص القرآن .



جوامع المستشرقين

الأستاذ الدكتور
محمد شامة

أودع الله فى الإنسان غريزة ، تدفعه إلى الاعتقاد فى قوة أعلى منه ، يخشى بطشها ، ويخاف عقابها ، فترتعد فرائصه إذا ظن انها غير راضية عنه ، أو شعر بأن عقابها سيناله إن عاجلا أو آجلا .

ولهذا فهو يحاول جاهدا لاسترضائها ، واستمالة عطفها ، واستدرار رحمتها ، وذلك بأن يلتزم بكل ما يعتقد أنه أوامر صدرت منها ، سواء كان ذلك إيجابا أو سلبا ، أى : فعلا أو اجتنابا ، فهو يصدع لأوامرها فينفذها ، ويلتزم بنواهيها فيتجنب كل ما حرمته عليه .

ذلك هو شأن الإنسان أينما كان ، وفى أى عصر وجد ، لم تخل حياته من هذه الظاهرة ، سواء كانت معيشته بدائية ، أو كان محفوفا بأساليب التقدم والرقى ، ومنعما على بساط النتاج الحضارى يقطف من ثمراته فى كل لحظة يحياها . ويرشف رحيقه مع كل نسمة يستنشقها . إذ أن الغريزة الدينية جزء منه ، وقطعة من كيانه لا ينفك عنها ، ولا يتخلص منها ، مهما جنحت أفكاره فى تصور هذه القوة التى تسيطر عليه ، فما يعرف عن بعض الناس بالميل إلى الإلحاد أو إنكار الله فليس إلا صورة من صور اختلاف تصور هذه القوة ، أو أسلوبا من أساليب التعبير عما يكمن فى داخل الإنسان من غريزة التدين .

فالتدين ظاهرة عامة يشترك فيها الناس قاطبة ، غير أنهم يختلفون فى تصور حقيقة الدين ، وفى مفهوم ما ينبغى أن يكون عليه المرء ليصبح متدينا ، ومن هنا جاء تعدد الأديان واختلافاتها ،

غير أن المشاهد لهذا التعدد يرى أنه ينقسم إلى قسمين :

قسم سماوى : أى ما نزل من عند الله على رسله الذين اصطفاهم ليبلغوا وحيه إلى الناس .

والآخر غير سماوى : ويدخل فى ذلك دعوات المصلحين ، وادعاءات من أضفوا على أنفسهم ثوب القداسة الدينية لينالوا جاها بين الناس وقبولا عندهم .

ومن الطبيعى أن ينشأ بينهم وبين أصحاب الدعوات الإلهية خصومة حادة ، لتنافر مبادئ كلا الفريقين فى الأهداف والغايات ، وتباعدها فى السلوك والاتجاهات ، وتباينها فى الأخلاق والعبادات .

كذلك من المعروف تاريخيا أن أصحاب الدعوات البشرية ساندت بعضها ـ فى معظم الأحيان ـ ضد الأنبياء واستعانت ببعضها لوقف تأثير الدعاة إلى الله فى المجتمع الإنسانى ، وكان هواهم وتأييدهم المعنوى ـ فى حالة العجز عن التأييد المادى ـ مع من يتفقون معهم فى طبيعة العقيدة ومصدرها ، فقد فرح مشركو مكة عندما انتصر الفرس الوثنيون على الروم ، أتباع عيسى بن مريم ، وماذاك إلا لأنهم كانوا يرون أنهم أقرب إلى الفرس منهم إلى الروم لتشابه عقيدتهم فى الصورة العامة ، وقرب الصلة بين ما يدعو إليه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين عقيدة الروم .

كان من المفروض ـ قياسا على هذا ـ أن يميل أهل الروم إلى الإسلام فيعتنقوه ويناصروا نبيه ، ويقفوا صفا واحدا فى جبهة واحدة ضد الوثنيين وأصحاب النحل البشرية ، لكن ذلك لم يحدث ، فهم قد ناصبوه العداء ، فجادلوا المسلمين وافتروا على الإسلام ، وتجنوا على رسوله ، فأشاعوا عنه مالم يكن فيه ، وقالوا عن لسانه ما لم يقله ، وأولوا فى آيات القرآن الكريم بما لم يحتمله اللفظ ولا تقبله أساليب اللغة ، وماذاك إلا بسبب أنهم حرفوا فى رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ ، فأدخلوا فيها ما لم ينزل على هذا النبى الكريم ، وتركوا كثيرا مما أخبرهم به .

فلو بقيت رسالة عيسى عندهم كما نزلت لحدث التقارب والتلاحم بينهم وبين المسلمين ، ولكن بعدهم عن الوحى الذى نزل على عيسى ، وإحداثهم أشياء من صنع الإنسان فى دين الله ، أبعدهم عن الإسلام وحولهم إلى أعداء له ولرسوله ، بل إنهم تجاوزوا فى اتهامهم لنبى الإسلام مفتريات أهل مكة الوثنيين ، واستمر هذا الاتجاه سائدا عندهم حتى العصر الحديث .

قادت الكنيسة حملة شعواء ضد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فظلت تلقن أتباعها الافتراءات والاتهامات ضده حتى صار هذا الجانب جزءا لا ينفصل عن الثقافة الأوروبية ، ولا

يستطيع أحد التخلص منه بسهوله . يقول «جو تشالك» :

«إن التقاليد الأوروبية الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ تجعل من الصعب علينا أن نلتزم الحياد فى بحث سيرة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فتأثير المسيحية متغلغل فى كل جوانب مجتمعنا ، لدرجة لا تمكننا من الفصل بين حياته وبين رسالته الدينية ، لأن هجوم بعض النقاد على القرآن ـ الذى هو دستور الحياة للمسلمين ـ أقل بكثير من الهجوم على سيرة محمد ، ومقصدهم من ذلك إفهام الأوروبيين أن من تكون حياته على هذا النحو لا يمكن أن يكون جادا فى دعوته للناس إلى دين صحيح .

«ساد هذا الرأى ـ وما زال ـ بين كثيرين ، بل وصل الأمر إلى أكثر من هذا . فقد وصفوه صراحة ـ دون تورية ولا تكنية ـ بأنه محتال وسفاح وشهوانى . فالحقد السياسى الذى نتج عن انتشار الإسلام وسيطرته على كثير من مناطق العالم ، والتعصب الدينى دفعا هؤلاء الكتاب إلى البحث عن الجوانب المظلمة لاستخدامها فى وقف المد الإسلامى ، فوجدوا نقطة بداية هذا الخط فى حياة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستخدموها كدليل على أن الإسلام لا يصلح لشىء منه ، للتنفير منه» .

لم يزل اتجاه الأوربيين فى محاولة وقف المد الإسلامى قائما حتى اليوم ، وإن اتخذ أسلوبا أقل عنفا ، وأكثر هدوءا من أساليب الكنيسة فى عصر ما قبل النهضة ، لأن طبيعة العصر حتمت عليهم أن يقلعوا عن السباب الفاضح ، والهجوم السافر ، فتحول عداؤهم للإسلام إلى وجه آخر ، حيث لبس ثوب الأسلوب العلمى ، إلا أنه لم يتعد فى هذا المجال الغلاف الخارجى ، فهو طافح بالحقد ، ملىء بالمفتريات ، غير أنه مغلف من الظاهر بالادعاء بأنه بحث علمى ، إذ ما زالت الافتراءات توجه إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وسوف نعرض بعض ما يقوله المحدثون سعيا منهم إلى التشكيك فى الإسلام ، ونوضح لهم خطأهم بأسلوب علمى محض :

١ ـ أراد المستشرقون التشكيك فى السيرة النبوية ، فاستعانوا على ذلك بالحديث عن حادثة شق الصدر ، مؤكدين أنها أسطورة ، وعللوا ظهورها فى المجتمع الإسلامى بأن المسلمين حين أرادوا شرح قوله تعالى : «ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك . ورفعنا لك ذكرك» اختلقوا هذه الحادثة لبيان معنى هذه الآيات الأربع ، وهى لم تحدث على الإطلاق فهى من نسج خيال المسلمين البعيد عن الواقع .

ونحن ـ المسلمين ـ لا نوافقهم على أنها أسطورة ، لأن كتب السيرة كلها ذكرتها ، فمن

المستبعد أن يجمع كل هؤلاء على إلباس الأسطورة لباس الحقيقة . وهم الذين كانوا يدققون ويحققون فيما يروون من أخبار .

وإنكار بعض علماء المسلمين فى العصر الحديث لهذه الحادثة ، استنادا إلى أن ماورد فى كتب التاريخ لا يعد من الحقائق العلمية المؤكدة ـ وهو ما دفع المستشرقين إلى اعتبارها أسطورة ـ لا يعد مطعنا يدخل منه أعداء الإسلام للهجوم عليه ، لأنها ـ أى حادثة شق الصدر ـ لا تتعلق بعقيدة ، وليس لها صلة مباشرة بتعاليم الإسلام المفروضة .

أما ادعاؤهم بأن الدافع إلى ظهورها ، هو وجود الآيات الأربع الأولى من سورة «الانشراح » فلا يقوم عليه دليل مستو فى الأركان ، ذلك أن الباحث ينبغى ألا يعتمد فى بحثه إلا على ما يذكر فى الكتب المعتمدة لا على ماكتب فى عصور الانحطاط الفكرى فى المجتمع الإسلامى ، ولا على ماكتبه غير المتخصصين ، وما أكثرهم فى مجال الأديان ، فلم يربط المفسرون المتخصصون بين قوله تعالى : «ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك . ورفعنا لك ذكرك » وبين حادثة شق الصدر ، بل أجمعوا فى تفسيرهم لهذه الآيات على أن الله مَنَّ على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

ـ بأن أزال الحقد من نفسه ، وأودع فيها هدى ومعرفة وإيمانا وفضائل وعلومًا وحِكمًا .
ـ وبأن خفف عنه ما أثقل ظهره من أعباء النبوة والرسالة حتى يقوم بها ويبلغ رسالة ربه .
ـ وبأنه رفع شأنه باختياره للرسالة .

وهى نعم تدل على أن الرعاية الإلهية ستصاحبه

ولا نجد ربطا بين هذه الآيات وبين الحادثة إلا فى كتب لا وزن لها ، ولا يعتمد عليها فى بحث علمى له قيمة ، وعليه فأى نتيجة تترتب على الأخذ من مثل هذه الكتب لا قيمة لها فى نظر الباحث المدقق .

٢ ـ ادعوا أن والد السيدة خديجة لم يكن موافقا على زواجها من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فاحتالت عليه لتنتزع الموافقة منه ، وكانت حيلتها أن سقته خمرا حتى أسكرته ، ثم انتزعت منه الموافقة فى حال سكره .

وأمانة البحث العلمى تحتم عليهم ألا يقتصروا على رواية واحدة فيما ورد فيه عدة روايات ، فقد جاء فى كتب السيرة :

أن خويلدا (والد السيدة خديجة) أبرم هذا الزواج وهو سكران ، فلما أفاق أنكر ذلك ، ثم

رضيه وأمضاه ، وفى ذلك يقول راجز عن أهل مكة :

لا تزهدى خديج فى محمد نجم يضىء كما أضاء الفرقد

كما ذكرت رواية أخرى أن خويلدا كان إذ ذاك قد هلك ، وأن الذى انكح خديجة ـ رضى الله عنها ـ هو عمها : عمرو بن أسد .

كما يقال أيضا : إن الذى أنكحها هو أخوها عمرو بن خويلد(١) .

وليس فى الرواية الأولى ما يفيدأن السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ سقت والدها خمرا لتنتزع منه الموافقة كما ذهب المستشرقون إلى ذلك ، إذ من المحتمل أنه شرب كعادة العرب آنذاك عندما يقام احتفال ، ولاشك أن خطبتها مناسبة تدعو إلى الشرب ، فأكثر والدها منه فلما جاءت لحظة الموافقة « الروتينية » بعد إلقاء كلمات الخطبة كانت الخمر قد أسكرته . فالموافقة الضمنية سبقت سكره ، وعليه فلا مجال هنا للطعن .

هذا إذا سلمنا بصحة هذه الرواية ، ولكننا إذا التزمنا بمبادئ البحث العلمى لا نستطيع ذلك ، لأن هناك روايتين أخريين تدلان على أن خويلدا لم يكن على قيد الحياة ، عندما تزوجت السيدة خديجة محمد بن عبد الله ، مما يجعلنا نشك فى الرواية الأولى برمتها ، وهذا يسد المنافذ التى يريد أعداء الإسلام المروق منها للطعن عليه بأى كيفية ، فإن وجدت عندهم الرغبة الصادقة فى التزام قواعد البحث العلمى ، مهما كانت النتيجة التى يوصل إليها ، فيجب أن يلزموا الصمت إزاء هذه الحادثة ، فلا يتخذوها مادة للتشهير .

٣ ـ من المسلم به أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وظل كذلك حتى انتقل إلى ربه ، غير أن بعض المستشرقين المحدثين يدعون أنه تعلم القراءة والكتابة وهو كبير ، وذلك عندما اشتغل بالتجارة ، إلا أنه لم يعرف لغة أجنبية . مما جعله يخطئ فى النقل من الأديان الأخرى .

وهذا ادعاء لا وزن له ، ولولا الخشية من تأثيره على بعض المسلمين الذين لا صلة لهم بالدراسات الإسلامية المتخصصة لأهملناه ، إذ من القواعد الأولية فى البحث العلمى أن يستند الرأى إلى دليل .

فمن أين أتى هؤلاء المستشرقون بالدليل على هذه الدعوى ؟ .

---

(١) راجع « السيرة النبوية » لابن هشام : تحقيق مصطفى السقا وأخرين ص ٢١ ص ١٩٠ .

إن قالوا : مصادر إسلامية ، فقد افتروا وكذبوا ، إذ لا يوجد البتة مصدر واحد ـ مهما كانت قيمته ومركزه فى مجال البحث العلمى ـ يمكن أن نجد فيه أدنى إشارة إلى أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعلم القراءة والكتابة وهو كبير ، بل العكس هو الثابت ، إذ أجمعت المصادر كلها على أنه ظل أميا طول حياته وأكدت ذلك .

وإن قالوا : مصادر غير إسلامية ، فالرد على ذلك من وجهتين :

الأولى : كيف يتيح عالم لنفسه أن يعتمد على مصادر الخصم للوصول إلى نتيجة سلبية ، خاصة وأن الخصم غير حيادى ؟ .

الثانية : لم يذكر المستشرقون تلك المصادر التى اعتمدوا عليها حتى نقومها ، ومن المؤكد أنه لا يوجد مصدر واحد أيد هذا الادعاء باستثناء بعض النتائج التى ذكرها أمثال هؤلاء المستشرقين اعتمادا على افتراضات ، وهى لا تؤدى إلى حقيقة علمية ، بل إلى تخيلات يظنها الباحث المغرض حقيقة ، بينما هى لا تخرج عن دائرة الأساطير التى سيطرت على مجال البحوث الدينية فى العصور الوسطى .

أما ادعاؤهم بأنه أخطأ فى النقل من المسيحية واليهودية فيكفى للرد عليه أن الإنسان الذى لم ينل حظا وافرًا من الثقافة يستطيع أن يتبين خطأ هذا الادعاء ، ذلك أن النظام المنقول ـ فى جميع فروع النشاط الإنسانى ـ لابد أن يحتفظ ببعض صفات المنقول عنه ، مهما عدل فيه وغير ، فأين هى سمات المسيحية واليهودية فى الإسلام ؟ .

لقد انفرد الإسلام فى العقائد والشرائع بالأصالة ، وخالف ماورد فى الكتب الموجودة عند اليهود والنصارى .

ففيما يتعلق بالإله يقول أحد العلماء الأوربيين :

« الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الإله شكلا بشريا . أما المسيحية فإن لفظة « الله » تحيطها تلك الصورة الآدمية . لرجل شيخ طاعن فى السن ، قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تجاعيد بالوجه غائرة ، إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة ، تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء ، ونسمع القوم يصيحون : « ليحى الله » فلا نرى للغرابة محلا ، ولا نعجب لصيحتهم ، وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة ، وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر ، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة ؟ .

كذلك « يا هوذا » الذى يمثلون به طهارة التوحيد اليهودى ، فهم يجعلونه فى مثل تلك المظاهر المتهالكة ، وكذلك تراه فى متحف « الفاتيكان » وفى نسخ الإنجيل المصورة القديمة .

أما « الله » فى دين الإسلام الذى حدث عنه القرآن فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى به ريشته ، أو ينحته إزميله ، ذلك لأن الله لم يُخْلَق ، وتعالى سبحانه ، فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، « لم يكن له كفوا أحد »[1] وفيما يتعلق بالعبادة : فمختلفة كل الاختلاف ، فصلاتنا ليست كصلاتهم ، ومناسك حجنا تختلف عن مناسكهم ، وقواعد زكاتنا لا تتفق مع ما يلتزمون به فى هذا المجال ، وصيامنا على النقيض من صيامهم . فكيف يعقل أن يكون محمد قد نقل عن اليهودية والنصرانية ؟

والصحيح أن يقال : إنه صحح دين الله الذى حرفوه ، وبين شريعته التى بدلوها وغيروها[2] .

٤ ـ يدعى المستشرقون أن قيام السيدة خديجة بأعمال التجارة هيأ لمحمد الوقت للتفكير فى النواحى الدينية ، فهاله ما عليه القوم من عبادة الأوثان ، فاتجه إلى عبادة الله وحده وساعده على ذلك بعض العوامل التى وجدت آنذاك .

منها ما كان عليه الحنفاء من انصراف عن الأوثان ، ومحاولة البحث عن الحق .

ومنها ما سمعه من اليهود عن التوحيد عندما كان يزور أقاربه فى المدينة .

لم يثبت تاريخيا أن محمدا تردد على المدينة ، بل زارها مرة واحدة وهو ابن ست سنين فى الرحلة التى ماتت فيها أمه وهى فى طريق العودة ، ولا يعقل أبدا أن يعى طفل فى السادسة أمور الدين ، فضلا عن أعقد شىء فيه وهو التوحيد .

كذلك لم يثبت أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت له صلة بالحنفاء ، أو كان يجلس إليهم ، إنما الحادثة الوحيدة التى التقى فيها بأحدهم هى : عندما ذهبت به خديجة إلى ورقة بن نوفل لتسأله عن ماهية ما حدث له فى غار حراء ، ويبدو من سؤال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورقة ـ عندما قال له : ليتنى حيا إذ يخرجك قومك ! ـ : « أو مخرجى هم » أنه لم يكن يعرف شيئا من سيرة الأنبياء السابقين ، ولم يكن له علم بما حدث لهم من قومهم حين دعوهم إلى عبادة

---

(١) « أوروبا والإسلام » : د/عبد الحليم محمود ص ٧٧ .

(٢) للمزيد من معرفة الأحكام التى خالف فيها الإسلام ما جاء فى كتب اليهود والنصارى الموجودة بين أيديهم اقرأ كتاب : « بين الإسلام والمسيحية » تحقيق وتعليق د/محمد شامة .

الله . وهذا دليل واضح على أنه لم يسمع شيئا عن هذا إطلاقا ، لا من اليهود ، ولا من الحنفاء .

٥ ـ يدعى المستشرقون أن ما كان يصيب محمدا أثناء تلقيه الوحى ما هو إلا نوبات صرع وقد رد عليهم «جو تشالك» الألمانى فقال :

«هذا خطأ من الوجهة العلمية ، وذلك :

ـ أن المصروع لا يتذكر شيئا مما حل به أثناء نوبة الصرع لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل ، وقد أثبت ذلك البحث العلمى وأكده ، ولم يكن ذلك يصيب محمدا فى أثناء الوحى ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة فى تلك الأثناء تنبها لا عهد للناس به ، وكان يتذكر بدقة بالغة ما يتلقاه ، ثم يتلوه بعد ذلك لأصحابه .

ـ وأن الذى ينتابه الصرع بهذه الكثرة تضعف قواه بمرور الأيام ، ولكن محمدا ظل محتفظا بها حتى آخر حياته ، مما يدل على أنها لم تكن نوبات صرع .

٦ ـ يدعى المستشرقون أنه حين اشتدت الوطأة بمحمد وصحبه نزل الوحى بأن الله اعترف ببنوة ثلاثة من الأصنام كبنات له ، فأدخل ذلك السرور على المسلمين وهدأت ثورة المشركين ضد الدعوة ، ورجع المهاجرون من الحبشة عندما وصلهم النبأ ، ولكن الوحى عاد فصحح ذلك اللبس الذى حدث ، ويستدلون على ذلك بنصوص من الكتب الإسلامية .

قد يقال : إنهم لم يأتوا بدعا من القول ، فالقصة رويت فى كتب إسلامية ، والمستشرقون يولونها اهتماما بالغا ، وعليه فمن الطبيعى أن يرددها أوربيون لم يدرسوا مثل هذه القصة فى معاهد إسلامية ، وليست لديهم الروح الإسلامية التى تدفعهم إلى محاولة تنقية التاريخ الإسلامى مما علق به ، لأن تلك الروح مصدرها المجتمع الإسلامى أو العقيدة ، وكلاهما غير موجود فى عالم هؤلاء فهم ليسوا مسلمين ، ولا يعيشون فى مجتمع إسلامى .

والموقف يقتضينا أن نذكر ردا بسيطا يقتنع به كل قارئ مهما كانت درجة ثقافته ، ألا وهو :

ـ أن هذه الرواية التى ذكرت تلك القصة مشكوك فى صحتها ، وإذا تطرق الشك إلى دليل فقد حجيته .

ـ زد على ذلك أن المرء إذا قرأ الآيات التى أوحت بهذه القصة وهى :

«أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى»

ثم أضاف إليها النص المزعوم الذى أحدث البلبلة وهو :

«تلك الغرانيق العلا . وإن شفاعتهن لترتجى»

ما استقام المعنى إطلاقا ، إذ عقب هذا مباشرة ـ على فرض صحة النص المزعوم ـ جاء قوله تعالى :

«ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذن قسم ضيزى» .

فكيف يستقيم المعنى ، لو أقحم النص المفترى بين تلك الآيات ؟ .

لا يستقيم إلا فى عقل سقيم ! ! !.

٧ ـ يعلل المستشرقون رفض أهل الطائف دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخوفهم على مصالحهم التجارية ، فقد كانت تربطهم بأهل مكة معاملات تجارية كانت ستتأثر لو اتخذت قريش منهم موقفا عدائيا إن هم أسلموا .

هذه قضية صحيحة إلى حد ما ، وتحدث فى جميع المجتمعات البشرية فى كل العصور والأزمان ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد لرفضهم الإسلام ، بدليل أنهم رفضوه بعد أن أسلمت قريش وسلمت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل هناك أسباب أخرى :

منها أن الإنسان مثل النبات مربوط فى مجتمعه بعدة جذور ثقافية واجتماعية وعقدية وهى المصطلح على تسميتها بالعادات والتقاليد ، وعند التحول فى أى ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية لا يكون الأفراد متساوين فى القدرة على تقطيع هذه الجذور ليتحولوا إلى الاتجاه الجديد ، فبعضهم يستطيع التخلص منها بسرعة ، والبعض الأخر يبطئ إلى أن يصل الأمر إلى إكراه بعض الأفراد على التحول (قد تكون وسيلة الإكراه معنوية : وذلك عندما يجد المرء نفسه هو الوحيد ـ أو مع قلة قليلة ـ المتمسك بالقديم) .

وموقف العرب من الإسلام لم يخرج عن هذه القاعدة ، تباطأ أهل مكة والطائف فى التخلص من العقائد البالية ، بينما أسرع أهل يثرب بالتحول إلى الدين الجديد وهذا هو ما يعبر عنه فى قوله تعالى :

«فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء» .

٨ ـ يدعون أن المدينة أصيبت بمجاعة نتيجة لهجرة ٢٠٠ أسرة إليها ، فاضطر ذلك محمدا إلى اتخاذ إجراء للخروج من هذا المأزق ، فوجه المسلمين إلى التعرض لقافلة قريش التى كان يقودها أبو سفيان .

هذا الادعاء باطل من أساسه ، لأن المدينة كانت غنية بخيراتها ، فلم تحدثنا كتب السيرة بحدوث مثل هذه المجاعة .

فمن أين استقوا هذه المعلومات ؟ .

لا شك أنها استنتاج من تصورات خيالية فى ذهنهم ، فقد خيل لهم أن التعرض للقافلة كان الدافع إليه هو احتياج أهل المدينة لما تحمله ، وليس هذا هو أسلوب البحث العلمى الذى يجب أن يقوم على حقائق ، وليس على افتراضات متخيلة ، زد على ذلك أن القرآن الكريم قد بين أن الغرض من التعرض للعير ليس للاستيلاء عليها ، بل الهدف منه هو إحقاق الحق ، أى كسب اعتراف « دولى » بشرعية الدعوة ، كى لا يتعرض لها أهل مكة ، لأن إدراكهم للخطر الذى تتعرض له قوافلهم سوف يدفعهم إلى المصالحة والتخلى عن الوقوف فى طريق الدعاة .

ومن يقرأ قوله تعالى :

« وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . » يدرك هذا المعنى ... اللهم إلا أولئك الذين تشدهم عاداتهم وتقاليدهم إلى طريق العداوة للإسلام ، حيث يكون هدفهم الهجوم عليه والكيد له .

هذا بعض ما ظهر فى أبحاث المستشرقين فى أروقة البحث فى الجامعات الألمانية ، وما يردده أعداء الإسلام وينشرونه فى أبحاثهم ودورياتهم ، وهو وإن كان بعيدا عن البحث العلمى النزيه إلا أنه أخف بكثير مما كان يردده آباء الكنيسة عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القرون الوسطى .

وأمل المسلمين كبير فى أن يأتى اليوم الذى تزول فيه هذه البقية من الغشاوة ، فيفهم الباحثون الإسلام كما أراده الله .

ولن يأتى هذا اليوم دون جهود علماء المسلمين فى تفنيد مزاعم المستشرقين ، وبيان وجه الحق فيما يدعون ، وذلك أمر لا يقدر عليه الأفراد بل لابد من تكاتف الهيئات والمؤسسات العلمية فى العالم الإسلامى .

وفق الله الجميع لما فيه خير الإسلام . وسدد خطاهم على طريق الحق والصواب إنه سميع مجيب .

البيان النبوى

الأستاذ الدكتور
إبراهيم عوضين

نشأ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين قوم يعتزون بالكلمة ، ويحتفلون بالعبارة الرائقة ، ويوظفونها فى شئون حياتهم المختلفة ، فهى فى ميدان الحرب وسيلة التحميس ، وهى عند الضيق وسيلة التنفيس . وهى فى الأعياد وسيلة التعبير عن الفرحة ، وهى فى المعابد وسيلة التأثير ، وهى عند النزاع وسيلة الاستمالة ، وهى فى الليل وسيلة سمرهم ، وفى النهار وسيلة حياتهم ..!

من ثم حرصت كل قبيلة على أن تضم أكبر عدد من الفصحاء ، لتطمئن على تدفق الحياة فى شرايينها .

ولما شاءت إرادة الله سبحانه أن يبعث من هؤلاء القوم رسولا يبين وينذر ويهدى إلى سواء الصراط ... اصطفى من بينهم محمدًا ، لأنه وحده الصالح لتلك المهمة فطرة ، وعقلا ، وسلوكا ، وبيانًا .

فكان بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبرز عوامل التأثير فى قومه ـ من أسلم منهم ومن لم يسلم ـ حتى لم يجد ألد خصومه مفرًا من أن يقولوا : هو ساحر يسحر ببيانه من يستمع إليه .

تلفت العرب ، فوجدوا الفارق كبيرًا بين بيانهم الذى طالما اعتزوا به وبين بيان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى نشأ بينهم وعاش فيهم ، حتى ليخيل إلى الناظر فى البيانين أن لا صلة بين صاحبيهما .

ولقد كان هذا الفارق الكبير وراء وهم كبير سيطر على أولئك الذين خاصموا محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعاندوه ، فقالوا إنه تعلم على أيدى رهبان النصارى ، وحصل من أفكارهم فكره .

بل لقد كان هذا الفارق الكبير وراء تفسير معاصريه ممن حقدوا عليه لسبقه إياهم فى هذا الميدان وفى غيره ، فقالوا : هى نفثات ساحر يستولى بها على لب سامعه ، ظنًا منهم أن هذا يكفى فى تعليل تفوقه عليهم هذا التفوق الظاهر ، مع أنه ـ كما يرون ـ يمتح من المعين ذاته الذى منه يمتحون .

ولو نظر هؤلاء وأولئك إلى البيان النبوى وصاحبه نظرة موضوعية مجردة من الغرض والحقد ، لرأوا الحقيقة ، ولعرفوا أن وراء تفوقه أسرارًا بيانية لم تتح لهم هى التى منحته القوة المؤثرة فى نفوس من يتلقونه على امتداد الزمان واختلاف المكان .

وكان من أبرز عوامل الاختلاف بين بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبيان قومه ... أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ حدد من أول الأمر لبيانه وظيفة ـ أو حددت له ـ فقد رأى أن كل كلمة تخرج من فيه إن هى إلا رسول بينه وبين المتلقين عنه ليبلغهم رسالة ربه التى قصر عليها فى قوله تعالى :

« قل : يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » [٤٩ الحج]

وقوله : « فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين » [٨٢ النحل]

فإذا كان الأديب ـ عربيًا وغير عربى ـ يبحث عن الفكرة ، أو ينتظرها حتى تواتيه ليلبسها ثوبًا من تعبيره الذى تخصص فيه ليلحق بأديب ذاع صيته ، أو لينافسه على ما نال من شهرة ، أو ليمكن لنفسه عند قومه حين يقنعهم بأنه أصبح لسانهم المدافع عنهم .

إذا كان هذا هو ـ فى الغالب ـ الدافع الذى يدفع الأديب لينطق ، فإن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان غير ذلك ، إذ لم يكن أديبًا محترفًا ، بل كان مكلفًا بدعوة محددة المعالم ، واضحة الأبعاد ، وعليه أن ينتقى مما أوتيه من فصاحة العبارة التى تناسب الموقف ليوصل الفكرة إلى المتلقى ... فكل هدفه أن يجعل من الكلام وسيلة توصل ما عنده إلى من يتلقى عنه ... كل وفق حاله ، وحسب بيئته .

ومن ينظر فى المأثور من أدب العرب الجاهليين والإسلاميين يجد أنهم عنوا ـ فى الدرجة الأولى ـ بالشعر وتفننوا فيه ، وقلبوه على شتى وجوهه ، فكانت لهم أوليات وسوابق لم تؤثر عن

غيرهم ، اعتزوا بها ورددتها ألسنتهم فى مجالات كثيرة ، سواء فى ذلك التصوير المبدع ، والإيجاز الحكيم ، والإطناب اللائق ، والوقوع على المفرد الموحى ، والخلوص إلى المعنى الرائق . فكان الشعر ميدان تفوقهم ، ومحك تنافسهم ، ومظهر براعتهم ، وسلاحهم المشهور فى كل حال ، من حرب وسلام ، وعمل وسمر ، وعبادة ولهو ، حتى خيل إلى الدارسين أنهم كانوا يتعاملون بالشعر دون غيره , به يأكلون ويشربون ، وله يتحركون ، وعليه ينامون . !

وعلى هذا كان السابق منهم أستاذ اللاحق ، منه يأخذ ، وعليه يتعلم ، وبه ينمو ويتسنم مكانه بين شعراء قومه .

فالعربى لهذا ـ وإن كان البيان واحدة من أهم أدواته فى الحياة ـ ما كان ليحقق وجوده الفنى ، ويصل إلى مكانه البيانى إلا بتهذيب الكلام ، ومراجعة الصيغ ، والمبالغة فى إحكام العبارة وتجويد النسج ، حتى يصل إلى ما يصبو إليه من مكانة وصل إليها سابقه ، أو يضمن لنفسه التفوق عليه ، فأدبهم ـ لذلك ـ أدب حرفة وصنعة .

ومن ثم لم يسلم هذا الأدب من الاضطراب والاستكراه ، ولم يخل من كلمة غيرها أفضل منها فى موقعها ، ولا من إطناب فى موطن الإيجاز ، وإيجاز فى موطن الإطناب

هذا إلى أن الناظر فى أكثر كلامهم يجد نفسه أمام كلام يشد بكثرة مادته ، وانطلاق لسان قائله ، وتشقيقه القول فى شتى مناحيه ، فإذا انتهى الحديث ، ورجعت إلى نفسك لتستعيد ما سمعت ، لم تجد إلا أنك سمعت كلاما كثيرًا يدل على تمكن صاحبه ، وسعة اطلاعه . أما ما تركه من أثر فى النفس فلا تكاد تجد له أثرًا يذكر .

أما بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فواضح من النظر فيه أن صاحبه لم يتوسل فيه بأى وسيلة من وسائل الصنعة المتكلفة ، ولا اعتمد فيه على زينة مقصودة ، ولا جاوز به مقدار الإبلاغ فى المعني الذى يريده .. لا تختلف به حالة عن حالة ، فهو فى التأنى والروية لا يختلف عنه فى البديهة والمفاجأة ، ينهل من منهل واحد ، ويبين فى نسق واحد ، تستمع إليه فتدرك أنك أمام إنسان لا يهتم بغزارة المادة ، ولا يتباهى بتوليد الكلام وتشقيقه ، ولكنك تلمس فى قوله حرارة وإيمانًا يشدانك إليه ، وتجد فى كلامه دقة ووضوحًا ينقلان إليك ما يريد ، فأنت معلق به ، فإذا انتهى من كلامه وجدت نفسك مملوءة بما سمعت وأحسست بتأثيره يسرى فى كيانك ، ليحدث فيك أثر السحر .

من ثم كان ضروريًا له ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصرف عن قول الشعر والتعرض له ،

لتسلم فطرته البيانية من تلك النقائص التى تعتور الشاعر ، من تكلف الصنعة ، والاشتغال بالمباهاة والتفاخر. وصدق الله العظيم : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » .

نعم لقد ترك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أجناس البيان ذلك الجنس الذى استغرق من بلغاء قومه جهدهم فى الكد والعلاج ، سعيًا منهم وراء التفوق والسبق ، لا قصدًا إلى الإيضاح والإبانة ... واتجه إلى جنس آخر من أجناس البيان ـ هو الذى يلائم مهمته البيانية ـ فشد أنظار قومه إلى ما صنع ، ووجههم إلى احتذائه ومحاكاته فانصرفوا عن الشعر شيئًا ما ، وحرصوا على أن يكون لهم فى ميدان النثر نشاط أدبى ، من باب التنافس والتسابق الذى اعتادوا عليه وسيطر عليهم ، ولكن دون جدوى ، فلم يكن لهم بد من التوقف زمنًا حتى يتبينوا موضع أقدامهم ، ويتمكنوا من التعرف على ما فى كلامه من أسرار تجعله يستحوذ على السامع ، ويتملك المتلقى ، حتى صور الوهم لبعضهم أنه يتفوه بما يسحر ، فقالوا : هو ساحر.

لقد وجدوا منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تفوقًا وتبريزًا فى الإبانة بالنثر على غير عهد سابق يمكن أن يظن به احتذاؤه ، ولو توسل فى ذلك بالشعر لقالوا : من أسلافه أخذ ، وعلى هداهم سار. ولكنه تنكب طريقهم المشهور ، وسلك الطريق الوعر الذى قل فيه السائرون منهم ، وندر المتوارث المحفوظ من نتاجه ، فأبان وأفصح ، وتفرد باشتقاقه من مفردات اللغة ما يتطلبه الموقف ويستدعيه المقام من الأسماء والمصطلحات.

حقًا كان العرب يشتقون ، وينقلون الكلمة من معنى قريب أو ذى علاقة ، لكنهم لم يتجاوزوا فى أكثر ذلك التوسع فى الموجود ، فهم لا ينشئون جديدا مبتكرا

أما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان له فى ذلك من القرآن الكريم القدوة ، فابتكر فى العربية الكثير من الألفاظ التى كان العربى يقف أمامها كالغريب عليها ، يجد نفسه فى حاجة إلى السؤال عن معناها ، كما روى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأبى تميمة الهجيمى : (إياك والمخيلة) ، فقال : يا رسول الله نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (سبل الإزار) .

ولم يقف ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند حد التفرد فى الاشتقاقات المفردة ، بل لقد تفرد كذلك فى التراكيب العجيبة التى لم يكن للعرب بها عهد ، وما أثر عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من التراكيب الجامعة التى تسير سير الأمثال أضعاف أضعاف ما أثر عن أسلافه ومعاصريه من بلغاء قومه وحكمائهم ، مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى يوم بدر : « هذا يوم له ما بعده » ،

وقوله لأنجشة لما رآه يجهد الإبل بحدائه فتضطرب النساء فى الهوادج فوقها وتهتز : « رفقًا بالقوارير » ، وقوله فيمن مات ميتة لا تحمل له ذكرى : « مات حتف أنفه » وقوله يوم حنين حين اشتدت الحرب : « الآن حمى الوطيس » . والمأثور من ذلك أكثر من أن يحصر أو يحصى .

وإذا كان البليغ فى الأمة يمتاز على غيره بالجملة الواحدة ، أو ببضع جمل من ذلك ، فإن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم لأمته فى المفردات ما يملأ معجمًا لغويًا ، وفى التراكيب ما يملأ أسفارًا , ليقف السابق واللاحق خلفه دون منازع .

وإذا كان البليغ فى الأمة يمتاز بما يمتاز به عن قصد وتعمد ، حتى يبز سابقيه ، ويتفوق على أقرانه ، ويحقق لنفسه الزعامة على معاصريه ولا حقيه ، فإن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما قدم من مفردات وتراكيب مأثورة ـ ما قصد من وراء ذلك تميزًا ولا تفوقًا ولا زعامة ، وإنما قصد أن يصل بما يقول إلى سامعيه .. إنما قصد الإبانة القائمة على رعاية ما يقتضيه الحال ، والمستمدة من فطرة بيانية صادقة كل الصدق ، صافية أنقى الصفاء , فحقق أرقى ما يسعى إليه الأديب من إقناع وإمتاع . بيد أن الأديب لا يصل إلى شىء من ذلك إلا بكد الخاطر ، وطول الأناة ، وتقليب الكلمات والعبارات ، لينتقى ويختار ، ثم بمعاودة النظر ، وغربلة ما صاغ ، ليصطفى ما يلائم وما يحقق الإقناع والإمتاع .

أما الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان يصدر فى بيانه عن فطرة هذبها القرآن الكريم ، فانطلقت فى هذا الميدان محققة عنصرى الإبانة الفنية ـ الإقناع والإمتاع ـ من غير حاجة إلى مراجعة الأدباء الآخرين ونظرهم وتنقيحهم واصطفائهم .

ومن ثم لم يكن غريبًا عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجمع فى بيانه فنون القول المختلفة ، وأن يكون فى كل فن منها على المستوى نفسه الذى يكون عليه فى بقية الفنون ، بحيث نجده فى كل فن يتبسنم ذروة البيان وفاء ، ودقة تعبير ، وسرعة وصول ، وسلاسة نسج ، ورعاية حال ، وقوة حجة ، وإشراق ديباجة ... يرى ذلك فى بيانه معاصروه ومن تلاهم إلى عصرنا الحاضر على مدى أربعة عشر قرنًا .

إننا ننظر فى بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فنجد فيه الحديث المباشر إلى جانب الحوار ، والخطبة ، والقصة ، والرسالة ، والابتهال ... دون أن يضطر فى واحد من هذه الفنون إلى أن يخرج عن السلك الذى ينظم قوله كله ـ وهو الدعوة إلى الإسلام وما يتفرع عليها ـ فهو فى كل هذه الفنون يعالج قضية الرسالة ، ويقوم بدور الداعية الأول .

حقيقة لم يكن على عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ علم للقوم بهذه الفنون بأسمائها التى ذكرت ، ولا لجأ إليها ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه يريد أن يقول فى هذا الفن ، أو يريد أن يعالج تلك القضية من خلال ذلك الفن .... ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ اهتدى إلى كل فن بفطرته المبينة الصادقة , لأنه الفن الذى يناسب المقام موضوعا ومناسبة وأشخاصًا إلى غير تلك الأمور.

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصد الإبانة أولا وأخيرًا ، واتجهت به فطرته البيانية الخالصة إلى الفن الذى يتطلبه الموقف ، ويستدعيه المقام ، ويناسب المتلقين.

ولا ريب فى أن قصده الإبانة لم يكن للإبانة فى ذاتها ، وإنما الإبانة وسيلة ، فهو يبين ليؤثر فى سامعيه ويقنعهم بما يقدم لهم ، فإذا هم مؤمنون بما يقول ، يعتنقونه فكرًا وسلوكا ودعوة.

وإذا كانت العبارة تحتاج فى الإبانة إلى دقة الصياغة ، ووضوح المعنى ، فإن العبارة تحتاج فى الإقناع والتأثير إلى الصدق بلونيه ـ الفنى والخلقى ـ وإلى الإمتاع بالصورة الرائعة ، والإيقاع الموسيقى المتناسق مع الجو النفسى والدينى والاجتماعى ، ماديًا كان الإيقاع أو معنويًا.

فإذا تحقق ذلك كله استجابة للفطرة الفنية الخالصة ، دون الحاجة إلى الاحتيال على العبارة ، والاعتماد على وسائل الصنعة ونحوها فى التأثير... إذا تحقق ذلك للعبارة ارتفعت إلى ذروة سنام البلاغة والفصاحة البشرية . !

ولقد تحقق ذلك كله فى بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

فإذا نظرنا فى حديثه المباشر ـ وهو الذى يوجهه إلى السامعين ليعالج به أمرًا مباشرًا ـ وجدناه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا اللون من الحديث لم يكن على وتيرة واحدة ، بل كان له فى كل موقف أسلوب وله فى كل موضوع منهج ، يقع عليه بفطرته ، فيخرج حديثه نسقًا فريدًا ، يتلاءم مع المقام الذى قيل فيه . ومن ثم أصبح كل حديث كأنه فن قائم بذاته يجتذب نفوس من يتلقونه ، ويحتفل به كل من يسمعه ، دون أن يشعر بملل من تكرار الكلام أو تكرار الموضوع.

* * *

تراه فى الحديث المباشر مرة مقررًا ، يهجم فيه من أول الأمر على غرضه ، دون أن يحتاج فيه إلى مايمهد به لما يقول من تمثيل أو نحو ذلك من وسائل التمهيد والتهيئة ، من ذلك مارواه أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

وما روى عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما : قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول :

« الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

والناظر فى هذا البيان التقريرى يلاحظ أن التقرير فيه ليس لفظيًا فحسب ، ولكنه تقرير معنوى كذلك ، يعتمد فيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ على العبارات الحاسمة القاطعة التى يضمنها أحكاما وقضايا حاسمة قاطعة كذلك ، فهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا يلجأ إليه بقصد التلوين الأسلوبى ، وإنما يلجئه إليه الموضوع الذى يتناوله ، والتلوين الأسلوبى يأتى فى بيانه تبعًا لما يقصده .

ومن ثم يلاحظ المتأمل فى بيانه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن هذا اللون من الحديث المباشر يأتى فى التشريعات المحددة ، أو التعريف بالحقائق المقررة فى مجال العقيدة أو العلاقات الاجتماعية ، أو شرح العبادات المفروضة ونحو ذلك .

وحتى لا يكون مثل هذا اللون جافًا جفاف الأسلوب العلمى ، يرى المتأمل أنه يقام على وسائل بيانية توطد الصلة بينه وبين العواطف ، فتحول بينه وبين الجمود ، وتضفى عليه من الظلال والأخيلة ما يفتقده الأسلوب العلمى فتمنحه الإمتاع الفنى إلى جوار الإقناع العقلى .

* * *

وتراه فى الحديث المباشر مرة أخرى ممثلا ، يعتمد فيه على التمثيل المطلق .

والأمثال فى الحديث الشريف لا ترد فى شكل واحد ، ولكن ترد وفقًا لمتطلبات بيانية دقيقة ، لا تحس معها بشىء من التكلف أو الاعتساف . وذلك نحو قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مما رواه أبو هريرة رضى الله عنه :

« أرأيتم لو أنَّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ! هل يبقى من درنه

شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

وما رواه أبو موسى رضى الله عنه أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

« مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

* * *

ونراه فى الحديث المباشر مرة ثالثة موصيًا ، يواجه المتلقى بالنصح والتوجيه .

فالوصايا تتميز عن التقارير والأمثال بما تتضمن من نصائح تحوج إلى شيء من التفسير والتعليل والتفصيل ، وتتطلب فى التعبير ما يستميل المتلقى لتجد الوصية طريقها مستقيمة إلى قلب الموصَى وعقله .

ولا ريب فى أن مكانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسلمين فرض عليه هذا اللون التعبيرى ، سواء كانت الوصية ذاتية عامة أو موضوعية خاصة . ومن وصاياه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذاتية العامة ما رواه الترمذى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كنت خلف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما فقال :

« يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

فالحديث مجموعة من الوصايا قدمها ـ صلى الله عليه وسلم ـ للإنسان ممثلا فى شخص ابن عباس ، كى يأخذ بها نفسه فيقوّم معوجها ، ويقيها الزلل قبل أن تقع فيه ، ويحوطها بسياج يحرسها من كل طارىء يتهدد أمنها واستقرارها .

والمتأمل فى هذه الوصية يلاحظ أن مضمونها أقيم على حفظ الله ومراقبته وعدم الغفلة عنه ،

والوفاء بعهده وميثاقه . ويلاحظ أن بناءها أقيم على خطاب القلب والعقل فى الإنسان ، بحيث لا يجد مفرًا من الإقتناع والتسليم بما ضمنت من توجيهات . ويكفى المتلقى أن يسمع النداء (يا غلام) ليقبل على من يناديه ..! فتنساب إلى كل منافذه تلك العبارات السهلة الرقيقة بما تحمل من مضامين مشعة ، فى سلاسة ويسر.

ومن وصاياه الموضوعية العامة ما رواه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن :

«إنك ستأتى قومًا من أهل الكتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب» .

فعلى الرغم من أن هذه الوصية بمثابة دستور يوضح لمعاذ حدود تصرفاته مع المبعوث فيهم ، ويبين لهم المنهج القويم فى سلوكه ونطقه وتكيفه بينهم ... على الرغم من ذلك ، نجده ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه قد تجاوز الأسلوب العلمى المحدد المحض ، بما أقام عليه وصيته من إيحاءات ذات ظلال وإشعاعات بيانية خصوصًا فى المطلع والخاتمة .

فالبيان فى الألوان الثلاثة ـ التقرير والتمثيل والوصايا ـ مباشر كما ترى ، ولكنه لونه بما يتناسب مع المضمون . والموقف ، والمتلقى ، دون أن تحس وراء ذلك اعتسافا أو تكلفًا .

وإذا نظرنا فى بيانه الحوارى وجدناه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه يحاور سائلا ليقرر قضية من القضايا التى عالجها الإسلام ، أو ليجلو قيمة من قيم الإسلام ، أو ليوضح بعض عقائد الإسلام .

والبيان الحوارى وسيلة من أهم وسائل الإقناع ، لأن متلقيه يجد نفسه فى شخص السائل المحاور ، بما قد يثير من شبهات ، أو ما يطرح من قضايا يستوضح حقيقتها ، ويستجلى أبعادها .

ولا ريب فى أن الفارق كبير بين الحوار فى بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والحوار فى الأدب المسرحى ، إذ الحوار فى الأدب المسرحى يقوم على تقديم المتحاورين وحوارهم للمتلقى ، أما الحوار فى البيان النبوى فإنه يقوم على رواية حوار بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وآخر . كما أن الحوار فى الأدب المسرحى تتعدد عناصر التحاور فيه وتختلف اتجاهاتها وقضاياها من موقف إلى

موقف ، لتنشأ عن ذلك حركة قصصية تنتقل بالمتلقى من مبتدأ القصة إلى منتهاها ، حيث تهيئ له مشاهدة أحداثها جميعًا ، أما الحوار فى البيان النبوى فيقتصر على عنصرين اثنين هما السائل والمسئول ، ولا يتغير واحد منهما ، بل تظل الأسئلة والأجوبة حتى يتم الكشف عن الحقيقة الدينية ، أو التعريف بالعقيدة المجهولة والمقصود توضيحها والتعريف بها . مثال ذلك مارواه البخارى ومسلم عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل نجد ، ثائر الرأس ، يسمع دوىّ صوته ولا يفقه ما يقول ، حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فقال : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وصيام رمضان . قال : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع . قال : وذكر له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الزكاة ، قال : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا. إلا أن تطوع . قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا و لا أنقص . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أفلح إن صدق» .

إن الفن الحوارى يأخذ مكانه فى البيان النبوى باعتباره وسيلة تختلف عن غيرها من وسائل البيان الأخرى ، وتفرضها على البيان ملابسات الواقع الحى .

وهو يتميز عن الحديث المباشر بذلك السائل الذى يتخلل الحديث ، مثيرًا انتباه المتلقين واهتمامهم بما يلقى من الأسئلة التى يدور فى رءوسهم مثلها ، بحيث يجعلهم يترقبون الإجابة لتجد مكانها من النفوس المهيأة لاستقبالها ، فتقر وتتمكن .

أما فن الخطابة فى البيان النبوى فقد كان له مكانه منه ، إذ أقبل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أقبل على غيره من فنون البيان ليوظفه فى الدعوة إلى الإسلام ، استجابة منه لأمره تعالى فى قوله: « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » لأن الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلة القوم بالتى هى أحسن إنما تتيسر أكثر ما تتيسر فى الخطابة ، وما تستلزمه من التقاء ومواجهة ومناقشة ومحاورة .

من ثم كان له ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الفن منهج غاير به ما كانت عليه الخطابة من قبل ، فقد نهج فيه الأسلوب الأمثل الذى يصله بقلوب الناس وعقولهم ، وتحاشى ما كان عليه فى الجاهلية من سجع مصنوع : فأصبحت الخطبة نسقًا مرتبًا ، وبناء مشيدًا يصل من أوله إلى منتهاه ، تدور حول غرض واضح فى ذهنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ينتقل فيها من جزئية إلى

جزئية ، حتى إذا تكامل الموضوع ، وتقرر لديه أن السامعين ألموا بما يريد أن يقدمه لهم أنهى خطبته نهاية تناسب ما ضمنها .

لقد أحدث محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى فن الخطابة انقلابًا كبيرًا ، فبعد أن كانت الخطبة فى الجاهلية لا ترتكز على أساس من وحدة الموضوع وصحة المنطق ، أصبحت على عهده ــ صلى الله عليه وسلم ــ تقوم على الموضوع الواحد المحدد الأبعاد ، الواضح الحجة ، بحيث يمهد إليه فى مقدمة الخطبة ، حتى إذا أتم العرض ، أنهى الخطبة بما يناسب الموقف ، بحيث أصبحت الخطبة بنية تقوم على مقدمة وعرض وخاتمة ، يتناول فيها أحد جوانب الدعوة الإسلامية ، من عقائد وعبادات وقيم وأخلاقيات وآداب سلوكية ، وغير ذلك مما جاء به الإسلام أصولا وفروعًا .

وكان ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى خطابته حريصًا على مراعاة الموقف والقضية التى يعالجها والناس الذين يخاطبهم ــ شأنه فى جميع فنون البيان التى توسل بها ــ فجاءت خطبه لذلك متباينة الطول والأسلوب ، فالذى يعنيه فى الخطبة أن يوصل بها الفكرة إلى نفوس سامعيه ، دون نظر إلى طول الخطبة أو قصرها ، فالخطيب متمكن من موضوعه ، يملك زمام الكلمة ، بحيث يتنقل من فكرة إلى فكرة فى وضوح واتزان ، فإذا كانت المناسبة تقتضى الإيجاز أوجز ، وإذا عرض ما يقتضى الإفاضة أفاض وأسهب ، فقد روى أبو سعيد الخدرى أن محمدًا ــ صلى الله عليه وسلم ــ خطب ذات يوم بعد العصر فما زال يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة فوق أطراف السعف .

إن الذى يلفت النظر فى خطابته ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه كان لا يعتمد على إثارة المشاعر ، وتهييج العواطف ، بل كان يحرك المشاعر والعواطف من خلال العقل والمنطق الصادق ، فإذا المتلقى مستجيب عن اقتناع ، ولعل هذا سر ميله إلى الإيجاز فى أكثر الأحيان ، حتى فى المواقف التى يظن أنه سيميل فيها إلى الإفاضة ، ولكنه بنظره الصائب يرى غيرما يتوقع فيوجز الإيجاز الحاسم ، كما صنع صلوات الله وسلامه عليه فى خطبته يوم فتح مكة ، حيث توقع الجميع منه خطبة يتعرض فيها لتاريخ الدعوة الطويل ، وموقف أهل مكة منه ، ليصفى حسابًا بينه وبينهم ويتشفى ويشمت معددًا نعم الله عليه ، ومشيرًا إلى مؤازرته له ..الخ كل هذه التوقعات . ولكنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال فى قوة هادئة :

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمىّ هاتين ، إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ،

وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا فيها الدية مغلظة منها أربعون خلفة فى بطونها أولادها » .

« يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

« يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أما البيان القصصى فقد كان من أبرز الفنون فى البيان النبوى ، تقديرًا منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لدور القصة فى التأثير ، وإدراكا منه لأثرها فى المتلق , إذ الفطرة تدعو النفس البشرية إلى الإقبال على القصة ، والإصغاء لمن يتفوه بها ، استجابة لحب استطلاع المجهول ، ومتابعة للأحداث ، وتطلعًا إلى النتائج والنهايات .

ودارس الأدب العربى فى العصر الجاهلى يجد إقبالا فطريًا من العرب ـ شعراء وغير شعراء ـ على فن القصة , فهى الإطار العام لمطولاتهم (المعلقات) ، وهى القالب الفنى الذى يضمنونه تاريخهم من وقائع وأيام ، حرصًا منهم على خلوده وانتشاره فى الزمان والمكان . فالقصة بديل التدوين والكتابة التى لم يكونوا يملكون من آلاتها ووسائلها ما يحقق لهم المطلوب منها .

بيد إن القصة فى البيان النبوى تأخذ سمت البيان النبوى ذاته ، فمضمونها هو مضمون البيان النبوى على العموم ، وأسلوبها يكاد لا يختلف عن باقى فنونه , إذ الكل يفيض من نبع واحد ، وينطلق متشعب الطرق إلى غاية واحدة . فإذا كانت القصة عند الجاهليين سجلا لأيامهم ووقائعهم ، ومعرضًا لمفاخرهم ومعاليهم ، ومرآة لمواقفهم ومغامراتهم ، ومسلاة فى محافلهم ومنتدياتهم ... فإن القصة فى البيان النبوى وسيلة من وسائل الدعوة إلى الإسلام ، تقرر العقيدة ، وتبسط الفكرة ، وتشرح المبدأ ، وتوضح الطريق ، وتفسر القرآن ، وتحذر من الخطأ ، وتذكر بالخير ، وتبين ما غمض أو أبهم .

أما ما يردده بعض الدارسين من أن القصة فى البيان النبوى ليست عملا فنيًا ، وأنها حكاية تنقل الحدث مجردة من مقومات القصة الفنية ... فهو وهم أملاه عليهم خطأ فى المقدمات التى يبنون عليها نتائجهم ، إذ مقومات القصة ـ كالشأن فى مقومات كل شىء ـ لا يمكن بحال أن تكون ثابتة فى كل عصر ، يراها الجاهليون فى الحدود التى يراها عليها المعاصرون ، بل لا يمكن أن تكون ثابتة فى كل موطن فى العصر الواحد ، بحيث يراها العرب المعاصرون بالمقاييس ذاتها التى

يراها فيها الأوربيون المعاصرون ... إلا إذا كان هؤلاء وأولئك خاضعين لمستوى واحد من البيئات الفطرية والثقافية واللغوية والسياسية ونحوها .

إن أبرز ما يطلب فى العمل الفنى أن يصل به صاحبه إلى مناط الحركة النفسية والفكرية والسلوكية والعاطفية فى متلقيه ، فيقتدر على توجيهه فى الوجهة التى يريدها نفسيًا أو فكريًا أو سلوكيًا أو عاطفيًا ، فإذا تمكن صاحب العمل من إقامته على القوة المحركة لهذه الجوانب الإنسانية ، فقد وفر لعمله عناصر الفن التعبيرى ، لأنه أقامه على وسائل الإقناع والإمتاع التعبيرية .

أما ما عدا ذلك من المقومات المادية ، فهى أمور عصرية بيئية ، لا يطالب بها من عاش خارج بيئتها زمانًا ومكانًا ، بل كُلٌّ مطالب بألا يخرج على أبعاد بيئته حتى لا يكون غريبًا .

ومن هذا المنطق كانت القصة واحدًا من أبرز الفنون التعبيرية فى البيان النبوى ، فقد عالج أصعب القضايا وأشقها على العقل الإنسانى اقتناعًا وسلوكا ، من خلال واقع أبرزه البيان فى صورة حادثة قصصية . كما نرى فى قصة (الثلاثة والغار والصخرة) ، حيث بين ـ صلى الله عليه وسلم ـ قيمة العمل الصالح ، وأثره فى كشف ما يصيب الإنسان من كوارث الحياة ، وإمكان الاستشفاع به إلى الله . وكما نرى فى قصة (الأبرص والأقرع والأعمى) ، حيث عالج ـ صلى الله عليه وسلم ـ قضية الإنسان بين حاضره وماضيه ، فكشف عن اختلاف الناس فى ذلك وتباينهم ، فمنهم من يتنكر لماضيه تماما ويحاول أن يسقطه من ذاكرته ويلغى هذه المدة من حياته ، ظنًا منه أن فى هذا انتقاصًا لمكانته التى وصل إليها . ومنهم من يظل على ذكر لما كان عليه ، لا يشغله ما وصل إليه عما كان فيه ، متخذا من هذا التذكر دافعًا إلى الخير .

والناظر إلى القصة فى البيان النبوى يلاحظ أنها لا تهتم بإبراز الأشخاص إلا بالقدر الذى يكشف عن الحدث ، ولا تهتم بالأحداث إلا بالقدر الذى يبرز المواقف . ثم هى تنتقى من المواقف التى تبرزها الأحداث ذلك الموقف الذى يوصل المتلقى إلى الغاية ، ويحقق الهدف .

فالقصة فى البيان النبوى بنية متكاملة من الفن البيانى ، تقوم على الحقائق التاريخية المقررة فى فكر صاحبها ، فهو يعرف ـ من أول الأمر ـ خط سيره فيها ، بحيث لا ينتقل من موقف إلى موقف إلا ليصله بالخاتمة التى تنتهى عندها القصة ، حيث يقر فى ذهن متلقيها ما أراد صاحبها ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقر فيه .

والرسالة من الفنون البيانية التى توسل بها ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دعوته ، على خلاف

ماكان ذائعًا عند العرب الجاهليين ، فقد كانوا يعتمدون فى مثل ذلك غالبًا على المشافهة .

والناظر فيما روى من رسائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يجد أنها كتب بعث بها إلى أشخاص مختلفى الجنسيات والمشارب يدعوهم فيها ـ لمكانهم من قومهم ـ إلى الإسلام ، ويحذرهم من مغبة الانصراف عن الدين الجديد ، ويحملهم مسئولية أنفسهم وقومهم جميعًا لما لهم من تأثير قوى فيهم .

فالرسائل النبوية أسلوب من أساليب الدعوة ، أو هى فن من فنون البيان توسل به ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما توسل به من وسائل بهدف التعريف بالدين الجديد والكشف عن حقيقته التى كلف من ربه بتبيانها والدعوة إليها .

وهذا يعنى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رسائله كما هو فى سائر الفنون البيانية ـ لم يكن سوى رسول مبلغ ينتقى من وسائل البيان ما يحقق به غايته ، ويؤدى به واجبه ، وليس أديبًا محترفًا يقصد بما يكتب أن يتفوق على غيره ممن ينافسهم أو ينافسونه فى مجال القول والتعبير .

ولا ريب أن البون شاسع بين مبين لا يسيطر عليه إلا تحقيق الإبانة ، فهو يتوسل إليها بكل وسيلة تمكنه من ذلك ، وبين مبين يقصد ببيانه أن يعلن على الناس مقدرته البيانية ، وتمكنه اللغوى ، ومكانته الفنية بين أنداده وضربائه .

ولتحقيق الغاية من الرسالة حرص ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن تتلاءم الرسالة مع المرسل إليه إيجازًا وإطنابًا ، وسهولة ووعورة ، ودقة وتخييلا . وإن بدا عليها ـ فى الجملة ـ أنها نوع من الإبلاغ الرسمى المحدد فى دقة وإحكام والذى يتشابه مع اختلاف المرسل إليهم ، ولكن مع شىء من التأنى والنظر يتبين مدى الفرق بين الرسالة والأخرى ، إذ لم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليغفل عقلية المرسل إليه ، واتجاهه الدينى ، وواقعه الاجتماعى والسياسى . فرسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى النجاشى تختلف عن رسالته إلى كسرى , وذلك لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرف أن النجاشى كتابى يؤمن بالمسيحية ، ولديه ثقافة دينية مستمدة من الكتب السماوية . فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، إلى النجاشى الأصحم ، سلم أنت ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على

طاعته ، وأن تتبعنى بالذى جاءنى ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين . فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت . فاقبلوا نصحى . والسلام على من اتبع الهدى » .

أما كسرى فكان ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعلم تكبره وصلفه ، وأنه ليس من أهل الكتاب . فكانت رسالته إليه محددة حاسمة ، لا إيماءات فيها ولا تخييل .

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله .

« أدعوك بدعاية الله عز وجل ، إنى رسول الله إلى الناس كلهم ، لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين .

« أسلم تسلم ، فإن توليت فعليك إثم المجوس » .

هذان النموذجان من رسائله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يكشفان عن بعد نظره ، واتزان تقديره للأشخاص ، ودقة تعبيره ، وتمكنه من زمام اللغة تمكنًا أقدره على أن يخاطب كل إنسان بما يناسبه ، ليقوم بواجب الدعوة استجابة لأمر ربه ، وإسقاطا لعذر من قد يحاول أن يعتذر بعدم بلوغه الرسالة .

ويتقرر هذا إذا نظرنا فى كتابه إلى أكثم بن صيفى الحكيم العربي ، الذى جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى . أحمد الله إليك . إن الله أمرنى أن أقول لا إله إلا الله ، أقولها وآمر الناس بها . والخلق خلق الله ، والأمر أمر الله ، خلقهم وأماتهم ، وهو ينشرهم . ولتعلمن نبأه بعد حين » .

فقد جعل من كتابه إشارات تنبئ أنها من حكيم يعى تمامًا طبيعة من وجه إليه الرسالة ، ويعرف ما اشتهر به بين قومه من الحكمة والنظر المتأنى .

وجعل من كتابه إلى الحكيم المتأنى منبهات إلى الكون وأهم ما يدور فيه ، رابطا بين ذلك وبين ما يدعو إليه فى روعة الفنان الحكيم الدقيق ، فكان الكتاب هذه الكلمات المعدودات التى يعرف مخاطبه بأن ما يدعو إليه إنما هو بأمر ربه ، وأن ما أمر به ليس خاصًا به وحده ، ولكنه مأمور بأن يدعو الناس ويأمرهم به .

ولا ريب فى أن مثل أكثم بن صيفى ماكان يناسبه إلا مثل هذا الأسلوب ، ولاكان يلمس أوتار حسه ، ويقرع منافذ عقله إلا مثل هذه الكلمات الموجزة الوافية .

ثم إذا نظرنا فى ابتهالاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجدنا أدبًا عاليًا اجتمع له من أسباب الروعة قوة الصدق ، وحرارة العاطفة ، وجمال التعبير ، ودقة السبك ، وأسر البيان .

لقد خلف محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هذا الفن مأثورات اتجه فيها إلى الله فى كل أحوال الحياة وطوارقها ... إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا نام وإذا استيقظ ، وإذا سافر وإذا عاد ، وإذا أكل وإذا شرب ، وإذا مرض وإذا عوفى ، وإذا خاف وإذا أمن ، وإذا بزغ الهلال وإذا أفل ، وإذا أشرقت الشمس وإذا غابت ، وإذا نزل المطر وإذا انقطع ، وإذا سمع الرعد وإذا هبت الريح ، وإذا ركب وإذا مشى ، وإذا فرح وإذا حزن ، وإذا انتصر وإذا هزم .

تشرق الشمس على الدنيا فتسرى فى الكون حرارتها ، ويتنبه الناس إلى يوم جديد يستقبلونه ومعه ما يحمل من مجاهيل لا يدرى ما وراءها ، فيتجه إلى الله بقلب مؤمن خاشع يسأله العون والعافية والحفظ فى هذا المعترك الجديد بقوله :

« اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة . اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » .

فإذا أقبل المساء وظلل الكون برهبته ووحشته ، وانتشر الظلام فى الأفق . تكشفت له عظمة الخالق المبدع ، فاتجه إليه يرجوه الحفظ ويطلب منه الصون ، ويلجأ إليه ليحميه من كل شر وضر قائلا :

« أمسينا وأمسى الملك لله . والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » .

« رب أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها ، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، وأعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر » .

إنك مع ابتهالاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمام لون من البيان النبوى يكشف عن مكنون النفس ، ويصور تحركات العواطف البشرية ، واهتزاز الانفعالات المستورة أمام عوارض

الحياة ... ولست ـ كما يتوهم البعض ـ أمام أدعية مكررة ينوب بعضها عن بعض . وإلا فما سر هذا التلوين والتغيير فى الدعاء من حالة إلى حالة ؟ !

إنها دعوات طاهرة ، تصدر من نفس مؤمنة ، تتجه إلى الله فى كل حالة بما يناسب ، وليتضح الطريق أمام المقتدين به ، فهو المثل الأعلى والقدوة والأسوة ... على طريقه يسير المسلمون ، وبهديه يلتزمون .

ومن عجب أن دارسى الأدب ونقاده يحتفلون بألوان من فنون الأدب الهابط من هجاء ومجون وغزل بالمذكر ، ويتجاهلون مثل هذه الروائع البيانية بما تحمله من صدق وجمال وتصوير دقيق !

مما تقدم ـ على إجماله ـ نستطيع أن نتعرف على أبرز خصائص البيان النبوى التى تميزه من بيان غيره من بلغاء العرب ، وتسمو به إلى قمة البيان العربى ، إعلانا بأنه بيان إنسان اصطفاه ربه من بين أمته عن جدارة واستحقاق ليتحمل عبء الدعوة الجديدة ، وليكون مبينًا لكتابه ، وداعيًا إلى دينه ، ونذيرًا وبشيرًا وهاديًا إلى صراط مستقيم .

وإذا كان نقاد الأدب ودارسوه قد اعتادوا فى هذه السبيل منهجًا ثابتًا يقوم على تقليب النظر فى عناصر الأسلوب التى حددوها من فكرة وصورة وعبارة ليروا مكان العمل الأديب من غيره ، أو يقوم على إرسال كلمات فضفاضة واسعة تتكرر فى كل نقد أدبى من مثل متانة السبك ، وجزالة اللفظ ، وشدة الأسر ، أو إشراق اللفظ ، ووضوح الأفكار ، وجدة المعانى ، وحلاوة الرصف ، وبديع الانسجام ... إلى غير ذلك من الأوصاف المأثورة المحفوظة ... إذا كان النقاد والدارسون قد اعتادوا ذلك مع النصوص الأدبية ، فلسنا فى حاجة إلى مثل ذلك مع النظر فى البيان النبوى ، لأننا مع هذا البيان أمام خصائص واضحة تميزه عن غيره من الآداب دون منازع ، تفرض نفسها على الناقد الموضوعى إذا ما تأمل هذا البيان فى أناة وإخلاص .

وأول ما يلمسه الناقد الأديب فى البيان النبوى من الخصائص البيانية أنه يلتزم الإيجاز فى موطن الإيجاز ، والإطناب فى موطن الإطناب .

حقًا إن اشتمال البيان النبوى على هذا ليس فى ذاته خصيصة يختص بها من دون غيره من المبينين إذ يتصف بذلك ـ على وجه العموم كثير من أدباء العرب .

أما الخصيصة التى يمتاز بها عن غيره فى هذه السبيل فهى قيام البيان النبوى على ذلك فى كل حالاته ، فلم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حالة بالذى يذهل عن ذلك أو يغفل عنه ، وإنما

هو فى كل موقف لا يجاوز ببيانه مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريده . ولا يقف دونه .

وإذا جاز لنا أن نصفه بتلك الصفة (الإيجاز فى موطن الإيجاز ، والإطناب فى موطن الإطناب) فإنما هو مجاراة لما عليه البلاغيون وناقدو الأدب ، بيد أن أجد ما يوصف به ويوسم هو (الثبات على الاتزان) , فبيانه – صلى الله عليه وسلم – يتساوى فيه لفظه مع ما يقصده من المعنى على حسب ما يقتضيه المقام فى كل موقف من مواقف البيان .

وما ذلك إلا لأنه – صلى الله عليه وسلم – يبين عن فطرة خالصة من شائبة التصنع والاحتراف ، هذه الفطرة تدرك المدلول اللغوى للكلمة ، وتحيط بإيحاءاتها واستعمالاتها ، ويتضح أمامها ما يقصد إليه ليبين عنه وحدوده المناسبة للمقام الذى يتكلم فيه ، فهو – صلى الله عليه وسلم – يتكلم بصيرًا بما يقصد ، بصيرًا بما يعبر عنه ، بصيرًا بمن يخاطب ، متمكنًا من اللغة ، يقول ما يقول دون أن يستعين له بأسباب الإجادة التى تتطلع إليها الفطرة اللغوية فى الإنسان ، ودون أن يحوله عنه ما قد ينشأ عن الموقف المفاجئ من حاجة إلى تقدير وروية وأناة وبعد نظر .

وإذا قلبنا النظر فيما بين أيدينا من فنون البيان النبوى وجدناها جميعًا تستوى على نسق واحد ، فما تجده فى البيان المباشر – من دقة التصوير ، ووضوح العبارة ، وحسن الديباجة ، وإحكام النسج – تجده فى البيان الخطابى والقصصى ، وما تجده فى البيان المكتوب أو المرسل تجده فى البيان المنطوق ، وما تجده فى البيان الموجز تجده فى البيان المطول مهما بلغ الطول ، بل إن ما تجده من ذلك فى مطلع الخطبة الطويلة تجده فى ثناياها وفى خاتمتها .

لقد كان – صلى الله عليه وسلم – فى بيانه يسير على وتيرة واحدة من القوة مهما تغيرت المواقف والدواعى ، وأيًّا كان لون الفن الذى يتوسل به ، وعلى أى هيئة كان . وهذا لا يستقيم لكائن مخلوق سواه , إذ الكائن خاضع لحاجات وطوارئ تغير من استعداده ، فيتحول من النشاط إلى الكسل ، ومن الإقبال إلى التردد والصد ، ومن الإفصاح إلى العىّ والإقلال ، ومن الانشراح إلى الاكتئاب ... إلى غير ذلك من عوارض الحياة .

وما كان – صلى الله عليه وسلم – بالذى يخضع بيانه لأى من هذه العوارض البشرية إذ يبين ، فقد أوتى من القوة والقدرة ما يمكنه من تنحية هذه العوارض عن بيانه .

ونظرة إلى مختلف فنونه البيانية ، تقرر هذا الذى نقول ، بحيث يرى من يتأمل مطلع إحدى خطبه الطوال ويقارن بينه وبين خاتمتها أن المطلع والخاتمة يستويان أتم استواء وأدقه جزالة ورقة ،

ورونقًا وجفافًا ، وتوعرًا وانسيابًا ... وأن ليس بين المطلع والخاتمة أى فارق من نشاط وفتور ، أو قوة وضعف ، أو وضوح وإبهام . وكذلك حال من يحاول أن يقارن بينه فى فن من فنون البيان وفن آخر , فدقة التصوير فى الحديث المباشر لا تختلف عن دقة التصوير فى الرسالة متى كان الموقف يتطلب التصوير ، ووضوح الغرض فى القصة النبوية يماثل وضوح الغرض فى فنون البيان الأخرى .

وإذا نحن رحنا نبحث عن سر استواء هذا البيان على نسق واحد ، بدت لنا خصيصة أخرى تميزه عن غيره من الآداب .

تلك الخصيصة هى عدم التكلف فى جميع حالاته ، إذ كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمتح من معين لغوى لا ينضب ، هيأته له فطرته المتميزة ، وإذ كان فى تعبيره لا يخضع لما يخضع له المحترفون من الحرص على التفوق وإحراز السبق على من عداه ، وترضى السامعين ، والتزلف إليهم ، مما يضطر المبين إلى إقامة بيانه على أسباب التصنع والتكلف ، حيث يعمدون إلى تهذيب كلامهم ومراجعته قبل أن يتفوهوا به ، ويضطرون إلى تكرار النظر فيه طلبا لتجويده وإحكامه ، فيحذفون ويضيفون ، ويستبدلون الكلمة بالأخرى ، ويقدمون ويؤخرون .. !

وماكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيانه يضطر إلى شىء من هذا ، لأنه لم يكن يجاوز بكلامه مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريده ، وما يتطلبه من وسائل الإقناع والتأثير .

هذا إلى أن المبين المحترف ـ كما يضطر إلى تكلف الصياغة ـ يضطر إلى تكلف المعنى والفكرة التى يعرضها فى كلامه ، إذ اللاحق دائما خاضع للسابق ، فهو يأخذ من أفكار السلف وحكمهم ، ويضيف إليها من تجاربه الشخصية ليصوغ منها ما يضمنه عباراته .

أما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم ينزل إلى هذا المعترك القائم على التنافس ، ومن ثم لم يكن مضطرًا إلى ذلك الذى اضطر إليه الآخرون ، وإنما كانت معانيه وحيًا وإلهامًا ، وكانت حكمه فطرة وإعدادًا ربانيًا ، ويكفى أن تتلمذ على القرآن الكريم ، يأخذ عنه ، ويسير فى إطاره ، فحق له أن يقول فى هذا الصدد : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . ولقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذا فقال فى تزكية منطقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى » .

ولا عجب فى هذا إذا تذكرنا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُعد هذا الإعداد الخاص ليحوز هذا التفوق فى ذلك الميدان الذى تميز فيه قومه ، ورأوا أنفسهم فيه القادة والسادة ، إعلانًا من

الله جل شأنه أن من يخاطبكم ليس شأنه شأنكم ، وإنما الذى أعده ليتفوق عليكم هو الذى ابتعثه وأرسله إليكم ، مقتدرًا على أن يخاطب كلا منكم ـ على اختلاف ألوانكم ومشاربكم ولهجاتكم ـ بما يناسبه ، دون عجز أو اضطراب أو تردد .

ولم يقف ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند حد النأى ببيانه عن التكلف ، بل لقد أنحى على فصحاء قومه وبلغائهم باللوم لتكلفهم فى صوغ الكلام ونطقه ، فحذر من التشادق ، وأعلن بغضه للثرثارين المتفيهقين فقال : « أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون » .

وبتلك الخصيصة نزه بيانه عن الزيف والزور ، والفخر بالكذب ، وصرف الرغبة إلى الناس ، والإفراط فى مديح من أعطاه ، وذم من منعه .. إلى غير ذلك مما وقع فيه كثير من الأدباء .

ومن هذا المنطلق امتاز بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخصيصة أخرى كانت دليل قوته وإخلاصه وصدقه ، وإن رأى فيها بعض قصار النظر مأخذًا يحسب عليه لا له .

أما تلك الخصيصة فهى التكرار .

ما إن لمسها فى بيانه بعض الدارسين المتعجلين حتى ظنها فرصة تؤخذ عليه ، وينتقص بها بيانه ، تقديرًا منهم أن كل تكرار يعاب به الكلام .

ولو أمعن هؤلاء نظرهم لوجدوا هذا التكرار ميزة من مميزات كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى وقفوا ببيانهم دونها ، ولم يستطيعوا أن يقيموا عليها بيانهم دون انتقاص له .

إن التكرار فى البيان النبوى مما تتطلبه الدعوة ، لأن الدعوات الجديدة دائما فى حاجة إلى تقرير وتأكيد .

حقيقة إن التكرار قد يكون مملاً يبعث السأم والضيق ، فينفر وذلك إذا كان فاقد التلوين فى العرض والإبداع فى التصوير . أما إذا طرق النفوس من أبواب ملونة فإنه يكون ناجحًا مثمرًا .

والناظر فى البيان النبوى يجده قائمًا على التكرار ، لكنه تكرار المغزى الواحد فى صور مختلفة من القول تتغاير ألفاظها ومعانيها ، ثم هى تهدف إلى شىء واحد ، بحيث يتأملها المتلقى فيجد فى كل نص عنصر تشويق فى العرض والتلوين ، دون أن يحس بأن هناك تكرارًا .

قام الإسلام على الاعتقاد بوحدانية الله ، فدعا إلى إخلاص النية له ، والاعتماد عليه ، والاتجاه دائمًا إليه دون غيره من المخلوقين .

ولقد عالج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الجزئية بعدة أساليب ، فقال مرة :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » رواه البخارى .

وقال فى المعنى نفسه :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأُتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جرئ ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : ما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقى فى النار » رواه مسلم .

وروى عن أبى هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال رجل : لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق . فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية ، فقال اللهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها فى يد غنى ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غنى ، فقال اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غنى ! فأتى فقيل له : أما إن صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله » رواه البخارى .

فكرة واحدة ، قدمها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكررة ، لكنها جاءت فى كل مرة تلبس ثوبًا جديدًا كل الجدة ، بحيث لا يلمس فى البيان أى تكرار ممجوج أو مكروه .

ففى الحديث الأول قدم المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الفكرة فى بيان مباشر يعتمد على التقرير المحدد الواضح .

وفى الحديثين الثانى والثالث قدم الفكرة فى بيان أقصوصى ، تدرك الفكرة من فحوى الأقصوصة دون تصريح بما يقصد إليه .

ثم هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الثانى أدار الأقصوصة وحوارها على من فسدت نيته ففسد عمله على الرغم مما فيه من خير ظاهر .

وفى الحديث الثالث أدار الأقصوصة على من صلحت نيته وخلصت لله فارتفعت بصاحبها عند الله ، دون اعتبار لأثر عمله الظاهر .

هذا مثال واحد من أمثلة كثيرة لخصيصة التكرار فى البيان النبوى ، يكشف عن روعة هذا التكرار وقوته ويعلن أن دون الوصول إلى ذلك اللون البيانى مراحل ومراحل . لا يمكن لإنسان غير محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقطعها .

ومن أبرز خصائص البيان النبوى وحدة الموضوع فيه كله ، ودورانه فى كل ألفاظه داخل إطار هذا الموضوع ، بحيث لا تخرج جملة واحدة عن دائرة الدعوة إلى دين الله والقيام عليه . والتوضيح لمبادئه ، والتمسك بقيمه , فلن تسمع منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أخص خصوصياته البشرية ـ إلا ما يبشر بهذا الدين ويتصل به من قريب أو من بعيد .

ولقد تولد عن تلك الوحدة الموضوعية التزام كل فرعياته بما يلائم هذا الموضوع الواحد من وسائل بيانية جرسًا وإيماء ولفظا ونطقًا ، ومعنى وفكرًا ، وصورة وخيالا ... حتى ليظن الظان أن وراء ذلك قوة عظيمة هى التى نظرت فى ألفاظ اللغة وما يراد التعبير عنه ، فانتقت من اللغة اللفظ الملائم ، واصطفت من الصيغ التعبير المناسب ، وجمعت من الأخيلة والمعانى أقرب الصور وأصدقها ، ليقام عليها بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . !

والحق أن الذى وراء ذلك إنما هو قوة الفطرة ، والإعداد الإلهى له ليكون بين قومه القمة التى لا يصل إليها أحد مهما أوتى من قوة البيان والفصاحة .

وإنما كانت وحدة الموضوع إحدى خصائص البيان النبوى ، لأنها وحدة شاملة لا تقف على حالة دون حالة ، ولا تقصر على عمل دون عمل . أما الذى يسعى إليه البيانيون ممن عداه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو تحقيق وحدة الموضوع فى العمل الواحد من بين أعمالهم الأدبية ، فالشاعر يرجو ـ أو يرجى منه ـ أن تكون قصيدته واحدة الموضوع ، وليس شعره كله قائمًا على هذا الموضوع الواحد . والكاتب يرجو ـ أو يرجى منه ـ أن يقدم العمل الأدبى الواحد دائرًا فى حدود موضوع واحد ، وليست أعماله كلها . فإذا تحقق لواحد من هؤلاء أو أولئك شىء من هذا ـ أو

حتى إذا تحقق له توحيد الموضوع فى كل عمل على حدة ـ لم يتح له أن يحقق هذا التوحيد فى كل أعماله مجتمعة .

وهذا يعنى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيانه ـ ينهل من منهل واحد ، بيد أنه يلونه بالألوان التى يستدعيها المقام ، ويشكله بالأشكال التى يتلاءم معها الموقف .

ومن ثم تميز البيان النبوى بأن الفنون البيانية فيه ليست مقصودة لذاتها ، فليست الخطبة فيه مقصودة لميل منه معين إلى الخطبة ، وليست القصة ولا الحوار .. الخ كذلك ، إنما هى وسائل بيانية تفرضها ظروف خاصة فى الموقف الذى يبين فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، إذ يلمس بحسه الفطرى ما يتطلبه الموقف من فنون البيان وألوانه ، فيتوسل به ليصل إلى المتلقى من أقرب الطرق إليه وأوضحها ، دون أن يدور به فى دروب متشعبة ، حين يلتزم فنًّا مخصوصًا قد لا يكون المتلقى مهيئًا له فى ذلك الموقف بالذات ، وقد لا يكون هذا الفن صالحًا لذلك الموقف .

ولذلك لم يستطع دارس أو ناقد أن يخص بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفن من تلك الفنون دون آخر باعتباره الفن الغالب على بيانه أو البارز فيه ، إذ كل ما فى بيانه من فنون على مستوى واحد قوة ، وأداء ، وإقبالا منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وعلى العكس من ذلك تجد من سواه من البلغاء والمبينين يحصر كل واحد منهم فى فن بعينه يدور معه ويبرز فيه ويشتهر به ، بحيث يرتبط الفن بشخصه ، أو يرتبط هو بفنه , إذ الفنون الأخرى فى بيانه لا ترقى إلى مستوى هذا الفن الذى خص به , فهى عنده هامشية أو ترف يكمل به أدبه ، حتى لا يوصم بالعجز أو النقص .

من ثم تجد الأديب الشاعر ، أو كاتب المقال ، أو الخطيب ، أو القاص ، أو المسرحى ... إلى غير ذلك ، فإذا تفحصت إنتاجه الأدبى رأيته وصف بما غلب عليه فخص به .

أما أنت مع البيان النبوى فلا تستطيع أن تخصه بواحد من تلك الفنون بذاته ، بل إنه ليجمع كل فنون النثر تلك على مستوى واحد . وما ذلك إلا لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يستعبد لفن من فنون البيان ، بل لم يستعبد للبيان ذاته ، وإنما البيان عنده وسيلة مجردة من كل إضافات ، فهو ينتقى من فنونه ما يستدعيه المقام ويتطلبه الموقف .

ويترتب على تلك الخاصية فى البيان النبوى مفارقته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قرره الناقدون وغيرهم من حدود وسمات ومقاييس لكل فن ، لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يضع فى تقديره ما قرره هذا أو ذاك ، فلم يخضع للأعراف النقدية ـ على اختلافها من عصر إلى عصر ومن بيئة

إلى بيئة ـ ولم يحتذ هذا ولا ذاك لأنهم جميعًا يؤسسون مقاييسهم من النظر فى النتاج البيانى ، حيث يستنبطون منه ما يوفقون إليه من أسباب القوة وعوامل الضعف .

وما قد يصادف من موافقات فليس منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قصد ، وإنما هى الفطرة المبينة الخالصة من كل تقليد وتتبع تدفع لصاحبها المنهج ليحقق الهدف من تعبيره ، فما يصلح من فنون البيان لهذا فى ذلك الموقف قد لا يصلح لغيره فى الموقف ذاته ، وقد لا يصلح للشخص نفسه فى موقف آخر ، فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يغير أشكال بيانه وينتقى من بين فنونه الفن الملائم ، ويسير فيه بالقدر المناسب ، على الهيئة التى تحقق المطلوب .

وصفوة القول إن بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يخضع لقضايا النقد الأدبى ، بل هى التى قد تخضع له لتقوم وتمنح الخلود والاستمرار ، إذ هو البيان الخالص من أسباب الضعف الاحترافى ، الخالى من شوائب الاضطراب والتأثر بما يخرج عن الوعى الصادق بما يقول ، والبصر المدرك لما يقصد أن يعبر عنه .

تحفظات على كتب السيرة النبوية القديمة

الأستاذ
محمد عبد الله السمان

● يجب أن نعترف أولا ـ بأن الذين أرّخوا للسيرة النبوية ـ على صاحبها ـ صلوات الله وسلامه ـ قد أسدوا إلى الإسلام والمسلمين أجل الخدمات ، وبخاصة الذين أرخوا للسيرة مبكرين ، لأن تاريخ السيرة . هو تاريخ دين وأمة معا لا ينفصل عنهما ..

وفى نفس الوقت .. يجب أن يكون مفهوما أن كتّاب السيرة من علماء السلف أو من علماء الخلف ، ليسوا إلا بشرا .. يخطئون ويصيبون ، وحين يخطئون لا يتعمدون الخطأ ، لأن لهم من عقيدتهم وأمانة العلم الذى يحملونه .. أمانا من الهوى والغرض .

إن كتابة السيرة اعتمدت على الرواية والدراية .. والرواية لا ترتفع إلى مستوى التواتر ، مالم يؤيدها قرآن أو سنة متواترة ، إذن فهى تخضع للأخذ والرد والقبول والرفض . أما الدراية فهى تقوم مقام النقد للرواية نفسها ، وهذا يؤكد قابلية الرواية للأخذ والرد ، والقبول والرفض .

ويجب أن يلاحظ : أن بعض الروايات ، وبخاصة تلك التى سجلت الأحداث ، متفق على حدوثها ، ومتفق على مجملها ، ولكنها مختلف عليها فى تفاصيلها ، والبعض الآخر منها مختلف عليها جملة وتفصيلا ، وهذه الأخيرة يمكن الاستغناء عنها ، مالم تكن وثيقة الصلة بجوهر السيرة .

● وهذا البحث الموجز المتواضع يتضمن عناصر ثلاثة :

* أولا : حول السيرة النبوية .. تاريخا ..
* ثانيا : كتب السيرة القديمة .. مالها وما عليها ..
* ثالثا : واجبنا نحو كتب السيرة القديمة ..

وقد راعيت الإيجاز جهد استطاعتى ... والله الموفق ،

حول السيرة النبوية

● إن لفظتى «المغازى والسير» إذا أطلقتا ، فالمراد بهما عند مؤرخى المسلمين . تلك الصفحة الأولى من تاريخ الأمة العربية .. صفحة الجهاد فى إقامة صرح الإسلام . وجمع العرب تحت لواء الرسول محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وما يضاف إلى ذلك من نشأته ، وذكر آبائه ، وما سبق حياته من أحداث لها صلة بشأنه وحياة أصحابه الذين أبلوا معه فى إقامة الدين ، وحملوا رسالته فى الخافقين[1] ..

لقد جرت محاولات لتسجيل أحداث السيرة النبوية ، ولم يحدث شيء من ذلك فى عهد الخلفاء الراشدين ، لا شتغال الناس بالكتاب والسنة ، وربما كانت بعض المحاولات الأولى ، من عروة بن الزبير بن العوام . أحد فقهاء المدينة السبعة ، والمتوفى بين عامى ٩٢ هـ و ٩٤ هـ ، ثم أبان بن عثمان المدنى ١٠٥ هـ ، ووهب بن منبه اليمنى ١١٠ هـ ، وغيرهم . ولقد كثر اهتمامهم بالمغازى ، وما يتعلق بها ..

والحق أن تدوين السيرة على الوجه الأكمل ، إنما بدأ بابن اسحق ، شيخ مؤرخى السيرة ، والمتوفى سنة ١٥٢ هـ ، ولا نظن أحدا بعده من كتّاب السيرة لم ينقل عنه ، ويتأثر به .. كان عمله تلبية واستجابة لطلب الخليفة العباسى : «أبي جعفر المنصور» دخل عليه ابن اسحق ، وبين يديه ابنه «المهدى» وبعد أن عرّفه عليه ، قال له : «اذهب فصنّف له كتابا منذ أن خلق الله آدم ـ عليه السلام ـ إلى يومك هذا» وعندما انتهى ابن اسحق من تأليفه ، قال له الخليفة : «لقد طوّلته ، اذهب فاختصره «فاختصره» وهو الموجود بين أيدينا الآن ..

ولا شك أن ابن إسحق قد اهتم بالرواية دون الدراية ، ويعتبر ابن هشام ، المتوفى سنة ٢١٨ هـ ـ أى بعد قرن من الزمان تقريبا ، أول من اهتم بالرواية ، والدراية معا ، من خلال عمله فى

---

(١) من مقدمة التحقيق لسيرة ابن هشام بأقلام الأساتذة : السقا ، والإبيارى وعبد الحفيظ شلبى ـ مصطفى الحلبى/القاهرة ١٩٣٦ م .

سيرة ابن إسحق ، اختصرها وهذبها ، ولم يتقيد بكل ما جاء فيها ، وفى إيجاز قام بدور الناقد الأمين .

ومن الذين اشتغلوا بالسيرة . وكانوا معاصرين لابن هشام : الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ـ صاحب المغازى ـ وابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ـ صاحب الطبقات الكبرى ـ وغيرها ، ثم تتابع التأليف فى السيرة ، مستقلة ، أو كجزء من التاريخ ، مثال : الطبرى ـ ابن جرير ـ المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وكتابه : « تاريخ الأمم والملوك » يعتبر من أمهات المراجع ، وابن كثير ـ صاحب التفسير المشهور ـ المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ، وكتابه : « البداية والنهاية » من خير ما ألف ، وأجود ما أخرج للناس . ثم المقريزى ـ تقى الدين : أحمد بن على المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، وكتابه : « إمتاع الأسماع بما للنبى من الأبناء والأموال ، والحفدة والمتاع » من الشهرة بمكان . وقد خصص الجزء الأول من الأجزاء العشرة للسيرة النبوية .

* * *

● ولا شك أن السيرة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلوات ـ وجدت فى العصر الحديث عناية كبرى ، صدر للشيخ محمد الخضرى كتاب : « نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين » وصدر كتاب : « محمد » للأستاذ محمد رضا ، وقد اهتم المؤلفان بالرواية أكثر من اهتمامهما بالدراية ، كانا أقرب إلى التقليد منهما إلى النقد ، ثم صدر للدكتور محمد حسين هيكل كتاب « حياة محمد » والعلامة أبى الحسن الندوى الهندى كتاب « السيرة النبوية » وقد اهتم المؤلفان بالرواية والدراية معا ، وقدما لونا من التحليل الدقيق للأحداث والأخبار الواردة فى الكتب القديمة ، كما صدر للدكتور طه حسين كتابه : « على هامش السيرة » خارجا فيه على التقليد والمحاكاة ..

كما أن البعض لم يكتب عن السيرة النبوية ككل ، بل اختار بعض الجوانب من سيرة الرسول ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ فكتب العقاد : « عبقرية محمد » وكتب الدكتور عبد الرحمن عزام : .. « بطل الأبطال » وكتب الشيخ عبد الجليل عيسى : « اجتهاد الرسول » .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى آخر كتاب شبه مطول صدر عن السيرة ، هو كتاب الشيخ محمد أبو زهرة فى ثلاثة أجزاء . بعنوان « خاتم النبيين » والشيخ أبو زهرة يمثل الوسط والاعتدال بين الرواية والدراية . أو بين التقليد والاجتهاد ..

ويجب ألا ننسى : أن كتب التراث هى الأصل ، ولكن لا غناء بها عن المؤلفات الحديثة التى جمعت بين الرواية والدراية ، وإن كان الكتّاب المحدثون . ليسوا على درجة سواء ..

* * *

كتب السيرة من التراث

مالها .. وما عليها

● يجب أن نعترف أولا بأن الذين أرخوا للسيرة النبوية ، من كان سابقا منهم أو لاحقا . من علماء السلف . قد أسدوا إلى تاريخ الإسلام : الرسالة والرسول . أجل الخدمات ..

حسبهم أنهم سجلوا مسيرة الإسلام على مسار ثلاثة وعشرين عاما ، وبعضهم سجل فى وقت مبكر . كابن اسحق . معتمدا على محاولات سابقة عليه ، قام بها أمثال عروة بن الزبير ، وغيره ..

ولا شك أن العرب ـ قبل الإسلام ـ لم يكن لديهم مادة للتاريخ ، إلا ما كان خاصا بهم فى الجاهلية ، من التفاخر بالأحساب والأنساب ، وحروبهم القبلية ، ثم الأحداث الجسام التى مرت بهم كعام الفيل . ولكنهم لم يعرفوا تدوين التاريخ الخاص بهم ، بالقلم على الورق ، كانت الذاكرة تقوم مقام الورق واللسان يقوم مقام القلم ، عن طريق القصاصين والرواة والشعراء .

ولقد كان ظهور النبى محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ موردا جديدا للتاريخ ومصدرا إلهاميا لكل من وجد فى نفسه القدرة على كتابة التاريخ وكانت النتيجة سيلا من المدونات عن السيرة النبوية ، استقلالا ـ وهو القليل ـ وضمنا ـ وهو الكثير ـ ، والمهم أن هذه المراجع التاريخية القديمة عن السيرة ، ما تزال هى الأساس . مهما قيل فيها . ومهما أخذ عليها ..

أولا : لأن المصادر الأولى منها . اعتمدت على القرآن والسنة ، وروايات الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، وهم الذين عاصروا خير القرون الثلاثة : القرنين الأول والثانى ، ثم القرن الثالث ، ومن جاء بعدهم اقتدى بهم ، ونهج نهجهم ..

ثانيا : أن هذه المصادر كانت مع بداية عهد التدوين للعلوم والمعارف الإسلامية . امن فقه وحديث وتفسير ، بالإضافة إلى علم الكلام . وقد أفادت هذه المصادر كثيرا من هذا التدوين .

* * *

● يجب أن نشير بادئ ذى بدء :

إلى أن ما نأخذه على كتب السيرة من التراث ، ليس هدفه الإقلال من شأنها أو شأن كاتبيها ، لأنهم بمؤلفاتهم حفظوا لنا تاريخ السيرة التى هى جزء لا ينفصل عن تاريخ الدعوة الإسلامية . ولسنا مبتدعين إذا كانت لنا بعض التحفظات عليها ، فابن هشام ـ على سبيل

المثال ـ هو الذى يرجع إليه الفضل فى حفظ سيرة ابن اسحق التى تعتبر أول سيرة متكاملة وافية ، ولم تكن مهمته مهمة الناقل للنصوص بأمانة بل كانت مهمته فى المقام الأول مهمة الناقد الحصيف العدل ، جاء فى مقدمة التحقيق لسيرة ابن هشام ، وقد سبقت الإشارة إليها :

«ولم تنقطع العناية بالتأليف فى السيرة إلى يومنا هذا .. إلا أن الموضوع فى ذاته ليس أمرا يقوم على التجارب ، أو فكرة يقيمها برهان وينقضها برهان .. شأن النظريات العلمية التى نرى اتصال العلماء بها اتصال تجديد وتغيير على مر السنين .. وإنما هو أمر عماده النقل والرواية .. فكان المشتغلون به ـ أولا ـ محدثين ناقلين .. ثم رأينا من جاء بعدهم ، جامعين مبوبين .. ولما استوى للمتأخرين ماجمع المتقدمون ، جاءت فكرة النقد والتعليق .. شأن ابن هشام فى سيرة ابن اسحق» .

إذن .. فكتب السيرة القديمة ـ شأنها شأن سائر كتب التراث ـ ليست فوق النقد ، لأنها لا تتمتع بالقداسة ، ولا يتمتع واضعوها بالعصمة ، وهذا ما يراه محققوا سيرة ابن هشام ، وهى رؤية نافذ البصيرة ، واسع الأفق ، متحرر الفكر :

«ولعل النظرة إلى تراث السالفين ـ ولا سيما ما يتصل منه بعلم السير ـ نظرة فيها الكثير من التقديس .. هو الذى حال دون هؤلاء وهؤلاء أن يقفوا من هذا العلم موقفا فقدناه فى جميع المؤلفين المتقدمين على اختلاف طبقاتهم .. فلم نر منهم من عرض لما تحمله السيرة بين دفتيها من أخبار تتصف بالبعد عن الحقيقة .. فنقدها .. وأتى على مواضع الضعف منها» .

ومما يؤسف له أبلغ الأسف .. أن هناك عقليات ، ما تزال مصرة على أن لكتب السيرة القديمة قداستها ، وترفض أى مساس بها ، وتتجاهل هذه العقليات أن مؤرخا كابن اسحق قد تعرض للنقد والتجريح من بعض خيرة العلماء ، وفى مقدمتهم الإمام مالك ـ رحمه الله .

* * *

● إن مصادر السيرة النبوية ، هى فى المقام الأول : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله الصحيحة .. ثم الروايات التى نقلت عن أصحابه ، وكانت يقينية الورود على الأقل . وما زاد على ذلك كان من قبيل الحشو الذى لا جدوى معه .

فهل التزمت كتب السيرة من التراث بهذا المنهج ؟

إن الإجابة عن مثل هذا السؤال ، لا يمكن أن تكون بالإيجاب المطلق ، ولا بالنفى المطلق أيضا . لأنه مامن كتاب من كتب السيرة ، يمكن أن يعتبر ملتزما على إطلاقه . أو غير ملتزم على

إطلاقه كذلك ، وقد يكون الكتاب ملتزما التزاما مجملا بالنسبة للكتاب والسنة الصحيحة . وغير ملتزم في نفس الوقت بالتفاصيل ، أما بالنسبة إلى الروايات الأخرى عن الصحابة . فقد بلغت المؤرخين عن طريق النقل ، أى بعد فترة طويلة من الزمن .

وعلى سبيل المثال :

ليس هناك رأى قاطع فى تحديد تاريخ مولد الرسول ، ولا تاريخ وفاته ، فكل الآراء اجتهادية ، والمتفق عليه بالنسبة لمولده هو أنه ولد عام الفيل ، ولو أن ما سجله عروة ابن الزبير ظل محفوظا ، لأفاد منه تاريخ السيرة . فقد كان قريب العهد بالصحابة ، ثم وثيق الصلة بأوائل التابعين . .

أضف إلى ذلك أن مؤرخى السيرة ، أخذوا ببعض الروايات ، غير مطمئنة قلوبهم بها ، فترى ابن اسحق مثلا يقدم بعض الروايات بقوله : «وزعموا . .» أو «وتحدث الناس» ولا شك أن ابن اسحق تأثر به سائر من جاء بعده من المؤرخين .

ومما يؤخذ على كتب السيرة من التراث الإطناب إلى درجة الحشو فى بعض الأحيان ، وبخاصة فى الفترة التى سبقت بعثة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وما أشير فيها إلى الإرهاصات التى نبأت بمولده أو بعثته ، والخوارق التى صاحبته منذ أن حملت به أمه آمنة بنت وهب ، ثم ولدته ، ثم عندما كان طفلا رضيعا ، ولم يضع مؤرخو السيرة الأوائل نصب أعينهم قول الحق سبحانه : «قل إنما أنا بشر مثلكم . .» فانساقوا وراء الروايات الضحلة التى لا ترفع من شأنه ولا تصلح تقويما صحيحا لحياته .

* * *

واجبنا نحو السيرة

● من المسلّمات : أن السيرة النبوية تمثل أيضا جزءا من عقيدة المسلم ، ولو قدر لهذه السيرة أن تسجل كما هى بدون « رتوش » ، لكانت مبعث فخر واعتزاز للمسلم ، ولكانت سدا منيعا فى وجه خصوم الإسلام من المستشرقين وغيرهم ، أولئك الذين اتخذوا من السيرة النبوية ـ غير المجردة ـ مغمزا فى الدعوة ومطعنا على حامل رسالتها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

ومن المسلمات أيضا أن ما سجل فى أى كتاب من كتب السيرة القديمة ـ وحتى المؤلفات الحديثة ـ ، ليس ملزما للمسلم عقيدة ، أولا : لأن الملزم له ـ فحسب ـ هو كتاب الله . وسنة

رسوله الصحيحة . وثانيا : لأن واضعى كتب السيرة كانوا بشرا ـ غير معصومين ـ معرضين فى اجتهاداتهم للخطأ والصواب ، والروايات التى نقلوها فى مدوناتهم قابلة للجرح والتعديل ، فشأن المؤلفات ، فى السيرة النبوية ، شأن المؤلفات فى تفسير القرآن ..

وهذا ما يراه خيرة شيوخنا من العلماء . أكتفى هنا برؤية للشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر ـ رحمه الله ـ وهو من هو : علما وفضلا ، ونفاذ بصيرة ، وسعة أفق ، والذى تعتبر عقليته امتدادا لعقلية الإمام المصلح : محمد عبده .

يقول فى تقديمه لكتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل .

«وسيرة محمد ـ صلوات الله عليه ـ كسائر سير العظماء ـ أضيف إليها ماليس منها : إما عن حب وهوى وحسن قصد .. وإما عن سوء قصد وحقد .. غير أنها تمتاز عن سير جميعهم . بأن منها شيئا كثيرا ضمه الوحى الإلهى . وضمن حفظه القرآن المطهر . وشيئا كثيرا روى على لسان الحفّاظ الثقات من المحدثين ...

ثم يشير الشيخ المراغى إلى واجبنا نحو السيرة النبوية فيقول بعد ذلك : «وعلى هذه الأسس الصحيحة .. يجب أن تبنى السيرة .. وأن يستنبط منها العلماء حِكَمها وأسرارها ودقائقها ، وأن تحلل التحليل العلمى النزيه ملاحظا فى ذلك ظروف الوسط .. وحال البيئة .. ونواحيها المختلفة من عقائد ونظم وعادات» .

* * *

● إذن فإعادة كتابة السيرة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلوات ـ على أساس منهج علمى ، دون التقيد بكل ما سجله الأقدمون ، هى فى حقيقة الأمر غاية يتمنى كل مسلم مثقف أن نبلغها .. ونحن لا نخشى أن تعاد كتابة السيرة من جديد على أساس منهج علمى فى تدوين التاريخ .. لأن السيرة داخل إطار مما جاء به القرآن والسنة الصحيحة . وروايات الحفاظ الثقات ، سيظل لها مكانتها التى تسمو على كل مكانة ..

وما يراه البعض من المفكرين الإسلاميين الذين نحسن الظن بهم ، من ضرورة القيام بتنقية كتب التراث التى عنيت بالسيرة . مما أدخل عليها ـ كحل للمشكلة ـ لا أراه حلا جذريا للمشكلة .. فمعنى هذا أن نقوم بغربلة سائر كتب السيرة وهى من الكثرة بمكان ، وندخل بذلك فى متاهات لا أول لها ولا آخر ..

والحل الأمثل هو أن نعيد كتابة السيرة من جديد ، على أن تقوم بهذا العمل لجنة من العلماء الأكفاء ، تضع نصب عينيها النهج العلمى فى كتابة التاريخ . وهذا ما يراه الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة كتابه : «حياة محمد» :

«لست مع ذلك أحسب أنى أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد .. بل لعلى أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة الحديثة .. وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة الحديثة من شبه قوى .. وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر .. وهاهى ذى طريقة محمد وأساس دعوته» .

وتوضيح هذه الطريقة العلمية ـ كما يرى الدكتور رحمه الله ـ هو أن يمحو الباحث من نفسه كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحث ، وأن يبدأ بالملاحظة والتجربة .. ثم بالموازنة والترتيب .. ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية .. فإذا وصل الباحث إلى نتيجة من ذلك كله ، كانت نتيجة علمية خاضعة ـ بطبيعة الحال ـ للبحث والتمحيص .. ولكنها تظل علمية ، ما لم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها ..

كلمات أخيرة

● لقد راعيت فى هذا البحث أن يكون موجزا ، برغم أن القضية من الأهمية بمكان وأكرر ما أسلفت قوله : إن تاريخ السيرة جزء لا ينفصل عن عقيدة المسلم ، وأن تجديد كتابة السيرة على الطريقة المنهجية العلمية . ليس ـ فحسب ـ مما يبعث على الطمأنينة ، بل كذلك ، يضع حدا لهجمات خصوم الإسلام الشرسة ، التى وجدت متنفسا لها فى بعض مدونات السيرة من التراث ..

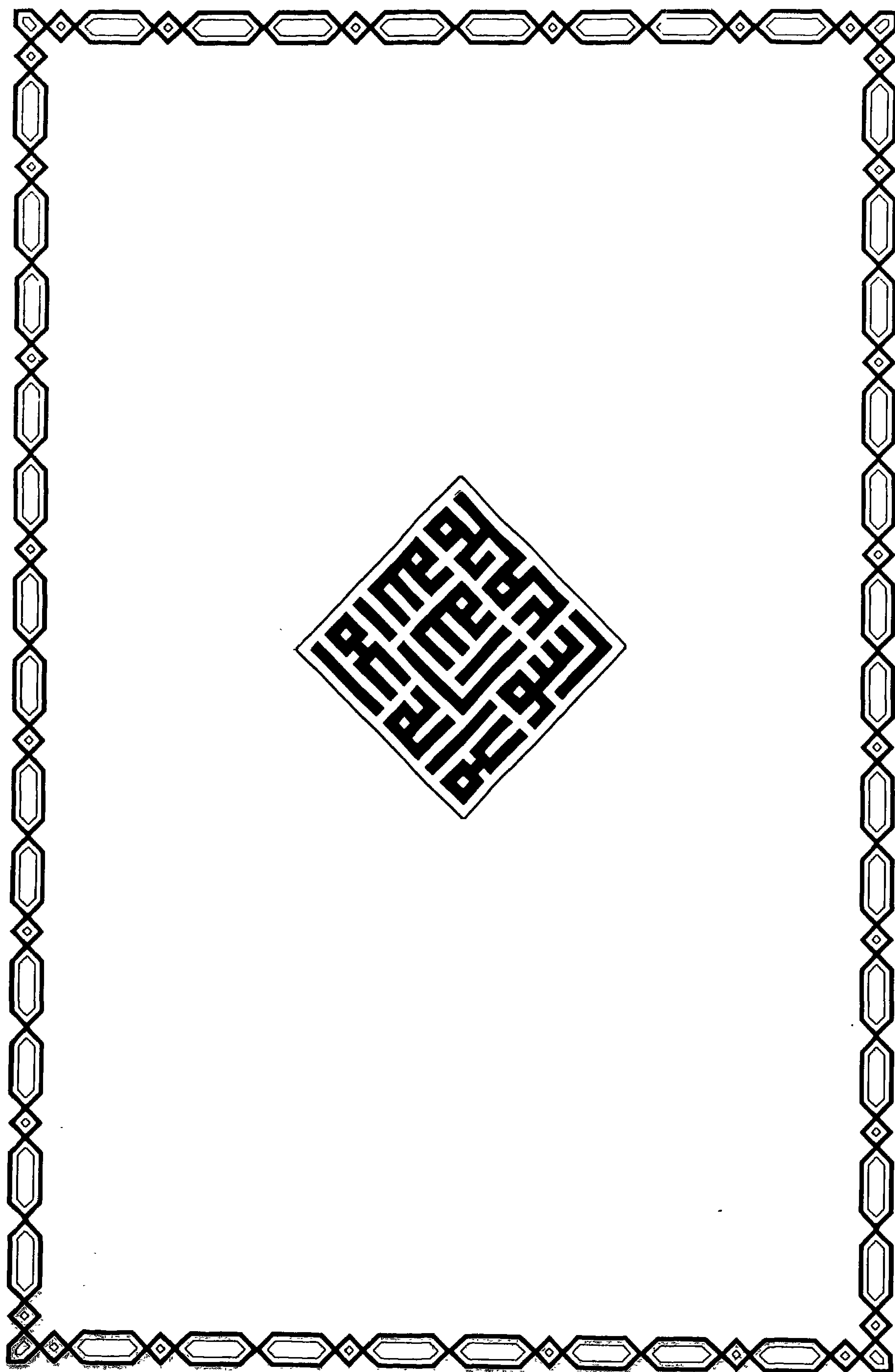
إن حياة محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كما يقول الدكتور هيكل : جديرة بأن ينقطع لها ، ولبحثها على طريقة علمية جامعية .. أكثر من أستاذ يتخصص فيها ، ويتوفر عليها .. وليس يساورنى شك فى أن الانقطاع والبحث العلمى فى هذه الفترة القصيرة من حياة بلاد العرب ، واتصالها . بحياة الأمم المختلفة فى ذلك العصر .. تؤتى نتائجه العالم كله .. لا الإسلام والمسلمين وحدهم ، خير الثمرات .. فهى تجلو أمام العلم كثيرا من المسائل النفسية والروحية ، فضلا عما تفيض عليه من ضياء فى نواحى الحياة الاجتماعية والخلقية والتشريعية ، لا يزال العالم أمامها ،

متأثرا بالنزاع الدينى بين الإسلام والنصرانية .. وبهذه المحاولات العقيمة التى يقصد منها إلى « تغريب » الشرقيين ، أو « تنصير » المسلمين .. مما ثبت على الأجيال إخفاقه واستحالته .. وسوء أثره فى علاقات أجزاء الإنسانية المختلفة ، بعضها ببعض .

● أقول :

إن الأمل كبير فى مؤتمر السيرة النبوية ، الذى سوف يعقد فى رحاب الأزهر فى نهاية هذا العام ـ إن شاء الله تعالى ـ والذى سوف يدعى للاشتراك فيه خيرة العلماء والمفكرين الإسلاميين .. أن يبدأ هذا المؤتمر بخطوة عملية فى سبيل خدمة السيرة النبوية ..

وعلى الله قصد السبيل



إمام المجاهدين
صلى الله عليه وسلم

لواء أركان حرب
محمد جمال الدين محفوظ

القائد الكامل :

على كتاب الله وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قامت أول مدرسة عسكرية فى تاريخ الإسلام ، تعالج أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، وتضع خير المبادئ لكل ما يتصل بها من حيث أهدافها وقوانينها وآدابها .

وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائد هذه المدرسة ومعلمها الأول ، وهو المثل الكامل والقدوة المثلى كما يقول الله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (الأحزاب ٢١)

وهو القائد الذى اصطفاه الله ليبلغ أعظم رسالة ، وجعله تحت حراسته ورعايته حتى كان أفضل قومه ، واستوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده حتى خاطبه الله بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » (القلم ٤) .

وحتى حدث هو عن نفسه فقال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ..

وإذا كان القادة يتعلمون فنون القيادة والحرب على « يد غيرهم » من القادة والمعلمين فى المعاهد العسكرية ، فإن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لم يأخذ عن غيره » ، وإنما « أخذ عن الله جل شأنه » ، فلا عجب إذن أن يظهر ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى أمور الحرب ، ما لا يتسامى إليه قادة الحروب الذين تعلموا فنونها ، واتخذوها صناعة ، من عبقرية فذة فى القيادة والتخطيط وإدارة المعارك الحربية .

الجيش الذى لا يقهر :

فى هذه المدرسة العسكرية الإسلامية ، وعلى يد قائدها ومعلمها ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، تعلم أجدادنا الأوائل من قادة وجنود جيش الإسلام الأول ، وطبقوا تعاليمها ومبادئها ونظرياتها عمليا فى ميادين القتال إعلاءً لكلمة الله ودفاعا عن الدين والأمة ، فكانوا مضرب الأمثال فى الكفاءة القتالية ، وفى الشجاعة والعبقرية الحربية ، وجاءت النتائج بما يثبت بالبرهان الساطع أن مبادئ العسكرية الإسلامية قد أثبتت عمليا فى المعركة ـ وهى المحك الحقيقى للنظريات الحربية ـ صحتها وكمالها ..

تحقيق الهدف :

ولقد حقق هذا الجيش بقيادة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هدفه الأساسى وهو تأمين الدعوة ، وقيام الدولة الإسلامية ، وتوفير الأمن والاستقرار لها ، لكى تؤدى رسالتها السامية لخير البشرية ، ولقد كان هذا الهدف محددا بكل وضوح منذ البداية ، فإن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن نظم جيشه فى أول معركة حاسمة بينه وبين المشركين رفع يديه بالدعاء قائلا : « اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » .

ولعل أهم الدروس التى تستفاد من ذلك أن هناك ارتباطًا وثيقا بين أمن الأمة الإسلامية وسلامتها ، وبين قدرتها على الدفاع عن نفسها ورد العدوان عليها ، وأن بناء القدرات الدفاعية هى بالنسبة لها « قضية وجود ومصير » .

من أجل ذلك سوف نتناول ـ بإذن الله ـ فى هذا البحث بعض الجوانب من هديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بناء القدرات الدفاعية لأمته كما يلى :

١ ـ بناء شخصية المجاهد .
٢ ـ إعداد القوة الرادعة .
٣ ـ القدرة على الحركة السريعة لرد العدوان .
٤ ـ إعداد القوة الشاملة .
٥ ـ قوة القاعدة الاقتصادية .
٦ ـ تطوير القوة وملاحقة العصر.

أولا : بناء شخصية المجاهد :

● ينفرد الإسلام فى أنه يقرر أن « بناء الإنسان » أساس بناء المقاتل ، وأن إعداد الفرد لمواجهة تحديات المعركة يبدأ منذ طفولته ، أى من مرحلة بناء شخصيته ..

ولقد أدرك خبراء الحروب قيمة هذا المبدأ أخيرا ، حيث يقول القائد العسكرى الكبير ، « مارشال[1] » : اذا رغبنا فى الحصول على الجندى الصالح للقتال ، فيجب أن تتجه أنظارنا إلى مهد الطفل عندما تنشئه أمه ليكون رجلا ، وإلى المدرسة حيث يتعلم كيف يضحى بمصالحه الشخصية من أجل الوطن ، وفى أروقة الحكومة حيث ينبثق فى قلوب الشعب وعى صادق عن الواجب .

ويقول مونتجمرى : « إن القيادة العسكرية لا تستطيع أن تنتصر إذا لم تزودها الأمة برجال يريدون الانتصار »[2] .

● وهكذا نرى أن الفكر العسكرى الحديث قد أدرك أخيرا أن عملية إعداد المقاتل تتجاوز الإطار العسكرى ولا تنحصر فيه ، بل تبدأ من مرحلة التنشئة ، وهنا تبرز أصالة منهج الإسلام الذى « لا ينتظر » حتى يشب الفتى ويدخل الجيش فيبدأ فى إعداده للقتال ، بل يبدأ ببناء شخصية المسلم منذ نعومة أظفاره على التوحيد فى العقيدة والأخلاق ، وعلى الحرية والكرامة الإنسانية ، ومقاومة العبودية لغير الله ، وعلى جهاد النفس للنزعات السيئة والنقائص ، وكل ما يفسد القلب ويُعلُ النفس من أمراض خلقية واجتماعية ، فتتجه شخصيته نحو الكمال الذى تتمثل ذروته فى شخص الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ يقول : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (الأنعام ١٦٢) .

● على هذا الأساس « ينشأ » الإنسان صحيح النفس والعقل والجسم ، بحيث يصبح لبنة قوية متماسكة ، وعنصرا إيجابيا صالحا فى مجتمعه الكبير ، ومقاتلا لا يقهر ، لديه أفضل السجايا الحربية كالشجاعة وقوة التحمل والحزم والانضباط والطاعة والنجدة والقتال عن عقيدة ، هذا فضلا عن أنه يتميز بأنه يحمل نفسه أقوى الدوافع المعنوية والحوافز النفسية :

١ ـ فهو ـ لكونه مجاهدا ـ « أفضل الناس » فى تقدير الإسلام ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قيل : يا رسول الله أى الناس أفضل ؟ قال : « مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله » (أخرجه البخارى) .

---

(١) صدر كتابه « الجنود فى مواجهة النيران » عقب الحرب العالمية الثانية .

(٢) صدر كتابه « الحرب عبر التاريخ » عقب الحرب العالمية الثانية .

٢ ـ والجهاد الذى يباشره هو ـ بعد الإيمان بالله ـ أفضل الأعمال » ، فعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله والجهاد فى سبيله » (رواه البخارى ومسلم) .

٣ ـ والشهادة فى سبيل الله هى عنده « أمل » يتوق إلى الظفر به ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلى ، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة ، أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل » (أخرجه البخارى) .

٤ ـ وثقله فى ميزان القوى « أرجح » من عدوه ، لأن حسابه فى الحرب مُقدر بما فى قلبه من إيمان وعقيدة ، وبما فى نفسه من مبادئ يحارب عنها ، وأسباب تدعوه إلى خوض هذه الحرب ، وهذا ما نجده فى قول الله تعالى : « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » (الأنفال ٦٥) .

وذلك لأن الذين كفروا قد خلت نفوسهم من المبادئ الكريمة والدوافع الصادقة ، ولهذا حرموا الفقه الذى كان من شأنه أن يبصرهم بالمبادئ التى يقاتلون عليها ، والمثل التى يدافعون عنها ، ومن حرم هذا الفقه فى مجال الحرب ، فقد تعرَّى من كل سلاح يدافع به ، وكانت عاقبته الهزيمة والبوار .

٥ ـ والحرب النفسية التى تتصدع لها إرادة المقاتلين ، لا تؤثر فيه ، بل « وتزيده إيمانا » وتصميما وثباتا ، يقول الله تعالى : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » (آل عمران ١٧٣ ـ ١٧٤) .

٦ ـ ولا محل فى قلبه للدوافع الذاتية أو الاجتماعية التى تكون عند غيره كحب الظهور أو الرغبة فى ثناء الناس أو الشهرة ، فهو مُنَزَّه عنها تماما ، لأنه يتحرك لما هو أرقى وأسمى منها وهو إعلاء كلمة الله ، وابتغاء وجه الله ، فقد جاء رجل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى

سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » (رواه البخارى ومسلم) .

٧ـ أما الثواب الذى ينتظره المجاهد ، فهو أرقى وأسمى وأبقى من الشهرة أو ثناء الناس ، وقد صور الله سبحانه وتعالى جهاد المجاهد بأنه من التجارة الرابحة مع الله عز وجل فقال : «يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » (الصف ١٠ ـ ١٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين ما بين السماء والأرض » (رواه البخارى) .

● وها هو ذا مونتجمرى يقول : « ومن العوامل التى جعلت العرب قوما لا يقهرون شجاعتهم وإقدامهم وحشدهم لقواتهم ... وإن أهم مميزات الجيوش الإسلامية لم تكن فى المعدات أو التسليح أو التنظيم بقدر ماكانت فى الروح المعنوية العالية النابعة من قوة إيمانهم بالدعوة الإسلامية وفى خفة الحركة التى ترجع إلى مهارتهم فى سرعة التحرك بالجمال والخيل ، وأيضا فى قوة احتمالهم وجلدهم نتيجة لحياتهم الشاقة فى الصحراء التى تعودوا عليها ...[٣] » .

ثانيا : إعداد القوة الرادعة :

● يقول الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (الأنفال ٦٠) .

ويقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » (رواه البخارى عن جابر) .

● ويستخلص من ذلك أن « الاستراتيجية » الحربية الإسلامية تقوم على « الردع » من خلال « إعداد القوة الرادعة » ، وهذا ما يفهم من لفظ « ترهبون » فى الآية الكريمة . فالإسلام قيد الأمر بإعداد القوة والمرابطة بمهمة إيقاع الرهبة فى قلوب الأعداء وإخافتهم من عاقبة عدوانهم ،

---

(٣) فيكونت مونتجمرى : الحرب عبر التاريخ جـ ٢ ص ١٨٨ .

ويفهم أيضا من الحديث « نصرت بالرعب » أن اظهار القوة للأعداء وإخافتهم يحقق النصر عليهم ويؤدى الى تحقيق الأهداف أكثر من أية وسيلة أخرى من وسائل مواجهة الأعداء .

● وتدل احصائيات معارك عصر النبوة على تطبيق نظرية الردع عمليا ، فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاد بنفسه ثماني وعشرين غزوة ، ولكن لم ينشب قتال إلا فى تسع منها فقط هى : (بدر ـ أحد ـ الخندق ـ بنى قريظة ـ بنى المصطلق ـ خيبر ـ فتح مكة ـ حنين ـ الطائف) أما بقية الغزوات فقد حققت أهدافها بغير قتال حيث فرَّ الأعداء دون أن يواجهوا قوة المسلمين فى أغلبها (٤) .

● ويستخلص من سنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى إدارته للصراع مع أعدائه أن هناك ثلاثة أساليب للردع :

الأسلوب الأول : الردع بإظهار القوة :

وقد تمثل ذلك فى عدة غزوات وسرايا مثل (سرية حمزة فى رمضان سنه ١ هـ ـ سرية عبيدة بن الحارث فى شوال سنة ١ هـ ـ سرية سعد بن أبي وقاص فى ذى القعدة سنة ١ هـ ـ غزوة ودان فى صفر سنة ٢ هـ ـ غزوة بواط فى ربيع الأول سنة ٢ هـ ـ غزوة ذى العشيرة فى جمادى الأولى سنة ٢ هـ ـ غزوة بدر الأولى فى جمادى الآخرة سنة ٢ هـ) .

فالذى يستفاد من هذه العمليات أنها بدأت بعد ثمانية أشهر فقط من مقام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمهاجرين بالمدنية ، وأنها وقعت بتركيز شديد فى معدلها الزمنى (سبع عمليات فى عشرة أشهر) ، وأن الرسول ـ عليه السلام ـ حرص على أن يتولى بنفسه قيادة أكبر عدد منها ، وأن معظمها كان بعيد المدى (من ١٥٠ إلى ٢٠٠ كيلو متر تقريبا) على طريق التجارة إلى الشام على ساحل البحر ، وأنه لم يقع فيها قتال بالمعنى المفهوم . وقد حققت هذه العمليات عدة أهداف :

١ ـ إيقاع الرهبة فى قلب قريش بإشعارها بأن المسلمين « قادرون » على الإيقاع بتجارتها وإيصاد طريقها فى وجهها ، وذلك ما عبر عنه قول صفوان بن أمية : « إن محمدا وأصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك ، وإن

---

(٤) يلاحظ أننا ذكرنا غزوة الفتح ضمن الغزوات التى نشب فيها قتال رغم أن القتال الذى وقع فيها لا يكاد يذكر.

أقمنا فى دارنا هذه ، أكلنا رءوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء ، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى الحبشة فى الشتاء » .

٢ ـ تأمين قاعدة الإسلام بالمدنية فى تلك الفترة الحرجة عقب الهجرة إليها ، وذلك بإحاطتها « بقوى صديقة » أو محايدة « على الأقل » إذ أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقد اتفاقات مع مختلف القبائل مثل بنى ضمرة وبنى مدلج وحلفائهم لكفالة حرية الدعوة من ناحية وكفالة حسن الجوار والمعاملة من ناحية أخرى ، هذا فضلا عن أنه بهذا العمل البارع حرم قريشا من محالفة هذه القبائل والحصول على معاونتها ، سواء بتأمين طريق التجارة (وهو ما أشار إليه صفوان بقوله : وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه) ، أو بشد أزرها بالعدوان على المسلمين بالمدينة أو تهديد طرق تحركاتهم أو مواصلاتهم .

٣ ـ وأخيرا فإن هذه العمليات ـ فضلا عن إظهار القوة ـ حققت هدفا معنويا عظيما ، هو ثقة المسلمين فى قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم وعن عقيدتهم عند الحاجة .

● وتعد غزوة الفتح أكبر عملية طبقت فيها نظرية الردع عن طريق « إظهار القوة » إلى الحد الذى جرد قريشا كما جرد زعيمها أبا سفيان من إرادة القتال فدعاها إلى الاستسلام بقوله : يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به .. » .

الأسلوب الثانى : الردع بإجهاض تدابير العدوان :

ومؤداه أن المسلمين ـ بمجرد علمهم بأن العدو يتجهز للعدوان عليهم ـ يتحركون فورا إلى مواقع العدو للقضاء على تدابير العدوان فى مهدها ، وسوف نتناول بعض هذه العمليات فيما بعد .

الأسلوب الثالث : الردع بالقتال :

ومؤداه أن العدو اذا لم يتخل عن التفكير فى العدوان وركب رأسه واعتدى ، فإن المسلمين يقاتلونه « مدفوعين بفكرة الإرهاب » أيضا ، وذلك بأن تكون ضربتهم التى يوجهونها إليه على النحو الذى يردعه ويرهبه ويمنعه من التفكير فى العدوان مرة أخرى . وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » (التوبة ١٢٣) .

« فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » (النساء ٩١) .

ففى غزوة بدر مثلا استطاع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ احداث خلل كبير فى التوازن النفسى لقريش ، فقد حرص منذ اللحظة الأولى على اختيار أفضل المبارزين من أصحابه لمواجهة مبارزى قريش فصرعوهم جميعا[٥] ، ونظم جيشه ووجهه للقتال ماديا ومعنويا حتى كتب الله له النصر بأقل الخسائر على عدوه المتفوق الذى فقد من رجاله سبعين قتيلا ، وسبعين أسيرا .. قال ابن اسحق : « ناحت قريش على قتلاهم ثم قالوا : لا تفعلوا فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم (أى تؤخروا فداءهم) لا يأرب (أى لا يشتد) عليكم محمد وأصحابه فى الفداء[٦] » .

الردع الإسلامى والردع النووى :

والأمر الذى يستحق التأمل أن « نظرية الردع » هى الآن مفتاح الاستراتيجية الحربية فى القرن العشرين ، وقد وصل إليها الفكر العسكرى العالمى بعد معاناة قاسية وطويلة فى حروب طاحنة اكتوى العالم بنارها ، وذلك ما يعبر عنه الجنرال أندريه بوفر بقوله : « ان رجل القرن العشرين الذى تلاحقه مآسى الحربين العالميتين ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ، هذا الرجل المسلح بكل وسائل العلم الحديث ، ربما وجد أخيرا الوسيلة لمنع وقوع مثل هذه المآسى ، وهى استراتيجية الردع » ، ويشرح مونتجمرى مفهوم الردع فيقول : « هى القدرة التى تكفى لردع أى خصم يفكر فى دعم مركزه عن طريق توجيه ضربة قاضية مفاجئة ، وهى القوة التى يمكن أن يكون وجودها سببا لتجنب كارثة الحرب » .

لكن هناك فرق كبير فى المقاصد والأهداف بين الردع الإسلامى والردع المعاصر، فإن نظرية الردع المعاصرة ظهرت بعد ظهور الأسلحة النووية ، وارتبطت بما يسمى « بالتوزان النووى » ، بمعنى أنه إذا كان هناك توازن بين القوتين العظميين فى القوى النووية ، فإن احتمال قيام الحرب بينهما يكون بعيدا جدا بسبب قدرة كل جانب على الرد والانتقام إذا ما وجهت إليه الضربة المدمرة أولا .

---

(٥) هم عبيدة بن الحارث ، وحمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب (ابن هشام : السيرة النبوية جـ٢ ص ٦٢٥) .

(٦) ابن هشام : السيرة النبوية جـ٢ ص٦٤٨ .

لكننا لو تصورنا أن إحدى القوتين تمكنت من إحراز تفوق ساحق على الأخرى بحيث يختل التوازن ـ وهو أمر وارد ـ فالذى يتوقع أن تندلع الحرب النووية على الفور بالنظر إلى ما يسود العلاقات الدولية من توتر وتناقض فى المصالح والأطماع .

أما الأمة الإسلامية فإنها إذا تملكت القوة المتفوقة على أعدائها حتى يصبح ميزان القوى فى صالحها ، فإن ذلك « لا يغريها » باستخدام تلك القوة ضدهم ماداموا ممتنعين عن العدوان عليها ، أى أن الأمة الإسلامية « لا تتعدى حدود الردع مادام يحقق هدفه فى إيقاع الرهبة فى قلوب الأعداء ويمنعهم من استخدام القوة » .

لقد كان لدى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة الفتح ـ فرصة مواتية لتوجيه ضربة مدمرة لقريش وتحقيق نصر عسكرى ساحق ، لكنه فتح مكة بغير قتال ، واستسلمت قريش ، وإذا كان من شأن المنتصر أن يستبد ويملى شروطه بدافع الغيظ والتشفى والانتقام والغرور بالقوة ، فإن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ رغم ما فعلت قريش ضد الإسلام والمسلمين ـ لم يفعل شيئا من ذلك ، بل كان كل همه أن يؤلف قلوب المشركين ، ويجعلها تقبل على الإسلام الذى هو دين السلام ، فقال لقريش : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثالثا : القدرة على الحركة السريعة لرد العدوان

عن أنس رضى الله عنه قال : «كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ راجعا قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر ، على فرس لأبى طلحة عُرْى (بدون سرج) والسيف فى عنقه وهو يقول : لن تراعوا . ! » (رواه الشيخان) .

- وخلال الفترة من شوال من السنة الثانية للهجرة إلى جمادى الأولى من السنة السادسة قاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عدة عمليات كان يخرج فيها بقوة تراوح عددها بين المائتين والثلاثة آلاف من المسلمين لمهاجمة أعداء علم أنهم يدبرون للعدوان على المدنية ، وكانت نتائجها جميعا « اجهاض تدابيرهم للعدوان » والقضاء عليها فى مهدها . (انظر الجدول) .

ويتبين مما تقدم أن الإسلام لا يقف مكتوف الأيدى أمام الخطر الذى يهدد الأمة ، وأمام تدابير أعدائه للعدوان ، ويؤكد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا المبدأ وما له من شأن كبير وخطير فى تقديم الإسلام بما ضربه بنفسه كقائد من مثل على اليقظة والتأهب وسرعة الحركة ،

وكذلك بحرصه على أن يتولى بنفسه قيادة العمليات التى قصد بها إجهاض تدابير أعدائه للعدوان .

مقومات القدرة على الحركة السريعة :

والقدرة على الحركة السريعة والمبادرة بالقضاء على العدوان فى مهده تقوم على أسس هامة نذكرها فيما يلى :

١ ـ تلازم القوة والمرابطة :

أى أن المرابطة ضرورة حيوية لكى تؤدى القوة دورها ، إذ لا جدوى من أية قوة لا يكون لديها إنذار بالخطر ، أو لا تملك القدرة على أن تصل إلى موقع الخطر فى الوقت المناسب وقبل فوات الأوان .

وهذا التلازم يبدو واضحا فى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، فقد خص الله (رباط الخيل) بالذكر مع أنها داخلة فيما قبلها (من قوة) ، وفى ذلك تأكيد لأهمية المرابطة وضرورتها الحيوية لأمن الأمة والدفاع عنها ، وابراز لما بين القوة والمرابطة من صلة وثيقة متبادلة بحيث لا تستغنى احداهما عن الأخرى :

فالقوة : تحميها المرابطة بالحراسة والإنذار المبكر بالخطر ، وهى بدونها تفقد قيمتها وفاعليتها إذا تمكن العدو من المباغتة .

والمرابطة : فى حاجة إلى القوة التى تشكل لها القاعدة الوطيدة التى تنطلق منها وتساندها والتى يكون عليها أن تتحرك ـ بعد وصول الإنذار ـ لمواجهة الخطر . ولقد كان معنى الرباط فى الماضى وهو ربط الخيل فى الثغور التى يتوقع هجوم العدو منها بقصد الاستعداد لرده وقمع عدوانه إذا حاول العدوان ، فكان المرابطون يقضون الليل والنهار ساهرين شاهرين سيوفهم وأسلحتهم متأهبين للقتال لا يغادرون أماكنهم حتى يحل غيرهم محلهم .

وليس من شك فى أن الرباط بمفهوم العصر أصبح واسع المدلول وممتدا ليشمل كل مساحة الدولة وليس حدودها فقط ، كما يشمل سماء الدولة ومياهها الإقليمية أيضا ، لأنه لم تعد هناك ـ فى عصرنا ـ بقعة من أرض الدولة أو سمائها أو مياهها بمنأى عن متناول العدو .

٢ ـ الإنذار المبكر :

ويقرر الإسلام ضرورة توفر الإنذار بالخطر على نحو مبكر ، يمكن من مواجهته فى الوقت

المناسب وقبل فوات الأوان ، وذلك من خلال ما يلى :

(أ) العيون والأرصاد (رجال المخابرات) ، فقد كان للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عيون وأرصاد فى المدينة ، وفى خارجها أيضا ، فكان له فى مكة مثلا (على مسافة ٤٠٠ كيلو متر) عمه العباس وبشير بن سفيان العتكى ، وكان له فى القبائل العربية الأخرى فى أنحاء شبه الجزيرة أرصاد مثل عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى فى هوازن ، وكان له أرصاد خارج شبه الجزيرة فى بلاد فارس وبلاد الروم (بيزنطة) .

(ب) الحراسة وأعمال الاستطلاع . عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » (رواه الترمذى) .

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له مثل أجر من خلفه ممن صام وصلى » (رواه الطبرانى) .

ولاستطلاع أحوال العدو استخدم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسلوب المفارز أو « الدوريات » وتتكون من عدد محدود من الرجال يكلفون بالحركة إلى المواضع التى يراد الحصول على معلومات عن العدو فيها ، فيباشرون الاستطلاع والمراقبة ثم يعودون بالمعلومات المطلوبة ، ومن أشهر عمليات الاستطلاع سرية عبد الله بن جحش التى بعثها فى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة ، ولكى يؤكد ـ عليه الصلاة والسلام ـ على أهمية الاستطلاع ، فقد كان يحرص كثيرا على القيام بالاستطلاع بنفسه كما حدث فى بدر مثلا ، كما كان يشجع أصحابه عليه ويكرمهم فقال يوم الخندق : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة ؟ »[٧] .

٣ ـ استعداد المسلمين للحركة السريعة :

فدرجة الاستعداد العالية للمسلمين (قائدا وجيشا) كانت من القوة والكفاية بحيث مكنتهم من الحركة السريعة نحو مصدر الخطر للقضاء عليه فى مهده ، وأبلغ دليل على ذلك أن الأعداء فى كل هذه العمليات كانوا يفاجأون بهجوم المسلمين عليهم قبل أن يستعدوا للقائهم ، الأمر الذى اضطروا معه للفرار أمامهم تاركين أموالهم وديارهم .

---

(٧) ابن هشام : المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٣٢ .

وسرعة الحركة ، يرمز إليها ويرشد إلى أهميتها ذكر « الخيل » فى الآية الكريمة من سورة الأنفال » وأعدوا لهم ... الآية » . وكذلك فى قوله تعالى : « والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا . » (العاديات ١ ـ ٥) .

فى هذه الآيات يقسم الله تعالى بخيل الجهاد المسرعات التى يسمع لأنفاسها صوت هو « الضبح » من شدة الجرى ، ويتطاير الشرر من تحت حوافرها من شدة قدحها للأرض الحجرية ، والتى يهجم بها فرسانها على العدو فى وقت الصباح ليأخذوه على غرة ، والتى يكون من شدة جريها أنها تثير غبار الطرق فى وقت الصباح ، فتدخل وسط جمع أعدائه فتشتته .. وتنطوى الآيات على تنبيه المؤمنين ليكونوا على أهبة الاستعداد بالقوة وبالقدرة على الحركة السريعة « ردع » من تحدثه نفسه بالعدوان عليهم .

وقد أصبح من حقائق عصرنا اليوم حرص الدول الكبرى على أن تكون لديها القدرة على الحركة السريعة التى تمكنها من التدخل فى الوقت المناسب ـ وقبل فوات الأوان ـ فى مناطق الأحداث التى يهمها أن تتدخل فيها بحسب مصالحها وأهدافها الاستراتيجية ، فنراها فى سبيل ذلك تتخذ تدابير عديدة مثل قاذفات القنابل بعيدة المدى التى تطير باستمرار محملة بالمقذوفات النووية ، والغواصات النووية التى تجوب المحيطات والبحار قريبا من مسارح الأحداث ، والأساطيل البحرية الموزعة على المناطق الحساسة وعلى ظهرها قوات مستعدة للعمل الفورى ، كما نراها تحرص على أن تتخذ لنفسها قواعد بحرية أو جوية أو قواعد للصواريخ خارج أراضيها وقريبا من مناطق التهديد ، كما تحرص على الاحتفاظ بقوات « الانتشار السريع » المتأهبة للعمل فى أى مكان ، وكل هذه التدابير تستهدف اختصار الزمن والمسافة اللازمين للتدخل الفعال .

٤ ـ الحركة بأسرع الوسائل :

ولا يتحقق الهدف المرجو إلا إذا كانت الحركة إلى مصدر الخطر « بأسرع وسيلة » متاحة فى هذا العصر ، وهذا هو ما يقرره الإسلام ـ منذ أربعة عشر قرنا ـ فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوجه إلى أن تكون الحركة « بأسرع ما يعرفه الإنسان من أدوات ووسائل الحركة فى كل زمان » ..

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من خير معايش الناس لهم ، رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله ، يطير على متنه ، كلما سمع هيعة أو فزعة

طار عليه يبتغى القتل والموت مظانَّهُ (أى الأماكن الموجود فيها) .. » (من حديث رواه مسلم) فالحديث يقرر ما يلى :

(أ) أن تكون القوة على استعداد مستمر للانطلاق الفورى ، فكلمة (ممسك) تعنى أكثر من مجرد ركوب الفرس ، فتفيد أن الفارس على أقصى درجات التأهب بحيث إذا جاءه الأمر بالانطلاق فلن يكون بحاجة إلى الإتيان بأى تصرف ولا حتى مد يديه إلى عنان فرسه ليمسك به لأنه ممسك به فعلا .. أى أنه « سينطلق فى الحال » .

(ب) أن يكون الانطلاق بأقصى سرعة ، وذلك ما يعبر عنه لفظ (يطير) و (طار) فهو أسرع من لفظ اندفع أو أسرع ، لأن (الطيران » هو أسرع أشكال الحركة ، ونحن عادة نقول لمن نريده أن يندفع بأقصى سرعة : « طر » ، ولكى يكون الانطلاق بأقصى سرعة يجب أن تكون وسيلته هى أسرع وسائل النقل والحركة ، وإذا كانت « الخيل » أسرع وسائل النقل والحركة فى صدر الاسلام ، فإنه يجب استخدام ما يقابلها فى كل عصر كالطائرة والصاروخ وغيرهما ..

فرضية الجهاد والحركة السريعة :

وإذا كانت الدول تتخذ إجراءات الاستعداد لسرعة التدخل بدوافع المصالح والأهداف الاستراتيجية ، فالأمة الإسلامية بذلك أولى ، وفاء بتكليف الجهاد الذى فرضه الله عليها ، ويكون فرض عين إذا اعتدى العدو على بلد من بلاد المسلمين ، وكان أهل هذا البلد عاجزين وحدهم عن رد عدوانه ، ومعنى ذلك أن على كل دولة إسلامية لديها قدرات عسكرية أن تشارك فى رد العدوان عن الأراضى الإسلامية فى أى مكان ، ولن تكون هذه المشاركة فعالة إذا لم تكن لديها القدرة على الحركة السريعة إلى الأرض المعتدى عليها ، ففضلا عن أن الأعمال التى تتخذ طابع النجدة والإغاثة تتطلب السرعة فى العمل ، فإن الأعمال الحربية فى هذا العصر تتسم بالإيقاع السريع والتطور المتلاحق للمواقف والأحداث ، مما يوجب أن يكون التصرف فى المواقف بسرعة فائقة وفى الوقت المناسب .

غزوات إجهاض تدابير العدو للعدوان

رقم مسلسل	اسم الغزوة	التاريخ	المكان	الأعداء	قوة المسلمين	النتائج
١	بنى سليم	شوال عام ٢ هـ	قرقرة الكدر بين مكة والمدينة	بنو سليم وغطفان	٢٠٠	فرار بنى سليم وغطفان تاركين أموالهم للمسلمين
٢	ذى أمرّ	المحرم عام ٣ هـ	ذو أمر. موضع فى نجد	بنو ثعلبة ومحارب	٤٥٠	فر بنو ثعلبة ومحارب وبقى المسلمون فى ديارهم حوالى شهر
٣	بحران	ربيع الأول عام ٣ هـ	بحران على طريق المدينة مكة	بنو سليم	٣٠٠	فر بنو سليم فبقى المسلمون فى ديارهم حوالى شهر
٤	ذات الرقاع	شعبان عام ٤ هـ	ذات الرقاع بنجد	بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان	٤٠٠	فرار بنى ثعلبة وبنى محارب
٥	دومة الجندل	ربيع الأول عام ٥ هـ	دومة الجندل	قبائل دومة الجندل	١٠٠٠	فرت القبائل
٦	بنى المصطلق	شعبان عام ٥ هـ	المريسيع	بنو المصطلق	١٢٠٠	فر بنو المصطلق بعد معركة قصيرة ضد المسلمين
٧	بنى لحيان	جمادى الأولى عام ٦ هـ	غران	بنو لحيان	حوالى ٣٠٠٠	فرار بنى لحيان

رابعا : إعداد القوة الشاملة :

● قرر الإسلام منذ أربعة عشر قرنا أن القوة التى على الأمة إعدادها لا تنحصر فى القوة العسكرية ، بل هى القوة الشاملة لكل مصادر القوة كالقوة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية والمعنوية :.

١ ـ وهو ما يفهم من ورود لفظ « قوة » فى الآية الكريمة من سورة الأنفال مطلقا بغير تحديد .

٢ ـ والجهاد فى سبيل الله لا ينحصر فى إطار قتال الأعداء المحدود بل يمتد ليشمل جوانب أخرى ، فقد اقترن الجهاد بالنفس بالجهاد بالمال ، كما اقترن بالجهاد باللسان قال تعالى : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » (التوبة ٤١) .

وقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » (رواه أحمد والنسائى وصححه وغيرهما) .

٣ ـ والتكليف بإعداد القوة والتكليف بالجهاد « كلاهما قائم ومستمر فى السلم والحرب على حد سواء » ، ففى السلم استعداد وإعداد وعمل لا يفتر فى كل الميادين المادية والمعنوية ، وفى الحرب توجيه لكل الطاقات نحو قمع العدوان وقهر المعتدى .

الحرب الشاملة فى العصر الحديث :

● ولقد وصل الفكر العسكرى حديثا إلى ما يقترب من هذه النظرية الإسلامية ، وذلك بعد أن أصبحت طبيعة الحرب الحديثة تعنى أن الشعب وقواته المسلحة « يخوضون الحرب » ويتحملون أعباءها ويواجهون مخاطرها بعد أن انتهى ذلك العهد الذى كانت فيه الحروب تقتصر على تصارع الجيوش فى ميادين القتال ... وظهر فى العلم العسكرى مصطلحات جديدة مثل « إعداد الدولة للحرب » و « الحرب الشاملة » ، يقول مونتجمرى : « والحرب الحديثة قد ازدادت صورتها تعقيدا ، وأصبحت تشمل كل أوجه الحياة والنشاط للدولة لفترة طويلة بما فى ذلك معنويات هذه الدولة ، والحرب الشاملة فى العصر الحديث تمتص كل جهود القوى العاملة رجالا ونساء ، وتحوِّل كل قوى الصناعة لسد الحاجات الضرورية للمجهود الحربى . وأثناء هذه الحرب ، يكون المرء دائما محوطا بالخطر سواء استدعى للخدمة العسكرية أو كلف بأى عمل مدنى أو صناعى .

فالخطر يصبح ماثلا فى كل مكان ، وأدى هذا إلى ضرورة وجود نظام خاص يكفل حماية المدنيين داخل المدن ، وسمى هذا بالدفاع المدنى أو الدفاع الوطنى[8] » .

خامسا : قوة القاعدة الاقتصادية :

● ومن الأسس الهامة فى بناء القدرات الدفاعية ، القاعدة الاقتصادية القوية ، فالإسلام يربط بين العسكرية والاقتصاد برباط وثيق :

١ ـ فالاقتصاد يظهر فى الآية الكريمة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) حيث ذكرت ما يحتاج إليه إعداد القوة من مال وإنفاق : « وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » .

٢ ـ والجهاد بالأموال ورد فى أغلب آيات الجهاد مقدما على الجهاد بالأنفس تأكيدا لأهمية الاقتصاد فى قوة الدولة ، كما قال تعالى : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون » (التوبة ٢٠) .

وفى الحديث : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » .

٣ ـ والتهاون فى تدبير المال اللازم للقوة الدفاعية يعرض الأمة للهلاك ، يقول الله تعالى : «وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين» (البقرة ١٩٥) .

فالآية الكريمة توضح بكل جلاء علاقة الاقتصاد بأمن الأمة وسلامتها ، فإنفاق المال والاستعداد للقتال قبل وقوعه هو الذى يقى البلاد من الهلاك .

الاقتصاد والدفاع :

وإذا كان خبراء الحرب قد قرروا أن « المال عصب الحرب » ، فإن نظرية الإسلام فى الربط بين العسكرية والاقتصاد تنطوى على عدة مبادئ حكيمة :

١ ـ فالتنمية الاقتصادية فى الأمة ـ وإن كانت تخضع لقوانين خاصة بها ـ إلا أنه ينبغى على مخططيها أن يراعوا الاعتبارات الاستراتيجية العسكرية عند وضع سياستها وأهدافها وخططها .

٢ ـ وفى زمن الحرب فإن اقتصاد الأمة « يتقرر كلية » وفقا للمتطلبات العسكرية أى يتحول إلى « اقتصاد حرب » .

(٨) فيكونت مونتجمرى : الحرب عبر التاريخ جـ ١ ص ٢٣ .

٣ ـ ويتطلب ذلك أن يكون « البنيان الاقتصادى » قادرا على « التكيف » مع متطلبات الحرب واحتياجات الجيش .

٤ ـ لكى يتحقق النصر على العدو فى الحرب ، فإن اقتصاد الأمة الإسلامية يجب أن يكون متفوقا على اقتصاده بالإضافة إلى التفوق العسكرى ، وذلك يفهم من أن إنفاق المال يعد من مقومات الردع الإسلامى كما تشير الآية الكريمة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ..) فالاقتصاد القوى له قوة الردع وإيقاع الرهبة فى قلب العدو ، وذلك لأن العدو إذا رأى أنه سوف يواجه قوة عسكرية وراءها قاعدة اقتصادية قادرة على تزويدها باحتياجاتها مهما طالت مدة الحرب ، فسوف لا يستهين بالمسلمين ، ولا يعلق أمله على التغلب عليهم ، مما يدفعه إلى التخلى عن فكرة العدوان عليهم .

٥ ـ مادام التكليف بالجهاد يشمل الجهاد بالأموال والأنفس ، فإن المسلمين يستجيبون « لنفير الجهاد » بأموالهم كما يستجيبون له بأنفسهم ، لا يستأذنون فيما هو فريضة وتكليف كما يفهم من قول الله تعالى : « لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوب فهم فى ريبهم يترددون » (التوبة ٤٤ ـ ٤٥) .

وبهذا المفهوم فإن تكاليف المعركة لا تحتمل أن تأخذ صفة التبرعات أو الهبات أو التراحم ، بل هى « تكافل عام » مفروض على أبناء الأمة الإسلامية جميعا ...

الوقاية من الأزمات الاقتصادية :

ويحرص الإسلام على وقاية الأمة من التعرض للأزمات الاقتصادية التى تنشأ عادة فى الحروب نتيجة لتدمير المنشآت الاقتصادية أو الحصار الاقتصادى أو الاحتكارات الدولية ، فنراه يوجه إلى ضبط الاستهلاك ومحاربة الإسراف والتبذير لكى يتوفر للأمة فائض من الإنتاج يمكنها من مواجهة تلك الأزمات ويجنبها آثارها .

يقول الله تعالى : « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » (الإسراء ٢٧) .

« يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » (الأعراف ٣١) .

ويقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « التبذير إنفاق المال فى غير حقه » (أخرجه ابن المنذر وغيره من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

ويقول : « الاقتصاد نصف المعيشة » (رواه البيهقى والطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما) .

سادسا : تطوير القوة وملاحقة العصر :

فى فترة وجيزة لا تتجاوز سبع سنوات تطور جيش الإسلام الأول بقيادة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى لحق بمقتضيات عصره :

١ ـ القوة الضاربة من الفرسان :

فقد زادت قوة الفرسان فى التركيب التنظيمى لجيش الإسلام حتى بلغت ثلث قوته ، وذلك خلال زمن قصير نسبيا ، فبعد أن كانت فى أول معركة وهى بدر لا تكاد تذكر (فرسان اثنتان) قفزت إلى عشرة آلاف فارس فى جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل فى آخر معركة وهى تبوك . والباحث المدقق يلاحظ أن جيش الإسلام قد لحق فى هذا المجال بالعسكرية الفارسية والعسكرية البيزنطية ، إذ كانت كل منهما تقيم التركيب التنظيمى لجيشها على أساس تشكيل القوة الضاربة الرئيسية من الفرسان(٩) .

٢ ـ ارتفاع مستوى الكفاءة القتالية :

● كان مستوى المسلمين فى الرمى فى بادئ الأمر أقل من مستوى الفرس الذين وصفهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه بقوله : « هم أكثر منكم رمية » ، فبلغ اهتمامه بتدريبهم على الرمى إلى حد أنه جعله « أساس القوة وجوهرها » .

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : صعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنبر يوما ، فقرأ قوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ثم قال : « ألا إن القوة الرمى ، إن القوة الرمى ، إن القوة الرمى » (رواه مسلم) .

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يكرم الرماة المهرة من أصحابه ، يقول الإمام على بن أبى

---

(٩) ارنست ديبوى وتريفور ديبوى : دائرة معارف التاريخ الحربى ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .
the Encyclapedia of Military History fram. 3500. B.C. to the present.

طالب رضى الله عنه : « ما جمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبويه لأحد غير سعد بن مالك [١٠] ، فإنه جعل يقول له يوم أحد : ارم فداك أبي وأمى » (رواه الشيخان والترمذى)

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحذر من الانقطاع عن التدريب على الرمى حتى لا ينخفض مستواهم فيه إلى حد أنه اعتبر ذلك من المعاصى أو جحود النعمة ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « من ترك الرمى بعد ما علمه فإنما هى نعمة جحدها » (رواه أبو داود وغيره) .

وقال : « من علم الرمى ثم تركه فليس منا أو فقد عصي » (رواه أحمد ومسلم) :

● وقد برع المسلمون فى الرمى نتيجة لهذه العناية الفائقة بتدريبهم عليه حتى استحقوا أن يطلق عليهم « رماة الحدق » أى أن الرامى منهم كان إذا صوب سهمه نحو عين عدوه لم يخطئها .

٣ ـ إضافة أسلحة جديدة :

وأضاف المسلمون إلى أسلحتهم أسلحة جديدة لم تكن لديهم من قبل وهى أسلحة الحصار ودك الأسوار والحصون وهى المجانيق والدبابات ، قال ابن هشام : « ولم يشهد حنينا ولا حصار الطائف عُروه بن مسعود ولا غَيْلان بن سلمة ، كانا بجرَش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضُّبُور [١١] .

شهادة القادة البيزنطيين :

● وقد اعترف للمسلمين بملاحقتهم لعصرهم فى هذه المجالات الامبراطور البيزنطى « ليو » ، فقد نقل عنه فون كريمر قوله : « إن الجندى العربى ماكان يفترق عن الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح ، فالأسلحة هى نفس الأسلحة ... » كما قال عنهم : « إن العرب أمهر الشعوب الأجنبية وأبرعها على الإطلاق فى العمليات الحربية » .

● وقال عنهم القائد البيزنطى « نفقور فوقاس » : « عندما يتوقعون النصر ، فهم غاية فى الجسارة ، يصمدون بثبات فى صفوفهم ، ويقاتلون بإصرار باسل فى وجه أعنف الهجمات [١٢] » .

---

(١٠) سعد بن مالك هو سعد بن أبي وقاص .

(١١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٤ ص ٤٧٨ . والضُّبُور : نوع من الدبابات ، قال السهيلى : الدبابة آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها . وقال أبو ذر : الدبابات آلات تصنع من خشب وتغشى بجلود ويدخل فيها الرجال ويتصلون بحائط الحصن .

(١٢) فيكونت مونتجمرى : الحرب عبر التاريخ جـ ٢ ص ١٨٨ .

أمانة عظمى فى أعناق المسلمين :

● وبعد فقد تناولنا فى هذا البحث بعض الجوانب من هدى إمام المجاهدين ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بناء القدرات الدفاعية لأمته ، وأبرزنا الدرس الكبير الذى يعلمنا إياه من أن هناك ارتباطا وثيقا بين أمن الأمة وسلامتها وبين قدرتها على ردع أعدائها فى كل عصر.

والحق أنه لم يترك نبى من الأنبياء أمته على مثل ما ترك محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته من القوة والمنعة مما يعد أمانة عظمى فى أعناق المسلمين ، ومما تنطوى عليه وصيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حجة الوداع : « لقد تركت فيكم ماإن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى : كتاب الله وسنتى » .

● فلقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يلحق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرفيق الأعلى وقد أعد أمته لمواجهة أقوى تحديات عصرها وقهرها ، ولعل أبرز هذه التحديات مواجهة أكبر قوتين عالميتين فى ذلك العصر هما فارس والروم (بيزنطة) ، تلك المواجهة التى حدثت على الفور وفى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ، وكانت المحصلة النهائية لإنجازات المسلمين فى عصر الفتوح هى انتصار « العسكرية الإسلامية » على كل من « العسكرية الفارسية » و « العسكرية البيزنطية » بكل ما وراءهما من تاريخ حربى طويل وخبرة واسعة بفنون الحرب والقتال .

● والدرس الذى ينبغى أن نتدبره هو أن هذه الإنجازات الرائعة قد تحققت بفضل استمرار أجدادنا المسلمين الأوائل على نهج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمحافظة على « الأمانة التى تركها لهم » :

١ ـ فقد حرصوا على تلقين الأجيال الجديدة تعاليم المدرسة العسكرية الإسلامية ، ويكفى أن نذكر ما روى عن زين العابدين بن الحسين بن على ـ رضى الله عنهم ـ قال : «كنا نُعلِّم مغازى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما نعلم السور من القرآن » .

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم قال : «كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا ويقول : يا بنى ، إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها[١٣] .

٢ ـ وعملوا بسنة التطور التى نبههم إليها دينهم وجرت عليها سنة نبيهم ومعلمهم وقائدهم ، لكى

---

(١٣) أحمد زينى دحلان : السيرة النبوية ص ٣٦٠ .

تبق لجيش الاسلام « قوة الردع » فى عصرهم وفى كل عصر ، مدركين أن تخلف القوة الإسلامية عن مقتضيات عصرها ، يفقدها القدرة على الردع وإرهاب الأعداء فتتعرض الأمة للهلاك .

ومن أبرز ما سجله التاريخ فى هذا المجال أن المسلمين اقتحموا بكل اقتدار مجالا جديدا من مجالات الصراع المسلح اقتضته ظروف الدفاع ، وهو الحرب البحرية ، فدخل « السلاح البحرى » فى الاستراتيجية العسكرية الإسلامية لأول مرة فى التاريخ ، وأتقنوا - وهم رجال البادية - فنون الحرب فى البحار ، وبلغت كفاءتهم فيها حد أنهم انتصروا فى المعركة البحرية على أساطيل بيزنطة التى كانت أقوى أساطيل زمانها ، وتم هذا التطور التاريخى فى زمن قصير وبسرعة فائقة حتى قال فلها وزن : « ان العرب استبدلوا بالصحراء والجمل ، البحر والمركبة فى سرعة مدهشة »[(١٤)] ، وقد أنهى المسلمون بهذا الانتصار البحرى عصر السيادة البيزنطية فى البحر الأبيض المتوسط ، وبرزوا كقوة مؤثرة ذات ثقل عسكرى وسياسى واقتصادى فى عالم هذا البحر ، فكانت أساطيل الأعداء تهرب من أساطيل المسلمين كما يقول ابن خلدون : « وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه (أى البحر الأبيض) من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد على فريسته[(١٥)] » .

واجب المسلمين اليوم :

● والمتأمل فى حال المسلمين اليوم لا يمكنه أن يقول إنهم حافظوا على أمانة إعداد القوة مثلما حافظ أجدادهم عليها ، ويكفى أن نتساءل على سبيل المثال :

١ - هل لدى المسلمين اليوم « القوة الذاتية » القادرة على الردع وإرغام الأعداء على أن يلزموا حدودهم ؟

٢ - هل يدرس أبناء المسلمين اليوم فى الكليات العسكرية مبادئ العسكرية الإسلامية والتاريخ الحربى الإسلامى وأعمال قادتهم ، أم أنهم يدرسون العلم العسكرى نقلا عن الغرب أو الشرق حتى أصبحوا مقطوعين عن مقوماتهم الأساسية الأصيلة ؟

---

(١٤) على فهمى شتا : القوة البحرية الإسلامية ص ٧٨ .

(١٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢١ (وضريت عليهم : أى لزمتهم ، والمراد أن أساطيل المسلمين كانت تطارد أساطيلهم) .

٣ ـ هل تملأ قلوب شبابنا اليوم الروح الجهادية وحب الجندية ، وهل يقبلون على العلم والعمل والإنتاج باذلين أقصى ما لديهم من طاقات معنوية ومادية لبناء أمتهم وبناء قدراتها الدفاعية ؟

● إن الإجابة على هذه الأسئلة وعشرات غيرها مما يمكن أن يدور فى عقول الغيورين على دينهم وسلامة أمتهم ، ترشد بسرعة وبصورة محددة إلى ما ينبغى عمله فى حاضرنا ومستقبلنا .. ولا ينبغى فى هذا المقام أن تغيب عنا « الرؤية التاريخية » ففى التاريخ ـ وقد ذكرنا جانبا منه آنفا ـ العبرة التى يسترشد بها ، والتجارب التى ينتفع بها ، ثم إن لنا من تعاليم ديننا ما يغنى عن البحث عن نظرية تحقق لنا فى عصرنا ـ وفى كل عصر ـ الأمن والسلامة وبناء القوة التى تحمينا وتدفع العدوان عنا ، وتعيد إلى أمتنا الإسلامية مكانتها اللائقة بها ، وسابق عهدها : أمة مرهوبة الجانب ، وخير أمة أخرجت للناس .

إعجاز البيان النبوى

الأستاذ
عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أفصح الناطقين بالضاد ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلا أعلى فى كل شىء . وكان معجزا فى صفاته وأفعاله وأقواله .

وكما ارتفعت أخلاقه وحلقت حتى أصبحت نموذجا للكمال الخلقى واستحق من أجلها أن يصفه الله بقوله فى كتابه الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » ـ القلم ٤ ـ .

كذلك ارتفعت كلماته وحلقت حتى أصبحت نموذجا للكمال البيانى . ومنهجا فريدا بعد القرآن الكريم ، يعز على البلغاء مجاراته وإدراك شأوه .

لقد توجه الله بتاج الفصاحة والبلاغة فجرت الحكمة على لسانه . وتفجرت العذوبة من ينابيع بيانه ، وكان الصحابة يتعجبون من فصاحته ولا يرون من هو أفصح منه .

وقد حدثنا الإمام الغزالى حجة الإسلام فى كتابه « إحياء علوم الدين » عن صفات كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مستندا فى ذلك إلى ما جاء فى صحاح السنة فقال : كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفصح الناس منطقا وأحلاهم كلاما . ويقول : « أنا أفصح العرب » ، وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وكان نزر الكلام . سمح المقالة ، إذا نطق ليس بمهذار . وكان كلامه كخرزات نظمن . وعبارة أم معبد : كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن . كان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضا .

كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ معجزا فى بيانه ، وسأحاول ـ بتوفيق الله تعالى وحسن معونته ـ فى هذه السطور المتواضعة أن أقدم بعض نواحى الإعجاز البيانى فى كلام سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

البلاغة النبوية :

النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرع من فروع الدوحة الهاشمية السامقة الذرا الثابتة الأصول . ولقد فاق هذا الفرع أصله الذى نما فيه حتى تشرف الأصل بفرعه الزاكى ، واعتزت الدوحة بسبقها الرفيع .

وقد اشتهر الهاشميون ببلاغتهم الفائقة وفصاحتهم النادرة . وقد عبر « الحصرى » فى كتابه « زهر الآداب » عن ذلك بقوله : لهم كلام يعرض فى حلى البيان وينقش فى فص الزمان ويحفظ على وجه الدهر ، ويفضح قلائد الدر ، ويخجل نور الشمس والبدر .

ما منهم إلا مُرَدًّى بالحجا أو مُبْشَرٌ بالأحوذية مؤدَم[1]

والهاشميون من قريش . وقريش من العرب ، والعرب بصفة عامة لهم كلام يصفه : عتبة ابن أبي سفيان « بأنه أرق من الهواء وأعذب من الماء، مرق من أفواههم مروق الهام من قسيها، بكلمات مؤلفات ، إن فسرت بغيرها عطلت . وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت »[2] .

وقريش هى : التى اختار الله لغتها لينزل بها القرآن الكريم . وقد أحسن بعض العرب فى وصف فصاحة قريش فيما يرويه « الحريرى » فى كتابه : « درة الغواص فى أوهام الخواص » من أن « معاوية » قال يوما لجلسائه : من أفصح الناس ؟ .

فقام رجل من السماط فقال : قوم تباعدوا عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء وكشكشة ربيعة وكسكسة بكر ، ليس فيهم غمغمة قضاعة ولا طمطانية حمير .

---

(١) مردى بالحجا : اتخذ العقل رداء ـ الأحوذية : العقل ـ مبشر ومؤدم : بَشَرته وجلده محشوان بالحذق .

(٢) زهر الآداب جـ ٣ ص ٤٨ .

فقال «معاوية» : من أولئك ؟ . قال : قومك يا أمير المؤمنين . وعلق «الخفاجى» شارح «الدرة» على ذلك بقوله :

أجمع العلماء ورواة الأشعار على أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة لأن الله اختارهم من جميعَ العرب حيث اختار منهم نبى الرحمة وجعلهم سكان حرمه ، وجيران بيته الحرام وولاته .

وقد فضل «الجاحظ» قريشا على سائر العرب وقال فى ذلك : فالعرب كالبدن وقريش روحها وقريش روح وبنو هاشم سرها ولبها . وموضع غاية الدين والدنيا منها .

وهاشم : ملح الأرض وزينة الدنيا وحىّ العالم والسنام الأضخم والكاهل الأعظم . ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف[1] .

ولقد توارث الهاشميون بلاغة العرب وقريش حتى ظهرت فى أروع صورها فى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبه ازداد القرشيون عامة والهاشميون خاصة جمالا على جمال فى حلاوة منطقهم وحسن كلامهم .

قيل لمسلم بن بلال العيدى : خطب جعفر بن سليمان خطبة لم ير أحسن منها . فلا يدرى أوجهه أحسن أم خطبته ؟ .

فقال : أولئك قوم بنور الخلافة يشرقون . وبلسان النبوة ينطقون .

وسئل «سعيد بن المسيب» : من أبلغ الناس ؟ .
فقال : رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال السائل : إنما أعنى من دونه .
فقال : معاوية وابنه ، وسعيد وابنه .
فقال رجل : فأين أنت من على وابنه ، وعباس وابنه ؟ .
فقال : إنما عنيت من تقاربت أشكالهم وتدانت أحوالهم وكانوا كسهام الجعبة وبنو هاشم أعلام الأنام ، وحكام الإسلام .[2]

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفصح العرب بلا ريب .

ولقد بعثه الله تعالى فى تلك الأمة التى تعتز ببيانها وتباهى بفصاحتها . ولذلك كانت معجزته

---

(١) زهر الآداب جـ ١ ص ٩٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٤ .

لهم القرآن الكريم الذى تحداهم الله بأن يأتوا بآية من مثله فخروا أمام عظمته ساجدين .

ثم لم يكن من المعقول ـ كما يقول الأستاذ محمود مصطفى فى كتابه « الأدب العربى وتاريخه » جـ ١ ـ أن يجرى القرآن على لسان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بين القوم كأحدهم ، لا فضيلة له عليهم فى خاص كلامه ومعتاد حديثه ، وهو محتاج إلى التأثير وشدة الأخذ ودعوتهم إلى الدين ، وتأديبهم بأدبه ودفعهم لمحاربة أعدائه .

فكان من الله أن أيده بمعجزة أخرى هى بلاغة لسانه وقوة بيانه .

فقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا على غير ما يعهد العرب من فصحائهم وما يألفون من مناطيقهم حتى لقد قال له أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ـ علمك ـ ؟

فقال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير من عرف للكلمة مكانتها وهو الذى يقول : « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة » .

وكان يعجب بالشعر الجيد ويصغى إليه ويثيب عليه ، وما توسل إليه أحد ممن غضب عليهم لعداوتهم للإسلام ومهاجمتهم له بأفضل من الشعر ، ولذلك جعله أحد أسلحته التى أذل بها الكفار وأفحم شعراءهم .

وقد وصف البلغاء كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه النهاية فى البيان والغاية فى البرهان ، المشتمل على جوامع الكلم وبدائع الحكم .

وقد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش واسترضعت فى سعد بن بكر » .

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس دون غيره من الأنبياء الذين آتاهم الله الحكمة وفصل الخطاب .

وقد أشار إلى ذلك « الجاحظ » « فى البيان والتبين » فقال : « وفى كتاب الله المنزل أن الله تبارك وتعالى جعل منيحة داود الحكمة وفصل الخطاب كما أعطاه إلانة الحديد » .

وفى الحديث المأثور أن رسول الله قال : « شعيب خطيب الأنبياء ، وعلم سليمان منطق الطير وكلام النمل ولغات الجن » .

فلم يكن الله ليعطى هؤلاء الأنبياء هذه الملكات ثم لا يكون سيد الأنبياء ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ فوقهم منزلة فيها وقد نشأ فى بيئة سلاحها : الكلمة ، فلابد أن يفل سلاحهم بمثله ويقطع بيانهم بما هو أروع منه وأجود .

فكان القرآن وكان بيان من أنزل عليه بيانا للقرآن وتفصيلا له .

من وجوه الإعجاز فى البلاغة النبوية :

١ ـ مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال

عرف العلماء البلاغة بقولهم : هى فى الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته .

وفى المتكلم : ملكة فى النفس يقتدر بها على تأليف كلام بليغ فى أى معنى قصده ، فلو لم يكن ذا ملكة لم يكن بليغا ، وإذ طبق مفهوم البلاغة على أنواع الكلام البشرى جاء فى الذروة كلام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو فى منزلة لا تدانيها منزلة من منازل البلغاء الناثرين على اختلاف أنواع النثر وفنونه .

وجاء فى كتاب « الصناعتين » : قال الحكماء : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون المتكلم أو الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون فى قواه التصرف فى كل طبقة .

وقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كلامه كذلك وهو الذى يقول : « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » . ولكل مقام مقال كما يقولون .

ومقامات القول التى دارت حولها حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا حصرلها . وله فى كل مقام منها مقال بلغ القمة فى روعته ، ولم يقل أحد عنه إنه لو قال كذا بدل كذا لكان أجدر ، ولو ترك كذا لكان أفضل ، ولو زاد كذا لكان أشمل .

ولو شئت أن تتبع سيرته الطيبة المباركة وتتبع معها أقواله لظفرت بالبيان المعجز الذى لا يضارع ، وحسبى فى ذلك تقديم بعض الأمثلة لهذه الأقوال المعجزة فى مقاماتها المختلفة .

(أ) فى « سيرة ابن هشام » . حين اجتمع زعماء قريش حول أبى طالب فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا . وإنا والله لا نصبر على هذا من : شتم آبائنا وتسفية أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

حين قالوا له هذه المقالة بعث إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فقال له : يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا : لى كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

فظن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قد بدا لعمه فيه بداء وأنه خاذله ومسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .

فقال : « يا عم والله لو وضعُوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك ما تركته » .

فقد رأيت أن المقام يقتضيه هذا الكلام الذى صدر من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ثقة كاملة من ربه وشجاعة نادرة .

وما ظنك برجل بداله من عمه أنه قد تخلى عن نصرته فى تبليغ دعوته وقد عرض عليه القوم قبل ذلك أن يعطوه من الدنيا ما شاء على أن يكف عن هذه الدعوة .

والآن قد تهددوه بالحرب التى لا يستطيع عمه الصمود لها ، فقد وجد نفسه بين إغراء وإنذار ولكنه لم يلن لواحد منهما وقال قولته المشهورة التى حفظها التاريخ وشهد لها بأنها أبلغ ما قيل فى هذا المقام .

وقد كانت هذه الكلمة على صغرها أكبر تأثيرا فى نفس أبى طالب من حديث القوم كله وإرهابهم وترتب عليها فيما بعد ازدياد صلابة أبى طالب فى تأييده لابن أخيه وتوليه الرد القوى بنفسه على هؤلاء المعاندين .

(ب) وهذا مثال من خطبه التى كان يراعى فيها مقتضيات الأحوال ـ حين نزل قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين» صعد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الصفا » ، وجعل ينادى بأعلى صوته . « يا معشر قريش يا بنى هاشم يا بنى عبد المطلب » .

فلما اجتمعوا وفيهم أبو لهب قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا معشر قريش أرأيتم لو أنى أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى » ؟ .

قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد إن لم تؤمنوا بالله وحده وتتركوا ما أنتم عليه من عبادة الأصنام ، يا معشر قريش : اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا معشر بنى هاشم : اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله

شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب ، يا صفية عمة رسول الله : اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا فاطمة بنت محمد : سليني من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » .

والمقام هنا مقام إنذار وتبليغ للدعوة الإسلامية ، والمنادَوْن هم الأقربون من قومه ، والموقف يقتضى لباقة وحسن تلطف ومصارحة ، فناداهم على درجاتهم ابتداء من القبيلة الأم ثم بنى هاشم الحلقة الوسطى ثم بنى عبد المطلب الأقرباء الأدنين ، ثم مهد للخطاب بانتزاع الإقرار منهم بصدقه ثم أبلغهم ما جاء به ، فلم يحر أحد منهم جوابا .

وقد وقع القول من نفوسهم كل موقع ما عدا أبا الهب الذى ملأ الشيطان نفسه إعراضا وتمردا فقال : تبالك ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى مدافعا عن نبيه – صلى الله عليه وسلم – : « تبت يدا أبي لهب وتب » ... ولقد ذهبت كلمة أبي لهب أدراج الرياح وبقيت كلمة الله بقاء الدهر يرددها المسلمون صباح مساء تشهد بجلال الحق وارتفاعه وسقوط الباطل واتضاعه .

(جـ) وفى كتبه التى أرسلها إلى الملوك والأمراء نماذج كاملة لمراعاة مقتضيات الأحوال . فرسالته إلى النجاشى تشير إلى ما يدين به النجاشى من دين وتخاطبه من هذا المنطلق الذى يؤمن به ويعتقده وفيها يقول – صلى الله عليه وسلم – :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة .

السلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن .

وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه .

وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى فتؤمن بى وبالذى جاءنى فإنى رسول الله » –

أخرجه البيهقى عن ابن اسحاق .

لقد كان النجاشى يميل إلى الإسلام ويعتقد برسالة النبى – صلى الله عليه وسلم – حتى لقد وكله النبى – صلى الله عليه وسلم – عنه فى خطبة السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان بعد تنصر زوجها وهلاكه – وكانا قد هاجرا إلى الحبشة – فخطبها له وأصدقها عنه .

فجاءت رسالة النبى – صلى الله عليه وسلم – تحمل روح الأخوة فى العقيدة . وقد بدأها

بتوجيه السلام إليه ولا يهدى السلام إلا لمؤمن ، وفيها بيان لعقيدة الإسلام بالنسبة لعيسى وأمه . وفيها ذلك الأنس الذى يشعر به الإنسان إذا خوطب ممن يميل إليه ويصطفيه .

ونلمس الفرق واضحا بين هذه الرسالة وبين رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهرقل وكان يدين أيضا بالمسيحية كتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد :

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين ، و «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

الرسالة تبدأ بتوجيه السلام إلى من اتبع الهدى فليس السلام موجها لشخصه إلا إذا كان متبعا للهدى .

ثم حمله المسئولية بالنسبة لشعبه فى تبليغ دعوة الإسلام إليهم فهو راعيهم وكل راع مسئول عن رعيته .

ثم دعاه إلى الاحتكام إلى الكلمة السواء التى دعا القرآن إليها أهل الكتاب .

موقف حاسم من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنسبة لهرقل ليس فيه ضعف وتخاذل .

وقد كان الروم يشعرون أن لهم على العرب سلطانا .

فى الرسالة إشعار لهرقل بأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يتكلم من فراغ ولكنه يتكلم باسم دين جعله الله خاتم الديانات وهو مع ذلك يحترم الدين السابق الذى جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ فليرجع أهله إلى صميم هذا الدين وتعاليمه الصحيحة فسوف يجدون فيها جوهر الإسلام ولبه .

ومع أن كلا من النجاشى وهرقل يدينان بالمسيحية إلا أن الفرق واضح بين الخطابين المرسلين إليهما ، فليس إيمان هرقل بالمسيحية كإيمان النجاشى بها .

فهرقل يدين بها وهى فى نظره تمكنه من الاستعلاء والبقاء فى الحكم والاستمرار فى السلطان ، وتمسكه بها تمسك بحقه فى الملك والسيطرة فهو إيمان مصلحة لا إيمان عقيدة ، ولذلك فهو مقر بما تمده به سلطات الكنيسة من أفكار .

أما النجاشى فله فكره المستقل ولذلك لم يلبث أن قال لخصوم المسلمين من قريش حين أرادوا أن يفسدوا ما بينه وبين المسلمين عن طريق ما يقوله القرآن فى شأن عيسى ، قال لهم : إن هذا ويعنى ما سمعه من القرآن ـ والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ولقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رسالته للنجاشى مراعيا لمقام هذا الرجل الذى يميل بروحه إلى الإسلام فأكثر من أسماء الله الحسنى وأشار إلى المسيح وأمه إشارة ـ كما يقول العقاد فى كتابه « عبقرية محمد » ـ لم تُؤثر فى الكتب الأخرى ، ولكنها إشارة لازمة فى خطاب ملك مسيحى يراد أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح فى دينه ، ودين المسلمين الذى يُدعى إليه .

وتتغير لهجة الرسالة إذا كانت مرسلة إلى ملك وثنى كرسالته المرسلة إلى كسرى .

فإننا نجد فيها كلمات دامغة وعبارات لها وقع الصاعقة على رجل كان يعتقد أن الأرض من حوله عبيد له .

وتلمس فى رسائله إلى الملوك خارج الجزيرة العربية السهولة فى اللفظ حتى لا يكاد يخفى منها شىء على من له أدنى معرفة بالعربية ، على حين أنه حين كتب إلى قوم من العرب فخم لفظه وأجزل أسلوبه لما عرف منهم من فضل قوتهم على فهمه ، وأنهم من عادتهم أن يقبلوا على مثل خطابه ، كما أنه كان يراعى لهجتهم ومعرفته بلغتهم .

كتب لوائل بن حُجر الحضرمى ـ فيما يرويه أبو هلال العسكرى فى « الصناعتين » ـ يقول : « إلى الأقيال العباهلة من أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . على التبعة شاة . والتيمة لصاحبها . وفى السيوب الخمس ، لاخلاط ولا وراط ولا شناق ولا شغار ، ومن أجبى فقد أربى وكل مسكر حرام »[(1)] .

(د) ومن مراعاة مقتضيات الأحوال أن يطيل المتكلم فى مواقف ويقتصر فى مواقف على حسب الظروف والأحوال . ومن أمثلة تطويله خطبته فى : حجة الوداع .

وقد أوردها ابن هشام مختصرة وذكرها ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » مطولة . والموقف هنا يستدعى التطويل لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أودع خطابه خلاصة دعوته ولأنه آخر خطاب عام موجه إلى أمته ، ولذلك قال فيه : « لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا » .

---

(١) الأقيال : الملوك ـ العباهلة : المقرون الثابتون فى ملكهم ـ التيعة : أربعون شاة ـ التيمة : الشاة الزائدة على الأربعين ـ السيوب : الركاز وقيل : هى المعادن ـ الخلاط : مصدر خالط ـ الوراط : الخديعة والغش ـ الشناق : ما بين الفريضتين ـ الشغار : نكاح فى الجاهلية أبطله الإسلام .

ومن أمثلة الإيجاز خطابه فى فتح مكة الذى قال فيه : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أودم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة ، مائة من الإبل : أربعون منها فى بطونها أولادها .

يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم خلق من تراب ، ثم تلا هذه الآية : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ... الآية -

يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم » ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » - ذكرها ابن هشام فى « سيرته » - المقام هنا لا يستدعى التطويل فقد فتح الله على المسلمين مكة التى طردوا منها وأصبح عليهم التأهب لحنين فهم مشغولون بذلك . وقد امتلأت قلوبهم بفرح النصر وأهل مكة فى ذهول لما أصابهم . والموقف موقف عمل لا كلام ، على أن هذه الكلمات القلائل فى هذا اليوم الحافل فيها جماع لكل ما يريد أن يقوله أى قائد منتصر - غير الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى صفحات ويستغرقه فى ساعات .

لقد تعود القادة فى العصور المتأخرة أن ينتهزوا الفرص ليستعرضوا على شعوبهم أقوالهم التى يعيدون فيها ويزيدون وقد لا تحتوى على معنى دقيق أو حكمة هادفة أو منهج قويم .

ولكن هذه الخطبة على إيجازها ومناسبتها للموقف حددت منهج الإسلام بالنسبة للجاهلية وعلاقته الجديدة مع أهل مكة الذين طالما ناصبوه العداء .

٢ - مطابقة بيانه للقرآن الكريم :

قال تعالى فى سورة النجم : «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى» يشير ذلك إلى منطق الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى يستقى من منبع الوحى الكريم . كما يشير أيضا إلى أن السنة كالوحى المنزل فى العمل .

روى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : «ألا إنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه ..» ويتصل بهذا المعنى قوله تعالى فى سورة الحشر : «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» .

هناك التقاء لا شك فيه بين معانى القرآن الكريم والسنة الشريفة .

وقد جاءت السنة مفصلة للقرآن وموضحة له ، فأغراض الأحاديث الشريفة تدور فى أغراضها حول القرآن الكريم تبين مجمله وتفسر مشكله وتوضح أهدافه .

وقد تناولت مختلف أمور الدين والدنيا التى تهم المسلمين وتبنى لهم حياتهم على هدى من الله ونور .

فيها ما يتصل بالعبادات والمعاملات والجهاد ، وما يعالج النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وفيها الحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، وهى فى كل ما تتناوله تأتى بالمنطق الفصل والحجة القوية والقول العذب والبيان المعجز الذى لا يمكن الإضافة إليه أو الحذف منه أو القياس عليه لأنه صادر من منبع المدد الإلهى والفيض الربانى والإلهام السماوى مصداقا لقول الحق : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » .

ومن أمثلة ذلك ـ وبيان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كله صالح للتمثيل ـ قوله فيما أخرجه ابن ماجة ورواه عن أبى الدرداء : « توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم تسعدوا ، وأكثروا الصدقة ترزقوا ، وأمروا بالمعروف تخصبوا ، وانهوا عن المنكر تنصروا .. إن أكيسكم أكثركم ذكرًا للموت وأكرمكم أكثركم استعداد له ، ألا وإن من علامات العقل التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والتزود لسكنى القبور ، والتأهب ليوم النشور» .

فالمعانى التى تدور حولها عبارات هذا الحديث الشريف هى : التوبة والعمل الصالح وتعمير القلب بذكر الله وخشيته والحث على الصدقة ، ووجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والاستعداد للآخرة بالإكثار من ذكر الموت والزهد فى الدنيا ، وعدم التمسك بزخارفها الزائلة وزينتها الباطلة .

أليس هذا هو ما يدعو إليه القرآن الكريم من مبادئ وما يحث عليه من صفات ؟

أليس ذلك يلتقى مع قول الحق فى وصف عباده المؤمنين فى آخر سورة الفرقان : «والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا » .

وقس على ذلك كل ما ورد عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تجده لا يخرج فى مضمونه عما يدور حوله القرآن الكريم من معانى ومثل .

جاء فى كتاب « الأدب العربي وتاريخه » جـ ١ : « ولقد كان موضوع حديثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أشرف الموضوعات فهو بيان لأغراض القرآن وتفسير مشكله وإيضاح مبهمه وتخصيص مطلقه ، من كل ما يتعلق بأدب أو عبادة أو تعامل .

فالقرآن الكريم مثلا لم يبين تفاصيل الصلاة ولم يشرح كيفيتها . وحرم الخمر بقوله : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » ولم يبين المراد من الخمر ولا مقدار ما يحرم منها . فكان على النبى كشف الغامض من كل ذلك » .

وكان ذلك فى أسلو ب دقيق محكم معجز يتأبى على التقليد والمنافسة ، لأن ما استمد من الوحى كان خليقا أن يتناسب فى بلاغته مع هذا الوحى الذى استمد منه ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا تستعصى على المستزيد .

٣ ـ براعته فى ضرب الأمثلة :

المثل : قول موجز سائر يشبه به حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لأجله .

قال الأدباء : « والأمثال تصدر من وحى الفطرة السليمة ، والحس الصادق والتجربة الصائبة ، وهى ميزان تعرف به قيمة انتزاع العقول وإسعاف الخواطر والقدرة على الإفحام .

وللمثل أثره ـ كالحكمة ـ فى أنه يهب ما يقع فى تضاعيفه من الكلام رونقا ويفرغ عليه قبولا وحسنا . وناهيك من المثل ما يعطيك من بلاغ الحجة وانقطاع الخصم والاستغناء به على قلة ألفاظه عن بسط المعنى المتنازع عليه فيما تحكيه صورة المثل من رفعة أوضعة أو من مدح أوذم ، فهو من مظاهر الإيجاز فى اللسان العربى » ـ « الأدب العربى » ص ٨٠ لمحمد هاشم عطية ـ .

هذا تعريف للمثل بصفة عامة وعند إطلاق كلمة المثل ، وقد حفل الحديث الشريف بألوان منه فيها براعة وجمال مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «كل الصيد فى جوف الفرا» .

قال الميدانى فى « مجمع الأمثال » : وقد تألف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا المثل أبو سفيان حين استاذن عليه فحجبه قليلا ثم أذن له ، فلما دخل قال أبو سفيان ما كدت تأذن لى حتى تأذن لحجارة الجهلتين (جانبى الوادى) فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنت كما قيل » : «كل الصيد فى جوف الفرا » ، وهو مثل يضرب لمن يفضل على أقرانه .

وفى هذه الأمثلة يحذف المضرب ويبقى المورد اعتمادًا على ذكاء السامع وثقافته ، ولكن هناك أنواعا أخرى من الأمثال قائمة على التشبيه بين حالين يصرح بهما فى الكلام لتوضيح غامض أو إرعاء النظر إلى شىء . وإثارة الذهن له .

وأشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله فى سورة العنكبوت : «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» .

وقد أوضح الحكيم الترمذى فى كتابه «الأمثال من الكتاب والسنة» أثر الأمثال بقوله : «الأمثال مرآة النفس والأنوار مرآة القلب ، وإن الله تعالى جعل على الأفئدة أسماعا وأبصارا ، فما أدركت أسماع الرءوس وأبصارها أيقن به القلب واستقرت به النفس ، وما غاب عن أسماع الرءوس وأبصارها وجاءت أخبارها عن الله أيقن القلب بذلك ولكن تحيرت النفس وتذبذبت ... فإذا ضربت لها الأمثال صار ذلك الأمر لها بذلك المثل كالمعاينة كالذى ينظر فى المرآة فيبصرفيها وجهه ويبصر من خلفه ، لأن ذلك المثل قد عاينه ببصر الرأس فإذا عاين ذلك أدرك الذى غاب عنه فسكنت النفس وانقادت للقلب» .

فهذا أثر المثل ، ولذلك أكثر القرآن الكريم من استعمال الأمثال فى مواضع مختلفة ، واقتدى به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاستعملها فى مناسبات شتى ، واليك بعض الأمثلة منها .

حدث سفيان قال : حدثنيه أبو الزعراء عمرو بن عمرو وسمعه ابن عمه أى الأحوص عن أبيه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «أرأيت لوكان لك عبدان : أحدهما يكذبك ويخونك ولا يصدقك ، والآخر لا يكذبك ولا يخونك ويصدقك ، أيهما أحب إليك» ؟

قلت : الذى لا يكذبنى ولا يخوننى ويصدقنى . قال : «كذلك أنتم عبيد ربكم» ـ «الأمثال من القرآن والسنة ـ» .

والمثل واضح فى إعطاء العبرة المطلوبة ، فإن الإنسان يحب من عبيده وغلمانه الذين لا يسرقونه ولا يخونونه ولا يكذبون عليه ، بل هو يكرمهم ويكافؤهم ، والله فى علاه يحب من عباده المخلصين الصادقين الأمناء الأوفياء .

وهذا مثل أخر ذكره الترمذى أيضا : «مثلى فى الدعوة مثل سيد بنى دارا واتخذ مأدبة وبعث داعيا يدعو إلى مأدبته فى داره ، فالسيد هو الله تعالى والمأدبة الجنة والداعى أنا» .

«الأمثال للترمذى» .

ما أقرب هذا المثل وأيسره فى تصوير دعوة الإسلام إلى الهدى والنجاة ، وحب الله لعباده فى أن ينالوا جنته ورضاه .

وهذا مثل لقارئ القرآن : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها » ـ « أخرجه مسلم والنسائى » .

وهو مثل واضح لا يحتاج إلى تعقيب ولكنه يدل على براعة كاملة فى إدراك أوجه المشابهة مما يترك أثره العميق فى نفس السامع وإقباله على ما يتضمنه من معانى ، وهذه أمثل طريقة فى التربية الحديثة التى تعنى فى إيصال ما يراد بوسائل الإيضاح المختلفة .

واقرأ هذا المثل الذى يوضح أثر الصلاة وجاء فى صحيح مسلم قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أرأيت لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ما تقولون : هل يبقى من درنه شىء ؟ » .

قالوا : لا .

قال : « ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا » .

وهذه كلها أمثلة تصويرية تعتمد على التشبيه .

ومن الأمثلة العملية التى تؤخذ من واقع الحياة ما أورده الأستاذ خالد محمد خالد فى كتابه « إنسانيات محمد » : مر رجل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لرجل جالس عنده : « ما رأيك فى هذا ؟ » فأجاب : إنه من أشراف الناس ، وإنه والله لحرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع ، فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ثم مر رجل فقال الرسول : « ما رأيك فى هذا ؟ » فقال يا رسول الله : هذا رجل من فقراء المسلمين حرى إن خطب ألا ينكح وإن شفع ألا يشفع وإن قال ألا يسمع .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا » .

وفى هذا المثل توضيح لما تجره المظاهر من أخطار ، وقد نهى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الاغترار بالمظاهر والركون إليها دون العناية بالجوهر .

ومن الأمثلة العملية التى تضرب لوقائع الأحوال ما رواه كتاب « الأمثال » .

أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى رجلا ينقر فى صلاته لا يتم ركوعه وسجوده فقال : « لو مات هذا مات على غير ملة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإذا صليتم فأتموا الركوع والسجود فإن مثل المصلى لا يتم ركوعه ولا سجوده كمثل الجائع الذى يأكل المرة والمرتين لا تغنيان عنه شيئا » .

والمقصود بالمرة والمرتين : اللقمة واللقمتين اللتين لا تغنيان عن الجائع شيئا . وتصوير المصلى الذى لا يتم الركوع والسجود بالجائع تصوير صائب فإن كليهما فى حاجة إلى القوة والغذاء اللذين يعينان على الحياة والمضى فيها ، وكما أن الجسم فى حاجة إلى غذاء يبنيه ويصححه ويكون ذلك بالطعام المناسب فى أوقاته المعلومة كذلك الروح فى حاجة إلى غذاء ينعشها ويقويها بالصلاة التامة فى ركوعها وسجودها .

وليس كل إنسان قادرا على ضرب الأمثلة ، وإنما هى فطنة ينبه الله إليها من يشاء من عباده وحكمة يهبها الله لأحبائه «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» . لقد عرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدر الأمثال وقيمتها فى توضيح الغامض وتقريب البعيد ، وتمثيل المعنوى فى صورة المحسوس المشاهد فلم يغفلها . وأكثر منها . وجاء فى كلامه الفصيح وأسلوبه الحكيم منها قدر نافع لمن يتدبر مفيد لمن يعتبر .

وله إلى جانب ذلك أمثلة سائرة ذائعة تشتهر بالإيجاز والطرافة منها ما أورده « العقد الفريد » وغيره مثل : « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » ـ « إياكم وخضراء الدمن » ـ « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ـ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

٤ ـ بداهته وقطع حجة خصمه :

من دلائل الإعجاز لدى المتحدث أنه يستطيع مجابهة الأحداث التى تعرض له بحديث فائق لم تغب عنه الفكرة الصائبة والمعنى الدقيق ولم يفته اللفظ المتخير والأسلوب المحكم والنسج المتين مهما طال .

ولم يجتمع ذلك كما اجتمع للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى توفرت له آلة البلاغة من جودة القريحة وطلاقة اللسان ورباطة الجأش.وذلك من فعل الله تعالى لا يقدر العبد على اكتسابه ولا حول له فى اجتلابه .

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبده بالموقف فيتحدث فيه حديثا رائعا غير متكلف ولكنه معجز ، فى الوقت الذى يرتج فيه على كثير من أئمة البلاغة وأرباب البيان .

فقد حدثوا عن عثمان ـ رضى الله عنه ـ وعن معاوية وعن يزيد أخيه وعن غيرهم أنهم ارتج عليهم فى بعض مواقفهم ، كما حدثوا عن أبى على القالى « صاحب الأمالى » أنه لم يستطع أن يجابه الموقف حين طلب منه أن يرتجل خطبة فى حفل استقبال أقيم فى بلاط عبد الرحمن الناصر يستقبل فيه رسول ملك الروم.

ولكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتسم برباطة الجأش وسكون النفس وحضور الفكر وعصمه الله من الحيرة والدهش اللذين يعرضان لبعض الخطباء فيحصرون ويفقدون مقاليد الكلام وأزمة البيان .

والرسالة تحتاج إلى شرائط ، منها : التبليغ ولا يتم التبليغ إلا بالإجابة المسددة على ما يعترض الرسول من أسئلة ومحاورات ، وإليك هذا المثل الذى يدل على قوة حجته وحسن بيانه وإقناعه لخصمه دون أن يكون قد أعد لذلك بيانا مسبقا .

أخرج ابن خزيمة عن بن عمران بن حصين قال : إن قريشا جاءت إلى الحصين وكانت تعظمه ، فقالوا : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقالوا : أوسعوا للشيخ ـ وعمران وأصحابه متوافرون ، فقال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنك ، إنك تشتم آلهتنا وتذكرهم .

فقال : « يا حصين ، كم تعبد من إله ؟ » قال : سبعة ستة فى الأرض ، وواحد فى السماء ، قال : « فأيهم تعبد لرغبتك ورهبتك » ؟ قال الذى فى السماء ؟ قال : « فيستجيب لك وحده وتشركهم معه ؟ » قال : وعلمت أنى لم أحكم مثله ، قال : « يا حصين أسلم تسلم » ، قال : إنى لى قوما وعشيرة فماذا أقول ؟ : قال : « قل اللهم استهديك لأرشد أمرى ، وزدنى علما ينفعنى . فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم .. « أسد الغابة ـ » « الرسول » لسعيد حوا ـ .

فانظر إلى هذه البداهة والإجابة المسددة وكيف كان لها أثرها فى هداية رجل كان من صناديد الكفر والشقاق ، ومن ذلك رده القاطع على زعماء قريش ـ فيما أخرجه ابن هشام فى سيرته ـ وقد بعثوا إليه ليكلموه فجاءهم سريعا وهو يظن أنه قد بدالهم فيما يكلمهم فيه بداء . وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم .

فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الأباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت

الأحلام وفرقت الجماعة ، ثم عرضوا عليه أموالهم وجاههم وملكهم وطبهم .

فقال لهم : « ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرًا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

ردٌّ مفحِم فى موقف كان يرتج فيه على أى إنسان لم تكن له شخصية هذا الرسول الذى أمده الله بعونه ومكنه بما مكنه به من الحجة القاطعة والبرهان العظيم . إذ ما ظنك بشخص يرى خصومه أمامه وقد تسلحوا بكل شيء مادى من : مال وجاه وسلطان وجبروت وقوة . وهو وحده لا مال معه ولا سلاح ولا أنصار ، هو وحده يتحداهم بهذا البيان الرائع والجنان الثابت والحجة القوية ، إنها النبوة التى علا جلالها على كل شيء . ووهنت أمامها كل قوة فى الأرض .

ومن أمثلة الرد المسكت ما رد به النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ على أبي بن خلف ، وكان قد مشى إليه وفى يده عظم بالٍ قد ارفتَّ ، فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم ، ثم فتَّه بيده ، ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

فقال : « نعم أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكون هكذا ثم يدخلك الله النار » .

وأنزل الله فى ذلك قوله تعالى فى آخر سورة يس « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » .

كتب أبو سفيان رسالة تهديد للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أراد بها أن يبلغ فى نفوس المسلمين مبلغ الإخافة والإرهاب ، جاء فى نهايتها فيما يذكره العقاد فى كتابه ــ « عبقرية محمد » ــ : نريد منك نصف نخل المدينة فإن أجبتنا إلى ذلك وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار :

تجاوبت القبائل من نزار لنصر اللات فى البيت الحرام
وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة ضرام

فأجابه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بكتاب جاء فيه : « وصل كتابُ أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق وفهمت مقالتكم فو الله ما لكم عندى جواب إلا أطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام وأبشروا بضرب الحسام وبفلق الهام وخراب الديار وقلع الآثار » .

واحدة بواحدة والبادى أظلم . أراد أبو سفيان أن يخيف فأخيف وأن يُسكت فأُخرس .

فهذه أمثله من بداهته ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مجابهة المواقف التى لم يكن فيها عييا ولا حصيرا ، ولكنه كان قويا متمكنا . يرسل كلماته على سجيتها فتنساب فى قوة تقطع حجة خصمه وتدفع باطل عدوه كما يقول القرآن فى سورة الأنبياء : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » .

٥ ـ حسن الإيجاز وجوامع الكلم

قال بعض الحكماء : البلاغة قول يسير يشتمل على معنى خطير . وهذا مثل قول الآخر : البلاغة حكمة تحت قول وجيز .

وقول الآخر : البلاغة علم كثير فى قول يسير ـ وقد علل البلغاء لبلاغة الإيجاز بأن الكلام إذا طال عرضت للمتكلم أسباب التكلف ولا خير فى شىء يأتيك به التكلف .

وقد مر بنا فى مقدمة هذا البحث أن الإمام الغزالى وصف كلام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه كان أوجز الناس كلاما وبذلك جاءه جبريل ، وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد ، وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير .

كان بصفة عامة موجزا فى غير تقصير وأطول خطبة له ـ فيما عدا خطبة الوداع ـ لا تتعدى سطوراً تحصى ولا يستغرق إلقاؤها وقتا طويلا ، ومن أقواله التى رواها الرواة : « نصرت بالرعب وأعطيت جوامع الكلم » ـ كتاب « الجامع الأزهر فى حديث النبى الأنور » للمناوى جـ ٣ صـ ٥٧ .

والمقصود بجوامع الكلم كما يقول العلماء : الكلام الجامع للمعانى الكبار فى الكلمات القصار ، بمعنى أنه لو أراد الشارح أن يشرح الجملة القصيرة منه جمع تحتها ألوانا من القصص والمعانى والأمثلة مختلفة الألوان ، ونستعرض فى ذلك مثالا . أخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وذكره « صاحب الصناعتين » ـ قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كفى بالسلامة داء » .

تلقف هذا الحديث الجامع كثير من الأدباء والشعراء فصاغوا فى ظله كثيرا من أشعارهم ونثوراتهم ، فقال حميد بن ثور :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة ... وحسبك داء أن تصح وتسلما

وقال آخر :

كانت قناتى لا تلين لغامز ... فألانها الإصباح والإمساء
ودعوت ربى بالسلامة جاهدا ... ليصحنى فإذا السلامة داء

وقال ابن الرومى :

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ... إذا زال عن نفس البصير غطاؤها
وكيف بقاء العيش فيها وإنما ... ينال بأسباب الفناء بقاؤها

وإليه ينظر المثل الذى يقول : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص .

وقريب منه قول « محمد بن على » – رضى الله عنهما – : مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حمامك وتقربك من يومك.فأية أكلة ليس معها غصص وشربة ليس معها شرق فتأمل أمرك فكأنك قد صرت الحبيب المفقود .

لقد عبر النبي – صلى الله عليه وسلم – عن كل هذه المعانى مجتمعة فى أقصر لفظ وأيسر عبارة وأجمع فكرة وتناولها بما لم يستطع « النمر بن تولب » فى الجاهلية أن يتناولها فى بيتين هما :

يود الفتى طول السلامة والغنى ... وكيف يرى طول السلامة تفعل
يُرد الفتى بعد اعتدال وصحة ... ينوء إذا رام القيام ويحُمل

وهما على جمالهما لم يحلقا كما حلقت عبارة النبي – صلى الله عليه وسلم – ذات الكلمات الثلاث الخالية من التكرار والتى أدت من المعنى أكثر مما أداه بيتان جمعا من وسائل التعبير ما جمعا .

هذا ما حام حول هذا الحديث من تعبيرات الأدباء ، وهناك تعبيرات أخرى لم يسعف الجهد والخوف من الإطالة والوقت باستقصائها ، فما بالك لو شرح .

إنه من غير شك يحتاج إلى كثير من الصفحات إلى جانب ضرورة توفر القريحة النافذة والثقافة الواسعة .

وانظر إلى قوله – صلى الله عليه وسلم – : « الضعيف أمير الركب » ، فقد جمعت هذه العبارة على قصرها كل آداب السفر وما يتحتم على المسافر أن يفعله فى صحبة غيره ، وما يجب عليه من عطف على الضعيف الذى صوره الحديث فى صورة الأمير ، والأمير من شأنه أن يقول فيسمع وأن يأمر فيطاع ... إلى غير ذلك من المعانى .

ومن أمثلة إيجازه قوله – صلى الله عليه وسلم – للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون

عند الطمع » . فما أصدقها كلمة تقال لهؤلاء الذين بايعوه على الجهاد وآثروه وأصحابه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ونزل فيهم قوله تعالى فى سورة الحشر : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

أما قوله : « يد الله مع الجماعة » فهو فى منتهى الإعجاز ، انظر إلى ما تضمنته هذه الحكمة الرائعة ذات الكلمات الأربع من مزايا الاتحاد والتضامن . وما حذرت منه من تخاذل وتفرق ، وبينت كيف يظل الله المتعاونين بظله ويمدهم بالعون والتوفيق ، وانظر إلى المجاز المرسل الذى تؤديه كلمة « اليد » وهى تريد القوة والرحمة والمعونة والتوفيق وما يوحى به هذا المجاز من طرافة وجمال .

إن هذه العبارة لوشئت أن تجعلها عنوان مقال أوكتاب لجمعت فى فصوله من فنون القول وأفانين الكلام ما يعجز عن الوفاء بمضمون هذا العنوان .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

حول مفهوم حديث :

ولا يفوت فى هذا المقام الإشارة إلى حديث ذكره الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » ورواه الأصمعى وابن الأعرابى عن رجالها وهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنا معشر الأنبياء بكاء » ومعنى « البكء : القلة » . وهو يقصد قلة الكلام . وليست القلة من عجز ولكنها من قلة التكلف مصداقا لقوله تعالى فى سورة ص : « قل لا أسألكم عليه أجرا وما أنا من المتكلفين » ومن الرغبة فى البعد عن الصنعة ومن شدة المحاسبة ، حتى يصير الصمت بالتمرين والتوطين عادة تناسب الطبيعة .

وقد علق الجاحظ عليه فى كتابه بما فيه غنية للمستزيد وقطع للمستريب فليرجع إليه من يريد . -

لقد دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإيجازه الجامع إلى ما تنبه له البلغاء بعده وذكره ابن رشيق فى « العمدة » بقوله : البلاغة إصابة المعنى وحسن الإيجاز .

وقال أبو الحسن الرمانى : أصل البلاغة الطبع ولها مع ذلك آلات تعين عليها وتوصل للقوة فيها وتكون ميزانا لها وهى ثمانية أضرب أولها : الإيجاز .

٦ ـ الصور والأساليب البلاغية :

لا يجهل أحد قيمة التصوير فى الكلام ولأثره الحسن استعمله القرآن الكريم فى مواضع كثيرة . وكان اعتماد علماء البلاغة فى استشهاداتهم بالنسبة لجمال الصور وألوان الأساليب البلاغية مستمدا فى المقام الأول من القرآن .

والبلغاء يلجأون إلى القرآن أولا فى الاستشهاد استدلالا على أن التصوير والأساليب البلاغية من أبواب الجمال فى الكلام .

وبما أن القرآن الكريم سيد الكلام استعملها فما على الأدباء من بأس فى أن يجودوا أساليبهم باستعمالها . والتأسى بالقرآن فى اصطناع جودة الأساليب وابتغاء روعة التأثير .

ولم يغفل الأسلوب النبوى استعمال الصورة الأدبية ، وكلام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حافل بالتشبيهات والاستعارات والكنايات ومختلف الأساليب البلاغية التى تشمل اللفظ والمعنى . فى غير تكلف أو تعمل .

ولو أردنا الاستقصاء لطال المقام ، ومثال يغنى عن كثير .

اقرأ هذا المثل : من « صحيح مسلم » : « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير . فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة » .

واقرأ التعليق فى كتاب « من بلاغة السنة » الذى يعرض الحقائق البلاغية للحديث . إنه يقول : فى الحديث تشبيه تمثيلى حيث شبه الجليس الصالح صاحب الأخلاق الحسنة ببائع المسك الذى لا يعدم جليسه من فائدة ، وتشبيه الجليس السيئ الأخلاق بالرجل الذى يتعامل مع النار الذى لا يأمن حتى على نفسه منها وكذلك جليسه لا ينجو من شرها .

وفيه أيضا مجاز مرسل علاقته المجاورة . حيث أطلق الكير وأراد به الزق .

وفيه لف ونشر حيث أجمل الكلام ثم نشره ، أو فيه تفصيل بعد إجمال .

وفيه طباق بين الصالح والسيئ ، والريح الطيبة والريح الخبيثة .

وأضيف إلى هذا أن الحديث صورة أدبية متكاملة جمعت بين الفكرة العميقة والصورة الجميلة والأسلوب الجيد بما فيه من محسنات غير متكلفة وألفاظ منتقاة كما أن فيه فضل الاستقصاء حيث عدد مزايا حامل المسك وعدد مساوئ نافخ الكير ، وفى كل منهما كناية لطيفة

عن الصلاح والفساد ، والحديث مع ذلك من جوامع الكلم التى تحمل فى ألفاظها القليلة معانى جمة جليلة ، وفيه الإشارة إلى استحباب استعمال الرائحة الزكية التى ترغب فى إقبال الناس على صاحبها وإشاعة البهجة فى النفوس .

وانظر إلى جمال « التشبيهات والصور » فى العبارات التالية : « الصوم جُنَّة » ـ « الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » ـ « الكلمة الطيبة صدقة » ـ « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ـ « جنة الرجل داره » ـ « مثل أبي بكر كالقطر أينما وقع نفع » ـ « مصارع الرجال تحت بروق الطمع » ـ « إن للقلوب صدأ كصدأ الحديد وجلاؤها الاستغفار » ـ « اليد العليا خير من اليد السفلى » ـ « جدع الحلال أنف الغيرة » .

إن سر جمال الصورة يكمن فى إصابتها الهدف وفى دقة الملاحظة وفى عدم تكلفها وفى إضافتها للمعنى وفى اتصالها بشعور قائلها ونبعها من صدق إحساسه ، وفى عدم غرابتها وفى جدتها وعدم تقليدها .

كل ذلك كان فى الصور التى نراها فى أسلوب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعجز ، والتى تدل دلالة قاطعة على أن أسلوبه وصل إلى قمة عالية لا يمكن لإنسان كائن من كان أن يصل إليه . وحسبك أن كافة الأدباء والبلغاء ماعدا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجدوا من يأخذ عليهم بعض أخطائهم فى إصابة التشبيه أو تقليدهم بعض الصور وعدم ابتكارها فإن لم يأخذوا عليهم خطأ فى التصوير لم يعدموا أن يجدوا لهم خطأ فى التعبير .

كلمات غير مسبوقة :

وللنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلمات لم يسبقه إليها عربى ولم يشركه فيها عجمى ولم تدع لأحد ولا ادعاها أحد مما أصبحت أمثالا سائرة جمعت قمة البلاغة تصويرا وتعبيرا وإيجازا كما يقول الجاحظ فى « البيان والتبيين » جـ ٢ ص ـ٢٧ . من ذلك قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا خيل الله اركبى » ـ « مات حتف أنفه » ـ « لا يلسع المؤمن من جحر مرتين » .

أما قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كلما سمع هيعة طار إليها » ، « أكثروا من ذكر هادم اللذات » وقوله بعد أن زف فاطمة إلى زوجها على وأغلق دونهما الباب : « جدع الحلال أنف الغيرة » فهو من رائع التصوير والتخيل .

المحسنات البديعية :

وكان أسلوب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يخلو من البديع غير المتكلف ، من جناس وسجع وطباق وغيره والأمثلة على ذلك كثيرة فى كلامه ، وجماله يظهر فى أن ذلك يأتى عفوًا لخاطر معينا على المعنى مطرزًا للأسلوب من غير عنت ولا استكراه .

ومن أمثلته : « افشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام »

وقوله : « إرجعن مأزورات غير مأجورات » ـ « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » ـ « إياكم والمشارة فإنها تميت العزة وتحيى العرة » .

٧ـ صدق الحديث :

جاء فى كتاب « عيون الأخبار » جـ ٢ صـ ١١٧ عن معاوية بن أبى سفيان قال : نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الأغلوطات ، قال الأوزاعى : يعنى صعاب المسائل ، وعلق محقق الكتاب بأن هذا التفسير لا يتناسب مع الحديث بل المعنى أنها المسائل التى يغالط بها وهكذا فسرها الزمخشرى فى « الأساس » .

والأغاليط تتنافى مع الصدق الذى كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتحلى به ويدعو إليه قولا وعملا ونية . والتزام الصدق غاية لا يدركها إلا أولو العزم من الرسل وسيدهم فى ذلك رسول الله . فقد كانت دعوته الصدق بعينه ، وأحاديثه كلها يتمثل فيها الصدق بأجلى معانيه حتى فيما يخبر عنه من حقائق تغيب عن أذهان الناس فى زمانه وما بعد زمانه ثم يسير الفلك دوراته وتتكشف الأيام عن صدق ما تحدث به ، لقد أخبر عما سيحدث وقد حدث .

أخرج أحمد عن عدى بن حاتم ... دخلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « يا عدى أسلم تسلم ثلاثا » ، قال فقلت : إنى على دين . قال : « أنا أعلم بدينك منك ... ألست من الركوسية ـ دين بين النصارى والصابئين ـ وأنت تأكل مرباع قومك » . قلت : بلى . قال : « هذا لا يحل لك فى دينك » .

قال : « أما إنى أعلم الذى يمنعك من الإسلام ، تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة » ؟ قلت لم أرها وقد سمعت بها . قال : « فو الذى نفسى بيده ، ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد وليفتحن الله كنوز كسرى بن هرمز » . قال : قلت كنوز ابن هرمز ؟ . قال : « نعم كسرى بن هرمز وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد » .

قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تأتى من الحيرة تطوف بالبيت فى غير جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قالها .

وقد تمت الثالثة فعلا فإنه فى عهد عمر بن عبد العزيز بحث عن مستحق الصدقة فلم يجد لأن الله قد أغنى الناس جميعا فصرف مال الزكاة فى التعمير والتحرير .

إنه الحديث المعجز الذى ينطق بالكلمة عن المستقبل فلا تلبث الأيام أن تصدقها . ذلك لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

وصدق الحديث هذا من تمام الإعجاز فى البيان النبوى .. والأمثلة عليه كثيرة أكثر من أن تحصى وكتب السنة غاصة بها . وسأتجاوز أحاديث الإخبار عن المستقبل إلى لون آخر من الأحاديث الصادقة التى يصدقها مفهوم العصر الحديث .

أذكر منها هذا المثال وهو الحديث المشهور : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » .

أثبتت الأيام عبقرية صدق هذا الحديث . وأخبر العلم بأن استعمال السواك والمداومة عليه فيه منجاة من كثير من الأمراض التى تعترى الجسم عن طريق تسوس الأسنان وفساد اللثة وقذارة الفم .

ربما كانوا ينظرون إلى هذا الحديث على أنه من الأوامر المستحبة التى يمكن التجاوز عنها دون أن يكون هناك كبير خطر . ولكن بعد التوسع العلمى واكتشاف الأسباب المؤدية للعلل والأمراض ، وإمكان رؤية الجراثيم والميكروبات بواسطة المناظير المكبرة أمكن معرفة ما يعترى الأسنان من خلل . وأمكن فى ضوء ذلك اكتشاف ما فى شجر الأراك الذى يؤخذ منه المسواك من مواد طاردة لهذه الجراثيم وقاضية عليها . واكتشاف الأهوال المترتبة على مرض الأسنان وراء هذه المصانع التى تنتج مئات الأنواع من معجون الأسنان ووسائل التنظيف . ومازالت هذه الأنواع والوسائل عاجزة عن اللحاق بما فى هذا العود الصغير البدائى المأخوذ من شجرة الأراك .

وربما ظن بعض الناس أن قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى شأن السواك ليس من قبيل الإعجاز ولكنه كلام إنسان حاذق فطن يدعو إلى النظافة ، فليكن كذلك . ولكن لابد أن يلاحظ الظان تلك البيئة البدائية التى كان يعيش فيها الرسول وكيف أن هذا السواك الذى دعا إلى استعماله فيها لم يفقد فعاليته بعد مرور أربعة عشر قرنا من الزمان ، وفى بيئات عرفت فيها تلك

الأدوية والمطهرات والوسائل الحديثة والمعقمة .

ولكن ما قول هذا الظان وغيره حين يسمع قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتحدث عن أحدث التخصصات العلمية الحديثة فى أحاديث متفرقة : كالحديث الذى يفرق بين دم الحيض والاستحاضة ، وأن الدم الأول يمنع الصلاة ، والثانى لا يمنعها . وكغيره من الأحاديث التى استعرضها العلماء بالشرح والتفصيل وأثبتوا من خلالها الصدق العلمى فى أخبار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ وارجع فى ذلك إذا شئت إلى كتاب « الرسول » لسعيد حواء فقد استعرض طائفة من هذه الأحاديث المعجزة ، وغيره من الكتب .

إن كثيرا من الحكماء والعلماء قالوا كلمات تعجب الناس من جمالها فى فترة من فترات التاريخ ثم لم تلبث أن أصيبت هذه الكلمات بالفتور ثم الاندثار ، لأنها لم تستطع مقاومة ما يجد من أحداث ولأنها لم تكن مستشفة من ضمير الغيب الذى لا يتغير ولا يتبدل ، وهكذا كان حديث الذى لا ينطق عن الهوى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

٨ ـ صعوبة التقليد :

عنى المسلمون منذ فجر التاريخ الإسلامى بمعرفة أقوال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وروايتها ، لأن السنة هى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى .

والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا إلى حفظ كلامه وروايته وفى ذلك يقول : « نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه وحامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وقد بدأ تدوين السنة كعمل فردى مبكرا ولم يصبح جماعيا إلا فى عهد عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ ، والذى دفعه إلى ذلك اجتراء بعض الناس على اختلاق بعض الأحاديث لإبطال حجة خصومهم أو اكتساب تأييد العامة أو غير ذلك ، ولكن الله وفق علماء المسلمين إلى تنقية السنة مما أضيف إليها وتجردوا لبيان الصحيح والموضوع من الحديث . ووضعوا فى ذلك الضوابط الجامعة المانعة التى تضمن صحة الحديث وضبطه .

نجح علماء السنة فى تنقية الحديث أكثر مما نجح علماء الأدب فى تنقية الشعر العربي من الخطأ أو الإضافة أو النسبة حتى قال المفضل الضبى : لقد سلط الله على الشعر من حماد الراوية ما أفسده حتى لا يصلح أبدا .

والسبب فى حفظ السنة أنها تعد الموضحة للقرآن المفصلة له . وقد تعهد الله بحفظ القرآن . وفى حفظ القرآن حفظ للسنة ، وفى حفظ السنة حفظ للقرآن . وحفظ السنة إعجاز ما بعده إعجاز .

وهناك سبب آخر هو صعوبة التقليد ، ذلك أن بيان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نسيج وحده لا يمكن لغيره أن يصنع مثله لأن فيه حلاوة روح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسناء نوره ، وتلك مزية لا يشاركه أحد فيها . والكلمة تنم عن روح قائلها وتترجم عن فؤاد صاحبها . ولا يحكم على جنان إنسان مهما كان بالحكم على جنان إنسان أسرى به وعرج به إلى السموات العلا حيث علت قدمه على كل قدم ورأت عيناه ما لم يطمح لرؤيته بصر بل تجاوز مقاما عز على مقامات الأنبياء المكرمين والملائكة المقربين .

فلابد أن يكون ترجمان هذا الجنان من المعانى والأسرار والألفاظ فوق بيان كل بيان ماعدا القرآن الكريم الذى نزل على قلبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولقد تنبه لهذه المنزلة الشريفة كثير من العلماء الأجلاء ، وذكر الجاحظ أن تقليد كلام الرسول صعب المنال ، وقال فى ذلك : « وللسلف الطيب حكم وخطب كثيرة صحيحة ومدخولة لا يخفى شأنها على نقاد الألفاظ وجهابذة المعانى متميزة عند الرواة الخلص ، وما بلغنا عن أحد من جميع الناس أن أحدا ولّد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطبة واحدة » .

لقد أدرك المولد لو سولت له نفسه ذلك أنه يعرض نفسه لمرتقى صعب يفتضح دون الوصول إليه , إذ كيف له بالتسديد التام والصواب الكامل . والعصمة الفاضلة والتأييد الكامل والكلمة الجامعة والصدق الشامل ، وتلك مقومات بيانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

موضوعات بيانه :

أجاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ القول فى كل فن من فنون القول . فتناول الخطب والوصايا والرسائل والمواعظ والحكم والمعاهدات والأدعية ، وله فى كل منها آثار رائعة معجزة . وقد مرت منها ألوان فيما مضى . فن واحد لم يتناوله ، هو فن الشعر ، لقد صرفه الله عنه قولا . وإن كان على علم به .

وقال الله فى حقه « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » . وعدم قوله الشعر غير قادح فى ملكته وقدرته البلاغية وإعجازه فى الفنون الأخرى .

فقد حال الله بينه وبين الشعر لحكمة بالغة . لأنه لو انصرف إليه لبلغ القمة فيه ولو برز فيه لسار فى نهج الشعراء فى أغراضهم المختلفة . ولو قال الشعر لصدق من وصفه من المعارضين بأنه شاعر وأن القرآن لون من الشعر ولا ستطاع هؤلاء المعارضون أن يسندوا هذا التأثير الذى بلغه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نفوس الناس إلى ما يقوله من الشعر ، فى بيئة عرفت للشاعر حقه ومنزلته ، وبلغ الشعر فى نفوسهم منزلة رفيعة . وكم رفع بيت من الشعر مجد قبيلة وخفض أخرى ، وكم أشعل نار حرب وأجج عداوة وأحيا ثأرا ، وعلى الرغم من ارتفاع الشاعر فى نظر الناس إلا أن بعضهم كان ينظر إليه على أنه منافق ينمق الكلام ويزخرفه ولا يقوله عن عقيدة أو صدق .

وقد وصف القرآن الشعراء أصدق وصف فقال : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم ترأنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين أمنوا ... » ـ سورة الشعراء ـ .

من أجل ذلك صرف الله نبيه عن قول الشعر . ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان على علم به ويستمع إليه ويستشهد به أحيانا ولكنه لا يتم البيت الذى يستشهد به وإن أتمه عدل به عن وزنه .. والأمثلة على ذلك كثيرة فى سيرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وللدكتور عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ تعليل آخر لذلك ذكره فى مقال له « بمجلة الأزهر » ذو الحجة ١٣٩٦ هـ فحواه : « أن هناك مستويات من الإنسانية هى فى سموها ترتفع عن مستوى الشعر ، ومن هذه المستويات مستوى الرسل ، ولعل مستوى الصديقية فى قمته لا يناسب أيضا مستوى الشعر ، ولم يكن أبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ وهو قمة الصديقين شاعرا » .

أقول : وقد سار على هذا الدرب بعض العلماء الذين تهيأ لهم قول الشعر فصرفوا أنفسهم تأدبا عنه فقال أحدهم :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

هذا ولا يفوتنا الإشارة إلى أمية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقد بلغ ما بلغ من علو فى القول وإعجاز فى البيان على الرغم من هذه الأمية ، وربما كان مرد هذا الإعجاز إلى هذه الأمية .

وقد علل بعضهم لحكمة الله فى اختيار نبيه أميا ولا أبلغ من تعليل القرآن لذلك فى قوله تعالى فى سورة العنكبوت : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لا رتاب

المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » .

ومن تعليل العلماء لهذه الأمية قولهم : إنما جعل الله نبيه أميا لا يكتب ولا يقرض الشعر ولا يتكلف لينفرد الله بتعليمه ، وليصدق إخباره عن نفسه : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وليكون حين يتلو القرآن ويأتى فى حديثه بروائع البيان أدل على أن ذلك من الله وأبلغ فى الإعجاز .

لقد صرف الله همة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ما هو أبعد من التعلم وقول الشعر ، صرفها إلى طلب الهداية والإقبال على الله والدعوة إليه ، وتولى الله تلقينه وتعليمه وإلهامه ، ولذلك كان بيانه إذا أطال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب .

فالأمية فى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضيلة من الفضائل لأنه بلغ مع وجودها نهاية الكمال فى جودة النطق وحسن البيان ، فى حين أن كثيرا ممن أخذوا بأسباب العلم والثقافة لا يستطيعون إقامة حرف على حرف ، وبناء جملة على جملة فسبحان من أدبه وعلمه .

وبعد ، فهذه إلمامة موجزة عن بعض وجوه الإعجاز فى البيان النبوى الشريف ، لم أستطع استقصاءها لأنها فوق الجهد .

وحسبى فى ذلك أن رسمت بعض الخطوط لعلها تنير الطريق مستقبلا لبحث أوسع وأشمل .

ومازالت السيرة العطرة ذات عطاء مرفود وظل ممدود .

نفعنا الله بها ونفع المسلمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد رسول الله كما تنبأت عنه الكتب السابقة

الأستاذ
إبراهيم خليل أحمد

١ ـ الرسول النبى الأمى دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ

الحمْدُ لله الَّذى هَدَانَا لِهذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلاَ أَن هَدَانَا الله .

والصَّلاَةُ والسَّلاَمَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنا محَمَّدِ النِّعْمَة المُسْدَاةِ والرَّحمةِ الْمُهداةِ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ الأَئِمَّة الْهدَّاةِ . وبعد :

جاء فى التوراة دلالات واضحة تؤكد تضرعات إبراهيم ـ عليه السلام ـ لله من أجل ابنه إسماعيل. فهو الابن الوحيد، فقد ولد إبراهيم فى مدينة أور الكلدانيين Ur. chaldea. عام ١٩٩٦ ق . م . ودعاه الله أن يهجر وطنه ليستغرب فى أرض كنعان عام ١٩١٨ ق . م . وقطع معه ميثاقا فى حبرون عام ١٩١٢ ق . م . وهذا هو الميثاق :

« فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » (١) .

وهنا نتساءل كيف يصير استخلاف إبراهيم على أراضى آهلة بسكانها الأصليين ؟

وتقرر التوراة أن نسل إبراهيم سيكون غريبا فى أرض ليست لهم « لأن ذنب الأموريين ليس إلى الآن كاملا » « وفى الجيل الرابع يرجعون إلى هاهنا » (٢) .

وهنا يظهر طموح السيدة سارة زوجة إبراهيم فتتحرك وفق إرادة الله لتقول لزوجها إبراهيم : أن يتزوج هاجر لتنجب لهما النسل الذى يتحقق فيه ميراث الأرض .

« وأما ساراى امرأته فلم تلد له ، وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر . فقالت ساراى لأبرام هوذا ، الرب قد أمسكنى عن الولادة . ادخل على جاريتى لعلىّ أرزق منها بنين ، فسمع أبرام لقول ساراى ، فأخذت ساراى امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام فى أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له ، فدخل على هاجر فحبلت » .(٣)

لقد كانت سارة أكثر واقعية فى معرفة إرادة الله فزوجته هاجر لينجب منها نسلا يرث مواعيد الله لإبرام إذ سبق فقال له : « لنسلك أعطى هذه الأرض . فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له »(٤) .

بينما وقف إبراهيم أمام الله يناجيه قائلا : « أيها السيد الرب ماذا تعطينى وأنا ماض عقيما ومالك بيتى هو اليعازار الدمشقى . وقال أبرام أيضا : إنك لم تعطنى نسلا وهوذا ابن بيتى وارث لى »(٥) إنها تضرعات إنسان يرتجى الله فحسب .

« فإذا كلام الرب إليه قائلا : لا يرثك هذا ، بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك »(٦) كلمات حنّ لها فؤاد سارة أمرأة أبرام فاعترفت قائلة : « هوذا الرب قد أمسكنى عن الولادة »(٧) وهذا الاعتراف يجعلها تتنازل عن غيرتها فتزوجه بهاجر لتلد لها البنين وتحقق أملها « فولدت هاجر لأبرام ابنا ، ودعا أبرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر إسماعيل . كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام »(٨) ولد إسماعيل عام ١٩١٠ ق . م .

قال الله سبحانه « وَوَهَبْنَا لَهُ اسحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوةَ والكِتَابَ وَآتَينَاهُ أَجْرَهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الآخِرةِ لمِنَ الصَّالِحينَ »(٩) .

فماذا تروى التوراة فى هذا الشأن ؟

« وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك لا تدعو اسمها ساراى بل اسمها سارة . وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا أباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون »(١٠) .

شىء لا يصدقه عقل ؟ !

« فسقط إبراهيم على وجهه وضحك . وقال فى قلبه هل يولد لابن مئة سنة ، وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة »(١١) .

تساؤلات كثيرة جاشت فى قلب إبراهيم ولكى لا يرتاب فى قدرة الله تضرع إلى الله من أجل ابنه إسماعيل قائلا :

«ليت إسماعيل يعيش أمامك»[١٢] .

بل أكد الله وعده بأن يهبه إسحاق ومع هذا استجاب له قائلا :

«وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا ، اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة»[١٣] .

جاءت ملائكة وإبراهيم جالس فى باب الخيمة عند بلوطات ممرا لتخبره بقضاء الله وقدره بسخطه على سدوم وعمورة وفى أثناء الحديث بشروه بأن الله سيهبه ابنا من سارة فضحكت سارة فقال الملاك لإبراهيم : «لماذا ضحكت سارة قائلة أفبا لحقيقة ألد وأنا قد شخت ، هل يستحيل على الرب شىء فى الميعاد ارجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن»[١٤] وقال الله سبحانه على لسان إبراهيم «رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ»[١٥] .

فما هى رواية التوراة فى هذا الشأن ؟

١ ـ تقول إن الله سبحانه أنجز وعده لإبراهيم وسارة .

٢ ـ ثم تكشف عن نوازع الغيرة والأثرة بعد الإنجاب .

٣ ـ ثم تبين استياء إبراهيم لتصرفات سارة .

٤ ـ وأخيرا يرضخ إبراهيم بعد أن يأمره الله بطاعة سارة .

أما أولا :

وافتقد الرب سارة كما قال ، وفعل الرب لسارة كما تكلّم . فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابنا فى شيخوخته ، فى الوقت الذى تكلم الله عنه ، ودعا إبراهيم اسم ابنه المولود له الذى ولدته له سارة إسحاق وختن إبراهيم إسحاق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله . وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين وُلد له اسحاق ابنه ، وقالت سارة : قد صنع إلىَّ الله ضحكًا ، كلٌّ من يسمع يضحك لى»[١٦] .

أما ثانيا :

«ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح ، فقالت لإبراهيم : اطرد هذه

الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق »[١٧] .

وقد استغل بولس هذا القول . وبولس ـ وهو حاخام يهودى سابق ـ ادّعى أن المسيح اختاره ليكون من تلاميذه والتحق بالتلاميذ الذين توجسوا خيفة منه ، وتبوأ مركز الصدارة بينهم . فيقول : « إذا أيها الإخوة لسنا أولاد الجارية بل أولاد الحرة »[١٨] .

أما ثالثا :

« فقبح الكلام جدا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه »[١٩] .

أما رابعا :

« فقال الله لإبراهيم : لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لأنه بإسحاق يُدعى لك نسل . وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك »[٢٠] .

الرحلة إلى فاران

« فبكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاها لهاجر واضعا إياهما على كتفها وصرفها »[٢١] .

فسألته : الله أمرك بهذا ؟

فقال : نعم .

فأجابت : إذن لن يضيعنا .

ثم رجعت لتستقر فى مكانها وهى تنظر إلى ابنها بين الحين والحين ، وتطمئن نفسها وتنظر إليه وهى تقول : يا إسماعيل ، إن رب أبيك لن يضيعنا .

وانطلق إبراهيم حتى كان فى مكان لا تراه زوجه فيه فأخذ يدعو ربه بهذا الدعاء الذى حكاه القرآن الكريم : « رَّبَّنَا إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ... »[١٥] .

وتحكى التوراة عن نفاد الماء وانبثاق بئر زمزم بعد سعيها ما بين الصفا والمروة بحثا عن الماء فتقول : « ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابلة بعيدًا نحو رمية قوس ، لأنها قالت : لا أنظر موت الولد ، فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت . فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : مالك يا هاجر . لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام وشدى يدك

به .. **لأنى سأجعله أمة عظيمة** . وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء . فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام . وكان الله مع الغلام فكبر . وسكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر»(٢٢) .

وقال الله سبحانه وتعالى» :

«وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا من الصَّالِحِينَ»(٢٣) .

فماذا إذن رواية التوراة بشأن الذبيح ؟

تقول التوراة عن ابتلاء الله لإبراهيم فى ابنه الوحيد وامتثال إبراهيم والذبيح لأمر الله . والرواية تستحق منا وقفة تأمل لمناقشتها وصدق الله فى قوله عن اليهود :

ـ «وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»(٢٤) .

ـ «يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»(٢٥) .

واستدلالى على نبوآت الأنبياء بالنبى الخاتم من التوراة والإنجيل ليس دليلا على صحتها فهى قد أصبحت خليطا من الوحى والفكر البشرى أستعين على تبيان الحقيقة منهما بالقرآن الكريم مستعينا بقوله سبحانه : «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُه فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ»(٢٦) إننى أتتبع منهج إبراهيم فى حواره عن وحدانية الله مع قومه «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ . نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ»(٢٧) .

وبعد هذه اللمحة السريعة للتعريف بالتوراة والإنجيل نعود إلى رواية التوراة حول الذبيح . هذا وإن استنادنا إلى ما جاء بهما انما من قبيل إقامة الحجة عليهم لأننا نخاطبهم من مقدساتهم لتصير «حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِهم وَعَلَيهِمْ غَضَبٌ وَلهمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ»(٢٨) .

جاء فى التوراة قصة ابتلاء الله فى ابنه الوحيد تقول : «وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم . فقال له : يا إبراهيم ، فقال : ها أنذا . فقال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك»(٢٩) .

ويجدر بنا الوقوف قليلا لمناقشه النص

إن قصة الابتلاء فى ابنه الوحيد مأساة كبرى كيف يتقبلها إبراهيم ؟ فإذا قالوا إنه إسحاق فكيف تتحقق مواعيد الله وسارة حريصة كل الحرص على أن يرث إسحاق أرض «الموعد» «وأقيم عهدى معه عهدا أبديا لنسله من بعده»[٣٠] .

وإن كان المراد إسماعيل فإنه الله يحقق لسارة أمنيتها فى التخلص منه حين قالت : «ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق»[٣١] وحينئذ يقع إبراهيم فى الامتحان ، لأن ابراهيم دعا ربه من أجل ابنه إسماعيل فاستجاب له «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة»[٣٢] وتقرر التوراة عن ذات الله قائلة :

«ليس الله إنسانا فيكذب ، ولا ابن إنسان فيندم هل يقول ولا يفعل ، أو يتكلم ولا يفى»[٣٣] إن مواعيد الله صادقة إذن فما هى الحقيقة ؟

إن النص صريح لا يحتاج إلى تأويل ألا : وهو أن الله امتحن إبراهيم فى ابنه الوحيد والابن الوحيد حقيقة هو إسماعيل أما إسحاق فهو الابن الزيادة ، ومن ثم يتبين وجود إضافة فى النص لتلبيس المراد هذه الاضافة هى « **الذى تحبه اسحاق** »[٣٤] فهى من تصنيف الكتبة الفريسيين البابليين وتأكيدا لذلك فبينما تقرر التوراة أن موسى «كتب هذه التوارة وسلّمها للكهنة بنى لاوى حاملى تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل»[٣٥] إذ نجد إضافة موسى يتحدث عن طريقة موته «فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض مُوآب حسب قول الرب ، ودفنه فى الجواء فى أرض مُوآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم»[٣٦] فهل من المعقول أن الميت ما زال يمارس نشاطه النبوى : «ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى عليه يديه فسمع له بنوإسرائيل وعملوا ، كما أوصى الرب موسى»[٣٧] .

وهنا نتساءل لماذا كانت هذه الإضافة «الذى تحبه اسحاق ؟»[٣٤] نعم . إنها إضافة مقصودة لإسقاط حق إسماعيل فى البكورية باعتباره ابن الجارية وفى هذا تمشيا مع سياسة «سارة» زوجة إبراهيم القائلة : «لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق»[٣١] .

وباعتبار آخر أن إسماعيل ابن غير شرعى لأن أمه كانت سرية لإبراهيم وكل هذه الاعتبارات منقوضة تدحضها التوراة ذاتها .

● أما فرية أنه ابن جارية فتدحضها الشريعة قائلة : « إذاكان لرجل امرأتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولدتا له بنين. المحبوبة والمكروهة . فإن كان الابن البكر للمكروهة. فيوم يقسم لبنيه ماكان له لا يحل له أن يقدم ابن المحبوبة بكرا على ابن المكروهة البكر ، بل يعرف ابن المكروهة بكرا ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده لأنه هو أول قدرته له حق البكورية »[٣٨] .

ومن هذا النص لا يجوز لرجل تزوج بأكثر من واحدة مثل حالة إبراهيم أن يسقط حقوق البكورية لأول ابنائه أول قدرته على الإنجاب بسبب الوضع الاجتماعى للأم أو الجنس أو اللون أو حتى العاطفة الوجدانية بأن احداهما محبوبة والأخرى مكروهة كما ورد فى النص .

هذا.ومن هو إبراهيم ؟ إنه : الإنسان النبي المنزه عن مطامع الدنيا ، لقد أراد ملك سدوم أن يقدم له الهدايا تقديرا لبطولته وانتصاره على أربعة ملوك منهم كدر لعومر ملك عيلام وآخرين . فقال إبراهيم لملك سدوم : « رفعت يدى إلى الرب الإله العلى مالك السماء والأرض لا آخذن لا خيطا ولا شِرَاكَ نعل ولا من كل ماهو لك . فلا تقول أنا أغنيت أبرام »[٣٩] .

من هو إبراهيم ؟ إنه الإنسان النبي الرحيم الذى قال لابن أخيه « لوط بن هاران » : « لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رُعاتى ورعاتك . لأننا نحن أخوان . أليست كل الأرض أمامك اعتزل عنى . إن ذهبت شمالاً فأنا يمينا ، وإن يمينا فأنا شمالا »[٤٠] .

إنه إبراهيم الرحيم الذى استاء من كلمات زوجته سارة التى أنجبت له على الكبر إسحاق حين قالت :

« لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق فقبح الكلام جدا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه »[٤١] .

● أما فرية أن إسماعيل ابن غير شرعى لأن أمه كانت سرية لإبراهيم فتدحضها التوراة ذاتها .

ذلك أن سارة لما أيقنت أنها عاقر أخذت هاجر وزوجتها لزوجها إبراهيم « وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له ، فدخل على هاجر فحبلت » ،[٤٢] « فولدت هاجر لأبرام ابنا ودعا أبرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر اسماعيل »[٤٣] وما حجتهم فى أبناء يعقوب من جارية راحيل وجارية شقيقتها ليئة الذين اقتسموا الأرض بالعدل مع إخوتهم أبناء راحيل وليئة . تقول التوراة :

ـ عن راحيل الزوجة المحبوبة :

« فقالت هوذ اجاريتى بِلْهَةُ . ادخل عليها فتلد على ركبتىَّ وأرزق أنا أيضا منها بنين . فأعطته بِلْهَةَ جاريتها زوجة . فدخل عليها يعقوب . فحبلت بِلْهَةُ وولدت ليعقوب ابنا . فقالت راحيل : قد قضى لى الله وسمع لصوتى وأعطانى ابنا . لذلك دعت اسمه دانا »(٤٤) . ومن دانا كان شمشون .

« وكان رجل من صرعة من عشيرة الدانيين اسمه منوح وامرأته عاقر لم تلد فتراءى ملاك الرب للمرأة وقال لها : ها أنت عاقر لم تلدى ، ولكنك تحبلين وتلدين ابنا »(٤٥) « فولدت المرأة ابنا ودعت اسمه شمشون . فكبر الصبى وباركه الرب »(٤٦) « وقضى لإسرائيل فى أيام الفلسطينيين عشرين سنة »(٤٧) .

ـ وعن لَيْئَة المكروهة والتى أنجبت أربعة أولاد

« ولما رأت لَيْئَةُ أنها توقفت عن الولادة أخذت زِلْفَةَ جاريتها وأعطتها ليعقوب زوجة ، فولدت زِلْفَةُ جاريه لَيْئَةَ ليعقوب ابنا . فقالت لَيْئَةُ بسعد . فدعته اسمه جادا »(٤٨) .

هذا فضلا عن أنه عند وفاة إبراهيم تقرر التوراة ان ابنيه إسماعيل وإسحاق دفناه بجوار سارة فى مغارة المكفيلة .

ـ « وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحه شيخا وشبعان أياما وانضم إلى قومه . ودفنه إسحاق وإسماعيل فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى أمام ممرا . الحقل الذى اشتراه إبراهيم من بنى حث . هناك دُفن إبراهيم وسارة امرأته »(٤٩) .

وبعد :

نتابع قصة الذبيح الذى هو بكل تأكيد اسماعيل من التوراة .

إمتثال إسماعيل لأمر الله والفداء

« ثم مدَّ إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه ، فناداه ملاك الرب من السماء وقال : إبراهيم إبراهيم . فقال : ها أنذا . فقال : لا تمد يدك إلى الغلامُ ولا تفعل به شيئا . لأنى الآن علمت أنك خائف الله فلم تُمسك ابنك وحيدك عنى . فرفع إبراهيم عينيه ونظر واذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه . فذهب أبرام وأخذ الكبش وأصعده محرِقه عوضا عن ابنه . فدعا ابراهيم اسم ذلك الموضع يَهْوَهْ يرْآه . حتى إنه يقال اليوم فى جبل الرب يرى »(٥٠)

نستنبط من هذه القصة أمورا ذات قيمة :

١ـ على أرض الْمريا بنى سليمان بيتا للرب :

« وشرع سليمان فى بناء بيت الرب فى أورشليم فى جبل الْمُرِيَّا حيث تراءى لداود أبيه حيث هيأ داود مكانا فى بيدر أُرْنَان الْيَبُوسِيِّ »[٥١] .

٢ـ نصت الشريعة على رفض الذبيحة البشرية

«لا يوجد فيك من يجيز ابنه او ابنته فى النار»[٥٢] .

حتى أن ميخا سأل ربه عن ولائه لله قائلا :

« بم أتقدم إلى الرب وأنحنى للإله العلى ؟ ، هل أتقدم بمحرقات بعجول أبناء سنة ؟ هل يسر الرب بألوف الكباش بربوات أنهار زيت ؟ **هل أعطى بكرى عن معصيتى ثمرة جسدى عن خطية نفسى** ؟ قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح وماذا يطلبه منك الرب إلا أن تصنع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعا مع إلهك »[٥٣] .

٣ـ دحض عقيدة صلب يسوع المسيح

إذ نصت الشريعة فى ثلاثة مواطن لا على سبيل الحصر بل على سبيل المثال إذ أكدت الشريعة حصانتها لأنبياء الله .

ـ قائلة : « لم يدع أحدًا يظلمهم بل وبخ من أجلهم ملوكا ، لا تمسوا مسحائى ولا تؤذوا أنبيائى »[٥٤] وأكد داود حصانة الله لأنبيائه قائلاً :

ـ « فلم يدع إنسانا يظلمهم . بل وبخ ملوكا من أجلهم قائلا لا تمسوا مسحائى ولا تسيئوا إلى أنبيائى »[٥٥] .

إن مروق شاول الذى تسمى باسم الوالى الرومانى سرجيوس بولس تملقا وزلفى وفلسفته فى دعوته للصليب إنما هى تجديف على الله وامتهان لقدراته فى المغفرة :

ـ « المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا لأنه مكتوب ملعون كل من عُلِّق على خشبة . لتصير بركة إبراهيم للأمم فى المسيح يسوع »[٥٦] فإذا رجعنا إلى المكتوب لنرى ما المراد بالصلب نجد الشريعة تقول :

«إذا كان على إنسان خطية حقها الموت فقتل وعلقته على خشبة ، فلا تبت جثته على الخشبة بل ندفنه فى ذلك اليوم ، لأن المعلق ملعون من الله ، فلا تنجس أرضك التى يعطيك الرب إلهك نصيبا »[٥٧] .

إن يسوع المسيح البار يتحدى اليهود وهو يعلم علم اليقين أن رؤساء الكهنة يتآمرون على قتله فقال :

ـ «من منكم يبكتنى على خطية» (٥٨) إنه يتحداهم عن ثقة فى نفسه وإيمانه المطلق بالله إذ قال :

ـ «الذى أرسلنى هو معى ولم يتركنى الآب وحدى . لأنى فى كل حين أفعل ما يرضيه» (٥٩) وتدحض الشريعة فلسفة بولس فى الصليب فتقرر قائلة :

ـ «لا يقُتل الآباء عن الأولاد ولا يُقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيته يُقتل» (٦٠) .

ـ «النفس التى تخطئ هى تموت ، الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون» (٦١) .

أى منطق هذا الذى يتذرع بولس به ؟ يعجز الله عن أن يغفر للبشرية ويقدر الإنسان على المغفرة ! أما فوض يسوع المسيح بطرس فى الحل والربط الأمر الذى انعقد له مجمع الأساقفة بروما عام ١٢١٥ الذى تقرر فيه ان الكنيسة البابوية بروما تملك حق الغفران فهى تمنحه لمن تشاء وتحرمه عمن تشاء ، ثم جاء وقت أفرط فيه رجال الدين فى منح الغفران إفراطا شديدا حتى أنشأوا له صكوكا عرفت «بصحكوك الغفران» .

واستندوا فى ذلك إلى قول يسوع المسيح لتلميذه بطرس :

ـ «وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات . فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات» (٦٢) .

إن داود النبى يعلم لمن يستغفر لذنبه ويعلم من بيده المغفرة فترنم قائلاً :

ـ «من الأعماق صرخت إليك يارب ، يارب اسمع صوتى لتكن أذناك مصغيتين إلى صوت تضرعاتى . إن كنت تراقب الأثام يارب باسيِّد فمن يقف . لأن عندك المغفرة لكى يخاف منك» (٦٣) .

ولقد علَّم يسوع المسيح تلاميذه الصلاة وفى مضمونها طلب المغفرة ، والغفران يُمنح للإنسان على قدر تسامحه مع إخوانه وأكد هذا بقوله :

ـ «فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوى وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضا زلاتكم» (٦٤) **وقال محذرا من التجديف على الروح القدس :**

ـ « لذلك أقول لكم كل خطية وتجديف يغفر للناس . وأما التجديف على الروح القدس فلن يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الإنسان يُغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يُغفر له لا فى هذا العالم ولا فى الآتى »(٦٥) .

وتتحدث التوراة عن الذبيح الذى صار بفضل الله بركة للأمم .

فتقول :

ـ « ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء، وقال : بذاتى أقسمت، يقول الرب : إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك . أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر ، ويرث نسلك باب أعدائه ، ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض ، من أجل أنك سمعت لقولى »(٦٦) .

فى هذه المجازاة وفى القول « ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض »(٦٧) يتلاقى مع قول الإله لإبراهيم « ونتبارك فيك جميع قبائل الأرض »(٦٨) .

ارتباط عجيب فى مواعيد الله بين إبراهيم وبين إسماعيل حيث قال الله لإبراهيم حين دعاه ليهجر أرض ميلاده « فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة »(٦٩) .

وهكذا بارك الله إسماعيل

فاستجاب الله لدعوة إبراهيم قائلا « وأجعله أمة كبيرة »(٧٠) والحكمة إلهية أمر الله إبراهيم أن يسمع لقول سارة ويأخذ هاجر وإسماعيل إلى أرض فاران قائلا له : « وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك »(٧١) وجاء الملاك إلى هاجر يشد من أزرها ويبلغها وعد الله القائل : « لأنى سأجعله أمة عظيمة »(٧٢) .

وهكذا تنتقل مواعيد الله لإبراهيم بحذافيرها إلى نسله فى إسماعيل الذى من سلالته **محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنه قال الله سبحانه** :

ـ « قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاس إِنِّى رَسُولُ الله إِلَيكُم جَمِيعاً »(٧٣) .
ـ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالمينَ »(٧٤) .

وتقول التوراة عن موسى : « فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر»(٧٥) إقرأ [خروج ٣ : ١٥ ـ ١٧ ، ٦ : ٢ ـ ٨] .

ويقول الإنجيل عن عيسى : إنه أجاب المرأة الكنعانية قائلا : « لم أرسل إلاَّ إلى خراف إسرائيل الضالة »(٧٦)

٢ ـ نبوة موسى

فى سنة ١٤٩١ ق . م . وفى شهر إبريل من هذه السنة خرج موسى ومعه بنى إسرائيل من مصر .

● ـ «وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة . لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا ويرجعوا إلى مصر» (٧٧) وأمر الله موسى أن يصعد إلى جبل الله ليعطيه لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبها لتعليم بنى اسرائيل .

● ـ «وحلَّ مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام . وفى اليوم السابع دُعى موسى من وسط السحاب ، وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل . ودخل موسى فى وسط السحاب وصعد إلى الجبل . وكان موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة » (٧٨) .

كيف يتلقى موسى كلام الله ؟ تقول التوراة :

ـ «وأخذ موسى الخيمة ونصبها له خارج المحلة بعيدا عن المحلّة ودعاها خيمة الاجتماع ، فكان كل من يطلب الرب يخرج إلى خيمة الاجتماع التى خارج المحلة ، وكان جميع الشعب إذا خرج موسى إلى الخيمة يقومون ويقفون كل واحد فى باب خيمته وينظرون وراء موسى حتى يدخل الخيمة ، وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة ، ويتكلم الرب مع موسى ، فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفا عند باب الخيمة* .

ويقوم* كل الشعب ويسجدون كل واحد فى باب خيمته ، ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه ، وإذا رجع موسى إلى المحلة كان خادمه يشوع بن نون الغلام لا يبرح من داخل الخيمة » (٧٩) .

مظهر آخر من مظاهر التلقى

ـ فلما دخل موسى إلى خيمة الاجتماع ليتكلم معه كان يسمع الصوت يكلمه من على الغطاء الذى على تابوت الشهادة من بين الكروبين فكلّمه (٨٠) .

هذا التقليد تتبعه الكنائس التقليدية الكاثوليك والارثوذكس ذلك عند قراءة الكاهن للانجيل فبمجرد تلاوته لكلمات يسوع المسيح يقف شعب الكنيسة اجلالا لكلمات الإله المتجسد .

تنبأ موسى عن النبى الخاتم فى موضعين قائلاً :

١ ـ « قال لى الرب : قد أحسنوا فى ما تكلموا ، أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه .[٨١]

٢ ـ وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته ، فقال : جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم . فاحب الشعب جميع قديسيه فى يدك وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك .[٨٢]

وتقرر التوراة أن هذا النبى الخاتم لن يكون من بنى إسرائيل

ـ ولم يقم بعد نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه .[٨٣]

ويؤيد نبوات موسى عن النبى الخاتم حبقوق النبى فيقول :

ـ الله جاء من تِيمَانَ والقدوس من جبل فاران . سلاه جلاَله غطىّ السموات . والأرض امتلأت من تسبيحه . وكان لمعان كالنور له من يده شعاع وهناك استتار قدرته[٨٤] .

مناقشة النصوص

قال الله سبحانه فى قرأنه الكريم :

ـ « لَقَدْ جاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيهْ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيم »[٨٥] تنبأ موسى عن النبى الخاتم قائلا :

ـ أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به[٨٦] .

المناقشة تدور حول

١ ـ نبيا من وسط إخوتهم

٢ ـ مثلك

٣ ـ وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به

١ ـ نبيا من وسط إخوتهم

إن المراد بإخوتهم أى من أبناء العمومة ولعل التحذير الذى حذر موسى به بنى إسرائيل يؤكد المعنى فى قول الله له .

ـ وأوصى الشعب قائلا : أنتم مارون بتخم اخوتكم بنى عِيسُو الساكنين فى سِعِيرَ فيخافون منكم فاحترزوا جدا . لا تهجموا عليهم ، لأنى لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم لأنى لعيسو قد أعطيت جبل سِعِيرَ ميراثا .(٨٧)

وعيسو هو الشقيق التوأم ليعقوب .

ـ وتزاحم الولدان فى بطنها . فقالت إن كان هكذا فلماذا أنا ، فمضت لتسأل الرب ، فقال لها الرب فى بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب ، وكبير يُستعبد لصغير .

فلما كملت أيامها لتلد إذ فى بطنها توأمان . فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر ، فدعو اسمه عيسو ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب ، وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما(٨٨) .

ومن أبناء العمومة أيضا نسل إسماعيل .

ـ وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم الذى ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم . وهذه أسماء بنى إسماعيل حسب مواليدهم . نَبَايُوتُ بِكْرُ إسماعيل وَقِيْدارُ ... اثنا عشر رئيسا حسب قبائلهم ... وسكنوا من حويله إلى شور التى أمام مصر حينما تجئ نحو أشور أمام جميع اخوته نزل »(٨٩) .

ولو كان هذا النبى من بنى اسرائيل لقال :

نبيا من أنفسهم ـ ولم يقل ـ نبيا من وسط إخوتهم ولأن فى التوراة أنه لا يقوم نبى من بنى إسرائيل كموسى «ولم يقم بعد نبى فى اسرائيل متل موسى الذى عزفه الرب وجها لوجه»(٩٠) فالبشارة إذن بنبى من غيرهم من أبناء عمومتهم من ذرية إسماعيل هو محمد .

وهذه هى سلسلة النسب من إبراهيم إلى محمد ـ صلوات الله عليهم ـ نقلا عن «محمد رسول الله لمؤلفه H.G. Sarwar» صفحتى ١٠ ، ١١

إبراهيم	Abraham
إسماعيل	Ashmael
قيدار	Kedar
عدنان	Adna'n
معد	Ma'add
نزار	Niza'r
مضر	Mudar
إلياس	Ilya's
مدركه	Mudrikah
خزيمة	Khuzaimah
كنانة	Kina'nah
النضر	Al-Nadr
مالك	Malik
قريش (فهر)	Quraysh (Fihr)
غالب	Gha'lib
لؤى	Lu'ayy
كعب	Ka'ab
مرة	Marrah
كلاب	Kilab
قصى	Qusayy
عبد مناف	Abd Monaf
هاشم	Hashim
عبد المطلب	Abdul Muttalib
عبد الله	Abdulláh
محمد صلى الله عليه وسلم	Muhammad

٢ ـ مثلك

أولا ـ موسى جاء بشريعة وقال الرب لموسى : اكتب لنفسك هذه الكلمات لأنني بحسب هذه

الكلمات قطعت عهدا معك ومع إسرائيل ، وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماءً ، فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر[٩١] .

لكن الشعب فسد وتعدوا شريعة الله .

- «حتى أن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ونجسوا بيت الرب الذى قدّسه فى أورشليم»[٩٢] .
- «وبنوا مرتفعات للبعل ليحرقوا أولادهم بالنار محرقات للبعل الذى لم أُوص ولا تكلمت به ولا صعد على قلبى»[٩٣] .
- «من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق فى كل الأرض هكذا قال رب الجنود لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم فإنهم يجعلونكم باطلا ، يتكلمون برؤيا قلبهم لا عن فم الرب»[٩٤] .

لذلك كان لابد من دعوة تصحيح وتكميل

عيسى جاء ليصحح مسيرة موسى ويكملها .

فأعلن جهارا قائلا : «لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل»[٩٥] .

ومحمد نزل عليه القرآن الكريم الرسالة الخاتمة

وكانت آخر الآيات نزلت فى حجة الوداع قول الله سبحانه :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا[٩٦] » .

ثانيا ـ موسى جاهد فى سبيل الله

نعم إن الحق لابد من قوه تساندة وتؤيده ، ولهذا كان فخر بنى إسرائيل أن الله ذاته «رب الجنود» فعند عبورهم البحر وهم خارجون من مصر يتعقبهم فرعون وجنوده قال لهم موسى : «لا تخافوا ، قفوا وانظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم . فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضا إلى الأبد ، الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون»[٩٧] .

ونصرهم الله «فخلّص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين ، ونظر إسرائيل

المصريين أمواتا على شاطئ البحر ، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذى صنعه الرب بالمصريين ، فخافه الشعب الرب . وآمنوا بالرب وبعبده موسى »[٩٨] .

وعند اقترابهم لدخول الأرض التى تفيض لبنا وعسلا أخذ موسى يشجعهم ويؤكد أن الله كفيل بنصرهم قائلا :

- « فقلت لكم لا ترهبوا ولا تخافوا منهم ، الرب إلهكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم حسب كل ما فعل فى مصر أمام أعينكم »[٩٩] .
- « لا تخافوا منهم لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم »[١٠٠]
- « لا يقف إنسان فى وجهكم . الرب إلهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التى تدوسونها كما كلمكم »[١٠١]

هذا فضلا عن أن الله وعد موسى بنصره قائلا :

- « أرسل هيبتى أمامك وأزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم وأعطيك جميع أعدائك مدبرين وأرسل أمامك الزنابير. فتطرد الحويين والكنعانيين والحثيين من أمامك »[١٠٢] .

يسوع المسيح لم يشأ أن يظهر نفسه .

إن بنى اسرائيل كانوا يعانون من الحكم الرومانى وحسب الكتب كانوا ينتظرون مسيحا مخلصا يحررهم من نير عبوديتهم للرومان . وهكذا عودهم الله أنه كلما ضاق بهم الأمر أرسل مسيحا يخلصهم ويحررهم .

- وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب فأقام الرب مخلّصا لبنى اسرائيل فخلصهم . عُثْنِيئِيل بن قَنَازَ أخا كَالَبَ الأصغر. فكان عليه روح الرب وقضى لإسرائيل ... أربعين سنه »[١٠٣] .
- وعن شمشون الجبار ظهر ملاك الرب لأمرأة مَنُوحُ قَائلا « فها إنك تحبلين وتلدين ابنا ولا يعل موسَى رأسه لأن الصبى يكون نذيرا لله من البطن وهو يبدأ يخلص إسرائيل من يد الفلسطينيين »[١٠٤] .
- « وقضى لإسرائيل فى أيام الفلسطينيين عشرين سنة »[١٠٥] .

أنه سأل تلاميذه قائلا :

- «من يقول الناس إني أنا ابن الانسان»(١٠٦)
- «فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح»(١٠٧)
- «حينئذ أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد إنه يسوع المسيح»(١٠٨) .

حتى الشياطين إنتهرهم ولم يدعهم يتكلمون

- وكانت شياطين أيضا تخرج من كثيرين وهى تصرخ وتقول أنت المسيح ابن الله . فانتهرهم ولم يدعهم يتكلمون لأنهم عرفوه أنه المسيح(١٠٩)

وأرسل رؤساء الكهنة والكتبة نفرا من الناس قائلين له

- «أيجوز لنا أن نعطى جزية لقيصر أم لا . فشعر بمكرهم وقال لهم لماذا تجربوننى . أرونى دينارا . لمن الصورة والكتابه . فأجابوا وقالوا لقيصر. فقال لهم أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»(١١٠) .

فى موضع وحيد أعلن الجهاد . جهاد الإنسان ضد النفس قائلا :

«لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ما جئت لألقى سلاما بل سيفا . فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنّه ضد حماتها . وأعداء الإنسان أهل بيته»(١١١) .

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقترب جدا إلى موسى فهو وبعد هجرته من مكة إلى المدينة . صعد إليه قريش لمحاربته . فكان لزاما عليه مواجهة هؤلاء أعداء الدين والانتصار عليهم وفى هذا ندرك أن غزوات الرسول لم تكن للحرب بل للدفاع عن النفس والعقيدة معا لهذا نصرهم الله مصداقا لقوله :

«إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»(١١٢) .

هذا وقد نصر الله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم كما نصر موسى عليه السلام «أرسل هيبتى أمامك وأزعج جميع الشعوب الذين نأتى عليهم وأعطيك جميع أعدائك مدبرين»(١ ٢)..

قال الإمام مسلم رحمه الله : حدثنا يحيى بن يحيى أخبرنا هشيم عن سيار عن يزيد الفقير عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى . كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود . وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى . وجعلت لى الأرض طيبة طهورا . أو مسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى

حيث كان ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر. وأعطيت الشفاعة».

وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة «فضلت على الأنبياء بست» فذكر الخمس المذكورة فى حديث جابر إلا الشفاعة وزاد خصلتين وهما: «وأعطيت جوامع الكلم، وختم بى النبيون».

لا جَرَم أن يسجل القرآن غداة الإذن بالجهاد المسلح لأول مرة فى تاريخ الإسلام أنه ضرورة الحياة منذ كانت الحياة.

«وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ»(١١٣).

فلولا الجهاد لعصف البَاطل بكل معانى الحق، ولولا الجهاد لأصبحت سائر الأديان وروائع الفكر وأناشيد الحق والعدل والسلام عبثا من اللغو لا يَعْدُو حِبرًا على ورق.

وهنا. ينطلق المجاهد يصون للإنسانية معناها، ويحمى لها آمالها وهداها ويخاطب الظالمين باللغة التى لا يفهمون سواها، ويجود بحياته وهو يصبو إلى نور الحرية فى روضات السماء، خيرًا من ظلمات الاستعباد فى سجون الأرض.

ومن هنا: يختلف الجهاد الإسلامى عن كل صورة أخرى من صور القتال والحرب اختلافا ظاهريا جَلِيًّا. منذ البداية وحتى النهاية، فهو لا ينهض إلا للدفاع عن حق، ثم لا ينتهى إلا بالثبات على الحق. لا تُسْكِره نَشْوَةُ الظَفَرِ عن شرائع العدل ولا يعميه الانتصار عن فرائض الإنسانية.

من هذه المقارنة نستنبط أن موسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهما يتشابهان تمام التشابه حتى فى نصرة الدين فلقد أوصى الله بنى إسرائيل لكى يرثوا أرض الميعاد قائلا:

«احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض التى أنت أت إليها لئلا يصيروا فخاً فى وسطك. بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم. فإنك لا تسجد لإله آخر. لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو. احترز من أن تقطع عهدا مع سكان الأرض. فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم فتُدعى وتأكل من ذبيحتهم. وتأخذ من بناتهم لبنيك فتزنى بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن(١١٤) إقرأ تثنية ٧ : ١ ــ ٦، ٢٠ : ١٠ ــ ١٨.

٣ـ وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به

بمثل هذا القول تنبأ المسيح عيسى ابن مريم قائلا :

ـ وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية [١١٥]

وقال الله سبحانه :

ـ « وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ . أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ » [١١٦] .

ـ « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُون وسَلَيمْانَ وَآتَيْنا دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُم عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ موسىَ تَكْلِيمًا . رُسُلاً مُّبَشِّرِين وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حكِيمًا لَّكِنْ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعلْمه وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا » [١١٧] .

ويؤيد حبقوق موسى فى نبوته هذه إذ يقول :

الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران . سلاه . جلاله غطى السموات . والأرض امتلأت من تسبيحه وكان لمعان كالنور . له من يده شعاع وهناك استتار قدرته [١١٨] جاء فى « المصباح المنير » صفحه ٧٩ (تيماء . موضع قريب من بادية الحجاز يُخرج منها إلى الشام على طريق البلقاء وهى حاضره طَيِّئٍ) .

إشارة إلى دعوة الله لإبراهيم للهجرة من أور الكلدانيين .

ـ « وقال الرب لإبراهيم اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة » [١١٩] .

والقدوس من جبل فاران إن كلمة قدوس تعنى بار ولقد بشر الملاك العذراء مريم قائلا « فلذلك أيضا القدوس المولود منك يُدعى ابن الله [١٢٠] وهو إشارة إلى اسماعيل الذى انتقلت إليه بركات أبيه إبراهيم « ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض » [١٢١] .

جلاله غطى السموات إشارة إلى آذان المؤذن معلنا على مواقيت الصلاة وذلك على خلاف

اليهود الذين يعلنون عن مواقيت الصلاة بالنفخ فى البوق بينما النصارى بدق الأجراس . من ثمَّ إشارة واضحة إلى الإسلام .

والأرض امتلأت من تسبيحه إشارة إلى السجود كقوله سبحانه «مُّحمَّد رَّسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ»(١٢٢) .

وتنبأ موسى نبوة صريحة عن مراحل التنزيل مشيرا إليها بمهابط الوحى وبالرجال الذين أوحى إليهم فقال :

«جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم . فأَحب الشعبَ . جميعُ قديسيه فى يدك وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك»(١٢٣) .

مهبط الوحى	النبى الموحى إليه	الكتاب المنزل	الفعل ودرجته
سيناء	موسى	التوراة	جاء بمعنى بَلَغَ
سَعير	عيسى	الإنجيل	أشرق بمعنى أضاء
فاران	محمد	القرآن	تلألأ بمعنى ذروة النور
القدس	الإسراء بمحمد	من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى	اتى بمعنى إذا تمسك به ولم يصلح للتمسك .

مناقشه النبوة

تثنية ٣٣ : ١ ــ ٣

أولا ــ تذكر النبوة أماكن هى مهبط الوحى وهذه الأماكن هى :

١ ــ سيناء وهى مهبط الوحى بالنسبة لموسى

٢ ــ سعير وهى الأرض التى سكنها عيسو الشقيق التوأم ليعقوب

٣ ــ فاران وهى الأرض التى سكنها إسماعيل

٤ ــ القدس وهى موقع بيت الله الذى بناه سليمان وهذه الأماكن لها دلاتها من حيث مراحل التنزيل

١ ــ فسيناء دلالة تنزيل التوراة

٢ ــ سعير دلالة تنزيل الإنجيل

٣ ــ فاران دلالة تنزيل القرآن

٤ ـ القدس دلالة على انتزاع النبوة والكتاب من بنى إسرائيل وتحويلها إلى خير أمة أخرجت للناس أمة الإسلام . ولها دلالة أخرى حيث تشير إلى الأنبياء الذين أوحى إليهم ..

١ ـ فسيناء تشير إلى موسى عليه السلام

٢ ـ سعير تشير إلى عيسى

٣ ـ فاران تشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم

٤ ـ القدس تشير إلى مسرى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

ثانيا ـ وتذكر الأفعال تتابع التنزيل حتى اكتماله

١ ـ جاء بمعنى بلغ وهذا ما صنعه موسى مع بنى إسرائيل إذ بلغهم الوصايا العشر والشريعة

٢ ـ أشرق بمعنى أضاء وهذا ما صنعه عيسى مع يهود عصره حيث بلغ الجمود من رؤساء الكنهة ما جعل الشعب يقتربون إلى الله مخافة من بأسهم فواجه الكتبه والفريسيين قائلا :

ـ أبطلتم وصية الله بسبب نقليدكم [١٢٤] ثم قال

ـ يقترب إلى هذا الشعب بفمه ويكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عنى بعيدا . وباطلا يعبدوننى وهم يُعَلِّمون تعاليم هى وصايا الناس » [١٢٥] .

ثم أعلن على الملأ عن مهمته قائلا :

ـ « ثم كلَّمهم يسوع أيضا قائلا أنا هو نور العالم . من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة بل يكون له نور الحياة» [١٢٦] .

٣ ـ تلألأ وهى تشير إلى ذروة النور أو بمعنى آخر إكمال التنزيل المحفوظ إلى قيام الساعة وفى هذا يقول الله سبحانه «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» [١٢٧] وقوله سبحانه «إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بينهم وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أوتوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهتَدَوا وإن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ واللهُ بَصِير بِالْعِبَادِ» [١٢٨] .

٤ ـ أتى بمعنى إذا تمسك به ولم يصلح للتمسك وفى هذا دلالة إلى الإسراء بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة إلى المدينة حيث قال سبحانه : «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعَ الْبَصِيرُ»(١٢٩) .

والقدس له دلالة تاريخية إذ يربط الآباء بالأبناء فنى القدس وفى أرض المريا أمر الله إبراهيم أن يقدم ابنه الوحيد ذبيحة فلما امتثل إبراهيم وأطاع عاد الله ففدى الابن الوحيد بكبش «سفر التكوين ٢٢ : ١ ـ ١٤» وفى القدس «بنى داود هناك مذبحا للرب وأصعد محرقات وذبائح سلامة ودعا الرب فأجابه بنار من السماء على مذبح المحرقة»(١٣٠) وفى القدس : «شرع سليمان فى بناء بيت الرب فى أورشليم فى جبل المريا حيث تراءى لداود أبيه حيث هيأ داود مكانا فى بيدر أرنان اليبوسى»(١٣١) .

٣ ـ نبوة إشعياء

جاء فى سفر اشعياء وصف دقيق عن سمات النبى الخاتم فقال «هوذا عبدى الذى اعضده مختارى الذى سرت به نفسى . وضعت روحى عليه . فيخرج الحق للأمم . لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوته . قصبه مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفئ . إلى الأمان يُخرج الحق . لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض وتنتظر الجزائر شريعته»(١٣٢) .

«أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم»(١٣٣) .

«لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار . لتترنم سكان سالع * من رؤوس الجبال ليهتفوا . ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر . الرب كالجبَّار يخرج . كرجل حروب يُنهض غيرته . يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه»(١٣٤) .

إن هذه النبوة التى نطق بها إشعياء النبى لا يمكن أن تنطبق على أحد من أنبياء بنى إسرائيل . حتى يسوع المسيح ذاته الذى أوضح بكل جلاء أن رسالته أبعد ما تكون عالمية . لدرجة أنه صرح مجيبا المرأة الكنعانية التى جاءت تستنجده لشفاء إبنتها فقال لها «لم أرسل إلا إلى خراف بيت

* سالع ناحية من نواحى المدينة المنورة بها جبل سلع والإشارة هنا إلى استقبال أهل يثرب للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد هجرته من مكة المكرمة وحفاوتهم به من بين ثنيات الوداع .

إسرائيل الضالة » (١٣٥) وأوصى تلاميذه قائلا « إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا . بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (١٣٦) إن رسالة يسوع المسيح كانت محددة فى بنى إسرائيل . ولم تخرج الرسالة لتشمل الأمم إلا فيما بعد عندما تبوأ بولس مركز الصدارة بين الحواريين الذى لمَّا رأى اليهود يقاومون أقواله مناقضين ومجدفين حينئذ جاهر قائلا « كان يجب أن تكلموا أنتم أولا بكلمة الله ولكن اذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة الأبدية هوذا تتوجه إلى الأمم لأن هكذا أوصانا الرب . قد أقمتك نورا للأمم لتكون أنت خلاصًا إلى أقصى الأرض » (١٣٧) .

ولئن حاول بولس أن يسدل ستارا كثيفا لطمس حقيقة النبى الخاتم بادعائه أن الله انتخبه رسولا قائلا « لأبشر به بين الأمم للوقت لم استشر لحما ودما . ولا صعدت إلى أورشليم إلى الرسل الذين قبلى بل أنطلقت إلى العربية ثم رجعت أيضا إلى دمشق ثم بعد ثلاث سنين صعدت إلى أورشليم لأ تعرف ببطرس » (١٣٨) .

وهنا ينكشف الدهاء والمحاولة الرهيبة لا نتزاع النبوات التى تشير إلى النبى الخاتم وإلصاقها بنفسه ومهما كان ذكاء اللصوص فإنهم ينسون شيئا دليلا على سرقتهم .

فالنبوة على لسان اشعياء تشير ان هذا النبى وإن كان عربيا فإنه من سلالة قيدار ومن ثمَّ فلم يكن يسوع المسيح ولا أى من أنبياء العبرانيين ولا ذلك المدعى ـ أن الله أفرزه . من بطن أمه ـ بولس له صلة بقيدار بن إسماعيل .

إن الوعد بالنبى الخاتم الذى هو من سلالة العرب لم يكن اشعياء فى نبوته هذه إلا شارحا وموضحا النبوة السابقة التى تنبأ بها موسى . ذلك أن الله قد أمر موسى أن يبلغ بنى إسرائيل أن الله « سيقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم » (١٣٩) إن إخوه العبرانيين العرب الذين هم ذرية شقيق إسحاق . إسماعيل . هذا النبى الخاتم الذى هو من سلالة قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم الذى يكون له خضوع شعوب ، ويستحوذ على انتباه عام وجميع أرجاء العالم هذا النبى الخاتم سيكون مؤسسا أمة ومحققا لوعود الله لإبراهيم « سأجعله أمة لأنه نسلك (١٤٠) » ورائدا وقدوة وبركة لجماعة المؤمنين « ويتبارك فى نسلك جميع امم الأرض » (١٤١) إنه النبى الخاتم الذى رسالته ستظل أبد الأبدين تعمل على إنجاز نتائج حقيقية محكمة بهداية الناس .

وتنبأ اشعياء بنبوة صريحة عن مكة المكرمة التى أصبحت منارة إشعاع أنوار الهداية والرحمة فقال :

ـ « قومى استنيرى لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك . لأنه ها هى الظلمة تغطى الأرض والظلام الدامس الأمم . أما عليك فيشرق الرب مجده عليك يُرى . فتسير الأمم فى نورك والملوك فى ضياء إشراقك » (١٤٢) .

إن هذه النبوة تكشف عن العالم عند مقدم رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . إذ كان العالم مملوءًا من الكفر : أما اليهود ـ فلتشبيههم الله تعالى بخلقه ، وافترائهم على الأنبياء وتحريفهم التوراة ، وأما النصارى ـ فلقولهم إن الله ثالث ثلاثة وأن المسيح ابن الله ، وأن الله حلَّ فيه واتحد به ، ولتحريفهم الإنجيل ، وأما المجوس فلإثباتهم إلاهين ووقوع المحاربة بينهما ، وفى تحليل نكاح الأخوات والبنات ، وأما العرب فلعبادتهم الأصنام واستحلالهم النهب والغارة وقتل البنات وغير ذلك ، وأما الهند والصين والترك والسودان والبربر فجهالتهم أيضا ظاهرة .

فحين بعث الله محمدًا داعيا إلى الدين الحق ، انقلبت الدنيا من الباطل إلى الحق ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن الظلمة إلى النور . فقد بطلت هذه الكفريات وزالت هذه الجهالات من أكثر البلاد التى فى وسط المعمورة . وانطلقت الألسنة بتوحيد الله تعالى واستنارت العقول بمعرفته ، ورجع الخلق من حب الدنيا إلى حب المولى بقدر الإمكان . وإذا كان لا معنى للنبوة إلا تكميل الناقصين فى القوة النظرية والقوة العملية . ورأينا أنه حصل هذا الأثر بسبب مقدم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكمل وأظهر مما ظهر بسبب مقدم موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ، علمنا أنه سيد الأنبياء وقدوة الأصفياء .

وإنما قلنا إن حصول هذا الأثر بسبب مقدمه أكثر لأن موسى ـ عليه السلام ـ كانت دعوته مقصورة على بنى إسرائيل وهم بالنسبة إلى أمة محمد قليلون جدا . وأما عيسى ـ عليه السلام ـ فدعوته الحقه ما بقيت ألبتة ، وهذا الذى يقوله هؤلاء النصارى فهو الجهل المحض والكفر الصرف . فظهر أن انتفاع أهل الدنيا بدعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكمل من انتفاع سائر الأمم بدعوة سائر الأنبياء فوجب أن يكون محمدٌ أفضل من سائر الأنبياء .

وهذا ما ذكره الإمام فخر الدين الرازى فى كتاب المعالم ، وخير ما أختم به هذا الكلام إنما هو كلام الله إذ يقول سبحانه فى ثلاثة مواطن من القرآن الكريم :

ـ « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » (١٤٣) .

ـ « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَه بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا مُّحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ » (١٤٤) .

ويستطرد أشعياء فى نبوته فيتنبأ عن ركن من أركان العبادات ألا وهو ركن الحج ومناسكه فيقول فى وضوح وجلاء مشيرا إلى نبايوت بكر إسماعيل وقيدار شقيقه قائلاً :

ـ « ارفعى عينيك حواليك وانظرى . قد اجتمعوا كلهم جاءوا إليك . يأتى بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الأيدى . حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر* ويأتى إليك غنى الأمم** . تغطيك كثرة الجمال بكران مديان*** وعيفه كلها تأتى من شبا . تحمل ذهبا ولبانا وتبشر بتسابيح الرب . كل غنم قيدار تجتمع إليك . كباش نبايوت تخدمك ، تصعد مقبولة على مذبحى وأُزَيِّنُ بيت جمالى » (١٤٥))

اذن الحمد لله على نعمة الإسلام

فالقرآن الكريم يوضح المراد من الهدى حيث يقول الله

ـ « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَير فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبها فَكُلُوا مِنها وَأَطْعموا الْقَانِعَ وَالْمعتَّر كَذَلِكَ سخَّرنَاها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلاَ دِمَاؤُها وَلَكِن يَنَالُه التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرها لَكُمّ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ » (١٤٦) .

إن نبوة أشعياء عن الهدى تنصب انصبابا فى قيدار الجد الأعلى لسيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونبايوت الأخ الشقيق والابن البكر لأبيهما إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه يقول إشعياء :

« تغطيك كثرة الجمال بُكران مديان وعيفه كلها تأتى من شبا . تحمل ذهبا ولبانا وتبشر بتسابيح الرب كل غنم قيدار تجتمع إليك . كباش نبايوت تخدمك . تصعد مقبولة على مذبحى وأزين بيت جمالى » (١٤٧) .

---

* نبوة عن كنوز البترول فى الجزيرة العربية .

** استجابة لدعاء إبراهيم « فَاجْعَل أَفْئِدَةً من النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثمراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » إبراهيم : ٣٧ .

*** مديان هو ابن إبراهيم من قَطُورَة « وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قَطُورةُ . فولدت له زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَان وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا » تك ٢٥ : ١ .

والآن ننتقل إلى العنصرين الرابع والخامس وهما : ترنيمة داود
وتعبير دانيآل النبي لحلم نبوخذ نصر ملك بابل
وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(١٤٨) .

٤ ـ ترنيمة داود

نبدأ بثبت تاريخي لنستنبط من خلاله حقيقة انتزاع النبوة والكتاب والملك من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل ولقد أقرّ القرآن مكانة بنى اسرائيل كأمة التوحيد فيقول سبحانه :

ـ «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ والحُكْمَ وَالنُّبوةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» (١٤٩) .

العهد لإبراهيم	١٩١٢ ق . م .	
داود ملك فى حبرون	١٠٥٥ ق . م .	٧ ١/٢ سنة
داود ملك فى اورشليم	١٠٤٨ ق . م .	٣٢ ١/٢ سنة
دانيآل النبي	٥٣٩ ق . م .	
يسوع المسيح وعمره ٣٣ سنة	٢٩ م	
ظهور محمد رسولا نبيا	٦١٠ م	

١ ـ من هذا الثبت نستطيع أن نقول ما بين العهد لإبراهيم وظهور محمد رسولا نبيا
١٩١٢ + ٦١٠ = ٢٥٢٢ سنة
٢ ـ وما بين العهد لإبراهيم ونبوة داود فى أورشليم : ١٩١٢ − ١٠٤٨ = ٨٦٤ سنة
٣ ـ وما بين نبوة داود وظهور محمد رسولا نبيا : ١٠٤٨ + ٦١٠ = ١٦٥٨ سنة
٤ ـ وما بين تعبير دانيآل لحلم نبوخذنصر وظهور محمد رسولا نبيا ٥٣٩ + ٦١٠ = ١١٤٩ سنة
٥ ـ وما بين نبوة داود ونبوة يسوع المسيح ١٠٤٨ + ٢٩ = ١٠٦٧ سنة
٦ ـ وما بين تعبير دانيآل للحلم ونبوة يسوع المسيح ٥٣٩ + ٢٩ = ٥٦٨ سنة

والآن نعود إلى داود الذى يعتبر عهده وعهد ابنه العصر الذهبى لبنى إسرائيل حيث امتد ملك سليمان «من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر»(١٥٠) .

فى هذا العصر تنبأ داود عن قضاء الله وقدره لإسرائيل قائلا «الحجر الذى رفضه البناؤون قد

صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا »[١٥١] وكان يُظَنُّ أن هذه النبوة إنما تنطبق على يسوع المسيح من هذا استدل بطرس* بهذه النبوة قائلا :

« فليكن معلوما عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصرى الذى صلبتموه أنتم أقامه الله من الأموات . بذاك وقف هذا أمامكم صحيحا . هذا الحجر الذى احتقرتموه أيها البناؤون الذى صار رأس الزاوية . وليس بأحد غيره الخلاص . لأنه ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغى أن نخلص »[١٥٢] .

إن إستدلال بطرس بنبوة داود هذه لم يكن موفقا فيها على الإطلاق ذلك لأن من يعنيه الأمر قد اقتبس نبوة داود وبينها ووضحها حيث قال يسوع المسيح :

« أما قرأتم قط فى الكتب الحجر الذى رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا . لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنْزَعُ منكم ويُعطَى لأمة تعمل أثماره . ومن سقط على هذا الحجر يترضّض ومن سقط هو عليه يسحقه »[١٥٣] .

إن هذه النبوة تتضمن أمرين : الأمر الأول عن « انتزاع النبوة والكتاب والملك من بنى إسرائيل إلى ذرية إسماعيل بن إبراهيمَ عليهم صلوات الله وسلامهَ » .

الأمر الثانى ما يتضمنه القول « من سقط على هذا الحجر يترضّض ومن سقط هو عليه يسحقه »[١٥٣] يؤكد نبوة موسى القائلة « ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه »[١٥٤] ونبوة اشعياء القائلة « كل آلة صُورت ضدك لا تنجح وكل لسان يقوم عليك فى القضاء تحكمين عليه . هذا هو ميراث عبيد الرب وبرهم من عندى يقول الرب »[١٥٥] .

والآن نناقش النبوة التى تنبأ بها داود وأيدها ووضحها يسوع المسيح فنتساءل ما معنى الحجر؟ ومن هو الحجر المرفوض ؟

---

* أراد بطرس الاستدلال واقامه الحجة فاستند إلى نبوة داود : « هذا الحجر الذى احتقرتموه أيها البناؤون الذى صار رأس الزاوية » مقتبس من مزمور ١١٨ : ٢٢ ، ٢٣ ـ واستند إلى نبوة اشعياء : « لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغى أن نخلص » مقتبس من سفر اشعياء ٤٥ : ٢١ ـ ٢٢ .

أولا : أرض الميعاد

« فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا . لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات »(١٥٦) .

ثانيا : سارة تعطى هاجر لإبراهيم لإنجاب النسل :

« أدْخل على جاريتى . لعلى أرزق منها بنين »(١٥٧) .

« فأخذت ساراى امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام فى أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له . فدخل على هاجر فحبلت » « فولدت هاجر لأبرام ابنا . ودعا أبرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر إسماعيل كان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام »(١٥٩) .

ثالثا : انقلاب سارة على هاجر واسماعيل :

« ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح . فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق . فقبح الكلام جدا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه . فقال الله لابراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك »(١٦٠)

هذه النصوص من التوراة يلخصها قوله سبحانه « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »(١٦١) .

أما المراد بالحجر إنما هو رمز للأنبياء ، والبناؤون رمز لأمة التوحيد . ويؤكد هذا المعنى الرمزى قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا ، فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البناء فيقولون : ألا وضعت هنا لبنة فيتم البناء ؟

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فأنا اللبنة ، جئت فختمت الأنبياء* » صدق رسول

* روى هذا الحديث بألفاظ مختلفة عن أبى هريرة وأبى سعيد وجابر ـ رضى الله عنهم ـ (راجع باب ذكر كونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاتم الأنبياء من كتاب الفضائل جـ ٤ : صحيح مسلم ، طبع الحلبى) .

الله الذى يؤيده القدير بقوله سبحانه :

« إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن ربِّ الْعَالَمِينَ »(١٦٢) .

إن مواعيد الله لإبراهيم صادقة ومن حكمة الله سبحانه أن يحقق هذا الوعد فى نسله حيث قال الله لإبراهيم « الذى يخرج من أحشائك هو يرثك »(١٦٣) .

وخرج من أحشائه شَعْبَان اسماعيل وإسحاق وجعل الله فى ذريتهما النبوة والكتاب والملك .

وجعل الله الوعد مشروطًا بالصلاح والكمال وهذا ما قاله الله لإسحاق .

« تغرّب فى هذه الأرض . فأكون معك وأباركك . لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد وأفى بالقسم الذى أقسمت لإبراهيم أبيك . وأكثر نسلك كنجوم السماء وأعطى نسلك جميع هذه البلاد وتتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض . من أجل أن ابراهيم سمع لقولى وحفظ وصاياى ما يحفظُ لى أوامرى وفرائضى وشرائعى . فأقام إسحاق فى جرار »(١٦٤))

وأوصى الله بنى اسرائيل بالالتزام بشريعة الله وإلا أبادهم كما يبيد الأمم أمامهم وهذا هو الوعد :

ـ « وهذه هى الوصايا والفرائض والأحكام التى أمر الرب إلهكم أن أُعَلِّمكم لتعملوها فى الأرض التى أنتم عابرون إليها لتمتلكوها . لكى تتقى الرب إلهك وتحفظ جميع فرائضه ووصاياه التى أنا أوصيك بها أنت وابنك وابن ابنك كل أيام حياتك ولكى تطول أيامك . فاسمع يا إسرائيل واحترز لتعمل لكى يكون لك خيرٌ وتكثر جدا كما كلّمك الرب إله آبائك فى أرض تفيض لبنا وعسلا »(١٦٥) .

وهذا هو الوعيد :

ـ « وإن نسيت الرب إلهك وذهبت وراء آلهة أخرى وعبدتها وسجدت لها أشهد عليكم اليوم أنكم تبيدون لا محالة . كالشعوب الذين يبيدهم الرب من أمامكم كذلك تبيدون لأجل أنكم لم تسمعوا لقول الرب إلهكم »(١٦٦)

ويقول الله سبحانه فى القرآن الكريم :

« وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ »(١٦٧) .

وقال الله سبحانه :

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ »(١٦٨) .

مبدأ إلهى

جاء فى التوراة أن الأرض لله

« والأرض لا تباع بَتّة لأن لى الأرض وأنتم غرباء ونزلاء عندى بل فى كل أرض ملككم تجعلون فكاكا »(١٦٩) .

وعندما طرد الله شعوبا أمام بنى إسرائيل فإنما عن عدالة :

« لا تقل فى قلبك حين ينفيهم الرب إلهك من أمامك قائلا . لأجل برى أدخلنى الرب لأمتلك هذه الأرض . ولأجل إثم هؤلاء الشعوب يطردهم الرب من أمامك .

ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلهك من أمامك ولكى يفى بالكلامَ الذى أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب . فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة »(١٧) .

وقال الله سبحانه فى شأن توريت الأرض :

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »(١٧١) .

وإن الله سبحانه قد أنعم على بنى إسرائيل نعما لا تحصى وفى هذا فإنه سبحانه قد قال :

« سَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »(١٧٢) .

ـ لقد خرجوا من الأرض ، وعادو إليها ، على اعتبار أنهم تغيروا تغيرا جذريا وصاروا كما أراد الله لهم حيث قال على لسان أرميا النبى .

ـ «أجعل شريعتى فى داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلها وهم يكونون لى شعبا» (١٧٣) .

«فما أن جاء يسوع المسيح ومعاصره يوحنا المعمدان حتى هالهما ما رأيا من فساد الرؤساء والشعب الأمر الذى جعلهما يدمغان الرؤساء والشعب «بأولاد الأفاعى» . إذ قال يوحنا المعمدان : «يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى . فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أبا» (١٧٤) وقال يسوع المسيح : «أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم . لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون فى مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة . لكى يأتى عليكم كل دم زكى سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح . أقول لكم أن هذا كله يأتى على هذا الجيل» (١٧٥) .

« ثم خرج يسوع ومضَى من الهيكل . فتقدم تلاميذه لكى يُرُوهُ أبنية الهيكل . فقال لهم يسوع أما تنظرون جميع هذه . الحق أقول لكم إنه لا يُترك ها هنا حجر على حجر لا ينقض» (١٧٦) .

ثمَّ أنبأهم عن الأهوال التى تحلّ بأمة يهوذا تأكيدا لما سبق أن تنبأ به موسى قائلاً :

«لأنى عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق الذى أوصيتكم به ويصيبكم الشر فى آخر الأيام لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم» (١٧٧) وأنبأهم عن خراب الهيكل فقال :

« وإذ كان قوم يقولون عن الهيكل إنه مزين بحجارة حسنة وتحف قال . هذه التى ترونها ستأتى أيام لا يترك فيها حجر على حجر لا ينقض» (١٧٨) .

ثم بيّن لهم علامات خراب أورشليم قائلا «ومتى رأيتم أورشليم محاطة بجيوش فحينئذ اعلموا أنه قد اقترب خرابها . حينئذ ليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال والذين فى وسطها فليفروا خارجا . والذين فى الكور فلا يدخلوها . لأن هذه أيام انتقام ليتم كل ما هو مكتوب . وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام لأنه يكون ضيق عظيم على الأرض وسخط على هذا الشعب . ويقعون بفم السيف ويُسبون إلى جميع الأمم . وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تكمل أزمنه الأمم . (١٧٩)

وهكذا نجد التوراة والإنجيل سجلاً تاريخيا يدين إسرائيل ويحكم عليها بغضبه الله فيقعون بفم السيف ويُسبون إلى جميع الأمم وتكون اورشليم مدوسة من الأمم حتىَّ تكمل أزمنة الأمم .

٥ ـ تعبير دانيآل النبى
حلم نبوخذ نصر ملك بابل

فى عام ٥٣٩ ق . م . وفى أرض السبى قام دانيآل النبى بتعبير حلم نبوخذ نصر ملك بابل مثلما قام يوسف بن يعقوب فى عام ١٧١٦ ق . م . بتعبير حلم فرعون مصر

حلم نبوخذ نصر وتعبير دانيآل

إن هذا الحلم يساند ترنيمة داود القائلة « الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا »[١٨٠] والذى أيده يسوع المسيح بقوله « قال لهم يسوع أما قرأتم قط فى الكتب . الحجر الذى رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع ويعطى لأمة تعمل أثماره . ومن سقط على هذا الحجر يترضَّضُ ومن سقط هو عليه يسحقه »[١٨١]

أما الحلم وتعبيره فقد جاء فى سفر دانيآل الأصحاح الثانى وفى الصفحة التالية رسم بيانى وتفصيلى لما رآه نبوخذ نصر من الحلم قال دانيآل للملك نبوخذ نصر :

«أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم . هذا التمثال العظيم البهى جدا وقف قبالك ومنظره هائل . رأس هذا التمثال من ذهب جيد . صدره وذراعاه من فضة . بطنه وفخذاه من نحاس . ساقاه من حديد . قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف . كنت تنظر إلى أن قُطع حجرٌ بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما . فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان . أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها . هذا هو الحلم . فنخبر بتعبيره قدَّام الملك .

أنت أيها الملك ملك ملوك لأن إله السموات أعطاك مملكة واقتدارا وسلطانا وفخرا . وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلّطك عليها جميعها . وأنت هذا الرأس من ذَهَبٍ . وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكه ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض . وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد لأن الحديد يدقٌّ ويسحق كل شىء

وكالحديد الذى يُكسِّر تسحق وتُكسر كل هؤلاء . وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين . وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من الخزف فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصما . وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف . وفى أيام هؤلاء الملوك يُقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبدا وملكها لا يتُرك لشعب آخر وتسحق وتُفنى كل هذه الممالك وهى تثبت إلى الأبد . لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضه والذهب . الله العظيم قد عرَّف الملك ما سيأتى بعد هذا . الحلم حق وتعبيره يقين» .

بيان الحلم وتعبيره

١ ـ الرأس من ذهب جيد	المملكة البابلية
٢ ـ الصدر والذراعان من فضة	المملكة الفارسية
٣ ـ البطن والفخذان من نحاس	المملكة المقدونية
٤ ـ الساقان من حديد	الامبراطورية الرومانية «بيزنطة فى الشرق ، والرومان فى الغرب»
٥ ـ القدمان من خزف ومن حديد	الممالك الأوروبية العشرة
٦ ـ الحجر	دولة الإسلام التى امتدت من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى

وهذا ما قرره دانيآل مؤكدا قائلاً :

«وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبدا وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتُفْنِى كل هذه الممالك وهى تثبت إلى الأبد . لأنك رأيت أنه قد قُطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب . الله العظيم قد عَّرف الملك ما سيأتى بعد هذا . الحلم حق وتعبيره يقين» .

ويقول الله سبحانه بشأن غضبته على بنى إسرائيل :

«وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا . وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا» (١٨٢)

وتقول التوراة عن منسى ملك يهوذا :

«كان منسى ابن اثنتى عشرة سنة حين ملك ، وملك خمسا وخمسين سنة فى اورشليم . وعمل الشر فى عينى الرب حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى اسرائيل . وعاد فبنى المرتفعات التى هدمها حزقيا أبوه وأقام مذابح للبعليم وعمل سوارى وسجد لكل أجناد السماء وعبدها ... وعبّر بنيه فى النار فى وادى ابن هنوم وعاف وتفاءل وسحر واستخدم جانا وتابعة وأكثر عمل الشر فى عينى الرب لإغاظته ...»(١٨٣) .

الجزاء الأوفى :

«وأمسح اورشليم كما يمسح واحد الصحن يمسحه ويقلبه على وجهه . وأرفض بقية ميراثى وأدفعهم إلى أيدى أعدائهم فيكونون غنيمة ونهبا لجميع أعدائهم . لأنهم عملوا الشر فى عينى وصاروا يغيظوننى من اليوم الذى فيه خرج آباؤهم من مصر إلى هذا اليوم»(١٨٤) .

٦ ـ بشارة عيسى

«وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ»(١٨٥) .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

«لى خمس أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى تُحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب» رواه مالك عن أبى شهاب عن محمد بن جُبَيْر عن مُطْعِم .

إن قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لى خمسة أسماء» يقتضى اختصاصه بها ، وهو اختصاص صحيح ومطابق للواقع . فهذه الأسماء ليست إلا له ، إذ لم يُسَمِّ الله نبيا ولا رسولا بواحد منها . فهو مختص بالتسمية بها . من الله بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكذلك هو مختص بها من جهة معانيها ، فله من الكمالات التى يتحلى بها ، والإنعامات التى جعله الله سببا فيها ، والمواقف التى يقفها ، ما ليس لغيره .

فليس ينال غيره من الحمد مثل ما يكون له من الله ومن الناس ، وهو يقابل تلك النعم الربانية عليه بالحمد ، فلا يكون الحمد من أحد مثل الذى يكون منه لله وكفى فى هذا المقام قوله

سبحانه : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »(١٨٦) فماذا بشر المسيح عيسى بن مريم ؟

١ ـ إنه بشر بملكوت الله

٢ ـ ثم بشر بالباراقليط

١ ـ إنه بشر بملكوت الله

ـ من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات(١٨٧) .

ـ وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله . ويقول قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله . فتوبوا وآمنوا بالإنجيل(١) (١٨٨) .

ووصى تلاميذه بالبشارة بملكوت الله :

ـ « اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة . وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات »(١٨٩) .

ـ « ولما سأله الفريسيون متى يأتى ملكوت الله أجابهم وقال لا يأتى ملكوت الله بمراقبة . ولا يقولون هوذا ها هنا أو هوذا هناك لأن ها ملكوت الله داخلكم »(١٩٠) .

ـ ويقول بولس لأهل كورنثوس « لأن ملكوت الله ليس بكلام بل بقوة . ماذا تريدون . أبعصا آتى إليكم أم بالمحبة وروح الوداعة »(١٩١) ويقول لأهل غلاطية :

ـ « وأما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام طول أناة لطف صلاح إيمان وداعة تعفف . ضد أمثال هذه ليس ناموس »(١٩٢) ثم يتكلم عن المحبة فيقول :

ـ المحبة تتأنى وترفق . المحبة لا تحسد . المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ . ولا تُقبح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق . وتحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء . المحبة لا تسقط أبدا »(١٩٣) .

وأوصى المسيح عيسى بن مريم تلاميذه بالمحبة :

ـ « يا أولادى أنا معكم زمانا قليلا بعد . ستطلبوننى وكما قلت لليهود حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا أقول لكم أنتم الآن . وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا . كما

---

(١) أنجيل مرقس ١ : ١٤ ، ١٥ « الإنجيل كلمة معربة من أصل يونانى وتعنى البشارة ومن مشتقاتها بمعنى المبشر بالخيرات » . auangelist

أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضا بعضكم بعضا . بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذى إن كان لكم حب بعضا لبعض »(١٩٤) .

هذه المعانى هى رسالة القرآن الكريم حيث يقول سبحانه :

ـ « وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(١٩٥) .

ـ « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »(١٩٦) .

ـ « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(١٩٧) .

٢ ـ ثم بشّر بالباراقليط

جاء فى غلافة الكتاب المقدس هذه العبارة الدالة على لغات مصدره « الكتاب المقدس أى كتب العهد القديم والعهد الجديد وقد ترجم من اللغات الأصلية وهى اللغة العبرانية واللغة الكلدانية واللغة اليونانية » .

وإنجيل يوحنا كُتب باللغة اليونانية وقد جاءت ترجمة الباراقليط اليونانية « المعزى » مع أن لها معانى أخرى ذات دلالة بمعنى : المحمد ـ المحمود ـ المعزى ـ الشفيع .

وكلمة البار اقليط حسب الرسم اليونانى O = TTAPAKYNTOS وتنطق HO parakletas وتكتب Paraclete

١ ـ يوحنا ١٤ : ١٦ فيعطيكم معزيا آخر

٢ ـ يوحنا ١٤ : ٢٦ وأما المعزى الروح القدس .

٣ ـ يوحنا ١٥ : ٢٦ ومتى جاء المعزى

٤ ـ يوحنا ١٦ : ٧ إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى .

٥ ـ يوحنا ١٦ : ١٣ وأما متى جاء ذاك روح الحق .

٦ ـ رساله يوحنا الأولى ٢ : ١ لنا شفيع عند الآب يسوع المسيح

٧ ـ رساله يوحنا الأولى ٤ : ٢ كل روح يعترف بيسوع المسيح

والآن نناقش هذه النصوص مناقشة علمية بحتة ومقابلتها بالقياس الخالد ألا وهو القرآن المجيد :

١ ـ جاء فى إنجيل يوحنا ١٤ : ١٦ ، ١٧

« وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق .

« وأنا أطلب من الآب » وأنا أصلى إلى الله

« معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد إشارة إلى القرآن الكريم الرسالة الخالدة الذى حفظه الله وصانه .

« روح الحق » إشارة إلى النبى الأمين الصادق . محمد .

نعود إلى البشرى بالمعزى ووفقا للترجمة للكلمة اليونانية نقول البشرى بالمحمد ـ البشرى بالمحمود ـ والبشرى بالشفيع وهذه كلها مرادفات لكلمة باراقليط . أمّا ما جاء فى **إنجيل يوحنا ١٤ : ١٦** تقول معزيا آخر .

ولكى نصل إلى الحقيقة من أقصر طريق يتحتم أن نعود إلى النص اليونانى لنستقرأه ونستنبط منه المراد O = TTAPAKYNTOS AYYOS والحرف الحاسم الذى يكشف عن نوع النبى الخاتم هو AYYOS وتعنى آخر مماثل « أو كما جاء فى نبوة موسى » أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك » ولو كان المراد آخر مختلف لكان الحرف heteras فالحرف allos مذكر صيغة المفعول allon يبرز أن النبى الخاتم مثل .

وهنا نتساءل مثل من ؟ وبتتبع كتابات يوحنا فى رسالته الأولى سنصل بلا ريب إلى المماثل فيقول يوحنا « وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار » (١٩٩) فإذا استبدلنا الكلمة المترجمة بالأصل اليونانى هكذا « وإن أخطأ أحد فلنا باراقليط عند الآب يسوع المسيح البار » وكذلك مضاهاة النص بما جاء فى إنجيل يوحنا ١٤ : ١٦ هكذا « وأنا أطلب من الآب فيعطيكم باراقليط AYYOS آخر مماثل من هذه المقابلة نستنبط أن الباراقليط الأول هو يسوع المسيح البار وأن الباراقليط الآخر المماثل هو النبى الخاتم ، ويزيد المسيح عيسى بن مريم الأمر وضوحا فيقول « وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ذاك يمجدنى » (٢٠٠) .

إن وجه المماثلة فى ما يوحى إليهما من آيات الله فيقول يسوع المسيح عن صلته بالسماء

ـ «الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (٢٠١) .

ويقرر القرآن عن صلة السماء بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله سبحانه :

«وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ» (٢٠٢) .

ويقول المسيح عيسى بن مريم حسب رواية يوحنا :

ـ «تعجب اليهود قائلين كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم . أجابهم يسوع وقال تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى . إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسى . من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه . وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم» (٢٠٣) .

ويقرر القرآن عن التنزيل على الرسول النبى الأمى قوله سبحانه :

ـ « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . وَكَذَلِكَ أوحينا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (٢٠٤) .

وقوله سبحانه :

ـ « لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُون وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا » (٢٠٥)

ومن إنجيل يوحنا نجد دلالات النبى الخاتم الذى «مَايَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى» (٢٠٦) .

يقول المسيح عيسى بن مريم :

ـ وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية . ذاك يمجدنى » (٢٠٧) .

وهذه البشارة تأكيد لنبوة موسى القائلة « أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به »(٢٠٨) .

ويزيد المسيح عيسى بن مريم فيكشف عن هذا النبى الخاتم فضلا عن كونه المرشد إلى جميع الحق فإنه يمجدنى « ذاك يمجدنى »(٢٠٩) فماذا يقصد بذلك ؟ يعود يوحنا ليكشف عن مقاصد المسيح عيسى بن مريم قائلا فى رسالته الأولى ٤ : ١ ـ ٣ :

أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم . بهذا تعرفون روح الله . كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فهو من الله . وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فليس من الله .

ومن المعلوم أن المسيح عيسى بن مريم ولد بمدينة بيت لحم وجال فى أرض فلسطين من الجليل إلى اليهودية يبشر بملكوت الله . ولكن بعد أن رفعه الله إلى السماء اقتحم مجال التلاميذ شاول وهو حاخام يهودى سابق سرعان ماتبوأ مركز الصدارة بينهم هذا الذى كان يضطهد أتباع المسيح خرج بالدعوة إلى آسيا الصغرى واليونان وروما وفى هذه المنطقة اصطبغت الدعوة المسيحية بالصبغة اليونانية ومن الغرب عادت الدعوة وقد تسربت إليها عقائد الخلاص المنتشرة فى ذلك الوقت فى أرجاء الامبراطورية الرومانية وانعقدت المجامع التى تمخضت عن الشبهات يكفى أن نشير إلى ثلاثة منها وهى مجمع نيقية عام ٣٢٥ وشبهه تأليه عيسى بن مريم ثم مجمع القسطنطينية عام ٣٨١ وشبهه التثليث ثم مجمع أفسس عام ٤٣١ وشبهه تأليه العذراء مريم .

وتتحقق البشارة حيث قال يسوع المسيح :

ـ « فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الأبد »(٢١٠) .

ـ « ذاك يمجدنى »(٢١١) .

ـ « كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فهو من الله »(٢١٢)

وهنا القرآن الكريم الرسالة الخالدة « ليمكث معكم إلى الأبد » يتصدى لهذه الشبهات فنستتبع الدفاع بحسب ترتيب القرآن الكريم حيث يقول الله سبحانه :

سورة البقرة :

ـ « وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ . بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ »(٢١٣) .

سورة آل عمران :

ـ «قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمسسنى بَشَر قَالَ كَذَلِكِ الله يخلق مَا يَشَاءُ إذَا قَضَى أَمْرًا فإِنَّمَا يَقُول لَهُ كُن فيَكُونُ» (٢١٤) .

سورة النساء :

ـ «وبكُفرهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهتانا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إنَّا قتلنا المسيحَ عِيسىَ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ الله وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلِكن شُبِّهَ لَهُمْ وَإنَّ الَّذِينَ اختلفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ منه مَالَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتِّباع الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رفعهُ الله إلَيْهِ وَكَانَ الله عَزِيزًا حَكِيمًا» (٢١٥) .

ـ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى الله إلاَّ الْحَقَّ إنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَروحٌ مِّنْهُ فآمِنُوا بالله وَرُسُله وَلاَ تقولوا ثَلاثَة انْتَهُوا خَيْرًا لكُمْ إنمَّا الله إلَه وَاحدٌ سُبْحَانَهُ أن يَكُونَ لَهُ وَلَد لَّه مَا فى السَّموَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وكَفَى بِالله وَكِيلاً» (٢١٦) .

سورة المائدة :

ـ «لَقَدْ كَفَرَ الذِين قَالَوا إنَّ الله هُوَ المسِيحُ ابْن مَرْيَمَ قل فمن يملك من الله شيئا» (٢١٧) .

ـ «لَقَدْ كَفَرَ الَّذين قَالُوا إنَّ الله هو المَسيح ابْنُ مَرْيَمَ وَقَال المَسِيحُ يَابَنِى إِسْرائِيلَ اعْبدُوا الله رَبِى وَرَبَّكُمْ إنَّه مَن يُشْرِك بِالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيْه الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَما لِلظَالِمينَ مِن أَنصَارٍ» (٢١٨) .

ـ «لقَدْ كَفَرَ الَّذين قَالُوا إنَّ الله ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إلَهٍ إلاَّ إلَه وَاحِد» (٢١٩) .

ـ «وَإذْ قَالَ الله يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونى وَأُمِّىَ إلَهين مِن دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لى بحق إن كنتُ قُلْتُهُ فَقَد عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسى وَلاَ أَعْلَمُ مَافِى نَفْسِكَ إنَّكَ أنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ» (٢٢٠) .

سورة الأنعام :

ـ بَدِيعُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَد وَلَم تَكُن لهُ صَاحِبَةٌ وخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهوَ بِكلّ شَىْءٍ عَلِيم» . (٢٢١)

سورة الجن :

ـ «وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا» (٢٢٢) .

هذا هو القرآن الكريم فى دفاعه عن التوحيد وعن الرسول وعن العذراء مريم وفى هذا تحقيق لبشارة عيسى القائلة «ذاك يمجدنى» (٢١١) ، «كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء فى الجسد فهو من الله» (٢١٢) .

إن النبى الخاتم حقيقة فى ضمير التاريخ الإنسانى لقد أدرك المسيح عيسى بن مريم جهالة وأمية التلاميذ إذ اعترف أمامهم عند تنبئه بالنبى الخاتم إذ قال :

ـ إن لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن» (٢٢٣) ثم أردف بقوله «وأما متى جاء ذاك روح الحق» (٢٢٤) .

ولم يكن فكر المسيح عن تلاميذه باطلا بل على أسس مدركة إذ أراد أن يحدثهم عن الأيام الأخيرة فى حياته فلم يفهموا المراد :

ـ «وأخذ الإثنى عشر وقال لهم ها نحن صاعدون إلى أورشليم وسيتم كل ما هو مكتوب بالأنبياء عن ابن الإنسان . لأنه يُسَلَّمُ إلى الأمم ويُستهزأ به ويُشتم ويُتفل عليه ويجلدونه ويقتلونه وفى اليوم الثالث يقوم . وأما هم فلم يفهموا من ذلك شيئا وكان هذا الأمر مخفى عنهم ولم يعلموا ما قيل» (٢٢٥) .

حتى فقهاء اليهود دمغهم بالجهل قائلا :

ـ «تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله» (٢٢٦) .

ـ «أيها الجهّال والعميان أيما أعظم القربان أم المذبح الذى يقدس القربان» (٢٢٧) .

ثم نناقش بشارة يسوع المسيح القائلة

ـ «بهذا كلمتكم وأنا عندكم . وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى فهو يعلمكم كل شىء ويفكركم بكل ما قلته لكم» (٢٢٨) .

بينما جاء القول :

ـ ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق

فهو يشهد لى وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء[٢٢٩] .

لاشك انا نلاحظ عبارة «الروح القدس»

وسأدع المجال للدكتور الطبيب الفرنسى موريس بوكاى حيث ينتهى إلى قوله :

ذلك يقودنا بمنتهى المنطق إلى أن نرى فى الـ Paraclet عند يوحنا كائنا بشريا مثل المسيح يتمتع بحاستى السمع والكلام ، وهما الحاستان اللتان يتضمنهما نص يوحنا بشكل قاطع . إذن فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائنا بشريا على هذه الأرض ليؤدى الدور الذى عرفه يوحنا ولنقل باختصار إنه دور نبى يسمع صوت الله ويكرر على مسامع البشر رسالته . ذلك هو التفسير المنطقى لنص يوحنا إذا أعطينا الكلمات معناها الفعلى .

إن وجود كلمتى «الروح القدس» فى النص فى إنجيل يوحنا «وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته[٢٣٠] الذى نملك اليوم قد يكون نابعا من إضافة لا حقة إرادية تماما تهدف إلى تعديل المعنى الأول لفقرة تتناقض بإعلانها بمجئ نبى بعد المسيح ، مع تعاليم الكنائس المسيحية الوليدة التى أرادت أن يكون المسيح هو خاتم الانبياء .

النَّبِىُّ لا كَذِب

وأختم كتابى هذا بالآية الكريمة التى دلتنى على الدراسة المتأنية والتى استغرقت خمس سنوات من عام ١٩٥٥ إلى ٢٥ ديسمبر ١٩٥٩ فى التوراة والإنجيل فى ضوء القرآن الكريم حتى آتانى اليقين أن محمدا هو الرسول النبى الأمى الذى وجدته فى التوراة والإنجيل. فزادنى الله هدى ويقينا باعلان دخولى وأولادى الأربعة فى دين الله إنها قوله سبحانه :

«الَّذينَ يَتَّبعون الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ الَّذِى يَجدُونَه مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ . . .»[٢٣١] .

لو كان الرسول النبى الأمى من المثقفين الذين يعرفون القراءة والكتابة إذن لا تخذ أعداء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من العرب معرفته القراءة والكتابة سلاحا لتكذيبه . ولقالوا وخاصة أبو جهل . وأبو لهب ، وأمية بن خلف ، وأمثالهم من سادة قريش ، حينما سمعوا من حوار

الوحى بين الرسول النبى الأمى و« الملاك جبريل » عند بدء التنزيل « اقرأ » « ما أنا بقارئ » .

كيف تكون نبيا لله وأنت تكذب على الله وتقول » « ما أنا بقارئ » .

إذن فصمت العرب وسكوتهم ـ أعداء النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إثبات يقينى للأمية ، ذلك لأنهم يعرفون أن أهل الكتاب يتهمونه بالنقل من (بَحِيرَى) الراهب ، أو من « جبرا » الرومى !

ولهذا فإن علمهم بأمية النبى أسكتهم عن مسايرة أهل الكتاب فيما يقولون ، وفى الوقت الذى يبحثون فيه عن نقطة ضعف يشيعون بها حقدهم على الرسول النبى الأمى محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

هذا فضلا عن سكوت مُدَّعى النبوة عن الادعاء بأن محمدًا بن عبد الله الرسول النبى الأمى ، كان قارئا أو كاتبا هو من الأدلة الثابتة ، لأن مُدَّعى النبوة كان يُهمهم إسقاط دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأى وسيلة من الوسائل ، بل كانوا يتلمسون لذلك الطرق ، حتى يخلو لهم الجو فيؤمن الناس بنبوتهم .

وقد ادعى مسيلمة والأسود العبسى وطليحة وسجاح النبوة تبع كل واحد منهم خلق كثير من العرب آمنوا به ولولا تشدد أبو بكر فى قتال أهل الردة لتم أمرهم وقد ذكر أن العرب عارضوا الرسول النبى الأمى بالقصائد السبع ، ومسيلمة عارضه بكلماته ، وعارضه النضر بن الحارث بأخبار ملوك العجم ، وعارضه بعد زمانه ابن المقفع وقابوس بن وشمكير والمعرى .

والواقع أن الشعر والأخبار ظاهر أنها ليست بمعارضة إذ التحدى وقع بمجموع الفصاحة والأسلوب ، لا مجرد الفصاحة ، وأما كلمات مسيلمة وغيره فليست بمقاربة لكلام القرآن وليس من شرط دلالة المعجز على الصدق أن لا يوجد مثله فى مستقبل الزمان .

لعل محمدا كان أفصح من غيره ، فلهذا لم يقدروا على معارضته لقد أيدّ الله نبيه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمعجزة الخالدة بالقرآن الكريم والقرآن معجز لأنه تحدى به العرب الذين هم الغاية فى الفصاحة وهم عجزوا عن معارضته وكل ما كان كذلك فهو معجز ، أما تحدّيه به فلتواتر الآيات الدالة على ذلك كقوله سبحانه :

ـ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »(٢٣٢) .

وقوله سبحانه :

ـ «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَن اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّه إن كنتُم صَادِقِينَ » (٢٣٣) .

وقوله سبحانه :

ـ «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادعُوا مَنِ استَطَعْتُم مِّن دُونِ الله إن كُنتُم صَادِقِين » (٢٣٤)

وقوله سبحانه :

ـ وَإن كُنتم فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بسُورَةٍ مِّن مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَداءكُم مِّن دُونِ الله إن كُنْتُم صَادِقِينَ » (٢٣٥)

وقوله سبحانه :

ـ «فَإن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِين » (٢٣٦)

فنفى القدرة بقضية قاطعة .

فهذه الآيات دلّت على أن التحدى مرة وقع بالقرآن ، ومرّة بعشر سور منه ، ومرة بسورة واحدة . وهوكقول الرجل لمن يفاخر : هات قوما كقومى ، هات كنصفهم ، هات كربعهم ، هات كواحد منهم .

وأما عجزهم عنه فلأن دواعيهم كانت متوفرة على الإتيان بالمعارضة ، ولم يكن لهم مانع عنها ، ثم لا يأتون بها . وذلك دال على عجزهم عنها .

فنشوب الردة بعد وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظهور المتنبئين مع اختلاف ثقافاتهم ومناهجهم ومواطنهم ثم فشلهم جميعا فشلا نهائيا وذريعا بل وسريعا . كل ذلك فى ذاته إنما هو برهان بل براهين أضافها واقع التاريخ على صدق نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإعجازها .

فالمتنبئون مع علمهم بما قال أهل الكتاب ، فإنهم لم يستطيعوا مسايرتهم ، وإلا ظهر كذبهم وسط العرب وانهدرت نبوتهم ، إذ أنهم سيدّعون بَحَدَث يعرف العرب أنهم فيه كاذبون .

إذ أن قريشا وما جاورها ـ وما حالفها من عرب ـ يعرف محمدا اليتيم الذى نشأ أميا ، لا يعرف القراءة والكتابة .

ولكى نذلل على عصبية العرب وتعصبهم ضد النبى صلى الله عليه وسلم . نقول هذا هو مسيلمة الكذَّاب وقد قصده طلحة النمرى ، وسأل عنه قومه قائلا : أين مسيلمة ؟ فصاحوا به أن يذكر أنه رسول الله . ثم قادوه إليه . فحاوره قليلا ، وتبين له سخفه ، فقال له : أشهد أنك كاذب وأن محمدًا الأمى صادق ؟ ولكن كذَّاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر.

فهذه شهادة العدو المتعصب تعصبا قبليًا عاطفيا عرقيا . الذى شهد بصدق محمد النبى الأمى ، ولكنه يفضل عليه الكذَّاب الربيعى .

فهل لوكان محمدٌ يقرأ أو يكتب ، ولم يكن أُمياً أكان طلحة النمرى كذّب مسيلمة ـ من بنى جلدته ـ فيسكت دون تكذيبه ؟

إذن فهذا دليل على أمية الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإضافة إلى أن هذا الأمى قام بإقامة دولة ، ما كانت تقوم إلا إذا كان هذا الأمى مؤيدا من قوة عُليا !

وهذا ما قاله الكاتب المستشرق «كارليل» فى كتابه عن «الأبطال» :

«وقد شاهدنا أناسًا ـ وما كان أكثرهم أميين ـ قاموا فى أمة العرب ، وادّعوا النبوة ، منهم «مسيلمة» الذى ادعى أنه قرين محمد . أتى بسورة سخر منها العرب ولكن القرآن الذى نزل على محمد ، انحنت له جباه الأعداء قبل المؤمنين ! » .

«وما حكاه النووى فى البستان رحمه الله تعالى عن أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه قال :

كان أبو مسلم قد رحل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصحبه . فتوفى النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الطريق .

ولما ادعى الأسود العنسى النبوة باليمن بعث إلى أبى مسلم الخولانى فلما جاءه قال أتشهد أنى رسول الله ؟ فقال ما أسمع .

فقال أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال : نعم . فردد ذلك مرارا عليه .

فأمر بنار عظيمة فأُججت وأُلقى فيها أبو مسلم فلم تضره . فقيل له انفه عنك وإلا أفسد عليك من اتبعك . فأمره بالرحيل .

فأتى أبو مسلم المدينة ـ وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضى الله عنه ـ فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد ، وقام يصلى فبصر به عمر رضى الله عنه فقام إليه وقال من الرجل ؟

قال من أهل اليمن . قال ما فعل الذى حرقه الكذّاب بالنار ؟ قال ذلك عبد الله بن ثوب . قال نشدتك الله أنت هو. قال نعم .

فاعتنقه ثم بكى . ثم ذهب به إلى أبي بكر رضى الله عنهما . وأجلسه بينهما وقال الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى فى أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فُعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله » .

وشتان بين صحابة رسول الله الذين أخمدوا فتنة المتنبئين الكاذبين وبين حواريي عيسى بن مريم الذين تبوأ بولس بينهم مركز الصدارة فأفسد الدعوة وقلبها من مسيحية يهودية إلى مسيحية يونانية والحمد لله الذى قال « مَحَمّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالذين مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

فهرس النصوص القرآنية والكتابية

١ ـ سفر التكوين	١٥ : ١٨
٢ ـ سفر التكوين	١٥ : ١٦
٣ ٣ـ سفر التكوين	١٦ : ١ ـ ٤
٤ ـ سفر التكوين	١٢ : ٧
٥ ـ سفر التكوين	١٥ : ٢ ، ٣
٦ ـ سفر التكوين	١٥ : ٤
٧ ـ سفر التكوين	١٦ : ٢
٨ ـ سفر التكوين	١٦ : ١٥ ، ١٦
٩ ـ سورة العنكبوت	٢٧
١٠ ـ سفر التكوين	١٧ : ١٥ ، ١٦
١١ ـ سفر التكوين	١٧ : ١٧
١٢ ـ سفر التكوين	١٧ : ١٨
١٣ ـ سفر التكوين	١٧ : ٢٠
١٤ ـ سفر التكوين	١٨ : ١٣ ، ١٤
١٥ ـ سورة ابراهيم	٣٧
١٦ ـ سفر التكوين	٢١ : ١ ـ ٦
١٧ ـ سفر التكوين	٢١ : ٩ ، ١٠
١٨ ـ غلاطية	٤ : ٣١
١٩ ـ سفر التكوين	٢١ : ١١
٢٠ ـ سفر التكوين	٢١ : ١٢ ، ١٣
٢١ ـ سفر التكوين	٢٠ : ١٤
٢٢ ـ سفر التكوين	٢١ : ١٠ ـ ٢١
٢٣ ـ سورة الصافات	٩٩ ـ ١١٢
٢٤ ـ سورة البقره	٤٢
٢٥ ـ سورة آل عمران	٧١
٢٦ ـ سورة الانبياء	١٨
٢٧ ـ سورة الأنعام	٨٣
٢٨ ـ سورة الشورى	١٦
٢٩ ـ سفر التكوين	٢٢ : ١ ، ٢
٣٠ـ سفر التكوين	١٧ : ١٩
٣١ـ سفر التكوين	٢١ : ١٠
٣٢ـ سفر التكوين	١٧ : ٢٠
٣٣ـ سفر العدد	٢٣ : ١٩
٣٤ـ سفر التكوين	٢٢ : ٢
٣٥ـ سفر التثنية	٣١ : ٩
٣٦ـ سفر التثنية	٣٤ : ٦٠٥
٣٧ـ سفر التثنية	٣٤ : ٩
٣٨ـ سفر التثنيه	٢١ : ١٥ ـ ١٧
٣٩ـ سفر التكوين	١٤ : ٢٢ ، ٢٣
٤٠ ـ سفر التكوين	١٣ : ٨ ، ٩
٤١ ـ سفر التكوين	٢١ : ١٠ ، ١١
٤٢ ـ سفر التكوين	١٦ : ٣ ، ٤
٤٣ ـ سفر التكوين	١٦ : ١٥
٤٤ ـ سفر التكوين	٣٠ : ٣ ـ ٦
٤٥ ـ سفر القضاة	١٣ : ٢ ، ٣
٤٦ ـ سفر القضاة	١٣ : ٢٤
٤٧ ـ سفر القضاة	١٥ : ٢٠
٤٨ ـ سفر التكوين	٣٠ : ٩ ـ ١١
٤٩ ـ سفر التكوين	٢٥ : ٨ ـ ١٠
٥٠ ـ سفر التكوين	٢٢ : ١٠ ـ ١٤
٥١ ـ أخبار الأيام الثانى	٣ : ١
٥٢ ـ سفر التثنيه	١٨ : ١٠
٥٣ ـ سفر ميخا	٦ : ٦ ـ ٨
٥٤ ـ أخبار الأيام الأول	١٦ : ٢١ ، ٢٢
٥٥ ـ مزمور	١٠٥ : ١٤ ، ١٥
٥٦ ـ غلاطيه	٣ : ١٣ ، ١٤
٥٧ ـ سفر التثنيه	٢١ : ٢٢ ، ٢٣
٥٨ ـ إنجيل يوحنا	٨ : ٤٦

٥٩ـ إنجيل يوحنا ٨ : ٢٩
٦٠ـ سفر التثنيه ٢٤ : ١٦
٦١ـ سفر حزقيال ١٨ : ٢٠
٦٢ـ إنجيل متى ١٦ : ١٩
٦٣ـ مزمور ١٣٠ : ٤ ، ٥
٦٤ـ إنجيل متى ٩ : ١٤ ، ١٥
٦٥ـ إنجيل متى ١٣ : ٣١ ، ٣٢
٦٦ـ سفر التكوين ٢٢ : ١٥ ، ١٨
٦٧ـ سفر التكوين ٢٢ : ١٨
٦٨ـ سفر التكوين ١٢ : ٣
٦٩ـ سفر التكوين ١٢ : ٢
٧٠ـ سفر التكوين ١٧ ـ ٢٠
٧١ـ سفر التكوين ٢١ : ١٣
٧٢ـ سفر التكوين ٢١ : ١٨
٧٣ـ سورة الاعراف ١٥٨
٧٤ـ سورة الانبياء ١٠٧
٧٥ـ سفر الخروج ٣ : ١٠
٧٦ـ إنجيل متى ١٥ : ٢٦
٧٧ـ سفر الخروج ١٣ : ١٧
٧٨ـ سفر الخروج ٢٤ : ١٦ ـ ١٨
٧٩ـ سفر الخروج ٣٣ : ٧ ـ ١١
٨٠ـ سفر العدد ٧ : ٨٩
٨١ـ سفر التثنيه ١٨ : ١٧ ـ ١٩
٨٢ـ سفر التثنية ٣٣ : ١ ـ ٣
٨٣ـ سفر التثنيه ٣٤ : ١٠
٨٤ـ سفر حبقوق ٣ : ٣ ، ٤
٨٥ـ سورة التوبة ١٢٨
٨٦ـ سفر التثنيه ١٨ : ١٨
٨٧ـ سفر التثنيه ٢ : ٤ ، ٥
٨٨ـ سفر التكوين ٢٥ : ٢٢ ـ ٢٦
٨٩ـ سفر التكوين ٢٥ : ١٢ ـ ١٨
٩٠ـ سفر التثنيه ٣٤ : ١٠

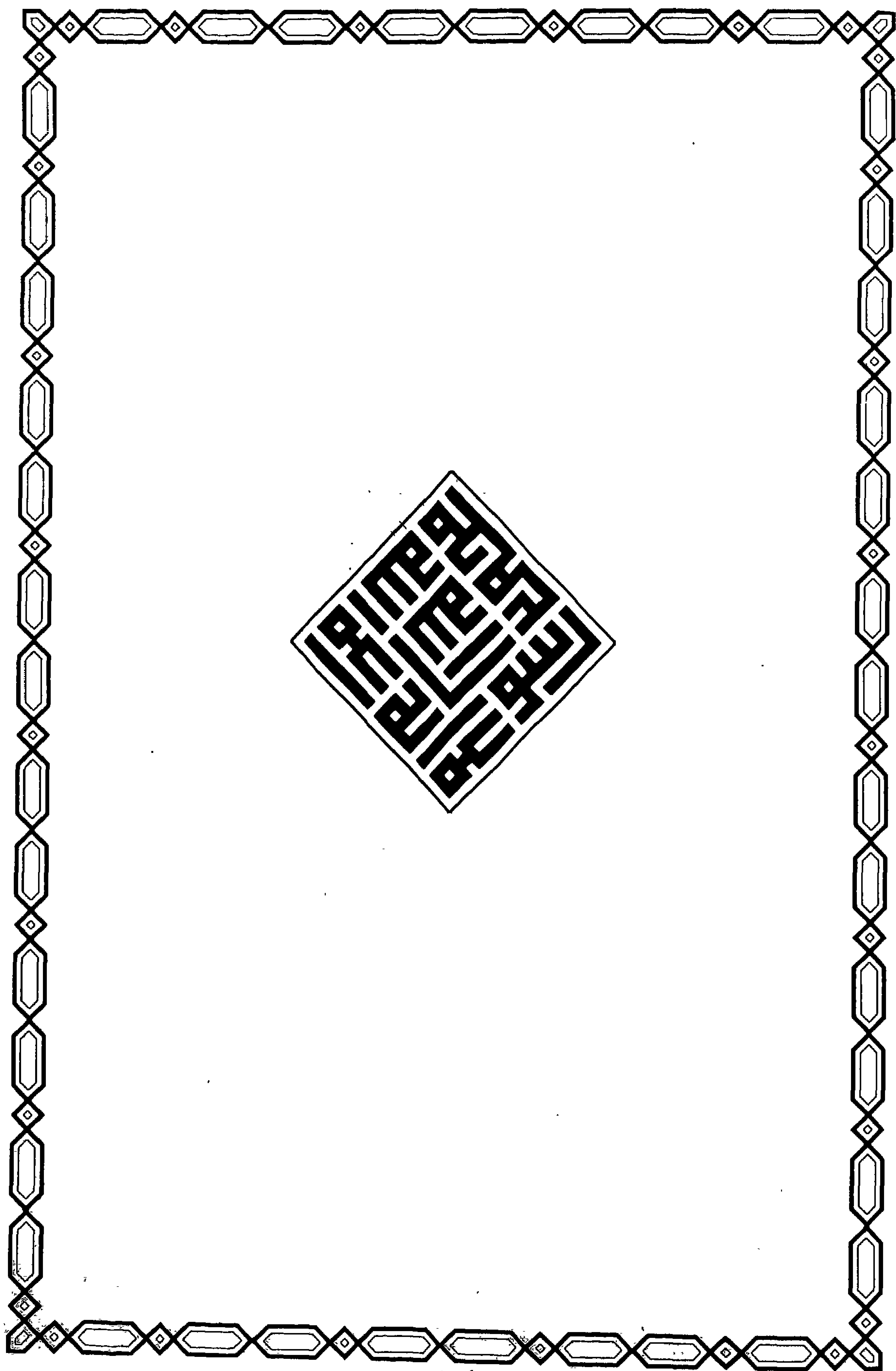
٩١ـ سفر الخروج ٣٤ : ٢٧ ، ٢٨
٩٢ـ أخبار الأيام الثانى ٣٦ : ١٤
٩٣ـ سفر إرميا ١٩ : ٥
٩٤ـ سفر إرميا ٢٣ : ١٥ ، ١٦
٩٥ـ إنجيل متى ٥ : ١٧
٩٦ـ سورة المائدة ٣
٩٧ـ سفر الخروج ١٤ : ١٣ ، ١٤
٩٨ـ سفر الخروج ١٤ : ٣٠ ، ٣١
٩٩ـ سفر التثنيه ١ : ٢٩ ، ٣٠
١٠٠ـ سفر التثنيه ٣ : ٢٢
١٠١ـ سفر التثنيه ١١ : ٢٥
١٠٢ـ سفر الخروج ٢٣ : ٢٧
١٠٣ـ سفر القضاة ٣ : ٩ ـ ١١
١٠٤ـ سفر القضاة ١٢ : ٥
١٠٥ـ سفر القضاة ١٥ : ٢٠
١٠٦ـ إنجيل متى ١٦ : ١٣
١٠٧ـ إنجيل متى ١٦ : ١٦
١٠٨ـ إنجيل متى ١٦ : ٣٠
١٠٩ـ إنجيل لوقا ٤ : ٤١
١١٠ـ إنجيل لوقا ٢٠ : ٢٢ ـ ٢٥
١١١ـ إنجيل متى ١٠ : ٣٤ ـ ٣٦
١١٢ـ سورة الأنفال ٩ ، ١٠
١١٣ـ سورة الحج ٤٠
١١٤ـ سفر الخروج ٣٤ : ١١ ـ ١٦
١١٥ـ إنجيل يوحنا ١٦ : ١٣
١١٦ـ سورة الشعراء ١٩٢ ـ ١٩٧
١١٧ـ سورة النساء ١٦٣ ـ ١٦٦
١١٨ـ سفر حبقوق ٣ : ٣ ، ٤
١١٩ـ سفر التكوين ١٢ : ١ ، ٢
١٢٠ـ إنجيل لوقا ١ : ٣٥
١٢١ـ سفر التكوين ٢٢ : ١٨
١٢٢ـ سورة الفتح ٢٩

١٢٣ ـ سفر التثنيه ٣٣ : ٢ ، ٣
١٢٤ ـ إنجيل متى ١٥ : ٦
١٢٥ ـ إنجيل متى ١٥ : ٨ ، ٩
١٢٦ ـ إنجيل يوحنا ٨ ، ١٢
١٢٧ ـ سورة الحجر ٩
١٢٨ ـ سورة آل عمران ١٩ ، ٢٠
١٢٩ ـ سورة الأسراء ١
١٣٠ ـ أخبار الأيام الأول ٢١ : ٢٦
١٣١ ـ أخبار الأيام الثانى ٣ : ١
١٣٢ ـ سفر اشعياء ٤٢ : ١ ـ ٤
١٣٣ ـ سفر اشعياء ٤٢ : ٦
١٣٤ ـ سفر اشعياء ٤٢ : ١١ ـ ١٣
١٣٥ ـ إنجيل متى ١٥ : ٢٦
١٣٦ ـ إنجيل متى ١٠ : ٥ ، ٦
١٣٧ ـ أعمال الرسول ١٣ : ٤٥ ـ ٤٧
١٣٨ ـ غلاطيه ١ : ١٦ ـ ١٨
١٣٩ ـ سفر التثنيه ١٨ : ١٨
١٤٠ ـ سفر التكوين ٢١ : ١٣
١٤١ ـ سفر التكوين ٢٢ : ١٨
١٤٢ ـ سفر اشعياء ٦٠ : ١ ـ ٣
١٤٣ ـ سورة التوبه ٣٣ ، سورة الصف ٩
١٤٤ ـ سورة الفتح ٢٨ ، ٢٩
١٤٥ ـ سفر اشعياء ٦٠ : ٤ ـ ٧
١٤٦ ـ سورة الحج ٣٦ ، ٣٧
١٤٧ ـ سفر اشعياء ٦٠ : ٦ ، ٧
١٤٨ ـ سورة هود ٨٨
١٤٩ ـ سورة الجاثية ١٦
١٥٠ ـ الملوك الأول ٤ : ٢١
١٥١ ـ مزمور ١١٨ : ٢٢ ، ٢٣
١٥٢ ـ أعمال الرسل ٤ : ١٠ ـ ١٢
١٥٣ ـ إنجيل متى ٢١ : ٤٢ ـ ٤٤
١٥٤ ـ سفر التثنيه ١٨ : ١٩

١٥٥ ـ سفر اشعياء ٥٤ : ١٧
١٥٦ ـ سفر التكوين ١٥ : ١٨
١٥٧ ـ سفر التكوين ١٦ : ٢
١٥٨ ـ سفر التكوين ١٦ : ٣ ، ٤
١٥٩ ـ سفر التكوين ١٦ : ١٥ ، ١٦
١٦٠ ـ سفر التكوين ٢١ : ٩ ـ ١٢
١٦١ ـ سورة ابراهيم ٣٧
١٦٢ ـ سورة الحاقه ٤٠ ـ ٤٣
١٦٣ ـ سفر التكوين ١٥ : ٤
١٦٤ ـ سفر التكوين ٢٦ : ٣ ـ ٦
١٦٥ ـ سفر التثنيه ٦ : ١ ـ ٣
١٦٦ ـ سفر التثنيه ٨ : ١٩ ، ٢٠
١٦٧ ـ سورة البقرة ١٢٤
١٦٨ ـ سورة الانبياء ١٠٥
١٦٩ ـ سفر اللاويين ٢٥ : ٢٣ ، ٢٤
١٧٠ ـ سفر التثنيه ٩ : ٤ ، ٦٠
١٧١ ـ سورة النور ٥٥
١٧٢ ـ سورة البقرة ٢١١
١٧٣ ـ سفر إرميا ٣١ : ٢٣
١٧٤ ـ إنجيل متى ٣ : ٧ ، ٨
١٧٥ ـ إنجيل متى ٢٣ : ٣٣ ـ ٣٦
١٧٦ ـ إنجيل متى ٢٤ : ١ ، ٢
١٧٧ ـ سفر التثنيه ٣١ : ٢٩
١٧٨ ـ إنجيل لوقا ٢١ : ٥ ، ٦
١٧٩ ـ إنجيل لوقا ٢١ : ٢٠ ـ ٢٤
١٨٠ ـ مزمور ١١٨ : ٢٢ ، ٢٣
١٨١ ـ إنجيل متى ٢١ : ٤٢ ـ ٤٤
١٨٢ ـ سورة الاسراء ١٦ ، ١٧
١٨٣ ـ أخبار الأيام الثانى ٣٣ : ١ ـ ٩
١٨٤ ـ الملوك الثانى ٢١ : ١٠ ـ ١٦
١٨٥ ـ سورة الصف ٦
١٨٦ ـ سورة القلم ٤

١٨٧ ـ إنجيل متى ٤ : ١٧
١٨٨ ـ إنجيل مرقس ١ : ١٤ ، ١٥
١٨٩ ـ إنجيل متى ١٠ : ٦ ، ٧
١٩٠ ـ انجيل لوقا ١٧ : ٢٠ ، ٢١
١٩١ ـ كورنثوس أولى ٤ : ٢٠ ، ٢١
١٩٢ ـ غلاطيه ٥ : ٢٢ ، ٢٣
١٩٣ ـ كورنثوس أولى ١٣ : ٤ ـ ٨
١٩٤ ـ إنجيل يوحنا ١٣ : ٣٣ ـ ٣٥
١٩٥ ـ سورة آل عمران ١٠٤
١٩٦ ـ سورة الحديد ١٢
١٩٧ ـ سورة التوبة . ٧١
١٩٨ ـ سفر التثنية . ١٨ : ١٨
١٩٩ ـ يوحنا أولى ١ : ٢
٢٠٠ ـ إنجيل يوحنا ١٦ : ١٣ ، ١٤
٢٠١ ـ إنجيل يوحنا ١ : ٥١
٢٠٢ ـ سورة الشعراء ١٩٢ ، ١٩٣
٢٠٣ ـ إنجيل يوحنا ٧ : ١٥ ـ ١٨
٢٠٤ ـ سورة الشورى ٥١ ، ٥٢
٢٠٥ ـ سورة النساء ١٦٦
٢٠٦ ـ ر النجم ٣ ـ ٥
٢٠٧ ـ إنجيل يوحنا ١٦ : ١٣ ، ١٤
٢٠٨ ـ سفر التثنية ١٨ : ١٨
٢٠٩ ـ إنجيل يوحنا ١٦ : ١٤
٢١٠ ـ إنجيل يوحنا ١٤ : ١٦
٢١١ ـ إنجيل يوحنا ١٦ : ١٤
٢١٢ ـ يوحنا أولى ٤ : ٢

٢١٣ ـ سورة البقرة ١١٦ ، ١١٧
٢١٤ ـ سورة آل عمران ٤٧
٢١٥ ـ سورة النساء ١٥٦ ـ ١٥٨
٢١٦ ـ سورة النساء ١٧١
٢١٧ ـ سورة المائدة ١٧
٢١٨ ـ سورة المائدة ٧٢
٢١٩ ـ سورة المائدة ٧٣
٢٢٠ ـ سورة المائدة ١١٦
٢٢١ ـ سورة الأنعام ١٠١
٢٢٢ ـ سورة الجن ٣
٢٢٣ ـ إنجيل يوحنا ١٦ : ١٢
٢٢٤ ـ إنجيل يوحنا ١٦ : ١٣
٢٢٥ ـ إنجيل لوقا ١٨ : ٣١ ـ ٣٤
٢٢٦ ـ إنجيل متى ٢٢ : ٢٩
٢٢٧ ـ إنجيل متى ٢٣ : ١٩
٢٢٨ ـ انجيل يوحنا ١٤ : ٢٥ ، ٢٦
٢٢٩ ـ إنجيل يوحنا ١٥ : ٢٦ ، ٢٧
٢٣٠ ـ إنجيل يوحنا ١٤ : ٢٦
٢٣١ ـ سورة االاعراف ١٥٧
٢٣٢ ـ سوراة الاسراء ٨٨
٢٣٣ ـ سورة هود ١٣
٢٣٤ ـ سورة يونس ٣٨
٢٣٥ ـ سورة البقرة ٢٣
٢٣٦ ـ سورة البقرة ٢٤
٢٣٧ ـ سورة الفتح ٢٩



موقف الغرب المسيحى من السيرة النبوية

لـــواء
أحمـــد عبـد الوهـــاب

مقدمة :

بدأت المواجهة بين رجالات المسيحية والإسلام منذ بدأت شمسه تطلع على العالم ، وبدأ محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجدل الدينى مع كل الناس ـ على مختلف عقائدهم ـ وفق تعاليم ربه :

«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن»[(١)]
ثم كانت هناك لفتة خاصة بأهل الكتاب تأمر بحسن المجادلة إلا مع الظالمين منهم :

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم»[(٢)]

ولما كانت حكمة الله فى خلقه قد اقتضت تصارع الخير والشر «ليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا»[(٣)] ـ «ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون»[(٤)] .

فقد كان رسل الله إلى الناس أشدهم بلاء وابتلاء وخاصة على أيدى جماعة من عتاة المجرمين من بنى آدم الذين نذروا أنفسهم لقتال رسل الله بدعوى أنهم أصحاب بدع يريدون إفساد عقائد

---

(١) النحل : ١٢٥
(٢) العنكبوت : ٤٦
(٣) الأنفال : ١٧
(٤) الجاثية : ٢٢

الناس وأنماط حياتهم وتبديل ما توارثوه عن الآباء والأجداد .

لقد كان هذا هو المنطق المعكوس لفرعون وملئه ، فلم ير فى موسى ودعوته إلا إفسادا فى الأرض وتخريبا للطريقة المثلى ـ الأيديولوجية ـ التى عاش فى ظلها قومه العديد من القرون .

« وقال فرعون ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد »(٥) .

« قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » .(٦)

ولقد كان هؤلاء وبحق ـ ولا يزالون إلى الآن ـ هم المجرمون أعداء رسل الله : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ، وكفى بربك هاديا ونصيرا »(٧) « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون » .(٨)

* * *

صور من إيذاء رسل الله والافتراء عليهم :

يبين تاريخ الرسالات الإلهية الكبرى أنه وجد دائما من شككوا فى صدق الرسل وحاربوهم وثاروا عليهم ، حتى من بين أهليهم . وكان أقل ما تعرضوا له هو النقد اللاذع والتعريض الموجع بتصرفات لم ترق لأولئك النقاد .

فهاهى التوراة تقول إن موسى تعرض للنقد الجارح من أخيه هارون وأخته مريم عندما تزوج ثانية من امرأة كوشية أعجبته :

« وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التى اتخذها . لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية . فقالا : هل الرب كلم موسى وحده . ألم يكلمنا نحن أيضا .. فحمى غضب الرب عليهما .. فالتفت هارون إلى مريم وإذا هى برصاء . فقال هارون لموسى : أسألك يا سيدى لا تجعل علينا الخطيئة التى جمعتنا وأخطأنا بها ـ سفر العدد ١٢ : ١ ـ ١١ » .

(٥) غافر : ٢٦ (٧) الفرقان : ٣١
(٦) طه : ٦٣ (٨) الانعام : ١١٢

وها هو المسيح يشك فيه أقرباؤه ويعتبرونه مختل العقل :

«ولما سمع أقرباؤه خرجوا ليمسكوه لأنهم قالوا إنه مختل ـ إنجيل مرقس ٣ : ٢١» .

وكان إخوته ـ أبناء أمه مريم حسب رواية الإنجيل ـ يشكون فى صدق رسالته : «قال له إخوته : انتقل من هنا واذهب إلى اليهودية لكى يرى تلاميذك أيضا الأعمال التى تعمل ..

لأن إخوته أيضا لم يكونوا يؤمنون به ـ إنجيل يوحنا ٧ : ٣ ـ ٥» .

وحين سمع كثير من تلاميذه بعض مواعظه ، فإنهم انفضوا عنه وتركوا صحبته شكا فيه ، فلم يبق معه إلا اثنى عشر حواريا .

«قال كثير من تلاميذه إذ سمعوا : إن هذا الكلام صعب .. من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه .

فقال يسوع للاثنى عشر : ألعلكم أنتم أيضا تريدون أن تمضوا ـ إنجيل يوحنا ٦٠ ـ ٦٧» .

* * *

وعبر القرون نجد الكفرة ينعتون أنبياء الله بالكذب والافتراء على الله ، وبالسحر والجنون . وبالتحايل على الناس لتكون لهم السيادة والتفضيل عليهم . وفى هذا يقول القرآن الكريم إجمالا :

«ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا : ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون .. إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين»(٩)

ويذكر القرآن الكريم تفصيلا صنوف الاتهام الذى تعرض لها أنبياء الله ورسله ومنها : الكذب والسحر والجنون والرغبة فى التسلط .... الخ مما نجده فى قوم نوح وهود وصالح وموسى وهارون وعيسى وأخيرا محمد رسول الله .

لقد سجل القرآن الكريم افتراءات الكفار على الإسلام ونبيه ، حتى حديث الإفك ضد زوجه عائشة جعله الله قرآنا يتلى ، ولو كان الأمر بيد النبى لنحاه جانبا ولكنه عبد مأمور قال له الله :

«ليس لك من الأمر شىء»(١٠) إذ أن «الأمر كله لله» .

---

(٩) المؤمنون : ٣١ ـ ٣٨ (١٠) آل عمران : ١٢٨

فمن أمثلة مفترياتهم ما قالوه :

في الجنون :

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ، ويقولون إنه لمجنون »[١١]

« إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون »[١٢] .

في افتراء القرآن وتأليفه كذبا على الله :

« وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا » .

وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا »[١٣] .

« ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »[١٤] .

« أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . »[١٥]

في السخرية من النبى :

« وَقَالُوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . »[١٦]

« وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد . أفترى على الله كذبا أم به جنة »[١٧] .

لقد كان ما تعرض له محمد رسول الله فى الحرب الدعائية استمرارا لما تعرض له إخوته السابقون من الأنبياء والمرسلين :

« كذلك ، ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون »[١٨] .

* * *

---

(١١) القلم : ٥١
(١٢) الصافات : ٣٥ ـ ٣٦
(١٣) الفرقان : ٤ ـ ٥
(١٤) النحل : ١٠٣
(١٥) الطور : ٣٣ ـ ٣٤
(١٦) الزخرف : ٣١
(١٧) سبأ : ٧ ـ ٨
(١٨) الذاريات : ٥٢ ـ ٥٣

السيرة النبوية والغرب المسيحى :

دأب الغرب المسيحى ـ فى صورته العامة ـ على الطعن فى الإسلام ونبيه ولقد تعرضت سيرة سيدنا محمد رسول الله على أيدى رجال الكهنوت المسيحى وتلاميذهم من المستشرقين والمبشرين والكتاب ورجال الاستعمار إلى الكثير من التشويه والمغالطات والمفتريات لقد تنبأ القرآن بهذا الواقع الأليم فقال :

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور »(١٩) .

لقد كان المسئولون عن ذلك ـ ولا يزالون إلى الآن ـ هم رجال الأكليروس المسيحى ، حسبما يقول فيليب سيناك ، الذين لم يجدوا شيئا يحمون به معتقداتهم المسيحية سوى تربية رعاياهم ـ حسب قول جورج برنا ردشو أيضا ـ على كره نبى الإسلام ، وذلك بتشويه سيرته إلى أبعد الحدود ، وفى كل جوانبها المختلفة بزعم أنه خصم للمسيح وأن دينه الإسلام خصم للمسيحية .

ويمكن تتبع صورة الإسلام ونبيه فى الغرب المسيحى من خلال الدراسات التى قام بها عدد من الباحثين الغربيين نذكر منهم على وجه الخصوص :

ـ ريتشارد سوذرن فى مؤلفه الذى ترجم إلى العربية تحت اسم : «صورة الإسلام فى أوروبا فى العصور الوسطى . »(٢٠) ويرى المؤلف أن الحقبة الأولى تعتبر «حقبة الجهل» سواء الناتج عن ضيق الأفق الجغرافى أو الحضارى أو الذى تصنعه أوهام متخيلة مريضة محكومة بالمسبقات . وتمتد تلك الحقبة من عام ٧٠٠ م ـ إلى عام ١١٤٠ م ، وفيها كانت التوراة اليهودية هى الزاد الثقافى والعلمى الوحيد لدى كهنة أوربا وشارحيها ، يقرءون فيها تاريخ العالم فى حاضره وتطوره ويبحثون فيها عن تفسير لكل حدث أيا كان طابعه ، لذلك اعتمدت التوراة كنص لفهم الإسلام ، الأمر الذى أوصل صُنّاع الرؤية الثقافية يومذاك إلى اعتبار الإسلام هرطقة واعتبار نبيه مسيحا دجالا نذيرا باقتراب اليوم الآخر .

وإلى جانب هذا التراث الفقير الهش كانت تتشكل صورة أخرى عن الإسلام تستق

---

(١٩) آل عمران : ١٨٦

(٢٠) الناشر معهد الانماء العربى . وقد قدمت له مجلة «العالم» فى العدد ١٨ (السبت ١٦ حزيران / يونيو ٨٠) تحت عنوان : الجهل والتعصب قاعدتا الموقف الأوربى من الإسلام تاريخا وحاضرا» .

مصادرها من تحريفات بيزنطية قديمة وأساطير خيالية نسجها الخيال الشعبى لفرسان الحملات الصليبية العائدين من الشرق لأوروبا .

ومن حقبة الجهل تنتقل أوربا إلى حقبة تتسم بمحاولات للتعرف على الإسلام من مصادره نفسها ، قرآنا وحديثا ، بقصد احتوائه على المستوى السياسى بعد فشل الحملات العسكرية فى إخضاعه ، مراهنة فى ذلك على العون المغولى وتعضيد النساطرة المسيحيين فى الشرق .

لكن سقوط المراهنين وإقبال التتار على الإسلام أعاد أوربا إلى موقع الكراهية الفجة والعداء الفظ والأسطورية الجامحة ، مثل الزعم بأن الرسول كان كاردينالا طمح إلى سلطة البابوية فلما فشل فى مسعاه انقلب معاديا شرسا للمسيحية ... !

ولقد عاد الإسلام مجددا ـ فى العين الأوربية ـ دينا ساعيا إلى السيطرة على الدنيا ممتلئا بشهوة السلطة والتملك فى وجه مسيحية هى عقيدة «الألم والفقر» .

ـ فيليب سيناك فى مؤلفه : L'IMAGE DE L'AUTRE أى «صورة الطرف الآخر»(٢١) وفى هذا الكتاب يتتبع المؤلف ـ كسابقه ـ صورة الإسلام ونبيه فى أوربا عبر القرون فيقول : إنه حتى نهاية القرن الثالث عشر كانت أغلب الوثائق المكتوبة عن الإسلام صادرة عن رجال الكنيسة .

وهؤلاء كانت حرفتهم الطبيعية نقد ديانة غيرهم وتشويهها ، بالإضافة إلى أن المعلومات التى عكستها تلك القرون كانت ضئيلة ، كما أن أقلية من رجال الدين المسيحى (الأكليروس) هى التى كانت تعرف القراءة والكتابة .

لقد وُصِف المسلمون بأنهم : شعب غير مسيحى ، ينبع أساسا من القوقاز ! وقد جاء فى أعداد هائلة ليستولى قسرا وبكل توحش على القدس والإسكندرية وكل أفريقيا ! ولقد أستخدمت كلمة Sarrasim لتعنى المسلم ثم الوثنى بوجه عام ! .

وفى الربع التالى من القرن الثانى عشر وُصِفَ المسلمون بـ Sarrasins بالأعداء الطغاة ، الظالمين ، الوثنيين ، المتهمين بالتعدى على وصايا الله ، البرابرة . الذين تكون الحرب ضدهم مشروعة لأنهم أستولوا على ممتلكات المؤمنين (المسيحيين) !

وفى خطاب القديس برنار : أن يسوع المسيح يقبل عن طيب خاطر موت عدوه الذى يقتص

---

(٢١) الناشر : Flammarion, Paris, 1983.

منه فى انتقام عادل . إن جندى يسوع المسيح عليه أن يقتل إذن وبكل طمأنينة ، وهو يضرب بأكثر من الطمأنينة عندما ينزع حياة الشرير ؛ إنه ليس قتل إنسان ولكنه مكر ودهاء ، إنه انتقام يسوع المسيح .. إن المسيحى سوف يمجد بموت الوثنى (المسلم) لأن يسوع المسيح نفسه يتمجد فى ذلك .

لقد كان فشل الحروب الصليبية صدمة للغرب المسيحى فأيقظته للبحث عن الحقيقة بعد أن بدأ يشك فى معتقداته حول الإسلام ونبيه ثم كان التحول إلى التبشير ـ بدلا من المواجهة العسكرية ـ لكنه لم يكن أحسن حظًّا ، وبعد فشل التبشير جاء الأمل فى المغول الذين وافقوا مبعوث البابا على مهاجمة السلطان فى بغداد ، لكن الأمل فى المغول خاب بعد ذلك حين بدأ تحولهم إلى الإسلام .

وشهدت القرون التالية يقظة تهاجم البابوية وتتهمها بالفساد كما شهدت استمرارية لتشويه صورة نبى الإسلام وسبه بأقذع الأوصاف .

إن الكنائس القديمة فى أوربا ـ وخاصة فى فرنسا ـ لا تزال بها إلى الآن صورة ونقوش تصور المسلمين بالقوم الغلاظ المحاربين ، ذوى بشرة سوداء ملامحهم غليظة ، أنوفهم معقوفة وشعورهم منكوشة وصورتهم قبيحة بوجه عام . وتمتلئ تلك الكنائس بما جادت به قريحة الفنانين فى تصوير الحروب وتشويه الكفرة أعداء المسيح ! .

* * *

محمد والتاريخ :

لقد جاء محمد تحت شمس التاريخ ... إن هذه حقيقة قالها نفر من غير المؤمنين به .

فبعيدا عن الكتب المقدسة ، نجد محمدا هو النبى الوحيد الذى يعترف به تاريخ العالم . يعترف به وجودا كحقيقة تاريخية لم تتعرض للشك فى وجودها يوما ما ، كما حدث لمن قبله من الأنبياء بل ولأقربهم إليه فى الفترة الزمنية مثل المسيح الذى ظهرت دعاوى فى أوربا المسيحية تشكك فى وجوده التاريخى وتعتبره مثل خرافة هرقل وغيره من الأساطير القديمة ، ولقد كان هذا دافعا إلى المدافعين عن المسيحية أن يكتبوا الكتب لمجرد إثبات حقيقة الوجود التاريخى للمسيح مثل كتاب : The Jesus of History

ويعترف العالم بمحمد كشخصية محددة المعالم والقسمات ، عرف عن حياته الخاصة والعامة ، قبل النبوة وبعدها ، الشيء الكثير ، ويرتبط الوجود التاريخى لمحمد بشواهد ووثائق لم تتوافر لنبى

قبله على الإطلاق . وجميعها براهين صدق على حقيقة هذا الوجود وخلقه ومسلكه ، وهى شواهد عدل على فجر الإسلام عقيدة وشريعة ودينا قيما يضمن للمؤمنين به خيرى الدنيا والآخرة .

فها هى ذى مكة المكرمة وبها أول بيت وضع للناس وفيها الكعبة وها هو ذا الحجر الأسود الذى استلمه سيدنا رسول الله فى طوافه ونسكه واستلمه أصحابه : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى واستلمه من قبلهم إبراهيم وإسماعيل .

إنه شاهد تاريخى على تعظيم بيت الله الحرام فى قلوب جميع حجاجه ، مؤمنين كانوا أم مشركين .

ويذكرنا هذا الحجر بسنة الأنبياء السابقين حين كان يوضع حجر فى مكان معين ليكون تذكارا على حدث معين وتذكرة بما كان فى الماضى . فحين أراد يعقوب (اسرائيل) وخاله والد زوجتيه أن يتعاهدوا قال له خاله : « الآن هلم نقطع عهدا أنا وأنت فيكون شاهدا بينى وبينك . فأخذ يعقوب حجرا وأوقفه عمودا ـ سفر التكوين ٣١ : ٤٤ ـ ٤٥ » .

لقد كان الوحى إلى يعقوب يقول له : « أنا إله بيت إيل حيث مسحت عمودا . حيث نذرت لى نذرا . الآن قم اخرج من هذه الأرض وارجع إلى أرض ميلادك ـ سفر التكوين ٣١ : ١٣ » .

ثم هاهى الصفا والمروة حيث كان الرسول والمؤمنون معه يسعون بينهما تذكارا لما فعلته هاجر وتتقصى شربة ماء إنقاذا لحياة وحيدها إسماعيل بعد أن أشرف على الهلاك أوكاد فى تلك البرية الموحشة منذ عشرين قرنا خلت قبل الميلاد .

وها هى عرفات حيث الوقوف بها يعنى تمام الحج وهو الركن الخامس من أركان الإسلام . وحيث وقف الرسول فى حجة الوداع يلقى موعظته الأخيره وقد شهدها معه أكثر من مائة ألف من المؤمنين .

وها هى المدينة وما حولها : بدرٌ أولى المواقع الحاسمة فى تاريخ الإسلام ومن ثم فى تاريخ العالم ، وأحد وفى سفحه قبور الشهداء من الصحابة والسابقين : حمزة ومصعب بن عمير وغيرهم ، وها هو قبر النبى حيث ووری جسده الشريف ، ولا يعرف قبر لنبى آخر غير محمد رسول الله ، فالكل اختفت معالمهم المادية وما يتعلق بها من قريب أو بعيد .

أليس هذا ما يقرره كتبة التوراة بعد قرون قليلة من موت موسى ؟ : «مات موسى هناك عند الرب فى أرض موآب .. ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم ـ سفر التثنية ٣٤ : ٥ ـ ٦» .

ويا ليت عمر بن الخطاب ما قطع شجرة الرضوان معلما حيا ـ آنذاك ـ من معالم تاريخ الإسلام ، وشاهدا على أحداث عظام .. وكيف لا وقد كانت بقمتها الطيبة مهبط الرضوان . وأخيرا بل وأولا ها هو القرآن ، كلام الله الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد» .

كتاب هو آيات الله وكتاب به منهج الله ، فاتصل المنهج بالمعجزة وما كان ذلك لنبى قبل محمد رسول الله . إن التاريخ بمناهجه وآثاره وشواهده ، يخدم محمدا ودينه ، دون غيره من الأنبياء على الإطلاق .

إن الفترة بين عيسى ومحمد لا تتعدى ستة قرون ومع ذلك فقد وجد المؤرخون ـ بعيدا عن الكتب المقدسة ـ أن التاريخ لا يخدم المسيح وتلاميذه ورسالته لما يحيط بفجر المسيحية من غموض وقلة معلومات رغم نشأتها فى بيئة مزدهرة الثقافة عامرة بإمكانات الكتابة والتسجيل .

يقول دنيس نينهام فى مقدمة تفسيره لإنجيل مرقس : إنها لحقيقة تصدمنا إنهم (كتبة الأناجيل) لم يخبرونا بأى شىء عن هيئة (يسوع) وبنيته الجسمية وصحته ، كما لم يخبرونا بشخصيته وعما ـ إذا كان على سبيل المثال ـ سعيدا مبتهجا رابط الجأش ، أم أنه كان على العكس من ذلك .

إنهم لم يفكروا حتى أن يخبرونا بطريقة قاطعة عما إذا كان قد تزوج أو لا .

كذلك فإنهم لم يعطونا معلومات محددة عن طول فترة دعوته .. لقد أمكن حساب الفترة التى تلزم لإتمام الأحداث التى يرويها مرقس فوجد أنها لا تتعدى ثلاثة أو أربعة أسابيع ، عبر الفقرة ١ : ١٣ (التى تقول : وكان هناك فى البرية أربعين يوما يجرب من الشيطان) .

لقد دفعت هذه الحقيقة ستريتر أن يقرر فى كتابه : الأناجيل الأربعة ـ ص ٤٢٤ : أن المجموع الكلى للأحداث التى سجلها الإنجيل صغير جدا لدرجة أن الثغرات الموجودة فى الرواية لابد أن تكون هى الجزء الأكبر الجدير بالاعتبار» . (٢٢)

ويقول جورج كيرد فى تفسيره لإنجيل لوقا : «عندما كتب الإنجيل لم يكن هناك مجرد التحقق

---

(٢٢) Denis Nine ham: SAINT MARK, p. 35

الكامل من شخصية التلاميذ (الاثنى عشر) . إنَّ يهوذا بن يعقوب لا يظهر فى القائمة فى إنجيل كل من مرقس ومتى ، بينما شغل مكانه لباوس الملقب تداوس»[٢٣] .

أين هذا من صحابة رسول الله الذين عرفت أعدادهم وأنسابهم ومواقعهم فى الإسلام وقد زادت أعدادهم على عشرات الألوف .

لقد تجمع لكتابة سيرة رسول الله ما لم يتجمع معشاره لأى من سيرة الأنبياء السابقين فحرِىٌّ بأهل الاختصاص من المسلمين أن يرتفعوا لمستوى الأحداث التى يمر بها العالم المعاصر ويقدموا حقائق السيرة النبوية بأسلوب العصر بعد تنقيتها مما عساه يكون قد علق ببعض جوانبها بفعل قلوب مريضة أو خيال سقيم .

* * *

تطور فى معرفة الغرب بسيرة الرسول :

رغم المقاومة العنيدة لطمس حقائق النبوة المحمدية وتشويه السيرة بقدر ما لدى الأكليروس المسيحى الغربى وتلاميذهم من إمكانات هائلة ، فإن بعض الحقائق قد تسربت إلى الغرب بفعل الاحتكاك المباشر وتواجد عقليات تبحث عن الحق والنور وتحاول الإفلات من كتب التسلط الدينى وتقييد حرية الفكر التى كانت ـ وستبقى دائما ـ من أكبر نعم الله على الإنسان .

ولقد شهد النصف الثانى من القرن العشرين تطورًا فى أحاديث الغرب عن نبى الإسلام تنبع أهميته من كونه قد صدر عن بعض الهيئات والأفراد ذوى المكانة الدينية المتميزة فى العالم المسيحى ، ويكفى التذكرة بأن هذا النصف الثانى من القرن العشرين قد شهد إعلانا بأن المسلمين هم أبناء إبراهيم فى العقيدة يعبدون إلها واحدا ـ بعد أنْ كان النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى قد شهد إعلان البابا أنوسنت الثانى ـ فى دعوته إلى الحروب الصليبية ـ أن المسلمين كفار يجب تخليص القدس من أيديهم !

لقد صدر عن المجمع الثانى للفاتيكان الذى عقد فى الفترة ما بين ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥ جملة وثائق ، يخص المسلمين منها وثيقة نتحفظ على الكثير مما جاء فيها ـ خاصة وأن مفهوم «الحوار» الذى تتبناه الهيئات الدينية المسيحية وتدعو المسلمين إليه إنما هو فى حقيقته حوارٌ تريده الكنيسة واحدا من أكثر أساليب التبشير فعالية للاقتراب من المسلمين وإعادة تشكيل عقيدتهم بما يتفق

---

(٢٣) G. Caird: SAINT LUKE, p. 101

والعقيدة المسيحية (٢٤) ـ إلا أنها تعنى شيئا هاما هو الاعتراف بخطأ مفاهيم كنيسة القرن الحادى عشر ـ وما تلاه ـ بالنسبة للإسلام ونبيه والمسلمين ، ومحاولة لتصحيح بعض تلك الأخطاء العقائدية فى زمن يشهد ثورة فى عالم الاتصالات وأصبح من المستحيل طمس الحقائق وإخفاؤها لفترات طويلة .

فلقد قالت تلك الوثائق : «إن كنيسة المسيح تعترف بأن مبادئ عقيدتها قد بنيت لدى الرسل والأنبياء طبقا لسر الخلاص الإلهى ، فهى تعترف فعلا بأن جميع المؤمنين وهم أبناء إبراهيم ـ حسب العقيدة ـ داخلون فى رسالة ذلك النبى .

وبدافع المحبة نحو إخواننا فلننظر بعين الاعتبار إلى الآراء والمذاهب ، التى وإن تباينت كثيرا عن آرائنا ومذهبنا ، فإنها تضم نواة من تلك الحقيقة التى تنير قلب كل إنسان يولد فى هذا العالم .

ولنعانق أولا المسلمين الذين يعبدون إلها واحدا ، والذين هم أقرب إلينا فى المعنى الدينى وفى علاقات ثقافية إنسانية واسعة» .

* * *

وفى عام ١٩٧٧ عقد فى قرطبة المؤتمر الثانى للحوار الإسلامى المسيحى وقد ألقى كلمة الافتتاح الكاردينال أنريكى ترانكون مطران مدريد ورئيس أساقفة أسبانيا ـ فكان مما قاله :

«إنى كأسقف أود أن أنصح المؤمنين المسيحين بنسيان الماضى ، كما يريد المجمع البابوى منهم ، وأن يعربوا عن احترامهم لنبى الإسلام . إن المجهودات الفكرية واللاهوتية التى يتسم بها هذا المؤتمر تهدف إلى غاية بعيدة ، إلى البحث بكل أمانة عن البراهين التى تحمل المسيحيين على تقدير محمد نبى الإسلام تقديرا إيجابيا استنادا إلى العقيدة المسيحية وطرق فكرنا اللاهوتى ..

إن هذا شىء هام جدا بالنسبة للمسيحى ، إذ كيف نستطيع تقدير الإسلام والمسلمين دون تقدير نبيهم والقيم التى بثها ولا يزال يبثها فى حياة أتباعه إن ذلك سيكون دليلا على عدم المحبة والاحترام للمسلمين الذين يجب أن ننظر إليهم بتقدير كما بحثنا فى المجمع الكاثوليكى .

لن أحاول هنا تعداد قيم نبى الإسلام الرئيسية الدينية منها والإنسانية فليست هذه مهمتى ، وسوف يلقيها عليكم الإخصائيون واللاهوتيون المسيحيون بالمؤتمر .. غير أنى أريد أن أبرز جانبين إيجابيين ـ ضمن جوانب أخرى عديدة ـ وهما : إيمانه بوحدة الله ، وانشغاله بالعدالة .

---

(٢٤) راجع كتاب الباحث «حقيقة التبشير بين الماضى والحاضر» ـ الناشر : مكتبة وهبة القاهرة .

أما إيمانه بالله الأحد فهو سمة رسالته وحياته ، إنها أهم عقيدة تركها لأمته .

وأما دعوته إلى العدالة مع شتى التطبيقات الدينية والاجتماعية فهى ما تزال قائمة .. بيد أنى أود أن أخص بالذكر دعوته إلى سواسية الناس رجالا ونساء وإلى تحقيق العدالة بينهم» .

ولقد ألقى الدكتور ميجل كروث ايرنا ندث بحثا بعنوان : «الجذور الاجتماعية والسياسية للصورة المزيفة التى كونتها المسيحية عن النبي محمد» .

وقد بدأه بقوله : «ربما لا يوجد صاحب دعوة تعرض للتجريح والإهانة ظلما على مدى التاريخ مثل محمد ، كذلك لا يوجد اتهام أساسه السياسة ـ لا الدين ـ مثل الاتهامات التى وجهت للإسلام .

ولقد سبق أن أكدت فى مناسبة سابقة ـ وأظن أننى قد قررت. ذلك عدة مرات ـ الاستحالة من الوجهة التاريخية والنفسية لفكرة النبي المزيف التى تنسب لمحمد مالم نرفضها بالنسبة لإبراهيم وموسى وأصحاب النبوات الأخرى من العبرانيين الذين اعتبروا أنبياء .

انه لم يحدث أن قال (نبى منهم) بصورة بينة وقاطعة ـ إن عالم النبوة قد أغلق .. وفيما يتعلق بالشعب اليهودى فإن عالم النبوة ما يزال مفتوحا ما داموا ينتظرون المسيح المخلص .

أما فيما يتعلق بالحركة المسيحية فإنه لا يوجد أى تأكيد قطعى يدل على انتهاء عالم النبوة ، وأى قارئ لرسائل القديس بولس وآثار الحواريين وسفر الرؤيا يعلم ذلك جيدا .

وفيما يتعلق بى فإن يقينى أن محمدا نبى لدرجة أننى حاولت فى دراسة لى كتبت عام ١٩٦٨ أن أشرح كيف أن محمدا كان نبيا حقًا من وجهة النظر الدينية المسيحية ، وكيف أن الله يمكنه بل ويريد رسالته للعرب برغم وجود الديانة المسيحية» .

* * *

كذلك قال إجناثيو نايت أستاذ تاريخ الثقافة بالجامعة المركزية بمدريد فى بحث له ألقاه فى مؤتمر قرطبة بعنوان :

«إلى أى مدى يعتبر محمد نبيا من قبل المسيحيين» .

«إن محمدا هو نبى إحدى الديانات الكبرى المعاصرة .. إن الإسلام اليوم هو أكبر قوة حية وهو الذى يدفع تيارات العالم الثالث ويجمع بين ١٠٢ دولة من الدول النامية وغير المنحازة فى

مواجهة أغنى ٣٠ دولة فى العالم الأول الرأسمالى والصناعى وفى مواجهة ٢٠ دولة من دول العالم الثانى الشيوعى .

وإذا كانت المسيحية قد تشعبت ليس فقط إلى ٢٦٠ مذهبا موجودا الآن وإنما انقسمت إلى ثلاث شعب كبيرة : الأرثوذكسية الشرقية ، والبروتستانت ، والكاثوليك ـ وكذلك البوذية تشعبت إلى المهايانة والزن اليابانى ـ فإن الإسلام ما يزال يحتفظ بأساس وحدته .

إن الإسلام ليس استمرارا فحسب بل وتقدما كذلك . وفى أفريقيا نجد أن هناك شخصا يعتنق المسيحية مقابل شخصين يعتنقان الإسلام ، ولا نريد أن نعرض للبوذية أو غيرها من الديانات التى تعانى من حالة انقراض واضح ..

ولماذا نرى أن الاتحاد ضرورى بين أتباع الديانات ؟ من الممكن استنتاج الإجابة مما عرضناه سابقا ، ذلك أنه لم يحدث قط فى تاريخ الإنسانية أن زحف الإلحاد بهذه الصورة . لقد كانت الديانات تتصارع فيما بينها للسيطرة على أتباعها ولكننا اليوم أمام الدفاع عن العقيدة الجامعة ، أى الإيمان بالله بعد أن أصبح هذا الإيمان فى حالة خطر.

وفى نهاية الأمر ومع ترك الاختلافات الموجودة بين العديد من الديانات ، ومع النظر فيما يجمع بيننا ، نتساءل : أليس الإله واحدا؟ أما فيما يتعلق بالأنبياء فهم مشتركون : محمد وموسى وعيسى . وهكذا فإن الوحدة أمر حاسم ومهم لتخليص البشرية وعقائدها المشتركة فى الإلة .

ويجب أن يكون ذلك بالدرجة الأولى بين الديانتين الكبيرتين : المسيحية والإسلام حتى يمكنهما بعد ذلك جذب البوذية واليهودية والهندوكية .

ولهذا فإن الخطوة الأولى نحو الهدف الواسع والبعيد هى دراسة وفهم وتقدير عيسى ومحمد ، وهما نبيان مؤسسان ومحبوبان من جميع المؤمنين» .

وفى عام ١٩٦٣ عقد فى كندا المؤتمر التبشيرى الثالث لطائفة الإنجيليين وكان مما قاله ماكس وارن سكرتير جمعية التبشير الكنسية فى بحثه المقدم إلى المؤتمر :

«لقد تجلى الله بطرق مختلفة ومن الواجب أن تكون لدينا الشجاعة الكافية لنصر على القول

بأن الله كان يتكلم فى ذلك الغار الذى يقع فى تلك التلال خارج مكة »[٢٥] .

* * *

« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون »[٢٦] وفى حملة من أهل الكتاب للغو فى القرآن فى فجر الإسلام فإنهم كانوا يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية . وهنا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قولا قرر به الحقيقة واضحة وضوح شمس الصحراء فى رابعة النهار ـ إذ قال : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله » .

إن هذا يعنى أن تلك الأسفار التى فى حوزة أهل الكتاب فيها ما يمتنع تصديقه ، وفيها ما يمتنع تكذيبه .

فالأول قد جاء فى الحقيقة وتلبس بغيرها

وأما الثانى فقد قال حقا ونطق صدقا .

وتمر القرون العديدة حتى يأتى علماء أهل الكتاب فيقولون فى كتابهم ما يتفق تماما وحديث سيدنا رسول الله ، بل وكأنه ترجمة له .

فها هى « دائرة المعارف البريطانية » تقول عن أسفار العهد القديم :
« لقد أصبح من الواضح : أن هذه الأسفار لا تحتوى كل الصدق وليس كل ما تحتويه هذه الأسفار بصادق » .[٢٧]

* * *

وبعد أن قرر مجمع الفاتيكان الأول الذى عقد عام ١٨٧٠ « أن أسفار الكتاب المقدس ـ بعهديه القديم والجديد ـ كتبت بإلهام الروح القدس ، ومؤلفها الله ، وأعطيت هكذا للكنيسة » . إذا بمجمع الفاتيكان الثانى : ٦٣ ـ ١٩٦٥ م يقول فى أسفار العهد القديم : إن هذه الكتب تحتوى على شوائب وشىء من البطلان » لا أجد تعليقا على هذا التطور فى التسليم بحقيقة ما قاله

---

(٢٥) FRONTIER MISSON, p. 18

(٢٦) فصلت : ٢٦

(٢٧) ENCYCLDPAEDIA BRITANNICA, 1960, Vol. 2, p. 505.

القرآن فى أسفار أهل الكتاب خيرا من قول الحق : «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ، وما ربك بغافل عما تعملون»(٢٨) .

«بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه ، فاذا هو زاهق» .(٢٩)

«وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا» .(٣٠)

* * *

واجب علماء المسلمين نحو السيرة النبوية :

أرجو أن تشتمل المبادئ المقترحة التالية على منهج واضح المعالم من أجل كتابة السيرة النبوية ونشرها فى العالم حتى لا تترك نهبا لغير المسلمين يلوكون فيها ما يحلو لهم فيلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون :

١ ـ إصدار مرجع رئيسى للسيرة النبوية يتجنب الروايات الضعيفة والمتضاربة ويحكمه قول الله ـ عز وجل ـ فى وصف رسوله : «وإنك لعلى خلق عظيم» .(٣١) «فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك» .(٣٢)
«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» .(٣٣)

ويسير المرجع على هدى الحديث النبوى الصحيح :
«إنما بعثت لأتـمم مكارم الأخلاق» .

٢ ـ ترجمة هذا المرجع إلى اللغات العالمية الحديثة وأهمها : الإنجليزية والفرنسية والألمانية .

٣ ـ عمل مسح شامل لما كتبه غير المسلمين فى السيرة النبوية خلال القرون الثلاثة الأخيرة ـ وخاصة باللغات غير العربية ـ ونشر ما يصلح منه ـ بعد تنقيحه ـ بين الناطقين بتلك اللغة ، لأن ابن الدار أعلم بداره وأدرى بمخاطبة أهله . وعلى سبيل المثال كتاب فولتير(٣٤) بعنوان : LA CERTITUDE DES PREUVES DU MAHOMETISME

٤ ـ الرد على المطاعن والأكاذيب التى جاءت فى كتابات غير المسلمين ، دون ترديدها حيث إن ترديد أى أكذوبة يعطيها قوة إعلامية ويكاد يضعها فى مرتبة الحقائق المسلم بها ، فمن أكبر

(٢٨) النمل : ٩٣ (٢٩) الأنبياء : ١٨ (٣٠) الأسراء : ٨١
(٣١) القلم : ٤ (٣٢) آل عمران : ١٥٩ (٣٣) الأنبياء : ١٠٧
(٣٤) ذكره فضيلة الشيخ محمد الغزالى فى مقاله المنشور بمجلة «الدوحة» ـ العدد ١٠٠ ـ تحت عنوان : «الإسلام دين المفكرين» .

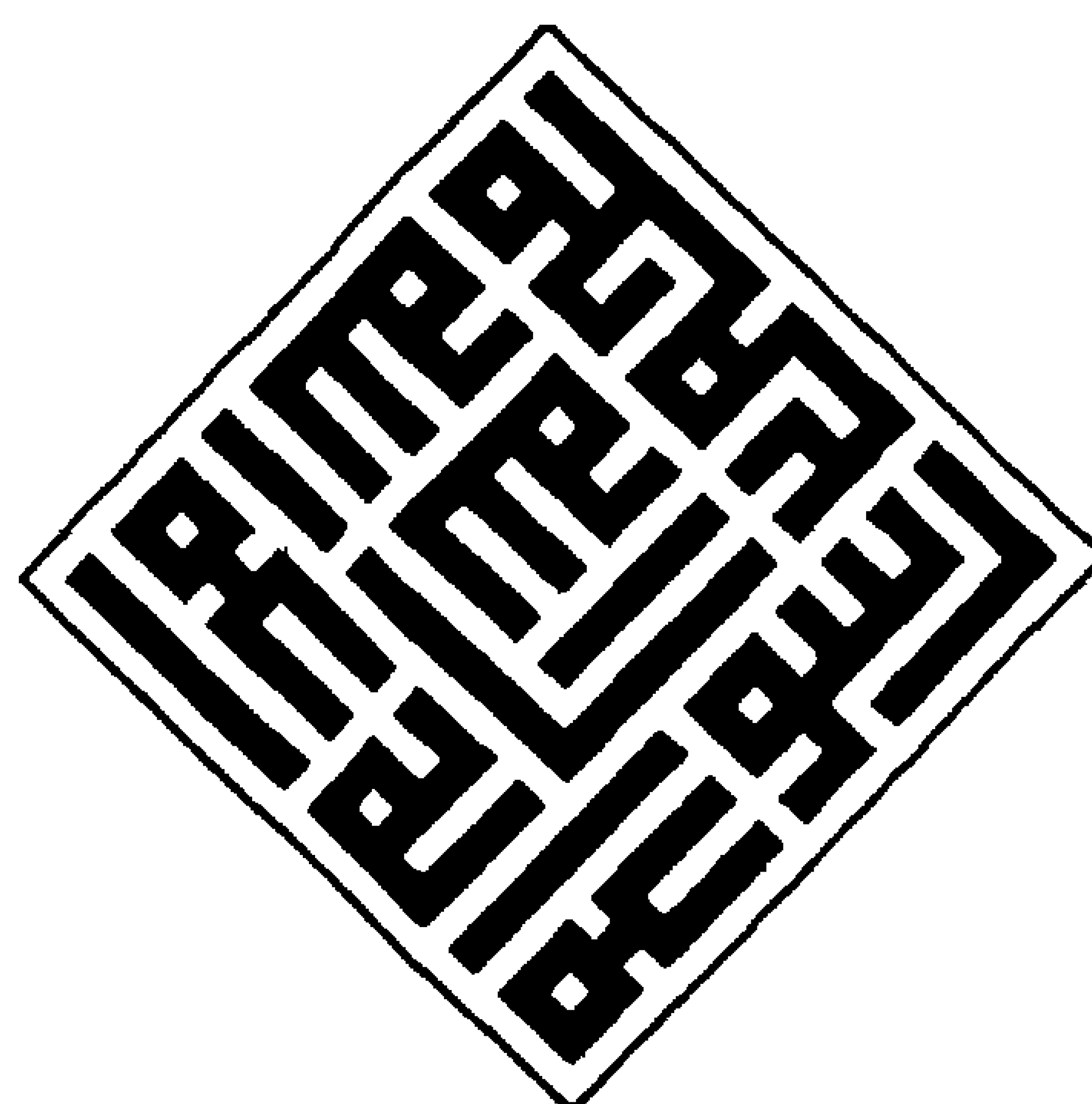
أخطاء الدعاة ما يسلكه بعضهم فى عرضه لآراء المكذبين حين يستخدم مثل هذه العبارات :

يقول المستشرقون ... كذا وكذا ..

يقول المبشرون ... كيت وكيت ..

٥ ـ تجميع جهود الهيئات والأفراد العاملين فى مجال السيرة النبوية دراسة و نشرا ووضع مخطط لما يجب الحديث فيه خلال الخمس عشرة سنة القادمة وتشجيع الجهود الفردية لتنفيذ ذلك المخطط .

٦ ـ الاهتمام بترجمة أفضل ما يكتب فى السيرة النبوية إلى اللغات الأجنبية وأخيرا نقول : «وقل اعملوا ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» .



ملف خاص
عن
النبى محمد
صلى الله عليه وسلم
فى فكر فلاسفة الغرب

- البطل فى صورة رسول بقلم توماس كارليل
- ماذا يقول برنارد شو عن النبى محمد
- نبى الإسلام كما يراه لامرتين الشاعر الفرنسى الكبير
- محمد المفترى عليه للكونت هنرى دى كاسترى
- نبى الإسلام فى نظر تولستوى الشاعر الروسى العالمى
- الخالدون مائة: أولهم النبى محمد للكاتب الأمريكي مايكل هارت

▣ إشترك فى إعداد هذا الملف:

- الأستاذ عبد المنعم فوده
- الأستاذ محمود حبيب
- الأستاذ إسماعيل كشميرى
- الأستاذ عبد الفتاح الزيات
- الأستاذ إبراهيم يونس
- الأستاذ إبراهيم السيد

البطل فى صورة رسول
محمد نبى الإسلام

توماس كارليل

لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمدا خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر[1] قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذى خلقنا . أفكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى ابدا ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس الا بله ومجانين وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها الا تخلق .

فوا أسفاه ! ما أسوأ مثل هذا الزعم واضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة (وبعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات ألا يصدق شيئا ألبتة من أقوال أولئك السفهاء : فانها نتائج جيل كفر وعصر جحود وإلحاد ، وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان ولعل العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا والأم .

وهل رأيتم قط معشر الأخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا عجيبا ، والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتا من الطوب ... فهو إذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص

---

(١) هذا منذ كتابة هذا البحث . وهى الآن أربعة عشر قرنا . وعدد المسلمين الآن يزيد على ألف مليون مسلم .

والتراب وما شاكل ذلك ، فما ذلك الذى يبنيه ببيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد . نعم وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم وكأنه لم يكن . وإنى لأعلم أنه على المرء أن يسير فى جميع أموره طبق قوانين الطبيعة والا أبت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته . كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى خيلوه حقا ، وزور وباطل وإن زينوه حتى أوهموه صدقا ، ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوبا وأمما بهذه الأضاليل ، وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ويحيق مصابها بالغير لا به . وأى مصاب ـ وأبيكم ـ مصاب كمصاب الثورة الفرنساوية وأشباهها من الفتن والمحن تصيح بملئ أفواهها « هذه الأوراق كاذبة » ؟

أما الرجل الكبير خاصة فانى أقول عنه يقينا إنه من المحال أن يكون كاذبا فانى أرى الصدق أساسه ، وأساس كل ما به من فضل ومحمدة ، وعندى أنه ما من رجل كبير (ـ ميرابو ـ أو نابليون ـ أو بارنز ـ أو كرمويل ـ) كفئ للقيام بعمل ما إلا وكان الصدق والإخلاص وحب الخير أول بواعثه على محاولة ما يحاول ، أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء بل أقول إن الإخلاص ـ الإخلاص الحر العميق الكبير ـ هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان ، لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذى لا يبرح يفتخر للناس باخلاصه كلا ! فإن هذا حقير جدا وأيم الله ـ هذا إخلاص سطحى وقح ـ وهو فى الغالب غرور وفتنة . إنما اخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه ، كلا ولا يشعر به بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الإخلاص ، إذ أين ذاك الذى يستطيع أن يلزم منهج الحقّ يوما واحدا ؟؟ نعم إن الرجل الكبير لا يفخر بإخلاصه قط بل هو لا يسأل نفسه أهى مخلصة ؟ ، أو بعبارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله ـ حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول . هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقه ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته هو يرى الكون مدهشا ومخيفا وحقا كالموت وحقا كالحياة . وهذه الحقيقة لا تفارقه أبدا وإن فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى ، وخبطوا فى غياهب الضلال والعماية ، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه كأنما هى مكتوبة بحروف من اللهب لا شك فيها ولا ريب ! ها هى : فاعرفوا ـ هداكم الله ـ أن هذه هى أول صفات العظيم وهذا حده الجوهرى وتعريفه وقد توجد

هذه فى الرجل الصغير فهى جديرة أن توجد فى نفس كل انسان خلقه الله . ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلا أصيلا صافى الجوهر كريم العنصر ، والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء . وقد دل الله على وجوده بعدة آيات أرى أن أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة فوجب علينا أن نصغى إليه قبل كل شىء .

وعلى ذلك فلسنا نعد محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر . وما الرسالة التى أداها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول . كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفق وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فإذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلاداً كريمة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق ، فكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم ، وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة كما كان يبسط من عبوس وجود البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء ، وكان الأعرابى صامتا لا يتكلم إلا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضا قفرا تخالها بحرا من الرمل يصطلى جمرة النهار طوله ويكافح بحر وجهه نفحات القر ليله .

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

ولا أحسب أناسا شأنهم الأنفراد وسيط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبى النظر ، وإذا صح أن الفرس هم فرنسيو المشرق فالعرب ولا شك طليانه ، والحق أقول : لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذه ــ وأبيكم ــ أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ ، وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه وينحر له ، فإذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه ، ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاتله متى عادت به إليه الفرص ، وكان العربى أغلب وقته صامتا . فإذا قال

أفصح ، ويزعم أن العرب من عنصر اليهود ، والحقيقة أنهم شاركوا اليهود فى مرارة الجد وخالفوهم فى حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفى ألمعية القريحة وأريحية القلب . وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات فى الشعر يجرونها بسوق عكاظ فى جنوب البلاد حيث كانت تقام أسواق التجارة . فإذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضا والأحكم قافية ، فكان الأعراب الجفاة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ويجدون لرناتها أية لذة فيتهافتون على المنشد كالفراش ويتهالكون .

وأرى للعرب صفة واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحامد بحذافيرها ألا وهى التدين .

فإنهم منذ كانوا ما برحوا شديدى التمسك بدينهم كيفما كان ، وكانوا يعبدون الكواكب وكثيرا من الكائنات الطبيعية ، يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته . فهذا وإن يك خطأ فليس من جميع وجوهه فإن مصنوعات الله ما برحت بوجه ما رموزا له ودلائل عليه ألسنا كما قدمت نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو « أسرار الجمال الشعرى » كما اصطلح الناس على تسميته ؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه مبلغ علمه ورأيه ، ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدد وأى تقوى وإخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين ؟ وقد اتفق النقاد أن « سفر أيوب » ـ أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدس ـ قد كتب فى بلاد العرب . ورأيى فى هذا الكتاب فضلا عن كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر يراع ، ودونت يد كاتب ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموها . عمومية تخالف التعصب والتحيز وحسب الكتاب شرفا أن يكون يضرب بعرق فى كل نفس ويمت بصلة إلى كل قلب ويكون كالبيت يفضى إليه منتهى السبل وكالأرج الضائع تتنازعه جميع الأنوف ، والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا عن مسألة المسائل ، حياة الانسان وفعل الله به فى هذه الدار وقد أتانا بذلك فى أنصع بيان وأشد إخلاص وأحسن سهولة ، وإنى لا تبين فيه العين البصيرة . والقلب النافذ الفهم الجم الخشوع فهو الحق من حيث جئته والنظر الراسب فى قرارة كل شىء وصميم كل أمر ـ مادى وروحانى ـ ألا تذكرون ما جاء فيه من ذكر الفرس « الله الذى أودع الرعد حنجرته ، فهل ترى صهيله إلا قهقهة لرؤية الرماح ؟ » هذا والله أجود الاستعارة وما أحسب أن فى عالم التشبيه كله ما يماثل ذلك أو يقاربه . ذلك إلى ما فى الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف والتوكل الحسن الجميل ، وما قرأت فيه قط إلا حسبت قلب الإنسانية يترنم

شجى ووجدا ، ودمع الإنسانية يفيض حرقة وكمدا ، فيالها من رقة فى شدة ورأفة فى قوة وما أشبهها إلا بسحر الليلة الصائفة : رقة نسيم فى جلال مشهد عظيم ، والا بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار ، وما أحسب أن فى جميع التوراة شيئا يدانيه فضلا وقيمة .

والحجر الأسود كان من معبودات العرب ، ولا يزال للآن بمكة فى البناء المسمى « الكعبة » وقد ذكر المؤرخ الرومانى « سيسلاس » الكعبة فقال : إنها كانت فى مدته أشرف معابد العالم طرا وأقدمها وذلك قبل الميلاد بخمسين عاما ، وقال المؤرخ « سلفتاردى ساسى » إن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات فإذا صح ذلك فلابد أن إنسانا قد بصر به ساقطا من الجو ، والحجر موجود الآن إلى جانب البئر « زمزم » والكعبة مبنية فوقها ، والبئر ـ تعلمون ـ منظر ـ حيثما كان ـ سارٌّ مفرح تنبجس من الحجر الأصم كالحياة من الموت لما بالكم بها إذا كانت تفيض ؟

بديمومة لا ظل فى صحصحانها ولا ماء لكن فورها الدهرَ عُوَّمُ
ترى الآل فيها يلطم الآل ماشجا وبارحها المسموم للوجه ألطم
أظل إذا كافحتها وكأننى بوهّاجها دون اللثام ملثم

وقد اشتق لها اسمها زمزم من صوت تفجرها وهديرها ، والعرب تزعم إنها انبجست تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضا من الله وصفاء ، وقد قدسها العرب والحجرَ الأسودَ وشادوا عليهما الكعبة منذ آلاف السنين . وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ، فهى فى هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكسوة السوداء التى ترسل كل عام والتى يبلغ ارتفاعها سبعا وعشرين ذراعا . حولها دائرة مزدوجة من العمد وبها صفوف من المصابيح وبها نقوش وزخارف عجيبة ، وتوقد تلك المصابيح لتشرق تحت النجوم المشرقة ، فنعم أثر الماضى هى ، ونعم ميراث الغابر هذه كعبة المسلمين ، ومن أقاصى المشرق إلى أخريات المغرب ، ومن دلهى إلى مراكش تتوجه أبصار العديد المجمهر من عباد الله المصلين شطرها وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات كل يوم ، نعم ، لَهِىَ والله مِنْ أجلِّ مراكز المعمورة وأشرف أقطابها .

وانما من شرف البئر زمزم وقدسية الحجر الأسود ، ومن حج القبائل إلى ذياك المكان كان منشأ مدينة مكة ، ولقد كانت هذه المدينة وقتاما ذات بال وشأن ، وموقعها ـ من حيث هى مدينة ـ سيئ جدا إذ هى واقعة فى بطن من الأرض كثير الرمال وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة على مسافة بعيدة من البحر ، ثم يمتار لها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الخبز ولكن الذى اضطر إلى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيرا من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ثم إن أماكن الحج مازالت من قديم الزمان تستدعى التجارة فأول يوم يلتقى فيه الحجيج تلتقى فيه كذلك التجار

والباعة . والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض ، رأوا أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع وإن لم يكن فى الحسبان ، لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب جميعها ، والمركز لكل مامر من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين إيطاليا ، وقد بلغ سكانها فى حين من الأحيان مائة ألف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب ، وباعة للمأكولات والغلال ، وكانت حكومتها ضربا من الجمهورية الأرستقراطية عليها صبغة دينية ، ذلك أنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير مهذبة عشرة رجال من قبيلة عظمى ، فيكون هؤلاء حكام مكة وحراس الكعبة ، وكانت لقريش فى عهد محمد ، وأسرة محمد ، من قبيلة قريش وكان سائر الأمة مبددا فى أنحاء تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والأخرى البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء وربما كان الأمير راعيا أو ناقل أمتعة ، وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ، ولم يك يؤلف بينهم حلف على إلا التقاؤهم بالكعبة حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد ، والا رابطة الدم واللغة . وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهورا طوالا خاملى الذكر غامضى الشأن ، أناسا ذوى مناقب جليلة وصفات كبيرة ينتظرون من حيث لا يشعرون اليوم الذى يشاد فيه بذكرهم ويطير فى الآفاق صيتهم وما ذلك ببعيد . وكأنما كانت وثنياتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال وآذنت بالسقوط ، وقد حدثت بينهم دواعى اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض أنباء عن أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة ـ أعنى حياة المسيح ووفاته وهى التى أحدثت انقلابا هائلا فى جميع سكان العالم .

فلم تعدم هذه الأنباء تأثيرها من الفوران فى أحشاء الأمة العربية .

وكان بين هؤلاء العرب التى تلك حالهم أن ولد الرجل محمد (عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش ، وقد مات أبوه قبل مولده ، ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه . وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جد شيخ كان قد ناهز المائة من عمره ، وكان صالحا بارا ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه ، فأبصرت عينه الهرمة فى محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير بملء قلبه ، وكان يقول : ينبغى أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل الذى قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسنا وفضلا . ولما حضرت الشيخ الوفاة ـ والغلام لم يتجاوز الأعوام الثمانية ـ عهد به إلى أبى طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده فرباه عمه ، وكان رجلا عاقلا كما يشهد بذلك كل دليل ، على أحسن نظام عربى .

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه فى أسفار تجارية وما أشبه ، وفى الثامنة عشرة من

عمره نراه فارسا مقاتلا يتبع عمه فى الحروب . غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذى حدث من قبل هذا التاريخ ببضع سنين ، رحلة إلى مشارف الشام إذ وجد الفتى نفسه هنا لك فى عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جدا فى نظره ـ أعنى الديانة المسيحية . وإنى لست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس « بحيرا الراهب » الذى يزعم أن أبا طالب ومحمدا سكنا معه فى دار ولا ماذا عسى أن يتعلمه غلام فى هذه السن الصغيرة من أى راهب ما ، فإن محمدا لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيرا من أحوال الشام ومشاهدها لم يك فى نظره إلا خليطا مشوشا من أشياء ينكرها ولا يفهمها ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ولابد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشئون فأقامت فى ثنايا ضميره ولو غير مفهوم ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشى وتحلها له يد الزمن يوما ما . فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات .

ثم لا ننسى شيئا آخر وهو أنه لم يتلق دروسا على أستاذ أبدا ، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك فى بلاد العرب ، ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية .

وعجيب ـ وايم الله ـ أمية محمد ، نعم انه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك ، ولم يقتبس محمد من نور أى انسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك فى جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء ـ أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور ـ من كان بين محمد وبينه أدنى صلة . وانما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء . ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره .

ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شابا مفكرا وقد سماه رفقاؤه الأمين ـ رجل الصدق والوفاء ـ الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره ، وقد لا حظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة ، وإنى لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام ، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة ، لا يتناول غرضا فيتركه إلا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته وأبان حجته واستثار دفينته ، وهكذا يكون الكلام وإلا فلا . وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريما برا رؤوفا تقيا فاضلا حرا رجلا شديد الجد مخلصا . وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البِشْر والطلاقة حميد العشرة حلو الإيناس ، بل ربما

مازح وداعب وكان على العموم تضئ وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا ، وكان محمد جميل الوجه ، وضئ الطلعة ، حسن القامة ، زاهي اللون ، له عينان سوداوان تتلألآن ، وإنى لأحب فى جبينه ذلك العِرْقَ الذى ينتفخ ويسود فى حال غضبه كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء لولترسكوت ، وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم . ولكنه كان أبين فى محمد وأظهر ، نعم . لقد كان هذا الرجل عادلا صادق النية ، كان ذكى اللب شهم الفؤاد .

لوذعيـا كـأنما بين جـنبيـ ـه مصابيح كل ليل بهيم

ممتلئا نارا ونوار ، رجلا عظيما بفطرته ، لم تثقفه مدرسة ، ولا هذبه معلم ، وهو غنى عن ذلك ، كالشوكة استغنت عن التنقيح ، أدى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء .

وما ألذ وما أوضح قصته مع خديجة ، وكيف أنه كان أولا يسافر فى تجارات لها إلى أسواق الشام ، وكيف كان ينهج فى ذلك أقوم مناهج الحزم والأمانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد ، وحبها ينمو ، ولما زوجت منه كانت فى الأربعين وكان هو لم يتجاوز الخامسة والعشرين ، وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحة ، ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق وألفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها .

ومما يبطل دعوى القائلين أن محمدا لم يكن صادقا فى رسالته بل كان ملفقا مزورا أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه فى تلك العيشة الهادئة المطمئنة ، لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دويّ مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ، لم يك إلا بعد الأربعين أن تحدث برسالة سماوية . ومن هذا التاريخ تبتدئ حوادثه .

نعم لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادئ الساكن وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه ، وجميل ظنونهم به . ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذى كان هاجعا وثار يريد أمرا جليلا وشأنا عظيما .

ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا ، وايم الله لقد كان أن محمدا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا ، وايم الله لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى

ونهي ـ أفكار غير الطمع الدنيوى ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه .

وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين . فبينما ترى آخرين يرضون بالإصلاحات الكاذبة ، ويسيرون طبق اعتبارات باطلة إذ ترى محمدا لم يرض أن يتلفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات ، لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه ـ كما قلت ـ بأهواله ومخاوفه وروائقه ومباهره ، لم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه « هأنذا » فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهى مقدس .

فإذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية وكل كلام ماعدا ذلك هباء ، وكل قول جفاء

وقد قلت إن أهم خصائص البطل وأول صفاته وآخرها هى أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن . فأما العادات والاستعمالات ، والاعتبارات والإصطلاحات فينبذها ـ جيدةً كانت أو رديئة ـ وكان يقول فى نفسه : « هذه الأوثان التى يعبدها القوم لابد من أن يكون وراءها ودونها شيء ما هي إلا رمز له واشارة إليه وإلا فهى باطل وزور وقطع من الخشب لا تضر ولا تنفع ، وما لهذا الرجل والأصنام ؟ وأنى تؤثر فى مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب ؟ ولو عبدها الجحاجح من عدنان والأقيال من حمير ؟ أى خير له فى هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ : إنه فى وادٍ وهم فى وادٍ ، هم يعمهون فى ضلالهم ، وهو ماثل بين يدى الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة ، فإما أن يجيبها وإلا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فلتجبها يا محمد : أجب . لابد من أن توجد الجواب ، أيزعم الكاذبون أنه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمدا وأثاره ؟ حمق ـ وأيم الله ـ وسخافة وهوس ، أى فائدة لمثل هذا الرجل فى جميع بلاد العرب وفى تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالجه ؟ وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعا بعد حين من الدهر ؟ أفى مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أو فى ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة ؟ كلا ـ إذن فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائل إن محمدا كاذب ونعد موافقتهم عارا وسبة وسخافة وحمقا فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع .

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان ، فينقطع إلى السكون والوحدة ، ونعمت العادة ، وما أجلها وأنفعها ولا سيما لرجل كمحمد ! لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجى ضميره

صامتا بين الجبال الضامتة منفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية ، أجل حبذا تلك العادة ونعمت ، فلما كان فى الأربعين من عمره وقد خلا إلى نفسه فى غار بجبل « حراء » قرب مكة شهر رمضان ليفكر فى تلك المسائل الكبرى إذ هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم فقال لها : إنه بفضل الله قد استُجْلِيَ غامضُ السر وانجلى الشك وبرح الخفاء ، وأن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشابا حقيرة ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فهو الحق ، وكل ما خلاه باطل ، خلقنا ويرزقنا ، وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له ، وستار يحجب النور الأبدى ، والرونق السرمدى ، الله أكبر ولله الحمد : ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله ونذعن له ، ونسكن إليه ، ونتوكل عليه ، وأن القوة كل القوة هى فى الاستقامة لحكمته والرضا بقسمته أيا كانت فى هذه الدنيا وفى الآخرة ، ومهما يصيبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم « جابتى » : إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا اذن مسلمون ، نعم كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم ، وما قيل أن منتهى العقل والحكمة ليس فى مجرد الإذعان للضرورة ـ فإن الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما يأتيه الإنسان مكرها بل فى اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة هى خير ما يقع للإنسان وأفضل ما يناله ، وأن لله فى ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ، وأنه من الأفن والسخف أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل ميزانا لذلك العالم وأحواله . بل عليه أن يعتقد أن للكون قانونا عادلا وإن غاب عنه إدراكه .
وأن الخير هو أساس الكون ، والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة ، نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه فى سكون وتقوى .

أقول ومازالت هذه الخطة المثلى والمذهب الأشرف الأطهر ومازال الرجل مصيبا وظافرا وحرا وكريما وسائرا على المنهج الأقوم وسالكا سبيل السعادة مادام معتصما بحبل الله متمسكا بقانون الطبيعة الأكبر الأمكن غير مبال بالقوانين السطحية والظواهر الوقتية وحسابات الربح والخسارة ، نعم ، هو ظافر إذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهرى ـ قطب رحى الكون ومحور الدهر ـ وليس بظافر إذا فعل غير ذلك ، وحقا إن أول وسيلة تؤدى إلى اتباع هذا القانون هى الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح بل لا شىء غير صالح : وهذا يا إخوانى هو روح الإسلام : وهذا هو أيضا روح النصرانية ، والإسلام والنصرانية يأمر اننا أن نتوكل على الله قبل كل شىء وأن نفطم النفس عن الشهوات وننهى القلب عن الهوى وألا نجمح فى عنان المنى وأن نصبر على البث والأسى وأن نعرف أنا لا نعرف شيئا ، وأن نرضى من الله كل ما قسم ونعدها يدا بيضاء ونعمة غراء ونقول : الحمد لله على كل حال .

وتبارك الله ذو الجلال ونقول «إنا بقسمة الله راضون ولو كان ما قسم لنا المنون» .

فمن فضائل الإسلام تضحية النفس فى سبيل الله وهذا أشرف ما نزل من السماء على بنى الأرض نعم هو نور الله قد سطع فى روح ذلك الرجل فأنار ظلماتها ، هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التى كانت تؤذن بالخسران والهلاك

ويخيل إلينا أن الصالحة خديجة أصغت إليه فى دهشة وشك ثم آمنت وقالت « أى وربى إنه لحق » . ونتوهم أن محمداً شكر لها ذلك الصنيع ورأى فى إيمانها بكلمته المخلصة المقذوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما أسدت إليه من قبل فإنه ليس أروح لنفس المرء ولا أثلج لحشاه من أن يجد له شريكا فى اعتقاده ولقد قال « نوفا ليس » ما رأيت شيئا قط آكد ليقينى وأوثق لاعتقادى من انضمام إنسان آخر إلىَّ فى رأيى . نعم أنه لصنيع أغر ، ونعمة وفيرة وكذلك ما انفك محمد يذكر خديجة حتى لقى ربه حتى أن عائشة ـ زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التى اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها ـ هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة سألته ذات يوم : ألست الآن أفضل من خديجة ؟ لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جمالها وأراك تحبنى أكثر مما كنت تحبها . « فأجاب محمد : كلا والله لست أفضل منها وكيف وهى التى آمنت بى والكل كافر ومنكر ولم يك لى فى هذا العالم إلا صديق واحد ـ وهذا الصديق هى ، وآمن به مولاه زيد بن حارثة كذلك ، وعلى ، وهؤلاء الثلاثة أول من آمن به .

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك فما كان يصادف الا جحودا وسخرية حتى أنه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء ولكنه المنتظر فى مثل هذه الحال .

وبعد هذه السنين الثلاث أدب مأدبة لأربعين من قرابته ثم قام بينهم خطيبا فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها فى سائر أنحاء الكون وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة فأيهم يمد إليه يده ويأخذ بناصره ؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب على وكان غلاما فى السادسة عشرة . وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح فى أحدِّ لهجة : أنه ذاك النصير والظهير . ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمدا ومعاديه وكلهم قرابته ، وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو على ، ولكن رؤية رجل كهل أمى يعينه غلام فى السادسة عشرة يقومان فى وجه العالم بأجمعه . كانت مما يدعو إلى العجب المضحك فانفض القوم ضاحكين . ولكن الأمر لم يك بالضحك بل كان نهاية فى الجد والخطر ، أما على فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه فإنه فتى شريف القدر كبير النفس . يفيض وجدانه رحمة وبرا ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة ، وكان أشجع من ليث . ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان وقد قتل بالكوفة غيلة . وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله

حتى حسب كل إنسان عادلا مثله . وقال قبل موته حينما أومر فى قاتله « إنْ أعشْ فالأمر إليَّ وإن أمت فالأمر لكم فإنْ آثرتم أنْ تقتصوا فضربة بضربة وأنْ تعفوا أقرب للتقوى » .

وكان فى عمل محمد هذا إساءة ولا شك إلى قريش حراس الكعبة وخدمة الأصنام وانضم إليه منهم رجلان أو ثلاثة أولو بأس ونفوذ ، وسرى أمر محمد ببطء ولكنه سريان على كل حال ، وكان عمله بالطبع سيئ الوقع لدى كل إنسان حيث جعلوا يقولون : من هذا الذى يزعم أنه أعقل منا جميعا . والذى يعنفنا ويرمينا بالحمق وعبادة الخشب .؟ وأشار عليه أبو طالب أن يكتم أمره ويؤمن به وحده وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم والا يسخط القوم ويثير غضبهم عليه ، فيخاطر فى ذلك بحياته ، فأجابه محمد : . «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » كلا فإن فى هذه الحقيقة التى جاء بها لشيئا من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشمس ولا القمر . وأى مصنوعات الطبيعة ولابد لتلك الحقيقة من أن تظهر برغم الشمس والقمر مادام قد أراد أن تظهر وبرغم قريش جميعها وسائر الخلائق والكائنات . نعم لابد من أن تظهر ولا يسعها إلا أن تظهر . بذلك أجاب محمد ويقال أنه « اغرورقت عيناه » : لقد أحس من عمه البر والشفقة وأدرك وعورة الحال وعلم أنه أمر ليس بالهين اللين ولكنه أمر صعب المراس والمذاق .

واستمر يؤدى الرسالة إلى كل من أصغى إليه وينشر مذهبه بين الحجيج مدة اقامتهم بمكة . ويستعمل الأتباع هنا وهنالك وهو يلقى أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة . ومناصبة بالعداوة ومجاهرة وشرا باديا وكامنا ، وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه . ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة إلى الحبشة فوقع خبر ذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه . فنصبوا له الأشراك وبثوا الحبائل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمد بأيديهم . وكانت خديجة قد توفيت وتوفى أبو طالب . وتعلمون ــ أصلحكم الله ــ أن محمدا ليس بحاجة إلى أن نرثى له ولحاله النكراء إذ ذاك ومقامه الضنك وموقفه الحرج ، ولكن اعرفوا معى أن حاله إذ ذاك من الشدة والبلاء كما لم ير إنسان قط . فلقد كان يختبئ فى الكهوف ويفر متنكرا إلى هذا المكان وإلى ذلك ، لا مأوى ولا مجير ولا ناصر . تتهدده الحتوف وتتوعده الهلكات وتفغر له أفواهها المنايا . وكان الأمر يتوقف أحيانا على أدنى صغيرة ــ كإجفال فرس من أفراس أتباع محمد ــ فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ولكن أمر محمد ــ ذلك الأمر العظيم ــ ماكان لينتهى على مثل تلك الحال .

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متألبين عليه جميعا وكانوا أربعين رجلا ، كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه . وألفى المقام بمكة مستحيلا هاجر إلى يثرب حيث التف

به الأنصار ، والبلدة تسمى الآن المدينة أى مدينة النبي . وهي من مكة على مائتي ميل تقوم وسط صخور وقفار ، ومن هذه الهجرة يبتدئ التاريخ فى المشرق . والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهى السنة الثالثة والخمسون من عمر محمد . فترون أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخا كبيرا وكان أصحابه يموتون واحدا بعد واحد ويخلون أمامه مسلكا وعرا وسبيلا قفرا وخطة نكراء موحشة ، فاذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عوابس الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات . وهكذا شأن كل إنسان فى مثل هذه الأحوال . وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط . فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الإصغاء إلى صوت ضميره وصيحة لبه حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة ـ عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربى ولسان حاله يقول : وأما وقد أبت قريش إلا الحرب فلينظروا أى فتيان هيجاء نحن . وحقا رأى . فان أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق وأبوا إلا تماديا فى ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها ويأتون كل إثم ومنكر وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا إلا عتوا وطغيانا فليجعل الأمر اذن إلى الحسام المهند وكذلك قضى محمد بقية عمره وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا مدرَّ فواق وكانت النتيجة ما تعلمون .

ولقد قيل كثيرا فى شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فإذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا ، فهم يقولون : ماكان الدين لينتشر لولا السيف ، ولكن ما هو الذى أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وأنه حق والرأى الجديد أول ما ينشأ يكون فى رأس رجل واحد فالذى يعتقده هو فرد ، فرد ضد العالم أجمع ، فاذا تناول هذا الفرد سيفا وقام فى وجه الدنيا فقلما ـ والله ـ يضيع . وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال . أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا ؟ وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون . وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة أخرى فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار ، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ماكان يستحق أن يهزم ، وليس فى طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها بل ما هو أحط وأدنى . فإنها حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة ذاتها . ونعم الحكم .

أقول الطبيعة أعدل حكم بلى ، ما أعدل وما أعقل وما أرحم وما أحلم . إنك تأخذ

حبوب القمح لتجعلها فى بطن الأرض وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشور، تبن وقمامة وتراب وسائر أصناف الأقذاء، ولكن لا بأس عليك من ذلك وألق الحبوب بجميع ما يخالطها من القذى فى جوف الأرض العادلة البارة فإنها لا تعطيك إلا قمحا خالصا نقيا، فأما القذى فإنها تبلعه فى سكون وتدفنه ولا تذكر عنه كلمة. وما هى الا برهة حتى نرى القمح زاكيا يهتز كأنه سبائك الذهب الإبريز. والأرض الكريمة قد طوت كشحا على الأقذاء وأغضت، بل أنها حولتها كذلك إلى أشياء نافعة ولم تشك منها شجوا ولا نصبا. وهكذا الطبيعة فى جميع شئونها فهى حق لا باطل وهى عظيمة وعادلة ورحيمة حنون، وهى لا تشترط فى الشىء إلا أن يكون صادق اللباب حر الصميم. فإذا كان كذلك حمته وحرسته، أو كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه فترى لكل شىء تحميه الطبيعة روحا من الحق. أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو ـ وأسفاه ـ شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذه الدنيا أو تجئ فيما بعد؟ أعنى أن الحقيقة مزيج من حق وباطل، نور فى ظلام وتجيئنا الحقائق فى أثواب من القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة، ثم لابد من أن يجئ يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها وجورها فتموت وتذهب. نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبدا ويتخذ ثوبا أطهر وبدنا أشرف وما يزال يتنقل من الأثواب والأبدان من حسن إلى أحسن وجيد إلى أجود سنة الطبيعة التى لا تتبدل، نعم ان جوهر الحقيقة الكريم حى لا يموت وإنما النقطة الهامة والأمر الوحيد الذى يعرض فى محكمة الطبيعة ومجلس قضائها هو: هل هذا الروح حق وصوت من أعماق الطبيعة؟ وليس بهام عند الطبيعة ما تسميه نقاء الشىء أو عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائى. ليس الأمر الهام عند الطبيعة حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكمها فيك هو: أفيك أقذار وأكدار أم لا؟ وانما هو أفيك جوهر وروح صدق أو لا؟ أو بعابرة تشبيهية ليس السؤال الهام عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا بل أفيك قمح؟ أيقول بعض الناس إنه نقى؟ إنى أقول له «نعم نقى ـ نقى جدا ولكنك قشر ـ ولكنك باطل وأكذوبة وزور وثوب بلا روح ومجرد اصطلاح وعادة. وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة والواقع أنك لا نقى ولا غير نقى. وإنما أنت لا شيىء والطبيعة لا تعرفك وانها منك براء.

نحن سمينا الإسلام ضربا من النصرانية، لو نظرنا إلى ماكان من سرعته إلى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء فى العروق لأيقنا أنه كان خيرا من تلك النصرانية التى كانت إذ ذاك فى الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان ـ تلك النصرانية التى كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب ببطلانها قفرا ميتا، على أنه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه

ضئيل جدا ، وبفضله فقط آمن الناس بها . وحقا أنها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعى بين الأصلاء ، ولكنها ضرب حى على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة .

ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم ـ نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية إلى لباب الأمر وصميمه فقال فى نفسه : الوثنية باطل وهذه الأصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أخشاب لا تضر ولا تنفع ، وهى منكر وفظيع وكفر لو تعلمون . إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له خلقنا وبيده حياتكم وموتكم وهو أرأف بكم منكم وما أصابكم من شىء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .

وإن دينا آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقا وجدير أنْ يصدق به ، وأنَّ ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشىء الوحيد الذى للإنسان أن يؤمن به ، وهذا الشىء هو روح جميع الأديان ـ روح تلبس أثوابا مختلفة وأثوابا متعددة وهى فى الحقيقة شىء واحد وباتباع هذه الروح يصبح الإنسان إماما كبيرا لهذا المعبد الأكبر « الكون » جاريا على قواعد الخالق تابعا لقوانينه لا محاولا عبثا أن يقاومها ويدافعها . ولم أعرف قط تعريفا للواجب أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب فى السير على منهاج الدنيا فان الفلاح فى ذلك (اذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) : وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر ؟ أما أنه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن انتاجها وإنما هو أن خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى .

لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يبتلعها . لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة ، وماكاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل ما لم يكن بحق فإنها حطب ميت أكلته نار الإسلام فذهب والنار لم تذهب .

أما القرآن فان فرط إعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق فى الأمم المختلفة . هذا وأن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة ولذلك لا عجب إذا قلت إن الأوربى يجد قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد ، لا يزال يقطع فى صفحاتها فقارا من القول الممل المتعب ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكى يعثر فى خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من

الملاءمة ولأنه لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لانجيليهم ، وما برح فى كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع فى شؤون الحياة ومسائلها والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضىء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ، ومصدر إحكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به فى غياهب الحياة ، وفى بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئا على التوالى وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته فى آذان الألوف من خلق الله وفى قلوبهم اثنى عشر قرنا فى كل آن ولحظة ، ويقال : إن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة .

وقد زعم (براديه) وأمثاله أن القرآن طائفة من الأخاديع والتزاويق لفقها محمد لتكون أعذارا له عما كان يرتكب ويقترف . وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ، ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال ، فانى لأمقت كل من يرمى محمدا بمثل هذه الأكاذيب . وماكان ذو نظر صادق ليرى قط فى القرآن مثل ذلك الرأى الباطل .

أيزعم الأفاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا : ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش قلب محتال ومشعوذ ، لقد كانت حياته فى نظره حقا وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة .

أجل لقد كان لمحمد فى شئون الحياة عين بصيرة ثم كان له قدرة عظيمة على أن يودع أذهاننا كل ما أبصره ذهنه ، أنا لا أحفل كثيرا بما جاء فى القرآن من الصلوات والتحميد لأنى أرى لها فى الأنجيل شبيها ولكنى شديد الاعجاب بالنظر الذى ينفذ إلى أسرار الأمور فهذا أعظم ما يلذنى ويعجبنى وهو ما أجده فى القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكان محمد اذا سئل أن يأتى بمعجزة قال : حسبكم بالكون معجزة انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ؟ ، هذه الأرض التى خلق الله لكم . ونهج لكم فيها سبلا تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير فى الآفاق لا يدرى من أين جاء وهو مسخر فى السماء كل سحابة كمارد أسود ثم يسح بمائه ويهضب ليحيى أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأعنابا أليس ذلك آية ؟ والأنعام خلقها لكم تحول الكلأ لبنا وهى فخر لكم ؟ والسفن ــ وكثيرا ما يذكر السفن ــ كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وبينا تسير إذا هى وقد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح معجزات وأى معجزات بعدها تريدون ؟ ألستم

أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ثم أصبح لكم جمال وقوة عقل . « ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غير موجودين « ثم وهبكم الرحمة » لقد أدهشتنى جدا هذه الجملة فإن الله لو كان خلق الناس بلا رحمة فما اذا كان يكون أمرهم ؟ .

نعم لقد كان العالم فى نظره معجزة أى معجزة وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين ، وهو أن هذا الكون الصلب المادى إنما هو فى الحقيقة لا شىء ـ إنما هو آية على وجود الله منظورة ملموسة وهو ظل علقه الله على صدر الفضاء لا غير وكان يقول : هذه الجبال الشامخات ستحلل وتذوب مثل السحاب وتفنى وكان يقول : الجبال أوتاد الأرض وأنها ستفنى كذلك يوم القيامة وأن الأرض فى ذلك اليوم العظيم تتصدع وتتفتت وتذهب فى الفضاء هباء منثورا فتنعدم .

وكان لا يزال واضحا لعينيه سلطان الله على كل شىء . وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم . هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة ، وهذا ما يسميه علماء العصر : القوى والمادة ولا يرونه شيئا مقدسا بل لا يرونه شيئا واحدا وإنما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل فى تسيير السفن البخارية ، فسرعان ما تنسينا الكيماوات والحسابيات ما يكمن فى الكائنات من سر الله وما أفحش ذلك النسيان عارا وأكبر هذه الغفلة إثما .

وإذا نسينا ذلك فأى الأمور يستحق الذكر اذن ؟ فمعظم العلوم أشياء ميته خاوية باليه ، بقلة ذابلة ، نعم ، وما أحسب العلوم لولا ذلك إلا خشبا يابسا ميتا وليس هو بالشجرة النامية . ولا بالغابة الكثيفة التى لا تبرح تمدك الخشب إثر الخشب فيما تمدك وتعطيك : ولن يجد المرء السبيل إلى العلم حتى يجده أولا إلى العبادة أعنى أنه لا علم إلا لمن عبد وإلا فما العلم إلا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة .

وقد قيل وكتب كثير فى شهوانية الدين الإسلامى . وأرى كل ما قيل وكتب جورا وظلما فإن الذى أباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وإنما كان جاريا متبعا لدى العرب من قديم الأزل . وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان فى إمكانه أن يجعل . والدين الإسلامى بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين . وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة، اقامة الصلاة خمسا فى اليوم والحرمان من الخمر؟ وليس كما يزعمون كان نجاح الإسلام وقبول الناس أياه لسهولته لأنه من أفحش الطعن على بنى

آدم والقدح فى أعراضهم أن يتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل وإتيان الجسائم هو طلب الراحة واللذة والتماس الحلو من كل صنف فى الدنيا والآخرة : كلا فإن أحسن الآدميين لا يخلو من شىء من العظمة والجلال ، فالجندى الجاهل الجلف الذى يؤجر يمينه وروحه فى الحروب بأجر بخس له مع ذلك «شرف» يحلف به فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفى ، وليست أمنية أحقر الآدميين هى أن يأكل الحلوى ، بل أن يأتى عملا شريفا وفعلا محمودا ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم ، ليعمد أيكم إلى أبلد إنسان فيريه سبيل المكرمات والمحامد فإذا هو قد تأجج قلبه حماسا واتقدت نفسه غيرة وصار فى الحال بطلا ، وما أظلم الذين يتهمون الإنسان بقولهم : أنه ميال بفطرته إلى الراحة وأنه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة ، وإنما مغريات الإنسان وجاذبياته هى الأحوال والصعائب والاستشهاد والقتل . أقدح ما بنفس المرء من زناد الفضل ترك نارا تحرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص وما كان قط اعتناق الناس لدين من دواعى الشرف والعظمة .

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا . وشد ما نجور ونخطئ إذا حسبناه رجلا شهويا لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ . كلا فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت ، لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار وإنهم ليذكرون ـ ونعم ما يذكرون ـ أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد فى الله قائم النهار ساهر الليل دائب فى نشر دين الله غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت ، رجل عظيم وربكم والا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما وإكبارا وإعظاما وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله ، لقد كان فى هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبداوة وعجرفة ، وكانوا حماة الأنوف أباة الضيم وعر المقادة صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وايم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه ، وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد فى ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا يكون الأبطال .

وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة ـ صوتَ فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعد إلى ربه

ولا نحسب أن شدة تدنِّيه أزرت بفضله ، كلا بل زادته فضلا وقد يروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزئ غلامه : العين تدمع والقلب يوجع ولا نقول ما يسخط الرب : ولما استشهد مولاه زيد «ابن حارثة» فى غزوة «مؤتة» قال محمد : لقد جاهد زيد فى الله حق جهاده ولقد لقى الله اليوم فلا بأس عليه ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكى على جثة أبيها ـ وجدت الرجل الكهل الذى دب فى رأسه المشيب يذوب قلبه دمعا ـ فقالت «ماذا أرى» ؟ قال : «صديقا يبكى صديقه» مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا فى محمد أخا الإنسانية الرحيم ـ أخانا جميعا ـ الرءوف الشفيق وابن أمنا الأولى وأبينا الأول .

وأنى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه : ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا فهو قائم فى ثوبه المرقَّع كما أوجده الله وكما أراد يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم . يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التى وقعت له مع الأعراب من مشاهد القسوة ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران وكان محمد لا يعتذر من الأولى ولا يفتخر بالثانية . إذ كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين . وكان رجلا ماضى العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى الغد ، وطالما كان يذكر يوم «تبوك» اذ أبى رجاله السير إلى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر فقال لهم : الحصيد انه لا يلبث إلا يوما . فماذا تتزودون للآخرة ؟ والحر ؟ نعم إنه حر ولكن جهنم أشد حرا . وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية . اذ يقول للكفار : ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة .

وفى الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها وهى التسوية بين الناس .

وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأى . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض والناس فى الإسلام سواء ، والإسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم . وقاعدة من قواعد الإسلام ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل فتكون جزءا من أربعين من الثروة . تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا . وما هو إلا صوت الإنسانية ـ صوت الرحمة والإخاء والمساواة ، ـ يصيح من فؤاد ذلك الرجل ـ ابن القفار والصحراء .

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره . فأقول إن العيب فى ذلك على

الشراح والمفسرين لا على ما جاء فى الكتاب ، فأن القرآن قد أقل جدا من إسناد الحسيات والمديات إلى الجنة والنار ، وكل ما فيه عن هذا الشأن ايماء وتلميح ، وإنما المفسرون والشراح الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ، ولا عذابا بدنيا وألما جسمانيا حتى أسندوه إلى النار ، ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قال:« وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » فالسلام والأمن هما فى نظر كل عاقل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، والشيء الذى عبثا يتلمسه الإنسان فى الحياة الدنيا ، وقال أيضا : « ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » وأى رزيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات،وأى شيء أهنأ من التألف والتصافى ؟

وأى دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل إلى الملاذ من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقرع عن مآربها ؟ وهذا هو منتهى العقل والحزم فان مباشرة اللذات ليس بالمنكر وإنما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات وتنقاد لحادى الأوطار والرغبات ولعل أمجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان . وأن يجعل من لذاته لا سلاسل وأغلالا تعيبه وتعتاص عليه إذا هم أن يصدعها بل حليا وزخارف متى شاء فلا أهون عليه من خلعها ولا أسهل من نزعها . وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصودا من محمد معينا أو كان وحى الغريزة وإلهاما فطريا فهو والله نعم الأمر .

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة أبدية . لم تصادف من حسن الذكر قط مثلما صادفت فى القرآن . وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » ؟ لقد كان هذا الرجل يرى الحياة أمرا جسيما ويرى لكل عمل إنسانى مهما حقر خطارة كبرى فما كان من سيىء فله من السوء نتيجة أبدية وما كان صالحا فله من الصلاح ثمرة سرمدية . وأن المرء قد يسمو بصالحاته ألى أعلى عليين ويهبط بموبقاته إلى أسفل سافلين . وأن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية ، وكل ذلك قد حاول فى أشد أخلاص أن يخرجه للناس ويصوره لهم فأخرجه وصوره فى صورة تلكم النار والجنة وأى ثواب لبسته هذه الحقيقة وأى قالب صُبّت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة فى أى أسلوب وأى صورة .

وعلى كل حال فهذا الدين فيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها . فاعرفوا له

قدره ، ولا تبخسوه حقه ، ولقد مضى عليه مئتان[2] وألف عام ، وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم . وما زال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم ، ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين باسلامهم اذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد . وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة أحد المارة : من السائر؟ « فيجيبه السائر» «لا إله إلا الله» وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل وأطراف النهار فى أرواح تلك الملايين الكثيفة . وأن الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاى فيهدمون أضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام ونعم ما يفعلون .

ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيا به من العرب أمة هامدة وهل كانت الا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم . لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فإذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء وعم ضوؤه الأرجاء وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب ، وما هو الا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس . وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة . وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة رقى فى درج الفضل وتعريج إلى ذرا المجد مادام مذهبها اليقين ومنهاجها الإيمان . ألستم ترون فى حالة أولئك الأعراب ومحمدهم وعصرهم كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التى كان لا يبصر بها فضل ولا يرجى فيها خير فاذا هى بارود سريع الانفجار وما هى برمل ميت وإذا هى قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى ؟ ولطالما قلت : إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس فى انتظاره كالحطب فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

---

(٢) كان ذلك حين كتب الكاتب بحثه .

ماذا يقول برنارد شو عن:

النبى محمد عليه الصلاة والسلام

(انني أعتقد أنَّ رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لتم النجاح له فى حكمه ولقاده إلى الخير، وحل مشكلاته على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة).

لانعد برنارد شو كاتبا وفيلسوفا إنجليزيا عظيما فحسب، بل هو فى طليعة المفكرين والفلاسفة فى العالم أجمع.

ومن أخص خصائص هذا الفيلسوف الكبير أنه جرئ إلى أبعد حد. وصريح إلى أبعد حدود الصراحة ... فإذا أبدى رأيا فى يوم من الأيام، فهو رأى يؤمن به كل الإيمان ويعتقد بصحته وصوابه إلى حد كبير.

وفى أثناء سياحته فى بمباى بالهند كتب رسالة اوضح فيها رأيه فى صلاحية الدين المحمدى لجميع الأمم فى كل زمان ومكان ... وشاد بفضل هذا الرسول وعظمته وعبقريته قائلا:

«لقد وضعت دائما دين محمد موضع الأعتبار السامى بسبب حيويته العظيمة فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل زمان ومكان».

ثم استطرد يقول:

«لا مشاحة فى أنَّ العالم يعلق أهمية كبيرة على نبؤات كبار الرجال. لقد تنبأت بأن دين محمد

سيكون مقبولا لدى أوربا فى الغد القريب ، وقد بدأ يكون مقبولا لديهم اليوم .

ولقد صور أكليروس القرون الوسطى للإسلام بأحلك الألوان ، إما بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم ، ولقد كانوا فى الواقع يصرّون على كراهية محمد وكراهية دينه ، وكانوا يعتبرونه خصما للمسيح ، ولقد درسته باعتباره رجلا عظيما فرأيته بعيدا عن مخاصمة المسيح بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية ، وإنى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة ، وهو ـ أى العالم ـ فى أشد الحاجة إليهما .

ولقد أدرك مفكرون مخلصون فى القرن التاسع عشر القيمة الذاتية لدين محمد ومنهم كارلايل وجوت وجيبون .

وهكذا تحول موقف أوربا تحولا حسنا إلى الإسلام ، وهى فى القرن الحالى (العشرين) تقدمت فى هذا التحول ، وبدأت تعشق عقيدة محمد .

وفى القرون القادمة قد تذهب أوربا إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها .

بهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى .

وفى الوقت الحاضر دخل كثير من أبناء قومى من أهل أوربا فى دين محمد حتى يمكن أن يقال أن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ .

هكذا وصف أكبر كاتب أنجليزى الإسلام ونبيه الكريم .

وهكذا شهد له أكبر فلاسفة أوربا .

لقد سجل برنارد شو كلماته هذه بعد بحث وتفكير وروية بعد أن عرف أن دين هذا النبى وضع لكل مشكلة اجتماعية واقتصادية الحل المناسب لها الذى يصلح لكل زمان ومكان .

ولقد سجل هذا الكاتب كلماته بعد دراسة عميقة لقواعد هذا الدين وما فيه من آيات بينات ، ولو أنه درس هذا الموضوع دراسة عميقة وافية لما قال :

«لقد بدأت أوربا الآن تتعشق الإسلام ..... ولن يمضى القرن الحادى والعشرين حتى تكون أوربا قد بدأت تستعين به فى حل مشاكلها .

لقد نظر برنارد شو إلى العرب قبل الدعوة المحمدية فوجدهم فى فساد وفوضى ووحشية وهمجية وحرب وقتال دائم ، يقتلون البنات وينظرون إلى النساء نظرة احتقار وسخرية ورآهم أشد

الأمم تباهيا بالأنساب وتساميا بالآباء ، فكانت كل قبيلة تزعم أنها الفريدة فى مفاخرها وقد غلوا فى هذا الاتجاه حتى جعلوا لإبلهم وخيولهم أنسابا يرفعونها بها على سائر الخيول والإبل .... فما بالك بمن بعد عنهم من القبائل والشعوب واختلف معهم فى اللغة والتقاليد ثم نظر إليهم بعد دعوة هذا النبي الكريم فوجدهم خلقا جديدا ، لا فرق بين عربي وعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح ووجدهم فى تقدم ورقى وحضارة تمتد أطرافها فى الشرق والغرب ورأى كيف دانت لهم الممالك والأمصار فى سهولة ويسر. وكيف رضيت به الشعوب على اختلاف أجناسها .... وكيف ازدهرت العلوم وانتعشت الفنون على أيديهم ورأى كيف أصبحت المرأة إنسانا محترما لها ما للرجال من احترام وحقوق .

لقد درس « برنارد شو » أمة محمد صلوات الله عليه فوجدها قائمة على الأصول الأدبية والمبادئ الأخلاقية ، لا على الأمور المعيشية والمطالب المادية كما هو الحال فى المدنية الأوربية فرأى بذلك أول أمة فى تاريخ العالم قامت على مبادئ سامية وقواعد خالية وأسس روحانية .

لقد رآها أمة ديمقراطية بأوسع معانى الكلمة .... رآها ديمقراطية لأنها لم تعترف بالفروق الطائفية والامتيازات الارستقراطية ، رآها أمة لا تفرق بين ذكر وأنثى وبين سيد ومولى إلا بالخير والعمل الصالح المنتج .. رآها أمة تؤمن بتكافؤ الفرص ، وتفتح الباب أمام العاملين من كل بيئة وجنس ولون ، لكى ينال قصب السبق كل من سمت همته وعلت كفايته .

لقد درس برنارد شو أمة هذا النبي فوجدها دستورية لأن الحكومة قيدت فيها بكتاب إلهى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذه أعظم صفات الأمم الدستورية .وقد حقق هذا الكتاب كل أغراض الحكومة الدستورية فجعل الحكم شوريا وحذف الامتيازات الفردية والطائفية والجنسية ومحا الفوارق فى الحقوق والواجبات بين مختلف الطبقات .وأخضع الطبقات وأخضع الجميع لمبادئ واحدة لا فرق بين حاكم ومحكوم وأبيض وأسود وذكر وأنثى .

هذه هى الأمة التى قامت على الدعوة المحمدية .

ألا يحق لبرنارد شو أن يصف هذا النبي الكريم بأنه منقذ الإنسانية ؟

ألا يحق له بعد هذا كله أن يقول :

« إننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لتم النجاح فى حكمه ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة » .

درس برنارد شو الحياة الإسلامية وأدرك أنها قائمة على التكافل والتضامن والتعاون بين الأفراد والشعوب ورأى فى ذلك سر النجاح .

فالمرأة والرجل متكافلان فى الحياة الدنيا من نفس واحدة بعضها من بعض يتم كل واحد منهما الآخر وأساس الصلة بينهما المودة والرحمة والرجال أنصاف تتلمس أنصافها الأخرى فى مخادع النساء ومن تزوج فقد عصم نصف دينه وفى كل هذه المعانى يقول القرآن الكريم :

« ومن آياته أنْ خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . » . وفى موضع آخر : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا . » .

« ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

والغنى والفقير والعامل والممول متكافلون فى هذه الحياة يشد بعضهم ازر بعض ويتعاونون على البر والتقوى فللفقير حق معلوم فى مال الغنى . وفى ذلك تدعيم للمجتمع أولا والأسرة ثانيا والدولة ثالثا .

وأكبر الكبائر فى الإسلام أن يبيت الرجل شبعان وجاره جائع ، وأجر العامل حق مكفول ، ومن ظلمه أياه أو أخره عنه فقد أثم إثما عظيما ، وتعرض لعقاب الدنيا وخزى الآخرة ، وعلى الفقير والعامل أنْ يصدقا وينصحا ويؤديا عملهما كاملا فإنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه .

والحاكم والمحكوم متكافلان ، على الحاكم العدل والمساواة والرعاية ، وعلى المحكوم الطاعة والنصيحة والمعاونة .

« إنَّ الله يأمركم أنْ تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

هكذا كان التكافل وحسن التعامل قوام الحياة الأجتماعية التى جاء بها الإسلام الحنيف .

فماذا فعلت المطامع والأهواء والنظم الأرضية المادية التى طلعت بها أوربا على الناس يوم أن انتهت إليها قيادة البشرية ؟

بدلت نعمة الله كفرا وأحلت التنافر والتخاصم محل هذا التكافل والتعاون وفشلت فى تحقيق

العدالة والإخاء والسلام على وجه الأرض .

ألا يحق بعد هذا كله أن يسجل (برنارد شو) كلمته الخالدة بقوله : «وإنى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة والطمأنينة التى هو فى أشد الحاجة إليها».

وهذه الصيحة التى أطلقها برنارد شو عن الإسلام ونبيه تتفق إلى حد كبير مع خطبة «المستر كاين تلر» التى ألقاها فى حفل كبير جامع حيث قال :

«يمتد الدين الإسلامى الآن من مراكش إلى أنقرة ومن زنجبار إلى الصين ويخطو فى داخل أفريقيا خطوات كبيرة وتعتنقه أمم كثيرة ، وقد خطى بنفسه وثبتت قدمه فى الكونغو التى صارت بلادًا إسلامية بأجمعها وخاصة البلاد السودانية وهى أشدهن بأسا» .

أما فى الهند فإنَّ التمدن الغربى الذى كان يهدم أركان الوثنية فانه يمهد الطريق للدين الإسلامى لا غير.

ثم استطرد يقول :

لقد أفاد الإسلام التمدن أكثر من النصرانية ونشر راية المساواة والأخوة وهذه الأدلة نذكرها نقلا عن تقارير الموظفين الإنجليز وعما كتبه أغلب السياح عن النتائج الحسنة التى نتجت من الدين الإسلامى وظهرت آياتها منه فإنه عندما تتدين به أمة من الأمم السودانية تختفى من بينها فى الحال عبادة الأوثان وأتباع الشيطان والأشراك بالعزيز الرحمن ، وتحرم أكل لحم الإنسان وقتل الرجال ووأد الأطفال ، وتضرب عن الكهانة ، ويأخذ أهلها بأسباب الإصلاح وحب الطهارة واجتناب الخبائث والرجس والسعي نحو احراز المعالى وشرف النفس ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية ، وشرب الخمر من الأمور البغيضة ولعب الميسر والأزلام محرمة والرقص القبيح ومخالطة النساء اختلاطا دون تمييز بغيض ويحسبون عدة المرأة من الفضائل ويتمسكون بحسن الشمائل .

أما الغلو فى الحرية والتهتك وراء الشهوات البهيمية فلا تجيزه الشريعة الإسلامية والدين الإسلامى هو الدين الذى يعم النظام بين الورى ويقمع النفس عن الهوى ، ويحرم إراقة الدماء والقسوة فى معاملة الحيوان والأرقاء ويوصى بالإنسانية ويحض على الخيرات والإخوة ويقول بالاعتدال فى تعدد الزوجات وكبح جماح الشهوات .

نبي الإسلام

كما يراه « لامرتين » شاعر فرنسا الكبير

«لامرتين» نابغة من شعراء فرنسا ... بدأ اسمه يلمع فى عام ١٨٢٠ وفجأة قفز إلى مصاف فحول الشعراء ثم انتخب فى المجمع العلمى الفرنسى ، وبعد ما تجول فى الشرق عين نائبا فى مجلس النواب فكانت له فيه جولات خطابية موفقة .

ولما أسست الجمهورية الثانية كان عضوا فى الهيئة الحاكمة المؤقتة ووزيرا للخارجية ، أما مؤلفاته ودواوينه فهى عديدة نذكر منها : التأملات الجديدة ... موت سقراط ... رحلة الشرق ... الإنسجام الشعرى ... جوسلين .

درس «لامرتين» حياة نبينا الكريم دراسة وافية ، وأدرك ما فيها من عظمة وخلود وهذا هو الدافع إلى أن يسجل قوله :

«أترون محمدًا كان أخا خداعٍ وكذب .. كلا .. لم يكن خادعا ولا كاذبا بعد ما عرفنا تاريخه ودرسنا حياته ، فالكذب والخداع والتدليس صفات تتولد من نفاق العقيدة وليس للكذب قوة الصدق» .

وتناول حياته بالتحليل قائلا :

«إن حياة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته وشهامته وجرأته وبأسه ، وثباته ثلاثة عشر عاما يدعو دعوته فى وسط أعدائه ، وتقبله سخرية الساخرين وهزأه بهزء الهازئين وحميته فى نشر رسالته وتوافره على السعى فى إظهار

دعوته ، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالفوز ورباطة جأشه فى الهزائم وتطلعه إلى إعلان كلمة الله وتأسيس العقيدة الإسلامية ، ونجاح دينه بعد موته .

كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل ، وهذا اليقين الذى ملأ روحه الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزدوجا وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة .. الأولى تدل على من هو الله ، والثانية تنفى ما ألصقه الوثنيون به .. الأولى حطمت آلهة كاذبة والأخرى فتحت طريقا إلى الفكر والتأمل .» .

وفى موضع آخر يقول :

«لقد كان محمد فيلسوفا وخطيبا ومشرعا وقائدا وفاتح فكر وناشر عقائد تتفق مع الذهن ومنشىء عشرين دولة فى الأرض ، وفاتح دولة فى السماء من الناحية الروحية ، أى رجل قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه ؟ .

ولو كان مقياس العظمة هو إصلاح شعب متدهور ، فمن ذا يتطاول إلى مكان محمد ؟

لقد سما بأمة متدهورة ورفعها إلى قمة المجد وجعلها مشعلا للمدنية وموردا للعلم والعرفان .

لقد كان مقياس العظمة فى توحيد البشرية المفككة الأوصال فمن أجدر بهذه العظمة من محمد الذى جمع شمل العرب وجعلهم أمة عظيمة وأمبراطورية شاسعة .

ولو كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء على الأرض فمن ذا الذى ينافس محمدا وقد محا مظاهر الوثنية ليقيم عبادة الخالق وحده .

ولو قسنا العظمة بالنصر الحربى والنفوذ والسلطان فمن يدانيه فى هذا المضمار؟ لقد كان يتيما لا حول له ولا قوة .. فأصبح ملكا عظيما ومؤسسا لأمبراطورية دامت ثلاثة عشر[1] قرنا من الزمان .

ولو كان مقياس العظمة هو الأثر الذى يخلده فى النفوس على مر الأجيال فها هو ذا محمد يمجده أربعمائة[2] مليون من الناس فى مختلف البقاع مع تباين أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم .

(١) هذا التاريخ موافق العصر المؤلف أما الآن فنحن فى القرن الخامس عشر الهجرى

(٢) هذا الرقم يمثل عدد المسلمين حين كتابة الموضوع ، أما الأن فعدد المسلمين فى العالم زهاء الألف مليون مسلم .

محمد المفترى عليه

للكونت هنرى دى كاسترى

كان الكونت دى كاسترى من كبار الموظفين بالجزائر وهو فى سن مبكرة وكان يسير ممتطيا جواده وخلفه ثلاثون من فرسان العرب الأقوياء فخورا بمركزه يملؤه الغرور بسبب المدح الذى يزجيه من هم تحت إمرته .. وفجأة .. توقف هؤلاء فى شىء من الخشونة والاعتداد بالنفس وقالوا : لقد حان موعد الصلاة : صلاة العصر ، ودون أن يستأذنوه اصطفوا للصلاة متجهين إلى القبلة ودوت فى أرجاء الصحراء كلمة الإسلام الخالدة «الله أكبر» ..

شعر الكونت فى تلك اللحظة بالمهانة فى نفسه والإعجاب بهؤلاء الذين لا يبالون به لأنهم اتجهوا إلى الله وحده بكل كيانهم وهنا تساءل الكونت هنرى دى كاسترى .. ما الإسلام ؟ .. أهو ذلك الدين الذى تصوره الكنيسة فى صورة بشعة تنفر منها النفس والوجدان ؟ ..

وبدأ يدرس الإسلام فتغيرت فكرته عنه ورأى من واجبه أنْ يعلن ما اهتدى إليه فكان كتابه ، (الإسلام خواطر وسوانح) ، وفيه تحدث عن كثير من جوانب الإسلام وتحدث عن آراء مواطنيه خاصة القدماء منهم فى صورة السخرية والتهكم قائلا : ذهبوا إلى أن محمدا وضع دينه بادعائه الألوهية ، ومن المستغرب قولهم : إنَّ محمدًا الذى هو عدو الأصنام ومبيد الأوثان كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكربوفنجيون) .. بل لقد أغرق خيالهم فى الضلال فذهبوا إلى أبعد من ذلك .. وذهبوا إلى صورة (ما هوم) ـ كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق إتقان .

وبعد أن ذكر الكثير من آرائهم قال : ، «ولقد أطلنا القول فى تلك الأضاليل لأن تاريخ اسكندر المذكور لم يزلها ، ولأنها تركت أثرا فى الأذهان وصل إلى أهل هذه الأيام وتشبعت به أفكارهم فى النبى وكتابه» . . .

ولكن ما سر هذه الحملة الشعواء الضالة التى تهزأ بالحق والضمير والتى لا يقرها دين أيًّا كان ؟

ولو سأل سائل هل كان أولئك المفسرون يعتقدون صحة ما يقولون .. ؟ .... لأجبنا جواب أهل (نور منده) : : لا ـ نعم ، إذًا من المحقق أنَّ الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين الإسلامى على حقيقته ولكنهم ماكانوا يقصدون الحقائق التاريخية فى أناشيدهم بل حفظ روح البغضاء فى نفوس قومهم ..

هل هذه الروح التى كانت سائدة عند المسيحيين تجاه الإسلام اقتصرت على العصور الوسطى .. ؟ كلا ..

فلم يزل هذا الروح سائدا عن المسيحيين حتى إن المستشرق (بريدو) ـ الانكليزى ألف سنة ١٧٣٣ كتابا فى سيرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنوانه «حياة ذى البدع محمد» وترجمه بعضهم إلى لغتنا وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف فقال (إنَّ غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحى الحكيم ... ثم يعقبه الكونت على ذلك بهذه الكلمة الحكيمة : .. ، (أولئك كُتَّابٌ مَا قصدوا التاريخ ولكنهم أرادو خدمة المقصد المسيحى الحكيم كما يقولون ، وكان سلاحهم الوحيد فى تأييد سواقط حججهم أنْ يشبعوا خصمهم سبًا وشتما وأنْ يحرفوا فى النقل مهما استطاعوا) ...

ثم يأخذ الكونت فى الرد على الافتراءات ومن أولى هذه الافتراءات : أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقرأ ويكتب فقرأ التوراة وقرأ الإنجيل وأخذ تعاليمه منهما .. وقد رد القرآن الكريم على هذه الفرية فقال : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون) ..

ويقول الكونت فى هذا المعنى : .. ماكان يقرأ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مرارا .. نبيا أميا .. وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه ولا شك أنَّه يستحيل على رجل فى الشرق أنْ يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس ، لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان ، على أنَّ القراءة والكتابة كانت معدومة فى ذلك الحين فى تلك الأقطار ولم يكن بمكة قارئ أو كاتب سوى

رجل واحد ذكره (جارسين دى تارس) فى كتابه الذى طبعه عام ١٨٧٤ . كذلك من الخطأ مع معرفة أخلاق الشرقيين أن يستدل على معرفة النبي للقراءة والكتابة باختيار (السيدة خديجة) رضى الله عنها إياه لتجارتها فى الشام ولم تكن لتعهد إليه بأعمالها إن كان جاهلا غير متعلم ، فإنَّا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرأون ولا يكتبون وهم فى الغالب أكثر أمانة وصدقًا ..

أما فكرة التوحيد : فيستحيل أنْ يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم من مطالعته التوراة والإنجيل ، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها ،لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته ، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر فى حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه فى رسالته وأمانته ونبوته ..

أما صدق الرسول ، وسمو رسالته ، فقد أخذ كثير من رجال الكنيسة ومن رجال الاستعمار يشككون فيها ، وبرغم الوضوح الواضح فى صدق الرسول وفى سمو رسالته الإسلامية فإن رجال الدين المسيحى ورجال الاستعمار لا يزالون يبدئون ويعيدون فى ترديد التشكيك .

إلى هؤلاء وأولئك يقول الكونت : والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمى ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظا ومعنى ، آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار فى جمالها ، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها ، وفاضت عين نجاشى الحبشة بالدموع لمَّا تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة مريم ، وما جاء فى ولاية يحيى . وصاح القسيس : إنَّ هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى . قال ناقل هذه الرواية كوزان دى بيرسوفال :

فلما كان اليوم الثانى طلب النجاشى جعفرًا وأشار إليه بتلاوة ما فى القرآن عن المسيح ففعل واستغرب الملك لما سمع أنَّ المسيح : عبد الله ورسول الله وروح منه نزل فى أمه مريم وأعجب أشد الإعجاب بهذه المعانى وحمى المسلمين ولم يرسلهم إلى رسل قريش ولم ينفهم من بلاده ..

أما هؤلاء الذين بلغ التعسف بهم مداه : فظنوا أنَّ هذه الفترات التى ـ يغيب فيها الرسول عن هذا العالم ليكون بكليته مستغرقا فى الملأ الأعلى إنما هى فترات مرضية أو هى صراع ، وبرغم تكذيب الطب لمزاعمهم مستندا إلى الاختلاف الكلى بين أعراض الصرع وأعراض الوحى فقد أعماهم التعصب عن رؤية الحقيقة وإليهم يقول الكونت : (ومن ذلك الحين .. أى البعثة .. أخذت شفتاه تنطلق بألفاظ بعضها أشد قوة وأبعد مرمى من بعض والأفكار تتدفق من فمه على

الدوام إلى أن يقف لسانه ولا يطيعه الصوت ولا يجد من الألفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الإنسان وسما عن أن يترجمه قلم أو لسان .. وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية فظن بعضهم أن به جنة وهو رأى باطل لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ولم يشاهد عليه قبل ذلك أى اعتلال فى الجسم أو اضطراب فى القوة المادية وليس من الناس من عرف الناس جميعا أحواله فى حياته كلها مثل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقد وصل المحدثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض فى لحيته ولو أنه كان مريضا لما أخفى مرضه فى مثل تلك الأحوال يعتبر أمرا سماويا عند الشرقيين) .

وليست حالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانفعالاته وتأثراته بحالة ذى جنة بل كانت مثل التى قاله نبي بنى إسرائيل فى وصفها ..

(لقد شعرت بأن قلبي انكسر بين أضلعى ، وارتعشت منى العظام ، فصرت كالنشوان ، لما قام بي من الشعور ، عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة) . ونختم الحديث عن آراء الكونت بهذا الوصف الرائع لتلك الساعة الأليمة التى فارق فيها الرسول عالمنا الدنيوى ليلحق بالرفيق الأعلى ولينعم برضوان الله اذ يقول : ولما أحس بقرب الأجل ذكر الفقراء فإنه لم يرغب طول حياته فى المال بل كان كلما جمع إليه شيء منه أنفقه فى الصدقات ، وكان قد أعطى عائشة مالا يسيرا لتحفظه فلما حضره المرض أمر بانفاقه على المعوزين لساعته ، وغاب فى سِنَةٍ ، ولما أفاق سألها : إنْ كانت نفذت أمره فأجابته كلا فأمر بالنقود وأشار إلى الأسر المعوزات فوزع عليهم وقال : (الآن استراح قلبي فإننى كنت أخشى أنْ ألاقى ربي وأنا أملك هذا المال ..) .. وكان فى مرضه يخرج كل يوم يصلى الظهر بالناس وآخر يوم خرج فيه هو الثامن من شهر يونيه عام ٦٣٢ م وكانت مشيته مضطربة فتوكأ على الفضل بن العباس وعلى بن أبي طالب . وقصد منبر الخطابة الذى كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة ، وحمد الله وأثنى عليه ثم خطب فى المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد فقال : « أيها الناس .. تسمعون قولى إنْ كنت ضربت أحدكم عل ظهره فدونه ظهرى فليضربه و إن كنت سلبت أحدا ماله فإليه مالى وهو فى حل من غضبي فإن الغل بعيد عن قلبي » ثم نزل من على المنبر وصلى بالجماعة ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من إزاره وطلب منه ثلاثة دراهم دَيْنًا له فأداها على الفور قائلا : «لخزى الدنيا أهون من خزى الآخرة» . ثم دعا لمن حارب معه فى أحد وسأل الله لهم الرحمة والغفران ..

وكان مشهد النبي بين المؤمنين فى ذلك اليوم مشهد جلال ووقار والناس يلمحون على وجهه آثار المرض وقلوبهم منفطرة من الوجد عليه ، ذلك أنه لما كان فى واقعة خيبر قدمت إليه يهودية

اسمها زينب شاة مشوية أضافت إليها سمًا فأخذ النبي قطعة بين شفتيه وأحس بأنها مسمومة فألقاها ثم لما حضرته الوفاة بعد حين كان يقول : مازالت تعاودنى أكلة خيبر.. وكان أبو بكر نفسه يبكى ويقول للرسول (نفديك بأرواحنا) ثم أوصله الصحابة إلى بيت عائشة واضجع تعبا مهزولا وصار المرض يشتد عليه فتخلف عن الصلاة بالمسلمين وقيل له قد جاء وقت الظهر فأشار إلى أبي بكر ليصلى بالناس فكان من وراء هذه الإشارة خلافة أبي بكر بعد النبي .

وأخبرت عائشة رضى الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت : كان رأس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسندا على صدرى وبقربه قدر ماء وكان يقوم ليضع فيها يده ويمسح جبينه ويقول : (رب أعنى على تحمل سكرات الموت ، ادن منى يا جبريل ، رب اغفر لى واجمع بين أصحابى فى السماء ، ثم ثقلت رأسه ومال ثانية إلى صدرى) ..

نبى الإسلام

فى نظر « تولستوى » الشاعر الروسى العالمى

لقد كان هذا الفيلسوف الروسى كاتبا منصفا . فعندما رأى تحامل أهل الأديان الأخرى على الدين الإسلامى . هزته الغيرة على الحق إلى وضع عجالة عن نبى الإسلام وبعض تاريخ حياته فقال فيها :

«ولد نبى الإسلام فى بلاد العرب من أبوين فقيرين وكان فى حداثة سنه راعيا . يميل إلى العزلة والإنفراد فى البرارى والصحارى ، متأملا فى الله خالق الكون ..

لقد عبد العرب المعاصرون له أربابا كثيرة ، وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها . وأقاموا لها العبادات . وقدموا لها الضحايا المختلفة .

وكان كلما تقدم به العمر ازداد اعتقادا بفساد تلك الأرباب . وأن هناك إلهًا واحدًا حقيقيا لجميع الناس والشعوب .

وقد ازداد إيمان محمد بهذه الفكرة فقام يدعو أمته وأهله إلى فكرته . معلنا أنَّ الله اصطفاه لهدايتهم وعهد إليه إنارة بصائرهم وهدم دياناتهم وعباداتهم الباطلة ... وراح يعلن عن عقيدته وديانته .

وخلاصة هذه الديانة التى نادى بها هذا الرسول هو أن الله واحد ـ لا إله إلا هو ـ ولذلك لا يجوز عبادة غيره ... وبأن الله رحيم بعباده ... وأن مصير الإنسان النهائى متوقف عليه وحده .

فإنَّ الله يؤجره فى الحياة الآخرة أجرًا حسنا ... وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنَّه يعاقب فى الآخرة عقابا أليما .. وأنَّ الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم بعضا ، ومحبة الله تكون بالصلاة ، ومحبة الناس تكون بمشاركتهم فى السراء والضراء ... وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية والأبتعاد عن الملذات الدنيوية .. وأنه يحتم عليهم ألا يخدموا الجسد ويعبدونه . بل عليهم أنْ يخدموا الروح ويهذبوها ..

ومحمد لم يقل عن نفسه أنه نبى الله الوحيد بل أعتقد أيضا بنبوة موسى وعيسى وقال إنَّ اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم .

وفى سنى دعوته الأولى احتمل كثيرا من اضطهادات أصحاب الديانة القديمة شأن كل نبى قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه الأضطهادات لم تثن من عزمه بل ثابر على دعوة أمته ..

وقد امتاز المؤمنون كثيرًا عن العرب بتواضعهم وزهدهم فى الدنيا وحب العمل والقناعة وبذلوا جهدهم فى مساعدة إخوانهم فى الدين عند حلول المصائب بهم .

ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونهم احتراما عظيما ويعظمون قدرهم ، وراح عدد المؤمنين يتزايد يوما بعد يوم .

ومن فضائل الدين الإسلامى أن أوصى خيرا بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم ، فقد أمر بحسن معاملتهم . وقد بلغ من حسن معاملته لهم أنه سمح لاتباعه بالتزوج من أهل الديانات الأخرى ... ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما فى هذا التسامح العظيم .. ثم ختم كلمته قائلا :

لا ريب أن هذا النبى من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا البيئة خدمة جليلة ويكفيه فخرًا أنه هدى أمته برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا . ويكفيه فخرا أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتىَ قوة وحكمة وعلما .. ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام .

ولقد كانت آراء هذا الفيلسوف الروسى موضع تقدير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فكتب لهذا الفيلسوف يقول :

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى :

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكنا لم نحرم التعارف مع روحك سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين العقلاء ونفسك . هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ووفقك إلى الغاية التى هدى البشر إليها . فأدركت أن الإنسان جاء هذا الوجود لينبت بالعلم . ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه . وسعيا يبقى ويربى جنسه . وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة . ربما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها إلا ليسدوا بها . فيما كدر راحتهم . وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد . ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد . ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه . وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه . فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم . وكلما كانت آراؤك ضياء يهتدى بها الضالون كان مثلك فى العمل إماما يقتدى به المسترشدون . وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء كان مددا من عنايته للضعفاء الفقراء . وإنَّ أرفع مجد بلغته . وأكبر جزاء نلته على متاعبك فى النصح والإرشاد . هو هذا الذى سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين فاحمد الله على أنْ فارقوك فى أقوالهم كما كنت فارقتهم فى عقائدهم .

هذا وإنَّ نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك . فيما تستقبل من أيام عمرك . وإنَّا نسأل الله أن يمد فى حياتك ويحفظ عليك قولك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ، ويسوق النفوس إلى التأسى بك فى عملك والسلام .

الخالدون مائة.. أولهم :
النبى محمد صلى الله عليه وسلم

بقلم

مايكل هارت « الكاتب الأمريكى »

لقد اخترت محمدًا « صلى الله عليه وسلم » فى أول هذه القائمة ، ولابد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار . ومعهم حق فى ذلك ــ ولكن محمدًا ــ عليه السلام ــ هو الإنسان الوحيد فى التاريخ الذى نجح نجاحا مطلقا على المستوى الدينى والدنيوى .

وهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات ، وأصبح قائدًا سياسيًا وعسكريًا ودينيًا . وبعد ١٣ قرنًا من وفاته ، فإن أثر محمد ــ عليه السلام ــ ما يزال قويًا متجددًا .

وأكثر هؤلاء الذين اخترتهم قد ولدوا ونشأوا فى مراكز حضارية ومن شعوب متحضرة سياسيًا وفكريًا ، إلا محمدًا « صلى الله عليه وسلم » فهو قد ولد سنة ٥٧٠ ميلادية فى مدينة مكة جنوب شبه الجزيرة العربية فى منطقة متخلفة من العالم القديم ، بعيدة عن مراكز التجارة والحضارة والثقافة والفن .

وقد مات أبوه وهو لم يخرج بعد إلى الوجود ، وأمه وهو فى السادسة من عمره ، وكانت نشأته فى ظروف متواضعة ، وكان لا يقرأ ولا يكتب .

ولم يتحسن وضعه المادى إلا فى الخامسة والعشرين من عمره عندما تزوج أرملة غنية . ولما قارب الأربعين من عمره ، كانت هناك أدلة كثيرة على أنه ذو شخصية فذة بين الناس .

وكان أكثر العرب فى ذلك الوقت وثنيين ، يعبدون الأصنام ، وكان يسكن مكة عدد قليل

من اليهود والنصارى .. وكان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ على علم بهاتين الديانتين .

وفى الأربعين من عمره امتلأ قلبه إيمانًا بأن الله واحد أحد ، وأن وحيًا ينزل عليه من السماء ، وأن الله قد اصطفاه ليحمل رسالة سامية إلى الناس .

وأمضى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثلاث سنوات يدعو لدينه الجديد بين أهله وعدد قليل من الناس .

وفى ٦١٣ ميلادية أذن الله لمحمد «صلى الله عليه وسلم» بأن يجاهر بالدعوة إلى الدين الجديد فتحول قليلون إلى الإسلام .

وفى ٦٢٢ ميلادية هاجر الرسول «صلى الله عليه وسلم» إلى المدينة المنورة وهى تقع على مدى مائتى ميل من مكة المكرمة ، وفى المدينة المنورة اكتسب الإسلام مزيدًا من القوة ، واكتسب رسوله عددًا كبيرًا من الأنصار .

وكانت الهجرة إلى المدينة المنورة نقطة تحول فى حياة الرسول «صلى الله عليه وسلم». وإذا كان الذين تبعوه فى مكة قليلين . فإن الذين ناصروه فى المدينة كانوا كثيرين .

وبسرعة اكتسب الرسول والإسلام قوة ومنعة ، وأصبح محمد «صلى الله عليه وسلم» أقوى وأعمق أثرًا فى قلوب الناس .

وفى السنوات التالية ، تزايد عدد المهاجرين والأنصار ، واشتركوا فى معارك كثيرة بين أهل مكة من الكفار ، وأهل المدينة من المهاجرين والأنصار .

وانتهت كل هذه المعارك فى سنة ٦٣٠ بدخول الرسول منتصرًا الى مكة .

وقبل وفاته بسنتين ونصف السنة شهد محمد «صلى الله عليه وسلم» الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ..... ، ولما توفى الرسول «صلى الله عليه وسلم» كان الإسلام قد انتشر فى جنوب شبه الجزيرة العربية .

وكان البدو من سكان شبه الجزيرة مشهورين بشراستهم فى القتال ، وكانوا ممزقين أيضًا ، رغم أنهم قليلو العدد ، ولم تكن لهم قوة أو سطوة العرب فى الشمال الذين عاشوا على الأرض المزروعة .

ولكن الرسول استطاع لأول مرة فى التاريخ ، أن يوحد بينهم وأن يملأهم بالإيمان ، وأن يهديهم جميعا بالدعوة إلى الإله الواحد . ولذلك استطاعت جيوش المسلمين الصغيرة المؤمنة أن

تقوم بأعظم غزوات عرفتها البشرية ، فاتسعت الأرض تحت أقدام المسلمين من شمالى شبه الجزيرة العربية . وشملت الامبراطورية الفارسية على عهد الساسانيين ، وإلى الشمال الغربى ، واكتسحت بيزنطة والامبراطورية الرومانية الشرقية .

وكان العرب أقل بكثير جدًا من كل هذه الدول التى غزوها وانتصروا عليها . وفى ٦٤٢ انتزع العرب مصر من الامبراطورية البيزنطية ، كما أن العرب سحقوا القوات الفارسية فى موقعة القادسية فى ٦٣٧ ، وفى موقعة نينوى فى ٦٤٢ .

وهذه الانتصارات الساحقة فى عهد الخليفتين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب لم تكن نهاية الزحف الغربى والمد الإسلامى فى العالم .

ففى عام ٧١١ اكتسحت القوات الإسلامية شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلسى ، ثم اتجهت القوات الإسلامية بعد ذلك إلى مضيق جبل طارق ، وعبروا إلى أسبانيا ، وساد أوروبا كلها شعور فى ذلك الوقت بأن القوات الإسلامية تستطيع أن تستولى على العالم المسيحى كله .

ولكن فى ٧٣٢ وفى موقعة تور بفرنسا ، انهزمت الجيوش الإسلامية التى تقدمت إلى قلب فرنسا .

ورغم ذلك فقد استطاع هؤلاء البدو المؤمنون بالله وكتابه ورسوله أن يقيموا امبراطورية واسعة ممتدة من حدود الهند حتى المحيط الأطلسى ، وهى أعظم امبراطورية أقيمت فى التاريخ حتى اليوم ، وفى كل مرة تكتسح هذه القوات بلدًا فإنها تنشر الإسلام بين الناس .

ولم يستقر العرب على هذه الأرض التى غزوها ، إذ سرعان ما انفصلت عنها بلاد فارس ، وإن كانت قد ظلت على إسلامها . وبعد سبعة قرون من الحكم العربى لأسبانيا والمعارك المستمرة ، تقدمت نحوها الجيوش المسيحية فاستولت عليها ، وانهزم المسلمون .

أما مصر والعراق مهدا أقدم الحضارات الإنسانية فقد انفصلتا .... ولكن بقيتا على دين الاسلام .. وكذلك كل شمال أفريقيا .

وظلت الديانة الجديدة تتسع على مدى القرون التالية ، فهناك مئات الملايين فى وسط أفريقيا وباكستان وأندونيسيا .

بل إن الإسلام قد وحّد بين أندونيسيا المتفرقة الجزر والديانات واللهجات .

وفى شبه القارة الهندية انتشر الإسلام وظل على خلاف مع الديانات الأخرى .

والإسلام مثل كل الديانات الكبرى ، كان له أثر عميق فى حياة المؤمنين به ، ولذلك فمؤسسو الديانات الكبرى ودعاتها موجودون فى قائمة المائة الخالدين .

وربما بدا شيئًا غريبًا حقًا .... أن يكون الرسول محمد « صلى الله عليه وسلم » فى رأس هذه القائمة ، رغم أن عدد المسيحيين ضعف عدد المسلمين ، وربما بدا غريبًا أن يكون الرسول ـ عليه السلام ـ هو رقم واحد فى هذه القائمة ، بينما عيسى عليه السلام هو رقم ٣ ، وموسى عليه السلام رقم ١٦ .

ولكن لذلك أسباب : من بينها أن الرسول محمدًا « صلى الله عليه وسلم » قد كان دوره أخطر وأعظم فى نشر الإسلام وتدعيمه وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان لعيسى عليه السلام فى الديانة المسيحية ، وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادئ الأخلاق فى المسيحية ، غير أن القديس بولس هو الذى أرسى أصول الشريعة المسيحية ، وهو أيضا المسئول عن كتابة الكثير مما جاء فى كتب : « العهد الجديد » .

أما الرسول محمد « صلى الله عليه وسلم » فهو المسئول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعى والأخلاق وأصول المعاملات بين الناس فى حياتهم الدينية والدنيوية ، كما أن القرآن الكريم قد نزل عليه وحده . وفى القرآن الكريم وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه فى دنياهم وآخرتهم .

والقرآن الكريم نزل على الرسول « صلى الله عليه وسلم » كاملا ، وسجلت آياته وهو ما يزال حيًا ، وكان تسجيلا فى منتهى الدقة ، فلم يتغير منه حرف واحد ، وليس فى المسيحية شىء مثل ذلك ، فلا يوجد كتاب واحد محكم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن الكريم ، وكان أثر القرآن الكريم على الناس بالغ العمق ، ولذلك كان أثر محمد « صلى الله عليه وسلم » على الإسلام أكثر وأعمق من الأثر الذى تركه عيسى عليه السلام على الديانة المسيحية .

فعلى المستوى الدينى كان أثر محمد « صلى الله عليه وسلم » قويًا فى تاريخ البشرية ، وكذلك كان عيسى عليه السلام .

وكان الرسول محمد عليه السلام على خلاف عيسى عليه السلام ، رجلا دنيويًا فكان زوجًا وأبًا ، وكان يعمل فى التجارة ويرعى الغنم ، وكان يحارب ويصاب فى الحروب ويمرض .... ثم مات ..

مثلا : كان من الممكن أن تستقل مستعمرات أمريكا الجنوبية عن أسبانيا دون أن يتزعم حركاتها الاستقلالية رجل مثل سيمون بوليفار.. هذا ممكن جدًا ، على أن يجئ بعد ذلك أى إنسان ويقوم بنفس العمل .

ولكن من المستحيل أن يقال ذلك عن البدو ... وعن العرب عمومًا . وعن امبراطوريتهم الواسعة ، دون أن يكون هناك محمد «صلى الله عليه وسلم» .. فلم يعرف العالم كله رجلا بهذه العظمة قبل ذلك ، وما كان من الممكن أن تتحقق كل هذه الانتصارات الباهرة بغير زعامته وهدايته وإيمان الجميع به .

ربما ارتضى بعض المؤرخين أمثلة أخرى من الغزوات الساحقة ... كالتى قام بها المغول فى القرن الثالث عشر، والفضل فى ذلك يرجع إلى جنكيز خان .

ورغم أن غزوات جنكيز خان كانت أوسع من غزوات المسلمين ، فإنها لم تدم طويلا . ولذلك كان أثرها أقل خطرًا وعمقًا .

فقد انكمش المغول وعادوا إلى احتلال نفس الرقعة التى كانوا يحتلونها قبل ظهور جنكيز خان .

وليست كذلك غزوات المسلمين ... فالعرب يمتدون من العراق إلى المغرب . وهذا الامتداد يحتوى دولا عربية ، لم يوحد بينها الإسلام فقط ، ولكن وحدت بينها اللغة والتاريخ والحضارة . ومن المؤكد أن إيمان العرب بالقرآن ، هذا الإيمان العميق ، هو الذى حفظ لهم لغتهم وأنقذها من عشرات اللهجات الغامضة . صحيح أن هناك خلافات بين الدول العربية ، وهذا طبيعى . ولكن هذه الخلافات يجب ألا تنسينا الوحدة المتينة بينها .

مثلا : لم تشترك ايران المسلمة وأندونيسيا المسلمة فى فرض حظر البترول ـ على العالم الغربى فيما بين ١٩٧٣ و ١٩٧٤ م ، بينما نجد أن الدول العربية البترولية قد شاركت جميعًا فى هذا الحظر.

وهذا الموقف العربى الموحد يؤكد لنا ، أن الغزوات العربية التى سادت القرن السابع . ما يزال دورها عميقًا وأثرها بليغًا فى تاريخ الإنسانية حتى يومنا هذا .

فهذا الامتزاج بين الدين والدنيا هو الذى جعلنى أومن بأن محمدًا «صلى الله عليه وسلم» هو أعظم الشخصيات أثرًا فى تاريخ الإنسانية كلها ..

ولما كان الرسول محمد «صلى الله عليه وسلم» قوة جبارة ، فيمكن أن يقال أيضًا إنه أعظم زعيم سياسى عرفه التاريخ .

وإذا استعرضنا التاريخ .. فإننا نجد أحداثًا كثيرة من الممكن أن تقع دون أبطالها المعروفين ..



PROPHET'S ADDRESS AT TABUK

Verily the most veracions discourse is that of the Book of Allah. The firmest of handhold is piety. The best of religions is the religion of Ibrahim. The best of traditions are those of Mohammad. The noblest of words are those uttered in remembrance of Allah. The finest of narratives is the Quran. The best of affairs is that which has been decided with a firm resolve. The worst of things is the heresy. The best of guidance is that which is furnished by prophets. The noblest death is the death of martyrs. The most miserable blindness is way-wardness after guidance. The best of actions is that which is beneficial to man. The best guidance is that which is put into practice. The worst blindness is the blindness of heart.

The upper hand is better than the lower hand. The little that suffices is better than what is abundant but makes a man neglectfull of his duty. The worst regret is that which is tendered when death stares one in the face. The worst remorse is that which is felt on the Day of Judgment. Some men do not attend Friday prayers but with hesitance. And some do not remember Allah but with reluctance. Of the great sins is to tell lies. The most valuable possession is the contentment of heart. The best provision is that of piety, and the highest wisdom is the fear of Allah, the Mighty, the Great. The best thing to be cherished in heart is faith and conviction. Doubt is tantamount to disbelief; and wailing over a dead is a practice of the days of Ignorance. Betrayal leads one to the fire of Hell. Drinking of wines amounts to burning in fire.

Poetry is the work of devil. Intoxication is the mother of all evil. The worst thing eaten is that which belongs. to an orphan. Blessed is he who receives admonition from others. The unfortunate is the one who is delivered so from the womb of his mother.

Each one of you will he laid in a space of four cubit (grave). Nothing can be said about an act until it nears its end. The worst dream is the false dream. Whatever is in store will come soon. Abusing a believer is transgression and using arms against him is an act of disbelief. To backbite him is disobedienee to Allah and the inviolability of his property is like that of his blood. He who swears by Allah falsely is in fact denying Him. He who forgives others is forgiven by Allah for his sins. He who pardons others is himself granted pardon. He who represses anger will be rewarded by Allah. He who faces misfortunes with perseverance will be compensated by Allah. He who acts only for a show will be disgraced by Allah. And he who shows patience and forbearance will receive a double reward from Allah. He who disobeys Allah will be chastised by Him.

While they were arguing thus' the Prophet came in. H. Asmà' told him what H. "Umar had said and how she had replied. "Umar cannot claim me better than you", observed the Prophet, "for 'Umar and his fellow refugees emigrated only once, while you people have to your credit a double emigration".

As this conversation got abroad the Abyssinian Muhàjirs came crowding to H. Asma' and had the words of the Prophet repeated to them over and over again. H. Asma' states that nothing on earth was more pleasing to these Muhàjirs than to hear this remark of the Prophet.[1]

H. Anas bin Màlik, the chief attendant of the Prophet, had a maternal aunt, Umm Haràm by name, who was a foster aunt to the Prophet. The Prophet as a rule called on her whenever he paid a visit to Qubà. She used to serve him with food.

The Prophet had a great love for H. Umm Salim, the mother of H. Anas, and used to see her very frequently. She would make a bed for him and he would have a nap there. When he woke up, she used to wipe off his sweat into a phial. She made a will at the time of her death that the perfume for her funeral shroud should be mixed with the sacred perspiration.[2]

H. Mulaykha, the grandmother of H. Anas, once invited the Prophet to a meal, which she prepared with her own hands. Having taken his meal, the Prophet offered to lead a prayer for her. There was only one mat in the house, which had turned black by long use. H. Anas washed it and then the Prophet conducted a short prayer with H. Anas, his grandmother, and an orphaned slave behind him, and then he came back.[3]

(1) Bukh. Battle of Khaybar.
(2) Bukh. B. Asking for Permission.
(3) Bukh. Cfiyer on a mat.

Messenger of Allah", said the man, "It is better for me to part with them. I give them their freedom and you are my witness.[1]

People used to get a male slave married to a slave girl if they chose, and then sometimes forced them to separate. A slave forced to dissolve his marriage with his slave wife, came to the Prophet with a complaint. The Prophet delivered a sermon "Why", said he, "do people get their slaves married and then try to separate them? Marriage and divorce belong only to the husband by right".[2]

This generous attitude towards them attracted many a run-away slave who fled from his heathen master, surrendered himself to the Prophet and got his freedom.[3] Freed slaves were allowed a share of booty[4] and the newly freed ones were given precedence in material rewards in view of their lack of means.

Treatment of Women. The recorded life stories of the great ones sedom take notice of the hero's attitude towards the weaker sex simply because woman had all along occupied a degraded position. Islam was the first religious system that gave her rights, and entitled her to a place of equal honour with men. Hence we have to see how the Prophet of Islam behaved with this sex.

The report that appears in Bukhàrî regarding the Prophet's temporary separation from his wives records a statement of H. 'Umar saying that the Meccans had no regard for their women. At Medina they were treated comparatively with respect, though not so well as they deserved. The Prophet established their rights by personal example. We invariably find a good deal of information about the wives of the Prophet in every work. Here we reproduce some facts of general interest.

The Prophet being always surrounded by a large number of men, the womenfolk had much difficulty in getting access to him for instruction and guidance. Consequently they asked for a specified day to be set apart for their attendance because they could not otherwise approach him and get the better of men. The request was granted and a day fixed for them.[5]

H. Asma' bint 'Umays was one of the emigrants who had moved to Abyssinia in the early days of Islam. She returned to Medina with the other emigrants at the time of the battle of Khaybar. One day she called on H. Hafsah, when H. 'Umar happened to be there. He asked who she was. H. Hafsah told him her name, "I see", said H. 'Umar "The Asmà from across the sea, from Abyssinia". "Yes the same Asmà", she replied. "We have emigrated earlier than you", said H. "Umar, "and therefore have better reason to claim the Prophet". "Not at all", said Asmà in an angry tone, "you were all living with the Prophet, who fed you when you were hungry. But think of us, far from home, living among the alien Abyssinians, constantly oppressed and ever threatened with death".

---

(1) Ib. Han. vol. VI. p. 280.
(2) Ib. Maj. B. Divorce.
(3) Ab. D.B. Religious War, and Musnad Ib. Han. Vol. I.p. 243.
(4) Ab. Ch. Division of Fay (the lands acquired by conquest).
(5) Bukh. B. knowledge. One Day set apart for women.

Zayd'a son, was a great favourite of the Prophet "Had Usàmah been a girl", he used to say, "I would have provided him with ornaments". He often wiped his nose with his own hand.

Slaves, when addressed as slaves, were pinched with a feeling of self-abasement, The Prophet could not bear that their sense of self-respect should be so wounded. He ordained that they were no longer to be so addressed, and that the word slave ought to be replaced by the word "My child". The slave too was to address his master as master not as Lord or Khudawand, for that was an epithet fit for God alone. His concern for the slaves may be guaged from the fact that the last words he spoke on his death bed were an exhortation to fear God in the matter of slaves.

The Companion H. Abü Dharr was one of the early converts, and the Prophet appreciated his veracity. Once he abused a freed slave of Iranian descent, who came to the Prophet with a complaint. The Prophet reprimanded him saying "You havn't yet shaken off your manners of the days of Ignorance. These slaves are your brothers though God has placed you above them; you should dispose them off if they are not to your liking; but you should never torment human beings. Feed them as you feed yourselves and clothe them as you clothe yourselves. Don't over-burden them with work beyond their capacity, and in case you want them to do something they can not physically do, you should yourself share their labour."[1]

H. Abü Mas'ud Ansàri was once beating one of his slaves, when a voice from behind called out, "Abü Mas'üd, God has more power over you than have you over this slave". Abü Mas'üd turned round to find that it was the Prophet calling. "In the name of Allah", said H. Abü Mas'üd "I give him his freedom". "Had you not done so", the Prophet replied, "you might have been touched by the fire of hell".

A man came to him and wanted to know how often he should forgive his slaves for their faults. The Prophet made no answer. He repeated his question twice again, and then the Prophet said, "Seventy times each day".

A family of seven members had only one slave girl to serve the whole house. One of them once struck her with a stone. The Prophet came to know of it and advised them to set her free. They protested for she was the single servant between the seven of the family, The Prophet allowed them to avail of her services only as long as they could not do without her, and said that she would be a free woman the moment they ceased to require a servant.[2]

A man owned two slaves who were a running sore for him. He abused them, he beat them, but they were incorrigible. He referred his grievance to the Prophet and asked what he was to do with them. The Prophet said, "In case the punishment you inflict is commensurate to their offence, it may not matter; but if it exceeds the offence, you shall be punished by God in proportion to the excess". This robbed the man of his peace and he burst into tears. "This man does not peruse the Qur'àn", the Prophet observed. "O

---

(1) Bukh. Ch. Vices inherited from Days of Ignorance. And Ab. D. B. Rules of Conduct.

(2) Ab. D.B. Rules of Conduct. Ch. Rights of Slaves.

pray longer, he cut his prayer short as soon as he heard a child crying in the eongregation, for he thought of the pain it might be causing to the mother.[1]

And this love was not confined to Muslim children only; he was equally tender towards the children of the Infidels. In one of the encounters a few children were somehow killed in a melee. It grieved him a great deal when he knew of it "They were the children of the unbelievers", the Companions said. "The children of the Unbelievers" said the Prophet, "are better than you grown-ups. Beware, never kill a child! Beware never kill a child! Every living creature is born a godly nature".[2]

Whenever an early fruit of the season was presented to the Prophet, he would as a rule offer it to the youngest of the company.[3] He kissed and caressed little children. A bedouin on seeing him caressing some children remarked that they were a strange people to fondle their children like that. He said he had ten of them, but not even once had he given any of them a kiss. "If God leaves your heart barren of love, I can't help you,"[4] was the Prophet's reply.

H. Jàbir b. Samurah, a Companion, tells us that once in his childhood he joined a prayer led by the Prophet. He followed the Prophet as he walked homeward after the prayer, and was in the meantime joined by a few other children. The Prophet caressed them all including Jàbir himself.[5]

Litte girls of Medina ran out of their houses to welcome the Prophet with gleeful songs when he made his first entry into the town. "Do you love me, you little girls?" the Prophet asked. "Yes, we do, O Messenger of Allah", they replied. "So do I love you", the Prophet assured them.[6]

H. 'A'ishah was a young girl when she came to live with the Prophet and was often at play with the girls from the neighbouring houses. When the Prophet entered her house, these girls would try to slink off out of modesty. He would appease their fear and encourage them to play on.[7]

Generous Treatment of the Slaves. He was particularly kind to slaves. "They are your brothers", he used to say, "feed them as you feed yourselves and clothe them as you clothe yourselves". The slaves that fell to his lot were invariably set free. Yet they remained ever bound in gratitude for his generosity and kindness; the ties of love for home and parents, kith and kin, were all broken for the privilege of serving the Prophet, and they served him all their lives. H. Zayed bin Hàritha whom the Prophet had given his freedom refused to leave for home when his father tried to take him away. Sweet home and tender parental care he would forego, but not the Prophet's service. H. Usàmah,

---

(1) Bukh. B. Prayer.
(2) Musnad. Ib. Han., Vol III, P.435.
(3) Mu'jam Saghir Tab Ch. al-Mim Mu'jam Muhammad.
(4) Bukh. and Mus. B.Rules of Conduct.
(5) Mus. Ch. Fragrance from the Prophet's body.
(6) Seerat vol. I.Emigration
(7) Ab.D.B. Rules of Conduct. Ch. playful Pursuits.

H. 'Umar remonstrated why the Prophet was doing so, reminding him of how the Hypocrite had behaved in word and deed. The Prophet said, "Umar, if I knew that I could save his soul from perdition by seventy prayers I would pray more than seventy times"[1].

Kindness to Children. The Prophet was most kind to children. Whenever he rode home on a return journey he would give a lift to some child on the way, and whenever he passed by them along a street he would greet them with a salutation.[2]

H. Khālid bin Sa'id once came with his little daughter with him. She had a red shirt on her body. The Prophet hailed her calling her "Sana" for the Abyssinians pronounced the word "hasana" without the aspirate 'h', and she had been born in Abyssinia. After the manner of children when they find something novel, she began to twiddle with the fleshy excrescence on the back of the Prophet, which was the symbol of his divine office. She was reprimanded by H. Khālid; but the Prophet silenced him and she was allowed to continue her fun.[3]

Once the Prophet received a present of clothes which included a black mantle-sheet with a broad fringe along the width. "Who should have it.?" asked the Prophet. None made answer. Then he told them to call Umm Khālid.[4] She came. The Prophet put the mantle on her and said twice, "Use it till it is worn out". Again and again he pointed at the floral patterns on the sheet and said, "Look here, Umm-Khālid, it is Sana".[5] Sana, as already said, was the Abyssinian variant of the Arabic hasan, meaning beautiful. Abyssinia was the land of Umm-Khālid's birth, where she had passed the early months of her life and this association suggested the use of the Abyssinian word.

The story of the Companion, who in his childhood, used to fetch down dates with stones in the groves of the Ansāris, has already been narrated. He was advised to pick up the fruit lying on the ground and dismissed with a blessing and a loving pat on the head.[6]

Expressions of filial love between mother and child always touched the Prophet to the heart. A very poor woman once came to H. 'A'ishah with two little daughters. 'A'ishah had nothing to offer except a date that happened to have been left on the floor. The woman broke it into two and gave a piece to each of the children. In the meantime the Prophet came in and H. 'A'ishah related to him the woman's story. "A man who cherishes love for his children and does his duty to them shall be saved from the fire of Hell,[7]" was the observation of the Prophet.

He used to say, according to a report by H. Anas, that sometimes, when he intended to

---

(1) Bukh. B.Funerals.
(2) Ab.D.B.Ruleus of Conduct.
(3) Bukh. vol II,p.886,
(4) She was so small that she was taken to the Prophet in arms, See Isabah, of Umm Khalid.
(5) Bukh. B.Clothing. Sana is the Abyssinian word for beautiful,
(6) Ab. D. B. Religious War.
(7) Bukh. P.887.

Prophet lifted his hands in prayer and God brought their misery to an end.[1]

At Uhud he was pelted with stones, shot at with arrows, attacked with swords, wounded in the forehead, and had to lose a tooth ; but the only shield with which he met the onslaughts of the enemy was the prayer:

"O God, guide Thou my people, for they are ignorant."

Here we may also refer to Tà'if, Tà'if which had responded to the call to Truth with derision and ridicule, had refused shelter to the preacher, and had drenched his feet in his own blood. An angel from heaven appeared and asked if he wished a curse to befall the town. If so, divine wrath might manifest itself in a huge cataclysm that would bury it under the neighbouring hills. But the Prophet would not like it ; he said the city might some day produce a true worshipper of God[2]. A decade later, the town was again answreing to the message of Truth with a rain of shots from bows and catapults, thinning the ranks of the Faithful at every volley. The Companions asked him to invoke a curse upon them. His hands went up, and they all expected he would be cursing. But he said, "O God! let the Thaqîf (the people of Tà'if) be enlightened with Islam, and let them come to Medina as friends". What the bow and arrow could not accomplish in the field of battle, was at last brought into effect in the mosque of Medina by the words of the Prophet, that is, they came and submitted to Islam in the mosque where they had been lodged.[3]

The Daws people lived in Yemen. Tufayl bin 'Amr Dawsi, their chief, had long been converted ; but his efforts to persuade his tribesmen were proving fruitless ; they stuck to their old beliefs as fast as ever. Tufayl was obliged to come to the Prophet with a request to pronounce a curse on them. It was then believed that the destruction of the Daws was absolutely sure. But the Prophet prayed in the words: "O God, let the Daws be guided and send them to Medina".[4]

H. Abu Hurayrah's mother was an unbeliever. The more she was preached to, the more adamant she grew. One day she was boldenld enough to insult the Prophet, which brought tears to H. Abù Hurayrah's eyes. He came to the Prophet weeping, and related the story. The Prophet prayed: "O God, let Abù Hurayrah's mother be guided unto Truth" H. Abu Hurayrah made for home filled with joy. He found the door shut ; his mother was taking a bath. When she had done with her ablution, she opened the door and recited the Muslim Creed.[5]

'Abdallah bin Salül remained a Hypocrite all his life. He missed no opportunity of plotting underhand against the Prophet or openly insulting him. He was in secret correspondence with the Qurash, deserted the Muslim force with his followers at Uhud, played the leading role among the accusors of H. 'A'ishah, yet the long list of his crimes was always overlooked by the Prophet, who himself led the funeral prayer when he died.

---

(1) Bukh. Comments on S. Dukhàn.
(2) Bukh.
(3) Ib. S. Battle of Tà'if.
(4) Mus., Daws Eulogised.
(5) Mus. Abu Hurayrah Eulogised.

exchange of words, the Companions taking a nap near by had rushed up to the place and the Prophet could have ordered a penalty of death, but he let the man go unharmed.[1]

On another occassion, an intending assassin was produced by the Companions. He felt overawed in the presence of the Prophet, who said, "Don't be afraid. You could not have killed me even if you had attempted."[2]

At Hudaybiyah, in the dimness of early morning, a contingent consisting of eighty men moved down the mount of Tan'im with the intention of putting the Prophet to death. They were all taken prisoners. However, the Prophet set them all free, as if he had no scores to settle with them. The Qur'án refers to it in the words,[3]

And it was He Who has restrained their hands from you and your hands from them. (Fath: 24)

At Khaybar, we may recall, a Jewess put poison in his food, and the Jews had to confess it. But none of them was made to suffer for the guilt. The Jewess was ordered to be executed only when one of the Companions died under the influence of the poison. It may be noted that the Prophet continued to suffer from the injurious effects of the poison till the end of his life.[4]

Good Wishes for the Enemies. It is in man's nature to wish ill for his enemy. The Prophets, being far above the common run, give their blessings to those who abuse them and their love to those who thirst for their blood. The ceaseless torment to which the Prophet of Islam had been subjected at Mecca before his move to Medina is a tale of woe too pathetic for any ear, however unsympathetic. H. Khabbàb bin Aratt, a Companion, had suggested to the Prophet to invoke God against his oppressors, and the Prophet had flushed with anger at his words.[5] On another occasion a similar request was made to him by several men together, to which he replied, "I have been sent unto men to be Mercy for them and not to be a Curse."[6]

The Quràysh were visited with a severe famine, a divine vengeance for their inhuman conduct in having kept the Prophet and his family interned in a cave for three years, when not a grain of corn they would allow to pass to their victims. So severe was the scarcity of food that the Meccans had to feed on carrion and bone. Abu Sufyàn had to approach the Prophet with a request to pray for their deliverance from the evil dispensation which, he said was destroying the Prophet's own tribesmen. Without a moment's hesitation, the

---

(1) Bukh. B. Religious War (al-Jihàd) p. 208 -This bedouin warrior has been diffeerently named. Qàzi Mohammad Suleiman calls him Ghawth bin al-Harth and adds that he reeled to the ground in terror, when phe Prophet seizing his sword addressed the same question to him and found him utterly dumb-founded. The Prophet then let him go declaring that it was not his way to seek a revenge. (Remhatul 'Alamin, vol. I, p. 345, Tr.)

(2) Musnad, Ib. Han, v 1. III,p 471.

(3) Jami Tir. comments on S. Fath.

(4) Bukh. Passing Away of the Prophet.

(5) Bukh. Advent of the Prophet.

(6) Mish. from Hus. Ch. Manners of the Prophet.

H. Jarir relates that a number of Companions including himself were sitting with the Prophet in the forenoon, when a whole tribe arrived like itinerant wanderers. They presented a sad spectacle: all in tatters and barefooted, bodies covered with dry skins, and swords dangling from their necks. The Prophet was deeply touched, his face changed colour, and in a mental anguish he walked up and down. Then he ordered H. Bilâl to cry the call for prayer, after which he delivered a sermon persuading the Faithful to help them.[1]

Deadly Foes Forgiven. Who else, if not the Prophets, can forgive those who seek their lives? The night the Prophet left Mecca, the Infidels were dead sure that the sun would rise to see his head severed from the body. A party of assailants with murderous design kept his house in a state of siege all night long. That time indeed, the Prophet was not in a position to retaliate; but some years later, he had all those deadly foes at the mercy of Muslim swords, and his sweet will could let them live or doom them to death. But the striking fact stands out that not a single Meccan was ever put to the sword on the charge of having plotted his murder.

Again, when he had made his escape, the Quraysh announced a price for his head, promising a hundred camels to anyone who would produce his head or capture him alive. Suraqah bin Ju'sham, riding his swift-footed steed, and holding his lance balanced in his hand, was the first to overtake him; but more than once he was defeated in his object by a miraculous power. He had to repent of his wicked intention at last, and requested for a written pledge of personal security, which was given him.[2] Eight years later, at the fall of Mecca, he embraced Islam: but there was not a word said about his criminal conduct in the past.[3]

'Umayr bin Wahb was one of the Prophet's deadliest enemies. When the entire horde of the Quraysh was fuming and fretting to have a revenge for the victims of Badr, it was 'Umayr who was despatched by Safwân bin Umayyah to put the Prophet to death by stealth, for which he was promised an enormous reward. He reached Medina with his sword dipped in poison. But his face and looks betrayed his design. H. 'Umar had a mind to deal severely with him; but was forbidden by the Prophet, who asked 'Umayr to come nearer, had him seated by his side, talked to him, and exposed to him his secret mission. He was simply dumbfounded to hear the Prophet and the more so to find that the Prophet did not take him to task, which persuaded him into Islam. 'Umayr went back, now a missionary preaching the new faith.[4] This happened in the third year of the Hijrah.

It has already been narrated how the Prophet, while reposing under a tree, woke up to find his life threatened by a bedouin with a naked sword in hand. "Who is to save you from me now, Muhammad?", the bedouin had said, gloating over the odds in his favour. But the calm and confident reply "It is Allah" had unnerved him. Aroused by the

(1) Mus. Charities.
(2) Bukh. Ch. Emigration.
(3) See Isti'ab and Isabah for Suraqah bi Mâlik bin Ju'sham Mudlaji.
(4) Tab, on the authority of 'Urwah bin Zubayr.

deserved not to be listened to if he had something to say." "It would be far better for this earth", remarked the Prophet, "to have a single inhabitant like this poor man than to be peopled all over with men like the other one, the man of wealth".(1)

The Prophet often prayed to God "Grant that I live a poor man, rise a poor man, and stand with the poor on the Day of Judgement". "Why do you say so ?" asked H. 'A'ishah". "Because the poor shall be the first to enter Paradise", said the Prophet, and added further, "Don't turn a poor man disappointed from your door, 'A'ishah, be it a bit of date that you give. Love the poor, let them be near unto you and God shall have you near unto Him".(2)

Some Muslims living in penury once complained to the Prophet that those blessed with riches were likely to fare better in the Hereafter too. They did their praying and fasting just as much as the poor, but the poor were unable to claim the grace which the rich earned through alms and charities. "Should I not tell you how to be equal to those who have gone before you and excel those who will come after, so that none shall be able to claim parity with you?." "Do tell us please", they replied, and the Prophet advised them to glorify Allah thirty three times after each prayer with the words: "Holy is Allah, All praise to Allah, and Great is Allah". Shortly after they approached again saying that their rich brethren had heard them repeating the formula and taken to reciting it. "It is God's bounty", observed the Prophet, "He may bestow it on anyone He chooses."(3)

Regarding the poor-tax charged from the believers, the Prophet had made it a general rule that it was to be levied on the rich and given away to the poor of the same tribe or town that contributed it.

This rule was strictly observed by the Companions and the poor-money was not transferred from one place to another.(4)

When speaking of the principle of equality, we have already narrated how H. Abu Bakr once addressed a harsh reprimand to Salman and Bilål, who belonged to the indigent class among the Muhajirs. The Prophet expressed the hope that he had not offended them, at which H. Abu Bakr hastened back to them, asked to be excused, and they forgave him.

A woman living at 'Awali was taken ill and there was no hope of her recovery. It was feared she might die any moment. The Prophet told her people not to bury her before he came to lead the funeral prayer. The woman happened to expire late at night, when the Prophet had retired to bed. The Companions thought it would not be good to put him to so much inconvenience and had her buried during the night. When the Prophet was told in the morning what they had done, he rose to his feet, walked to the place of burial with the Companions and conducted a second funeral prayer.(5)

---

(1) Mish. on the authority of Bukh. and Mus.
(2) Mish. Ch. The poor exalted, quoted from Tir., Bayh. and Ib. Måj.
(3) Bukh. and Mus. Chs Rememberance of Allah after Prayers commended.
(4) Ab. D. Ch. Zakåt, Compulsory alms.
(5) Also Bukh. the version given here is borrowed from Nas. B. Funerals, Ch. Praying at Night.

destitute was such that they did not feel the pinch of their misery. A human being after all, on one occasion he did not act as usual and was consequently warned by God. It happened at Mecca, when seated with a number of leading chiefs, he was explaning Islam to them. Ibn. Umm Muktūm, a poor blind man, arrived there and joined the conversation. The Qurayshite chiefs, always haughty and conceited, did not like this intrusion. In the hope that their obstinacy might give way to let the light of Truth penetrate to their hearts, the Prophet was exclusively attentive to them and ignored Ibn Umm Maktu·m. This occasioned the following revelation.[1]

(The Prophet) frowned and turned away, because there came to him the blind man (interrupting). But what could tell thee, but that perchance he might grow (in spiritual understanding)? Or that he might receive admonition, and teaching might profit him? As to one who regards himself as self-sufficient, to him dost thou attend; though it is no blame to thee if he grow not (in spiritual understanding). But as to him who came to thee striving earnestly, and with fear in his heart, of him wast thou unmindful. By no means should it be so! For it is indeed a Message of instruction. ('Abasa. 1 - 11)

It was from this class of poverty-stricken miserable people that Islam got its first converts. They were mocked at for their wretched exterior by the Quraysh when they appeared in the Ka'bah to say their prayers with the Prophet. The Quraysh would say: " Are these the men whom God hath favoured, from amongst us." But the Prophet patiently bore all that mocking and ridiculing.

Sa'd bin Abi Waqqas had rather an exalted sense of himself and would not treat the poor as his equals. The Prophet admonished him in the words, "The success and substance that you enjoy comes to you through none but the poor."[2]

To H. Usamah bin Zayd he said, "I looked into paradise through its gate and found that the people admitted to it were mostly poor men".[3]

There is a report from H. 'Abdallah b. al-'Amr bin al-'As that he was sitting in the mosque of the Prophet while a number of poor Muhajirs sat in a ring a little away. The Prophet came in and seated himself with the Muhajirs. H. 'Abdallah rose from his place and joined the group of the Muhajirs. "Good news to the destitute Muhajirs" said the Prophet. "They shall enter Paradise forty years before the wealthy". H. 'Abdallah noticed that their faces were lit with joy, and he wished he could be one of them.[4]

Once the Prophet asked a person sitting beside him what he thought of a certain fellow who was passing by. He said, "He is one of the wealthy class, and by God, a man to be welcome if he proposes to a woman, and to be obliged if he recommends a person for a favour". The Prophet made no comment on his opinion. Another person passed by shortly after. The Prophet again asked what the man had to say of him. "He is," he said, "one of the poor Muhajirs whose suit should be rejected, and his recommendation disregarded, and who

---

(1) Tir. Comments on Ch. 'Abasa.
(2) Mish from Mus. Ch. The Poor exalted.
(3) Ibid. from Mus. and Bukh.
(4) Ibid. from Ḍarmi.

Treatment with the Jews and the Christians. Facts show that the Prophet's benign nature did not discriminate between friends and foes, heathens and Muslims, relations and strangers. The intense malice shown by the Jews towards him down to the fall of Khaybar is a patent fact writ large on the pages of Muslim history.

A jew, as already narrated, once publicly pronounced an oath in the words: 'I swear by the Lord who made Moses the most exalted of the Prophets.' A companion, who heard him, could not help questioning whether he meant to proclaim the superiority of Moses over the Prophet of Islam too. He said he did, which made the Companion's blood boil and in a fit of fury he rapped him on the knuckles. So great was the confidence in the Prophet's sense of justice, shared even by his enemies, that the Jew went straight to him and told his story, and the Prophet was very angry with the Companion.[1].

Once the Prophet visited the son of a Jew who had been taken ill and asked him to embrace Islam. He looked towards his father, as though asking for permission, and the father advised him to do what the Prophet wanted. The young man submitted and recited the Muslim formula of faith.[2]

There is a report saying that the Prophet once rose to his feet as the dead body of a Jew was being carried past.[3]

On one occasion some Jews approached him and accosted him with the words Assam-o 'alaykum (a phrase which means death on you) instead of Assaläm-o- 'alaykum! (which means peace on you). H. 'A'ishah got angry and retorted with a strong reproach. The Prophet stopped her telling her not to behave as a shrew, but to be soft and tender, for tenderness was commendable to God in all things.[4]

With the Jews he contracted debts, bore their unwarranted rudeness, and never showed undue favours to Muslims when quarrels cropped up between the Jews and the Muslims.

Once another Jew complained against a Muslim saying that he had slapped him on the face. The Muslim was instantly summoned and reprimanded.

The Christian delegation from Najrän was not only entertained personally by the Prophet and lodged in the mosque, but also were permitted to conduct their prayers there, and the Muslims who tried to stop their worship were advised to raise no objection.[5]

The Muslims were allowed to eat, to marry, and to have social contacts with the Jews and the Christians, and the Muslim law was made to include special provisions for dealing with them.

Love for the Poor. The Muslims were a mixed community of the well-off and the poor; but the Prophet held the scales even between them. Moreover, his conduct towards the

---

(1) Bukh.

(2) Bukh. B. Funerals.

(3) Ibid.

(4) Mus. B. Rules of conduct Vol. II. 239. Egypt:

(5) Zȧd al-Ma'ȧd.

EXCERPTS FROM SIRATUN-NABI

BY: SHIBLI NUMANI

Once during a campaign a Muhajir slapped an Ansàri. The Ansàri called out to another Ansaris to come to his help; the Muhàjir likewise sent up a cry appealing to the Muhàjirs. A clash of arms was now imminent. The Prophet intervened admonishing them not to behave as they used to do in the days of Ignorance, and the peril of a scuffle was averted. The news was taken to 'Abdalla bin Ubayy. "Let us get back to Medina", he said, "and I'll see to it that these mean Muslims are thrown out". Then he turned to his comrades and pointed out that the easiest method was to withdraw the patronage given to the Muhàjirs, which would automatically bring about their ruin. The Qur'an refers to this incident when it says:

"They are the ones who say, Spend nothing on those who are with God's Apostle to the end that they may disperse (and quit Medina)" (Munàfiqün 7)

"They say, "If we return to Medina, surely the more honourable (element) will expell therefrom the meaner". (Ibid. 8)

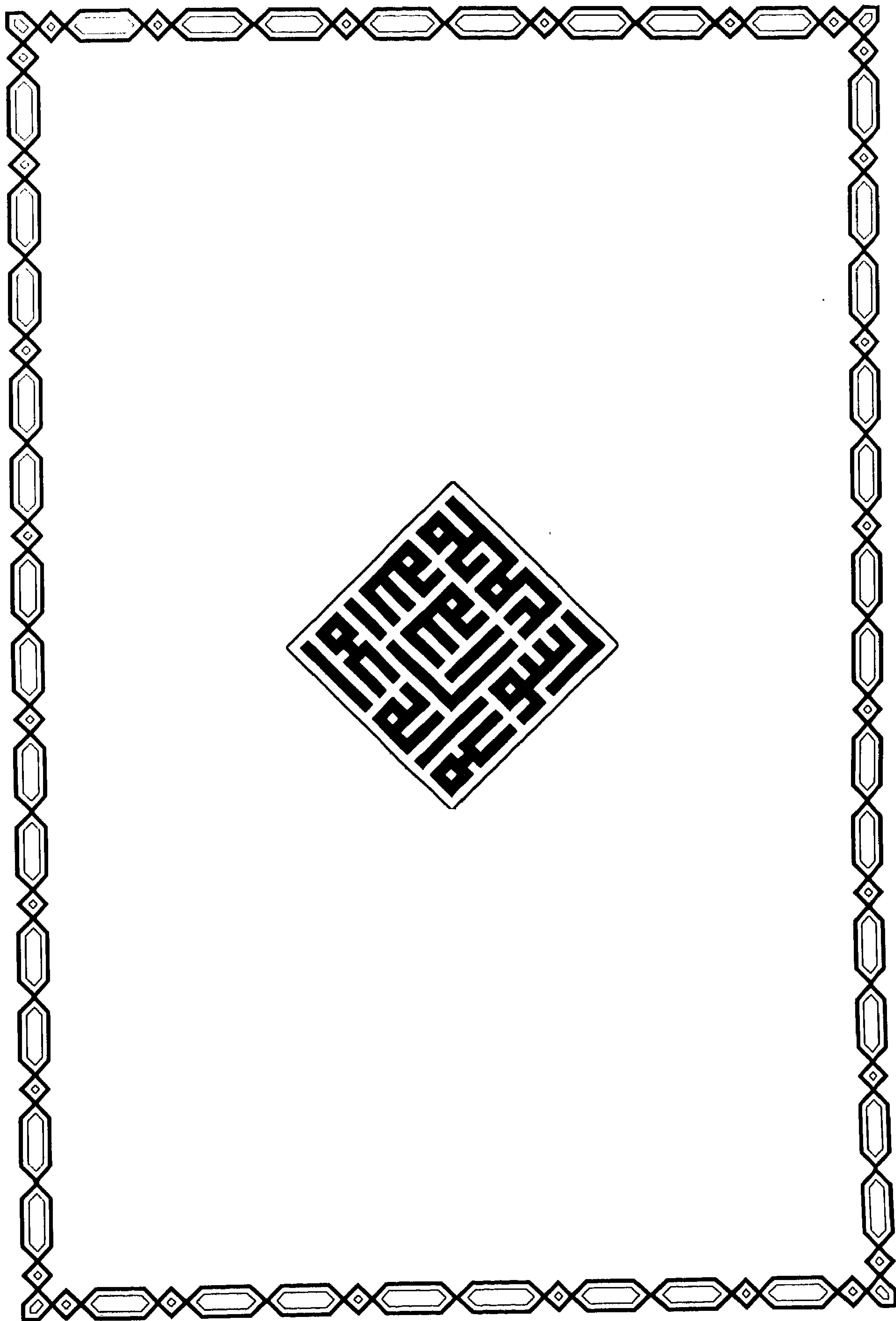
The Prophet sent for 'Abdallah and asked him if he had spoken the words in question, which 'Abdallah totally disowned. H. 'Umar, who was present there, asked for permission to make short work of 'Abdallah. The Prophet said he did not like people saying that Muhammad used to kill his own partisans and hence would not allow H. 'Umar to have his way.(1)

At the battle of Uhud, this 'Abdallah, with three hundred followers had deserted the Prophet at the crucial moment when the parties were about to close in. This was a serious loss to the Muslim strength. Nevertheless the Prophet overlooked his faults, and when he died, clothed his dead body in his own shirt in return for the gift of a shirt he had once made to H. 'Abbas, the Prophet's uncle.(2)

---

(1)Bukh. Comments on Surah Munàfiqün.

(2)The incident is repeated in Bukh. in several chs. through several chains.



hears, his sight with which he sees, his legs with which he walks and his hands with which he grasps ... "

The tradition refers to God-consciousness through constant remembrance of the Lord which is the ultimate aim of all religious experience.

And to quote yet another Tradition of the Prophet of the *Qudsi* category: —

"My Earth contains Me not, neither My Heavens ... What does contain Me is the heart of My believing and humble servant" (in his believing heart I reside).

Mark the exalted position and glory of the human heart which this Tradition of the Prophet reveals.

not know and thus I have shaved before I offered the sacrifice' Whereupon the Prophet said, 'Offer the sacrifice; it does not matter'. Then came another and said, 'I did not know, and thus I have sacrificed the camel before I pelted the stones (at the devil)' He said, 'Pelt the stones, it does not matter' He was not asked anything (concerning the ritual of the pilgrimage) on that day, either it was done in advance or delayed, except that he said; Do it; it does not matter."

I have quoted this long Hadíth in order to point out the mind of the Master in regard to details. What a contrast does this aproach offer to the rigidity that is now being observed today!

Now compare these traditions that are accepted by the critics of the Hadíth (the *Muhaddithín)* with the ones not accepted by them in the light of the standards of "Criticism and Impugnment" referred to earlier. Here is one such Hadíth:

"One who talks in the mosque about mundane affairs, his virtuous deeds of forty years will be obliterated (cancelled)." Now this Hadíth, though introduced with pious motives, is considered as *da'if* (weak), because it comes under the rule of criticism laid down which says that the Hadíth that speaks of great punishment for small lapses, or the Hadíth that offers big rewards for ordinary virtues, are to be discredited.

Compare the above Tradition with the following reported by the Imám Ahmad Ibn Hanbal in his *Musnad:*

"Abú Umámah (a Companion of the Prophet) reported that a man asked the Prophet; 'What is faith?' He replied: 'When your good act gives you pleasure and when your evil deed grieves you, you are a man of faith.' He enquired; 'What is sin? He replied; 'When anything smites you within yourself, avoid it'"

And another from the same source (Ahmad Ibn Hanbal): Mu'áz Ibn Jabal (the celebrated Companion of the Prophet) reported that he asked the Prophet about the most excellent *imán* (faith). He said; "It is love for God and hate for God, and engage your tongue in the remembrance of God." He enquired; "What is that, O Prophet of God?" Whereupon he replied; "It is that you love for men what you love for yourself and hate them what you hate for yourself."

The difference between the accepted Hadíth and that which is rejected is thus clear.

The Hadith known as Qudsí Hadith

I shall close this all too brief dissertation on Hadíth literature by quoting below a couple of traditions of the Prophet called the Hadíth *Qudsí* to which referenc has been made earlier. This is a special category of the Hadíth, which is midway between the Qur'án and the Tradition of the Prophet. Though it is not counted for legal purposes (and, indeed, it was not so meant) but, nevertheless, it is fraught with deep spiritual significance and import and the Súfís of Islam have laid great store by it. And it is as follows:

"When My servant continues to draw near to Me (God) through works of supererogation (constant prayers) until I love him; and when I love him, I become his hearing with which he

so-called (literally that which reclines or rests upon). The most important works of this class is the *Musnad* of the Imám Ahmad Ibn Hanbal. He died in 855 C.E. and is the founder of one of the four Schools of Muslim Law. His work contains about thirty thousand reports on the Hadíth. The other type of books on the Hadíth, viz., the *jámi'* (literally, one that collects together) otherwise also known as *Musannaf* (i.e. that which is compiled or edited) are arranged subject-wise and are more critical in their approach. It is to this type of collection like *Jámi'* or the *Musannaf* that the honour of bringing the knowledge of Hadíth to perfection belongs. To this class belong the Six Canonical works of the Hadíth-the famous *Siháh Sittah*-the Six Sound or Correct Ones. For the last thousand years or more, ever since their publication towards the middle of the third and beginning of the fourth century of Islam, their claim as the standard works of the Hadíth stands undisputed in the Muslim world.

A few Hadíth illustrating their various categories

In conclusion, I shall quote a few Hadíth, with a view briefly to illustrating some of the categories of Traditions and also to provide an idea of the contents of the Hadíth. Here is a part of Hadíth with which the Imám Bukhári began his famous *Sahíh*. This is the Hadíth *Mutáwatir* (continuous) and hence no transmitters need be mentioned.

'Umar Ibn Khattáb (the well-known Companion of the Prophet and the second Caliph of Islam) reported that the Messenger of God said, "Actions shall be judged by intentions. Man shall be rewarded for what he intended. Thus whosoever's *hijrah* (migration to Medina from Mecca) is for God and His Messenger, his *hijrah* is towards the world which he seeks or towards a woman whom he intends to marry, his *hijrah* is towards that for which he makes the *hijrah*" (agreed upon by both Bukhári and Muslim).

Here is again a *Mutawátir* (continuous) Hadíth not requiring any mention of the chain of transmitters:-

"On the authority of 'Abdulláh Ibn 'Abbás (the famous Companion of the Prophet) who said, 'The Prophet addressed the concourse of the people on the occasion of the (Farewell) Pilgrimage and said, O People! What day is this? They replied: The sacred day. Then he said: What city is this? They replied: the Sacred City. Then he asked: What month is this? They replied: The sacred month. He said: Then certainly your lives, your property and your honour are sacred even as this place, this city and this month are sacred.' Then he raised his head (heavenward) and said, O Lord! have I conveyed the message? — O Lord! have I conveyed the message? ... Those of you who are present, convey it to those who are absent. Do not after me, turn transgressors, killing one another." This was his Farewell Message delivered on the occasion of his last pilgrimage where over a hundred thousand of his followers had assembled to listen to him. Therein, he, among other things, had emphasised the sacredness of life, of property and honour.

Take another Hadith

'Abdulláh Ibn Yúsuf reported to us that Málik Ibn Shiháb reported to him on the authority of 'Isá Ibn Talhah on the authority of 'Abdulláh, son of 'Amr Ibn 'As (the well-known Companion of the Prophet) said that the Prophet of God made a stay on the day of the Last Pilgrimage when people started asking him questions. "Then one man said, 'I did

ome spiritual idea. Here the Prophet speaks in the words of God. Though not the Qur'án, it is modelled on its pattern. It is midway between the Qur'án and the Hadíth proper.

What Hadith cannot be accepted as true

The *Muhaddithun* (scholars and collectors of the Hadith) had also further laid down that a Hadith may not be acceptable under the following circumstances:

1. if it is opposed to recognized historical facts,
2. if it contained accusations against the Companions of the Prophet or members of his family i.e. if it contained partisan views,
3. if it was against reason or against the express and plain teachings of Islam,
4. if it contained warnings of heavy punshment for ordinary lapses of conduct or mighty rewards for ordinary acts of piety, and,
5. if the time and the circumstances of its narration contained evidence of its fabrication and forgery.

There were other reasons of rejection besides. So minute was the criticism of Hadíth that the Imám Bukhárí could select for his *Sahíh* only a little over 7,000 Hadíth from out of a huge corpus of about six hundred thousand!

The six great Collectors of the Hadith

Another great Imám of Hadíth literature who also flourished in the third century of the Islamic era was Muslim Ibn al-Hajjáj of Nayshápúr, Persia (d. 874 C.E.). He was a contemporary of Bukhárí and his work is also called the *Sahíh.* Whilst Bukhárí was juristic and endeavoured to construct a basis for a complete Law Code, Muslim's one object was to purify the mass of existing traditions from illegitimate accretions. These two collectors are called *'al-Sahíhán'* i.e. the Two Sound Ones. They have come to be recognized, by common agreement, to be the two most honoured authorities on the Hadíth in the Muslim world. The two Imáms are generally known in Hadíth literature as *Sáhibán* (the two friends or companions) and a Hadíth on which both agree is referred to as *'Muttafaqun 'Alayhi'* (agreed upon and therefore acceptable).

Besides these two most important ones there are four other collections, viz. by Abú 'Isá Tirmidhí (892 C.E.), Abú Dáwúd of Sijistán (d. 888 C.E.), Abú 'Abd Al-Rahmán Ahmad Ibn Shu'ayb al-Nasá'í (d. 915 C.E.) and Ibn Májah Abú 'Abdulláh Muhammad Ibn Yazíd (d. 886 C.E.). Tirmidhí deals essentially with Hadíth that describes the person of the Prophet and hence it is called *al-Shamá'il* (i.e., the person and modes of behaviour of the Prophet). The rest of the three deal mainly with the *Sunan* (plural of Sunnah i.e., usages). These six collections go under the overall title of the *Siháh Sittah* (the Six Sound Ones). These constitute the six Canonical works of the Hadíth, accepted by a large majority of the Muslim world as genuine traditions of the Prophet. There were other collections of the Hadíth like the one by Dárimí and other scholars.

Reference may also be made here to the two types of books on traditions. One goes by the name *Musnad* and the other Jámi' which is also known as *Musannaf*. The collections of Hadíth known as *Musnad* were arranged, not according to the subject matter of the Hadíth, but under the name of the Companion on whose final authority the Hadíth rested and hence

link, but which is confirmed by another version. If a Hadíth is both *Sahíh* and *Hasan*, it is accepted as a basis of law, while weak one may be accepted to teach a moral, but not accepted as a source of law. Within each class of these traditions there are sub-divisions of greater or lesser veracity as indicated by the Imám al-Jurjání (d. 816 C.E.) and which are briefly noticed hereunder:-

Musnad — a Hadíth which is supported by an authority resting on the Prophet.
Muttasil — with a continuous and uninterrupted *isnád* (chain of narrators).
Mawqúf — if the *isnád* is not carried back to the Prophet.
Marfü — if the *isnád* is projected back to the Prophet.
Múallaq — suspended with one or more *rávis* or narrators missing.
Mudraj — interpolated.
Mudhtarib — deranged by verbal inconsistencies.
Maudü — suppositions-mere hearsay.
Mu'an'an — linked by the word *'an* which means 'from' instead of the word *haddathaná* i.e. 'he reported to us' which implies personal contact. The Imám Muslim considers the first as weaker than the second.

Thus it would be seen that particular care was taken to record even the slightest deviation in the text or the narrators. Omissions and commissions through different narrators were carefully noted down. All this was done in order to put the Hadith on an assailable foundation.

Ibn Hajar al-'Asqaláni

Another writer on this theme was the Imám Ibn Hajar al-'Asqalání, who, in his book *Sharh-Nukhbat al-Fikr* has entered into detailed refinements of these classifications. We need not here enter into this except to point out that, by and large, the most important divisions of the Hadith are two. One is *Mutawátir* (i.e. continuous) and the other is *Ahad* (isolated). A Hadith is said to be *Mutawátir* (literally that which is repeated successively) when it is reported by such a large number of Companions or narrators that it is impossible that all of them should have agreed upon an error. This fact makes its authority unquestionable. To this category belong Hadith which have been accepted by every Muslim generation from the Prophet downwards. The *Mutawátir aháditlı* are accepted even without criticizing the narrators. All the rest of *ahádith* come under the category of *Ahád* (singular *ahad* — meaning one). The *ahádith Ahád* are further sub-divided into two classes viz. *Maqbúl* (or acceptable) and *Mardúd* (that which may be rejected). It is to the category of *Maqbúl* (acceptable) that the two types of Hadith viz. *Sahíh* (sound) and *Hasan* (fair) referred to earlier, belong. The condition for a Hadith being *Sahíh* is that its narrators are *'adl* (i.e. just men whose sayings and decisions are approved or whose desire of any kind does not deviate from the right course). A *Sahíh Hadith* is accepted unless there is strong testimony to contradict what is stated therein. The critical scholars of the Hadith (called the *Muhaddithin)* reject a tradition either because of a defect in its transmitters (*rávis* or narrattors) or because its subject matter contradicts the Qur'án or the recognised *sunnah* or the unanimous verdict of the Muslim scholars or is opposed to common sense. Mention may also be made of quite a distinct type of Hadith called Hadith *qudsi* (sacred), often resorted to by the mystics and sufis of Islam. As its name suggests (the sacred), it deals essentially with

and voluminous than the Tabaqát of Ibn Sa'd is an example of the popularity and growth of this branch of learning.

And when it is realized that all this most unprecedented intellectual activity centred round the sayings and doings of one individual, the Prophet of God (may God's blessings be on him) the measure of his influence becomes so strikingly clear. That fair writer Winwood Reade in his great work, *The Martyrdom of Man*, has cited the Prophet of Islam, in the context of the influence of the individual in human history. And what doubt could there be about it in the light of what has been written by him? "So great was the veneration for Muhammad," writes the British Orientalist, Alfred Guillaume, in his book, Islam, "that once his name was invoked with a chain of authorities going back through his companions and 'helpers' to the Prophet himself, the ordinary Muslim was reluctant to reject the tradition lest he should be thought guilty of disrespect to his great leader" (p. 90).

The Constituents of a Hadith

Now to come back to the Hadíth, every perfect Hadíth consists of two parts: A chain of authorities called *isnád* (literally support), the name of the narrators, called *Rávis*, and then the text of the Hadíth, called *Matn*. The chain of authorities precedes the text *(Matn)*. Thus the narration of the Hadíth will be in this form: A related to us *(haddathaná)* that B related to him, on the authority of C, on the authority of D, on the authority of E, who said that the Prophet said. Then the text of the Hadíth would follow. To give an actual Hadíth: Musawwid related to us saying that Yahyá related to us on the authority of Sh'ubah on the authorty of Qatádah on the authority of Anas, who on the authority of his son said that the Prophet said, "None of you shall be truly faithful unless he desires for his brother what he desires for himself,"

After this narration some even add for abundant caution the words "*au kamá qála*" ("he said somewhat like this"). lest they quote the master wrongly and thereby court his displeasure. This pattern was for the narration of the Hadíth of the Prophet and has gone on ever since. Every Hadith was tested on this standard and the true made manifest from the false-the authentic from the forged. Strong measures were taken both by scholars and the Government to eradicate fabrication of traditions. An Abbasid Caliph like al-Mahdi, who was himself a scholar of the Hadith, took severe action against wanton fabrication. The guilty were either ex-communicated or even put behind bars. Thus, in a very strange and mysterious manner the prophecy of the Master, viz., 'those who report about me or of me that which I have not said, must be prepared to seek their abode in fire', came true.

The Imám Jurjáni

To begin with, a Hadíth might be of three kinds viz. (1) Qawli-by word of the Prophet, (2) Fi'li-by his deed, (3) *Sukúti* - by approval of another's action done in the Prophet's immediate presence. The minute investigations, that had now come into vogue, led to the classificaion of the Hadíth. The Hadíth were divided into three main categories viz. *Sahih* (sound), *Hasan* (good) or *Da'if* (weak). A "sound" tradition is one whose *sanad* is projected back to a Companion of the Prophet, without interruption, by a chain of narrators each of whom is trustworthy; a "good" Hadith is one whose *sanad*, though complete, has one weak

The Rules of criticism laid down by Bukhári for testing the authenticity of a Hadith

The Imám Bukhári formulated the rules of Hadíth criticism. These were known as *al-Jarh wa al-Ta'dil* i.e., 'Impugnment and Justification-a critical analysis. Every Hadíth was tested for its authenticity by this criterion. In actual working the test was twofold: its transmitters must have been persons of integrity and character; they must be morally and religiously satisfactory and they must not be tainted with heretical doctrines. They should be competent to transmit the tradition and should have had the reputation of trustworthiness. They should have been competent witnesses whose testimony would be acceptable in court of civil law. This provision was called *isnád'* from the world *sanad* which means authority or support. This system was called *Riváyah*, literally narration but technically testing the narrators of the Hadith. According to this, a Hadith was tried on the basis of its chain of narrators. The Imám Muslim, whose work on Hadíth also goes with the title 'The *Sahih* (the Sound One) and which is ranked as a close second to *The Sahih* of Bukhári, to whom we shall refer presently, said about *isnád:* "there was no isnád, certainly anybody would have said what he desired."

He had also emphasised: "Verily this science (Hadíth) is religion itself: take care on whose authority you receive your religion."

The other criterion of a true Hadith was that it should conform to the spirit of the Holy Qur'án. This provision was termed *"Diráyah"* i.e., conformity with equity and common sense, implying that the Qur'án stood for equity and common sense. The fact that the Imám Bukhári begins his various chapters with a verse from the Qur'án wherever possible is indicative of the fact that the Qur'án is the best test of the Hadíth. Hadíth is an explanation of the Qur'án and as such it must conform to the spirit of the Qur'án for its validity and authenticity.

The collection of the Hadith gives rise to "the Science of Biography" - The Asmá al-Rijál

The first requirement of the new and critical approach to the science of Hadh was adequate biographical data about the narrators of the traditions-*The Ruvát al-Hadith'* as they now came to be called. This naturally gave rise to a new branch of learning viz., biographical sketches of the narrators. This discipline came to be known as *'Asmá'* al-Rijál' literally the names of the people. Here the word names includes all relevant information and the word people here stands for the people-par-excellence - of the Hadíth, viz., its narrators. This resulted in the production of voluminous literature of the Companions and later generations of scholars in the form of biographical dictionaries, usually arranged in 'classes' viz.. Muslim of the first generation (Companions or the *sahábah* of the Prophet), of the second generation (disciples of the Companions known as Tábi'in); of the third generation (disciples of the disciples of the Companions, known as *Tabá Tábi'in)* and so forth. The earliest authoritative work of this branch of learning is Ibn Sa'd's (d. 844 C.E.) *Tabaqát* ("the Great Book of Classes"), very well known to the students and scholars of this subject. This was really a very great intellectual enterprise. This was the flowering age of Hadíth literature. The writing of biographical notes, started by Ibn Sa'd, continued down to much later times and mentions, not only traditionsts, but legists, the Qur'án-reciters and other scholars. The *Tárikh Bagdád of* Khatíb Baghdádi (1002-1071 C.E.), of a later age, which is more extensive

precedents than the *isnád* or chain of narrators of the Hadíth.

After the *Muwattá'* of the Imám came into the field, the study of Hadíth and *Sunnah* became the primary attraction, if not an all-absorbing passion, for the scholars of the Muslim world. The enormous popularity of Hadíth literature, almost inconceivable, was not without its problems and dangers. Forgery of traditions showed its ugly head on this otherwise brilliantly academic horizon of Islam. If an individual or a sect wanted to establish its right to its beliefs and practices, it had to furnish proof that the Prophet had authorised its course of action. In consequence, an enormous number of Hadíth soon found their way into various centres of the Islamic world. Forged traditions in favour of a ruling house, of the rival claim to the Caliphate, commendation of certain political or polemical theories and condemnation of certain others, became the order of the day. Another prolific source of such accretions to Hadíth literature were the converts from other faiths in the expanding empire of Islam who brought with them their own stories. Sháh Valí Alláh, of Delhi, in his book, *I'tisám bi al-Kitáb* (P. 176) says: "And it is necessary to know most of the Israelite stories that have found their way into the commentaries and histories are copied from the Jews and the Christians and no cmmandment or belief can be based upon them." Yet another source of mixing up of the Hadíth with stories is the existence of professional story tellers *(qussás)*, who were very popular among the masses. Attempts were made as early as the Caliphate of 'Alí to punish story-tellers if they related the story of David and Uríah's wife with 160 stripes and double that for a slanderer. Hadíth was also forged to gain personal ends, to strengthen party organisation and even to encourage people to be moral. If this downward march were to continue, there would have been without doubt social or even political and religious anarchy in the realm of Islam.

The Imám Bukhárí's Collection and its pride of place

It has been a truism in history that great needs give rise to great men. The man of the hour was the celebrated Imám Abú 'Abd Alláh Muhammad Ibn Ismá'íl, popularly known as al-Bukhárí (d. 869 C.E.). This remarkable man took cognizance of 600,000 traditions and himself memorized 200,000. Of these he has preserved for us 7,397 and according to other authorities 7,295 as sound traditions of the Prophet. Nothing is more eloquent of the exalted position of the Hadíth in the Islamic community and the prominent place of the Imám Bukhárí among the people of the Hadíth *(Asháb al-Hadíth)* than the homage that was paid to him and to his book-the *Sahíh* of al-Bukhárí, A man who laboured for sixteen years on this single work and who invoked the aid of prayer before committing a tradition to writing and who interrogated a thousand Shaykhs (the learned divines) living in places so distant as Balkh (Central Asia), Merv, Nishápur, Hijaz, Egypt and Syria, deserved well of Islam.

The well-known English Orientalist, Sir H, A.R. Gibb, in his book *Muhammadanism* writes: "Viewed as a whole, the *Sahíh* is a work of immense interest and scrupulous scholarship. Variants are carefully noted, doubtful and difficult points in the Sanads or Texts are glossed. On any careful student the book produces a remarkable impression of honesty combined with piety" (p. 66).

immediately withdrew their claim. Such was the profound impression the Prophet had left on his followers. Even the case of the garden of Fadak, which the daughter of the Prophet, Fátimah, claimed as her inheritance, was decided against her on the basis of a tradition in which the Prophet is reported to have said, "We the Prophets are not inherited. Whatever we leave is charity" (that is, whatever we leave belongs to the nation). This was a much disputed question, but the verdict of the Hadith was clear. The Prophet was moulding history on the divine pattern. This was in complete accord with the word of God (the Qur'án 11:8P):

"I do not desire anything except reformation, to the extent I can...

(In uridu illá al-Isláh má ista'tu wa má toufiqi illá bi Alláh)

With the passing away of the generation that had seen and heard him and worked with him the work of the collection of Hadíth enters upon a third stage. In the second stage the Hadith had passed on from individual into public possession and, therefore, in the third stage, the bulk of the traditions could be learnt at the different centres referred to earlier, and which were spread out in the vast realm of Islam. Further, the art of writing had become quite common by now and therefore the transmitters sought the aid of the pen to further their noble endeavours. Thus the passion for Hadíth was accelerated and intensified. At this stage, the Umayyad Caliph, 'Umar Ibn 'Abd al-'Azíz, wrote to Abú Bakr Ibn Muhammad, one of the surviving *Ansárs* (Helpers) commanding him to write down the Hadith of the Prophet of God, "for," he said, "I stand in dread of the disappearance of knowledge (Hadith) and of the death of them who possess it." Another tradition connects the Imám Zuhrí, popularly known as Ibn Shiháb, with 'Umar II in the work of collection of the Hadíth. Both these collections have unfortunately been lost to the world.

The Imám Málik's Collection of Traditions-the Muwattá'

The most authentic collection of traditions of that period now extant is that of the Imám Málik Ibn Anas. He was born in the year 712 C.E. and died in 795 C.E. During his early years he had the advantage of studying Hadith with the disciples of the Companions of the Prophet. He conducted his classes at the mosque of the Prophet at Medina. His name and fame attracted students from far and near, from Kashghar (Central Asia) in the East and Barcelona (Spain) in the West. One of his disciples, Yahyá of Andalusia (Spain), collected traditions taught by him in a book called the *Muwattá'* (The Treaded Path) and it was said that the Spanish Muslims knew only the Qur'an and the Muwattá' of the Imám Málik.

The Imám Málik was not a mere collector of traditions; he handled his material independently. He did not always take care to trace back his *isnád* or chain of narrators to the Prophet and indeed this system of testing the Hadíth was still in the process of development in his time, as we shall presently see. He was more interested in the establishment of the legal and ritual life of the community at Medina. Málik's procedure was that at the beginning of each legal topic, he quoted a Hadíth, either from the Prophet, if available, or from the Companions, especially the first four Caliphs. This was usually followed by this remark: "And this is also the *Sunnah* with us" Still more frequently "Our agreed practice is..." (al-*Amr al-Mujtama'u alay-hi)*.

Thus it is clear that Málik was more concerned with stabilising authoritative or normative

A study of the Hadith and the *Sunnah* of the Prophet was also essential to the correct understanding of the Qur'án. Situational as the revelations of the Qur'án are, their understanding involved the knowledge of the actual life of the Prophet and the environment in which he moved. His teachings and his life are intertwind. The Hadíth therefore is the very commentary of the Qur'an and its amplification. The two cannot be fundamentally divorced from one another, for the Hadíth and the *Sunnah* are more or less implementation of the Divine Will. (cf al-Sháfi'i, al-Risálah where he says, wa sunnah al-Rasúl *Alláh Muhayyinatun 'an Alláh ma'ná má 'aráda".)*

The first steps for the preservation of the Hadíth were taken in the lifetime of the Prophet though in a restricted measure, as we have noticed. Alfred Guillaume, writing in his book *The Traditions of Islam*, says, "The extraordinary importance attached to every utterance of his word naturally led his followers who were able to write, to record his words in order to repeat them to those who clamoured to know what he had said; and there is nothing at all in any demonstrably early writing to suggest that such a practice would be distasteful to Muhammad" (p. 17). Thus to say that the writing down of the traditions was an after-thought, as some critics of the twentieth century suggest, appears to be historically unfounded. It is an undisputed fact that there was a group among his Companions, called the *Asháb al-Suffah*, who lived in the mosque itself with whom the Prophet shared his frugal fare. Of these, the most famous was the celebrated Abú Hurayrah himself *(the father of the cat*-so called probably due to his fondness for this domestic pet). His name was 'Abdulláh or 'Abd al-Rahmán. He would remain in the Prophet's company at all events and store up in his capacious memory everything which the master said or did. His efforts were, from the first to the last, directed towards the preservation of the Hadith. A Companion, Talhah, son of 'Ubayd Alláh, is reported to have said of Abú Hurayrah: "There is no doubt that he (Abú Hurayrah) heard from the Prophet what we did not hear. The reason was that he was a poor man who possessed nothing and was, therefore, a guest of the Prophet" *(vide the Mustadrak)*. It is said that Abú Hurayrah could even remember the chapters of the Qur'án which the Prophet recited in his night prayers within a few days (Bukhári 21:18). His must have been a bewildering capacity; but, it was, nevertheless, true.

Two examples to show how the Companions of the Prophet Muhammad took their decision after the demise of the Prophet

With the passing away of the Prophet, the work of the collection of Hadíth entered on a second stage. Every stage that now came up for decision had to be referred to the Qur'án or some judgment or utterance of the Prophet. Thus the Hadíth now obtained a wider circulation. The Hadíth, from being in the knowledge of one or a few who knew it, obtained a wider currency. In the process, its authenticity was also tested beyond doubt. Thus on the Prophet's demise when the question arose where the Prophet was to be buried, a tradition decided the issue: 'Where a prophet dies, let him be buried there'. When feelings ran high amongst the "Refugees" of Mecca and the "Helpers" of Medina, on the question of succession, and the Helpers had almost elected a person among themselves, Abú Bakr reminded them of a saying of the Prophet to the effect that "the leaders are from the Quraysh". Though the tradition was recommendatory and not obligatory, the Helpers

(cf: The Caliph 'Umar's dictum: "The good of you in the period of ignorance will also be good in Islam, if they reformed." (Khiyáru-kumfi al-Jáhiliyyah. Khiyáru-kum fi al-Islam idhá Salihú.) It was just a change from remembering their old poetry and sagas, to learning by heart the *Hadíth* and *Sunnah* of a divinely inspired person who had them to such an exalted eminence. The extraordinary influence of his personality on his Companions and associates created from the beginning a demand that the believers should be informed about what the Prophet had taught and done in various circumstances in order that the life of the community as a whole, its social, moral, legal and spiritual usages might be modelled on that of the Revered Master. Their admiration for him grew as the time went by and when he was no more in their midst, the thirst for knowledge about his *Hadíth and Sunnah* became insatiable. Sir William Muir in his book, The Life of Mahomet (Introduction p. XXIX London 1861) quotes the following anecdotes which illustrate this urge: 'Is it possible, father of Abdollah! that thou hast been with Mohamet?, was the question addressed by a pious Moslem, to Hudzaifah Ibn Yamán (a well known Compaion of the Prophet) in the mosque of Kufa; 'didst thou really see the Prophet and wert thou on terms of familiar intercourse with him?' - 'Son of my uncle! it is indeed as thou sayest.' 'And how wert thou wont to behave towards the Prophet?' - 'Verily, we used to labour hard to please him.' - 'Well, by the Lord?', exclaimed the ardent listener, 'if I had been alive in this time, I would not have allowed him to put his blessed foot upon the earth, but would have borne him on my shoulders wheresoever he listed.' This was the psychological and emotional background that led the Companions of the Prophet and their "followers" and the "followers of the followers" to develop their religious traditions into a science. In this regard their contribution is at once striking and unique among all peoples of the world.

The Hadith is the very commentary on the Qur'án and its amplification

After the demise of the Prophet, the Companions spread themselves in various parts of Arabia, and immediately after the conquest of Persia, Syria and Egypt, many prominent Companions settled down in different parts of the Islamic world. Thus at Medina flourished the four respective Caliphs; besides these, there were 'Abdulláh Ibn 'Umar and 'A'ishah, the Prophet's wife, a talented lady with a remarkable memory and, as a result, she knew by heart a vast number of verses from pre-Islamic poetry and now became a prolific transmitter of the Prophet's traditions. At Medina also flourished the well-known Abú Hurayrah, an equally prolific narrator of the Hadíth. At Mecca flourished 'Abdulláh Ibn 'Abbás, the great exegete of the Qur'án, 'Abdulláh Ibn Zubayr and their disciples at al-Kúfah (the Caliph), Alí, Abdulláh Ibn Mas'úd and Abú Músá Ash'ari; at Basra, Anas Ibn Málik and his disciples. Some of these Companions founded the various schools of Muslim law. The Companions of the Prophet scrupulously narrated the Hadíth and the *Sunnah* of the Master to their disciples who are called in the language of Hadíth literature *Tábi'ín*, i.e., those who followed the Companions. Most of the traditions related to the Canon Law or Civil Law and the judicial decisions of the Prophet. Thus the Companions became the transmitters of the Hadíth which embodied the theological lore of Islam and these were handed down from generation with the names of transmitters. The disciples of the followers came to be called *Taba' Tábi'ín*, "the followers of the followers of the Companions of the Prophet."

good "*sunnah*" example will be rewarded for it and whoever introduces a bad "*sunnah*" etc.') Indeed the Qur'án speaks, in more than one place, of the "*Sunnah* of God being unalterable" in connection with the moral forces that are at work in the universe.

"Thou will not find for the way of God any change..." (The Qur'án 33:62, 38:43).
(Wa lan tajida li Sunnah Allah Tabdila).

Thus the word Sunnah came to signify the Sunnah of the Prophet-his example, in other words, the Prophet's 'action-pattern'. Later on, the word Sunnah came to be applied also to *Sunnah al-Sahábah* 'the example of the Companions,' as this was closely attached to the *Sunnah* of the Prophet himself, arising as it did from the master's own example. Medina, where the Prophet and his immediate companions lived in later years, naturally became the 'home of *Hadith and Sunnah*'. Thus, so far as the corporate life of the new community of the faithful was concerned, al-Madínah (the City *par-excellence*) became the authority on questions of orthodox custom.

The Prophet Muhammad's two dictums with regard to writing down his sayings

While the Prophet was alive, he was the sole guide in all matters, whether spiritual or secular. He had laid down that "nothing should be written of me except the Qur'án" - -Látaktubú 'anni ghayr al-Qur'án -lest the Qur'án and the *Hadíth* got mixed up. But there is another tradition of the Prophet related by his companion 'Abdulláh Ibn 'Umar who says, "We said, O Prophet of God ! We hear from you your *hadíth* which we cannot remember. May we write them down." "By all means, write them down," he said, And Abú Hurayrah, that prolific narrator of the *Hadíth,* says that the Prophet said, "Relate of me the *Hadíth* : there is no objection; but he who intentionally speaks on my authority that which I did not say, let him seek his abode in hell-fire." - *Man yaqul 'alayya mutá ammidan má 'aqul, falyatabawwa'a Maq'ada-hú min al-Nár*.

Thus, here is a Hadíth and a counter-Hadíth regarding the writing down of it, in the lifetime of the Prophet. The compromise *(tatbiq)* between the two statements seems to be that the Prophet, apprehensive of a possible confusion between the Qur'án (the inspired word) and between the *Hadíth* (his own sayings) gave the caution which was to be observed whilst recording any of his own statements. It would be safe to conclude that, as long as the Prophet lived, what was written from him was the Holy Qur'án, though some of his companions may have also recorded some of his own sayings, bearing in mind the severe warning pronounced by the master. Further, it also stands to reason that in the earlier stages of his mission, the Prophet may have discouraged people from writing down his sayings, for reasons referred to above; but at a later stage, he permitted them, on a few occasions with a sharp admonition, to record his sayings. By that time the Companions also must have become familiar with this distinction between the Qur'án and the Hadíth.

Already in pre-Islamic times, tradition had played an important role in Arabian social life. The Arabs had a wonderfully retentive memory; hundreds and thousands of verses could be recited by one man. The poets Abú Tammám al-Tá'iy and Hammád are examples of such prodigies *(Tárikh al-Arab wa al-Lughah al-Arabiyyah by Jurii Zaydán* Vol. 1 page 70). The Companions of the Prophet had inherited this most powerful and useful heritage

COLLECTIONS OF HADITH
THEIR IMPORTANCE TO THE UNDERSTANDING OF THE QUR'AN

By: PROFESSOR SAYYID 'ABD AL-WAHHAB

The meaning of the Arabic words Hadíth and Sunnah

The word *hadíth* is a noun formed from the verb *hadatha*, i.e. 'to be new'. Properly *hadíth* means news and then a tale. It may also be used for an account of a tribal raid, of old sagas, of incidents in the life of the Prophet and even of the Holy Quran (18:6 itself).

"Yet it may be that they believe not in this statement (The Qur'án) that for (Muhammad) will torment your soul with grief over their conduct".

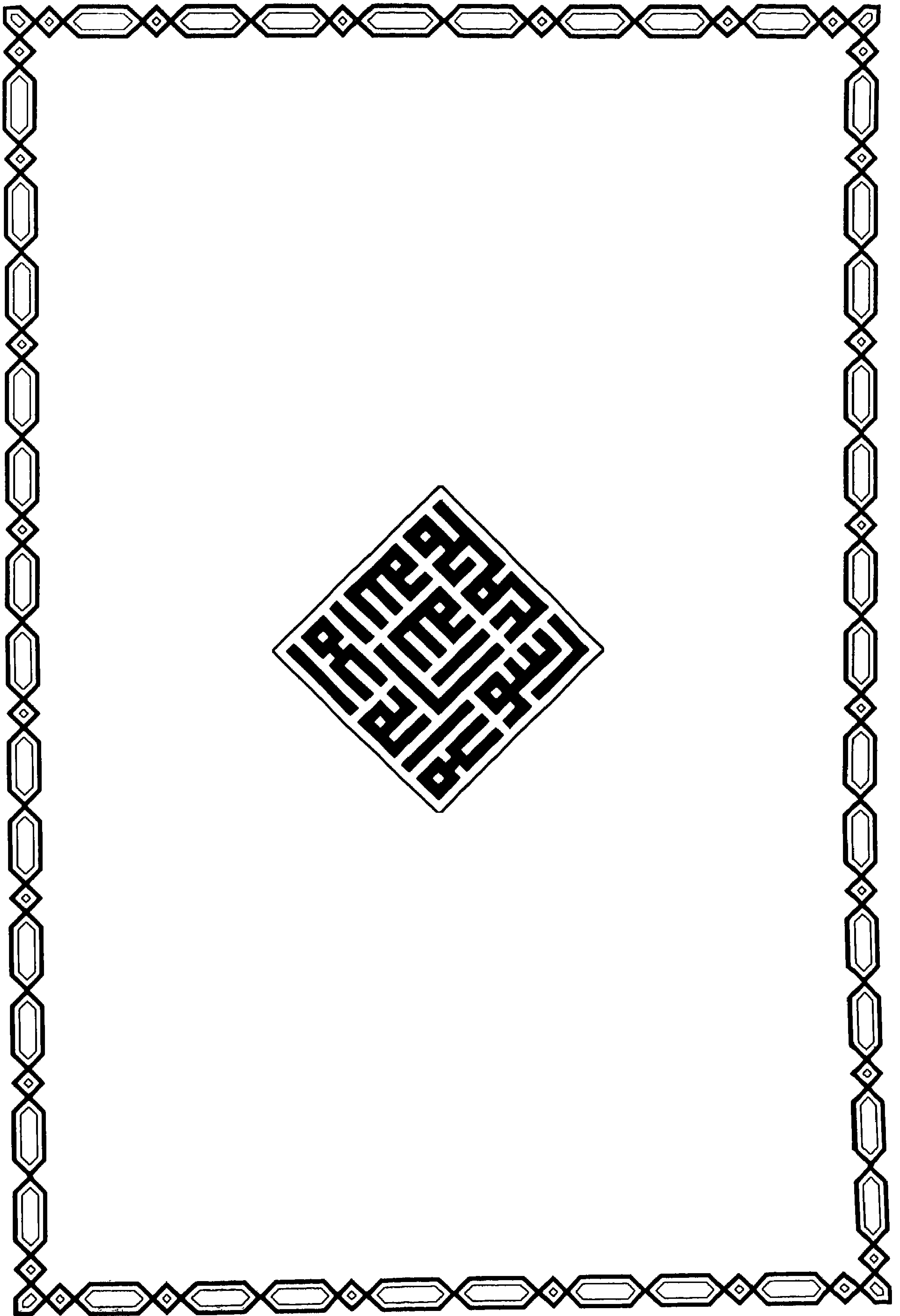
(Fa la'allaka Bákhi'un Nafsaka 'alá Athári-him in lam yu'minú bi-Házá al-Hadíthi Asafa).

(Compare also 'Abdulláh Ibn Mas'úd's saying recorded by Bukhári, The best *hadíth* is the Book of God...')

(Inna ahsan al-Hadíth Kitáb Alláh).

But later on, the word acquired its narrowed technical connotation of an oral tradition (as distinct from the Kitáb) that can be traced back to a companion of the Prophet or the Prophet himself. In this special sense, the *Hadíth* enshrines the sayings of the Prophet and also the customs and practices of the Prophet and his Companions. These customs and practices are known as the *Sunnah*. The one is the word and the other is the deed and practice of the Prophet and his Companions, and they are, therefore, synonymous in their content and application. The *Hadíth* is thus a vehicle of the *Sunnah*. The whole *corpus* of the *Sunnah* is enshrined in the *Hadíth*, and is itself generally so called. This is, it should be clearly remembered, quite distinct from the Qur'án, the word of God.

The word *Sunnah* originally means "a beaten tract". Ibn Durayd, in his *Jamharah*, gives the original meaning of the verb '*sunnah*' as *sawwara (al-shay'a)* i.e., to fashion a thing or produce it as a model. The word then came to be applied to behaviour. 'Sannah' would be best translated by the phrase 'setting an example' (cf. the *Hadíth*, 'whoever introduces a



men and beasts, and the Prophet attended in person these performances and distributed prizes. The Mosque of the Races (*masjid al-sibaq*) commemorates his seat to this day in Medina. He attached great importance to marksmanship and reaching the target. Other exercises are also mentioned by his biographers, such as pelting stones,wrestling and the like. Swimming too is also very much recommended, and the Prophet had himself learned swimming when young.

Administration

An information system was developed to procure useful data on actual or potential enemies. Correspondents in different enemy centres; occasional eye-spy and ear-spy also are met with in the lifetime of the Prophet of Islam.

Commanders were selected for their experience and sagacity, military capacities, and not ascetism, were taken into consideration. The commanders were changed from expedition to expedition. This increased the number of experienced and seasoned officers. When the Prophet himself led an army, he had a military council to consult on measures to be taken. His instructions to commanders-several of which are recorded by historians-are full of Islamic sagacity, blending spiritual and temporal aims of the religion he was teaching. For instance, unnecessary bloodshed was forbidden.

All means of propaganda were exploited. For instance, amongst Arabs who loved poetry, satires spread like wild fire. Knowing its importance in the country, the Prophet employed talented official poets against the enemies of Islam. His words about the Muslim poet, Hassan Ibn Thabit, are well-known. He once said: "When Hassan Ibn Thabit employs his gift to defend Islam and the Prophet, the Holy Spirit animates him, and his verses are more piercing in the enemy than arrows".

"The basis of this rule is that the Prophet had nominated Mahmiyah Ibn Jaz' al-Zabidiy to be in charge of booties of the expeditions of the Banu al-Mustaliq, as it was this same officer who had to take care of all the governmental fifths of booties. The civil revenues of the State were separated and had their men (*ahl, officials*?. beneficiaries?), and for income from enemies were also men (officials?, beneficiaries?). From the civil revenues the Prophet accorded aid to orphans, old-weaklings, and the poor, However, when an orphan reached the age of puberty and military service became his duty, he was transferred (from the beneficiaries of civil revenues) to those of the military income. Yet, if this (orphan) disliked military service, he no longer received anything even from civil revenues of the State, and he was ordered to earn his livelihood himself. The Prophet never refused demands. Once two persons came to him demanding aid from the governmental fifth received from the booty of the Banu al-Mustaliq, and he replied: "If you like, I shall give you something from it, but (you should know that) any rich and able-bodied person capable of earning has no right to benefit this income".

Means of combat

In the armies of the time of the Prophet, we come across names of following arms, but the list cannot be considered exhaustive: bow and arrow, lance and spear, sword, catapults (*manjaniq*), *covered movable cars of different kinds* (*dabbabah, dabur, arradah*), *shield, coats of mails*. The Negroes sometimes are reported to wield their particular weapons, for instance, Wahshiy had killed Hamzah, the uncle of the Prophet, during the battle of Uhud (625 C.E.). by throwing on him from a distance a certain whirling weapon. The covered cars, just referred to, were used to demolish walls; people inside these cars did the digging work and were protected by these covered cars from the stones, arrows or lances thrown by the enemy. Not only did the Prophet resort to digging a ditch around his camp, but also by throwing artificial thorny balls and even branches of thorny trees to create hindrance in movement for the enemy coming out to attack the Muslims. Night attacks were also known in those times.

There was a local industry to provide these needed things. Of course, the material was also imported, if possible, in spite of the embargo on such exports from the Byzantine territory. The tribe of Banu al-Qayn was famed for its skill as ironsmiths. The arrows of Yathrib (Medina) were also of some repute. Swords are mentioned by two names, Mashrafiy (from Syria) and Muhannad (from India).

The horse was used as the beast of combat *par excellence*, and was used for attack and for flight. Camel was used for transport both of men and material, and was plentiful. Its strength and superb qualities of endurance gave Arab armies a mobility unsurpassed by the armies of the neighbouring empires of Persia and Byzantium.

It goes without saying that gradually the stock-pile of arms was built up, both booty and purchase. Horses, too, were purchased for the purpose.

Training

To encourage military training, there were about numerous exhortations of the Prophet. But he took also practical measures. Races were frequently organized for

Distribution of booty-the changes the Prophet introduced

In pre-Islamic Arabia there was a customary rule that the chief commander of an expedition had the right over the fourth of the entire booty captured by his men: the capture before the general plunder and also the indivisible fractions went to the same personality. Soon after his arrival in Medina, the Prophet had to promulagate rules in this connection, and this what he did:

He abolished the Biblical law (*Deuteronomy* XIII: 16 etc.) to set on fire all booty captured from an enemy. He also suppressed the pre-Islamic custom concerning the share of the commander, who thenceforward received the same proportion as an ordinary soldier, and substituted the central government for the ancient commander. Further he reduced the share of the central government, and brought the ancient one-fourth down to one-fifth, the rest, the fourfifths, going to the members of the expedition. This increase in the share of the volunteers at the expense of the government could become a source of attraction to neutral mercenaries, who instead of siding with the enemies of Islam, would prefer to offer their services to the Prophet. And we know that there were non-Muslim participants in the Muslim expeditions. Another important reform of military law was that, unlike the pre-Islamic days, when booties captured in Arabia were individual, and other comrades did not share in it, with the result that combatants thought more of captures than of discipline, and more of personal gain than of the general interest of tribe or the community, the Muslim law provided that all the captures would be centralized and would be distributed equally among the members of the army, irrespective of the quantity of each person's capture and irrespective also of whether a soldier did actually fight or remain in reserve, or did some other duty by order of the commander.

The fifth of the booty of each expedition went, as observed above, to the coffers of the central government, if there was fighting. There were other rules in the case of movable property coming from the enemy without fighting. An unwritten law said that of every booty a choice gift was to be presented to the commander. This pre-Islamic practice was retained in Islam in the beginning, and thus choice gifts went to the Prophet. What is important to note is that the Qur'an also laid down rules about the beneficiaries in the government share of the booties. The poor, the needy and the families of the Muslim soldiers killed in the battle had naturally a prior right (*cf.* The Qur'an, 8:41) to this income. But the security of the State territory could on no account be neglected. And of both. the civil revenues of the State as well as the irregular and non-recurrent income from the booty, the Prophet allocated a considerable part to defensive measures. The Qur'an (9:60) laid down in clear terms the principles of the budget. and included the military preparations among the beneficiaries of the State income A very interesting passage of the Imam Muhammad al-Shaybany (*Sharh al-Siyar al-Kabir* II. 255-6. or new edition & 1978), gives details of the organization of a sort of semi-permanent army corps, a system which the Caliph ʿUmar later developed, under the famous name of *diwan*, with increased income and increased needs of the Muslim State. Here is what Shaybany reports:

"*Permission (of combat) is given to those who are combated...*"

The second part of the first quotation, viz 2:191, as also all the other Qur'anic passages which speak of killing the enemy wherever he may be found, concern the combatant subjects of a State who are at war with the Muslims.

Recruitment for Expeditions

The method was as follows. In his capacity as head of the State and supreme commander, the Prophet used to decide-perhaps in consultation with trusted and experienced friends-what number was necessary for a given expedition, and then he would announce, apparently in the mosque at the time of the service of prayer, that those who were prepared to volunteer should inscribe their name in a special register that was opened for the purpose, also in the mosque itself. Nobody knew beforehand the destination. When the required number was reached, the Prophet nominated a commander, and it was to him that he gave confidentially all instructions, including the rules of military conduct. There are cases when for further security and secrecy, the Prophet handed over a sealed letter to the commander and added: "Go in the direction of highlands (apparently meaning: not towards the seashore but in the opposite direction) and after three days of march open the letter and comply with the instructions". Each volunteer had his private arms; the government also aided when necessary.

The first military actions were intended to bar the caravan route to the pagan Meccans. Once the interference began, a chain of action and reaction and counter-reaction was set in motion. And sometimes it was necessary to despatch men at a minute's notice. Naturally this was to meet the requirements of minor actions. For this purpose the residential university of the Suffah, housed in the very Mosque of the Prophet, and next door to the living quarters of the head of the State, constituted a sufficient source. The inmates of the Suffah were the most pious and enthusiastic young men, generally very poor and with no attachment to the soil for agriculture, commerce or industry. They did do some job-work just to earn the minimum necessary for subsistence, and spent their time in learning, praying and leading a life of spiritual avocation. At any time during the day or night, the Prophet could count on them, and they at once set out as the Prophet would direct them.

Our sources (Bukhari, *ijtihad* 140:Muslim, Hajj 424, etc.) speak on the one hand of volunteers inscribing (*iktitab*) their names in special registers, and they also mention that sometimes (Bukhari, *maghazi* 79; Muslim, *taubah* 53, 55) the volunteers went beyond all registration. This happened not only during the expedition of Tabuk, to which these sources refer, but presumably also in expeditions like that of the conquest of Mecca: the Prophet wanted to surprise the enemy, and had sent word to various townships and tribal settlements of the Muslim territory: "Be ready to join the army at a minute's notice", and he himslef followed a zigzag path from Medina to Mecca, and *en route* the said tribal contingents one after the other swelled the forces the Prophet was leading, Naturally a central register of all the volunteers was unthinkable.

THE MILITARY DEPARTMENT OF THE MUSLIM STATE IN THE TIME OF THE PROPHET MUHAMMAD

The Muslim State came effectively into existence when the Prophet came to Medina and settled there. In the beginning there was no organization for military purposes, either for defence or otherwise. It was natural, since there was no State in Medina before Islam, which the Prophet could appropriate along with its organizations, and also the Prophet had not come as conqueror to annex Medina to his State territory and its existing administration. On the contrary, he had come to Medina as a refugee-if one may say so-wthout any material means. He came there and saw there chaos and anarchy. So he proposed the creation of a political organization, a sort of city-state. Local people agreed to it. But everything was to be created anew, and to ameliorate with trial and experience.

What is remarkable is that scarcely six months after his arrival in the chaotic agglomeration of Medina, he was able to start sending military expeditions against his enemies, enemies of his newly founded State.

Substitute of a Standing Army

There was no standing army, and there were even no material means to organize one such: the State was poor and had no rgular revenues-the Qur'an solved the problems; military service was declared to be part of the religious duties. God had purchased Muslim's persons and properties in exchange for Paradise; so they should fight in His path, to kill and be killed (The Qur'an 9: 11, among many other verses, earlier and later). The entire Muslim population became the standing army of potential combatants. Everybody was to undergo military training which, in fact, they did even before conversion to Islam. The government encouraged to develop it by all possible ways, military and moral. In so far as I could see, the Qur'an permits only a defensive (including preventive) war:

"*And combat in the path of God those who combat you, and do not transgress; verily God does not like the transgressors. And kill them wherever you find them...*"

(The Qur'an, 2:190 191); *cf.* also 22:39-41):

God who has caused the messenger of the Apostle of God to agree with what the Apostle of God likes."

This tradition goes to show the methods of legal development, and the process of administration of justice as required to be adopted with the growing circumstances of time and place. It lays down the foundation for the further growth of Islamic law and its institutions through the process of Ijma, and Ijtihad as sources of that law.

Prophet decided that according to the Jewish laws there was equality among them and as such that system was to be resurrected.

The supremacy of law was an accepted fact during the time of the Prophet. He by his own acts and precedents established a great constitutional precedent which was the first in the constitutional history of the world. Under this precedent it was accepted that the head of the state could be sued both as a private individual and in his public capacity. The Muslim judiciary was strengthened by the legal supremacy of the Shari'a and thus even during the periods of absolute monarchy and autocracy reverence for judiciary never disappeared. I may illustrate this by the last address of the Prophet from the mount Arafat to the assembled Muslims:

He said, "O people! Listen to my words as I may not be another year with you in this place. Be humane and just among yourselves-the life and the property of each are sacred and inviolable to the other. Render faithfully everyone his due, as you will appear before the Lord and He will demand an account of your action. Treat women well; they are your help-mates and can do nothing by themselves. You have taken them from God on trust. O people! Listen to my words and fix them in your memory. I have revealed to you everything; I have left to you a law which you should preserve and be firmly attached to a law clear and positive: the Book of God and the Example (i.e. conduct of His Prophet).

This last public sermon of the Prophet testifies to his love for justice, He made a public declaration that if he was indebted to anyone or had misappropriated anyone's property or done harm to his life or reputation then he was present there to pay his dues to whosoever demanded. The audience was amazed and in the whole assembly there was only one person who claimed some dirhams and was paid accordingly.

In accordance with the commands of Allah about justice and equality before law by the Quran (IV. 105, XXXVIII. 27), the Prophet declared that "If the ruler does justice, he will get his reward from God and if he does injustice, it will cause a burden to him," He made no difference between people of high status and those of low position. He even heard cases and decided against himself. Thus it is narrated by Bukhari that in a certain case people asked Usama to recommend to the Prophet, and upon it he replied, "Even if Muhammad's daughter Fatima commits theft her hand would be cut."

During the time of the Prophet, the Quran was the supreme law, and wherever it was silent, the traditions of the Prophet supplementing the Shari'a law were the chief sources of the law in the process of judicial administration. However, in cases where there was authority in it the Prophet kept it also in view. Thus it is reported by the Ashab of Muaz bin Jabl that when the Apostle of God sent Muaz to Yaman, he said: "How wilt thou execute judgement when a case comes before thee?" Muaz replied I will judge by the Quran. The Prophet said: "And if thou do not find (a solution) in the Book of God?" Muaz replied, "Then (I will decide) in accordance with the traditions of the Prophet." The Prophet said: "And if thou do not find a similar case in the traditions?" Muaz replied, "Then I will decide according to my judgement and will not slacken effort." Thereupon the Prophet smote upon his breast and said, "Praise be to

sixthly, distinction between private and public rights in penal matters.

The Prophet used to deal out justice himself and delegate this important function to the savants of Medina who had embraced the religion of Islam, wherever he was compelled to abstain himself.

The Prophet of God introduced the system of *al-Mazalim* jurisdiction in the Islamic judicial administration. This special jurisdiction was a compulsion of persons, who would do each other *Mutazalimun*, to mutual justice and restraining litigants from repudiating claims by inspiring fear and awe in them. The last Prophet of Allah exercised jurisdiction in the case of a dispute about priority of right to irrigation, and his decision, given in a resentment at an imputaion of favouritism, is regarded as a positive rule or a permission.

The Prophet confessed that he decided the cases on evidence and was liable to err in forming his judgment like other human beings. Thus Muslim reports: "It is reported from Umm Salmah that the Prophet of God said, "You bring cases before me for my decision and one of you tenders better proofs than the other, and I decide it accordingly on the evidence; but to those in whose favour I give judgment concerning any of the rights of his brother, let him not take of it, for I only cut off for him a piece of the fire." At another place Ibn Abbas reported that the Prophet said: "If men were given according to their claims then they would certainly lay claim to the blood of men as well as their property; but an oath is incumbent upon the defendant."

The legislative period of Islam provided very simple procedure in the administration of justice. The parties should be present at the dispute and the burden of proof was on the asserting party. If no evidence could be adduced the party denying the claim had to take the oath. Possession was regarded as a proof of right to hold as in the case of two persons claiming the same beast of burden and producing evidence in their own favour, the Prophet deciding in favour of the man in possession.

When the Messenger Of Allah was not able to decide disputed cases, he used to receive Divine Messages which served as precedents laying down the law.
Illustration-A tradition runs-"It is reported by Jabir that a woman brought her two daughters before the Prophet and said: "Oh! Apostle of God; these two are daughters of Sabit bin Qays who fell fighting at the battle of Uhud; their uncle has taken away all property and has left nothing for them, and what, O, Prophet! do you decide? It is not possible to get them married without property." The Prophet answered that God could alone decide this point. Thereafter the Quran IV. 12 (al-Nisa) was revealed and accordingly the Prophet sent for the woman and the uncle and told him to give 2/3 of the property to the two daughters, 1/8 to the woman and to take himself whatever remained after distribution."

The Prophet of Islam was famous for impartiality in deciding disputes and even non-Muslims used to refer cases for his decision to be decided according to their own laws. Thus it is reported that the Jewish tribes of Banu Nadir asserted a custom that if a man of Banu Qurayza (Jews) murdered a man of the former then he should be killed, but if a Nadir murdered a Qurayza then the blood-money was fixed at 100 camels. The

LAW AND JUSTICE

UNDER THE HOLY PROPHET

By: ANWAR AHMAD QADRI

The attitude of Prophet Muhammad (May God bestow His blessings upon him) toward the study of law and its administration was most favourable. He encouraged legal studies and a tradition says, "If God favours one of His creatures, He gets him to study the law and makes him a lawyer." At another place, a tradition further provides that, "A lawyer is a proof against the devil who tampers with the ignorant in the prayer," In the beginning of Islam the Prophet used to invest a governor of a province with judicial powers, but later he used to appoint a judge independently of any political or adminstrative consideration. After the conquest of Arabia, when a large number of people came under the sway of Islam, he appointed various functionaries for different parts of the peninsula. Whenever he appointed a governor or a military commander, he usually took good care to appoint a judge as well who was invariably placed above any control by these officials.

The characteristic of Islamic law is the full identification of its origin with the personality of the great Prophet. The Prophet was not only the true founder of religion of God, but also the executive, judicial and legislative head of Islam on all points on which the Quran made no provision. Every act of the Prophet was considered as *Sunna*, traditions, and wherever the Quran was silent, his decision was law, and as such the *Hadith* ranks as the next important source of the Shari'a law. It is impossible to do justice to the estimate of the effect of legislation by the Prophet in this brief article. It is enough to point out that he left no subject directly or indirectly untouched. His decisions were remarkable for their simplicity, fairness and equanimity. The steps which he took are historical and we may summarise them thus: firstly, the system of consultative government and the obligation for the ruler to be limited by public welfare and the holy texts; soccondly, to enjoin justice, good deeds, equality and human brotherhood; thirdly, forbidding aggressive war, sanctioning defensive war and promoting peace; fourthly, improving status of women and minors; fifthly, the sanctity of private ownership and the obligation to fulfil contracts, and outlawing deceit, and

on Quranic principles and had a definite mission to perform, it may be regarded as an ideological State.

One of the features of this State was to carry on the administration through mutual consultation. The Quran says, "Those who (conduct) their affairs by mutual consultation"; and "O Muhammad consult them (i.e., Muslims) in the affairs, and when thou hast taken a decision put thy trust in Allah." In accordance with this clear injunction, the Prophet Muhammad, who was the sole interpreter of Quran, had to consult his companions in matters of administration other than Divine revelation.

Another feature of the Islamic State was centraliaztion in matters of legislation. The very nature of the State, which was based on Quranic principles, demanded that there should be uniformity in legislation. It was the Prophet himself who legislated in connection with matters touching the religious aspects of life or the common problems of the State, for instance, foreign policy, taxation, justice and constitution.

Economic policy of the State

The economic policy of the State was also based on some positive injuctions of the Quran. The Quranic principles: "So that the wealth should be circulated only among all classes of believers" was emphasised by the institution of a property tax, known as Zakat, to the extent of 2,5 p.c. on surplus property, cash hoard as well as commercial capital; and restrictions on the process of testamentary disposition, laws of inheritance and the prohibition of unsury. The Prophet of Islam believed in the imposition of minimum taxation and provision of maximum comforts for the people. He did not draw any huge emoluments for his maintenance and that of his family.

He reserved the income from a small garden known as Fidak for this purpose. In accordance with a revealed verse from God, he could utilise one-fifth part of the booty for himself, the poor and needy, and his relatives. The latter needed this material support as they were not allowed to have any amount from the Zakat fund. He made himself equally liable for the payment of Zakat. Moreover, he led such a life of austerity that he got weak as he would pass several nights without a meal. Whatever he could spare out of the State income, he spent on others. He would not allow a slave or servant for his personal needs. It was he who gave a practical lesson of dignity of labour as he did all kind of work himself. Besides doing his own work with his own hands, he would share with his followers any labour if it was needed in connection with the construction of a mosque or a ditch. He did not allow a male servant to his own darling Fatima who had to grind the corn with her own hands for the use of the family. In matters of justice he was so strict that he offered his own person for cases of tort. Once he was approached that the hands of a noble Quraishite lady be not cut off, but he said, "By God in Whose hands my life lies, even if my darling Fatima commits theft, I will order to cut off her hands also." Unlike other monarchs, he considered the state as a trust in his hands and would administer it in accordance with strict injunctions of the Quran. He would divide equally all the income from the state among all believers.

defend the frontiers of the Islamic State and to promote the cause of its ideology, military service was made compulsory upon all the able-bodied Muslims without any exception; in return, they were guaranteed due provision for their maintenance from the State. The Prophet used to distribute everything equally among all the believers.

When the followers of the revealed books, who believed in the existence of God but did not believe in Islam or its ideology, the Dhimms, agreed to live within the jurisdiction of the Islamic State, relations with them were guided by the famous verse of the Quran: "No compulsion in matters of faith." The Prophet regarded them as *dhimmis* for the responsibility of the State, and guaranteed them full liberty of conscience, protection of property, life and honour, and freedom of religious belief. Nay, he went a step further and provided full scope for the growth of their culture and traditions and the administration of their civil affairs in accordance with their own religious laws. The Prophet did not believe in forcing Islamic culture and traditions on others or in adopting coercive measures to get the culture of the protected people submerged into that of the Muslims, as is usually seen under national states. As the protected people were not obliged to defend the Islamic State, they were required to pay a small tax in return, known as Jizyah. The Prophet was so tolerant to the people of the revealed books that when the Christians of Najran did not agree to pay Jizyah, but agreed to pay double the amount of Zakat, he readily accepted their offer.

Perhaps the most striking feature of the State founded by the Prophet, in respect of its attitude towards the non-Muslims, was the award of social and judicial authority. In the time of the Prophet, the Jews of Medina had their Bait al-Midras. In the treaty with the Christians of Najran, the Prophet had given the guarantee not only for the security of the person and property of the inhabitants, but had also expressly left the nomination of bishops and priests to the Christian community itself.

Muslim tradition insists strongly that the non-Muslims are to be treated kindly. The Prophet said: "If anyone wrongs a man to whom a treaty has been granted, or burdens him above his strength, I will be an advocate against him on the Day of Judgement."

The disbelievers were those who neither believed in the existence of God Almighty nor in the Hereafter, or associated other partners with God and perpetrated all kinds of inhuman practices on mankind. In short they held mankind in perpetual mental bondage in Arabia. The followers of this godless cult were fundamentally opposed to all the believers of God and were at perpetual warfare with them. They persecuted Muhammad and his followers so much that he had no other alternative but to leave his own home and property and emigrate to Medina along with all his followers. When he reached Medina, these enemies of God and His followers did not leave them in peace even there and tried their utmost to annihilate them altogether and thus efface the very existence of Islam. Prophet Muhammad realized that so long as this cult survived, Islam could not flourish. The Holy Prophet therefore waged a relentless struggle against paganism and polytheism.

It will be a fallacy to compare the Islamic State with any modern state, as it is fundamentally different from all of them and stood as a class by itself. Since it was based

Muhammad was fraternity in accordance with the famous verse of the Holy Quran: "The believers are but a single brotherhood." This verse asserts that Muslims, whatever their country, race, colour, or language, are members of a single brotherhood. Among the believers are white and black, rich and poor, master and servant, Arab and non-Arab stood together and enjoyed equal rights and equal responsibilities in running the state. Such was the force of Islamic brotherhood that even blood relationship counted for nothing. An unbeliever, even if connected with a believer by blood ties, fell into a totally different category of citizenship. The flowering of Islamic fraternity reached its climax on the occasion of Hijrah when the Prophet knit one Muhajr and one Ansar together in the brotherhood of Islam and they both lived under the same roof as brothers.

The third characteristic of this state was liberty which in its true perspective was, for the first time, presented by Islam to humanity. The greatest character of individual liberty was embodied in that very Kalimah which every believer is required to pronounce while declaring his or her faith. The pronouncement of Kalimah: "There is no god but one God" excludes all other authority but that of God. A Muslim was free. He was not required to obey any other authority but that of God. In other words, this meant that he was only free within the limits prescribed by the Divine law. None would encroach upon the rights of others. He would feel free only within his or her own rights. Freedom of expression and liberty of conscience were the two corner-stones of Islamic polity. Even an ordinary citizen of the State could differ from the opinion of the Prophet himself and give his own. But licence in the name of liberty was not allowed; none enjoyed the right to slander people or to make fun of the authorities.

Justice and Responsibility to God

The fourth characteristic of this State was justice. Justice in Islamic state should be impartial and no respector of persons whether high or low, prince or peasant, white or black, Muslim or non-Muslim. The Quran enjoins upon Muslims to decide a case on the basis of equality, justice and upright testimony. As such the entire Muslim community was to be held responsible for the administration of justice. In accordance with several verses contained in the Quran in regard to impartial administration of justice, the Prophed Mumammad decided cases and delivered impartial justice himself.

The fifth chafacteristic feature of the Islamic state was that every one, from the Prophet down to an ordinary citizen, felt responsible to God for every offence. For fear of state officials, they also abstained from committing any wrong in private also, as they were conscious of the presence of God Almighty. Thus the distinction between the public and private life of a citizen in an Islamic Stale disappeared altogether.

In accordance with a verse of the Quran: "We created believers and unbelievers," the population in the State was divided between two groups, viz, believers and unbelievers. Since the Islamic State was an ideological State it was but natural that its administration should primarily be entrusted to those who believed in its ideology and agreed to sacrifice their all in running the State, and making it a success. In order to

of protection and clientship. This policy dispelled all misunderstandings and suspicions, and the Jews willingly recognized the Holy Prophet's authority as the last court of appeal for the Jews as well, Like war and peace, administration of justice also became a central subject; all interference as the basis of kinship was prohibited and blood revenge of olden days was annulled. As for the Jews, they not only recognized the Holy Prophet as the ruler, but also accepted Medina as a sacred city, which is again a great political achievement of the Holy Prophet. Moreover, Medina became a full-fledged state.

Although the Jews did not help Muhammad (peace be on him) in his wars against the Meccans, yet he would not allow them openly to declare war against him in order to make an open alliance with the Quraysh. In spite of breach of faith on the part of the Jews he maintained cordial relations with them and punished them when they were found guilty of open defiance.

After averting the danger from the Meccans and expelling the Jews from Medina, the Prophet made an alliance with the former for ten years, in order to promote the cause of Islam. The treaty of Hudaybiah which he entered into with the Meccans proved a blessing in disguise as was predicted by a revelation of the Quranic verse. This treaty not only gave him an opportunity for the spread of Islam through peaceful preaching all over Arabia, but also enabled him to put an end to the machinations of the Jews at Khayber. The breach of faith on the part of Meccans also enabled the Holy Prophet to effect the peaceful conquest of his own birth-place and the centre of the Muslim faith, i.e., Mecca. By so doing in the year 8 AH. Muhammad (peace be on him) succeeded in uniting the whole of the Arabian peninsula under his own rule. He thus succeeded in laying the foundations of an Islamic state on a firm and sound basis in his own life-time.

Characthr of the State

Now let us examine the nature and character of the state. Firstly, it was purely a religious state based on concepts and fundamentals as laid down in the Quran Muhammad being the Prophet of God had to administer the affairs of the state in accordance with the injunctions in the Quran. Although he was himself the source of revelation, yet he maintained the sovereignty of God as he told his followers that whatever he received in the form of revelation was from God, and he would not take any credit for himself. Although he was the sole interpreter of the various revelations he received from God, yet he would not exempt his own person from their operation. He was the first to submit himself to these injunctions; hence the first resultant factor of such a state was equality before law for all the citizens of the state, including the Prophet himself. But according to Islamic polity, equality did not mean that all persons were equal in all respects. The sole criterion for giving preference in matters of appointment was piety (taqwa), knowledge of the Shari'ah and services rendered to the cause of Islam. It meant, in short, affording equal opportunities to all irrespective of caste, creed, race, colour, language or country.

The second characteristic of the Islamic state founded by the Holy Prophet

and was to be regarded as separate and distinct from the rest of the world. The component Muslim groups were to be treated on par in respect of their rights and duties. War and peace were declared matters of common, i.e., state concern. Everyone was to be a party to peace and war. Military service would be compulsory for all. The grant of protection would be the right of everyone, high or low, and the pledge made even by the lowest would be binding upon the entire community. Thus liberty, equality and fraternity became operative in this political community. The right to grant protection to people was, however, hedged by the provision that protection could not be granted to the Quraysh of Mecca. In respect of the Quraysh it had also been laid down that nobody would stand in the way of Muslims retaliating against the Quraysh who had perpetrated great hostilities upon the Muslims.

In the same way, along with laying down that the Holy Prophet would be the last court of appeal it had also been provided that payment of debt would be the responsibility of the debtor's kinsmen. Tribes were also held responsible for ransoming their captives from the hands of the enemy.

So far the Ansar are concerned their tribes were fixed and they were recongnized as such. Now, all the Muhajirs were declared to form one tribe in respect of collective and judicial matters.

Administration of justice no longer remained the concern of individuals or their tribes. It became the concern of the entire community and the judicial authority was centralized. This indeed was a revolutionary step. Absolute impartiality was proclaimed to be the norm and all avenues of partiality were closed. All Muslims were collectively responsible so that none dared to harm or encroach upon the rights of others.

Jewish Tribes

The second section of the Medina Charter related to the Jewish tribes. The Jews as a body became attached with the federally constituted city-state of Medina.

The first important provision of this section laid down that whenever Muslims and Jews would join hands in the event of war, they would be responsible for their own expenditure separately. The followers of both the religions were to follow their respective religions. Jews were granted equal rights with Muslims in civil and cultural matters. The Jews in fact became allies in matters of defence and were required to fight against those whom Muslims would fight and would contract peace with those with whom Muslims did. If any act of aggression against Muslims took place these Jews were to come to their help and vice versa. The Jews were exempt, however, from helping Muslims purely religious wars. Another clause laid down that Jews would not grant protection to the Quraysh or to their allies. However, defence became a concern of the centre and the Holy Prophet became the Head of the combined military force of Muslims and Jews and this was a great victory of the Holy Prophet.

In internal communal matters the Holy Prophet made no interference and maintained the old institutions and traditions concerning ransom, blood-money, grant

brotherhood, Prophet Muhammad started the foundation of this brotherhood by obliterating all distinctions between Meccans and Medinites, between the Quraish and Aws and Khazraj. The Muslims were paired into brothers in Islam and thus made a roll of brotherhood. Every Muhajir had an Ansari brother. This raised the moral prestige of the Ansar and the material welfare of the Muhajirin. They loved each other more than brothers because it was brotherhood for the sake of God and not a brotherhood based on community of blood for sake of tribal and family interests. The Ansar agreed to share all their wealth and belongings with the Muhajirs but the latter were not going to be a burden on their hosts. With the help of their Ansar brethren, they soon engaged themselves in various occupations and not only profited themselves but brought prosperity to their new town also.

About 150 Muslim souls had emigrated from Mecca to Medina; out of these, with the exception of Abu Bakr and Uthman, no one had any means of his own. Prophet Muhammad thus solved the most difficult problem of rehabilitation with one stroke of pen by fraternisation between the emigrants and the helpers.

After organising the Muslim community, the Holy Prophet took practical steps towards founding a State in Medina in which the rights of the non-Muslims had to be determind. It is in view of these objectives that a few months after his arrival in Medina the Holy Prophet drew up a charter which meant in effect that Medina had now acquired the status of a full-fledged city state for which a constitution had to be framed.

The Holy Prophet made tremendous efforts to bring about unity and integration among the disorganised and disunited Arabs in general and Medinites in particular, who were averse to submitting to any central authority by giving them one law, one ruler, belief in One God, and praying in one and the same direction. The Charter of Medina was a revolutionary step in so far as securing one's right ceased to be concern of an individual or of his clan. It became a common public concern. This brought tribal anarchy to an end and gave birth to a state in the right sense of the term.

The Charter may be divided into two parts. The first part, comprising twenty-three clauses, is related to matters concerning the Muhajirs and the Ansar. The other part deals with the rights and duties of the Jews of Medina. The Charter clearly laid down that the Holy Prophet would be the final authority and the last court of appeal. So far as the Muhajirs and the Ansar are concerned, they naturally could have no objection to such a provision. But to have the Jews, who were culturally superior to the Arabs, accept this provision was a master-piece of the Holy Prophet's political acumen.

Main Provisions of Medina Charter

A brief analysis of this Charter would not be out of place.

In the very beginning the coming into existence of a political organism consisting of Muhajirs of Mecca, the Ansar of Medina, and those who were attached to them had been proclaimed. This body politic came into existence on the clear stipulation that all would follow the orders of the Holy Prophet.

This political community despite inner diversity was to be considered one organism

to be performed in congregation in a mosque. While the private part is meant simply for the development of the inner self of man, the public part has other ends as well in view-ends that make the Islamic prayer a mighty force in the unification of the human race. In the first place, this gathering of all the people living in the same locality five times daily in the mosque is a help to the establishment of healthy social relations. In the daily services these relations are limited to a narrow circle, i.e. only to members of the same locality, but the circle becomes wider in the weekly Friday service which gathers together all Muslim members of a particular locality and still wider in the two great Id gatherings; the culminating point of this gathering reaches on the occasion of the annual pilgrimage when Muslims from all parts of the world assemble together. Thus prayer promotes social relations between different sections of the Muslim community.

Far more important than this, however, is the levelling of social differences brought about by means of congregational prayer. Once within the doors of the mosque, every Muslim feels himself in an atmosphere of equality and love. Before their Creator they all stand shoulder to shoulder, the king along with his poorest subject, the rich arrayed in gorgeous robes with the beggar clad in rags, the white man with black. nay, the king or rich man standing in a back row will have to lay his head, in prostrating himself before God at the feet of a slave or a beggar standing in front. There could be no greater levelling influence in the world. Differences of rank, wealth and colour vanish within the mosque, and quite a new atmosphere, an atmosphere of brotherhood, equality and love, totally differing from the outside world, prevails within the holy precincts.

These lessons of fraternity, equality and love, when put into practice in daily life, serve as foundations for the unification of the Muslims and of the lasting civilization of mankind. In fact, the five daily congregational prayers are meant, among other things, to carry into practice the theoretical lesson of equality, fraternity and social justice for which Islam stands, and however much Islam may have preached in words the equality of man and the fraternity of the community of Islam all this would have remained a dead letter had it not been translated into the everyday life of man through the institution of five daily congregational prayers.

It was with this object in view that the first task which the Prophet Muhammad accomplished on reaching Medina was the erection of a mosque where he could gather all his followers in order to preach Islam and to teach them the practical lesson of his ideological state which he intended to found in Medina, viz, fraternity, equality, liberty and social justice.

Fraternisation of Ansar and Muhajirs

The second task which he undertook to accomplish was fraternisation of the Emigrants and the Helpers. In accordance with the Quran, he said, the believers are nothing but a brotherhood, therefore make peace between your brethren and revere God that you may be shown mercy. Islam being a comprehensive religion of human

MOHAMMAD
A UNIQUE RULER

By: Dr. A. H. SIDDIQI

Some Orientalists and those of their way of thinking have created confusion in the minds of the Muslim youth that it was not in the scheme of the Prophet of Islam to establish a State and that he was merely a missionary whose preachings were confind to the Peninsula of Arabia. On the part of the Orientalists, it is deliberate malicious propaganda in order to confuse the minds of the Muslim intelligentsia but on the part of the latter, it is due to their being ignorant of the teachings of the Quran and the realities of historic facts. Nothing is farther from the Islamic and historic truth to make such a bold assertion on the part of these Western writers. There are several verses of theH oly Quran in which the objectives of the Muslims have been laid down. In one of them it has been said that "Muslims are the best among the communities, and have been sent to this universe to enjoin good upon people and to forbid evil." In another verse it has been laid down that if authority is bestowed upon Muslims, they will establish prayer, pay Zakat and enjoin good upon people and prevent them from committing wrong. These injunctions clearly show that the mission of the Prophet, his Companions and followers was not only to preach Islam but to emancipate mankind from the shackles of slavery, be they mental or physical. This noble task could not be achieved if the Prophet had not established a powerful state based on equality, liberty, fraternity and social justice. One of the verses above mentioned has not only laid down the objectives of the Muslims but has also showed the way how to establish that social order which would lead to the establishment of a state based on the above mentioned principles. It could only be done through the establishment of prayer and giving Zakat. Everywhere the Quran has emphasised the establishment of prayer and not mere recitation. This means that the Muslims must assemble five times in a mosque and practise day in and day out these fundamental principles upon which they were required to establish their State. There could not be a better place than a mosque where these lessons could be practised in a true manner.

The prayer is, however, divided into two parts; one to be said in private and the other

were discovered by them. Among the known Sociological disciplines and specialities, by the scholars of the West, they have yet to identify the following Sociological disciplines referred to by the Quran and systematized by the Muslims:

1. The Sociology of Eschatology.
2. The Sociology of Etiology.
3. The Sociology of space-time dimensions.
4. The Sociology of Metaphysics.

There are most of other systems of Sociology, the traces of which are to be found in the works of Ibn-Hazm, Ghazali, Ibn-Bajja, Ibn Tofail, Ibn Khaldun, and in the enormous works of our great scholars in Tafseer, Hadith, theology, Fiqh, philosophy and Sciences.

European languages out of these more than 70% were produced entirely in German language. Rudio Parot, Professor of Islamic Studies at the Hamburg University, is busy on researches on Seerat produced in Europe since the beginning of the 20th Century.

To compete with the West it is indispensible that scholars of our nation should concentrate their attention on researches in this field. One party should take the responsibility of original research and the other party after having acquired the knowledge of European languages in general and more particularly of German, French, Italian and Spanish, should take the work of scrutiny and critical study of the European scholars with the focal attention on amendment, correction and removing the mistakes and misunderstanding deliberately or the alleged ground of researches, committed by them.

Islam is not an ideology. It is an ideal, a way of life which is to be achieved incessantly and in ever new form, from time to time.

It is high time now to undertake this responsibility by our scholars and institutions. They themselves should conduct researches and guide the young scholars under their control in this direction. The philanthropic institutions should award research scholarships. Our universities should introduce a new speciality-the Seerat as an exclusive course of studies for the award of Master degree either from the department of Islamic Studies or Islamic history. This degree should be awarded on the basis of original researches, In the department of sociology, Islamic sociology is to be made a compulsory subject.

Such preparations and activities are needed because of the following reasons:

1. We cannot keep abreast Islam and Islamic culture under the ever new changing conditions of life due to the accelerated advancement of technological culture, technocracy and Scientism and due to the ever changing Zeitgeist at the turn of new century, without researches. The changing values are to be made congruous with the values of Islam. These values are to be interpreted in the light of dominant trends of thought, systems of knowledge and the spirit of the age.

2. Distinction is to be made between permanent or Muhkam values and flexible ones. Both are to be made clear in the light of the dominant trends of thought, making *Muhkam* the basis of all dimensional development of culture and personality. The flexible are to be reinterpreted, so as to avoid contradictions and conflicts with the *Muhkam* and the changing forces of the time.

3. In the recast of the flexible value system and for the reorientation of the permanent values, a new discipline, the Sociology of Seerat, under the major discipline of the Sociology of the Quran, is to be introduced and the researches in this field are to be encouraged.

Muslim students are yet to know that the philosophico-scientific "Sociology" was discovered by the Muslims. The Muslims were not only the First Sociologists, but most of the modern Sociologcal disciplines and specialities comprising more than 500 in number

Islami in terms of its idealistic cultural mentality based on the axiological integration, the principle of *tawheed*. Another difficulty is to be discovered in their personal bias and antagonism against Islam. And hence they failed to identify Islam as a fluctuating force. In spite of all these defects, their contribution purely in negative form since 12th century is continuous and exuberantly so collossal that any enumeration or assessment of them is almost impossible. In all fields of Islamology and systems of cultures, they have contributed a lot. Nothing to say of the major systems of knowledge and culture, even in their subtypes and minor disciplines and specialities huge number of scholars and books are to be found. I cite only one instance. The Islamic philosophy, theology and scholastics were dominated by the thought patterns on atom, space, time dimensions, fatalism and determinism, etc. but neither any book in Arabic or in any other language spoken in th Muslim World is to be found, based on an intensive and extensive study in accordance with scientific methodogy. All books are fantastic in origin, presumptionary in findings. It is very difficult to trace the long history of orientalism, covering a period of more than 600 years, multi- dimensional in space, embracing varied and innumerable subjects and specialities. We are beset with difficulties and . perplexities, when this methodological studies cover all the major and minor types of Islamics and Islamic culturology. Among all the major and minor specialities and disciplines in the field of Islamics, preponderating importance was laid on Quran, Tafseer, Hadith, Sunnah and Seerat. This classification was unanimously followed by all the Western scholars in all the countries of the West since 12th century. Even today this tradition is sedulously observed by the American scholars of Islamics.

These disciplines have rightly been taken by them as major disciplines-the existential base of the Muslim society, personality, culture, the knowledge and the belief systems. Among the Orientalists the German scholars are on the top of the list. The history of orientalism with them begins since the 12th century. The number of the scholars is so huge that one is baffled to enumerate them. They have contributed in all the fields of Islamics, except the Islamic or Quranic Sociology. The greatest attention was paid on the critical study evaluation of the life of Muhammad (peace be on him). As in other fields of Islamics, in Seerat too, they have produced a lot and are taken as authority. Their books are cited exuberantly by all orientalists of the Euro-America. To cite one instance, in the present age Montgomery Walt is best known for his study of the life of Prophet Muhammad in Mecca and Medina. This work is the stereotype edition with changes here and there of the work of late Professor Wensick who in the last decades of 19th century published his oft-quoted works under the caption Muhammad in Mekka and Muhammad in Medina.

The priority and preponderating importance attached to Seerat has yet to be recognized by us-a point of vitalistic importance transmitted to us as the cultural milieu of the West. Let me admit that the preponderating rate of emphasis laid on Seerat is to invite the attention of the Muslims to the fact that they cannot survive without persistent study of Seerat, with a view to adopting the facts of Seerat in their practical life. So great is the contribution in this field that since the beginning of the 20th Century more than 5,000 books and articles on Seerat were produced in various

VALUE OF SEERAT IN ISLAMIC CULTURE

By: M. BASHARAT ALI

We the Musllms undoubtedly claim the deepest attachment with the exemplary life and career of Prophet Muhammad (peace and blessings of Allah be upon him), but this must not be a mere lip profession. Nothing has been done in this direction in actuality. The mere verbal attachment has precluded all the chances of scientific research in Seerat and the application of facts provided by the Seerat to our day to day life. The documentary and empirical evidence of the Quran (the Laws and Principles of human life, culture and spirituality), on the authority of the Quran itself is nothing but the Seerat. Unfortunately this point of significance was never realized by the Muslims in the course of their fluctuative but steady historical development. In the early few centuries, the singificance of Seerat as a potential source of the life and the career of the Muslims and their culture was realized. As a result of this situation the Muslim history was fortunate enough to make copious and sumptuous contributions in the fields of Seerat, Ahadith, Shamail and details (minute or glaring, significant or less momentous in relations to) of the life and teachings of the Prophet.

With the gap of centuries, at the advent of the new age, a large number of scholars realized the academic, scientific, socio-cultural and empirical value of Seerat as an ever new vitalistic force for the rejuvination, revival and re-energization of the Muslims, who were by their own value-deviancy, patterning and assimilation with the alien cultures of the West. Scholars from all over the Muslim world devoted new researches in this field, because each turn of a new century creates new values, new demands, new spirit of age, new cultural mentality and the new cultural drifts.

We emotionally and with an air of rationalization are prone to condemn the orientalists and the West; but the fact is that they are credited for providing information about Islam in minutest details, either for things significant or insignificant. Their services are valuable for introducing Islam to the global world. But their approach is negative rather than positive and accurate. It is undoubtedly beyond the purview of their ideational Chrstian or Jewish cultural mentality to analyze and synthesize

by Al-Tirmidhi and others, said: I was strolling with the Prophet once on the outskirts of Makkah. I noticed that not a tree or a rock he passed did let him pass without murmuring: Peace be upon you,0, Messenger of Allah.

Sobbing by a Tree-trunk:

When the Muslims were little in number, the Prophet used to address them standing on a tree-trunk; but when the Muslims grew in number, a pulpit was erected from which he gave his sermons instead of the tree-trunk. The day the Prophet left the trunk, it continued to sob in grief until the Prophet returned and sat a little while by it. The event was witnessed by all the Muslims.

Flowing of Water out of his Fingers

Water gushed forth from among the fingers of the Prophet on several occasions. Anas says in the two Sahihs: Once, when the afternoon prayer was due, the Prophet performed ablution prior to the prayer. Other people present could find no more water for ablution, and when this came to the notice of the Prophet, he put his hand inside the container from which he had taken water for ablution and asked men to perform their ablution. Water flowed out of his fingers until all men present performed ablution. When Anas was later asked about the number of men who benefited from this water, he said: They were three hundred men.

On several occasions, a little food before the Prophet became by his blessing abundant to an extent that it sufficed tens of men.

The Prophet, moreover, foretold of many things which later came true. Al-Bukhari quotes Anas as having narrated this story: The Prophet once climbed Mount Uhud, near Madinah, with Abu Bakr, Umar and Uthman in his company. The Mount shook a little; and the Prophet kicked it by his leg, saying: Do not shake, Uhud, you have over you now a Prophet, a Truthful man and two martyrs. The prophecy came true; Umar was later killed by a Persian slave, Abu Loloa, while he was leading Muslims in a dawn prayer; Uthman Ibn Affan was killed during the great outrage that was plotted against him towards the end of his tenure as a Caliph.

miracles other than this great impressive one. They insisted that "We shall not believe in thee until thou cause a spring to gush forth for us from the earth, or [until] thou have a garden of date trees and wines, and cause rivers to gush forth in their midst, carrying abundant water, or thou cause the sky to fall in pieces, as thou sayest [will happen] against us, or thou bring God and angels before [us] face to face, or thou have a house adorned with gold, or thou mount a ladder right into the skies. No; we shall not even believe in thy mounting until thou send down to us a book that we could read. Say: Glory to my Lord. Am I aught but a man, - an Apostle.[1]

The disbelievers challenged the Prophet to ascend to the heavens, and when this took place and the Prophet was taken up to the heavens and then returned to his own place, Allah concealed the incident; and this was due to two reasons. Firstly, they were expected to deny the ascension, and as Allah assures, "If We had sent unto thee a written [Message] on parchment, so that they could touch it with their hands, the unbelievers would have been sure to say: This is nothing but obvious magic".[2] He also says: "Even if We opened out to them a gate from heaven, and they were to continue [all day] ascending therein, they would only say: our eyes have been intoxicated. Nay; we have been bewitched by sorcery."[3] This was exactly what happened later. When the Prophet told them of the journey he made during the night from the Sacred Mosque to the Farthest Mosque [Al Masjid al-Aqsa] and his return to his chambre the same night, they did not believe him, although he did not tell them the whole story.

The second reason for concealing the Prophet's ascent to heavens from the disbelievers was that the purpose of the journey was to calm and comfort the Prophet spiritually after all the difficulties and injury he had received at Makkah. He had to be prepared for the second stage of propagating the Call at Madinah. Alluding to the journey from Makkah to Jerusalem, Allah says it was made "in order that We might show him some of Our signs,"[4] and as regards the ascension to heavens, "for truly did he see of the signs of his Lord the greatest."[5].

Glorification by the Food and Greetings by Rocks and Trees:

Whenever the Prophet sat to take his food, the food glorified Allah; and this was heard by his Companions. Sahih Al-Bukhari quotes Abdullah ibn Mas'ud as having said: Whenevr we took food with the Prophet, we heard glorification of Allah by what we were eating.

Rocks used to greet the Prophet. Sahih Muslim quotes Jaber ibn Samrah as having said: The Prophet told us that he could detect a rock in Makkah which used to greet him before he was raised as a prophet. Ali, may Allah be pleased with him, as reported

---

(1) 17 : 90 - 93.
(2) 6 : 7.
(3) 15 : 14 - 15.
(4) 17 : 1.
(5) 53 : 18.

In the pre-Islamic days of Ignorance only the young boys who knew horsemanship and who were able to defend their tribe were given the right to inheritance.

To the Qur'an, all men and women are equal in rights and in duties. All the Qur'anic laws seek happiness for mankind, whether in this world or in the Next. No Arab is superior to a non-Arab, and no great man is more dignified than the low, except by his piety. Allah assures: " Verily the most honoured of you in the sight of God is [he who is] the most righteous of you".(1)

The Qur'an exalts good conduct, and to it, good conduct is the ideal system for good life. And Mohammad, as the Qur'an testifies, stood on "an exalted standard of character";(2) Allah directs us to imitate him when He explains: " Ye have indeed in the Apostle of God a beautiful pattern [of conduct]".(3)

Although all these miracles were performed by the Prophet, they had never been the pivot and root of the Divine Call. All these miracles had disappeared, leaving no trace behind except in the Qur'an which is the Truth which will survive as long as life remains active in this world.

The Prophet asks the Muslims again and again to read and contemplate the Qur'an and abide by its injuctions. No house, the Prophet says, in which Surat Al-Baqarah is recited, will give the devil access to stay therein.

Mohammad's Physical Miracles:
The cleaving asunder of the Moon:

This miracle is confirmed by both the Qur'an and the Sunnah.
The Qur'an states: "The hour [of judgment] is nigh and the moon is cleft asunder".(4) As to the Sunnah, all the jurists, commentators and Traditionalists are agreed that the moon was cleft asunder when Mohammad entreated Allah to respond to the disbelievers among Quraish, who asked the Prophet to do that to prove his truthfulness that he was indeed a Messenger of Allah. The miracle is confirmed by the following verse, which exposes the disbelievers obstinacy and insistence that he was no more than a magician. The Qur'an says: " But if they see a sign, they turn away, and say: This is [but] transient magic. They reject [the warning] and follow their [own] lusts, but every matter has its appointed time"(5) Had there been no cleavage of the moon, the Qur'an should not have censured and denounced the disbelievers' rejection of Allah's signs.

That was a great miracle which is not less in manifestation than the parting of the sea by the staff ot Moses. It was actually greater in effect, because the cleavage of the moon entailed no effect on the earth nor did it imbalance the Divine law of gravity between the moon and other planets.

It was strange on the part of Quraish to ask the Prophet for more convincing

(1) 49 : 13.
(2) 68 : 4.
(3) 33 : 21.
(4) 54 : 1.
(5) 54 : 2 - 3.

been known to mankind before. Before the revelation of the Qur'an, men differed in opinon over the Creator of this Universe. They went astray and a number of beliefs were adopted. Some people worshipped the rock, and some others the trees. and some, the Sun. Some people, on the other hand, had deitified the Moon, and some others, even the meanest of animals. Some people believe in no God at all. And when the former Scriptures were revealed with the Truth, guiding people to the Straight Path, these Books were soon forged and distorted by their own followers under the influence of other peoples close to them. This state of confusion remained so until the Qur'an came, preaching monotheism, showing people Allah'a signs in the furthest regions of the earth and in their own souls, pointing out that had there been in the heavens and the earth other gods besides Allah, there would have been confusion in both. No-one can create even the smallest of insects, such as the fly, save Allah, even if all peoples joined hands to do so. Allah says: "Those on whom, besides God, ye call, cannot create [even] a fly, if they all met together for the purpose. And if the fly should snatch away anything from them, they would have no power to release it from the fly. Feeble are those who petition and those whom they petition."[1] The Qur'an assures that the Sun rises from the east, and till now no other god has caused it to rise from the west. It is He alone Who raises the dead into life, and it is He alone Who sends down rain, and He Who knows what is in the wombs of women.

Issa, whom they worshipped because they thought he was able to resurrect the dead, was a mortal, with no power except that which Allah had vested in him. The raising of the dead was a Dvine miracle performed to prove Allah'a might,. Issa was an instrument to bring to life, by Allah's will, only a small number of the dead, but if others were to be revived, this was beyond his power. It was only the power of Allah that had decreed this matter. And so was his healing of the blind and the lepers. All was done by leave from Allah.

Even those who let rain pour artificially are seeking Allah's help and assistance. The air that they transform into rain is not of their making; it is Allah's. And even their minds which reached this point of thinking are the creation of Allah, and so are their bodies and souls.

The Qur'an, with its laws of justice and equality, gives the woman her due rights in inheritance and in the community. Allah says: " And women shall have rights similar to the rights against them, according to what is equitable. But men have a degree [of advantage] over them "[2]

Woman in Arabia had no right to property, and she herself was part of the inheritance. She was taken possession of along with other property; she had no right to the property of her deceased husband or father.

The Qur'an took her from this low position and raised her to a position of eminence.. Not only she, but the young children had also been given their right to inheritance.

---

(1) 2 : 73.
(2) 2 : 228.

all the parts that I have seen." And this prophecy has become true, because the banner of Islam is hoisted now everywhere and never is there even a nation without Islam having in it an upper hand or a prominent place among all other religions. Islam is firmly-established due to the correctness and clarity of its principles and laws and the sincerity of its leaders and the great efforts made by its preachers.

It is strange that promises and prophecies of Muslim victories and conquests were made when the Muslims were little in number and weak in military power. But because Islam is the religion of Truth and Mohammad was sent to guide mankind to the proper and virtuous path, Islam found it easy to go everywhere. And as Allah says, "God will certainly aid those who aid His [cause], for verily God is full of strength, Exalted in Might, [Able to enforce His will]. [They are] those who, if We establish them in the land, establish regular prayer and give regular charity, enjoin the right and forbid wrong. With God rests the end [and decision] of [all] affairs".[1]

The Qur'an, lastly, is a scientific miracle. As an example, Allah says: "Seest thou not that God makes the clouds move gently, then joins them together, then makes them into a heap? - then thou see rain issue forth from their midst. And He sends down from the sky mountain masses [of clouds] wherein is hail. He strikes therewith whom He pleases and He turns it away from whom He pleases. The vivid flash of His lightning well-nigh blinds the sight".[2]. And this is exactly what was discovered by the scientists in later centuries; and the mention of these scientific facts in the Qur'an, which were revealed to an illiterate Prophet fourteen centuries ago, means only one thing: that these facts had really been revealed by the Creator of the Universe to His Prophet to prove that the Qur'an is indeed a miracle.

The Qur'an has plainly spoken of the Universe as being originally "Dukhan", smoke, vapour or gaseous matter; this question had been made known in the Qur'an several centuries ago; and at that time, when the Qur'an was revealed, no man had ever known anything about that which was revealed to an unlearned Prophet. The Qur'an asserts: "Moreover, He [Allah] comprehended in His design the sky and it had been [as] smoke. He said to it and to the earth: Come ye together, willingly or unwillingly. They said: we do come [together] in willing obedience."[3]

These are two examples of the Qur'anic scientific miraculous facts that it unveils. And many discoveries will be made in future, all confirming the Qur'an's predictions and prophecies. The letters with which some Chapters of the Qur'an begin might conceal some secrets, which are known to no-one but Allah, but which might be discovered later by scientists, if Allah so desire.

From the religious point of view it could safely be said that it is the Qur'an that is asserting the Oneness of Allah and various codes of conduct for man which had never

---

(1) 22 : 40 - 41.
(2) 24 : 43.
(3) 41 : 11.

self-evident in the hearts of those endowed with knowledge. And none but the unjust reject Our signs."[1]

The Qur'an, fifthly, has foretold of events to come, and these came true. Of this is this prophecy: "The Roman Empire has been defeated in a land close by, but they, [even] after [this] defeat of theirs will soon be victorious.[2] Again, the Qur'an gave this prophecy: " God has promised, to those among you who believe and work righteous deeds, that He will, of a surety, grant them in the land inheritance [of power], as He granted it to those before them, that He will establish in authority their religion, the one which He has chosen for them; and that He will change [their state] after the fear in which they [lived] to one of security and peace."[3] And Allah's promise was fulfilled. The whole of Arabia became Muslim during the lifetime of the Prophet, and all over the land the call for prayers was made, announcing in a loud voice: Allah is Great; Allah is Great.

The Muslim nation had achieved great victories during the Prophet's lifetime and it achieved the sane later, in Persis, Roman Empire, Egypt and many other parts of the world, in the east and in the west. And all this was in fulfillment of the promise of Allah He made in the Quranic verse under discussion.

This verse not only prophesies the establishment of the Kingdom of Islam, but also its permanence, and also the eonquest by Muslims of sevenal parts of the world.

Al-Bukhari quotes in his "Musnad" Adyi ibn Hatem as having narrated the following story: "Once I encoutered the Prophet Mohammad. He told me: " If you will convert to Islam, you will be saved and will find security ". I replied: " But I belong to a faith" The Prophet said: "I know of your faith more than you know". I was surprised and remarked: " Do you know of my faith more than I do?" He said: Yes. And I know why you do not wish to embrace Islam. You think that it is the preserve of the weak and the helpless, and that the Muslims are contemptible to the Arabs. Do you know Al-Hira [a town on the borders of Iraq]? I replied; I did not visit it, but I have heard of it. The Prophet declared: "By Him in Whose hands is my soul, Islam shall be so firmly-established that a woman might travel from Al-Hira to the Sacred House without guard or escort, and that the resources of Chosroes ibn Hermiz shall be at our disposal. I interrupted him in astonishment: The resources of Chosroes ibn Hermiz? He said: Yes; The resources of Chosroes ibn Hermiz. And he continued, saying: And this great opportunity is offered to men, but they reject it. Adyi continued with his story: "And thus we are today: Women come from Al-Hira to circumambulate the House without guard or escort, while I myself was one of those who seized the resources of Chosroes ibn Hermiz. By Him in Whose hands is my soul, the third of the prophecies shall assuredly be realised, for it was prophesied by the Messenger of Allah."

In a Hadith the Prophet says: "Allah has shown me the earth in minutia and I saw all its eastern, western, northern and southern parts. The kingdom of my nation will reach

---

(1) 29 : 48 - 49.
(2) 30 : 2 - 3.
(3) 24 : 55.

It was cutomary with the Messenger of Allah that when portions of different chapters were revealed to him, he would call one of the scribes of Revelation, or any other Muslim, to write the verses down. Only was the Qur'an ordered to be scribled, and not so were the sayings of the Prophet himself. In so doing, he desired to avoid inter-combination between the Qur'an and his statements. These statements were not recorded except towards the end of the Prophet's life when the Muslime were able to distinquish between the Qur'an and the Traditions. They realised that the Qur'an was the basic source of their faith, and when they wrote down the Prophet's sayings they wrote them separately.

The Qur'an remains well-preserved and intact in fulfilment of Allah's promise that "We have without doubt sent down the Message; and we will assuredly guard it [from corruption]." The Qur'an will remain in existence as long as man survives on this planet. On many occasions, colonialists, and other enemies of Islam, tried to destroy it, but to no avail, and the Qur'an held out against the tyrants and made evil plans beset none save their authors. The Qur'an is an instrument for reviving the weak-hearted and sustaining the insipid and guiding the astray to the proper path.

The wonder work of the Qur'an manifests itself in many spheres.

Firstly, it is unique in its style, diction and rhetoric.

Secondly, it can easily influence and touch the hearts even of non-Arabic-speaking peoples. and it is for this reason, its enemies described it, when they listened to it, as a clear enchantment. Portraying this picture, Allah says: "When Our clear signs are rehearsed to them, they say: This is only a man who wishes to hinder you from the [worship] which your fathers practised; and they say: This is only a falsehood invented; And the unbelievers say of the Truth when it comes to them: This is nothing but evident magic."[1]

Thirdly; it is a Book that contains no contradictions at all in spite of the large number of subjects it is dealing with; and it is true that "Had it been from other than God, they would surely have found therein much discrepancy."[2]

Fourthy; the Qur'an narrates the stories of various prophets and their nations accurately, honestly and without prejudice. It acquits the Prophets of the lies that were attributed to them by the compilers of former religions, which though they claimed to be sacred, they felt no compunction in fabircating lies in such a way that no man can conceive. And as the Qur'an is honest in detailing the stories of prophets, it brings to light all that these people had concealed of ordinances and stories originally displayed in their books. It is a historical fact that Mohammad was an illiterate, who had appeared amidst an unlearned nation. He had no means to acquaint himself with news and events of days of yore, and as Allah says, "And thou wast not [able] to recite a Book before this [Book came], nor art thou [able] to transcribe it with thy right hand. In that case, indeed, would the talkers of vanities have doubted. Nay; here are signs

---

(1) 34 : 43.

(2) 4 : 82.

The man requested the Prophet to repeat it; and the Prophet recited it once more. Then Al-Walled said: " I swear by God that these words are sweet and graceful. The first part of the verse is meaningful and influencial, and the ending words are hopeful and promising. These words, however, are not the words of a human-being". Al-Waleed went on to say: "And you are certain that I am the most capable man of composing poetry and lambus amongst you; and this is my opinion." The Quraishites said: " By god; Al-Waleed has renegaded; and it is feared lest the entire tribe of Quraish might follow suit." Abu Jahl, one of the present, said: "I know how to deal with him." And he went to see the Prophet with whom he discussed certain matters. On his return to his people, he said to them." You elaim that Mohammad is mad, but have you seen him hallucinating? And you charge him with soothsaying; have you ever seen him doing so? And you allege that he is a poet; have you seen him composing a poem? And you accuse him of telling lies; could you tell of even one lie he told? "To all these questions they replied in the negative; and they asked him: "Then who is this man? The man said: "He is an enchanter; and you have seen how he succeeded in sowing dissention between men and their families, children and dependents." This of course, was a verdict over which all the men rejoiced. And here Allah addressed His Messenger thus: " Leave Me alone [to deal] with the [creatures] whom I created [bare and] alone, to whom I granted resources in abundance and sons to lie by his side; to whom I made [life] smooth and comfortable. Yet is he greedy-that I should add [yet more]. By no means; for to Our signs he has been refractory. Soon will I visit him with a mount of calamities; for he thought and he plotted-and woe to him, how he plotted. yea;woe to him, how he plotted. Then he looked round; then he frowned and he scowled. Then he turned back and was haughty. Then said he: 'This is nothing but magic, derived from of old. This is nothing but the word of a mortal'. Soon will I cast him into Hell-Fire".(1)

Some sages opined that had the Qur'an been found in a desert, with no-one known to have written it, the prudent, who have their own reasonings, will certainly be convinced that it was really revealed by Allah and that no man is capable of producing something like it. What would happen when people know that the man to whom the Qur'an was revealed was unlearned, knowing not how to read or to write, but was in the meantime the most truthful of all. Mohammad had challenged every man to produce anything like the Qur'an, and Allah is truthful in saying: " Say: If the whole of mankind and jinns were to gather together to produce the like of the Qur'an, they could not produce the like thereof even if they backed up each other with help and support."(2)

Some Aspects of the Marvellous Miracle of the Qur'an

The Qur'an is raised to an eminence to which no other Scripture or book has ever aspired. From the day it was revealed up to today, and will remain so farever, it remains intact, without any change whatsoever made to a word, or even a punctuation, of it.

Whenever the Prophet received a revelation, it was immediately reduced to writing.

(1) 74 : 11 - 26.

(2) 17 : 88.

which astounded and dumbfounded even the most silver-tongued amongst them. And when they failed to produce something like it, they claimed it to be a clear enchantment, because whenever it was recited, people were greatly impressed and touched. Even the most obstinate of the Arabs had to admit, on listening to it, that it was beyond anyone's power to produce something like it.

Mohammad ibn Ka'ab relates this story: One day Otba ibn Rabi'a was sitting in the company of some men from Quraish while the Prophet was sitting alone in the mosque. Otba said: "O,people of Quraish; may I be permitted to go to him to propose many things, of which he may accept some, and so he would withhold his hands from us? "They said: "Agreed; O, Abu al-Waleed." The man went to the Prophet and sat by him. He said: "O, kinsman; you are distinguished by your qualities and your descent. But now you have sown division among your people and created dissension in our families. You have denounced their gods and faith, and taxed their successors with impiety. You have also branded their forefathers with disbelief. We have some propositions to make to you, and you may accept some of them. "The Prophet said: "Speak, O,Abu al-Waleed,. I am listening to you." The man said:" O, kinsman; if you wish to acquire riches by this affair you brought, we will collect for you a fortune larger than is possessed by any of us; if you desire honour and dignity, we shall make you our chief and we shall not do a thing without you; if you desire dominion, we shall make you our king; if that which you are preaching is a vision of jinnis which you cannot evade, we will ask our doctors to treat and cure you, and in this we will not hesitate to spend whatever money your treatment might cost. A man, who is possessed, might remain so until he is medically treated and cured." The Prophet said:" Is this all that you like to say, O,Abu al-Waleed?" The man said;"Yes". Then the Prophet recited a portion from the Qur'an proclaiming the glory of Allah, denouncing the wickedness of idolatry and calling on mankind to worship Allah alone and lead a good life. Otba requested the Prophet to stop recitation and to have pity upon him; and he returned to his fellowmen. Asked about what happened, Otba said: " By God; I have never heard such words as I have already heard from him. These words, by God, are neither poetry, nor soothsaying, nor enchantment. you know that Mohammad had never told a lie. I am afraid that you might be chastised, O,people of Quraish. I beseech you to accept my suggestion: let the man do his job and leave him untouched. I swear by God that his words shall yield results. If he is defeated at the hands of other Arabs, it is these who will be responsible for the harm he would receive; and if he truimphs over them, you will share him the glory." The Quraishites replied: " You have certainly been enchanted by Mohammad." The man said: "I have only expressed to you my point of view."

Al-Waleed ibn al-Mughira was the most eloquent man in Quraish. According to Ikrimah, Al-Waleed once asked the Prophet to recite to him some verses of the Qur'an The Prophet responded, rehearsing these lines; "God commands justice, the doing of good, and liberality to kith and kin, and He forbids all shameful deeds, and injustice and rebellion. He instructs you that ye may receive admonition."[1]

---

(1) 16 : 90.

dominion, but he rejected the offer in disdain and persisted to go on delivering the Message.

Miracles of Mohammad

The miracles which were performed by the Prophet Mohammad, by Allah's leave and inspiration, were eithr rhetorical or physical.

The former are reflected in the Holy Qur'an which for all time will be preserved safe, without undergoing any change or alteration, against all attempts to destroy it, and from every kind of corruption. Allah took upon Himself to do that and in the Qur'an itself He pledges: " We have, without doubt, sent down the Message [The Qur'an], and We will assuredly guard it (from corruption)."[1]

The Qur'an, in its style and phraseology, was a challenge to the Arabs who were known for their eloquence and command of the Arabic language. No man could produce even one verse similar to that of the Qur'an.

The physical miracles, on the other hand, were the supernatural acts which were performed by Mohammad in such a way that nothing of their type had been performed before by any of the preceeding messengers.

Former religions were revealed to particular peoples, and they were liable to be superseded by other faiths. Miracles performed at that time were all physical and timely. They left no trace behind; they were something of old that were narrated later; and they are prone to falsification.

The physical miracles of Mohammad were performed on particular occasions, and all of them were supportive of his Mission, aimed at giving calm and comfort to the souls of the believers. They were not basically meant to prove or confirm the Mohammadan Message, and because of this, these miracles had never been used as a challenge to his adversaries. His only challenge was in asking them to produce such a verse that might resemble in style and phraseology any of the Qur'an.

Mohammad's physical miracles were of the same nature of those performed by Moses, who challenged Pharaoh and his sorcerers and triumphed over them all by making his staff, which was transformed into a serpent, swallow up all the rods of Phoraob's magicians. And when Pharaoh turned back after seeing this miracle, he was punished by Allah by wide-spread death, locust, lice, frogs and blood.

The Prophet Mohammad would say: "Each prophet had been given the miracle that suited the prevailing conditions of his people. But my miracle is an inspiration from Allah to me. I pray that I should have more and more followers on the Day of Judgment."

Miracle of the Qur'an:

The Arabs had their own style in composing poetry and writing of prose. When the Qur'an was revealed, they found therein a different style and a more eloquent language

(1) 15:9.

Salman, the Persian, was close to a priest who used to repeat to him that a Messenger by the name of Ahmad will be raised by Allah from the passes of Mount Tohama, and that he will be known for accepting only a gift and refusing charity. And this was the reason why Salman converted to Islam.

Jesus Christ, as the Gospel of Mathew says, prophesied the rise of Mohammad as a prophet. He described him as the stone put by the Lord on the top of the building; he told his people that the knigdom of the Israelites will disappear, giving place to another nation, the Muslims. Whoever falls on this stone will suffer bruises, and whomever the stone might fall down on will certainly be crushed.

And because the followers of the Scriptures knew beforehand of the appearance of Mohammad as a Prophet, his letters, which were later sent to their kings and rulers, had always been recevied by them with respect and esteem, and their receipt had always been acknowledged nicely. The Roman Emperor of the time was about to convert to Islam had it not been for his people who rebelled against him when he called them to have faith in the Prophet Mohammad.

Mohammad had Never Expected to be a Messenger of Allah:

Mohammad had never entertained the idea of being a prophet. He was one of the dignitaries of his clan who feathered his own nest after having passed through bad circumstaness. He had a prosperous trade, and as such, he was in no need to accumulate money or seek to acquire a high social status by pretending prophethood. Allah confirms this fact, saying: "And he found thee [Mohammad] in need, and made thee independent." [1]

Mohammad used to retire to a cave in Mount Hira to meditate and commune with the Invisible Power. It was on one of these occasions that Mohammad received the Call. Alarmed by this experience, Mohammad rose trembling and hastened home to seek rest and solace for his troubled mind and tortured soul in Khadijah's tender care. She calmed and comforted him, saying: "Be sure that Allah will never let you down; you are kind to your kith and kin; you help the weak and the destitute; you are hospitable to your guests and help others overcome their troubles."

When most of the Makkans declined to believe in the Message Mohammad brought them, Allah instructed him to tell them: "God had so willed, I should not have rehearsed it to you, nor would He have made it known to you. A whole life time before this have I tarried amongst you. Will ye not then understand?" [2]

The Prophet's truthfulness and honesty even before he recevied the Divine Revelation were undisputed. If, as the disbelevers admitted, he had never told a lie during his forty years he lived amongst them, how could he now speak falsely about Allah and how could he tell of something that he was unable to produce a like of it?

And when all the efforts of his people failed to make him desist from going ahead in his preaching the new faith, they attempted to subdue him by offering him riches and

(1) 93 : 8.
(2) 10 : 16.

arbitrator. They had sought his decision on several matters before, and he was always just, fair and unprejudicial. He stretched his robe and asked each clan to hold one of its sides after placing the Stone on it. When the garment was lifted up by them, he took the Stone by his hands and inserted it in its place. And thus the sagacious arbitration of Mohammad saved the situation and settled the dispute to everyone's satisfaction. Even after he had been entrusted with the Divine Message, his opponents, who rejected the Message, could not deny his good qualities. One of Mohammad's arch-enemies, Al-Nadr ibn al-Harth, of Banu Abdul Darr, could say nothing to the pilgrims but to chant the praises of the Prophert. He went further and rejected the plea that he was an enchanter.

When Hercules, King of the Romans, asked Abu Sufyan once: Did you charge Mohammad as a liar before he brought you the Message? The man said: No. Hercules said: If he has never lied to men, how could he then tell lies about Allah?

The Intellectual Movement Before Mohammad's Birth:

All the Scriptures foretold of the appearance of a prophet of Ismail's offspring from the mountainous area of Tohama. The Jews were expecting his appearance. In the year 71 A.D., the Jews rebelled against the Romans in "Iliya", [Jerusalem], and as a consequence, the Jews, sacred temple was demolished by the Roman commander Titus, and a large number of them were driven out of the land. Some of them headed for Yathirb, Madina, and its outskirts, and they were members of the tribes of Qurayzah, Al-Nadir, Qinaqa, Khybarand others. The flocks of Jews went to that part of the land because they were sure, as their Books asserted, that a new prophet would be raised there, and that the religion he was destined to preach will spread everywhere, from the city of Yathrib. They desired to live close to that prophet and to lend him support in the hope that he might restore to them the status they had lost in Jerusalem.

Later, the Jews, anticipating assistance from the Prophet Mohammad, prayed for their victory against their foes, the Aus and the khazraj. But when the Prophet preached the Message, that their Scripture spoke of, they rejected both the Prophet and his Message. Alluding to this Allah says: "And when there comes to them a Book from God, confirming what is with them,-although from of old, they had prayed for victory against those without Faith, when there comes to them that which they [should] have recognised, they refuse to believe in it, but the curse of God is on those without Faith".[1] He also says: "And if the apostle were to invent any sayings in Our name, We should certainly seize him by his right hand, and We should certainly then cut off artery of his heart; nor could any of you withhold him [from Our wrath]."[2]

Even Jesus Christ had foretold, as stated in the Gospel, of the appearance of the Prophet Mohammad. Confirming this report, the Holy Qur'an says: "And remember Jesus, the son of Mary, said: 0, Children of Israel; I am the apostle of God [sent] to you, confirming the Law [which came] before me, and giving glad tidings of an Apostle to come after me, whose name shall be Ahmad."[3]

(1) 2 : 89.
(2) 69 : 44 - 47.   (3) 61 : 6.

while the sheep of their neighbouring lands remained hungry, with no milk in their udders. And it happened that even when the other people's sheep grazed on Halimah's pasture, they still failed to produce milk.

Ibn' Asaker quotes Jalhamah ibn Arfatah as narrating the following story: "Once I visited Makkah at a time of scarcity. The Quraishites approached Abu Taleb, saying: 'O,Abu Taleb; the valley has become barren and the young children hungry. Go forth and pray for water for the people'. Abu Taleb headed for the Ka'bah, taking with him a young boy [Mohammad], who was radiant in face like a sun. Abu Taleb made the boy stand with his back close to the Ka'bah. The boy lifted his finger towards the sky, which was cloudless. But soon clouds appeared in the sky and rains fell down heavily. The valley became fertile and crops were harvested later".

Mohammad accompanied his uncle Abu Taleb on two journeys to Syria, once when he was twelve years old, and secondly, when he was eighteen. On both the journeys, significant indications and unusual things were observed. Of all the travellers it was Mohammad alone who was overshadowed by a cloud. All inanimates used to greet him wherever he passed them. When he was seen by Bihairah, the monk, he embraced him, declaring that he was the prophet of whom the Torah had foretold; and the monk asked the boy's uncle to protect him from the Jews.

Mohammad was known amongst his people for his truthfulness, honesty and prudence. And for these qualities he was called by them "Al-Amin," the Trusty. Being so known among the Arabs, he was given by Khadijah the charge of a caravan conveying merchandise to Syria. On this journey, he was accompanied by Khadijah's servant, Maysarah, who, being close to Mohammad, saw for himself the nobility of his behaviour and the supernatural phenomena that he had never seen the like before. On Mohammad's return, Khadijah, who was of noble lineage and wealthy, was so pleased with his successful management of her business, was so attracted by his nobility, of character, reports about which she heard from her old servant who had accompanied Mohammad on his journey, that she offered the young man her hand. Mohammad then went with his uncle Abu Taleb to Khadijah's uncle Amr ibn Asad to finalise the procedures of marriage.

All Mohammad's sons were mothered by Khadijah except Ibrahim who was born to his other wife Maria, the Copt.

When Mohammad reached thirty-five years of age, the Quraish re-constructed the Ka'bah, but a dispute arose among the tribe's chieftains as to who was to place the Black Stone in its proper place in the Ka'bah. The dispute lasted four nights, and it threatened to plunge the different clans of Quraish into war. The eldest chief amongst them was Abu Umayah ibn al-Mughira, of Banu Makhzoum, the uncle of Khaled ibn al-Waleed, and he proposed that the dispute should be settled by arbitration. They accepted the idea and proposed that the first man to enter the Ka'bah should be the arbitrator. And the man was Moahammad; and because he was popularly known for his equity, good reasoning and honesty, all the chiefs accepted the Amin to be the

The Imam Moslem quotes the Prophet Mohammad, on the authority of Wa'ilah ibn al-Asq', as having said: " Allah has singled out Kenanah from the progeny of Ismail; the Quraishites from Kenanah: the Banu Hashem from the Quraish; and myself from the Banu Hashem".

Mohammad, may Allah's peace and blessing be upon him, was born in the "Elephant Year", during which time Abraha the Abyssinian, ruler of Yemen, was delegated by the Negus to go to Arabia to destroy the Ka'bah. But it was this man and his army who were destroyed instead in an unprecedented manner. Describing this incident Allah says: "Seest thou not how thy Lord dealt with the companions of the Elephant? Did He not make their treacherous plan go astray? And He sent against them flights of birds, striking them with stones of backed clay. Then did He make them like an empty field of stalks and straw, [of which the corn] has been eaten up."(1) This was an indication that a new prophet would be raised and that the Ka'bah will be the place towards which he and his nation should turn their faces in prayers. Mohammad was the sole son of his father Abdullah; and this was decreed so that upon him alone should the blessings of his two grand-fathers, Ibrahim and Ismail, should be bestowed.

Mohammad's father died when he was still an embryo in his mother's womb. When he was five years old, he lost his mother while both of them were on their way back to Makkah after a visit they paid to his paternal uncles, the Banu Adiy bin al-Nijar in Madinah. The mother died at a place called al-Abwa'. Asma', daughter of Rahm, quotes her mother, as reported by Al-Zohari, as having said: "I have seen Amna, the mother of the Prophet, in her illness in which she died. Mohammad was five years old, and he was sitting all the time at her head. Looking at herself, Amna would say: 'Every living is to die; and every new thing will wear out. I shall pass away, but my name will last. I am leaving behind me goodness, and I had given birth to a pure'. After saying this, she died".

Mohammad was then brought up in the loving care of his grand-father Abdul Muttaleb, the leader of Quraish. And when Mohammad was eight years old, the grandfather died, after which the boy was brought up by his uncle Abu Taleb, who took the lead of Quraish. But despite the fact that Mohammad was brought up in orphanhood, he was active, energetic, weary of mean things. He was of a high spirit, of good behaviour, and was serious in managing matters. He never indulged in children quarrels or noisy games, and never had he behaved like anyone of his age; he was reared in the institution of Allah, the Merciful, the Beneficent, Who decreed that Mohammad was to be the last in the line of prophets and messengers.

All his life, Mohammad remained under the guard and care of Allah, always blessed with His favour and benignity. Once, his nurse, Halimah, of the tribe of Banu Sa'd, took the lad to spend sometime amidst her kin. Though they were suffering a season of drought, the land, unexpectedly, turned into a fertile space, with plenty of crops coming out everywhere. Herds returned from grazing with full stomachs and much of milk,

---

(1) 105 : 1 - 5.

Prophethood was not to be claimed or assumed by men other than those who were chosen by Allah to carry out His Mission. This Divinely office, however, was protected against false pretenders, because each prophet or messenger was sent to his people with clear and evident signs supporting his station and mission.

Those who pretended prophethood, without producing any relevant sign, were undoubtedly liars and impostors.

Each prophet raised by Allah was sent to his people with a miracle no-one else could produce the like of it. This miracle supported the truthfulness of that prophet.

Miracles of the prophets took several forms. Some were seen physically, such as the emergence of the Prophet Saleh's she-camel from the cracks of rock of a mountain and the transformation of Moses' staff into a serpent which swallowed up the performance of all the sorcerers whom Pharaoh had gathered to challenge Moses. Other miracles were made to show unusual things, as it was the case with Ibrahim, who was saved from the flames of the fire his opponents cast him in. Some other miracles came in the form of words, such as the Qur'an which was revealed to the Prophet Mohammad, may Allah's peace and blessing be upon him, in a language which its own people failed to produce even one sentence like it.

Miracles are of Allah's and not of Humans' Make:

Miracles were marvellous events which were performed through supernatural agency. They were carried out only by some prophets and messengers by order of Allah.

Some miracles had created fright even in the heart of its performer; and this was exactly what happened to Moses, who, when he was ordered by Allah to throw his rod and then he "saw it moving [of its own accord], as if it had been a snake, he turned back in retreat and retraced not his steps," but Allah called him, O, Moses; draw near and fear not; for thou art of those who are secure."(28:31).

A miracle is not an art of sorcery. Sorcery is a supernatural act, an act of enchantment, of optical illusion, which still could be taught and experienced by sorcerers. Unlike it is the miracle which a prophet was ordered to perform. in an unusual manner, to confirm his truthfulness in delivering a Divine Message. Hence the impossibility for a prophethood pretender to produce a miracle, and if something preternatural had been made by such pretenders, it was nothing but a trick or an act of enchantment.

Mohammad Before Taking Office of Prophethood:

Mohammad is the son of Abdullah, son of Abdul Muttaleb, of the Arab clan of Banu Hashem of the tribe of Quraish, one of the ancient, noblest and most dignified tribes of the land. It was known for its valour, hospitality, influnence and eloquence. Mohammad's nobility derived its roots from both his father's and his mother's lineage. He is a descendent of Adnan, and the grand-son of Ismail, son of Ibrahim. No-one of Ismail's progeny became a prophet except Mohammad.

SIGNS OF MOHAMMAD'S PROPHETHOOD

BY: SHAIKH MOUSTAFA AL-TAIR,

OF THE ACADEMY OF ISLAMIC RESEARCHES

Signs and Office of Prophethod:

In His Wisdom, Allah, the Knowing, the Aware, decreed that all His prophets and messengers that he sent to mankind must be chosen from among their own fellowmen, They had to be of high purity, spirituality and incorporeality that would qualify them to have communion with their Lord and receive His Revelation. Had the prophets and messengers been selected from among the angels, human beings could have neither been able to gaze upon them nor receive the Revelation from them, while they were in their heavenly form. Had an angel appeared to men's grosser senses, he should have to do it only in a human form; and in such a case men's confused notions would have still to be more confounded. Allah says: "If We did send down an angel, the matter would be settled at once, and no respite would be granted them. If We had made it an angel, We should have sent him as a man, and We should certainly have caused them confusion in a matter which they have already covered with confusion"[1].

It is not judicious or advisable that all men should be imbued with the same spirituality and purity such as were instilled in the souls and hearts of prophets so that they could see the angels by their physical eyes and receive from them direct Allah's Revelation. And had Revelation come down through angels, this could be nothing but enforcement of the Faith on men, and men had to abide by Allah's commands. And in such a case, the Divine plan that the life of this world is nothing but a life of test and trial, and that the Next is of Reckoning, should have been out of motion The angels were created in such a form that prevents them from mixing up and existing amidst humans. They are busy, each carrying out the job he is entrusted with in the kingdom of Allah. Had the angels been sent down to inhabit the earth, the aim of their creation should not have been achieved. Allah says: "Say: If there were settled on earth angels walking about in peace and quiet, We should certainly have sent them down from the heavens an angel for an apostle[2].

(1) 6:9.
(2) 17:95.

since I am a young man, I could not abstain from making sexual intercourse at any time. And when she says that I do not perform my dawn-prayer except after sun-rise, I would like to protest, because it is known to everybody that all the members of our family, and myself inclusive, do not get up except after sunrise."

This story was reported by Abu Dawoud, Al-Bazzar, Ibn Sa'ad, Ibn Hayyan and Al-Hakem. And to Al-Hafez ibn Hajar, the transmitters of this statement are known to be truthful and strict in reporting.

And no-one has reported that even one word was uttered by the Prophet in comment on Safwan's justification. He might have kept silent in a bid to encourage him to remain firm in his faith and also to facilitate the obligations of the religion to him, believing in the meantime that he would later comply with his Traditions and behaviour.

Winding up my treatise, I entreat Allah to lead us to the proper path. Glory be to Him and highly exaled be He, Who knows everything better than anyone else.

VI- that the rectification of an incorrect verdict of the Prophet was received through inspiration in no fixed time. If a correction was not received at all, then the judgment was left to the Prophet to pass. Some of this incorrect judgments had never been rectified by inspiration, as it was the case with his reasoning in trimming and pruning of palm-leaves.

VII- that since the visions seen by prophets, including Prophet Mohammad, in their sleep were a sort of inspiration, these visions were certairly projecting realities, treated exactly as a revelation. Imam Ahmad quotes Samra ibn Jundub[1] as having told that in a vision, the Prophet saw an old man with young children inside a rosy garden. The Prophet construed that the old man was the Prophet Ibrahim and that the young children were the newly-born infants, in godly nature, with which all men were created. The green garden was Paradise, in which they were residing. The Companions asked: "But what about the young children of the idolaters? "The Prophet said: "They will be treated as the other infants."

VIII- that whenever a judgment was made by his Companions in his presence, without having been commented on by him, the judgment had not necesarily been taken as correct or appoved. He might have kept quiet, without any comment, because he might not have liked to deny or refute the decision, or because he was waiting for a relevant revelation.[2] The Prophet's abstenence from making any comment on a judgment made by someone else might have been due to his desire to make things easy and to draw people to Islam, assuredly aware that the person involved will abide later by his Traditions and behaviour. This happened, as reported by Imam Ahmad,[3] on the authority of 'Uthman ibn Abi al-Aas, when the Prophet accepted conversion to Islam by the Thaqif delegation on their own conditions. Again, this is seen in the story of the wife of Safwan ibn al-Mu'attal,[4] who came to the Prophet to complain that whenever she performed a prayer, she was beaten by her husband, and that whenever she fasted, she was forced to break her fast. Safwan, the husband, was present at the meeting, and when he was asked to justify his behaviour, the man said: "I beat her in her prayer because she insisted on reciting the verses concerning the lies concocted against 'Aisha by some mischievous persons. I prohibited her from reciting these verses in her proyer.[5] As to her statement that I had compelled her to break her fast, this was because

(1) Musnad Imam Ahmad; vol. 5, p.9.

(2) Fath al-Bari; vol. 13, pp. 276-279, quoting Al-Bukhari as reporting, on the authority of Mohammad ibn al-Monkadir, his saying: "I heard yaber ibn 'Abdullah swear by Allah that Ibn al-Sayyad is the Pretended Christ. I interrupted: Do you swear by Allah? He replied: I heard 'Umar Ibn al-Khattab take the same oath when he was in the presence of the Prophet. The oath had not been remonstrated by the Prophet.

(3) Vol. 4, p. 218.

(4) Fath al-Bari; vol. 8, pp. 371-372.

(5) Al-Nur; 11-23. It was this Safwan, who was in the rear of the caravan, who carried 'Aisha on his camel and caught up with the rest of the people. 'Aisha was slandered by some of the Hypocrites who spread false reports about her.

ourselves ? The Prophet said : Yes ; and for any illness caused by Allah there is a remedly prescribed by Him. Such remedy is known to some, and blacked out from some others.

And when the Prophet was asked on another occasion: O, Messenger of Allah; Would our fate destined by Allah be changed after invocation of a holy name, after remedy we take to cure an illness, after a prayer we perform so that an ailment is healed? The Prophet replied: But these are also destined by Allah.

And when the Prophet was asked once about the responsibility of a doctor, he decreed that anyone who pretends to be able to practise medicine, with no knowledge of the art at all, must be held responsible for his acts. This verdict denotes that if the man was really a doctor, and has made a mistake in treatment, he is not held responsible for his fault.

A man told the Prophet once that he saw in a vision as if he was beheaded and was running after his head. The Prophet told the man: Do not tell people of the devil's tampering with you in your sleep.

And when, on another occasion, he was asked about the meaning of this verse: "For them are glad tidings in the life of the present and in the Hereafter," the Prophet replied: "It is a good vision that a virtuous man sees in his dream, or that which is seen of him by another dreamer."

18- Conclusion

In sum, the following points are to be taken into account:

I- that the Prophet Mohammad, may Allah's peace nad blessing be upon him, was authorised by Allh to exercise his reasoning faculty in matters of worship.

II- that he exercised judgment in the affairs of this life as well as of the Next, and that he was not to wait for a revelation. If his verdicts were sound and correct, they got the approval of Allah, otherwise they were corrected through revelation. Not had an error been approved by revelation.

III- that his Ijtihad covered worships, such as the prayers, the fast and theHajj, and all affiliated subjects pertaining to supplication and forgiveness.

IV- that his opinion was sought in divination and matters of the unseen, such as the destiny of non-Muslim infants in the Hereafter, and Allah's punishment He inflicted on peoples of yore, and their transformation into animals. When he was asked whether these creatures could breed, the Prophet said that they could; but later, he abrogated his judgment. The abrogated verdict had of course come out either through another exercise of reasoning or through inspiration.

V- in some cases, it is establisbet that after passing a certain verdict, on a given issue, reached through reasoning, the Prophet corroporated another which he deemed corresponding. This means that the first verdict was rectified by a revalation. Some reports quote the Prophet as having sometimes told his Companions that a certain verdict was transmitted to him through Gabriel on certain issues pertaining to religion, legislation, worldly affairs and divination.

for." Then the Prophet entered Zainab's residence, saying: Extend to him hospitality, but be careful that he is no more your husband. The Prophet returned to the Muslims, telling them: "If you give him back his money, and this is only what he aims at, it will be an act of benevolence on your part; and if you refuse to do so, you are entitled to keep the money as a spoil of war". His money was then returned to him, and when Abu Al-Aasi went forth to Makkah, he paid all his debts to the Quraish. And when they expressed their thanks, describing him as faithful and generous, they were surprised to hear him say: "I bear now witness that there is no god but Allah, and that Mohammad is His Messenger. By Allah; I have not withheld my conversion to Islam, while with him except for fear that you might think that by so doing I wanted not to pay you your money. But now, that your debts have been re-paid to you by the will of Allah, I declare that I am now a Muslim. "Then he left the place and headed to meet with the Prophet.

On another occasion, when Umm Hani, daughter of Abu Taleb, told the Prophet that in the year Makkah was conquered by the Muslims she had given protection to a man, the Prophet replied: "We had done the same previously, O,Umm Hani."

17- Numerous were the decisions made by the Prophet on the belief itself and also on the Shariat, among which are the following. They guide the Muslims to their well-being, either in this worldly life or in the Next.

When the Prophet was asked once about kindness, he said: "It is to serve Allah as if you see Him in front of you; if you do not see Him, He is seeing you."

And when he was asked on another occasion about those to wbom this verse is referring, "And those who dispense their charity with their hearts full of fear", he said: "Those are who fast, establish prayer and give in charity and fear lest their hearts be not good enough to be accepted by their Lord."

Once, when a sheep, slaughtered without permission of its owner, was presented to him, he ordered that it should be offered to the prisoners of war.

Once again, he was asked for a decision regarding a woman who pledged to go forth for Hajj on foot. bare-footed and unveiled. He ordered that she must go riding on a beast, putting a veil, and then fast three days.

A man told the Prophet once that he vowed to Allah to sacrifice some camels at a certain place called Bawanah. The Prophet enquired: "Had in this place been an idol which was worshipped in the pre-Islamic days of Ignorance?" The man said: No. Then the Prophet asked: Had its people observed one of their feasts? The man said: No. The Prophet said: Then you can effect your vow to Allah, because vows are not to be carried out in matters repugnant to Allah's commandments or in things not owned by the man making the vow.

Once the Prophet was asked by a man: Shall Allah forgive me my faults if I am killed struggling for His cause, courageously and resolutely? The Prophet said: Yes. And when the man repeated his query more than once, the Prophet said: "Yes; except in case of a debt which is to be re-paid. This was revealed to me through Gabriel."

A bedouin asked the Prophet: Is it permissible that we treat our illnesses by

ordinance has become a doctrine. Ijtihad by the Prophet can never be disputed or rejected by Ijma."[1].

16- Following are examples of the Prophet's verdicts:

a- Al-Bukhari, Moslem and Malek quote the Prophet as having said: "I am a mortal. Two disputants may come to me for decision, and one of them might have stronger evidence, and as a consequence, I pass a judgment in his favour, under the impression that he was truthful. If anyone is thus given a right. not of his but of his brother, let him not take it, because in such a case he is given by me a portion of fire."

In this, the Prophet sets of himself a good example for litigation. He would hear both the parties' evidences and pass his judgment on the strength of evidence and the pleas of adversaries. He also warns against usurpation of others' rights even if a favourable judgment was passed to this effect.

b- In "Al-Muwatta", Malek says that once a she-camel of Al-Barra' ibn 'Azeb broke into a garden of another man, destroying all the plant therein. The Prophet's verdict was this: gardens are to be protected by their proprietors during the day, and if catlle break in and destroy their harvest in the night, compensation must be paid by the owners of the cattle.

c- 'Aisha is quoted by Abu Dawoud as having said: no cook was better than Safiyah. Once she prepared a dish and sent it to the Prophet while he was in my chamber. I was full of jealousy and I broke the plate into pieces. Then I asked the Prophet: "What is the expiation of my act?" "You should bring back a similar plate, and a similar food," he said.

d- In a book he complied, Ibn Abu Shaibah quotes Jaber as having narrated this story: A woman from the Ansars was presented a plot of land with palm-trees by one of her sons. When she died, his other brothers wanted to have their share in the inheritance. The donor protested. "But I had given the garden to her in charity during her life-time", and when the Prophet was approached for a decision, he decreed that the garden had become her's, either during her life-time or after her death. Therefore, it had to be given in shares to all the heirs.

e- The same book, and other books of Seerat, tell the following story: A detachement seized some money which was kept by Abu al-Aasi, husband of Zainab, daughter of the Prophet. The man fled the place, but to return later in the night, seeking refuge and protection with Zainab, trying to get back his money. When the Muslims were called to perform their dawn-prayer, Zainab shouted, as was the custom of women, saying: "O,people; I have given protection to Abu al-Aasi". When the Prophet ended his prayer, he came out to the people, enquiring: Have you heard the same that I have heard? They said: Yes. He said: "By Whom in His hands is my soul, I did not know anything of this until I heard what you yourselves have heard. Anyone, whatever inferior he might be, is to be given protection by the Muslims if they had been asked

(1) Al-Mustasfa, of Al-Ghazali; vol. 2, pp. 355-356; and Fawateh al-Rahamut, pp. 366-367.

The Prophet had exercised his reasoning and resorted to Qiyas in several matters, either of this worldly life or of the Next.

a- 'Umar is reported to have told the Prophet once: "O, Messenger of Allah; I have done today something grave. I kissed while I was fasting". The Prophet said "Then rinse your mouth with water." Here, he opined that the kiss did not violate the fasting since it entailed no spermatisation, and this was likened to rinsing the mouth with water, which did not go to the stomach.

b- Ibn 'Abbas reports this story: A woman from the tribe of Juhaina came to the Prophet, saying: "My mother vowed to Allah that she would perform Hajj, but did not fulfil her promise and died. Can I discharge the obligation in her favovr?" The Prophet said: Yes, you can. If your mother was in debt and you wanted to pay it, would it not be accepted from you?" The woman said: It will. The Prophet said: "Then Allah is more deserving, and He will accept the repayment (of your mother's debt)". Here, a debt of a man is likened to that of Allah; both of them are to be re-paid.

c- Once a bedouin approached the Prophet, saying: "My wife gave birth to a black child, and I disowned it." The Prophet asked the man: "Have you camels in your possession? "The man said. Yes. The Prophet enquired: What are their colour? The man said: they are reddish. Then the Prophet asked him: Is there some with brown colour? The man replied in the affirmative. The Prophet asked: How had the camels got this colour? The man replied: It might have come from previous camels of the same lineage. The Prophet then said: And the colour of your child might have been got in the same way.

d- Al-No'man ibn Bashir is quoted by Al-Bukhari as having said: Once I heard the Prophet tell this story. Those who abide by Allah's laws and those who disobey His commandments are like two groups of people, the first was on board a ship, and the second in its hull. The latter would tell the former: To get our need of water, we will make a hole in the hull and get it through it. If the former leaves the latter to do what they thought of, all the passengers will he drowned, and if they prevented them from doing so, everyone will be saved.

According to this Qiyas, any community has the right to resort to an action by which they would repel evil and harm.

e- Al-Bukhari, Moslem and Ahmad quote the Prophet as having ordered: "Do not milk an animal that is not yours unless you are permitted by its owner to do so. Do anyone of you like to see someone elso seizing illegally what he had deposited in his safe? Udders of cattle are the property of their owners".

Here, udders are likened to safes(1) If Qiyas is resorted to by the Prophet of an ordinanee likened to a doctrine or belief, the verdict is correst, because in this case, the

(1) Fath Al-Bari (Section : Qiyas); vol.7,pp. 68-69; and vol; 8,p. 215; and vol. 12,p. 142. Also A'lam al-Muwaq'in; vol. 1, pp. 238-239. Also "Qiyas by al-Nabi al-Moustafa," by Imam Nasihuddin al-Ansari, alias Ibn al-Hanbali, d. in Muharram, 634,AH.

chamber fully happy, but when he came back, he was sad. I enquired: O, Messenger of Allah; you left me and you were full of happiness; what has happened? He said: 'I entered into the Ka'bah and wished that I should not have done so. I am afraid that my nation would be seized with fatigue (in following suit) after me."

This story denotes that the Prophet had entered the Ka'bah by his own judgment, but he later wished that he should not have done so lest his nation would follow his example after his death. He regretted his action; and this was another exercise of judgment by him.

These examples, however, produce the evidence that the Prophet had exercised his reasoning faculty in various issues of religion and legislation.

Any of his judgments, which were approved by Allah, have become a law binding on his nation. The Qur'an itself speaks of his Ijtihad and how some of it was approved, and some others corrected. It talks of the captives of Badr, the story of Ibn Umm Maktoum and of Zaid ibn Haretha and his wife, as well as his permission to some of the Hypocrites to stay at home and not join the Muslims in going forth for the Battle of Tabuk. This authorisation was given not by way of inspiration, but of exercising his own judgment.

Books of Sunnah present much of the Prophet's Ijtihad, such as his reasoning with his Companions in the manner how "Azan" should be performed, calling people to prayer, and also in the way the idolaters were persuaded to embrace Islam[1] by accepting their unfair conditions. Included in this category is the Prophet's prohibition of man making sexual intercourse with his wife during the period she is suckling a baby, and the cancellation of his verdict later.[2]

The Prophet's judgment that "a wonan is not to be taken in marriage if the husband is already married to her aunt (paternal or maternal) or her neice, lest ties of kinship are cut off" was made in conformity with the Qur'anic text prohibiting taking two sisters in marriage by one man at the same time. Similar to this verdict is the other Prophetic ruling that "a male and a female who had suckled from one woman are not to marry each other, exactly as it is the case with kins subject to this rule." This verdict, and Allah knows better, was passed in judging a thing to which there is no direction in the Qur'an with comparison to another thing having a provision in the Book. This opinion is endorsed by the report of Umm Salamah, may Allah be pleased with her, when she quoted the Prophet as having said: "I exercise my reasoning faculty and pass judgment to you in matters not covered by revalation"[3]

15- Qiyas is a process of deduction by which the law of a text is applied to cases which, though not covered by the language, are governed by the reason of the text.

---

(1) Al-Fath al-Rabbani; vol. 1,p. 92. And Nayl al-Awtar, of Al-Shawhani; vol. 7,p. 199.

(2) Or, as Ibn Al-Sukkait says, when a wife is suckling a baby and is pregnant at the same time-The Prophet feared that the suckling infant might be harmed in a way or another.

(3) Al-Mustasfa, of Al-Ghazali; vol. 2, p. 255; and The Prophet's Ijtihad", by the late Shaikh Abdel Jelil Issa.

instead of breaking them? The Prophet agreed to the proposal.[1] Thus, the cherished objectives were achieved, to confirm the prohibition of eating the flesh of domesticated donkeys, and the preserve of utilities by not disposing with the pots that were difficult to replace while on journey,

The Prophet's verdict firstly was to break the pots, then he agreed that they could be kept intact, but cleansed proprly, and this was in the common interest of the people.

c- Prophet's Ijtihad in general prohibitions:

The Prophet is quoted by Al-Bukhari,[2] on the authority of Ibn Shuraih, as having said: "Makkah is sanctified by Allah, not by men. No man who believes in Allah and in the Last Day is allowed to shed blood or cut down a tree in it."

Another version of this Hadith is given by Ibn 'Abbas. The Prophet said: "This town is made sacred and inviolable the day Allah created the heavens and the earth; and it will remain so till the Day of Judgment. No-one before me was allowed to fight inside it except myself; and fighting had been allowed to me only for an hour in the day. No trees or any plant therein should be cut down". Here, Al-'Abbas interrupted, saying: "Except Al-Izkhar,[3] O,Messenger of Allah. It is used by the craftsmen and in erecting the houses of the people". The Prophet agreed, saying: "Except Al-Izkhar."

In generality, Al-Izkhar, treated as any other plant, was ordered not to be cut down, and on finding that it was utilised extensively, its cutting down was made lawful.

d- Jaber Ibn 'Abdullah is quoted by Al-Bukhari as saying that when the Prophet went forth to Hajj with his Companions, no-one had with him an offering for sacrifice except the Prophet and Talha.[4] Companions having no offerings were permitted by the Prophet to make the journey for 'Umrah, to circumambulate the Ka'bah, to cut small parts of their hair and to doff their Ihram garbs. But these men disliked to go afterwards to Mena after having been allowed to do everything, and to approach their wives and enjoy all lawful pleasures. When the Prophet was informed of this complaint, he said: "Had I acted as before, I should not have made the offering, and had it not been for the offering that I had, I would have ended my Ihram."

The Companions abode by the Prophet's command; and those who had no offering ended their Ihram.

e- Another example is the grief the Prophet felt after going inside the Ka'bah.[5]

'Aisha, may Allah be pleased with her, is quoted by Ahmad in his "Musnad," and by Ibn Dawoud, Al-Tirmidhi and Ibn Magah, as having said: "Once, the Prophet left my

(1) Khaybar Expedition; Vol. 7, p. 375 (Al-Bahiyah Printing House, Cairo)
(2) Vol. 4, pp. 33 and 38. Also "Fath Al-Bari."
(3) Al-Izkhar is a plant known to the residents of Makkah. It has a sweet smell, used with timber in erecting roofs of houses and also in making fire.
(4) According to Moslem and Ahmad, those who brought offering, other than the Prophet, were Abu Bakr, 'Umar and some of the wealthy.
(5) Nayl al-Awtar, of al-Shawkani; vol. 5, p. 84.

b - On certain occasions the Prophet decided to exercise reasoning in a certain matter but gave it up later, realising that it was better for him to stop.

One evening, the evening prayer was delayed a little while by the Prophet for some reason, and when he came out to the mosque, he found the congregation reduced to a small number of worshippers. The Prophet, as Moslem says, became angry.

And as Al-Bukhari reports,(1) on the authority of Abu Hurayrah, the Prophet, referring to the incident, said: "By Whom in Whose hands is my soul, I was about to ask for some wood to be brought, to ask the Mu'azzin to call for prayer, to delegate someone to lead the prayer, then to slip behind and set fire to their houses and people therein (for not attending the prayer). By Whom in Whose hands is my soul; had anyone of them been sure that he would find in the mosque a fat bit of meat or two nice boards for training on missile-throwing, he would have hastened to attend the evening prayer."(2)

But the Prophet abstained from doing so, because he might thought of some other action he should take in this regard, or because he might have received an inspiration preventing him from doing what he thought of.

Another example of self-restraint by the Prophet is this story:

" We were sent forth by the Messenger of Allah to do some work. He ordered us that as soon as we would see so and so, two men from Quraish, we had to burn them by fire. And when we came to bid him farewell before leaving, he said to us: "I had previously ordered you to cast so and so into fire; but the fire is the chastisement which is inflicted by Allah alone. If you would take hold of them, kill them instead'." Reporting the same story, Ibn Ishaq quotes the Prophet as concluding, "I have realised that no - one can punish someone else with burning except Allah."

Commentiny on this saying by the Prophet, Al-Hafez Ibn Hajar says in (Fath Al-Bari) that a Mujtahid can produce something through his exercise of reasoning, and abandon it later.

In (Al-Maghazi), Al-Bukhari quotes Maslamah Ibn Al-Akwa', may Allah be pleased with him, as having said: "Once we went forth to Khaybar with the Messenger of Allah. When we reached our destination, we laid seige to the people and continued to do so until we were afflicted with hunger. But when Khaybar surrendered to the Muslims, the Muslims lighted many fires in the evening; and when the Prophet enquired about what was going on, he was told: "We are cooking meat." The Prophet asked: "Which meat?" They said; "It is the flesh of domesticated donkeys. "The Prophet said: "Throw it out and break the cooking-pots. "One of the Companions asked: But can not we throw down the contents and keep the pots after washing them

(1) Vol. 2 (Section: Congregational Prayers, p.102).
(2) According to Ibn Hajar, this is a denouncement of those who lag behind, taking no part in a congregational prayer, preferring to it search for something to eat or to play with.

After the Prophet's death, the Wise Caliphs sougbt verdicts in the Book of Allah and in the Traditions of His Messenger. Had a verdict been not found therein, they would exercise thier judgment and consult with each other.[1]

And many were the statements which were made by theologians to refute the allegation of those who denied the Prophet his right to exercise judgment, and who claimed that his verdict on certain occasions, and his holding back of some other judgments to give way to some others' judgment, on other occasions, was an action that had been taken through a revelation.[2]

14- Specimens of the Prophet's Ijtihad:

a- The Prophet wished that the Sacred House be the Qiblah towards which he would turn his face in prayer. His aspiration was realised.

Al-Bukhari quotes Al-Barra' ibn 'Azeb as having narrated that at the outset, the Prophet turned his face in prayer towards Jerusalem, and this lasted for sixteen or seventeen months, but he was full of desire that the Sacred House should be the Qiblah. His desire was favourably responded to, and a Revelation came to him: "We see the turning of thy face (for guidance) to the heavens. Now shall We turn thee to a Qibla that shall please you. Turn then thy face in the direction of the Sacred Mosque."[3]

Ibn Magah quotes Abu Bakr ibn 'Abbas as having said: "We prayed with the Messenger of Allah with our faces turned towards Jerusalem for eighteen months, after which time the Qiblah was directed towards the Ka'bah."

Another version of the story is given by Ibn 'Abbas, as introduced by Ahmed. He said. "When the Prophet was in Makkah, he would turn his face in prayer towards Jerusalem, and at the same time, towards the Ka'bah because it was in the same direction. But when he migrated to Madinah, and it was difficult for him to direct his face towords both the directions (for the change of the geographical position of Makkah), he turned his face only towards Jerusalem. The Prophet's desire to turn to the Ka'bah was prompted from the fact that the Ka'bah was the Qiblah of his forefather Ibradhim, and since he was entrusted with the revival of his faith and the reactivation of his Call, the Prophet desired that the Ka'bah should be his Qiblah. For the Ka'bah to be the Qiblah was more attractive and persuasive to the Arabs to embrace Islam. They were the nucleus of the religion who laid down the basis of the Call.

On this occasion, the revelation was reluctant in responding quickly to the Prophet's request, with the result that the Prophet began to exercise his reasoning faculty in the form of a desire and longing which were later responded to by Allah favourably. The subject in which he exercised reasoning became henceforth an established and legalised ordinance decreed by his Lord.[4]

---

(1) Ijtihad by the Prophet's Companions: A'lam al-Muwaq'in, by Ibn al-Qayyem; Vol. 1, p.244.
(2) Fawateh Al-Rahamut; Vol.2, pp. 267-268. Also Al-Mustasfa, of Al-Ghazali; Vol. 2, p. 356.
(3) Al-Baqarah: 144.
(4) Fath Al-Bari: Vol. 1, p. 319.

When this verse "And ask forgiveness for thy fault, and for the men and women who believe" was revealed, some of the Prophet's Companions restricted their approach to their wives and began to establish regular and continuous prayers to Allah in the hope of coming closer to Him. But when the Prophet was informed of their behaviour he became angry, and said; "I perform prayer and do sleep; and I fast and break fast; I take women in marriage. Then whoever deviates from my path is not of me. "The Companions replied:" But we indeed are not like you, Messenger of Allah. Allah has forgvien you your faults, of the past and of the future. " The Prophet said: " I am more devout than you; and I know Allah better than you do. "[1]

This clearly denotes that the wordings of the verse " And ask forgiveness" were addressed to the Prophet alone, and not to his nation.

The Sahih quotes the Prophet as having made this entreat: " May You, Allah, forgive me my fault and my glimmering and whatever you know more of me; May You, Allah, forgive my talking lightly. my seriousness, and my faults made deliberately and undeliberately. And all these are attributes that I may be possessing".

According to the two Sahihs, the verse of Surat Al-Fath was revealed to the Prophet after his return from Al-Hudaybiyyah. And after its revelation, the Prophet declared: " Revealed to me this night is a verse that I like more than all that is on earth". Then he recited the verse to the Muslims. They said: " Congratulation, Prophet of Allah. Allah has announced how He is treating you; but what about ourselves?" Here, this verse was revealed: "That He may admit the men and women who believe to Gardens beneath which rivers flow to dwell therein for aye, and remove their ills from them, and that is, in the sight of God, the highest achievement (for man)".[2]

Al-Mughira is quoted by Al-Bukhari as having said that the Prophet would continue performing prayers until his feet or legs were swollen. And when he was asked why he was doing so since Allah has pledged to forgive all his faults, he said in reply: " Would not I be a perpetual grateful servant?"

All these statements, and others, refute the allegation that the forgven faults and sins, refered to in the verse, are those of the nation of the Prophet.[3]

13- All the reported and rational arguments, and also the facts and realities, assert that some of the ordinances had not been received and known except through revelation. In such a case the Prophet had to pass verdicts according to revelation; and sometimes he waited until the revelation came with the awaited judgment. On several occasions, when no provision was available, the Prophet exercised his reasoning faculty, and when his reasoning was correct, it was approved by Allah, otherwise it was corrected by His inspiration.

---

(1) Al-Bukhari.
(2) Al-Fath: 5.
(3) Fatwas of Ibn Taymiyyah; Vol. 2, pp. 282-294.

reached later. And in the second stage, Yunus (Jonah) and other prophets procured the highest of status and perfection after repentance.

Whenever a prophet wronged, he would soon hasten to beseech repentance and forgiveness from Allah. Proof is given by the Qur'an. Never does it refer to a wrong made by a prophet without associating the case with penitence and forgiveness.

Adam and his wife said: "Our Lord; we wronged our own souls. If Thou forgive us not and bestow not upon us Thy mercy, we shall certainly be lost."(1) Noah would also entreat Allah thus; "O,my Lord; I do seek refuge with Thee lest I ask Thee for that of which I have no knowledge. And unless Thou forgive me and have merey on me, I should indeed be lost."(2) Ibrahim also said: "And Who. I hope, will forgive me my faults on the Day of Judgment."(3) Again, Moussa would beseech Allah thus: "O,my Lord; I have indeed wronged my soul. Do Thou then forgvie me."(4) And: "When he recovered his senses, he said; 'Glory be to Thee. To Thee I turn in repentance, and I am the first to believe."(5) Dawoud also: "Asked forgiveness from his Lord, fell down, bowing (in prostration), and turned (to God in repentance). So We forgave him this (lapse). He enjoyed indeed a near approach to Us and a beautiful place of (final) return."(6).

And never had the prophets delayed expressing repentance. They were quick to regret their faults. He who delayed repentance was expiated by Allah by afflicting him with a tribulation, as it was the case with "Zul Noon, "Yunus, who was swallowed up by a whale, an incident that took place after he had received the Message, as opined by jurists.(7) Had the incident taken place before having been entrusted with the delivery of his Message, then there was no need for tribulation and expiation.

The Qur'an and the Sunnah refer extensively to the question of repentance and forgiveness, but still there are some people, like "Al-Batiniyyah"(8) and others, who twist the meanings of the Qur'an and distort their implication.

Interpreting the verse: "That God may forgive thee thy faults, of the past and those to follow"(9), for example, they opine that "forgive thee thy faults" refers to "the faults of your nation". And this is incorrect, because as Allah says: "Every soul will be (held) in pledge for its deeds,"(10) and also: "But if ye turn away, he is only responsible for the duty placed on him and ye for that placed on you."(11)

Not only that; Allah differentiates between the faults of a Prophet and those of his nation. Allah says: "And ask forgiveness for thy fault, and for the men and women who believe"(12). How then could the faults of all the believers be considered as faults committed by the prophets?

---

(1) Al-A'raf: 23

(2) Hud: 47.

(3) Al-Shu'ara': '82.

(4) Al-Qasas: 16.

(5) Al-A'raf: 143.

(6) Sad: 24-25.

(7) Read Verse 88 of Surat al-Anbiya', and verses 139 and 148, of Al-Saffat.

(8) A sect that believes that the Shariat has its ins and its outs and interprets the Qur'an in a different way.

(9) Al-Fath: 2.

(10) Al: Muddathir: 38.

(11) Al-Nur: 54.

(12) Mohammad: 18.

was in fact repugnant to His injunctions. On the contrary; we will be given a reward for taking the second course.

And in making a mistake, Ibn Hazm goes on to say, never had a prophet intended to disobey a Divine order or drawn himself near a prohibition. The prophets were infallible, immune from the sin of disobedience. And whenever a prophet made a mistake, he made it in good faith, thinking that in doing so he was complying with Allah's orders and injuctions. In some such cases, a prophet would think that his action was permissible and that he had to exercise his reasoning faculty. The question he dealt with had neither been made binding nor was it made unlawful.

The Prophet Mohammad, Ibn Hazm says, had not been blamed for forgetfulness in performing a prayer, and in this, unlike other prophets who had done the same and were rebuked, Mohammad stands unique, because he was prinvileged by Allah Who covered for him his shortcomings in the past and those to come.[1]

12- Ibn Taymiyyah states that the prophets were incapable of erring in their preaching and their delivery of Allah's Messages. Contrary to them are other humans, including the friends of Allah whom He honours with His love and favour.

Infallibility of cases other than those related to the delivery of Divine Messages was a controvrsy-subject among jurists.

The majority of opinion, which coincides with the predecessors' judgment, is that the prophets were infallible against accepting or approving an error or a sin committel by anyone else. They had never overlooked such.

Those who opine that the prophets were incapable of erring are getting support from the ordinance that the prophets had to be followed and imitated by their followers. To be set as example, they had to be free of any shortcoming.

And it is true that imitation of the action and deeds of the prophets is legalised and validated, but only in matters that they had been approved to do, and not in that what they were prohibited to do. Allah's commandments and prohibitions are abiding but in not the abrogated verdicts. Abrogated verdicts are not to be observed rather than followed or obeyed.

This body of jurists also opine that sins and mistakes are inconsistent with perfection and that such would place the erring at a distance from other people.

And in our opinion this is again true, but only in case such errors or sins continue to be committed, otherwise sincere repentance, after which the erring is elevated to a status higher than that he enjoyed before, as some pious predecessors decide, will be of no avail.

Man is created by Allah without having any knowledge or learning. He was educated by Him later, changing position from a state of imperfection to another of perfection. And man is not judged by what he was in before, but by what he had

(1) Al-Milal wal Nihal; p. 2.

"Had I acted as before, I should not have pulled an offering (for sacrifice)". This indicates that, after doing this, he came to realise that it was better that the offering should not had been pulled during Pilgrimage, and that by pulling an offering while he was in the state of Ihram for only the Hajj some trouble was caused to his Companions who observed Ihram for Umrah first and then for Hajj, but were abliged to doff their Ihram garbs. This case necessitatel the introduction of a legal ordinance.

Alluding to his behaviour, the two jurists state that he had never met with a disbeliever or a foe except with a smile in an attempt to bring him over to Islam. Whenever he met with anyone who knew nothing of the religion, he showed patience and forbearance, and as quoted by the two Shaikhs, Al-Bukhari and Moslem, 'Aisha is reported to have quoted the Prophet as having said. "The wicked is he whom people keep clear of to protect themselves against his wickedness." Not only that; he was very generous with the non-Muslims as well as with his enemies, trying all the time to tempt them to come to the fold of Islam. In his residence he used to do much of manual work, and whenever people came to his audience, they found him in good mood, exchanging words with everyone of them. People were happy with his cheerfulness and justice. He had never concealed anything from people sitting with him, or winked to anyone to do something he hid from others.

He exercised his reasoning faculty for nothing but to unite people's hearts. The Prophet's Ijtihad was in fact a religious policy, not adulation or sycophancy. He was generous in giving charity as well as good and nice words. As said by Safwan ibn Umayyah al-Jumahi, [1] "I was given money by the Messenger of Allah, and he was the most hated to me; and he continued to give me more and more until be became the most beloved to me".

11- Ibn Hazm [2] says that on certain occasions something was made by prophets inadvertently and undeliberately, and some other things deliberately, in the hope that they would come closer to Allah. This action contravened Allah's Will, and He disapproved both, the undeliberate and the deliberate, and drew their attention to their error and corrected them, displaying to His servants the right course to pursue. He did that with the Prophet when he made the formula of the salutation after making two bows in a prayer instead of four, and, again, after making a four-bows prayer instead of two.

Allah's censure took either the form of an address, as He had done with his Prophet in the case of Zainab, Mother of the Faithful, and her divorce from Zaid, and also in the case of Ibn Umm Maktoum, or the form of a worldly affliction, as it was the case with Adam and Yunus, may Allah's peace and blessing be upon both of them.

Unlike the prophets are the human-beings. We are not held responsible for forgetfulness nor for anything that we have done in search for the pleasure of Allah, but

---

(1) Sharh Shehabuddin, by Al-Khafagi, p. 337.
(2) "Al-Milal wal Ahwa' wal Nihal"

the inner impulses and intentions of litigants. In this case, the Prophet could have passed his judgment according to Divine information, and there was no need then for a confession, an evidence or oath. Like any other judge, the Prophet passed his verdicts according to the conjunctures of the case referred to him. Had he been so inspired of verdicts, the Muslims are not then in need to imitate and follow his traditions: an instruction given by Allah to the Muslim nation to abide by.

The two jurists go on to state that the Prophet was indeed infallible, far from approaching any prohibition. Whenever he did something uncommendable, but not probihited, he is drawing the attention of the nation to the probability of doing the same. When he drank water, while standing, he wished to teach the nation that such an act could be done by them. And when he forgot and made mistakes in worships, the act was not to his discredit, but meant to lay down a ruling for his nation to follow in case similar mistakes are made. These deeds, however, were scarce; and all his actions were carried out in conformity with Allah's injunctions.

In his temporal affairs, the Prophet used to adapt himself to the then prevailing circumstances; and for each step, he had to make preparations.

He used to wear nice robes, and in all his deeds he sought nothing but the real interests of his people. He was not obstinate in any of the earthly affairs, and at many a time he accepted the views of others, which were opposed to his point of view. He, for instance, surrendered to the desire of some of his Companions, who did not take part in action at Badr, that he had to quit Madinah and proceed to Uhud to encounter with Quraish, although he himself was of the opinion that the Muslims had to remain in Madinah.

And although the Prophet was aware of the nature and intentions of the Hypocrites, he abstained from giving the order that they should be killed; and in so doing, he wanted that other disbelievers might feel peace and come to the fold of Islam, and he also took into consideration that those Hypocrites were relatives to the Muslims. He hated that people might accuse him of killing his fellowmen.

Another example is his acceptanse that the Ka'bah was not to be re-biult on the same foundation that was previously laid down by the Prophet Ibrahim. He did not want to injure the feelings of Quraish, who wanted the Ka'bah to be constructed after its old pattern, keeping it in the form that had been accepted and glorified by their forefathers. And since the Quraishites were still longing for the pre-Islamic days of Ignorance, the Prophet feared that they might apostate and abandon Islam. In this context, the Prophet is quoted by Al-Bukhari and Moslem, the two Shaikhs, on the authority of 'Aisha, as having told her: "Had not your people abandoned disbelief but recently, I should have erected the House on the foundations laid down by Ibrahim. "At the Battle of Badr, as stated earlier, the Prophet surrendered to the opinion of Al-Habbab ibn al-Munzir, when he proposed another place for the Muslim warriors to be stationed in; and the new place was indeed better from the strategical point of view than the former.

In the sermon the Prophet delivered at the Farewel Pilgrimage, he said, inter alia,

those who allege that the Prophet did not exercise this faculty, relying on the verse: "Nor does he say (aught) of (his own) desire. It is no less than inspiration sent down to him,"[1] rely on an incorrect interpretation of these two verses, becaues when the Prophet was allowed to exercise his judgment, it was then considered an inspiration, not revelation. And inspiration to prophets was in fact a sort of revelation.

Then, Al-Qadi Ayyad talks about the arrival of the Muslims in Badr, prior to the battle, and the counsel Al-Habbab ibn al-Munzir gave that the Muslims should change their position there and the Prophet's approval of this counsel, saying: "You have given the best idea." And the Prophet acted accordingly.

This incident also came under controversy. Some jurists say that the resolution to change the position of the Muslims had not been inspired, but left to the Prophet and his Companions to decide. And as mentioned in the principles of jurisprudence, the Companions were allowed to exercise judgment in the Prophet's presence. Others say the incident related to a worldly affair and concerned tactics of war in which the Muslims were highly experienced.[2]

Al-Qadi Ayyad also recalls the Prophet's determination to come to a reconciliation with his enemy during the Expedition of Al-Khandaq (the Battle of the Ditch). At that time he proposed to 'Uyaynah ibn Hisn and Al-Hareth al-Marri, the commanders of Ghatafan, that he would give them one-third of the fruits of Madinah had they laid down their arms. But when the Prophet consulted with his Companions over the proposal, it was opposed by Sa'ad ibn Mu'az, who asked the Prophet on hearing him making his propssal: "Had you been ordered by Allah to do that?" The Prophet replied: "No; but I wanted only to repel their mischief". Sa'ad said; "By Allah; we need not do so; we will not give them save the sword until Allah judges between us." This, as stated by Al-Qadi Ayyad, endorses the fact that in matters not related to the religion and belief, the Prophet had at times expressed an opinion which later appeared as futile. This happened only in worldly affairs, which were known to people by experience. But besides the delivery of the Message, he was required to look after his people' worldly affairs. The Prophet's activity and his knowledge of worldly affairs and the minutest details of people's life was astounding[3].

The author of "Al-Shifa'" and its commentator go on to say that in deciding people's disputes, the Prophet passed judgments based on witnesses' evidence, clues, and the identification of belongings over which a dispute had arisen. Sometimes, these judgments appeared to have been passed incorrectly, and in such a case, the Prophet was not to be questioned because he did not pass his verdict except after having been convinced of the trutlfulness of the arguments presented in the case. This was done in implementation of Allah's will and wisdom. Had Allah desired, he could have informed the Prophet beforehand of the facts of the case referred to him for decesion and also of

(1) Al-Najm: 3-4.

(2) Commentary of Shehabuddin Al-Khafagi, p. 288.

(3) Ibid : pp. 288, 289, 290.

very little. And when the Prophet was informed of this miserable result, he told the Muslims: "I am no more than man; when I order you anything respecting religion, receive it, and when I order you anything about the affairs of the world, then am I nothing more than man". Anas is quoted by Moslem as saying that the Prephet added to this statement: "And you know better how to conduct your worldly affairs"; and Talha is again quoted by Moslem as saying that the Prophet also said on the occasion: "This was only an opinion of mine; and I want you not to deplore my assumption." Interpreting the last utterance, Al-Khafagi says it means: "I sought your good, but it proved not to be so; so do not harbour any grudge against me."[1]

Ibn Rushd is quoted by Al-Khafagi as having said in "Al-Tahsil wal Bayan "that although this statement of the Prophet had been reported in different words, the meaning is uniform and not inter-contradictory. Another report quotes the Prophet as having said apologetically: "I am not a cultivator nor an owner of palm-trees". Each reporter, however, had mentioned the words that had been conveyed to him. But by all means, the judgment, or the advice, had not been made through inspiration, as stated by al-Tahawi. Abu al-Waleed recalls that the Prophet had repeatedly reminded that good and evil are decreed by Allah, and that things are done through experience, and as regards the advice of trimming the palm-trees, the Prophet was not to be held responsible for the scarcity of dates because he had never been experienced in this field.[2]

During the life-time of the Prophet and the reign of his successors, it was customary, as reported by Al-Bazzar on the authority of Ibn 'Abbas, that the owners of palm-trees and vine-yards would make discretional estimate of their products of date and grape, while still on trees, to assess the portion of Zakat they had to pay later. This assessment was approved by some jurists and rejected by others on the plea that it was a conjecture; and conjecture might lead to deceit.

In a statement, the Prophet reminds the Muslims again: "I am no more than a mortal. Anything that I have told you about Allah is true and binding, and anything that I have told you out of the exercise of my reasoning may be true and may be wrong."

This statement, Al-Khafagi says, indicates that the Prophet might have erred in a judgment, but to other jurists it does not give this impression, because it was an ordinary utterance, which came out of no reasoning, but of presumption, The statement was made out of his knowlege of worldly affairs; it was neither a result of reasoning, nor a law promulgated, nor a tradition the Muslims were required to follow, Al-Qadi Ayyad comments.

Commenting on the same subject, Al-Khafagi asserts the fact that on certain occasions, the Prophet had exercised his reasoning faculty, and that whenever he did that, he erred not, and that if any, the error was not accepted and was corrected. And

---

(1) Ibid; pp: 284-285.
(2) Ibid; p: 285.

becaues he rejected the Ijma', but for his rejection of transmission. In the second case, the rejecter is not a disbeliever. and as stated in Sharh Al-Tirmidhi, a rejecter of Ijma' is a disbeliever when he is actually denying the fundamental religious obligations, such as the prescribed five daily payers. Some jurists, however, liken he who denys the basic doctrines of the religion to he who rejects what he has already received of these doctrines through transmission[1].

10- Infallibility of prophets and their reasoning in worships

In his book Al-Shifa',[2] Al-Qadi Ayyad talks about the infallibility of the prophets before and after having been entrusted with the delivery of their Messages.

Alluding to the infallibility of the statements of Prophet Mohammad, may Allah's peace and blessing be upon him, he explains that the Muslims at large are agreed that it was decreed by Allah that no error should have crept in what he had received from Him, or through Revelation; this was to be preached intact, without any alteration, deliberately or undeliberately made, and whether the Prophet was in a good or a bad mood, healthy or sick.

Then the author of the book refutes the allegations of those who discredit some doubtful verses and exposes their mis-interpretation of certain verses of the Qur'an and their fabrication of some stories. Then Al-Qadi Ayyad refers to Allah's denouncement of their unproven assertion, by telling them that He has perfected the verses of the Qur'an, and that "We have without doubt sent down the Message, and We will assuredly guard it (from corruption)"[3].

Not only was the Prophet unerring in delivering Allah's Message, but he was also unfailing in his speech either about himself or about others[4]. And in an exclusive part of his book, Al-Qadi makes distinction between what the Prophet had delivered of Allah's Message, which was free of any error or mistake, and the statements he made covering wordly problems[5].

Sometimes the Prophet expressed an opinion on a worldly affair, but the opinion proved later to be futile. But, according to Al-Khafagi, such an uncertain judgment had never been exercised in a legal issue, because legal injunctions and rulings came from Allah, henceforth their infallibility. Any question that had been decided by the Prophet's exercise of reasoning was endorsed by a revelation.

Explaining that the Prophet had sometimes decided a worldly affair contrary to what it should have been, Al-Qadi Ayyad quotes Moslem's story whereby the Prophet advised the Muslims to trim and prune their palm-trees so that the trees could yield a bumper harvest. But when the work was done, and the trees yielded fruit, the friuts were

(1) Fath al-Bari, Commentary of Sahih Al-Bukhari, vol. 12,p. 162 (Sec. Blood-Money).
(2) Commentary by Shehabul Deen al-Khafagi, p.p. 89-91, and onwards, and then pp. 128-132.
(3) Al-Hijr: 9.
(4) Commentary of Shehabuddin al-Khafagi, p.295.
(5) Ibid; p.283.

The mistake made in the case of the prisoners of war, Al-Homam says, was latent in the conviction of the Prophet and of those who were in his company that if the prisoners would have been kept in captivity, they might have converted to Islam, and that if they were ransomed, the proceeds would help them go on the struggle. They did not know that to kill them would have allowed Islam to triumph and at the same time terrorise and weaken their fellowmen.

Talking about the beliefs, Al-Homam says that whoever exercises reasoning in the doctrines of Islam, which are well-known even by women and young children, such as the obligation of prayer, Zakat, fast, Hajj, and the prohibition of adultry, homicide, drinking of intoxicants, theft, and disrecognition of the value of the Qur'an, is nothing but a disbeliever.

Reasoning in these cardinal doctrines is erroneous, because in such a case Ijtihad lacks one of its important requisites, that it should be exercised theoretically, over a question which is not basic or unestablished. Those who deny a question not pertaining to the obligatory duties, disapproving for instance the acceptance of Ijma', consensus of opinion, the individual report and Qiyas, analogical reasoning, are sinners. As to those who do not deny the obligatory duties, but the ordinances reached through Ijtihad, a Mujtahid in them is not a sinner, provided that there is no conclusive provision on a decision reached by Ijma' which is contrary to his judgment. The Companions were all agreed to this point of view because they themselves differed in judgment over such issues in which they used their reasoning faculties. One of these opinions might have been wrong, and no-one of the Companions had been branded as a sinner as a result of his wrong decision. Had such a thing happened, it should had been known to everyone due to the gravity of the accusation. Cases which constituted a difference-matter since the days of the Companions till the end of the time of Mujthids are numberless.(1)

The viewpoint of Al-Kamal ibn al-Homam is endorsed by the statement made by 'Abdullah ibn Mas'ud, may Allah be pleased with him, already reported in Fath al-Bari, commenting on Sahih Al-Bukhari. Ibn Mas'ud quotes the Prophet as having said: "A Muslim who bears witness that there is no god but Allah and that I am the Messenger of Allah, is not to be killed except in three cases: in retaliation for his killing a human-being; the adulterer widow and the apostate, deviating from the path of the community."

Ibn Daqiq al-'Abd is quoted by Al-Hafez ibn Hajar as describing a diviatist as he who rejects Ijma'. He who so behaves is not a believer.

But not in all the cases should the rejection of Ijma' be considered disbelief. Some people were so branded; and this is very grave, because decisions taken by Ijma' might had been transmitted from one generation to another, tracing them back to the Legislator Himself, as it is the case with the obligation of prayer. Some other times, the Ijma' decisions are not transmitted. In the first case, the rejecter is a disbeliever, not

---

(1) Al-Tahreer, by Al-Kamal ibn Al-Homam, pp. 529-531.

when I am ill, it is He who cures me."[1]

In his book (Al-Tahreer), Al-Kamal ibn al-Homam states that according to most of the jurists, the Prophet was ordered to use his reasoning faculty freely in legal ordinances and issues, and that he, moreover, was allowed to resort to Ijtihad in questions of war and ordinary life affairs. Al-Homam points out that this is the opinion of the majority of jurisprudents and Traditionalists. And in this question he seeks support to his point of view in Allah's saying: "God give thee grace; why didst thou grant them exemption". Had the Prophet's action, Al-Homam comments, been inspired by Allah, there must not have been such a censure.

To Al-Homam, the Prophet's statement he made when ransom was taken from the prisoners of war that, "if punishment comes down from the heavens, no-one would be spared except 'Umar"[2], indicates that this ransom was taken through Ijtihad, and that it was a great mistake. Alluding to the dictum that a Mujtahid, exercising reasoning, who might have made a mistake in judgment, would receive one reward for his endeavoure, Al-Homam opines that this is true if the reasoning had not taken another eourse; and this is what will happen to the heretics. And the opinion that these people had done nothing more than exercising judgment, thus deserving a reward, is refuted by the fact that their reasoning was exercised in questions about which there are clear provisions in the Qur'an and in the Sunnah.

According to Al-Homam, the Prophet is known to have exercised reasoning in ordinances. This appears in the Prophet's action of pulling an offering for sacrifice to the Ka'bah. His admission that had he known anything about this question before denotes that his action was done not through inspiration otherwise he should not certainly had done it. Here, the Prophet used his reasoning faculty in an ordinance, because pulling a sacrificial animal is commendable. Al-Homam adds that whenever the Prophet used his reasoning faculty, and made a mistake, his mistake had never been approved. The probability of erring by the Prophet in exercising reasoning is an indication that man's reasoning, whatever intelligent and gifted he might be, is prone to mistaking, and that, of course, is contrary to inspiration, Al-Homam says.

Al-Homam also says that those who rule that there are no mistakes in the Prophet's Ijtihad and interpret the two verses: "God gives thee grace; why didst thou grant them exemption"[3] and "It is not fitting for an Apostle that he should have prisoners of war",[4] in a way that perturbs the rhetoric and apt use of the language of the Qur'an is a matter unbecoming of jurists and scholars who exaggerate in elevating the status of prophets, because any mistake in exercising their judgment never degrades their high position. But to upset the rhetoric of the Qur'an is very grave, and is an action that no Muslim dares to do.

---

(1) Al-Shu'ara'; 80.
(2) Al Milal wal Ahwa wal Nihal, by Ibn Hazm; vol. 4, p.22., who had described the statement as unauthentic.
(3) Al-Tauba: 43.
(4) Al-Anfal: 67.

station is untrue, because the exercise of reasoning was carried out by his permission. It was done in obedience, not in disobedience, to his instructions.

And to say that whenever the Prophet's Companions approached him when a new eventuality took place, an action treating Ijtihad as unallowable, this could be refuted by stating that the Companions sought his decision only when they saw no scope for Ijtihad, or reached two decisions on a certain case and wanted him to give the decisive say. If two verdicts were reached on a particular case, the approach of the Prophet was another course; and this course was of course stronger in authority than Ijtihad or any other method.

They also allege that the verdicts reached through Ijtithad were made in individual cases, binding not the conclusive issues, lacking the nature of being an authority. This is true and denotes clearly that Ijtihad had really been exercised by some of the contemporaries of the Prophet, and not by all that had lived at the time.[1]

9- The question of Ijtihad was discussed by al-Shawkani[2] who made comparison between those who exercised reasoning in the presence of the Prophet, upon his order, and those who were far from him.

Al-Shawkani approved the exercise of reasoning by the Prophet and refuted the allegations of those who were opposed to it, and citing specimens of the Prophet's reasoning. Al-Skawkani particularised the question of pulling the offering of animal to the Ka'bah and that of the prisoners of Badr and of Zaid's wife.[3]

This question was discussed also by Ibn Khaldoun, dealing with it from the angle of the Prophet's view on illnesses and their treatment. The endeavoures by the Prophet in this regard, according to Ibn Khaldoun, were made not by inspiration, but by practice, inherited from the elders. Some of these practices came true, but not on the basis of a natural law. The Arabs, Ibn Khaldoun goes on to say, were clever in this sort of medical treatment; and they had physicians of repute, such as Al-Hareth ibn Kildah[4]

Reasoning exercised by the Prophet in ordinary cases was made following the practices of the time; it was not in the legal issues that he was instructed to deliver to people. This is evidenced in his advice to his people to trim and prune palm-leaves, after which the trees produced no dates. Here, the Prophet felt apologetic, saying to the people, "You know better how to conduct your worldly affairs".

Many a time, the Prophet would direct some of his Companions to consult with Al-Hareth bin Kildah, who had experience in medicament.[5].

This shows that the Muslims are not required to abide by the Prophet's directions in non-religious matters, such as medication, unless it is done to invoke his blessing, with full submission to Allah, and with the conviction that healing comes from Him, "And

---

(1) Cf. Al-Mustasfa, of Al Ghazali: vol. 2, pp. 354-355, and Fawateh al-Rahamut: Vol. 2. pp: 374, 375, 376.
(2) Irshad al-Fuhul; pp. 326-327.
(3) Ibid: pp 325-326.
(4) Prolegamena of Ibn Khaldoun. pp. 419-420.
(5) Zadul Ma'ad, by Ibn al-Qayyem; vol.3, p.93.

away from the Prophet. Some of this group approved that this right could have also been extended to others.

The second category accepted the Companions' Ijtihad to be absolute, provided there was no opposition to any of their verdicts. Some of this group opined that an opposing view was not enough to invalidate a verdict; the Compamions must have been permitted to exercise reasoning. Still, others of this group opined that if judgment was exercised, and no-one disapproved the act, the judgment was valid.

The third party had its different view only over the exercise of reasoning in issues pertaining to worships.

Some agreed that this was acceptable while others, including Al-Gaba'i, disapproved it categorically. Some of this group, including Qadi Abdel Jabbar, held the view that this right was to be given only to those who were present in the company of the Prophet. But it is preferable that a judgment by a Companion should be accepted whether it was passed in the presence or in the absence of the Prophet.

When the Prophet was allowed by Allah to use his judgment and to exercise reasoning based on analogy, the right was not confined to the Prophet alone, but given to others too.[1]

This right was exercised in the presence of the Prophet. When Abu Qatadah killed a disbeliever and took all that he carried on him as a booty, he was told by Abu Bakr: Do not do the same with anyone who might be struggling in the way of Allah and His Messenger in quest of booty. The Prophet, in whose presence the two men were sitting, commented. "Abu Bakr is correct. He is correct in his judgment." And this judgment was reached by using his reasoning faculty.

It is reported that when Sa'ad ibn Ma'az was appointed by the Prophet an arbitrator to Banu Qurayzah, he ordered that they be killed, and their families captured. The Prophet approved the verdict, saying: "You passed a judgment in accordance with Allah's judgment, coming from seven heavens."

The Prophet is again reported as having ordered Amr ibn al-Aas and 'Uqbah ibn 'Amer al-Johani to decide a dispute which arose between two adversaries, telling them: "If you would pass a correct judgment, you will be granted ten rewards, and if you make a wrong judgment, you will have only one reward."

As to the Prophet's approval of judgment in his absence, the story of Mu'az and 'Uttab ibn Usaid, who were delegated to Yemen as judges, stands as a good proof.

Some jurists describe as abomination and unaccepted the exercise of reasoning in the life-time of the Prophet, because at that time all the directions made in the Qur'an were available and the Prophet himself was there to consult. A Mujtahed at that time had no right then to use his reasoning faculty. This allegation is refuted by the fact that the same faculty was exercised by the Prophet.

To say that Ijtihad in the presence of the Prophet was an encroachment upon his

(1) **Al-Ahkam fi Usul Al-Ahkam, by Al-Amidi; p. 222.**

been resorted to unless when such a provision was withheld.[1]

The statement that Ijtihad is weaker in authority than a revelation and therefore should not be resorted to is rejected, firstly because the Prophet had actually used reasoning, and, secondly, because a revelation was not to come at will. Ijtihad by the Prophet was not dissimilar to that of the advocates of Ijma', consensus of opinion. It was prone to error. Ijtihad is not to be resorted to unless there is no relevant provision in hand. And since it is an established fact that the Prophet's Companions, may Allah be pleased with them all, had exercised reasoning during the life-time of the Prophet, how then it should come that he himself should be denied this right regarding issues pertaining to worships?[2].

Whenever the Prophet erred in a judgment, this judgment had immediately been corrected by a revelation, and in such a case, the Prophet's reasoning was considered an extension of the revelation; and this is the Ijtihed that the Hanafite system calls the "Inner Revelation", a particular gift that endows man to make good judgment[3].

If a Mujtahid gives preponderance to a certain verdict, the verdict, to him, is correct and conclusive. An example of this is the evidence given by witnesses. In passing a judgment on the strength of such witness, a judge is correct and fair, although the witnesses appeared later to have not been truthful in their testimony. When the Prophet decided a case depending on the evidence of two persons about whom he knew no transgression of Divine commands, he was correct in passing his judgment, althongh the testimony of these two same persons, in another case, was rejected by another judge because he knew that they were really transgressing Allah's commands. Divergence of verdict by the Prophet appears in other cases, such as that concerning his advice to trim and prune palm-leaves; prayer to Allah in favour of someone else; and other worldly affairs.

8. The exercise of judgment by the Companions during the life-time of the Prophet was a question that had been discussed comprehensively by the jurists and scholars of the principles of jurisprudence.

In his book "Al-Ahkam fi Usul Al-Ahkam,"[4] Al-Amidi states that the Ulemas had maintained different views as to the permissibility of Ijtihad by the Prophet's Companions. Most of the Ulemas approved it, while it was disapproved only by a quite few of them.

Even those who approved Ijtihad as exercised by the Companions during the Propbet's life-time had also differed in opinion. They fall under three categories;

One body approved the exercise of reasoning only by judges and agents who were

---

(1) Al-Ahkam fi Usul al Ahkam, by al-Amidi; vol. 4,p 233.

(2) Ibid: pp. 234-235. And also "Al-Jami' li Ahkam al Qur'an," by Al-Qurtubi; vol. 11,p. 250 (Section: Interpretation of verse 114, of Surat Taha: "Be not in haste with the Qur'an before its revelation to thee is completed".

(3) Fawateh al-Rahamut, vol. 2,pp. 370-371; and also Al-Mustasfa of Al-Ghazali (Section: Advice).

(4) Vol 4, pp. 235-238 (Egyptian State Library edition).

use his reasoning faculty, because, unlike anyone else, he is well aware of the targets and objectives of Shariat and of cases of simile.

It is also argued that if Ijtihad is allowed to one who might err and continue to err. how it could be then that a man who scarcely errs, and his error is corrected by Divine Revelation, be denied the right to exercise his judgment.

Ijtihad enhances thinking, and for this reason, the Prophet, and all other Prophets, could not have been denied this privilege, because no-one of them had been exempted by Allah from the fulfillment of the obligations that cultivate men's souls, give them impetus and sharpen their minds.

Not only had the Prophet himself exersisted his reasoning in certain questions, but he had also permitted his Companions to do the same. And as such, his entitlement or non-entitlement to exercise Ijtihad is out of question, because he had actually done this either in deeds or in words.

7- Following is a refutation of the allegations made by those apposed to Itihad by the Prophet:

Seeking support to their opinion in this Qur'anic verse: "Not does he say (aught) of (his own) desire; it is no less than inspiration sent down to him"(1) is a perversion.

The verse tells that whatever is produced by the Prophet is nothing but inspiration from his Lord. The second part of the verse is clear in implying that it is the Qur'an that is being involved, because had the implication was in general matters, all the words uttered by the Prophet should had been nothing but inspiration from Allah. And in such a case, these words, and all the speech of the Prophet, should had been infallible; this is not true, because in more than one Qur'anic verse, the Prophet was censured by Allah on certain occasions. This verse under discussion can never be taken as hindering the Prophet from exercising his judgment. If the Prophet was allowed by the Legislator to use his reasoning in worships, the verdict pronounced by him in such a case was certainly that of Allah.

It is true that on certain occasions the Prophet had waited for inspiration to come to him concerning certain issues. These were cases which were either beyond the scope of Ijtihad, or needed further explanation that could not have been obtained except through inspiration. Never had the Prophet waited for inspiration concerning eases the verdicts for which had easily been passed after exercising reasoning. This is evident from the various judgments and rulings he had laid down.(2)

In taking time to give a verdict on a certain case the Prophet might have remained busy in reviewing the case referred to him and in forming an idea about it. However, Ijtihad in religious issues can never be limited by time. The Prophet might have also waited, looking forward to a provision in which no exercise of reasoning could not had

---

(1) Al-Najm: 2-3

(2) Specimens of the Prophet's judgments and decisions will be provided later.

The Muslims rejoiced over the Revelation and the Prophet took hold of the camels and the two men captured during the battle.[1]

Another example is the story of the inheritanre of the two daughters of Saad ibn al-Rab'i. Their mother complained to the Prophet that their uncle had usurped the whole legacy of their father. In answer, the Prophet said: "Let me wait for Allah's verdict in this case", and Allah's revelation came afterwrads thus: "God directs you as regards your children's (inheritance)" (verse conerning Inberitances".[2]

Another example is this: One day, Khawalah, daughter of Tha'labah, came to the Prophet with a complaint that her husband had selfishly deprived her of her conjugal rights and yet kept her tied to himself, pronouncing words importing that she was to be treated by him as being like his mother. The woman asked the Prophet for a solution to her distress. He replied: "I have not so far received a verdict on such a question. But I think you no longer are considered his wife." The revelation came after a while. "God has indeed heard (and accepted) the statement of the woman who pleads with thee concerning her husband...."[3].

The group apposed to Ijtihad holds the view that Ijtihad is less than Revelation in weight. While an error may occur in Ijtihad, no such occurs in a revelation, because revelation came from Allah. Drawing support from the stronger is evidently better than drawing it from a breakable source.

As to those favouring the Prophet's exercise of Ijtihad, they, too, have their arguments.

The Prophet is told by Allah: "We have sent down to thee the Book in truth that thou mightest judge between men as guided by god".[4] By this verse, this body of jurists, including Abu Yusuf, says the Prophet was authorised to decide cases by his reasoning faculty;[5] and this view is supported again by a statement made by Umm Salamah, may Allah be pleased with her, who quoted the Prophet as having said: "I will judge between you in that no relevant verdict is given in the Qur'an".[6].

The phrase "as guided by God" in the above-mentioned verse may signify "as taught by God", which, in turn, means that "you will judge between men as being taught by Allah", and this, of course, includes Ijtihad. But this verse, in fact, does not expressly indicate whether Ijtihad is allowed or not, but by all means it does not prohibit it.

The order of Allah in this verse: "Take warning, then, O, ye with eyes (to see)"[7], as well as in other verses, appeal to man to reflect, to resort to analogical deduction and to attend in all cases to the public interest. The order extends to the Prophet as well as to others. The Prophet, no doubt, is more deserving than anyone else to be authorised to

(1) Al-Khafagi's commentary of "Al-Shifa" of al-Qadi Ayyad, vol.4, pp.208-209.
(2) Al-Nisal: 11.
(3) Al-Mujadilah (The Woman Who Pleads): 1 and onwards.
(4) Al-Nisa': 105.
(5) Moslem al-Thobut, commentary of Fawateh al-Rahamut; vol. 2,p. 268.
(6) Al-Mustasfa, by al-Ghazali; vol.3, p. 255 (Section: Opposition to Qiyas).
(7) Al-Hashr (The Gathering): 2.

stronger proofs of either sides. Expressing this feeling, the Prophet would say: "I am a mortal. You bring cases before me for my decision, and one of you may tender better proofs than the other, and I decide it accordingly on his evidence; but to whom in whose favour I give judgment concerning any of the rights of his brother, let him not take of it, for I only cut off for him a piece of fire".[1]

Secondly: the Prophet had to be aware of the legal ordinance that would deterimine the case under hearing. If the verdict is provided by Allah's Book, then the case is decided, since Allah's verdicts are final; and in such a case there was no need for his exercise of reasoning or for deducing a verdict.

But had the Prophet to use his reasoning faculty to reach a solution to a case the verdict of which was not cited in the Qur'an?

Over this question the Muslim Ulemas are divided into two groups, one in favour, and the other is not.

The Ash' arites, followers of Abu Moussa al-Ash'ari, and a large number of the Mu'tazilas, are of the opinion that the Prophet had not to use his reasoning faculty in any question to which there is no direction in the Qur'an. And they have their own arguments.

In the Qur'an Allah assures: "Nor does he (Prophet) say (aught) of (his own) desire: it is no less than inspiration sent down to him".[2]

Here, Allah disapproves that the Prophet should speak out of a desire and tells that all that was uttered by bim was inspired by Allah. Had he been allowed to exercise his judgment, hardly could all his utterances been described as inspired by God.

This group is also of the view that had the Prophet been allowed to use his reasoning faculty, he should not have waited on certain occasions for the inspiration to come to him with answers to questions put to him by inquirers. It is established that he had indeed waited on certain accasions for the inspiration to come down to him with replies to a number of various problems.

A number of men were sent by the Prophet to get information about the Quraish tribe. These men engaged in fighting with the Quraishites during a sacred month, without the Prophet's permission. They took spoils and captives from among the enemy. And when the Prophet was asked about fighting during a sacred month, he did not say anything about seizing the spoils and capturing captives, protesting only that he had never ordered them to engage in fighting during a sacred month. Here, this verse was revealed: "They ask thee concerning fighting in the Prohibited Month; say: Fighting therein is a grave (offence), but graver is it in the sight of God to prevent access to the path of God, to deny Him, to prevent access to the Sacred Mosque and drive out its members. Tumult and oppression are worse than slaughter".[3]

---

(1) Abu Dawoud and Al-Shawkani in "Nayl al-Awtar". vol. 8,p. 278. This Hadith is considered an endorsement to the theory that a judge must not decide a case by his personal knowledge of facts.
(2) Al-Najm; 3-4.
(3) Al-Baqarah: 217.

example is the judgment that treats usury as lawful, being similar to a sale transaction, simply because the two processes are finalised by an agreement of the two contracting parties, in the interest of both. Another example is the verdict equalising a dead to a slaugbtered beast, simply because both of them have already breathed their last. Wine is made lawful, exactly as water, since both are fluids. And this is exactly what this group identify as reasoning based on analogy.[1]

But approved is the reasoning, exercised in equity and truthfulness, in a process of deduction by which the law of a text is applied to cases which are governed by the reason of the text. This type of reasoning is that which is exercised not to serve a particular end, but the whole mankind, as urged by Islam and as manifest in Allah's saying: "We sent aforetime Our Apostles with clear signs and sent down with them the Book and the Balance (of Right and Wrong) that may stand forth in justice."[2]

It is something totally disapproved and disliked if ignorant and selfish people were to decide matters according to their hearts and desires. Allah states: "If truth had been in accord with their desires, truly the heavens and the earth, and all beings therein, would have been in confusion and corruption."[3]

6- Exereise of judgment by the Prophet

The exercise of the reasoning faculty in certain religious matters by the Prophet and later on by the Wise Caliphs is taken by those who allow Ijtihad a proof that this faculty should be used in matters to which there is direetion neither in the Qur'an nor in the Sunnah.

And as difference of opinion had arisen among the jurists as to whether Ijtihad is permissible or not, another difference arose as to whether or not the Prophet had really exercised his reasoning in certain matters.

The Qur'an was revealed by Allah to the Prophet who was instructed to judge among people by what has already been revealed to him. Allah says: "To thee We sent the Scripture in truth, confirming the Scripture that came before it, and guarding it in safety; so judge between them by what God hath revealed, and follow not their vain desires, diverging from the Truth that hath come to thee"[4].

And according to this instruction, the Prophet had to decide people's disputes and also to explain to them Allah's ordinances.

To discharge this duty, the Prophet, like any other judge or jurisconsult, was in need of two things to enable him pass judgment:

Firstly: to understand fully the case referred to him for decision by finding out the facts of the case from the evidences advanced by the litigants. In listening to such evidences, the Prophet, as any other human-being, might had easily been influenced by

---

(1) A'lam al-Muwaq'in ; vol.1, pp. 175-177.
(2) Al-Hadid : 25.
(3) Al-Mu'minoun: 71.
(4) Al-Ma'idah: 48.

that are on earth,"[1]. is accepted only in verdicts reached by reasoning, not contradicting other verdicts provided by the Qur'an and the Sunnah on a similar issue. on condition that the verdict does not come out of causes specified in these two sources. This is applied in case of "Qiyas", analogical reasoning, and "Istishab", application of a legal ruling to a new similar case, to which there is no direction neither in the Quran nor in the Sunnah, Ijma' or Qiyas, drawn from the usages and practices of people. But if the cause of the two verdicts is identical, the effect must certainly be also so.

Allah's order: "Ask not questions about things which, if made plain to you, may cause you trouble",[2] was an answer to a question allowing no exercise of reasoning, lest religious obligations might have been multiplied. The Prophet was asked by the Muslims: "Should Hajj (Pilgrimage to Makkah) be performed yearly?" and in reply, he said: "If I reply in the affirmative, the Hajj is to be performed yearly. Do not ask me of anything that I had not told you of before. Peoples before you were annihilated because they pressed their prophets with their repeated and numerous questions." The Prophet would say: "The most guilty among the Muslims is he who asks about something which had not been made unlawful to men, but has later been made so due to his repeated questions."[3]

c- It was explained earlier [4] that Allah's saying: "If ye differ in anything among yourselves, refer it to God and His Apostle" is an evidence favouring those who allow exercise of reasoning. And in Allah's saying: "We have sent down to thee the Book in truth that thou mightest judge between men as guided by God,"[5] there was a direction to the Prophet to judge among people by what he was taught by Allah, including, probably, exertion of effort to reach a judgment to which there was no direction in the Qur'an. This point will be explained later.[6].

d-The allegation that the Prophet and his Companions were against the exercise of reasoning is refutel by the fact that the Prophet himself had used his reasoning faculty in certain matters, and that he had allowed, and approved, this effort to be made by his Companions, either during his life-time, or after his death.

As the jurists had decided, certain religious issues allow no reasoning to be exercised.

Reasoning is disapproved if it disregards the general rules of Shariat. Such a reasoning may make something unlawful lawful, and vice versa. It may seek the achievement of a goal which is not aimed at by the legislator, or the application of a verdict on a certain question to another, though the cause of one case is different from that of the other. This is described by theologians as reasoning based on analogy. An

---

(1) Al-Baqarah: 29.

(2) Al-Ma'idah: 101.

(3) A'lam al-Mumaq'in, by Ibn al-Qayyam; vol. 1,p.58

(4) See Section 4 of this study.

(5) Al-Nisa': 105.

(6) See Para 6, passage "B", dealing with the view of the majority of Muslim jurists on the exercise of judgment by the Prophet.

5- No suppont is given to the views of the opposition to Ijtihad.

a- The Qur'anic verses which they claim to be all-embracing, covering all the present and the future events and circumstances, are not so comprehensive These verses indicate that the Qur'an comprises the common articles of faith, "Usul", which are required to be adopted by man to enable him to lead a good life either in this world or in the Next.

The value of reason is expressly recognised in the Qur'an and the Sunnah, and both are appealing to reason again and again, and are full of exhortations, so that action should be taken to preserve and guard the interests the Legislator aims to protect. Had this party been correct in its views, neither the Prophet nor any of his Companions could have exercised reasoning in matters to which there are no direction. The Prophet did exercise his judgment, and so were his Companions, even during his life-time. (1) After the Prophet's death, the principle of Ijtihad obtained a wider revalence and the Companions exercised it on a large scale.

They exercised reasoning in the question of electing Abu Bakr to succeed the Prophet in leading the Muslims as Caliph, and later in the appointment of 'Umar ibn al-Khattab as Caliph by Abu Bakr and also in reducing the Qur'an to writing and their unanimity to go on the work after exhausting deliberations on the subject. The Companions had also exercised reasoning in the question of distributing charity funds to the needy among the Muhajirin and others. Abu Bakr was of the opinion that the Muhajirin and others should receive equal shares, but 'Umar gave prepondrance to the Muhajirin, protesting: "How can we equalise between those who left their homes and property behind and emigrated to the Prophet and those who converted to Islam unvoluntarily?"

The reply came from Abu Bakr: "But they subdued themselves to Allah; and it is Allah that will reward them. This worldly life is nothing but a transit to the Next life, and the Muhajirin have not any coveted object in this world."

But when 'Umar took over as Caliph, after the death of Abu Bakr, he enforced his point of view.

The Companions, moreover, also exercised reasoning in the punishment imposed by Allah on drinking of intoxicants. To 'Ali, may Allah be pleased with him, "Whoever drinks wine is equal to that who accuses a chaste woman of fornication. The former, I think, is to receive the same penalty as of the latter". To him, drinking of wine was equal to defamation.

The Companions, however, were unanimously agreed on some cases and differed in opinion over some others. Had there been direction to the case referred to them in the Qur'an or in the Sunnah, they should not have exercised judgment or differed in opinion.

b- The argument made by this group that any issue, without any direction, is to remain free to practise because Allah says: "It is He who hath created for you all things

(1) A'lam al-Muwaq'in, vol. 1, p.51.

Mu'az, saying: "Praise be to Allah Who guides the messenger of His Apostle as He pleases."[1]

'Ali ibn Abi Taleb is quoted by Sa'id al-Musayyeb as having said: "I once asked the Messenger of Allah as to what happens when no direction to a particular issue is found in the Qur'an or in the Sunnah. The Prophet said: "Gather the most learned men and consult with them; do not accept a verdict made only by one man"[2] Another version of the Hadith places "the worshippers among the faithful "in place of "the most learned men."

This Hadith was narrated by Malek, and it is described as "Gharib". "strange" or "unfamiliar".

Some of the transmitters of this Hadith do not consider it as an authority. But it is true and trust-telling because it urges on resorting to "Shura", consultation, on important issues, on one hand, and, on the other, is endorsed by Allah's commands and the speech and deeds of the Prophet and the Companions who appeared afterwards.

The phraseology of the Hadith gives, "the most learned men" prepondrance over "the worshippers". A meeting held for consultation to reach a decision on a particular case of interest to people is more effective and fruitful if it is attended by scholars and thinkers rather than worshippers who usually have no interest in people's public affairs. These worshippers might be desired to lead prayers, but are sometimes denied the right to give evidence before a judge. The Imam Malek is quoted as having said: "I have many friends in Madinah whom I like to invite to lead a prayer, but I never accept their evidences".

Alluding to the afore-mentioned report of Mu'az. Al-Ghazali says:[3] "The statement was favourably received by the people. No-one has attacked or denounced it. It is not to be degraded for being "Mursal", the name of its transmitter is missing from the end. It must be taken even without tracing it back through transmitters."

Thirdly: Islam is decreed by Allah to be the last of all religions and He perfected it so as to be fit and applicable at all times and all places. The Qur'anic verses dealing with Shariat, the Islamic Law, are few in number, and since new vistas were opened in life and new circumstances and developments are taking place in the realm of man, the need of restoring to Ijtihad became greater, following the increasing and pressing issues facing man; and analogical deduction had to be carried out to meet the prevailing circumstances and to make the Shariat adapted to them. And this comes out of sound thinking, because had this work not been accomplished, the Shariat would have obviously lost its validity and become static.

The trend of this group of advocates of Ijihad is supported by the fact that the Prophet himself had exercised his judgment in numerous cases. He had also permitted his Companions to exercise reasoning.

(1) Abu Dawoud; vol. 2,p. 116. Al-Tirmidhi; vol. 6,p. 616. Al-Darimi. in his "Sunan", p.34.
(2) A'lam al-Muwaq'in; vol, 1, pp.53-54. Al-Tabarani; vol. 1,p. 178.
(3) Al-Mustasfa, vol; 2,p. 254. A'lam al-Muwaq'in; vol. 1,p. 243.

when he will face Allah". Again, 'Ali ibn Abi Taleb, may Allah be pleased with him, says: "If the religion is defined and determined by Ijtihad, the sole of a slipper becomes more deserving to be cleansed than its upper part".

Ibn Mas'ud, may Allah be pleased with him, also says: "If your jurists and scholars are overstepped and the people accept the exercise of judgment by ignorant leaders, in religious affairs, then Islam will be blunt and vanquish".

Ibn 'Abbas, may Allah be pleased with him, says: "It is the Book of Allah and the Sunnah of His Messenger that we have to resort to. If anyone forms an opinion, overlooking these two sources, his action is not known whether it would be added to his credit or to his sins".

'Abdullah ibn 'Umar, may Allah be pleased with him, also says: "Knowledge is drawn from three sources: the ever-existing Book of Allah; the eternal Sunnah of the Prophet; and something that I do not know what is it".[1]

4- Those who recognise Ijtihad, and make it in certain cases incumbent, have also their own arguments, of which are the following:[2]

Firstly: Allah says: "O, ye who believe; Obey God, and obey the Apostle and those charged with authority among you. If ye differ in anything among yourselves, refer it to God and His Apostle."[3] To obey Allah, as rightly understood, is to abide by the Qur'an and the Sunnah. Reference of a matter to these two sources, when a dispute arises, is a warning against following personal desires and is a call to man to go through the Qur'an and the Sunnah trying to find out the texts that might have been obscured or overlooked by him. It also means the necessity of applying the general rules by reasoning based on analogy, or of the search for the objectives the legislator aimed to achieve by promulgating his general laws. All these methods fall under the category of referring matters to Allah and to His Apostle.[4].

Had the meaning of referring a disputed issue to the Qur'an and the Sunnab been the same as that implied in the order to obey Allah and His Messenger, the statement would had then been a meaningless repetition of words of which the Qur'an is clear.

Secondly: The following Hadith is regarded as a basis of Ijtihad in Islam. On being appointed Governor of Yemen, Mu'az ibn Jabal, may Allah be pleased with bim, was asked by the Holy Prophet as to the rule by which he would abide. He replied; "By the law of the Qur'an". "But if you do not find any direction therein", asked the Prophet. "Then I will act according to the Sunnab of the Prophet", was the reply. "But if you do not find any direction in the Sunnab", he was asked again. "Then I will exercise my judgment and act on that", came the reply. The Prophet smote upon the breast of

---

(1) Ibid: pp. 46-48. Also. "Muftah al-Jannah", of Jalaluddin al-Siyuti, quoting many books of Sunnah.
(2) Al-Mustasfa, of al-Ghazali; Vol. 2, pp. 241-244. Also: A'lam al-Muwaq'in, of Ibn al-Qayyem; Vol. 1, p. 175.
(3) Al-Nisa': 59.
(4) Al-Jam'i li Ahkam al-Qur'an, by al-Qurtubi; vol. 5, pp. 259-263 (Section: Interpretation of verse 59 of Surat Al-Nisa').

Firstly: The Qur'an and the Sunnah provide all the religious verdicts that man requires to conduct his affairs, and as such, there is no need to resort to analogical reasoning or any other course.

The advocates of this opinion seek support from this Our'anic verse: "And We have sent down to thee the Book explaining all things."[1]

In another verse Allah says: "Nothing have We omitted from the Book, and they (all) shall be gathered to their Lord in the end"[2]

This group also maintains that any question to which no direction is found in the Qur'an and the Sunnah must be treated on the basis of "Ibaha Asliyah", that all things are allowed unless there was restriction. In this argument, this body of jurists are seeking support from many Qur'anic verses. Allah says: "It is He Who hath created for you all things that are on earth[3]" He also says: "O,ye who believe: ask not questions about things which if made plain to you may cause you trouble. But if ye ask about things when the Qur'an is being revealed, they will be made plain to you. God will forgive those, for God is Oft-forgiving, Most forbearing".[4]

Secondly: Some verses of the Qur'an disapprove Ijtihad. Allah says: "If ye differ in anything among yourselves, refer to God and His Apostle."[5] Issues must not be settled according to personal judgment. Allah says: "We have sent down to them the Book in truth that thou mightest judge between men as guided by God; so be not (used) as an advocate by those who betray their trust"[6] Here, Allah did not add "and also as guided by you".

The Prophet is quoted by Malek al-Ashga'i as having said: "My nation shall be divided into some seventy creeds, the most defiant of which is that which subjects the religion to their own judgment, making what Allah has made lawful unlawful, and the unlawful lawful"[7].

Thirdly: A large number of the Prophet's Companions are reported to have denounced the exercise of reasoning in religious matters and disapproved treating it as an authority.

'Umar ibn al-Khattab, may Allab be pleased with him, would say: "Keep yourselves away from those who exercise their own judgment; they are hostile to the Traditions of the Prophet. Only when they failed to understand them would they resort to Ijtihad. They are misled and also misleading". Ibn 'Abbas, may Allah be pleased with him, also says: "Whoever forms an opinion to which there is no direction either in Allah's Book or in the Prophet's Sunnah shall not be able to determine his attitude towards them

(1) Al-Nahl: 89.

(2) Al-An'am: 38. It should be noticed that the term "Book" here, as Al-Qurtubi says in his commentary of the Qur'an, vol.,6 p.420, means either "Tablet Preserved" or "The Qur'an".

(3) Al-Baqarah: 29.

(4) Al-Ma'idah: 101.

(5) Al-Nisa': 59.

(6) Ibid: 105.

(7) "A'lam al-Muwaq'in"; by Ibn al-Qayyem; vol, 1,pp. 44-45-198.

status. The last of these Messages is that of Mohammad, the Right Religion, after which mankind is in no need for any other Revelation. The religion of Islam is all-embracing, healer of people's illnesses and fit to be applied at all times and all places. And to be eternal, this Message has to meet all peoples' requirements; and the relevant rulings and injunctions are presented by Allah's Book, the Qur'an, and elucidated by the deeds, the speech and the wisdom of the Prophet. Allah says: "And We have sent down unto thee (also) the Message that thou mayest explain clearly to men what is sent for them and that they may give thought."(1)

And to make this research comprehensive, the Ijtihad, the exercise of reasoning, by various jurists in various religious domains, should be reviewed in order that we be able to cast a light on the Ijtihad, the rulings and decisions made by the Prophet.

1- Ijtihad

In the Arabic terminology the word Ijtihad means "exerting oneself to the utmost" or" to the best of one's ability"; and in the legal application it means "exerting the faculties of mind to the utmost for the purpose of an analogical deduction of a legal decision from a conclusive argument."

Ijtihad, according to jurists, is exercised when no direction to the issue in question is found neither in the Qur'an nor in the Sunnah. Ijtihad is also exercised in inconclusive arguments as well as in the objectives the legislator sought to reach in formulating conclusive issues allowing exercise of judgment.

2-Recognition of the value of Ijtihad

Jurists do not differ over the need for Ijtihat if it is exercised in the establishment, the explanation, the generalisation and the particularisation of religious texts, or in the related matters concerning their inclusion or exclusion from these texts.

But the jurists differ in opinion over reasoning made to reach a legal verdict on an issue to which there is no direction neither in the Qur'an nor in the Sunnah.

a. The Shias and a body of the Mu'tazilas of Baghdad, and the "Nizzamiyah", a creed opposed to the Sunnis, and the Phenomenalists are of the view that Ijtihad is not an authority. Some of them even allege that it is disallowed legally. Others go further, claiming that it is absurd and irrational.

b. The majority of Muslims, on the other hand, see that Ijtihad, on the contrary, is allowed legally and rationally and that in emergencies it is incumbent. And this is the view held by the Prophet's Companions, their succeeding followers, the leaders of the four Islamie sects and most of the jurists and scholarly philosophers. Each group has its own supportive views.

3. Those opposed to Ijtihad advance a number of arguments, of which are the following:(2)

---

(1) Surat Al-Nahl: 44.

(2) "Al-Mustasfa", by Al-Ghazali; Vol. 2, pp. 239-240. Also "A'lam al-Muwaq'in", of Ibn al-Qayyem, Vol. 1, p.244

RULINGS AND IJTIHAD BY THE PROPHET

BY: SHAIKH OF AL-AZHAR

THE GRAND IMAM GADUL HAQ ALI GADUL HAQ

Introduction:

Praise be to Allah. May Allah's peace and blessings be upon His Messenger, our Lord Mohammad, and upon his family, his Companions and his followers.

There is no denying that some important aspects of the life of the Messenger have gone out of the heads of a large number of people. These aspects are not discussed by these people out of fear lest they would involve themselves in discussing doubetful issues although the Prophet's life and his Traditions are vulnerable to every one till the Day of Judgment. From the Prophet's deeds and speech the whole of mankind can draw inspiration enabling them to lead a virtuous and perfect life.

Of these sides are his behaviour and conduct, deeds, words and exercise of reasoning in matters pertaining to the private and public life of his nation as well as the rulings and the verdicts he passed on issues which were referred to him for decision.

In this study, the fact that Mohammad was none but a human-being is taken into consideration. He was a mortal, having the mannerism of humans. Allah says: "Say: I am but a man like yourselves, (but) the inspiration has come to me that your God is One God. Whoever expects to meet his Lord, let him work righteousness and, in the worship of his Lord, admit no one as partner."(1)

Mohammad was chosen from his own people to deliver Allah's Message, after having been made immune from the foibles of other human-beings. And the Message is the religion that Allah had chosen for His servants, and, indeed, "The religion before God is Islam."(2)

All the Messages of former Messengers, before Mohammad, preached the worship of the One God and tried to administer justice among people and to lift them to a higher

---

(1) Surat Al-Kahf: 110.

(2) Surat Al-Imran: 19.

ENGLISH SECTION

CONTENTS



IN THE NAME OF ALLAH, THE MERCIFUL, THE BENEFICENT

- O OUR LORD, THE LORD OF ALL THINGS.
  I BEAR WITNESS THAT YOU ALONE ARE THE LORD,
  NO PARTNER HAVE YOU.

- O OUR LORD, THE LORD OF ALL THINGS.
  I BEAR WITNESS THAT MOHAMMAD IS YOUR SLAVE AND
  YOUR MESSENGER.

- O OUR LORD, THE LORD OF ALL THINGS.
  I BEAR WITNESS THAT ALL PEOPLE OF ONE
  ANOTHER ARE BROTHERS.

- O OUR LORD, THE LORD OF ALL THINGS.
  MAKE ME AND MY KINSFOLK DEVOTED TO YOU ALONE,
  IN EVERY HOUR. IN THIS WORLD AND IN THE NEXT.

- O LORD OF GLORY AND HONOUR!
  HEAR AND RESPOND!

- ALLAH IS MOST GREAT, MOST GREAT, THE LIGHT OF
  THE HEAVENS AND THE EARTH.

- ALLAH IS MOST GREAT, MOST GREAT; HE IS SUFFICIENT FOR ME
  AND HE IS AN EXCELLENT GUARDIAN.

- ALLAH IS MOST GREAT, MOST GREAT.

— **From the prayers of the Holy Prophet Mohammad**

MEMORIAL BOOK

FOURTH INTERNATIONAL CONFERENCE ON SEERAT AND SUNNAH & TENTH INTERNATIONAL CONFERENCE OF ACADEMY OF ISLAMIC RESEARCHES

COMPILED BY:
ABDUL WADOUD IBRAHIM SHALABY, PH. D.



CAIRO

SAFAR 1406 A.H. NOV. 1985 A.D.

MEMORIAL BOOK

FOURTH INTERNATIONAL CONFERENCE
ON
SEERAT AND SUNNAH
&
TENTH INTERNATIONAL CONFERENCE
OF ACADEMY OF ISLAMIC RESEARCHES

MEMORIAL BOOK

FOURTH INTERNATIONAL CONFERENCE ON SEERAT AND SUNNAH & TENTH INTERNATIONAL CONFERENCE OF ACADEMY OF ISLAMIC RESEARCHES

UNDER PATRONAGE OF

AL-AZHAR



CAIRO

SAFAR 1406 A.H. NOV. 1985 A.D.